بنات سبأ

رحلة في جنوب الجزيرة العربية

مع ملحق عن النقوش

من إعداد أ.ف.ل. بيستون

تأليف

هاري سانت جون فيلبي

«عبدالله فيلبي»

تعريب

د. يوسف مختار الأمين

مراجعة وتدقيق وتعليق

د. فهد بن عبدالله السماري

د. عمر العمري

عبدالله المنيف

عبدالرحمن الشقير

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فيلبي، هاري سانت جون

بنات سبأ: رحلة في جنوب الجزيرة العربية/ ترجمة يوسف مختار الأمين. - الرياض.

٦٦٦ص، ١٧X٢٤سم

ردمك: ٧-٩٥٤-٢٠-٩٩٦٠

١- السعودية - وصف ورحلات أ- الأمين، يوسف مختار (مترجم) ب- العنوان

ديوي ٩١٥,٣١٠٤ ١٢٥٠/ ٢٢

ردمك: ٧-٩٥٤-٢٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ١٢٥٠/ ٢٢

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ /٢٠٠١م

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩
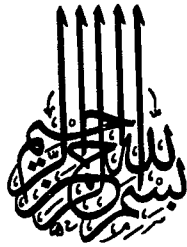
الإهـــداء

إلى أثينا

(P . L)

لقد كانت هناك حسرة شديدة بالجزيرة العربية

وفي سبأ تجلس ابنة ملك تحكم بلا رفيق

غير محبوبة، وبلا زوج

تنهمر الدموع من عينيها

وتمتد أحلامها عبر السهول

****

**

جون فريمان

سليمان وبلقيس

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

قائمة بالأشكال

كلمة الناشر

يطيب لمكتبة العبيكان للنشر والتوزيع أن تقدم للقارئ الكريم سلسلة كتب فيلبي التاريخية ذات العلاقة بتاريخ وجغرافية المملكة العربية السعودية لأول مرة باللغة العربية، وذلك بمناسبة مرور مئة عام على استرداد الملك عبدالعزيز -رحمه الله- الرياض وبداية مسيرة التأسيس التي توجت بتوحيد المملكة العربية السعودية.

وتأتي مشاركة مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع في هذه المناسبة إدراكاً من القائمين عليها بأهمية الدور الثقافي الذي تضطلع به دور النشر الكبرى في خدمة بلادها من خلال إبراز الجوانب المضيئة في البلاد دراسةً، وتحقيقاً، وترجمة.

ومكتبة العبيكان، وهي تشارك بإصدار مجموعة منتقاة من كتب التاريخ والرحلات التي دونها فيلبي عن المملكة العربية السعودية، لتؤكد أن هذا الإصدار ليس الهدف منه مجرد الاحتفال لإحياء الذكرى المئوية الخالدة؛ ولكن إحياء للقيم والمبادئ التي دعا إليها المؤسس الراحل ورافقه في ذلك رجاله المخلصون وجاهد من أجلها حتى أصبحت المملكة العربية السعودية تنعم بما أفاء الله عليها من أمن ورخاء واستقرار في جميع المجالات.

ويأتي إصدار كتب فيلبي خاصة، لعدة اعتبارات أدبية، من أهمها أن فيلبي سبق له أن أقام في المملكة العربية السعودية مدة طويلة، واتصل بالملك عبدالعزيز، وقد أتاح له ذلك فرصة إشباع رغبته في الترحال والاطلاع على كثير من المناطق والمواقع الأثرية في مختلف أنحاء المملكة، وقد أفادت رحلات فيلبي وكتاباته تاريخ وجغرافية بلادنا بشكل متميز، باعتبار أنه قدم من خلال ما كتبه وصفاً حياً لكثير من المواضع الجغرافية، والمواقع الأثرية، مما نتج عنه تحقيق وتتبُّع عدد كبير من أسماء المواضع في مختلف أرجاء الوطن.

ومما يميز كتب فيلبي التي سبق أن صدرت بلغتها الأصلية قبل أكثر من سبعين عاماً أنها احتوت على معلومات تاريخية وجغرافية مهمة، ومن هنا تم انتقاء مجموعة منها لترجمتها إلى اللغة العربية نظراً لأهميتها التاريخية.

كما تمتاز كتب فيلبي أيضاً بأنها تضم عدداً لا بأس به من الصور الشمسية

(الفوتوغرافية) لبعض الأعلام والمدن والمعالم الجغرافية، وهذه الصور لا شك أن لها دوراً إيجابياً يعين على تصور بعض المعالم الجغرافية إضافة إلى بعض الجوانب الحضارية التي كانت سائدة خلال تلك الفترة.

وسيلاحظ القارئ الكريم عندما يقرأ في كتب فيلبي أنه أمام موسوعة مختصرة لتاريخ المملكة العربية السعودية غطت حقبة زمنية مهمة حيث كتب فيلبي بأسلوبه السلس الرصين عن تاريخ المملكة، وجغرافيتها، وأعلامها، وآثارها، واقتصادها، وقد كان أثناء سياقه للأحداث العامة أو ذكرياته الخاصة لا يغيب عنه -كلما سنحت له الفرصة- إبداء إعجابه بشخصية الملك عبدالعزيز -رحمه الله- وبجهاده في توحيد البلاد، ثم إعجابه بسياسته في الارتقاء ببلاده حتى صارت دولة حديثة تحظى بتقدير العالم، وهذا الإعجاب له ما يبرره وسوف يتنبه القارئ إلى بعض مواطن هذا الإعجاب والتقدير في مواضعها من كتب فيلبي التي تمت ترجمتها في هذه السلسلة.

إن مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع لترجو أن تكون قدمت بهذا الجهد -الذي تم بإشراف لجنة علمية متخصصة- جزءاً من خدمة بلادها من خلال إحياء تاريخها. وقد حرصت المكتبة على إخراج الكتب وترجمتها إلى اللغة العربية كما جاءت في النص الإنجليزي. ومع ذلك فإن جميع الآراء والأحداث التي ذكرها المؤلف في كتبه التي تنشرها المكتبة تمثل وجهة نظر المؤلف الخاصة، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

وفيما يخص هذا الكتاب؛ فإن المكتبة تشكر كل الذين أسهموا في مراجعة الترجمة على ملاحظاتهم القيمة، وتخص بالشكر سعادة الدكتور فهد بن عبدالله السماري أمين عام دارة الملك عبدالعزيز الذي بذل الجهد في مراجعة هذا الكتاب.

والله ولي التوفيق،،

الناشر

مكتبة العبيكان

المقدمة

منذ بضع سنوات مضت حاولت جريدة التايمز البريطانية - بنجاح واضح، تجربة نشر إعلان نعي كتبه المتوفى بنفسه. وأحدث من ذلك تم السماح للأفراد المتهمين في روسيا السوفيتية بأن يتمتعوا بمزايا محاكمة أنفسهم بأنفسهم في تُهم خطيرة عقوبتها الإعدام، وقد نجحوا بشكل واضح في معظم ذلك. ويتوقع الناشرون بصورة متكررة أن يكتب المؤلف أو يقدم مادة للدعاية أو للتعريف بالكتاب. ولكن - فيما أعلم - لم يُطْلب من أي مؤلف قط أن يراجع كتاباً ألفه هو بنفسه. وهذا ما أود تنفيذه يوماً ما، وهذا المجلد بالذات يوفر فرصة رائعة لمثل هذه التجربة. إن موضوع الكتاب يدور في معظمه حول بلد ليس معروفاً إلا لنفسي فقط. إن الدكتور هوجارث (Dr. Hogarth)- الذي أعد دراسة خاصة عن خفايا الجزيرة العربية المجهولة - كان سيتمتع بمراجعته، لأنه سيجد الكثير لينقده، والكثير ليعارضه والكثير ليقدره تقدير الخبير. وحيث إنه قد خطفته يد المنون، ولم يعد معنا في عالمنا فإنني أشعر بأني مثل محاضر يخاطب مقاعد فارغة.

ومع ذلك، فهناك بالتأكيد شخص ما في ظلام السنين التي لم تولد بعد يستمع بإنصات لكل كلمة من كلمات هذا الكتاب. لهذا الشخص، وربما يكون أكثر من شخص، أوجه هذا المجلد. وبالنسبة للآخرين، حسبما أتمنى أنا والناشرون، يمكنهم قراءة الكتاب أو شراءه على الأقل. ولكن لن يتمتع به أحد مثلما يتمتع به ذلك الذي يأخذه معه في رحلاته بذلك البلد الذي يغطيه. هذا الرجل سوف يستمتع بثروة التفاصيل التي يحويها والتي سوف يتخطاها القارئ العادي المشغول هذه الأيام، إن استطاع. وفوق كل شيء آخر أتمنى أن أقابل ذلك الرجل أو المرأة، فلربما قابلته يوماً ما في شيخوختي كما قابل داوتي لورنس بعد أربعين عاماً من رحلاته العظيمة في الصحاري العربية. وبإنتاج سنوي يُقَدَّر بحوالي ١٤٫٠٠٠ كتاب في العام، أي بمعدل

أربعين كتاباً كل يوم بما فيها عطلات أيام الأحد وإجازات البنوك، ببريطانيا العظمى وحدها فلربما أجد نفسي مضطراً للاعتذار لزيادة هذا الرقم. ولكني أقدر أن أدافع عن نفسي وأرد ذلك الاتهام وأبرر عملي هذا بأن هذه المناسبة فريدة ومميزة. ولا أستطيع حتى أن أعد بعدم تكرارها مرة أخرى. إن هذا الكتاب بحجمه الضخم هذا، ليس في الحقيقة سوى نصف كتاب. إنه سجل لأنشطتي خلال ثلاثة شهور فقط من أصل تسعة شهور استغرقتها رحلاتي في الجنوب المجهول. هذا القدر قد أخذ مني ما يربو على عام كامل لكتابته. وقد أمضى داوتي من قبل عشر سنوات في تأليف كتابه، ولكن الشمس قد وقفت مكانها في الصحاري العربية كما رسمها. أما في حالتي، وبعيداً عن الأمور الأخرى التي تشتت اهتمامي، فإن منظر الجنوب ما فتئ يتغير بسرعة البرق منذ أن وليت مدبراً عنه. وكان عليّ أن أصف بعضاً من تلك التغيّرات بلا تردد.

إن أيام القوة التي تمكنني من الاستكشاف قد أدبرت عني الآن. ربما -ولكني أشك في ذلك- فمن الصعب أن يتخلى المرء عن عادات ظلت تلازمه طوال حياته. بيد أن المشكلة تكمن في أن موجات رحلاتي في الأجزاء المجهولة أو التي لا يعرف عنها إلا القليل بالجزيرة العربية قد بدأت تتكسر على حواف المعرفة الساطعة. وإذا لم يلزم المرء جانب الحيطة والحذر فلربما «داس على ذيل أحد معاطف الفرو». إن من ينتهك حرمة الآخرين أو يسرق صيدهم ليس مرغوباً في أي مكان. ولكن يجب على الإنسان أن يستحوذ على أرنب أو قطاة جاءت عَرَضاً. «إن المعتدين سوف يحاكمون». إنهم سوف يخضعون للمحاكمة بالطبع إذا ما دعوا السجان ليشهد جريمتهم. إن هذا العالم المسكين يصبح بحق أصغر كل يوم عما قبله. ولايستطيع المرء أن يذهب إلى أي مكان دون التعرض لتحذير بالابتعاد عن الخطر. وهذا ما قد حدث لي خمس مرات بالفعل، وسوف يحدث بلا ريب مرة أخرى. فقد مررت مرتين بهذه التجربة أثناء هذه الرحلة الأخيرة -كما سوف يظهر في حينه-. وقد حدثت مرة في عام ١٩٢٢م،

عندما لم يكتفوا بتحذيري بالابتعاد فقط، بل قاموا في الحقيقة بترحيلي أيضاً. وفي المرة الرابعة وجدت السجان في طريقي، وفي مزاج وحشي يتوق للخصام والقتال، وهكذا هربت بعيداً. وكانت المرة الخامسة في عام ١٩٢٥م، عندما تجاهلت تحذيراً دينياً، ولم أسمع شيئاً عنه بعد ذلك. وعندما أنظر للماضي وأتأمل فيه أرى أنها كلها كانت تبدو غريبة جداً، ولكنها على أي حال تضيف طعماً لمغامرة الرحلات بالجزيرة العربية، والتي كانت لولا ذلك ستصبح كئيبة وغير مثيرة. ومشكلتي هي أن «الإمبراطورية البريطانية» شديدة الضخامة والكبر بشكل يفوق الخيال، ولا تزال تنتهك باستمرار خصوصياتي. وكل ما أريده هو الهدوء والعزلة. وهذان الشيئان أضحى الحصول عليهما من الصعوبة بمكان أكثر مما قد يتخيله المرء، ولو حتى في الصحراء.

ولم يكن الأمر بهذا السوء دائماً، ولكن في هذه الأيام ذات السرعة والجرأة فقد ظهر حتى لتلك الأقاليم المهجورة أو المهملة قيمة محتملة. فإذا كانت هذه الأقاليم منبسطة فيمكن أن يهبط عليها الإنسان من الجو، وإذا كانت جبلية فلربما أخفت البترول بين طياتها. ومن سوء الحظ أن الجزيرة العربية ظلت موسومة إلى الأبد بأنها هدية لسكانها فقط لأكثر من عشرين عاماً مضت قبل أن تؤدي تلك الاعتبارات دوراً خطيراً. وقد قبل العرب الهدية بكل امتنان، ولم يطلبوا شيئاً إلا أن يُتركوا وشأنهم. وصادق أهل بريطانيا العظمى على هذه الهدية بحماس شديد. ورحبوا بقرار يتفادى التقيّد بالتزامات إمبراطورية في الجزيرة العربية. ولقد كنت واحداً من الجموع الكثيرة التي أيدت هذه السياسة. ولكن يبدو أنني الوحيد الذي تخلف عن تلك الجماعة. فلقد ندمت الحكومة البريطانية، واستاءت من اضطرارها لتفسير وعودها. إن نكث العهد له دلالة وقحة في لغتنا. ومع ذلك فقد نقضت بريطانيا العظمى عهدها مع العرب، والعرب يدركون ذلك، ويعلنون هذه الحقيقة من أعلى أسطح بيوتهم، وفي النهاية لا يعلم أحد لغتهم ولا عما يتحدثون على أي حال. وتأخذ الأمور شكلاً مختلفاً عندما تستغل هذه الحقيقة أمم أوروبية منافسة أو معادية لنا للدعاية ضد

بريطانيا. ومما يزيد الأمر سوءاً وخطورة أن الحكومة البريطانية تواجه مظاهرَ تدل على القلق المتزايد وتأنيب الضمير داخل بريطانيا نفسها. بيد أنه لايمكن أن يكون هناك شيء أشد سوءاً من أن يمضي رجل شرطة، كان معتدياً، قدماً لينتقد سلوك وتصرفات الشرطة. وأعتقد أنني أصبحت تحت هذه الفئة.

فلثمانية عشر عاماً، منها فترة الحرب العصيبة، مكثت في خدمة الحكومة. ومنذ ثلاثة عشر عاماً مضت استقلت منها بسبب مقنع تماماً وهو عدم موافقتي على سياسة الحكومة. ولقد رفضت الحكومة أن تقبل تقديري المبكر لأهمية ابن سعود في الخطة العربية وزعمت أنه غير صحيح. وأترك الأمر للقراء كي يحكموا بين الحكومة وبيني في هذه القضية. ففي خطاب حديث لجريدة التايمز (١١ مارس ١٩٣٨م) كتب السيد كاري لورد يقول: «لقد أيدنا بالتأكيد الحصان الخطأ» وفي العراق اعترضت على كل من سياسة وطرق الحكومة البريطانية بالإشارة على وجه الخصوص إلى استفتاءين اثنين عُقدا في سنتين متتابعتين تحت رعاية جهتين مختلفتين وأسفرا عن نتائج مختلفة بشكل غريب. ولقد تخليت عن وظيفتي بدلاً من أن أتحمل أي مسؤولية عن الاستفتاء الثاني (١٩٢١م)، ويجب أن أقول: إنني لم أتحمس كثيراً لموقف الحكومة المعلن تجاه الاستفتاءات المنافسة التي يجريها سكوشنق وهتلر. إنهم لم يكونوا أول الناس الذين يعرفون أن الردود الحكيمة، إذا تمت صياغتها بصورة صحيحة، فسوف تعطي النتائج المرجوة.

ولكن الموضوع الحقيقي الذي قررت بناءً عليه أن أقطع علاقتي مع الحكومة البريطانية وأذهب للصحاري كان هو الورطات التي خلقتها «سياسة الانتداب» في فلسطين والأردن الكبرى. ولقد استغرق الأمر بضع سنوات إلى أن ثبت صحة موقفي الذي اتخذته في عام ١٩٢٤م، وقد شجبت لجنة اللورد بيل، التي تشكلت عام ١٩٣٧م، الانتداب ووصفته بأنه غير قابل للتنفيذ، وقالت بالحرف الواحد: إن «الحكومة البريطانية تتفق معنا على أنه كذلك».

وقد يفاجأ أصدقائي -البريطانيون والعرب- باتفاقي مع الحكومة على أن التقسيم هو الحل الوحيد الممكن للمشكلة التي خلقتها محاولة تطبيق نظام انتداب غير صالح للعمل أصلاً. علاوة على ذلك، أتفق مع الحكومة على أن الاحتلال الإيطالي للحبشة يجب الاعتراف به. كما أوافق على الاعتراف الفوري بالاتحاد النمساوي-الألماني. ولكن مثل هذه الإهانات الحتمية هي مجرد إفرازات لأخطاء السياسة السابقة، التي كان يمكن تفاديها بشكل كبير. وعندما أتفق مع الحكومة فإنني لست خائفاً من أن أقول ذلك. بالقدر نفسه عندما أختلف معها فإن اعتراضي قد يحث على إجراء تغيير في السياسة أو الطريقة قبل أن تنشأ عواقب مهينة من الأخطاء.

ومهما يكن من أمر فقد رحلت منطلقاً في البرّية عام ١٩٢٥م، وأستطيع القول بأمانة أنه ليس عندي داع للندم على دور «الصوت الجهوري القوي» الذي وصموني به منذ ذلك الحين. إن الاستقلال في حد ذاته مصدر قوة لا يقدر بثمن بالنسبة للأمم والأفراد. وكانت الجزيرة العربية قد أصبحت مثيرة أكثر فأكثر حيث إنها قد استيقظت من سباتها الطويل، واستجمعت قواها لتواجه ظروف العالم الحديث. وهي في أقطابها قد مرت بتجارب قيمة، وأحياناً جد عنيفة، مثل الأهداف والطرق الاستبدادية (الإمبريالية) لكل من فرنسا وإيطاليا.

وفي كل مكان آخر كانت اتصالاتها السياسية وما تزال مع بريطانيا العظمى وحدها. والآن، فإن الجزيرة العربية بلد مسلم أساساً، ولهذا السبب على وجه الخصوص، ولأسباب أخرى كثيرة، فإن حب الاستقلال، لا سيما الاستقلال من السيطرة والهيمنة الكافرة، متأصل وراسخ في العرب. إنهم يدركون أنه لا يمكن ضمان مثل هذا الاستقلال من مكائد العالم إلا بوحدة المظهر المادي والمعنوي. فالعربي عنده، مثل أي رجل إنجليزي، الشغف نفسه للحرية الشخصية والاستقلال، ولكنه لم يتعلم ضرورة إخضاعهما للصالح العام لمواجهة خطر مشترك. إن الخطر لاينشأ من فرنسا أو إيطاليا، اللتين قد تخلق محاولتهما السيطرة على الجزيرة العربية

«سبباً أو ذريعة للحرب» بالنسبة لبريطانيا العظمى. بل يأتي الخطر من بريطانيا العظمى نفسها. وقد يبدو ذلك شيئاً صعباً لرجل إنجليزي مثلي ليعلنه، ولكن الرجل الإنجليزي ليس بحاجة أن يخاف من قول الحقيقة بكل تأكيد. إن الاختراق السياسي البريطاني للجزيرة العربية قد بلغ بالفعل مبلغاً بعيداً أكثر مما ينبغي. وما يزال يسعى لكي يتمادى أبعد مما بلغ. ولا يوجد هناك حد لمثل هذه العمليات من الطموحات الاستبدادية (أو الإمبريالية). وليس لها مبرر. وإذا لم يوافق أحد على قولي هذا فإن وعود مكماهون في ١٩١٥م تثبت أن كثيراً من الناس، بما فيهم الحكومة البريطانية نفسها، قد اتفقوا معه منذ ثلاثة وعشرين عاماً مضت، عندما كان على الناس أن يفكروا بعناية أكثر مما يبدو أنهم يفعلونه هذه الأيام.

وإذا لم يكن هناك أي مبرر للطموحات البريطانية في الجزيرة العربية، فلا يوجد كذلك إلا أقل القليل من المبررات لطرق التوسع التي تتبناها الحكومة -عمداً فيما يبدو- في الآونة الأخيرة. لقد استنكر الرأي العام البريطاني والحكومة البريطانية استخدام طرق التوسع هذه والطموحات الاستبدادية في الحبشة، وفي أسبانيا، وفي الصين. فلماذا تستخدمهم الحكومة البريطانية إذاً في الجزيرة العربية؟!!. إن الإجابة جد سهلة ويسيرة: إنهما أقل تكلفة، وأشد فاعلية، وأكثر إنسانية من أي شكل آخر من أشكال العمليات العسكرية أو البوليسية. ولا يستطيع المرء حقيقة أن يتخيل أي شيء أشد رعباً من قصف جوي بالقنابل لا يقدر أن يرد عليه بمثله. وإذا لم تفن الحضارة الإنسانية في السعير الذي خلقته بأيديها فليس بمقدور المرء أن يتصور أي شيء أحوج للتأكيد من تحريم طائرات القصف على الإطلاق. وإلى أن يأتي ذلك اليوم يجب علينا بشكل واضح أن نوفر ونجهز عدداً كافيًا من تلك الماكينات الجهنمية للدفاع عن أنفسنا ضد عدو مسلح بأسلحة مماثلة أو لنرد على هجماته علينا بمثلها. ولكن ذلك لا يبرر استخدامها ضد أصدقاء أو أعداء ليس لديهم مثل هذه المعدات. ولم يعلن «رئيس الوزراء» إلا مؤخراً أن الحكومة البريطانية ستكون مستعدة لوقف

«جميع أنواع القصف من الجو» إذا كانت الدول الأخرى مستعدة لعمل مثل ذلك !!. إن هذا سوف يمنح الحكومة البريطانية وقتاً كافياً لتقصف تلك الأجزاء من الجزيرة العربية التي تشتهي إخضاعها. ولست بالتأكيد غير منطقي في توقع شيء أحسن من ذلك من الحكومة البريطانية. هل يوجد أي شيء يمنع من اتخاذ قرار من جانب واحد بألا تقوم الطائرات البريطانية بقصف أي جزء من الإمبراطورية البريطانية مرة أخرى؟!! أو هل هناك سلسلة من الاتفاقيات الثنائية أو متعددة الأطراف مع الدول الأخرى لتحريم القصف الجوي المتبادل؟ إن الأمر سيصبح بالطبع أشد صعوبة وأكثر تكلفة لترهيب فلسطين وحضرموت لإخضاعهما تحت سيطرتنا. ولكن هل نحن جديرون بحكم أي من هاتين الدولتين، أو أي بلد آخر، إذا كنا نستطيع ذلك فقط من خلال قصفهما؟!!.

وعندي كلمة أخرى إضافية عن فلسطين، إننا نتحدث عن الأنشطة التي ينفذها العرب، وسوف يمدح التاريخ بالتأكيد كفاحهم الوطني ضد قوى مضادة يائسة. إن قتل الطغاة والمستبدين دعوة قديمة ومشرفة. والمستبدون -سواء كانوا أفراداً أو حكومات- يعاقبونهم بالموت طبعاً. وهذا يبدو شيئًا معقولاً تماماً في حدود الظروف التي تحيط به، ومهما يكن من رأي المرء في القاتل فإننا لا نستطيع أن نتذمر من حكم الإعدام المقرر بناءً على إثبات الجريمة. بيد أن حيازة أسلحة أو ذخيرة لا يمكن اعتباره بصورة معقولة جريمة كبرى تستحق الإعدام. إنها يمكن أن تكون كذلك بقوة القانون، مثلما كانت سرقة الأغنام في إنجلترا منذ قرن مضى أو أكثر. وفي الوقت نفسه فإن العقل البشري يتمرد ضد مثل هذا الإفراط في إصدار القوانين، والرأي والوجدان البريطاني كله يميل إلى -أو اعتاد بدرجة ما أن يكون ميالاً إلى- جانب العدل والإنصاف. ولكن القتل القانوني (وهو مصطلح يغطي بدرجة كافية تنفيذ طُرق الإعدام التي بررها صدور قوانين لأغراض خاصة)، فالقصف الجوي ليس من العدل ولا الإنصاف.

وهذا يبدو للبعض مقدمة غير قويمة إلى حد ما لكتاب رحلات. وفي الواقع لقد نبعت من هذه الظروف التي ناقشتها هنا المغامرة الوحيدة الحقيقية لرحلتي الطويلة.

ومن هذه الرحلة نفسها نشأت المناسبة لكثير من انتقاداتي. إن زيارتي لحضرموت قد تزامنت تقريباً مع إعلان الحكومة البريطانية - في سبتمبر ١٩٣٦م - عن خطط استحداث «مستعمرة عدن» على أن يبدأ سريانها من تاريخ بداية سريان قانون «حكومة الهند» الجديد. وكان الأمر أو النظام بالمجلس الذي يضفي صلاحية على هذه الخطط -في حدود علمي- لم يواجه أي اعتراض قانوني. ولم يزد الأمر على نقل منطقة عدن من وزارة معينة إلى أخرى. ولم يحتو على أي تلميح للمكائد الخفية للإقليم الواقع خارج منطقة عدن، وهو الإقليم المستقل للسلطنات الجنوبية.

ويبدو أن رحلتي قد نبهت السلطات في عدن إلى الإحساس بالخطر المحدق بهم. وخلال شهور قليلة تم تصحيح ما أغفل عنه الاقتراح الأصلي بالمجلس من خلال إصدار أمر آخر. هذا الأمر الثاني كان قانوناً للضم والإلحاق، صريحاً وواضحاً، والذي ألغى بازدراء وقسوة مجموعة من المعاهدات قديمة العهد والوعود المهيبة من السير هنري مكماهون. ولكي يتم تنفيذ ذلك القانون كان من الواجب استخدام طائرات القصف بمنتهى الحرية [1]، وما زالت تُستخدم عمداً بشكل تام، ولكن سوف يستغرق الأمر وقتاً طويلاً حتى يستطيع هذا السلاح البربري الوحشي تمكين حكومة عدن من أن تجعل هذا الضم والإلحاق نافذاً. وقد نفت الحكومة البريطانية بالطبع ارتكاب أي عمل أو إصدار أي قانون قد يؤدي إلى الإلحاق. إن اليابان تنفي أنها تحارب الصين، إنها فقط تساعد الصينيين على إدارة شؤونهم بصورة صحيحة. وقد انطلقت إيطاليا في الحبشة فقط لتساعد الأحباش البؤساء ضد نظام الحكم الوحشي الذي يسيطر على مصائرهم. وقامت ألمانيا بغزو النمسا بناءً على طلب صريح من شعبها. وطلب الروس بصورة إيجابية إصدار حكم الإعدام على أنفسهم لأنه هو فقط الذي يستطيع أن يكفِّر عن خزي حياتهم الإجرامية أوعارها. إن طرق الدعاية الحديثة قد خلقت أساليب كلامية جديدة. ولكن هذا كثيراً ما يتغير!.

(١) منذ مطلع إبريل ١٩٣٨م يبدو أنه لم تعد هناك عمليات قصف في محمية عدن. (المؤلف).

وإلى هنا سوف أترك الأمر حتى يتمكن القارئ من مصاحبتي في رحلاتي. وفي إعداد هذا الوصف لها فإنني أدين بقدر عظيم لزوجتي لتكريس عملها الشاق على الآلة الكاتبة ولكثير من المساعدة والتشجيع بطرق أخرى. وبالنسبة للخريطة التي ترافق هذا المجلد، ولايمنعني التواضع من أن أزكيها للقارئ كأحد الإسهامات الكبرى التي يعرف بها الإنسان عالمه المعاصر، فإنني لا أستطيع أن أعبر بصورة كافية عن عميق امتناني للسيد هـ . ف . مايلن من الجمعية الجغرافية الملكية، ولا أستطيع كذلك أن أخفي أسفي البالغ لأن الاعتبارات المالية قد حالت دون طبعها ونشرها على مقياس رسم يوضح كافة التفاصيل الواردة برسمه الأصلي. ولتحديد الإحداثيات الجغرافية لعدد هائل من المواقع والأماكن التي استطعت أن أدون فيها ملاحظات فلكية فإنني مدين في المقام الأول للثيودولايت القديم، والذي انهار تماماً تحت ضغط كثرة العمل وهو الآن قد أحيل للتقاعد بشرف وكرامة. وفي المقام الثاني فإني مدين لتلك المحطات الإذاعية التي جعلتني أتحقق من الوقت الصحيح، وخاصة الموجودة في القاهرة والقدس، والتي كانت أحياناً تختلف فيما بينها حول هذا الموضوع، وأخيراً للدكتور. إل. جي. كومري وفرقته، وكلها نجوم لامعة - من الحاسبات البشرية والآلية البشريين والآليين الذي يملكون، أو هيؤوا، براعة ممتازة في تشخيص تفاصيل أنشطتي تحت ستار الليالي العربية، وكانوا قادرين بدرجة فائقة على تحديد مكاني كل ليلة بكل دقة حتى إنه لا يمكنني أن أزعم وجودي في موقع آخر. وكالعادة أدين للمتحف البريطاني بالشكر لتشجيعه الدائم لمجهوداتي واهتمامه الفعال بتنظيم وترتيب ما جمعته من معلومات.

وفي هذه الظروف من المثير للأشياء أن نذكر الأفراد. ولكن لا يمكن أن نترك البعض دون ذكر أسمائهم. فبالنسبة للحيوانات الثديية والمعادن الموجودة بالجزيرة العربية فقد ألقى السادة تي. سي. إس. موديسون - سكوت، وبي. إم. جايم على التوالي فيضاً من الضوء الجديد بعملهم حديثاً في جميع المراجع المتوفرة ومنها المواد

التي قدمتها أنا. وقد استطاع الدكتور إل. آر. كوكس بالتأكيد أن يستفيد قليلاً من المعارف عن الحفريات العربية. وقد قام السيد جي. رامسبوتوم والسيد هـ. و. باركر فوراً بتحديد النباتات والزواحف على التوالي، وفي يوم ما سيكون السيد بي. بي. يوفاروف جاهزاً بعمل تذكاري رائع عن جنادب الجزيرة العربية عندما ينتهي من العثور على الأسماء الصحيحة للأجناس التي ما تزال تنهال عليه من الصحراء وما جاورها. ولكن «غرفة الطيور» تحتل مكانة الفخر في قلبي وعواطفي، لأني بقيت سنوات حتى الآن أعمل في تحالف وثيق مع السيد ن. ب. كنير والسيد جي. إل. بيتس للهجوم المستمر على طيور الصحراء، ولم نحرز حتى الآن نصراً كاملاً وهو هدفنا المشترك الذي نبغي تحقيقه. وفي الوقت نفسه يوجد لدى السيد بيتس عمل شامل عن طيور الجزيرة العربية جاهز للطبع، وأستطيع فقط أن أعبر عن خالص تمنياتي بأن ينشره قريباً.

ولم يبق إلا أن أزيح الستار عن حكايتي، مع التعبير عن تقدير خاص للسيد أ. ف. ل. بيستون من كنيسة المسيح في أكسفورد الذي سوف يختمها بملحق عن النقوش التي أوردتها من أرض سبأ.

هاري سانت جون. بي. فيلبي
مكة المكرمة - ١٩٣٨م

الفصل الأول

التكوين

فيلبي، (الحاج عبدالله فيلبي) خبير الصحراء ومراقب بريطانيا العظمى قام بزيارة هذه المنطقة بغرض معين وهو جس نبض الشخصيات المحلية. وجاء من بعده السيد "انجرامز" وهو من كبار المسؤولين في عدن الذي استطاع أن ينتهز الفرصة السانحة في الخلافات بين السلاطين ورؤساء القبائل لكي يوسع سيطرة حكومته على هذه الإمارات.

مجلة الشرق الحديث

نوفمبر ١٩٣٧م

إن الأشياء ليست دائماً كما تبدو !!! وقد يكون من المفيد في بداية قصتي أن أشرح كيف أن رحلتي عبر أرض سبأ الحالمة قد تحققت تقريباً بسلسلة غريبة من المصادفات الرائعة. وكانت مساهمتي الشخصية الوحيدة في تلك العملية هي ما اعتدتُ عليه من عادة، نَمَتْ عندي من إقامتي لما يربو عن عشرين عاماً في الأراضي العربية، التنقل والترحال المستمر بحثاً عن مراع جديدة. فلقد كنت دائماً متأهباً لمجابهة أي طارئ بأكبر قدر من الاستعداد مثل أي عرض يقدمه رجل واحد ويمكن اعتباره بالمقاييس الحديثة مجهزاً تجهيزاً جيداً للاستكشاف. بيد أن الربع الخالي كان يبدو كما لو أنه تاج ملائم لي بإحكام، وهدفٌ لطموحاتي كمستكشف. وكنت في الحقيقة أكثر من مستعد للتقاعد بشرف والخروج من الساحة. فقد أتى عليَّ حين من الدهر -بعد هذه المغامرة بلغ مني فيه التعب مبلغاً. كما أن الجزيرة العربية- وهذه حقيقة واقعة- لم تكن قد استنفذت بكل الوسائل كميدان للاستكشاف. وحان وقت اشتراك معشر الشباب في تلك المهنة. علاوة على ذلك، وكما لم يقصر أصدقائي في

الإشارة إلى ذلك بابتسامات متعاطفة، فقد أدى ما عُرف عني من ارتباطي الوثيق بصداقة ابن سعود إلى تضييق مدى تجوالي. ولقد كانت هناك أجزاء من الجزيرة العربية لم أحلم قط برؤيتها، منها اليمن وحضرموت وغيرهما الكثير. ويبدو أن أصدقائي، مثل معزّي أيوب كانوا يعلمون عما يتحدثون. فليس هناك من داع للقلق بأي حال. هكذا كنت أرد على أصدقائي بابتسام.

وفي ١٩ ديسمبر ١٩٣٥م تم إيداعي رسمياً على رف أعمدة جريدة «بريطانيا العظمى والشرق». وكانت المناسبة مع إعادة إصدار، ربما للتعبير بلطف عن التذكير، بكتابي عن الربع الخالي، حيث قال كاتب المقال المجهول في ملاحظته ما يلي:- إننا قد نلاحظ هنا أنه على الرغم من احتمال انتهاء أيام استكشاف السيد فيلبي، إلا أنه لايوجد أي سبب يجعلنا نفترض أن عصر تأليفه للكتب قد انتهى أيضاً. ولن يكون من المدهش حقيقة أن يقوم بإصدار مزيد من الكتب في الوقت المناسب من مأواه بمكة. هذه الملاحظة كانت ستثير مثيوسلاه نفسه حتى يتخذ عملاً ما. ويبدو أن هذا الكاتب يعلم ما يتحدث عنه. ومرة أخرى، وبعد حوالي أسبوعين من قراءتي لهذا الإعلان الودي، تبسمت وأنا أشارك مع زوجتي وحدنا، سراً، سوف يضع نظرية مرضي أو عجزي موضع الاختبار بالتمام. وفي الحقيقة قبل أيام قليلة من نشر هذه الكلمات في إنجلترا كنت أنا وزوجتي وكلانا على أعتاب الشيخوخة، قد وصلنا جدة في نهاية رحلة ذهاب وعودة، عظيمة، وبالتأكيد فريدة، من جدة إلى لندن، والعودة بالبر عبر ثلاث قارات. والحقيقة أننا قمنا بهذه الرحلة بالسيارة، ولكنا لم نكن أول من استخدم هذه العربات للاستكشاف. وكان الجزء العربي من الرحلة - وهو أول عبور لامرأة أوروبية لشبه الجزيرة وآخر مرحلة في رحلة العودة من دمشق عن طريق الجوف وحائل وبريدة إلى الرياض - قد وفر لنا فرص الاستكشاف الجغرافي. وكان الباقي مجرد سفر عادي، على الرغم من أن السفر على طرق الأناضول وفي ليبيا قبل أن ينفذ موسوليني الطريق السريع كان قاسياً ويحتاج إلى براعة فائقة

مثل أي تجوال بالصحراء. وبالتأكيد لم أشعر أنني عاجز (بسبب الشيخوخة) كما يبدو أن الناس يعتقدون أنني يجب أن أكون كذلك.

ولكن الشباب كانوا قد بدؤوا يظهرون على الساحة ولم يعد عبور الجزيرة العربية بالعرض يمثل موضوعاً يثيرالعجب أو يلفت الانتباه والملاحظة. وقد تعرضت المساحات المجهولة من شبه الجزيرة لمحاولات الاكتشاف من أطرافها. كما أن الطائرات -وقد نفد صبرها من خطوات الإبل البطيئة منذ العصور القديمة- وتزدري قليلاً حتى السيارات، كانت قد أنتجت بالفعل خرائط تصويرية لمناطق هائلة. بل إن النساء، اللائي بقين في مكانهن الصحيح حتى الآن طبقاً لأحكام الفروسية والشهامة العربية القديمة، قد بدأن في غزو ميدان الرجال. فقد وصل ما لا يقل عن ثلاث نساء إلى حائل مؤخراً اقتفاء لأثر الليدي آن بلانت وجيرترود بيل وزارت ثماني نساء أوروبيات الرياض نفسها، التي لم ترها أي مستكشفة من النساء قط قبل العقد الحالي. والآن ظهرت نجمات جدد في الجنوب يتحدين مجد السيدة ثيودور فنت الذي ذَبُلَ. ولن أتحدث عن الأولى، السيدة إنجرامز التي خبأت بريقها حتى الآن تحت غطاء شهرة زوجها. والثانية كانت «فرايا ستارك».

وفي ١٦ ديسمبر ١٩٣٥م، أي قبل نشر الملاحظات المذكورة أعلاه في جريدة «بريطانيا العظمى والشرق» بثلاثة أيام فقط كانت «فرايا ستارك» تسحر مستمعيها في «الجمعية الجغرافية الملكية» بوصف زيارتها لحضرموت. وأشار السير بيرسي كوكس -الذي كان يترأس الاجتماع بصفته رئيساً للجمعية- إلى هذا البلد بأنه «هو المنطقة الواقعة شرق محمية عدن في جنوب الجزيرة العربية، حيث لم يصل إلى هناك حتى وقتنا الحاضر إلا رحالة قليلون نظراً لاعتراض الشعب على دخول الأجانب بلدهم». وبعد المحاضرة ذكر العقيد إم. سي. ليك السكرتير السياسي لعدن ملاحظة قال فيها: «لا أعتقد أنه من المعروف بصورة عامة أن حضرموت تشكل جزءاً لا يتجزأ من محمية عدن. وأنتم ترونها تظهر على الخريطة خارج المحمية بعيداً إلى الشرق . . .».

وسوف أحتفظ بملاحظاتي على هذا الخلاف الابتدائي وأضعها بمكانها الملائم في هذا الكتاب. وما يهمني أكثر في هذه المناسبة هي الملاحظات التي أنهى بها السير بيرسي كوكس هذا الاجتماع المهم وهو يهنئ فريا ستارك على مجهودها الشجاع - على الرغم من أنه ليس ناجحاً - للوصول إلى شبوة. وقال: «بالنسبة لي تعد رحلة من «المكلا» على طول المنطقة الداخلية، وعبر الحدود الغربية للجزيرة العربية الكبرى حتى الطائف رحلة رائعة من الرحلات، في ذلك الجزء الوحيد من شبه الجزيرة العربية الذي لم يُكتشف بالكامل». وكان السير بيرسي كوكس يدرك بالتأكيد عما يتحدث. كما أنه كان يعرف تمام المعرفة، قبل أن يتوفى وهو فوق السرج بعد ذلك بأربعة عشر شهراً فقط، أن الرحلة نفسها التي كان يتصورها في تلك الكلمات قد تم إنجازها كما يجب. ولكن أيام رئيسي القديم خلال الحرب في ما بين النهرين لم تطل ليسمع التفاصيل الكاملة لتلك المغامرة، وقد كان سعيداً لعلمه أنه تم إنجازها بشخص اختاره هو بنفسه لأداء خدمة خاصة في الجزيرة العربية قبل عشرين عاماً [1].

وملاحظاته التي قيلت في هذه المناسبة، ولم أعلم بها حتى مارس التالي، لم يكن لها أي ارتباط أو تأثير بأي حال على خططي. وفي الحقيقة قبل أن تقال تلك الملاحظات كنت أنا وزوجتي قد وصلنا إلى الرياض في ١٠ ديسمبر أثناء رحلة عودتنا من إنجلترا التي ذكرتها سابقاً. وفي اليوم التالي لوصولنا استدعاني الملك عبدالعزيز لمقابلة خاصة، وسألني: «هل تود الذهاب إلى نجران؟» فأجبت: «في الحقيقة نعم». فواصل كلامه قائلاً: «حسناً، سوف تذهب وهناك الحدود الجديدة التي سيتم ترسيمها بالخرائط. سوف تذهب عندما يكون الوقت ملائماً. سأكون أنا في مكة للحج.

---

(١) يشير فيلبي هنا إلى أول مهمة قام بها إلى داخل الجزيرة العربية في عامي ١٣٣٦هـ - ١٣٣٧هـ التي نشر تفصيلاتها في التقرير الذي كتبه عن الرحلة وقام الدكتور عبدالله العثيمين بترجمته ونشر وبعنوان: بعثة إلى نجد. لمزيد من التفصيلات عن الرحلة انظر:

عبدالله الصالح العثيمين، بعثة إلى نجد، الرياض ١٤١٨هـ. (المراجعون).

وعندما أنتهي من عملي هناك سوف تأتي معي إلى عشيرة. ومن هناك ستبدأ رحلتك. جهز نفسك للرحلة. متى تذهب لجدة؟». فقلت: «غداً». وشكرت له عطفه الكريم وترك المكان وخرج. وبعد ذلك جاء الحجاج وذهبوا، وانهمك الملك في الشؤون المترتبة على ذلك. وكنت أراه كل يوم، أتناول معه الغداء والعشاء كالعادة يومياً، وأحضر جلساته في الصباح وبعد الظهر والمساء. ومضى مارس حتى إبريل، وأوشك أبريل على الانتهاء. ولم ينبس كلانا ببنت شفة عن الاتفاق الذي عقدناه بالرياض. وسارت الاستعدادات لرحيل الملك على قدم وساق. وفي اليوم السابق لرحيله للإقامة لمدة شهر في مخيم بعشيرة استدعاني إلى جواره وسألني: «هل نسيت؟» فقلت: «لا» فقال: «هل أنت مستعد؟» فأجبت: «نعم» فأردف: «سوف نركب لعشيرة غداً إن شاء الله». ونبقى هناك، لمدة شهر، مع زيارة متقطعة لمكة وجدة». مكثت في المدينة المكونة من الخيام العظيمة بين سكانها البالغ عددهم ٤٠٠٠ شخص. وكانت هذه الأيام مثيرة مفعمة بالحياة والنشاط أيضاً والعالم يمر بمخاض ميلاد إمبراطورية جديدة. وكان المذياع (الراديو) يفيدنا بالأخبار أولاً بأول. وجاءنا سقوط أديس أبابا وبالتالي ضم أثيوبيا للإمبراطورية الرومانية كقصف الرعد في عاصفة تستجمع قواها. وساد شعور بقوة القضاء والقدر على مخيم الملك، ولكن الشؤون اليومية سارت كالمعتاد. وبعثتي لم تغب عن الأذهان. ففي أحد الأيام سألني الملك عن البرنامج التقريبي لرحلتي المقترحة. فقلت: إنه يكفيني فترة خمسة شهور، منها نزهة في الربع الخالي بحثاً عن حيوان البقر الوحشي (Oryx)، على أن يبدأ سير الرحلة على مهل من الطائف عبر المرتفعات إلى أبها. وبناءً على اقتراح الملك تمّ تأجيل هذا البند لوقت آخر لصالح إنجاز تقدم سيري بالسيارة نحو أبها. وقال الملك: «لن تضيع وقتاً في الوصول إلى نجران. فهناك بعثة من الرجال المتعلمين من مصر موجودة الآن باليمن. وطلبوا تصريحاً للدخول لبلدنا عبر نجران وقد منحتهم إياه. وسوف يكونون أول من يصل هنا إذا تلكأت في الطريق». وحيث إن الحدود سيتم ترسيمها في خرائط عبر

التلال الوعرة بعسير وتهامة فقد تم تخصيص معظم الوقت المتوفر بطريقة غير مؤكدة لنجران. وبعد ذلك أحال صاحب الجلالة البرنامج -بعد التعديل- إلى بعض وزرائه لإبداء ملاحظاتهم. ومسألة احتمال رفع دعوى مطالبة من قبل التابعين لي ضد الحكومة في حالة وفاتي أثناء البعثة تم التغلب بسهولة عليها من خلال توقيع خطاب رسمي بالتعويض. وقوبل الهدف العام لرحلتي، الصيد، والاستكشاف، ورسم خريطة الحدود، بالرضا والقبول من الجميع. ومع ذلك - على كل حال - ثار اعتراض -مبني على حق تماماً- على الأمور المالية. وبدون استشارتي قرر الملك أن يتم تمويل بعثتي من قبل الحكومة، التي طلبت بصورة معقولة تماماً، ما دامت قد وافقت على التمويل من حيث المبدأ. تقديراً للمبلغ المطلوب على الأرجح. وذات صباح أرسل الملك في طلبي لمناقشة هذه الأمور، وسألني: «كم ستحتاج من النقود؟» فأجبت: «لا شيء، فعندي كل ما أحتاج إليه، ولا أريد لرحلتي أن تورط الحكومة في أي تكلفة مالية. فلو كنت ذاهباً إلى أوروبا لكان لزاماً عليّ أن أنفق مبلغاً معيناً من المال. هذا المبلغ سوف يكفي للوفاء بنفقاتي في هذه الرحلة».

وكان عندي من الأسباب الشخصية الجادة ما يجلعني أرفض أن أورط الحكومة في أي مسؤولية محددة عن بعثتي. إن تمويلها قد ينطوي ضمنياً على مثل هذه المسؤولية، وكان وزير المالية على الأقل مسروراً بعدم اضطراره لتوفير أموال لأبذرها. كما كانت وزارة الخارجية البريطانية لديها من الأسباب الكافية في حينه لتبارك بُعد نظري. ولتلطيف الأجواء وتسهيل الأمور ترك الملك هذا الأمر ينتهي حيث استقر الرأي. وقدم وزير المالية عرضاً بصورة سخية حيث قبلت عربة (لوري) لتحمل الإمدادات الضرورية من المواد البترولية التي لن نجدها بالطريق إلى أن نصل نجران. وكان المخيم قد تم إقامته يوم ١٩ مايو، وبدأ الجزء الأعظم من الموكب رحلته متجهاً نحو الرياض مباشرة، بينما مضى الملك مع جماعة صغيرة فقط إلى الآبار المحدثة القريبة ليمكث هناك ليلتين.

ومن هناك بدأت مغامرتي في صباح ٢١ مايو[١]. وعندما ذهبت للاستئذان من الملك وجدته يُملي خطابات لأحد سكرتاريته الخاصة. وكانت موجهة إلى عدد من الحكام والمسؤولين المحليين الذين تقع مدنهم في طريق رحلتي، وكانت تحتوي على أوامر موجزة ومهذبة لعمل كل ما يقدرون عليه لتعزيز رغبتي وسروري. وسألني الملك: «أهذا كل ماتريده؟» فأجبته: «نعم هذا كل ما هناك» وأضاف قائلاً: «إذن على بركة الله !!» وهذه عبارة معتادة للإذن ببدء رحلة ما من الرحلات ثم واصل قائلاً: «ولكن قف !! هل عندك أي نقود؟» فأجبت: «كثيراً» فنظر لي نظرة فيها شيء من الشك وألح في السؤال: «كم من النقود معك؟» فأجبت: «مائتا جنيه من الذهب ومئات قليلة من الريالات». فقال: «هذا شيء طيب» ثم التفت إلى سكرتيره وأردف: «إنه معتاد على بدء الرحيل وليس معه شيء، وينسى أنه، حتى إذا استطاع أن يعيش بالكفاف أن رفاقه لا يستطيعون ولن يفعلوا». ولقد شعر بالتأكيد بكل راحة عندما تيقن أنني قد ادخرت بعض المؤُونة للطريق. وإذا كنت خالي الوفاض لكان قد أصرّ عليّ أن آخذها من مخصصاته الشخصية. وكان عندي بالطبع تصريح للحصول على مبلغ من المال من حين لآخر من خزانة الحكومة في طريقي مقابل فواتير تُرسل إلى جدة. وعلى أي حال فقد كانت موافقة الملك على دعمي مادياً بمثابة ملاك يحرسني طول مغامرة لا يمكن التنبؤ بمجراها. وبدونها لم أكن أستطيع بدء رحلتي أبداً أو أنني لن أرجع منها أبداً.

وعندما ذكر صاحب الجلالة هذا المشروع لأول مرة بالرياض في ديسمبر برز في ذهني عاملان اثنان فوراً وبصورة تلقائية كأساس لمشروعي. ويطيب لي أن أقول: إنني حتى هذه اللحظة لم أفكر أبداً أن تكون هذه الرحلة في حدود الممكن - ناهيك عن احتمال تنفيذها. ولكن ذكر الملك لنجران جعل عقلي يتخيل صورة أراض قصيّة

(١) ٢١ مايو ١٩٣٦م الموافق ١ ربيع الأول ١٣٥٥هـ. (المراجعون).

ونائيـة. لماذا لا يجـوز أن يكون هناك أي نهـاية لمثل هذه الرحـلات والجـولات إلى «أقصى الشـمال» نفسـه؟ وكنت أعلم طبعـاً من قبل أن فريـا ستارك قـد فشلت في الوصول إلى شبوة، وأعلنت أنها في كامل عزلـتها وقوتها. وأنا نفسي كنت قد أتيت للرياض من عرض البـحر المتوسط. وكنت بالـفعل على مقـربة من المحيط الهندي، وتقع شبوة في مكان مـا على طريقي. وعلى نطاق متضاعف في خيالـي أبعاد اقتراح الملك، ولكني لزمت جانب الحذر حتى تظل مثل هذه التـخيلات لنفسي فقط، فلربما ثبت أنه لا يمكن تنفيـذها بالكامل، وإذا أخفقت في الوصول لشـبوة يمكنني دائماً أن أتظاهر بأنني لم أنوِ ذلك أبداً. وعلى أية حال أصبحت شبوةِ النجم الهادي الذي أرنو إليه سراً منذ تلك اللحظة. ومن هناك كانت حضرموت - بمدنها التي تناطح السحاب - لا تبعـد إلا مرمى حجر. ووراءها بمسـافة غير بـعيدة كان هناك البـحر يومئ إليَّ ويدعوني بإغراء - ولم يُعرف حتى الآن أن كائناً بشـرياً قد سار براً من البحر المتوسط حتى المحيط الهندي، وهكذا سأكون أول من يفعل ذلك.

وفي نطاق هذه الحـدود القصيّـة التي نشأت في أحـلامي كان هناك مـا يكفي لإنجازه في الوعي. إن نجـران نفسهـا قد زارها ذات مرة رجـل أوروبي، وهو فرنسي يدعى جوزيف هاليفي[1] منذ ما يقرب من سبعين عـاماً. كما أن الحدود الجديدة بين اليمن والمملكة العربية السعودية التي تم مؤخراً فـقط الاتفاق عليها وترسيمها من قبل لجنة مشـتركة لم توضع على الخـريطة. كما أن الجبـال الشاهقة التي تحـيط بنجران، وكذلك الهـضاب المثيرة لعـسير كانت أرضـاً مجهولة. ووراء نجـران يمد الربع الخالي غطاءه الرملي حتى عتبة اليمن نفسها. ولم تعبر سيارة حتى الآن تلك الرمال الرهيبة، وفي مكان ما على طول حافتـها سوف أتتبع الحدود الطبيـعية، وأقرب من ذلك على

---

(١) جوزيف هاليفي. أستـاذ الدراسات العليا بالسوربون، له رحلات في جنوبي البلاد الـعربية، وزار اليمن سنة ١٨٦٩م في زي يهود اليمن، وزار نجران أيضاً وجمع أثناء رحلته ٦٨٦ نقشـاً من كتابات قديمة، نشر ترجمتها وعلق عليها في المجلة الآسـيوية. توفي سنة ١٩١٧م. عقيقي، المستـشرقون ج١، ص١٩٩. بدول، الرحالة الغربيون، ص١٥٦. (المراجعون).

الجانب الثاني من نجران يقع وادي حبونا[1]، وهو أرض غامضة لم ترها عيون أوروبية قط. وأقرب من هذا وذاك تقع أودية تثليث المجهولة، وخميس مشيط في وادي بيشة، وأبها المدينة المشهورة في شمال عسير التي لم يزرها أي أوروبي على الرغم من أنها معروفة بصورة كافية للأتراك. كل هذا إقليم بكْر سوف أراه في جولاتي القادمة - وسوف أملأ عينَيَّ بكل شبر منه. وكان مجال الرحلة هائلاً في إمكانياته. واحتمالات إنجازاتي لا يمكن أن تقاس إلا بأبعاد حالمة. ومع ذلك، وفي الحقيقة الماثلة للعيان وأنا في حالة الوعي فإن نتائج رحلتي الممتدة لتسعة شهور مقابل الخمسة التي كانت مقترحة لبرنامجي - قد تجاوزت تقديري الأول المتفائل بقدر عظيم.

وكان هناك إمكانية واحدة فشلت تماماً في وضع احتمال لها، وهو احتمال لم يظهر أبداً في حدود مجال رؤيتي، ألا وهو «علامات الشرف والرفعة لمدينة ضبابية في الفضاء والنور». فلم يدر بخلدي أبداً أنه، بالإضافة إلى شبوة ستكون أرض سبأ أو أرض أُز ضمن نطاق تجولي. وقد وضعت الظروف كليهما في متناول يديّ، ليتوجا معاً قمة موضوع هذا الكتاب، ويقدما لي عنوانه. فسوف أرى في الحقيقة بنات سبأ، وأمهم مدينة مأرب نفسها، التي لم تعد جميلة كما كانت في الأيام الخالية، إذ أصابتها التجاعيد بفعل الزمن والإهمال، مهجورة بين الفيافي والقفار، أشلاء ممزقة لاسم كان عظيماً ذات يوم، وتتأمل بوهن وضعف في الكنوز الدفينة من تاريخها التليد. ولكن من خلال كنوزها وبؤسها الحاضر استطعت أن أستشف الروح الرائعة لمجدها العتيق. وسوف أرى البقعة نفسها التي تجلس عليها «الملكة» العظيمة التي ما زالت تذكرها الروايات في ثلاثة أديان سماوية عظيمة على الرغم من أن التاريخ قد نسيها أو لم يكتشفها بعد، بكل حُلِيّها وزخارفها ذات الروعة الإمبراطورية الفاتنة، وجماعة

---

(١) حبونا: واد يعد أكبر واد في المنطقة بعد وادي نجران، واسمه القديم حبونن، وينطق الآن حبونا والبعض يسميه حبونه (بالهاء)، وهو خطأ، وحبونا الآن محافظة تابعة لمنطقة نجران. أشار البلادي إلى بعض قرى حبونا وروافد واديه. البلادي، بين مكة وحضرموت، ص ص١٩٩-٢٠٦. (المراجعون).

الفيلة، وسرايا حملة الرماح، ومظلة الهدهد الذهبية والسوداء لتظلّها من وهج شمس الصحراء أثناء رحلتـها الرومانسية للملك سليـمان. وسوف أسير أيضـاً في طريقها، طريق الفيل، ممتطياً مركبة حديدية لم يُر مثلها في أرض سبأ حتى وقتي هذا.

إن رحلتها، قـد تكون في الحقيقـة منافسة لرحلتي أنا كأول رحلة مـحفوظة أو مدونة لعبور الجزيرة العربية بالطول. والشـخص الثالث الآخر الذي يحتمل أنه قد فعل الشيء نفسـه هو إيليوس جاللوس الذي أرسلتـه الإمبراطورية الرومـانية بعد عـهد هذه الملكة بألف عام لضم أراضي البخور للإمبـراطورية. ولكن جاللوس - الذي كان مصراً على تدمير الاكتـفاء الذاتي الاقتصادي لبلاد العرب السـعيدة، لم يصل إلى أبعد من، حسبما يخـبرنا بليني، كاربتا (وربما تكون خربات أو خربة أبي السعـود)، وفقد معظم جيشـه في رمال الصحراء الكبرى أثناء رحلة عـودته المشؤومة[١]. ومن ناحية أخرى، يعتقد أن بلقيس كانت على دراية كافيـة بالبحر الجنوبي، ويبدو أنها قابلت سليمان في تدمـر. ومن اللطف في الحكم على الناس أن نفـترض على الأقل أنهـا، مادامت قـد وصلت إلى هذه النقطة البعـيدة، لم تولِّ ظهرها عائدة دون أن تلقي نظرة عـلى البحر الداخلي، وربما قـامت بزيارة ابن عمـها، حِـرام (Hiram) ملك صور. وهكذا تظل بلقيس منافستي الوحيدة[٢]. والنظرة التي اختلستها على بيتها قد أثارت فيَّ شعوراً ودياً

---

(١) كانت حملة إيليوس جاللوس، سنة ٢٤ ق.م، واعتمـد في دخوله الجزيرة العربية على حلفائه النبط ووصلت هذه القوة إلى نجـران واستولت عليهـا ثم تقدمت جنوبًا إلى مارب، ولم يجد مـقاومة في طريقـه ثم حاصر مأرب ولم تسقط في يده لحصانتها، مما دفعه إلى العودة على أعقابه، وقد كانت حملة فاشلة لم تحقق أهدافها في احتلال بلاد العـرب السعيدة مصـدر التجارة والثراء في العـالم القديم. انظر بافقيه: تـاريخ اليمن القديم ص٧٤-٧٧. (المراجعون).

(٢) من خلال هذا الكتـاب سنلاحظ أن المؤلف يخوض في بعض الأحيـان بالحديث عن سليمان -عليـه السلام- وعن بلقيس. ولسنا بحاجـة للتنبيه إلى أن فيما يذكره الكثـير من المغالطات التاريخية أو الدينيـة لاعتماده في ذلك على الأساطير أو الروايات الإسـرائيلية. وما نعتقده ونعـتمد عليه مصدراً موثوقـاً في هذا الجانب هو ما ذكر في القرآن الكريم والسنة النبوية من قصص الأنبياء وأتباعهم. (المراجعون).

تجاه شخصيتها، واهتماماً غريباً بحياتها الخاصة. وتقدمها التقاليد لنا، طبقاً لانحيازها المحلي، على أنها الجدة الأعلى لاثنتين من الأسر الحاكمة، واحدة قد انقرضت منذ زمن طويل، والأخرى قضى عليها الغزو الأجنبي. والقصة العربية تفند مزاعم الأثيوبي. وهذا الأخير يكذب الشرير وينكر همس الفضيحة الذي أعطاه مادتها. وحافظت أوروبا في العصور الوسطى أو اخترعت رواية مغايرة للقصة والتي تميل إلى تفنيد قصة بأخرى، وتطعن في زعم الأثيوبي بالانتماء إلى أصل سبئي. ويتقابل الشرق والغرب في قياس حكمة سليمان المشهورة أو ينكر احتمال وجود علاقة بينه وبين قوم سبأ. ولا يقدم الشرق إلا دليلاً مروياً لروايته التي جاءتنا عبر مئات الأجيال من المستمعين "للإذاعة العربية" وهم الرواة، أما الحكاية الغربية فقد كانت مكتوبة في الحجارة، وبقيت حتى يومنا هذا تتحدى أي ترجمة دقيقة لها.

إن هذا اللغز يمكن أن يكون ممتعاً إلى حد كبير لمؤلفينا الذين يشتغلون بقصص الخيال البوليسية، ناهيك عن قادة الشرطة الأكفاء في إسكوتلنديارد الذين يضحك الناس عليهم أحياناً. ويعود الفضل لأثينا نفسها، التي كنت أستغيث بها أثناء حيرتي بمجرد أن وطأت قدمي عتبة سبأ، بمعرفتي بالإجابة. فمثل كلب بوليسي سري، أو ربما بالأحرى مثل كلب سلوقي جميل من صحرائي، كانت أثينا تلاحق هذه الأحجية عبر الوثائق الترابية في جبال الأوليمب. وهناك وجدت مفتاح اللغز -مفتاح سر سبأ- مختفياً بعيداً في سجل أحد المباني غير معروف ولم يعد له وجود للأسف. ولا يمكنني أن أفعل شيئاً أفضل من إيراد القصة كما هي بألفاظ مؤلفها - إميل مال حيث يقول:

"ولكن على بوابة سانت - بنين في ديجون . . . التي لم تعد موجودة اليوم - إلا أن دوم بالنشير احتفظ لنا بالصورة التي كانت عليها . . . يكتمل الزخرف (أي زخرف البوابة) بوجود ثلاثة تماثيل للملوك توراتيين وتمثال لملكة. وهذه الملكة

الغامضة ستكشف لنا هذه المرة عن سـرها. بدراسة الرسم الخاص بهذه الملكة يلاحظ المرء أمراً كـان من الصعب أن يصدقه لولا أن الشـواهد القديمة كانت تؤكـده: فالملكة المرسومة على بوابة سانت - بنين كان لـها قدمي أوزة. هكذا صوَّر فنان ديجون هذه الملكة الشهيرة التي لم تكن سوى ملكة سبأ.

لفتـرة طويلة من الزمن نسج الخيـال اليهودي كـثيراً من القـصص حول ملكة سبأ. في الشرق نُسجت حولها قصص أسطورية خيالية.

بكل هذه الملاحظات الطريفـة أترك سر ملكة سبـأ للآخرين يتـصارعون فـيه. وبينما كنت أتجـهز لبدء الرحلة فـقط أعطيت وصفاً لـكيفية تكـوين رحلتي مع فصل إضافي عن نتائـج ما جاءني من إلهامات أثناءهـا - البداية والنهاية لمسيـرتي مع سبأ. ولذلك لم يبق إلا أن أنغمس في صمـيم الموضوع مع تصوير موجز لبـيانات خروجي الذي، كمـا سيرى القارئ في الفـصل القادم، يبدأ على نحو مـفاجئ وغير مـتوقع، بقدر ما يتصل الأمر بهذا الكتاب - في نجـران، بعد أكثر من ثلاثة شهور من افتراقي عن الملك في آبار (المحدثة) وربمـا كان هناك كتـاب آخر يصور يومـاً ما الطريق على حدود اليمن عبر المرتفعات العالية إلى البحر الأحمر بالقرب من ميدي ومن هناك عبر طريق الساحل مـروراً بتهامة التي كـانت مزدهرة يوماً ما إلى مكة المكرمـة. وفي عام ١٩٣٢م عندمـا جئت من الربع الخـالي حتى وادي الدواسـر وبيشة عـدت إلى مكة بطريق الفيل الذي ذكرته من قبل ولذلك -في هذه المنـاسبة- آثرت أن أسير في طريق السيارات العـادي. ومشيت في دائرة واسعة، بدأت أولاً بالاتجاه للشـرق خلال واحة الخرمة، ثم صوب الجنوب بطريق وادي رنية إلى بيـشة حيث أخذت طريق الفيل من هناك مرة أخرى. وحتى بـيشة، لم تكن المنطقة التي مررت بها مـعروفة لأي فرد من البـشر غـيـري. فقـد غطت رحـلاتي عام ١٩١٧م و١٩٣٢م و ١٩٣٤م مـعظم هذه

الأرض ونتج عنها رسم خرائط لهـا. وكانت بيشة ورنية بالإضافـة إلى زيارتي لهما، قد زارهمـا رجل ألماني في عام ١٩٣٠م يُدعى ليـوبولد فايس[١] والذي لم يكن على أي حال مجهزاً بطريقة مناسبة للعمل الجغرافي الجاد، ولم ينشر في حدود علمي أكثر من بعض الرسومات الصحفية البسيطة لرحلته في هذه الأصقاع. وأجد لزاماً عليّ أن أذكر أيضاً أن السيد لاركن وربما آخرين غيره من «شركة التعدين العربية السعودية» قد تفحصوا المرتفعـات في جنوب الطائف حتى صفير وجحيفة شـمال - غرب بيشة في عام ١٩٣٦م بحثاً عن الذهب. وعلى أي حـال لم ينشر وصف أو تُرسم خريطة لهذا الجزء الشيّق من الاستكشاف.

وفيما وراء بيشـة، عبر خيبر الجنوب وخميس مشيط إلى أبهـا ومرتفعاتها التي تكسوها الغابات، ومن هناك بطريق أودية تثليث حتى حبونا ونجران كانت تلك المنطقة لم تسـتكشف بالكامل بعـد وإن وجـدت لها خـرائط على الإطلاق، فـهي من نسج الخيـال الذي يعتـمد على دليـل سماعي من الـدرجة الثالـثة. ومن المدهش حـقا أن الأتراك، الذين لهم باع طويل في الاحتلال العسكري والإداري لأبها، لم يفكروا أبداً أنه من المجدي أن يعدوا خـريطة معقولة لمنطقة عسـير. والمشكلة هي أن الخرائط ليس لها قيمة نقديـة إلا في زمن الحرب. والخرائط الحبشية - مهما كانـت سيئة - كان لها رواج طيب في عـامي ١٩٣٥ - ١٩٣٦م عندما كانـت أجهزة المذياع والصـحف تعج بالزينات الأثيوبية. أما الخرائط العربية فما زالت تشكل الاهتمام عند الخبراء الواعين،

---

(١) ليوبولد فـايس (١٩٠٠-١٩٩٢م) مستـشرق نمساوي وليس المانـياً أسلم وتسمى بمحـمد أسد كـتب عدداً من الدراسات معظمها في تـصحيح أخطاء المستشرقين عن الإسلام، وترجم صحيح الـبخاري، وله كتاب الطريق إلى مكة وكـتاب الإسلام على مـفتـرق طرق وغيرهـما. انظر: العقـيقي، المسـتشـرقون، جـ٢، ص٢٩١، (المراجعون).

على الرغم من أنه كانت ستواتيهم فرص سانحة لإظهار براعتهم في عام ١٩٣٤م لو كان هناك مسرح لعمليات الحرب على الحدود اليمنية. ياله من قائل شرير: أدعو الله أن تظل الجزيرة العربية دائماً وأبداً خالية من المشاعر التي تبدو أنها وحدها تطعن الناس في أحاسيسهم. إن الذين يستطيعون أن يصمدوا لوجبات مشبعة من الطبوغرافيا الجافة خالية من البهارات سوف يجدون الكثير من طبخي هنا. وفي نوعيته وكميته يكمن ادعائي الرئيس بالشهرة، وإذا كنت قد غفلت هنا وهناك أثناء تأدية واجبي فإنني أستطيع بالتأكيد أن أطالب النقاد بأن يغفروا لي ذلك لأنني، طول الوقت الذي قضيته كله بالجزيرة العربية -كنت أعمل بمفردي، وأشعل السراج حتى منتصف الليل «لأترك ملذات الحياة وأعيش أيام الجد والكفاح».

وقد كانت بعض هذه الأيام مليئة فعلاً بالعمل الجاد والشاق، ولكن هذا العمل الشاق كان لذيذاً وممتعاً بدرجة كافية، لاسيما في تلك الأماكن مثل نجران حيث كنت أمشي على خُطى هاليفي تماماً. مثل امرأة في عنفوان شبابها، هادئة ووادعة في تذكرها للمشاكل الماضية، ولكنها تواجه بسرور ما تبشر به أيام السلم من وعود تحت رعاية الحاكم الجديد[1]. ويمتد شريط عريض من الرمل الأبيض مثل الثلج، كخيط حيك به ثوب متباين الألوان فهناك الأخضر الفاتح لمروج الحلفا يلقي ظلاله على لون الدخن الفاتح والداكن في آن واحد. كما أن هناك اللون الأخضر الداكن لأشجار النخيل التي تخفي البيوت الريفية الشبيهة بالقلاع - وعلى كلا الجانبين تنهض الأهداب العظيمة للجُرُف السوداء التي يكسو قمتها شريط وعر من الصخور الرملية ذات اللون الخمري. ولم أر شيئاً أجمل منها في جميع أنحاء الجزيرة العربية. ولن

(١) يقصد هنا - حكم الملك عبدالعزيز -رحمه الله-. (المراجعون).

أنسى أبداً مشهد ذلك الوادي الساحر وهو يتدثر بضباب الصباح أو عندما يضيء بنور خافت، في حرّ ظهيرة الصحراء أو عندما تتوهج الجبال الغرابيب السود حتى تصير بيضاء براقة في الشمس الدانية، أو تحمر خجلاً مرة أخرى بنعومة ورفق في أشعة الغروب المائلة، إلى أن تمسي ذات لون أبيض وأسود تحت ستار الليل. ويوماً بعد يوم ولمدة شهر الآن، وشهر آخر أثناء عودتي من أرض سبأ كنت أكحل عيني بهذا الوادي العظيم الذي ينساب عبر الجبال حتى بحر الرمال، ذلك الذي يدعى «الربع الخالي». ويوماً بعد يوم كنت أتطلع عبر النهر إلى تاج المجد التليد، إلى المباني الأثرية المتهدمة لنجران.

وفي قلبي تقف نجران، عظيمة في حجمها وأهميتها. ولكن أسباب اعتقادي ذلك يجب أن تبقى حبيسة لأبوح بها في كتاب آخر. وربما يقوم المجراف ذات يوم بكشف جميع أسرار سبأ، حتى نتمكن من تقدير القيمة النسبية لمناطقها المختلفة ومكانها في تاريخ إمبراطورية طواها النسيان. وحتى ذلك الوقت نستطيع فقط أن نقترح بعض الرسومات الابتدائية لتملأ الفراغات الضخمة في الخارطة التاريخية. وعندما حان وقت ركوبي للخروج من نجران بعد هذه الأسابيع الأولى التي قضيتها تحت سقف الجود والكرم لإبراهيم النشمي أميرها [1]- كنت قد ملأت أوراقي فعلاً بالكثير من المواد التي يمكن فهمها واستيعابها على مهل.

---

(١) هو إبراهيم بن عبدالرحمن بن إبراهيم النشمي من رجالات الملك عبدالعزيز المعروفين. ولد في شقراء عام ١٣١٣هـ واشتغل بالتجارة خاصة تجارة السلاح وعن طريقها تعرف على الملك عبدالعزيز، . تولى عدداً من المهام منها إمارة ينبع البحر، ونجران والخرج واستمر على مكانته حتى توفي -رحمه الله- عام ١٣٩٨هـ.
للمزيد انظر: مجلة الدرعية، العدد الأول والثاني المحرم، ربيع ١٤١٩هـ، مقالة عن إبراهيم النشمي بقلم الدكتور عبداللطيف بن محمد الحميد. (المراجعون).

الفصل الثاني

الخروج

. . . هب . . . ياهيبا ، هيـبا ، هيبا . . . ياهيـبا - إيب، ها، هيا - إيب، ها ، هيا - ايب ها ها هياى - ها ها ايب.

هكذا تهتف بنات ونساء يـام المفعمات بالحيوية والـقوة، وهن يمشين بطريقة محفوفـة بالمخاطر في مجموعات من ثلاثة أو أربعة على الـسلم الصخري عند فوهة البئر الواسـعة، ثم يسحبن بكل قوة الحـبال الغليظة ليرفعن الماء الـذي يهب الحياة من الأعـماق السـفلى. ومن عـمق ١٨ قامـة يسـحبن هذا الماء في دلو من جلود الماعـز مشدودة على إطارات من الوَتَلَ، وينشـدن نشيدهن ذا النغمات العـذبة عندما يسحبن الحبـال، كل واحدة منهن في دورها تمسك الحـبال بيـد واحدة أو بكلتـا يديها. هذه الحبال تجري على بكرات صنعت بالمنازل، ومـثبتة على مسافات فيمـا بينها حول البئر على إطار خشبي تسنده أعمدة متـينة. وكل حبل من هذه الحبال أطول قليلاً من عمق فتحة البئـر، وبه دلو في كلا طرفيه حتى يمكن أن يتم ملء أحدهما أسـفل البئر بينما الآخر يتم الإمسـاك به عندما يصل إلى القمة لكي يتم تفريغه فـي أحواض تشبه دلاء البئر ولكنها أكبر منها وموضوعة على منصات، والتي وصفت في مكان قريب. وكل منصة من تلك المنصات تحيط بها دائرة من الأغنام والماعز أو الإبل تنتظر إطفاء ظمأها بعد قضاء أيام معلومة في مراعي الصحراء التي تمتد ليومين على أقصى تقدير للأغنام والماعز وأربعة وخمسة أيام في هذا الموسم من السنة للإبل.

ولقد وصلنا بئر الخضراء العظيم قبل الظهر بقليل يوم ٢٥ يوليو، بعد رحلة يسيرة لحوالي خـمسة عـشر ميلاً عـبر أرض صحـراوية منبسطة تكسوها الأشـجار القصـيرة المتناثرة، من (ابن منجم) وهي أقصى قـرية إلى الشرق من نجران، حيث كنا قـد قضينا الليل بها. وقد انطلقت مجموعة منا بإبلهـا عند انفلاق الفجر، حيث خيّمت بالفعل في

أيكة صغيرة من أشجار السنط الكبيرة المتناثرة فوق البئر عندما التحقنا بها مرة أخرى. وكان الغداء جاهزاً تقريباً في مراجل تغلي تفوح منها رائحة الطعام، وفور انتهائي من ترتيب متاعي تحت الظل الكثيف للشجرة التي اختيرت لجلوسي تحتها، مشيت على مهل للبئر. وكان بعض رجالنا قد سبقونا إلى هناك بالفعل، يحدثون البنات تحت ستار عمل ترتيبات للسقيا النهائية لجمالنا في اليوم التالي. ولذلك جلست معهم على سلم البئر لأستمتع بهذا اللهو والمزاح. وقد كن أيضاً جميلات وبعضهن يخففن من جهدهن غير اليسير على الإطلاق، وضحكات المرح والثرثرة التي لا تنتهي. وكانت أجسامهن تنحني وتهتز فوق حافة فتحة البئر عندما كن يجتهدن لسقي حيواناتهن. وكانت ملابسهن البسيطة - أحياناً - والمبللة بالماء المتساقط من الدلاء، تنم عن جمال أجسامهن بالداخل، ولم يخف وجوههن أي ستار عن أعين الرجال، فقد كن يتمتعن بحرية الصحراء أثناء تنفيذ أعمال الصحراء - مثل سحب الماء وقطع الأخشاب.

وبدت واحدة من بين النساء الحاضرات كما لو كانت ملكة وسطهن، فربما كانت بنت شيخ أو زوجة شيخ. وبوقار واضح، مثل واحدة اعتادت على القيادة، أخذت مكانها في أحد المجموعات الصغيرة لسحب الحبال تماماً مثل الباقيات، ولكنها كانت تعمل في صمت إلا في أحيان قليلة يصدر منها صوت «هيب».

كانت تتمتع بوجه وجسم جميلين، وترتدي ملابس جديدة زرقاء داكنة، مع حزام من نسيج الصوف مطرز حول وسطها النحيل في تباين مع جدائل الحبل الأسود التي كانت بمثابة أحزمة للنساء الأخريات. إن بئر الخضراء يبلغ قطرها عشرين قدماً ومكسوة بالحجارة في جميع جوانبها الداخلية حتى مستوى الماء، وتقع على الضفة اليمنى لوادي نجران وترتفع قليلاً فوق النقطة التي تخرج عندها القناة من الصخور في سفح التلال إلى رمال الربع الخالي. ولذلك تعد البئر منطقة توقف للسقيا ذات أهمية عظيمة لبدو يام الذين يجوبون الصحراء برجالهم وقطعانهم. وأثناء شتاء ١٩٣٣ - ١٩٣٤م قام الجيش اليمني، الذي احتل وادي نجران لأربعة أو خمسة شهور، بتدمير

هذه البئر لحرمان قبيلة يام المناوئة من نقطة التجميع المحتملة هذه. ولقد قامت الحكومة السعودية في الحقيقة بإعادة حفرها وإصلاحها في غضون الشهور الستة الماضية، والآن استعادت دورها الطبيعي في اقتصاد الصحراء. وتعود ملكيتها لقبيلة يام ولكن تزورها القبائل الأخرى بحرية، من أقرب الأماكن وأبعدها. حيث تأتي إليها قبيلة وائلة من وادي الفَرْع المجاور، وقبيلة الدواسر من واديهم العظيم خلف الصحراء، بل وحتى قبيلة الصيعر تأتي إليه من حدود حضرموت البعيدة.

وقد وجدناه الآن منتجعاً ملائماً يمكننا فيه أن نعتني بتنفيذ ترتيباتنا ومعداتنا للرحلة الطويلة إلى شبوة وما وراءها. وكان أمير نجران ومسؤولون آخرون سوف يزورونا في اليوم التالي ليروا أن كل شيء على ما يرام وتوديعنا في رعاية الله. وفي الوقت نفسه وبعد قيلولة هنيئة في ظل أيكة كثيفة أطلقت لنفسي العنان لاستكشاف المنطقة المجاورة. وتسلقت أنا وجعمل، وهو دليلي اليامي من فخذ جُشم قمة جرانيتية مستدقة الطرف تسمى الغر يبلغ ارتفاعها حوالي ٥٠٠ قدم فوق مستوى الوادي في سلسلة التلال المنخفضة التي تشكل الضفة اليمنى للوادي. ومن هنا تمتعنا بمنظر رائع للمنطقة المحيطة بنا في كل اتجاه. فعند أقدامنا يقع البئر مع مخيمنا الصغير المنظم بطريقة مريحة بين أشجار السنط. وعلى البعد تجاه الغرب ترتفع رؤوس الصخور الرملية لقرن بلحارث. وعبر الوادي بعرض خمسة أميال من هنا، تمتد سلسلة جبال شعثاء التي تشكل الضفة اليسرى وتمتد في ذيل ضئيل يكاد لا يدرك بالعين داخل سلسلة التلال الطويلة والمنخفضة والأرض الرأسية لعين حبونا الناتئة في الصحراء. ونحو الشرق يبسط الربع الخالي عباءته من الرمال الذهبية على وجه الأرض إلى الأفق البعيد. وتسير قنوات حبونا ونجران وصلة في أقصى الجنوب، خارجة من حافة المرتفعات في خط مستقيم مثل النرد أو كأشرطة خضراء داكنة وسط الرمل الذي كان يتخلله هنا وهناك مجموعات من التلال المنخفضة ذات اللون الداكن من صخور البازلت أو

الجرانيت. ويرفع كل من تصلال وتنصاب رأسيهما الشاهقين لأعلى من الجبال حولهما، كأنما يمثلان حارسين توأمين لفتحات الوادي. وعلى مسافة أبعد قليلاً إلى الشرق تبرز مجموعة تلال بني كلب المنخفضة مثل جبل جليدي أسود في بحر من الروابي. ونحو الجنوب يقع جبل الثّار الهرمي القاتم ليخفي بشموخ بين صخوره شديدة الانحدار وذات الرؤوس الناتئة والحادة. وكأنما يقف حارساً على فم وادي الفَرع حيث يبرز هناك من المنطقة المرتفعة في خليج صلة الرملي العميق. وخلف «الثّار» وإلى الجنوب الشرقي قليلاً يرتفع برج ميهر[1] المكوّن من الصخور الرملية ذوات الرؤوس المربعة، والذي يرتبط في الأسطورة المحلية بأبي زيد الهلالي البطل القديم من جنوب الجزيرة العربية، ويبرز بوضوح بين جبالها. وإلى البعيد في الشرق بين الرمال أشار جعمل إلى نقطة سوداء صغيرة وهي تل خباش والذي اضطررنا أن ندور حوله في دائرة واسعة لنتفادى الرمل الناعم لوادي صلة في أول مرحلة من رحلتنا. وفي الوقت الذي كنت فيه أشهد هذا المنظر كله كانت الشمس تغطس في حمام من ألسنة اللهب الضبابية، وأشعتها تنطلق بصعوبة لتشق عُباب السماء المليئة بالتراب والضباب خلف جبال حبونا الشمالية - الغربية. وأسرعنا للنزول ونحن نقفز من صخرة إلى أخرى في جانب التل المنحدر بشدة عندما كان الغسق يزداد ظلاماً شيئاً فشيئاً. وكانت الخفافيش تطير فوقنا محدثة طنيناً وهي تخرج من كهوفها وشقوقها بين الصخور القديمة. وهكذا تجاوزنا البئر الذي أمسى الآن مهجوراً وعدنا إلى المعسكر.

وفي الساعات الأولى من صباح اليوم التالي سمعنا من على بُعد أزيزاً غير واضح لسيارة تقترب منا، وبعد ذلك بدقائق قليلة كنا نرحب بالأمير وصحبه بينما عبرت سيارتهم الشاحنة قاع الوادي الرملي ووقفت بجوار البئر. ثم سرنا إلى منطقة فيها كتل من الصخور الجرانيتية الهائلة حيث تقرر أن نقضي اليوم هناك في الظل

---

(1) ميهر: جبل في بلاد وائلة -من بكيل- به آثار حميرية، سيشير المؤلف إلى بعضها لاحقاً. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٤، ص٤٢٦. (المراجعون).

البارد الذي توفره تجاويفها التي تشبه الكهوف وأقـواسها الطبيعية. وتم إحضار الشاي والقهـوة من معسكرنا للتـرحيب بالجماعـة وإنعاشهـا، وفي الوقت المناسب تم تقديم وجبة الغداء الوفيرة عند منتصف النهار والتي شملت الأرز ولحم الضأن. وفي الوقت نفسه قمت أنا والشيخ عبدالمحسن[1]، قاضي نجران، بالتجوّل حول الصخور بحثاً عن أي نقوش ورسـوم. وقد عـثرنا على عـدد من كليهـما، ولكنهـا كانت جمـيعـاً قد أصبحت تالفة بـصورة سيئة من أثر الرياح والطقس باستـثناء بعض الخربشات القليلة المكتوبة باللغة العربيـة الحديثة نسبياً وليس لها أية أهميـة على وجه الخصوص. وعلى أي حال كان من الواضح أن هذه الصخور قد آوت العرب الرعاة منذ وقت موغل في القدم. وقـد سجل جوزيف هالفي نقـوشاً حمـيرية من هنا ولكني لم أسـتطع إعادة اكتشافهـا، وقد عثرت على كل حال على خربشة باللغة العـربية القديمة بين الكتابات الكثيرة الكوفية العربية على الجدران الـصخرية. ويمكن العثور على كتابات أخرى من الخط البـدائي نفســه على الصخـور المواجهـة للجنوب في الجانب الآخـر من سلسلة الجبال الرئيـسة. وكانت صور الإبل وطيور الـنعام والحيوانات الأخرى شـائعة بدرجة كافـية، ولكن الأشيـاء الأكثـر إثارة كانت عدداً من الأشكال الهـندسية ذات أهمـية غامضـة. وقد كان القـاضي شغوفاً بدرجـة عميقـة بالتاريخ القديم والمعاصـر لمنطقة نجران، وكان يقـضي كثيراً من وقته فـي مقابلة البدو الزائرين ليجـمع منهم معلومات عن الأماكن والقرى التي توجد بها نقوش أو أي سجلات أخرى تعود للماضي. وفي الحقيـقة يعود له ولأبحاثه الفضل في أنني قـد سمعت بالكثيـر من مثل تلك الأماكن التي تمكنت لاحقاً من زيارتها ورؤيتها بنفسي.

---

(١) هو الشيخ عـبدالمحسن بن سليـمان بن محمـد الخريدلي قاضي نجـران آنذاك تولى القضاء في نجران بعـد عام ١٣٥١هـ وتزوج واستقر بها إلى أن كانت وفاته فيها عام ١٣٥٥هـ أو ١٣٥٦هـ.
عبدالله البسام: علماء نجد خلال ثمانية قرون، ج٥، ص٢٢-٢٤. (المراجعون).

ولقد استحوذ على الأمير نفسه منذ البداية اهتمام عميق بمشروع بعثتنا المقترح، وإليه يرجع الفضل في تنفيذ جميع الترتيبات الضرورية بصورة حسنة جداً وسريعة. والحق أنني قد تركت له الحبل على الغارب ليكون حراً في إنفاق تلك المصروفات الضرورية نيابة عني. ومن واجبي أن أسجل هنا مع الشكر والعرفان بالجميل أن إجراءاته المالية الناجحة لا يضارعها إلا كفاءة تصرفاته. وربما يكفي أن أذكر أن الإبل التي استأجرها لاستخدامنا لم تكلف أكثر من خمسة عشر ريالاً (حوالي جنيه استرليني فقط) لكل جمل في رحلة استغرقت شهرين ونصف.

وكان الأمير، إبراهيم النشمي، قد أحضر معه لوداعنا ابنه الصغير الواعد، محمدًا، وهو فتى في مقتبل الشباب ويبلغ حوالي خمسة عشر عاماً من العمر، وأخاه، واسمه أيضاً محمد، الذي كان في ذلك الوقت نائب الأمير على منطقتي حبونا وبدر. واكتملت الصحبة بحضور موظف المالية المحلي وقائد قوة الأمن وعدد من أتباع الأمير النجديين. وفي الوقت الذي انتهينا فيه أنا والقاضي من بحثنا عن النقوش كان الغداء جاهزاً، في حين كان الأمير قد انتهى من المراجعة الختامية لجميع الترتيبات المتصلة بأفراد ومعدات بعثتنا. ولم أستغرق الآن وقتاً طويلاً في مناقشة جميع التدابير التي تم اتخاذها. وتم تسليمي قوائم بالدفعات المقدمة التي تم تسديدها لأصحاب الإبل على اختلافهم وقوائم المبالغ الباقية التي يجب دفعها عند عودتنا، وفي تلك الأثناء تم تعريفي على سعد ابن معيلم الذي سيكون مسؤولاً عن جميع الأفراد بالبعثة. ولم تستهوني عينه البيضاء ونعومة سحنته حتى تجعلني أنحاز لصالحه كثيراً عند أول نظرة. ومع ذلك ثبت أنه كفء بدرجة معقولة كوسيط للتصرف في كثير من بنود الأشغال الصغيرة، مثل: المشتريات المحلية، والتفاوض مع المرشدين لإدراجهم في قوائم الأفراد العاملين معنا، والإشراف على تحميل الجمال وتنزيلها وخلافه، والتي تعد جزءاً لا يتجزأ من مثل هذه المغامرة ولا يمكنني أن أدخر وقتًا لها وسط خضم الانشغال بالأمور الأخرى الأكثر أهمية. وعلى أي حال كان من الواضح أنه لا يستطيع السيطرة على العناصر المختلفة في جماعتنا، لاسيما

أولئك النجديين الثمانيـة من أتباع الأمير الذين كانوا يشكلون نوعاً من الحراسـة الشخصية المسؤولة عن سلامتي. وحيث إنهم كلهم كانوا من فئة الزكرت[1] مثل سعد فإن كل واحد منهم كان يعد نفسه مساوياً له أو أفضل منه، قـد جعلهم أقل العناصر سهولة في قيادتهم من بين الجماعة عامـة. وبالمقارنة معهم كان البدوي يعد قديسـاً. وفي الوقت نفسه كانت ملابسـهم الرائعة وإبلهم المكسوة بأغطيـة مزركشة بشـكل جذاب قد جعلتـهم يبدون في صورة بهـية وجميلة وكـانوا محط إعجاب الجـميع أثناء إقامـتنا المؤقتة في شبـوة ومنطقة حضـرموت. وأنا مـقتنع تمام الاقـتناع، على الرغم من أنه لم تأت مناسبـة أبداً لاختـبار ذلك، أن هؤلاء الثمانية سوف يقفون معي وقفة رجل واحد في أي موقف جاد أو خطير.

ولبعض من الـوقت تكونت صحبـتي من النجديين الثـمانيـة تحت قيادة سـعد وحوالي اثني عشر رجـلاً أو أكثر من رجال قبيلة يام تحت قيادة جـعمل، بالإضافة إلى فرج بن قـرقاح من قبـيلة قحطان الذي رافقني من أبهـا وتحوّل إلى صيـاد طيور كفء بدرجة معقولة أثناء إقامتنا في نجران. كمـا كان هناك أيضاً بين المرافقين سعد بن عثمان الذي التحق بنا من مجـموعة رحلتي في الربع الخالي ويعـمل على سلخ الطيور وخادم عمومي، عـلاوة على طباخ وقهوجي وكلاهمـا وفرهما الأمير. وهناك محـمد السائق وبلال الميكانيكي الذي ارتبط بنا في نجران كمساعد لمحمـد. وكان يزعجني قليلاً حقيقة أن المجموعة لا تضم ممثلاً واحداً أو دليلاً من القبائل الأخرى الموجودة في مناطق أخرى غيـر منطقة قبـيلة يام، مثل قبـائل دهم، والصيعـر، والكرب، ولم أستطع أن أتمالك نفسي من التساؤلات إذا مـا كانت تأكيدات الأمير بأن هذا القصور سـوف يتم استيفاؤه في الأماكن المختلفة أثناء سيرنا بالطريق لاستكمال الإجراءات والترتيبات التي اتخذها، وهل ستبرر النتائج ذلك. والحق أنني أسـأت إلى الرجل بمجرد الشك في تأكيداته، ففي كل حالة كان الرجال الذين سماهم يصلون إلى معسكرنا في الأماكن التي دبرها.

---

(١) ترجع هذه الكلمة إلى الكلمة الإيطالية (Sacurta) أو (Shurta) الشرطة، وأيضاً من الكلمـة الفرنسية (Surete). (المؤلف).

وهكذا كان كل شيء جاهزاً فيما بعد ظهر هذا اليوم. وتبودل الوداع الحزين الطويل بين النجديين معنا وأولئك الذين يتبعون الأمير العائدين معه إلى نجران. إنهم سيعودون إلى زوجاتهم وإلى الحياة المريحة الرتيبة بمقر الإمارة. ووقفنا على حافة المجهول، ولم يعلم أحد سواي طول المسافة التي ننوي أن نقطعها إذا سارت الأمور لصالحنا. وكانت شبوة قد ذكرت في الاتفاق غير المكتوب الذي عقدناه مع رجال الإبل على أنها أقصى نقطة في رحلتنا والتي لن يطلب منهم بعدها السير تحت أي ظرف من الظروف. ولم نتمكن من بدء الرحلة إلا في الصباح التالي، وبعد مغادرة إبراهيم النشمي وصحبه تجولت حول الوادي وأشجار السنط بحثاً عن الطيور. وكانت البئر مزدحمة طول الصباح، وهي تمد قطعانًا هائلة من الإبل بالماء بما فيها جمالنا نحن. وفي منتصف النهار كانت البئر قد جفت تقريباً، ونزل فيها رجلان بالحبال ليغرفا الماء في أوانٍ من القطرات الضئيلة في أطراف البئر، وجاء الماء مثقلاً بالطين الأسود، بيد أن الجمال قد سحبت الماء في بطونها وهي تصفيه من خلال الضغط على شفافها. ثم تم صب رواسب الطين على الأرض، وشكلت بركة صغيرة من الوحل الأسود كريهة الرائحة حول البئر. وقد تقلَّب أحد الجمال في هذه القذارة ليخفف من الحكة في جلده المغطى بالقراد، ولكن صاحبه قد انهال عليه بضربات مدوية حتى انتصب الجمل واقفاً على قدميه مرة أخرى. وجاء زوجان، كان من الواضح أنهما قد تزوجا حديثًا، إلى البئر ومعهما حيوانات قليلة لسقيها. وكان معهما حبل جديد تماماً، حيث أنزلاه في البئر حتى يتشبع بالماء قبل الاستخدام. ثم اختبرا استعماله، ولكن ثبت أنه أقصر من عمق الماء بقامة واحدة. وأخرجا جديلة من حبل قديم من متاعهما الضئيل، وقاما بجدلها مع الحبل الجديد، وبدأ العمل - حيث انهمك الرجل وزوجته في سحب الحبل ولا يتبادلان كلمة واحدة إلا ما ندر إلى أن انتهيا من عملهما وغادرا المكان.

وهكذا انقضى النهار، وحلّ الظلام، وكان كل شيء جاهزاً للمغامرة التي ستبدأ مع الفجر. وتضاءلت نيران المعسكر عندما هجعت كل جماعة في سبات عميق، وبقي سراجي المتوهج الوحيد ليضيء الظلال المظلمة للشجيرات المحيطة بنا. وبينما كان الظلام لا يزال يلفنا بصمت مطبق، وكنت تقريباً قد أخلدت لنوم مريح، على ما يبدو، فإذا بنداء الصلاة يعلن مجيء يوم جديد. وكانت جماعة الإبل سوف تسلك طريقاً مباشراً عبر المنطقة الجبلية والرملية إلى أن تصل إلى النقطة المتفق عليها لإقامة المعسكر القادم، أما نحن، ركاب السيارات، فقد بدأنا السفر عند الساعة الثامنة صباحاً حينما بدأت القطعان الأولى من الأغنام ورعاتها البنات تصل للبئر. ولحوالي ميل التزمنا قاع الوادي، ونحن نمر بين تلال هضبة الرّويكبة وهي ترتفع شامخة على كل من الجانبين مثل مدخلين هائلين مهيبين. ومن هنا تنحدر التلال للوراء نحو الجنوب، وتشكّل خطاً حاداً فاصلاً بين الجبال والصحراء. ويسير الوادي في خط مستقيم إلى أن يصل بئراً قديمة مطمورة تسمى بئر الحجف[1] في بطن الوادي قرب تل فريع الصغير، ثم يواصل امتداده إلى أن يدخل في الرمال التي لا حدود لها - مثل شريط واسع أخضر من شجيرات الراك والسواد وسط التلال الصفراء.

وعندما تركنا الوادي خلفنا، اندفعت السيارات الآن على طول الحافة الخارجية للتلال عبر سهل رملي منبسط يندر فيه غطاء الأشجار إلا من بعض الأجمات اليابسة القصيرة وشجيرات السنط القصيرة مثل مظلات كثيرة تقف على مقابضها. وبعد أن مشينا حوالي خمسة أميال عبر هذا السهل، الذي يعرفه البدو بصورة غامضة باسم عضيات نجران، أتينا على هضبة صغيرة مدورة تسمى «جعل الأبيض» وهي من صخور الجرانيت والكوارتز، تمتد نظيرها «جعل الأسود» المكوّنة من صخور البازلت، إلى البعيد قليلاً نحو الجنوب الغربي. هذه الهضاب الصغيرة المتناثرة، مثل لقيلاء

---

(١) الحجف: قرية تقع على ضفاف وادي حبونا. البلادي، بين مكة وحضرموت، ص٢٠٦. (المراجعون).

وخباش التي وصلناها فيما بعد - لا ترتفع إلا حوالي خمسين أو ستين قدماً تقريباً فوق سطح السهل الرملي. وفي هضبة جعل الأبيض عثرت على رسم بدائي على الصخر لرجل شاهر سيفه مستقيماً في يده اليمنى وخنجر في وسطه.

وكان توقفنا الثاني في «لقيلاء» على بعد حوالي سبعة أو ثمانية أميال للشرق. وقد كانت عبارة عن هضبة صغيرة مكوّنة من صخور الجرانيت الضخمة التي تتراكم فوق بعضها بصورة مفككة في وسط السهل الواسع نفسه، الذي كان هنا مكسواً بالرمل بشكل كثيف حيث تلاشى فيه الشريط الضيق من الشجيرات الذي يميز قناة وادي صلة بالقرب من الهضبة الصغيرة مقابل الخط الزهري المنخفض في أول سلسلة حقيقية من سلاسل التلال الرملية في الصحراء. وبعد مواصلة السير حوالي سبعين ميلاً على طول خط سلع وصلنا إلى خباش وهي عبارة عن كتلة صخرية منخفضة مكوّنة من الجرانيت الرمادي ذي الحبيبات الخشنة وقد طمسها الرمل تقريباً. وكانت هذه أبعد نقطة وصلناها في الشرق حتى الآن. وخلفها تمتد رمال الربع الخالي الكثيفة. والحقيقة أننا حتى هذه اللحظة لم نواجه أي صعوبة تذكر، على الرغم من أننا قد قاومنا إغراء مطاردة بعض الغزلان التي رأيناها في طريقنا وزوج من طيور الحبارى. وفي جولة بحث حول هضبة خباش لم نعثر إلا على قشر بيضة نعام، ولا شيء أكثر من ذلك. وإلى البعيد باتجاه الشرق لاحظنا هضبة أخرى سوداء صغيرة تسمى «القفال» وسط الرمال، بينما في الضباب البعيد في اتجاه جنوب ـ جنوب شرق كانت ترتفع سلسلة هضبة ذات الصخور الجرانيتية العظيمة، والتي سوف نصلها في غضون يومين من هنا. والنباتات في هذه المنطقة كانت محدودة تقريباً على حشائش النصي، ولكنها كانت ميتة وجافة جداً.

وامتد سيرنا الآن باتجاه الجنوب -الجنوب الغربي نحو فم الوادي ويسمى إمارة والذي يهبط في اتجاه جنوب- شرق من تل مرتفع قليلاً بهذا الاسم نفسه في قرية ميهر المجاورة. وبعد حوالي تسعة أو عشرة أميال في الرمال وصلنا إلى نقطة يتلاشى عندها

هذا الوادي في الصحراء بين سلاسل تلال البقع وعباسة المنخفضة. ومن هناك انطلقنا في قاع الوادي الوعر قليلاً حوالي ثلاثة أميال حتى وصلنا إلى مجموعة صغيرة من شجر السمر (أي السنط) وفيرة النماء والتي كانت مكان الالتقاء المتفق عليه مع مجموعة الجمالة. وهكذا اخترنا هنا موقعاً ملائماً لمعسكرنا. وكان الوقت قد تجاوز الواحدة ظهراً بقليل، ولكن الريح الشديدة كانت بالفعل قد بدأت تهب علينا، مثلما كانت تفعل كل مساء في الخضراء، وكان الرمل يندفع بقوة في عواصف عظيمة عبر الوادي. وكان معسكرنا يقع قريباً من المقدمة المنخفضة لسلسلة جبال طويلة من صخور الجرانيت القاتم تسمى خرطم الصعرة، والتي تشكل الجبهة الشرقية لتلال اليمن.

وكنا في هذه النقطة ما نزال في الأراضي السعودية، ومع ذلك لم يحتفظ جباة ضرائب نجران إلا حديثاً فقط بسجلات سنوية للأغنام والإبل التي تشرب من المايين كذلك في وادي الحشوة وكلاهما يقع بعيداً إلى الغرب من معسكرنا. ومسألة الحدود بين اليمن والسعودية قد خضعت مؤخراً جداً للنظر من قبل الحكومتين، وسوف نوردها بالشرح في الوقت المناسب. إن الحدود الجغرافية الطبيعية دقيقة إلى حد يثير الدهشة، ولكن يجب النظر في مسألة حقوق السقيا داخل حواف التلال؛ ولذلك يجب أن تسير الحدود السياسية مع الحدود القبلية المعترف بها، والتي تم تحديدها منذ زمن طويل مع الاعتبار الملائم لجميع المصالح المعنية.

وبعد الظهر تسلقت إلى نقطة ممتازة في سلسلة الصعرة التي تطل على المنطقة وتوفر رؤية جيّدة. ويمتد وادي إمارة في خط عريض من الأشجار الذابلة وحشيش الثمام الجاف نحو ميهر ويفصله رف منخفض من الحصباء عن وادي الحشوة المشابه له الذي تقع في جانبه، على بعد مسيرة يوم مع اتجاه المجرى قرية يمنية تحمل الاسم نفسه، وتتكون من مبان متناثرة تشبه القلاع وسط البساتين، وتسكنها عشيرة وائلة، وعلى مقربة من أعالي القرية يتلقى الوادي المياه المتصرفة من وادي أملح وضدح وكلاهما به مجموعة من منازل عشيرة وائلة في مجراه البعيد. ويصل وادي الحشوة

إلى الصحراء جنوب سلسلة البقع التي ذكرناها من قبل، ولكن لا هو ولا وادي إمارة يتقدمان كثيراً للأمام عكس الرمال الزاحفة التي تعترض تقدمهما. وكلا القناتين تندمجان بصورة عامة في حديث البدو تحت اسم واحد وهو وادي العطفين.

وحيث إن فترة بعد الظهر قد انقضت دون ظهور أي أثر لجماعة الإبل التابعة لنا فقد بدأنا نتساءل ما إذا كانوا قد أخطؤوا في الوصول إلى مكان الالتقاء أو ضلوا في الطريق. وفي الحقيقة لم يصلوا إلا الساعة الثامنة ليلاً. ويعود سبب التأخير جزئياً إلى سقوط أحد الأحمال، ولكن السبب الأكثر خطورة كان اختفاء ناقة أثناء توقفهم منتصف النهار. ولم يكتشف أحد اختفاءها إلا بعد أن تمّ إعادة الإبل من المرعى لاستئناف السير في فترة بعد الظهر، وبعد ذلك تم اقتفاء أثرها في طريق طويل حتى الخضراء حيث عادت إلى هناك بحثاً عن صغيرها الذي انفصل عنها ذلك الصباح. وبدا كل فرد في غاية السرور على الرغم من ذلك الحادث، وسار كل شيء على ما يرام. وكان الليل وساعات الصباح الباكرة جميلة جداً بصورة عامة، إذ كانت باردة وخالية من الريح في تلك الفترة من العام. وفي ذلك المساء على وجه الخصوص كانت السماء ملبدة بالغيوم بعد الغروب مباشرة، ولكن عندما غاب القمر حوالي الساعة العاشرة مساءً كانت السماء قد أمست صافية مرة أخرى وتلألأت النجوم ببريقها الآسر. وعلى أي حال هبت في الصباح الباكر من اليوم التالي ريح مفاجئة، ليست شديدة جداً، ولكنها كانت مستمرة، وغطى الرمل المتطاير الوادي مما جعل الرؤية محدودة. وكان من المقرر أن يتم سقيا الإبل في المايين على بعد أميال قليلة فقط، وقررت أن استغل هذه الفرصة لزيارة قمة ميهر وتبعاً لذلك انطلقت بقوة عبر وادي إمارة حتى دخلنا وادي الحشوة الذي يتدفق عند هذه النقطة من قناته بأعلى التل في وادٍ رملي واسع مليء بأشجار السنط وشجيرات الراك والنباتات الأخرى. ولفترة من الوقت طاردنا بعض الغزلان بلا نجاح، ثم مضينا في خط مستقيم نحو قاعدة تل ميهر. وهناك أوقفنا السيارتين، وأسرعت أنا وجعمل في التسلق بصعوبة

على الواجهة الجرانيـتية للجبل. وبعد حوالي ألف قدم فـوق سفح التل وصلنا قاعدة ذروة ضخمـة من الحجر الرملي التي تشكل القـمة الحقيقـية. وبعد حوالي مـئة قدم أخرى وصلنا إلى قاعدة عريضة ترتفع منهـا الأسوار العمودية «القلعة» أبو زيد حوالي أربعين قدماً حتى القمة المسطحة. وقد بدا هذا الجزء الأخير غير يسير المنال من الناحية العملية ولم أبذل إلا مـحاولة فاترة لتسلق الجُرف عن طريق سلسلة الشـقوق الضحلة والمتباعدة عن بعضها في الصخور والتي صنعها الإنسان بلا ريب؛ ولذلك اكتفيت بأن أدور دورة كاملـة حول «القلعـة» على طول القاعـدة العريضة الـتي تدعمهـا. وعلى الأسوار الـعمـودية كانت هناك بعض النقـوش القليلة مكتـوبة بالخط العربي البـدائي العادي علاوة على عدد من الرسوم البـارزة ذات الأهمية الكبرى. ويبدو أن أحد هذه الرسوم كان صورة شخـصية لأبي زيد نفسه مع إضافة قضيب ذي نِسب مـبالغ فيها. والرسوم الأخرى تمثل ماشيـة، بينما كانت مجموعة أخرى بكاملها مخـصصة لمعركة ضخـمة بين كـائنات بشرية وثعـابين كبيـرة. وحيث إنني قـد قمت -حـسب أقصى قدراتي- برسم الصور والنقوش، فقد جلست مع جعـمل للتمتع بهذا المشهد العريض نأخذ وجبة بسيطة من الخبز والماء كنا حملناها معنا. وأخرجت علبة ساردين أيضاً من الجراب، ولكن جعمل رفض تناول أي شيء من هـذا الطعام المريب، وهكذا التهمت السمك كله بمفردي.
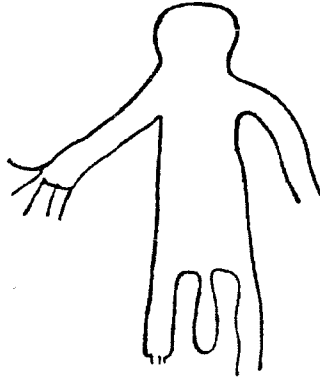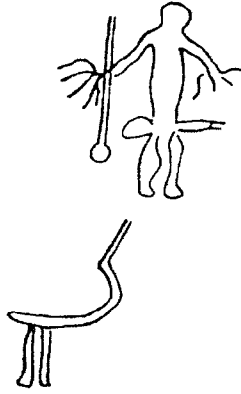
وتحتنا -على مسافة غير بعيدة- كان رجالنا ينعمون بنوم القيلولة عند منتصف النهار في واد ظليل، بينما فوقهم بقليل في نتوء من الوادي فوق مضيق صخري قصير كانت تقع عين الماء "المايين". وقد نزلنا في ذلك الاتجاه، وواصلت وحدي السير على الأقدام صوب معسكرنا، في حين انطلق جعمل ليرشد السيارات لتسلك الوادي. وكان عمق عين الماء يبلغ خمسة أقدام فقط في الرمال الكثيفة في قاع الوادي. وتقع تحت شجرة عنَّاب ضخمة والتي كانت تلهو بين أغصانها مستعمرة كاملة من طيور الحباك الصغيرة (Weaver Birds). ويمتد أيضاً صف من أشجار السنط مسافة معينة في اتجاه الماء. وكان معسكرنا على بعد حوالي نصف ميل في الأسفل، في واد ضيق كثيف بأشجار السنط خلف الممر الصخري الضيق الذي يفصل بين جزأي القناة العلوي والسفلي، ويهبط نحو الوادي عدد من الممرات الضيقة كثيرة الصخور المتحدرة من الجبال المحيطة. وكانت هذه البقعة جذابة ورائعة بصورة عامة، ولكن الوقت كان قصيراً ولا نستطيع أن نتوانى، وكان رفاقنا -في الحقيقة- قد انتهوا من تناول طعام الغداء، وكانوا على أهبة الاستعداد لاستئناف سيرهم. وهكذا عندما وصلت السيارات غادرت الإبل، وأخذنا قسطاً من الراحة لبرهة من الزمن بعد الوجبة الممتازة وذلك قبل أن نتبعهم.
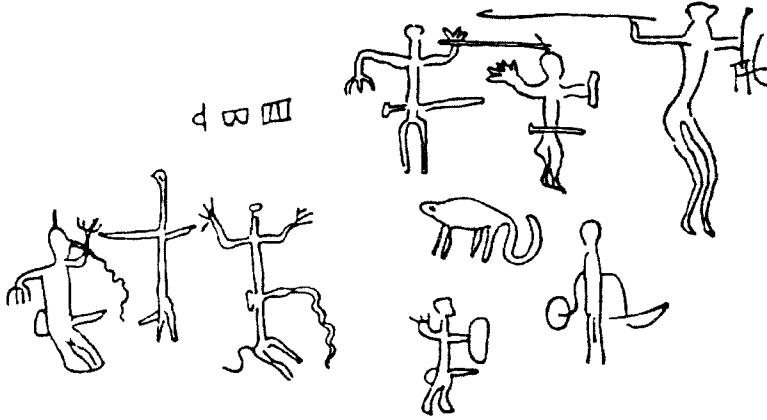
ولم يكن علينا إلا أن نسير حوالي خمسة عشر ميلاً فقط، ولكن الطريق عبر القنوات الرملية الكثيرة وأحزمة الشجيرات المتداخلة في وادي الحشوة لم يكن من السهولة في شيء. وفور أن انتهينا من الوادي -على أي حال- في أقصى الطرف الشرقي لسلسلة جبال شعير على طول الضفة اليمنى منه سرنا بسهولة لمسافة فوق سهل رملي ثابت حتى وادي طيِّبة الاسم. وهنا بالقرب من شجرة سرح كبيرة وواضحة في مسار وعر نسبياً بين التلال الرملية المنخفضة أوقفنا سياراتنا. وكان الوقت قد اقترب بالفعل من غروب الشمس، ووصلت الإبل بعد حوالي ساعة. بدأت الآن أكن تقديراً كبيراً لجعمل، فهو نموذج للرجل الوسيم الرقيق ممشوق القوام من رجال قبيلة يام. وكانت معرفته بهذه المنطقة كلها مرضية جداً، ولم يكن هناك أي معلم من المعالم الأرضية التي لا يستطيع تسميتها. وهذا بالضبط ما كنت أحتاجه، وكنت أكثر من راض عن هذه البداية المبشرة بالنجاح لرحلتنا. ولم تكن الجماعة قد فرزت نفسها بعد في مجموعات متجانسة، وكان العنصر النجدي -ربما- يشعر قليلاً بالغيرة من الاهتمام الذي أوليه للبدو الذين كانوا أكثر إمتاعاً. وكانوا يودون لو أنني تناولت طعامي معهم وحدهم، ولكني صممت على أن أولئك الذين يعملون حقيقة معي أثناء السير يجب أن يأكلوا معي بالمخيم. وكان فرج أيضاً، على الرغم من أنه ليس

من البدو المحليين ولا من النجديين، قبلة الأنظار الغيورة. وخلال سيرنا هذا اليوم تمكن هو وسعد بن معيلم من افتعال مشاجرة مع بعضهما من لا شيء على وجه الخصوص. وطبقاً لأقصى حدود علمي كان يبدو أن فرجًا هو المخطئ، وقد لاحظت بالتأكيد لبعض الوقت، حتى قبل مغادرة نجران، أنه لم يكن في أفضل حالاته على الإطلاق. وأثناء إقامتنا المؤقتة كلها في نجران كان من الواضح أنه لم يعثر على شيء يشبع شبقه وشهوته، ولذلك ثارت أعصابه وجُنَّ جنونه.
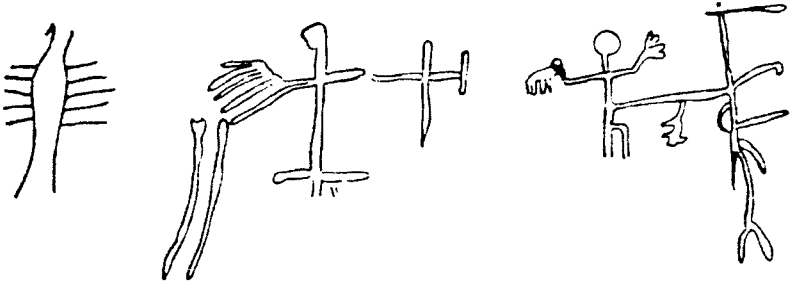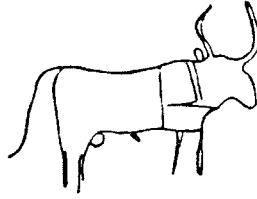
وفي حوالي منتصف الليل كان هناك لفحة برد قارس في الهواء، وبزغ النهار وسط ضباب رملي كان قد بدأ يتناثر في السماء قبل أن نتحرك حوالي الساعة الثامنة والنصف. وكانت الإبل سوف تسير في طريقها العادي المباشر عبر التلال، في حين كان على السيارات أن تدور مرة أخرى في دورة واسعة لتلتف حول تلك التلال. وقد صعدنا في البداية أرضاً مسطحة رملية بين سلسلة طيبة الاسم على يسارنا وجبل المطابق الرئيس على يميننا إلى مضيق منخفض (بين قمتين في سلسلة الجبال)، ووراءه يمتد ممر واسع لأميال بين سلاسل تلال متوازية ذات ارتفاع عظيم. وقبل أن نصل المضيق المنخفض وعلى بعد حوالي ميل أو أقل من معسكرنا مررنا على نُصب من

الحجـارة على الطريق، يعرف باسم «ردم الحـد» وهو علامـة الحدود بين قبـيلتي يام ودهم. ومن المضيق المنخفض نزلنا على منحدر رملي وعـر قليلاً ومتموج، إلى رأس الممر حيث انطلقنا هناك بسياراتنا بخفة ورشاقة ومرح حوالي عشرة أميال حتى وصلنا إلى صخـرة هريرة الجرانيـتية البـارزة قليلاً. وفي هذه النقطة توقـف خط التلال عن يميننا، وتحولنا من اتجاه شمال - شرق إلى الجنوب الغربي على مسار في أمواج رملية عظيمـة نحو سلسلة جبـال الهضبـة. وكان سيـرنا طيباً بشكـل عام، على الرغم من وجود بعض البـقع الوعرة على مسـافات متفـاوتة، وكم كنت سعيـداً عندما - بدون حادث مشؤوم - وصلنا تلاً صـغيراً مدوراً ومنخفضاً قريبـاً من طرف "الهضبة" التي ترتفع كتلـها الصخـرية العارية الكبـيرة إلى حوالي ٧٠٠ أو ٨٠٠ قـدم فوق الأرض المنبسطة. وفي ذلك التل الصـغير عثـرت على رسوم بدائية لرجل يحمـل رمحاً وهو على ظهر حصان واثنين أو ثلاثة من النماذج الباهتة لتيس الجبل.

وقد اجتزنا الآن الجانبين الطويلين للمثلث متساوي الضلعين، وعدنا مرة أخرى إلى الطرف البعيد لقاعدته على الطريـق الذي سلكته جماعة الإبل. وكان هذا الطريق يمتد عبر وادٍ مليء بالشجيرات بين سلسلة الهضبة العظيمة المنفصلة عن القسم الرئيس لمرتفعات اليمن، حيث يتدفق كلاً من وادي القعيف ووادي سلبا إلى أسفل حتى ينتهيا بصورة أو بأخرى في رمـال الصحراء في نقطة بعيدة إلى الشرق بعـد أن يتحدا ليكوّنا وادي اليتمة. وسـرنا بمحاذاة حافة «الهضبة» نظراً لأن السيـر هنا كان يبدو أسهل من المشي بعيـداً عنها في الوادي الذي يعج بالشـجيرات، ووصلنا مـخيمنـا عند منتصف النهار في شعب وضاح بعد وصول الإبل إليه بدقائق قليلة فقط. وفي الحقيقة لم يكن آخر المتأخرين القليلين منهم قد أتى بعد، عند وصولنا المعسكر.

وكان سعدان قد احتفظ لي بكهف عميق في جانب التل بمستوى الوادي، وهنا هجعت في نوم سعيد عند القيلولة بعد غداء دسم من الجريش المطبوخ بالبصل وغارق بالسمـن بصورة عظيمـة. ولم يتناول جعـمل، الحسـاس مثل معظم البـدو الذين لم

تفسدهم روائح الأطعمة الأجنبية غير المألوفة، شيئاً من ذلك الطعام وآثر أن يظل طاوياً على الجوع. حتى ونحن بالسيارة وهو يجلس على المقعد الأمامي بجواري وأنا أقودها كان يلف غطاء الرأس (الشماغ) على فمه وأنفه ليتقي أدخنة البنزين التي كانت بالنسبة لي ضئيلة لا يمكن إدراكها. لقد كان فرداً غريباً تماماً، ولكنه كان دائماً لطيفاً ودمث الأخلاق كريمًا ميالاً للمساعدة، خبيراً في حدود معرفته الخاصة بعلوم الصحراء، ومع ذلك كان بطيئاً في الفهم بصورة متناهية، وغبيًا في حماقة. وبالرغم من ذلك كان يرشدنا إلى المناطق السهلة وهو يبدي إحساساً ممتازاً بمعرفة الطريق يكاد يكون خارقاً للعادة تقريباً.

وبعد أن أخذت قسطاً من الراحة بعد الظهر تسلقت أنا وجعمل قمة أحد الجُرُف الجرانيتية العظيمة في الهضبة الذي يرتفع حوالي ٦٠٠ قدم فوق معسكرنا. ولكي نصل إليه سرنا عدة مئات من الأقدام على ممر طبيعي يبلغ عرضه حوالي عشرة أقدام والذي تشكل نتيجة الانفصال الجزئي لخندق البازلت بين جدران من الجرانيت الصلب والمتماسك الحبيبات ذي لون يميل للحمرة. وكان يمتد في خط مستقيم إلى حافة التل في منحدر شديد، ويبدو تقريباً كما لو صنعته يد الإنسان. وخلفنا إلى الشمال كانت توجد عدة ذرى للقمة الجرانيتية الناعمة التي كانت تصل في ارتفاعها لحوالي ٢٠٠ أو ٣٠٠ قدم فوق الجرف الذي كنا به. وفي الثنية المعترضة يقع رأس وهد وضاح الذي ينغمس داخل الجبل في سلسلة من الدرجات العميقة مثل درج السلم، والتي يوجد في أحدها تجويف ضخم مليء بالرمل الذي يحتفظ بقدر وافر من الماء بصفة دائمة تقريباً. وعلى الصخور حول البركة عثرت على رسم تالف جداً لرجل يمسك رأس حصان، وكان هناك رسم بدائي آخر لرجل قد مد يديه يزيّن صخرة أخرى مجاورة، بينما يوجد بالقرب من كهفي تماماً مجموعة من حوالي عشرة قبور قديمة واضحة.

ومن هنا كان هناك مسقط منحدر آخر يؤدي إلى الكهف، حيث كان الوهد ينبسط في قناة دقيقة مليئة بالشجيرات والقيعان الجافة الصغيرة ومغطاة بأوراق الحشيش اليابسة.

ومن الجرف العالي نظرنا نحو الجنوب على بقعة جديدة من الأرض التي يخفيها عنا من هنا الجزء الرئيس من سلسلة جبال الهضبة. بينما كان المسار الشمالي الذي سافرنا عليه بالفعل قد اختفى عنا الآن بسلسلة الجبال الشاهقة خلفنا. وكنا نستطيع رؤية وادي اليتمة وهو يسير ملتوياً لمسافة بعيدة في الصحراء متجاوزاً ذُرى أم الشداد البارزة التي تغيّر لونها بفعل العوامل الطبيعية، ويقع خلفها سلسلة من الجبال البازلتية القاتمة حيث يكون جبل مُرة في المقدمة ويليه جامع والطويلة من ورائه، وقمم سلسلة جبال المعو الشاهقة في الأفق البعيد وراء تلك الجبال نحو الجنوب الشرقي. وبالقرب منا، وإلى البعيد قليلاً نحو الجنوب ترتفع الرؤوس الناتئة لكل من صخيبر وسويقة وقراء مع سلسلة جبال الوعير وقمة شري من خلفها على جانبي وادي خب العظيم. وإلى البعيد ناحية الجنوب الغربي والغرب تمتد الجبال التي تحيط بعيون مياه السقيا الثلاثة وهي الصحفة والجب وصيح.

وفي مكان ما من هذا المسار بوادي اليتمة كان هالفي -الذي يعتري وصف رحلته قصور شديد في التفاصيل الجغرافية بشكل يثير السخط والغيظ- قد هجره مرشدوه من البدو وتركوه يتجول في الصحارى وحيداً وقد أصابه الجوع والعطش إلى أن وقع على مخيم ضخم للبدو الرحّل حيث استطاع هناك أن يجلب معه مرافقاً جديداً -ولكنه كان مشاكساً- إلى نجران. وفي مكان ما بين هذه البقعة ومقصده في نجران يبدو أنه قد قابل قافلة آتية من حضرموت. وكان جعمل يقول: إن المسار الذي سلكته جماعة الإبل التابعة لنا يتطابق تقريباً مع طريق حضرموت، والذي لا يزال مطروقاً على طوله على الرغم من تقطع حركته، وما زالت علاماته يمكن رؤيتها أينما كانت الأرض خالية من الرمل بدرجة كافية لينطبع عليها أثر السير بصورة دائمة.

وعلى هذا الخط لا يكاد يوجد شك في أننا الآن نمشي فوق واحد من الطرق العديدة التي سلكتها تجارة التوابل القديمة بالعربية السعيدة. وكان هالفي يأمل أن يعثر على دليل لمرور إيليوس جاللوس وجيشه الروماني من خلال سيره في الدرب الذي يمتد من الجوف وعبر واحات خب حتى نجران. إن كلا الطريقين الخارجي والداخلي اللذين سلكتهما جنوب الهضبة يقعان إلى الشرق من طريقه، ولكني بكل تأكيد لم أجد ولو أثراً واحداً لهذه البعثة العظيمة والمدمرة في آن واحد. كما أن وصف سترابو لها، مع ما فيه من أسماء عديدة لا يمكن التعرف عليها الآن، يتعذر بصورة بالغة التوفيق بينه وبين الطبوغرافيا الحديثة لهذه المنطقة. فلقد تغيرت بلا ريب أسماء الأماكن مع تعاقب القرون الغابرة، ويبدو من المحتمل علينا الانتظار الى أن يتم اكتشاف خريطة حميرية أو معجمٍ جغرافيٍّ قبل أن نتمكن من بذل أية محاولة لحل ألغاز سترابو وبليني.

وقد بدأت جماعة الإبل في الارتحال عند الساعة الثالثة عصراً، ووقتها شرعت أنا وجعمل في ارتقاء الجبل. وعندما عدت للمعسكر لم تكن الساعة دون الخامسة مساءً بكثير، ولم يكن لدينا وقت نهدره سدى قبل بدء المسير. وتقدمنا في البداية بسهولة كافية فوق سهل ثابت مؤلف من صخور رملية ذات حبيبات خشنة وتتناثر به أشجار السنط على طول الضفة اليسرى لوادي القعيف. وأصبح سطح الأرض فيما بعد متموجاً بموجات الرمل المنخفضة، وتنتشر فيه شجيرات الراك التي تنمو على التلال المنخفضة. وكان هذا علامة بداية مجرى قناة اليتمة عند التقائها هنا بأودية سلبا والقعيف الموازية لها. وبعد ذلك بقليل عبرنا الوادي وتقدمنا في اتجاه الجنوب على طول خط التلال عن يميننا. وعبرنا قناة مدرك وهي في اتجاهها للالتقاء بوادي اليتمة، بالقرب من نقطة بروزها من هذه التلال. وكان الشفق قد أرخى سدوله علينا فور دخولنا وسيرنا في قناة وادي قراء الرملية باتجاه الغرب. وأمسى الآن من الصعوبة لنا بمكان أن نرى أمامنا بدرجة كافية لنسيطر على مسارنا، ولحظنا السعيد -أكثر من مهارتنا- يرجع الفضل في تفادينا الغوص في الرمال. وكنا ننوي الوصول إلى بئر قراء

وهي على مسافة ليست قصيرة من هنا في أعلى الوادي، حسبما اتفقنا مع جماعة الإبل، بيد أن القدر تدخل مرة أخرى وأنقذنا من ذلك المجهود العقيم. وفي نتوء كبير من الوادي لاحظنا واتجهنا فوراً نحو نار معسكر وحيد، لنكتشف وجود خيمة فريدة تسكنها عائلة من قبيلة الصيعر تتكون من رجل ذي هيئة رائعة ولحية كثة ضخمة سوداء وزوجته الكبيرة قليلاً في السن وهي تحمل رضيعاً بين ذراعيها، ناهيك عن قطيع الماعز الصغير. ويبدو على الأرجح أنهم لم يشاهدوا أبداً سيارة من قبل، ولكنهم لم يرتاعوا كثيراً من ذلك الشبح المتوحش الذي هبط عليهم من الظلام. وعلى أي حال فقد استقبلونا بقلوب مرحة وكرم وفير، وأخبرونا في الوقت نفسه أنه لا طائل من الذهاب للبئر إذ كان جافاً. وكان ذلك بمثابة لطمة لنا، ولكنا شعرنا بالراحة قليلاً عندما سمعنا بوجود ماء في صخيبر على الرغم من أننا سوف نضطر للانتظار حتى الصباح كي نتمتع به . وحتى نحقق أقصى فائدة من هذا الموقف فقد خلصنا من كرم الوفادة الذي قدمه لنا علي، ذلك الرجل العملاق ذو اللحية السوداء - وقدنا سيارتنا إلى البعيد قليلاً في واد جانبي يتصل بوادي صخيبر خلف سلسلة الجبال. وهنا نصبنا معسكرنا بأفضل صورة استطعناها في الظلام انتظاراً لجماعة الإبل، التي لم تصل إلا بعد الثامنة مساءً. وفي الوقت نفسه تبعنا علي ومعه تيس لعشائنا، وقد كافأناه على ذلك بشكل مناسب، وقد ساعدنا في حينه على طبخه وأكله.

وكان هو وعائلته أول الكائنات البشرية التي صادفناها منذ خروجنا من الخضراء، على الرغم من أن جميع الروايات تذكر أن معظم الآبار في هذه المنطقة المجاورة لطريقنا يوجد بها مجموعة من البدو. وبينما كنا نجلس ننتظر العشاء ووصول رفاقنا فتحت جهاز المذياع لتسليتنا، وجلس علي مسحوراً بتلك الأصوات التي تتحدث باللغة العربية وتخاطبه من أقصى أطراف العالم. ولسوء الحظ، أفسدت هذه المتعة شيئًا ما نتيجة الظواهر الجوية الكهربائية ولم أكن قادراً على معرفة إشارة الوقت التي اعتدت عليها من القاهرة أو القدس. وعلى أي حال كنت هنا في المكان نفسه

عندما سمعت إعلان تعيين (هيئة ملكية) للنظر في مشكلة فلسطين، وكان اللورد بيل والسير هوراس رومبولد أكبر شخصيتين فيها. وفي الحقيقة كنت خلال رحلتي الطويلة قادراً على متابعة أخبار العالم، وأستمتع ببعض الاسترخاء من نوع غير ذي أهمية عندما أشعر أنني أميل لذلك. وكان معي أيضاً مجموعة هائلة قديمة من جريدة التايمز لأقرأها في أوقات الراحة. وفيها الكلمات المتقاطعة اليومية التي كنت أقوم بحلّها كي تطرد اللوغرتيمات والحسابات الفلكية من رأسي تمهيدا للنوم.

وخلال سيرنا بعد الظهر أدركت فجأة أن السيارة الثانية، وهي شاحنة نقل مفتوحة تحمل أمتعتي وأربعة أو خمسة رجال، لم تكن تتبعنا. وقد توقفت فوراً انتظاراً لها، وانقضى وقت طويل قبل أن نراها أخيراً قادمة في طريقنا. لقد نفد منها الوقود بصورة مثيرة للدهشة، والأسوأ من ذلك أنه ليس معها احتياطي على متنها، ولذلك قام محمد بتفريغ صفيحة من الكيروسين في الخزان ومشى بها الاثني عشر أو الثلاثة عشر ميلاً الباقية حتى لحق بنا بلا صعوبة.

وفي الصباح الباكر كان المعسكر يضج بالحركة والنشاط لقيادة الإبل إلى البئر لتنال ما تحتاجه بشدة من ماء تروي به ظمأها. وقد تبعتهم سيراً على الأقدام حتى الوهد الضيق الذي يمتد إلى ما يزيد على ميل إلى نقطة يوجد عندها مهبط سهل وقصير إلى بئر صخيبر في نتوء من الوادي المطوّق بالصخور. وهنا وقفنا مشدوهين نراقب منظراً مزدحماً، فقد كان هناك جماعة من عرب دهم من قرية الحزم في الجوف تسقي الأغنام والماعز والإبل. وكان معظم الجماعة فيما يبدو من النساء إلا أنه يوجد معهن ثلاثة أو أربعة رجال. كانت بعض النساء شابات وفاتنات بدرجة كبيرة، ولذلك سرعان ما قام فرج -الذي كان يرافقني- بتجاذب أطراف الحديث معهن. وقد تم الترحيب بي وسط هذه الدائرة الفاتنة بسلطانية مليئة حتى حافتها بلبن الماعز، وقد كافأت البنات عليها بقطع من الفضة. ولكن انتباهي سرعان ما انصرف عنهن باكتشاف نقوش على الصخور المحيطة بنا، وقد مضيت قدماً نحوها لكي أنسخها، بينما

ظللن يثـرثرن عن نقوش أخـرى وأفضل من هذه مـوجودة بين الصخـور والآثار في وطنهن بالجوف.

وانتهت مداعبتنا، وعدنا للمعسكر لنجـد أن الطباخ قد انتهز فرصة تأخرنا وقام بإعداد الغداء. وفي الوقت نفسه كان محمد بن قنيبر من قبيلة الصيعر والذي كان أمير نجران قد أوصى به مقدماً ليرشدنا ويفـسح لنا المرور بسهولة وحرية في منطقة قبيلته، قد وصل المعـسكر لينضم للجمـاعة، وكـان أبوه، علي بن قنيبر، شـيخـاً لقسم من القبـيلة ذي مقام عظيم وكـان في ذلك الوقت غائباً في زيارة للـرياض لمقابلة الملك. وكان محمد رجلاً عذب الحديث، في حوالي الثامنة والعشرين أو الثلاثين من عمره، رقيق البنية، وتنقصـه القـوة، ويبدو أنه مـصـاب بالســـل ويظهر أن فخـذه مـن قبيلة آل جنيبـر قد هاجر بشكل دائم تقـريباً إلى المنطقـة المجاورة لنجران، وهكذا اكـتسب الجنسية العربية السعودية.

وكـان الوقت قد بلغ الظـهر بالفـعل عندمـا انتهـينا من الغـداء، وبعدها ركـبنا السيـارات وبدأ السير لإعادة تتـبع خطواتنا التي مشيناها الليلة الماضـية على خط وادي قراء حتى النقطة التي دخلناه منها. وكان هناك عدد لا بأس به من أشجار الأثل والسنط على طول القناة، ولاحظت عدة أسراب من طائر الرقراق، وهي بلا شك أوائل الطيور المهاجرة في الخريف، على الرغم من أن الوقت (٣٠ يوليو) لا يزال مبكراً بصورة مثيرة للاستغراب. وربما تمكث بعض هذه الطيور لتتناسل في الأجزاء المناسبة من جبال اليمن أو تتخذها مأوى لها مثلما فعل الشقراق الحبشي في سهل تهامة. وكانت نباتات الوادي تضم شجيرات الحرمل والمرخ مع كثير من حـشيش الثمام الخشن. وقد أطلقت رصاصة على طائر مغرد واكتشفت أن رجليه كانتا مكسورتين وإنه بلا ريب قد تخلف عن رفاقه المهاجرين للشمال في أوائل الصيف نظراً لإعاقته.

إن وادي قراء عند خروجه مـن التلال - يسير بين ضفتي رمال يـرتفعان حوالي خمسة عشر قدماً. وقد لزمنا الضفة اليسرى لنتمكن من السير على سهل رملي واسع

وذي أرض ثابتة وجيدة عند التقائه بوادي اليتـمة خلف رابية طويلة ومنخفضة ومغطاة بالرمال وتتكون من الصـخور وتسمى (لغدم). وعلى البـعد أمامنا ظهر تـل (الفهود) الصغير، الذي يختفي في رماله وادي اليـتمة. وقد رأينا طيور الحبارى والغزلان هنا، وانطلق جعمل على قـدميه يطارد خلسة واحدة من النـوع الأخير، ولكنه لم ينجح. وقد حاولنا أيضاً اصطياد أربعة من طيـور الحبارى تكمن بين روابي "العَبَل" بالسهل، ولكن كلما اقتربت منهـا السيارة بصورة مزعجة أطلقت لجناحـيها العنان. وبعد ذلك تركنا الصيد والمطاردة واتجهنا نحو أكمة (أم الشداد) الصخرية الناتئة. وهكذا أتينا على الضفة اليسرى لـقناة (الفرش) التي تغطيها بكثافة التلال الرمليـة المتحركة، وهي أحد الفروع التي يصب فيـها وادي خب في الصحراء. هذا الفـرع يمتد على طول الجانب الشمـالي لأم الشداد ومرة، بيـنما يخرج الخط الرئيس للوادي إلـى الرمال على طول الحافـة الجنوبية لسلسلة جـبال الطويلة. وكان هناك في هذه الـقناة الكثير من أشـجار المرخ التي تنمو نمواً وفيراً علاوة على غـابة كاملة من أشجار السنط الطويلة من النوع على شكل المظلة. وفي هذه الغابة رأينا مرة أخرى عدداً قليلاً من طائر الشقراق. وقد سرنا في سهل رملي به خطوط من الحصباء لنطارد غزالاً لمسافة معينة بدون نجاح حتى حافة القناة الرئيسة لوادي خب.

لقد كانت عبارة عن دلتـا واسعة أكثر من مجرد قناة، ويتناثر فيهـا لمسافة بعيدة وعريضة حطام الأشجار والشجيرات التي جرفتها السيول. وهنا كان السير وعراً، إلى أن أتينا على مسـار واسع مليء بالشجـيرات والأشجار، الراك والـعبل والسنط، عند حافـة التلال التي يخـرج منها الوادي، وهو الآن مـثل قاع نهر واضح المـعالم، إلى السهل مع حزمة عريضة من التلال الرملية المرتفعة والجميلة على طول ضفته اليسرى. وكانت جمـاعة الإبل قد وصلت بالفعل إلى المعسكر هنا، نـظراً لأنها سلكت طريقاً مباشراً بدرجة أكـبر، وقد قضيت طول فترة العصر حتى الغـروب أتجول بالغابة بحثاً عن الطيور. وقد اصطاد فرج بالبندقـية اثنين من الأرانب البريّة في الوادي، في حين

وجدت الأشجـار قد غزتها أعـداد كبيرة من الطيـور المغرّدة مثل (Orphean War-bler) والتُمير النيـلي الصغير (Nile Valley Sunbirds) والبلابل والثرثار. وقد رأيت أيضاً بعض طيـور الكروان الجبلي (Stone Curlews) كامنة بين الشـجيرات على مقربة شديدة من معسكرنا.

ونحن الآن في حدود مسافـة قريبة من آخر مكان للسقيا قبل عـبور الصحراء. ولذلك تقـرر أن نحاول الوصـول إليه قبل غـروب شمس اليـوم التالي، وبناءً عـليه انطلقت جماعة الإبل في المسـير عند الساعة التاسعة مسـاءً، وكان هذا أول مرة تسير فيـها بالليل طوال الرحلة. وكانت قـبل مغادرتهـا قد سبـقها تغيـير كبـير في توزيع الأحمال؛ فـقد كانت بعض الإبل النجـرانية تبدو عليهـا -حقيقة- عـلامات الذبول وأعراض الهزال بالفعل، على الرغم من تقدمنا في السير بتمهل شديد، وسيكون من الضروري شـراء قليل من الحيوانات الإضـافية في الشضـيف لمواصلة الرحلة الطويلة حتى العبر. وقـد تم إحالة الشجار إليّ لإصدار حكم فيـه ولكني رفضت التدخل في الأمر على أساس أن ترتيـبات الحمولة من مسؤولية سـعد. ولا أدري كيف تمكن من حل المشكلة، ولكـن كم كان الوضع سـاراً جـداً وهادئاً عندمـا رحلوا عنا، وتركـوا جماعة السيارات الصغيرة لتتبعهم في الصباح.

وخلال الليل كانت السماء ملبدة بالغيوم، وفي الصبـاح استيقظت حقيقة بزخة من المطر، التي مـرّت -على أي حال- قبل ريح شـماليـة معتـدلة، غيـر متوقـعة، ومحملة بالتراب. وكان الجزء الرئيس العظيم من جبل يرتفع حوالي ألفي قدم فوقنا، وليس ببعـيد عنا، والوادي يمتد على طول حافـته الجنوبية صاعداً للأعـلى نحو قرى خب التي تبعـد عنا بمسيـرة نصف يوم في اتجاه الجنوب الغربي؛ ولـذلك سيكون من الممكن، طبـقاً لما ذكره نـاصر بن شمـاخ وهو رجل كبـير السن، وضـئيل من فـخذ المرادعة من قبيلة نهد ويدعي أنه مواطـن من عياد، أن نصل الشضيف عن طريق قرى خب. وعلى أي حـال فقـد قـررت ألا نضيع الوقـت سدى في هذا الانحـراف عن

الطريق، حيث إن الحكومة اليمنية كان يمثلها في هذه المنطقة القاضي، والذي قد يعد أن من واجبه أن يحجزنا بانتظار وصول تعليمات إليه من قيادته. ومثل هذه الحالة الطارئة لا أستطيع أن أتحمل مخاطرها في هذه المرحلة من بعشتي، وبناءً عليه قررت أن أدع خبًا لزيارة ممكنة أخرى في طريق رحلة عودتنا التي لم أحققها في الواقع. وقد واجهنا حاجز رملي هائل يسمى داعر الذي يبرز نحو الشرق من حافة مسار التل للجنوب منا وهذا أدى الى انحرافنا عن دربنا والدخول في المرتفعات التي وجدنا بها طريقاً سهلاً في سلسلة من الأودية بين سلاسل التلال المتناثرة. وعن يميننا تقع كتلة جرانيتية بارزة ورائعة ومرتفعة نسبياً وتسمى الحجلى. وكانت قمتها منشقة الى جزأين بينهما فجوة ضيقة بعمق مئة قدم. وخلفها أتينا على امتداد وادي سرحان المليء بالشجيرات حيث ينبسط مقابل رمال داعر المرتفعة، ويشق طريقه بينها وبين تلال حسرج الصغيرة حتى يلتقي بوادي خب. وقادنا مجاز رملي، عامر بشجيرات (العلقى) الخضراء رائعة المنظر (والعبَل) وافرة النماء، إلى الكتف الداخلي لجبل داعر الرملي والذي يمتد من هنا في خط مستقيم ويصل ارتفاعه حوالي خمس مئة قدم وله حافة حادة مثل نصل السكين، ويستمر في سلسلة طويلة من التلال الرملية الجميلة مسافة بعيدة في الصحراء. وكان من الضروري أخذ قليل من الحيطة والحذر هنا في التعامل مع الحزام المنخفض من الرمال الناعمة الذي يمتد على طول مسارنا. وكان هناك أيضاً بعض منها في داخل الوادي الضيق. ولكننا نفذنا منها دون حوادث حتى أتينا إلى الأرض الأكثر ثباتاً تحت القمة الشاهقة لجبل محجوبة حيث كان درب حضرموت يحدده وجود حزام من آثار السير الملتوية والمحفورة بعمق في الأرض.
وصرنا نمشي الآن في خط مستقيم نحو الشمال الشرقي، وكان سيرنا هذا رائعاً في ممر واسع من الرمال الثابتة مع الحافة العليا لوادي داعر عن يسارنا وحاجز رملي منخفض يطوقنا عن جهة اليمين. ونتيجة لسيرنا بسهولة ويسر فقد استطعنا مطاردة زوجين

منفصلين من الغزلان اللذين انطلقا يعدوان أمامنا، واضطرا أن يجريا في خط مستقيم أمامنا نظراً لوجود رمال عاليـة على كلا الجانبين. وكان الزوج الأول من نوع (إِدمي) الشائع، وقد هرب منا مرتين جرياً جيئة وذهابا. أما الزوج الآخر فكان من نوع الريم أو العفـري وكان جعـمل قد اصطاد الأنثى التي زودتنا بوجـبة لحم شهي عـند توقفنا وسط النهار تحت سلسلة جبل المعو. وبعد انطلاقنا حوالي عشرة أميال على طول هذا الممر انجرفنا قليلاً للجنوب عن الشرق لعـبور السهل الذي يفصل (داعر) عن (المعو). وهنا أدى وجود غطاء نبـاتي للأرض، مثل (العَبَل) فـوق كتل منخفـضة من الرمل، و(النصي) بل وحتى بعض النبـاتات الزهرية الصغيرة الـصفراء الجميلة، إلـى صعوبة السير. ومقـابلنا ظهرت فتحة في سلسلة المعـو الطويلة والتي سوف تقودنا إلى وادي أمواه[1] من خلفها. ولكن الغزال، الذي كان هذه المرة من نوع العفري والذي صنّف بأنه نوع فرعـي جديـد[2] اعـتمـاداً على لون جلودها ورؤوسـها التـي أرسلتهـا للمتحف البـريطاني منذ سنوات مضت، قد عطل خططنا. فقد طاردناه لمسـافة بعيدة على طول مقدمة سلسلة المعو نحو الغرب. وقـد نجح جعمل فقط في إصابته بجرح، ولكنه انطلق يعرج في الأرض الوعرة عن يميننا، وواصلنـا مطاردته فيها، ولكن ذلك كان غير مجد من الناحية العمليـة. وعلى أي حال فقد جرى جعمل على قدميه وراء الحيوان، بينما أخلد الآخرون للراحـة عند منتصف النهار. وخلال ذلك تناولنا، حتى الشبع، لحم الطريدة المشوي على الجـمر مع الخبز والشاي. وقد وفـرت لنا السيارات ظلاً ظليلاً من الشـمس التي كانت في هذا الوقت من السنة دانية تقـريباً من الرؤوس عند الظهر في هذه المناطق الجنوبية. وبينما كنت أرقد بجوار سيارتي على بعد حوالي عشـرين ياردة من الشاحنة التي تجتمع خـلفها باقي الجمـاعة يطبخون ويغنون، فـقد

(١) ورد اسم هذا الوادي بهذا الـرسم لدى الهمداني في صـفة جزيرة العـرب، تحقيـق محمـد بن علي الأكوع، (المراجعون).

(٢) غزالة سعودية. (المؤلف).

ظننت أني سمعت أصواتًا آتية من حافة منحدرات المعو على بعد حوالي أربع مئة ياردة. وعندما أطرقت السمع ،منصتاً باهتمام استطعت بسهولة أن أتبين الكلمات التي تقال، وأدركت أنها كانت مجرد حدىً واضح جداً ومميز للثرثرة المنبعثة من خلف الشاحنة. وكان الصوت يبدو آتياً من أسفل قاع المنحدرات الصخرية، التي كانت تشكل نوعاً من البهو لرجع الصدى الهامس. وفي وقت متأخر قليلاً بعد الظهر لاحظت أن هذه الظاهرة قد ضعفت من ذي قبل بدرجة كبيرة. ورجع جعمل في الوقت المناسب، وقد بلغ منه التعب والعطش مبلغاً، ولكنه كان يحمل هيكل طريدته التي تم سلخ جلدها حتى أضمه لمجموعتي، قبل أن نستأنف رحلتنا فوراً بعد الساعة الثالثة عصراً.

وسرنا في وادٍ شديد الوعورة، يفوق دروب السير في حضرموت، حتى نفذنا خلال حاجز المعو. وعلى كلا الجانبين كانت الجُرف العظيمة والقائمة ترتفع عالياً فوقنا إلى أن أطللنا على سهلٍ واسع فيه تلال تنتشر فيها شجيرات وادي أمواه وتمتد عبره نحو الصحراء. وإلى البعيد بين الرمال في جهة الشرق ترتفع سلسلة جبال الحيض التي كانت أول علامة أرضية لنا خلال أول يوم في عبور الصحراء. وبعد مسافة للأمام قليلاً استطعنا أيضاً أن نرى شريطاً مظلماً من التلال الذي افترض جعمل - بقليل من الشك- أنه جبل الريان وهو الملاذ المفضل للبقر الوحشي.

وعند حافة وادي أمواه توقفت لألقي نظرة شاملة لمشهد التلال السفحية التي تحد الصحراء، التي سوف ندخلها حالاً. وإلى البعيد خلفنا وقفت الشاحنة لعطل في المحرك، وكان علينا انتظار وصولها. إن الاتجاه العام للوادي، الذي كانت قناته واضحة بصورة جيدة ويمكن رؤيتها لمسافة بعيدة في اتجاه المجرى وعكسه، كان يسير من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وكان قاعه مغطى بصورة كثيفة نسبياً بالعَبَل والمرخ والراك، ولكن لم توجد آبار في طوله كله. وعلى بعد حوالي ميلين عكس اتجاه المجرى يلتقي بوادي ملحة الذي يلتقي هو الآخر فيما بعد بقناة غمير. وتوجد بئر

واحدة في مجرى وادي ملحة. وبعد فم وادي ملحة يتشكل وادي أمواه من خلال التقاء ثلاثة أودية هي الشضيف والعريجا وشقبان ويوجد في كل واحد منها بئر للسقيا.

ونظراً لهذا الالتقاء الثلاثي انطلقنا في هذا الوادي عند استئناف سيرنا. ولم نكن مضطرين أن نسير لمسافة بعيدة، فقد كانت المسافة كلها حوالي ثلاثة أميال فقط، ولكن كان هناك بعض الرقع الرملية الصعبة في القناة. ورأينا نخلة وحيدة من نوع الدوم، وكان ذلك بمثابة تغيير نرحب به في نباتات الوادي العادية. وبعد مسافة قليلة تمر القناة بين جُرُف شاهقة الارتفاع بها نقوش قليلة محفورة في الصخر الأسود. وسرعان ما وصلنا إلى نقطة الالتقاء. ويأتي وادي شقبان، وبه بئر يبلغ عمقها عشر قامات على مسافة ما عكس اتجاه المجرى، من جهة الجنوب ووادي العريجا من الغرب. وتحولنا للشمال في قاع وادي الشضيف وسرعان ما أقمنا معسكرنا بجوار عيون الماء الضحلة الواقعة في نتوء واسع من الوادي حيث تنتشر فيه مجموعات صغيرة من شجر الدوم هنا وهناك. وكانت مجموعة الجمالة قد وصلت المكان منذ زمن طويل، وهكذا اكتملت بنجاح أول مرحلة من رحلتنا. وقد كانت هذه المرحلة مملة شيئاً ما، إلا من وجهة النظر الجغرافية. فلم نر كائنات بشرية إلا قليلاً، ولم نرَ منازل مأهولة بالبشر على الإطلاق، حتى الحيوانات لم نرها إلا نادراً، مثل قليل من الأرانب البرية والغزلان، والطيور نفسها لم تكن واضحة ومميزة، والحشرات كانت أيضاً شحيحة. وقد كانت الأرض بشكل عام أرضاً ميتة، مهجورة، بين الصحراء القاحلة وغطاء العشب.

وبعد الغروب فوراً نشطت ريح غربية غير سارة، وغمرت كل شيء بالرمل. وعند حلول وقت العشاء تقريباً هطلت رشة خفيفة من المطر لدقائق قليلة، وفي الساعة العاشرة ليلاً تلقينا مطراً آخر كان كافياً أن يجعل الأشياء غير مريحة لبرهة من الزمن، ولكنه لم يكن كافيًا ليفيد تلك المنطقة الظمأى بأي صورة حقيقية. وإلى البعيد نحو الجنوب، كانت الغيوم الكثيفة تزمجر بالرعد وتومض بالبرق.

وجاء حسن بن هضبان وهو شيخ كبير من قبيلة دهم وذو مظهر مميز لمقابلتنا من معسكره بجوار عين الطرفاء بوادي العريجا وكنا قد علمنا به في نجران كأحد المجندين المرغوبين الذين يمكن ضمهم لجماعتنا إن استطعنا ضمان خدماته. ولم يكن هناك أي صعوبة في ذلك بالتأكيد، حيث إنه هو نفسه تطوع لمصاحبتنا وقدم لنا "الذلول" الخاص به. كما تحمل أيضاً ترتيبات شرائنا لبعض الحيوانات الإضافية لتحمل الأمتعة ولكي تساعد في تخفيف الحمل عن إبل نجران التي أصابها التعب بالفعل، وكان من ضمن الأمتعة زيادة كبيرة في إمدادات الماء المعبأ في براميل الوقود الفارغة والقرب المصنوعة من جلود الأنعام تكفي لأربعة أو خمسة أيام التي سوف نقضيها في عبور الصحراء. ولخلق توازن مع ارتقاء ابن هضبان إلى موقع رفيع في الجماعة، لم يظهر عبدالله بن مدعار وهو شيخ من الكرب وكان تم تنبيهه مسبقاً باللحاق بنا هنا. وعلى أي حال فقد جاء اليوم التالي، ليختفي مرة أخرى بعد أن أعطانا وعداً غامضاً بأنه سيعود في الوقت المناسب عند بدء رحلتنا في الغد. وجاء الظهر قبل أن يصل مع ستة رجال آخرين من قبيلته الذين كان من الواضح أنهم يشمون رائحة الحصول على وظيفة مريحة. واتفقت أنا وسعد على أننا لسنا بحاجة لعنصر من الكرب بهذا العدد الكبير لكنه يجوز لهؤلاء الرجال الإضافيين أن يرافقونا إذا استطاعوا توفير مطايا لأنفسهم وإحضار قربهم الخاصة بهم للتزود بالماء. ولم يكن هناك صعوبة في ذلك، ولكن الرجال طلبوا دفع جزء من خدماتهم مقدماً كشرط للحضور. وقد اعترضت على هذا بصورة قاطعة، وذاب الرجال في غياهب المجهول بلا تطفل، وقد أثلج صدري ذلك كثيراً. وكان ابن مدعار رجلاً في حوالي الستين من العمر، ذا لحية بيضاء تماماً وكثّة وملامح قوية تنبض بالحيوية والنشاط. وكان لا يعيب مظهره سوى عينيه المغمضتين بدقة، حتى ليبدو من الناحية العملية أنه أعمى وذلك لإصابته ببعض أمراض العيون. وكان يأمل بحماقة أنه قد يكون عندي دواء لها بين أمتعتي. كان حديثه فظّاً ومتحدياً، ولكنه كان لديه روح طفل أفسدها فقط حب

المال واكتنازه وبخل الصحراء الذي يتعذر تفاديه. وقد أحضر معه -كما فعل ابن هضبان- أولاده الصغار وهم صبية في العام الثاني عشر أو الثالث عشر من أعمارهم - ليتعلموا التكسب في الصحراء، وليعملوا مثل خدم شخصيين. ولكم تأثرت كثيراً لرؤية عناية الآباء المفرطة، التي تصل إلى حد الهم بإطعام ذرياتهم ، لا سيما عندما يكون الصبية غائبون مع الإبل التي ترعى ويخفقون في الرجوع وقت الطعام. وفي مثل تلك المناسبات كانت هناك صينية مليئة بالرز مع قطعة كبيرة من اللحم جاهزة لهم فور عودتهم مباشرة.

وتصرف قناة الشضيف منطقة تجمع مياه واسعة في منطقة سفح التل. ومن الواضح أنها تتعرض على فترات متقطعة للسيول، نظراً لأن كثيراً من شجر الدوم في منطقة البئر كان متكسراً من جذوره. وفي الحقيقة كان الوادي أسفل البئر مغطى بحطام متناثر من الأشجار وغيرها. والبئر - أو بالأحرى النبع (من النوع المعروف باسم فضية وجمعها فضايا) عبارة عن حفرة غير مبطنة بجانب قاع المجرى وممتلئة بالماء على عمق عشرة أقدام من طبقة الحصى التي تغطي القاع الصخري بطبقة رقيقة حتى لا يكاد يرى إلا جزء منه. ويوجد الماء بصفة شبه دائمة تقريباً. والنتوء الدائري للوادي في هذه النقطة يزينه اثنان أو ثلاثة من أشجار الدوم كاملة النمو، ورقع عظيمة من أشجار البلميط وهي نوع من النخيل قصير ومروحي السعف، مع انتشار شجر السنط. وحوله ترتفع التلال المنخفضة التي لا يزيد ارتفاعها عن مئة قدم فوق مستوى الوادي، وتشكل جزءاً من الأرض الواسعة المرتفعة المحيطة به والتي تحتوي أيضًا على الكثير من قنوات السيول المشابهة مثل العريجا وشقبان وملحة وغيرها هذه البقعة المحدودة الارتفاع، تمتد لمسافة ما إلى الغرب، ولكنها تنفصل عن سلاسل جبال اليمن الرئيسة بقناة الجوف التي تجري جنوب شرق من منابعها في الجرف الرئيس بالمنطقة المجاورة لصبعدة. إن الصخور على الضفة اليسرى لوادي الشضيف، الذي ينحدر إلى أسفل في انحدار شديد حتى نقطة الالتقاء الثلاثي التي ذكرناها من قبل،

كانت محفـورة بالعديد من النقوش العربية البدائيـة . وفي الزاوية المكوّنة بالتقاء قناتي الشضيف ومَاوة توجد قمة صخرية متوّجة آثار قلعة قديمة مبنية من الحجارة الجرانيتية غير المصـقولة وتتكوم فوق بعـضها بدون مونة، وكانـت القلعة دائرية الشكل، ويبلغ قطرها حوالي ثلاثـين قدماً. وقد كـانت وظيفـتها -بلا ريب- حـراسة منطقة التـقاء الأودية الثلاثة من تدخل العدو.

وعند سـفح التل يوجد عـدد هائل من الأكوام من الصـخور المرصـوفة بدون ترتيب وبشكل عشـوائي، والتي قد تكون إما قبـوراً أو نصباً تذكارية، وعلى مـسافة حوالي ١٢ أو ١٣ خطوة منها يمتد قـوس ضحل من البناء بطول ٢١٠ خطوة، ويسير مع المحيط المتعـرج للتل على طول حافة الوادي، ولكنه يبـدأ وينتهي بدون أي غرض واضح. ولم أستطع أن أقاوم النتـيجة المبدئية التي تـوصلت إليها وهي أن هذه الآثار تمثل آخر دليل باق على وجـود سد قديم هنا على عرض رأس وادي الأمـواه وأسفل الملتقى الثلاثي، مع قناة تـابعة له تجري على طول جانب التل بمستـوى مرتفع قليلاً. وكان الحوض عند الملتقى يقوم بوظيفة حجز قدر عظيم من مياه السيول، ولكن ما هو الغرض من مثل هذا التـخزين؟ هذا ما لم أستطع فـهمه أو تصوّره. ولأقصى مـسافة أستطيع رؤيتـها أمـامي لا توجد رقعـة صالحة للري على كـلا جانبي الوادي لأمـيال كثيرة، ويبدو أن الغرض من الخزان كان لمجـرد ضمان التزود الدائم بالمياه لسقيا الإبل والأغنام وما شابه.

والحقـيقة المثيـرة للفضول والتـساؤل عن هذه الآثار أنه يوجد بين الشظايا غـير المستوية للصخـور المحلية عدد ضخم من طوب الحجر الجيري المشـذب بطريقة جميلة

ويبلغ طوله حـوالي قدمين وسمكه قـدم واحدة. ومن المؤكـد عدم وجود أي حـجر جـيري في أي مكان بهـذه المنطقة المجـاورة، وتزعم الأسطورة المحليـة أن هذا البناء الرائع قد انبثق عن سـد مأرب المشهور. وطبقاً لما قاله ابن هضـبان أنه كان في بعض هذا الطوب نقوش، ولكنّا فشلنا في العثور عليـها وربما تكون هذه (الحجارة المكتوبة) قد نزعهـا البدو لبيعها للتـجار في صنعاء، وإلى هناك أيضاً، كما قـال ابن هضبان، ذهب تمثال صغير لجمل عُثر عليه بين هذه الآثار نفـسها. وهذا التمثال جلب لمكتشفه المحظوظ مبلغاً هائلاً قدره عشرة ريالات.

وبعد الفحص الشـامل لهذا الموقع المحير، انطلقت أنا وابن هضبـان وابن قنيبر في قناة وادي العريجا لرؤية الصـور والنقوش المحفورة على صخورها. وعـلى مسافة ميل ونصف من الالتقـاء الثلاثي أصبحت القناة غير صـالحة بشكل واضح تماما لمرور السـيارات نتيجة لوجود حاجز طبيعي من الصخور يمتد من جانب إلى آخر لمسافة ما.
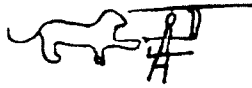
وقد سرنا نصف ميل آخر إلى حفرة الماء المسمـاة عصبة وفيها عمق الماء لا يبلغ إلا قدماً واحدة فقط في القاع الرملي. وفوقها مباشرة يوجد خط من الجُرُف الجرانيتية السوداء الشـاهقة، الذي يعـرف باسم سيق المري على طول الضـفة اليسـرى للقناة، وعليه علامات الماء الحميرية مثل O أو O محفورة به، مع اثنتي عشرة نقطة تشير إلى عدد الخطوات المزدوجة بينها وموقـع ينبوع الماء. وكانت هذه أول تجربة لي أعرف فيـها ذلك النظام الذي يشيـر إلى وجود الماء ومكانه الدقـيق. وطبقاً لأقـصى حدود علمي لم يلحظ أي رحـالة سابق في الجزيرة العـربية أو في أي مكان آخـر مثل ذلك النظام، ولكنه يبدو شيئاً عادياً في عصور سـبأ الباكرة. وعلى مسافة قليلة فقط، وفي

الجانب نفسه من القناة توجد واجهة كبيرة لحائط صخري به عدد من الكهوف على مستوى الأرض. وعلى الجانب الآخر لمسافة ما تمتد هضبة العريجا نفسها مع وجود مجرى مياه منتظم تحت السطح الرملي ببوصات قليلة فقط وذلك على امتداد سفحها. وكان هناك أيضاً عدد من النقوش القديمة والعديد من علامات الماء، بينما توجد عدة أشجار من الدوم ومجموعات من شجر البلميط في منطقة متسعة من القناة فوق الصخور قليلاً وأسفل مدخل شعيب تغلل من الضفة اليمني.

وقد سرنا حوالي نصف ميل آخر أو أكثر قليلاً إلى أن وصلنا إلى أول ينبوع من ينبوعي الطرفة الاثنين المملوءين بالماء. وهنا، مرة أخرى، كانت علامة الماء محفورة على الضفة اليمنى (وكانت الحلقة منقوشة بلا مبالاة تجاه الأعلى أو الأسفل وتمثل دلواً مربوطاً بحبل طويل) وكان مع العلامة اثنتا عشرة نقطة على جانبها وبعض الرسوم غير الدقيقة للإبل. وقد ثبت بالفعل أن مسافة حفرة الماء في القناة الرملية تبلغ بالضبط اثنتي عشرة خطوة مزدوجة ، وكان الماء على بعد ثلاثة أقدام في القاع وبعمق حوالي ثماني عشرة بوصة. لقد كان الماء نظيفاً، عذباً، صافياً إلا مما يغطي سطحه من ريش الطيور، والنحل الميت والفراشات وخلافها، بل كان بارداً ومنعشاً بشكل عجيب. وكنت عطشاً بعد مشينا ذاك وتمتعت بالشرب من ذلك الماء فعلاً.

إن ينبوع الماء هذا يقع فوراً خلف ثنية الوادي لليسار حيث تجري القناة هناك في امتداد طويل واسع إلى أن تصل إلى بعض التلال المنخفضة في البعيد. والبئر الثانية، المشابهة للأولى المذكورة أعلاه، تقع على مسافة ربع ميل منها وبها ثلاثة أو أربعة من أشجار النخيل ذات التمور الناضجة، ولكنها من نوع رديء جداً، وهي تقف كعلامة على موقع معسكر ابن هضبان المكون من خيمتين صغيرتين من الشعر. وكان هناك مجموعة من الجمال والأغنام تسقى عند البئر حين وصلنا إليها. وببعض الصعوبة انضغط ثلاثتنا في المساحة الضئيلة المتوفرة في مقر إقامة مضيفنا والذي كان مليئاً بالمتاع المعتاد للبدو الرحل. وكان سرج جمله الخاص وسجادته المصنوعة من جلد الغنم قد تم

ترتيبها لي بجوار مرتبة جلدية جلست عليها. وكانت أواني القهوة مرصوفة بجوار نار صغيرة عند الحافة الخارجية للخيمة، في حين تقبع مواعين الطبخ، والأواني، في كومة مقابل الطية الخلفية، وراء مضيفتنا، زوجة ابن هضبان الكبرى. وبجوارها جلست ابنتها البالغة رحمة وعدد كبير جداً من الأطفال الصغار - وكان بعضهم من ذرية زوجين غائبين وهما يحتلان الخيمة الأخرى، ويبدو أنهما من ذوي القرابة القريبة لابن هضبان. وكانت رحمة شابة في حوالي العشرين من عمرها، وترتدي ثياباً فضفاضة من النوع النجدي والتي تخفي هيئتها بالكامل، بينما كان وجهها من قصبة أنفها فما دون مغطى برقعة من القماش الأسود مزينة بزوائد وأطراف من الفضة وأشرطة معدنية لامعة. وكان شعرها مغطى بالغطاء العادي من قماش الموسلين الأسود، ولكن جبينها الجميل نوعاً ما وعيونها البنية الفاتنة كانتا مكشوفتين تماماً. ولم تكن بهية الطلعة جميلة المحيا على وجه التحديد، ولكنها مع ذلك لم تكن محرومة من سحر وفتنة معينة، على الرغم من أنها ظلت صامتة تقريباً خلال جلوسها الطويل، ولاحظت أنه لم يعرض عليها أبداً القهوة والقشر اللذين يدوران على باقي الجماعة بما فيهم أمها الثرثارة الودودة. وكانت ملابس الأخيرة تشبه ملابس ابنتها، باستثناء رقعة الوجه التي كانت سادة تماماً، وكانت ترفعها بدرجة كافية لتدخل فنجان القهوة إلى فيها.

وكان أحد الأطفال الموجودين يرتدي عقداً من حبات العنبر المقُلَّد. وكانوا كلهم ذوي عيون مريضة، وبعضهم شديد المرض بصورة فظيعة . وبينما كنا نجلس هناك كانت رؤوسهم ذات الشعر الأشعث تتلقى -واحداً تلو الآخر- اهتمام رحمة التي كانت تبحث عن القمل وتقتله بكفاءة وقدرة هادئة. وجاء رجل، يحتمل أنه صاحب الخيمة الأخرى، وانضم إلى دائرة العائلة في مرحلة متأخرة من زيارتنا. ويبدو أنه قد أتى لتوه من مسافة بعيدة ولديه أخبار عن الولد الكبير الأحسن في صنعاء حيث كان مثل الكثير من الشباب الآخرين ذوي المكانة القبلية الطيبة، يتمتع بكرم الحكومة كرهينة لضمان سلوك والده الحسن. ولم يكن هناك أي مظهر من مظاهر نظام الإمام يحيى ولا حتى

بخله الشديد، أشـد بغضاً ومـقتاً في هذه المنطـقة من خطف واحتـجاز الرهائن هذا. ولكن الأخبار في هذه الحالة كانت طيبة، فـقد كان الشاب في حالة جيدة وإذا أراد الله سيـعود لبيتـه مرة أخرى في يوم ما. وتفـوهت النساء ببعض الأدعـية والثناء على الله والشكر له والأمل في عـودة الولد. وكان هذا الرجل الذي أتى علينا يدعى مـبروك بن محمد بن ناصر من فخذ المرازيق من قبيلة دهم واكـتشفنا، بالصدفة العجيبة، أن والده كان هو المكتشف المحظوظ للجمل البرونزي الذي ذكرناه خلال حديثنا في الصباح.

وعندما قلـت إن الوقت قد حان للتـحرك احـتج ابن هضبان قـائلاً إن الوقت مازال مبكراً وشديد الحر للمشي. وعلى أي حال فقد بقيت مصراً على رأيي، ونهض متردداً كي يلحقني، وهو ينهمـك في إصدار توجيهاته الأخيرة لعائلته المجتـمعة أمامه والتي لن يراها مرة أخرى إلا بعد عودته من بعثتنا. ووضعت ريالين اثنين في يد المرأة العجوز وشكرتها علـى كرم ضيافتها وأسرعـت الخطى نازلاً في الوادي. وسرعان ما جاء ابن هضـبان في أثرنا، ودهشت عندما رأيته قـادماً بمفرده. وكان ابن قنيـبر الذي يمقت بذل أي جهد أو مـجهود ويمقت الشمس فوق كل شيء، قـد تخلف عنّا بحجة إحضار جمله الذي كـان يرعى مع حيوانات قبيلة دهم وفي الحقيقـة لم يعد للمعسكر الا في الصباح، وسـرعان ما اتضح تفسـير ذلك. وقد سألت ابن هضبـان عندما كنا نمشي: «هل ابنتك متزوجة؟» فرد قائلا: «لا ولكنها كـانت متزوجة». وكان ابن قنيبر هو الذي أخـذها زوجة عـذراء، ولكنه لم يستـطع أن يدفع المهر المتـفق عليه وقـدره أربعون ريالاً، وبعد شـهر أو شهرين أعادها إلـى بيتها. ولم تتزوج مـرة أخرى حتى الآن. ولذلك ربما يعود سبب تخلفه عنا إلى رغبته في تدفئة قلبه بجمر الحب القديم، بل ربما كان حـبه القديم حنوناً شـفوقاً. إن شؤون الزواج بيـنهم عبارة عن صفـقات تجارية بسيطة بين العـريس ووالد العروس، حيث يقـوم الأول، إن لم يقدر على دفع الثمن كـاملاً، بدفع شيء ما تحت الحـساب. وكان ابن قنيـبر قد دفع عـشرة ريالات

وأخذ الفتاة. وفي تاريـخ استحقاق دفع المبلغ الباقي إما أن يرسـل النقود لأسرتها أو يطلق زوجته ويعيدها إلى والديها. وهذا النظام معـرض بوضوح لمفاسد كثيرة وإساءة استخدام الحق ولكن اقتصـاره على دائرة العائلة المحدودة -كما هو الحال- يقلل على الأرجح من عيوبه.

عدنا للمعسكر بطريق أكثر مـباشرة من الوادي. وانطلقنا داخل التلال عند الثنية التي تخفي خيام ابن هضبان عن أنظارنا، ولزمنا سلسلة من الوهاد الصغيرة المؤدية إلى وادي العريجا حتى منطقة تقسيم مياه، ومن ثم نزلنا شعيباً مجهولاً لا نعرف له اسماً، والذي ينتهي بـعد حوالي مـيلين في وادي الشضيف وأعلى البـئر بنصف مـيل فقط. وتوجد القرب والبراميل الخاصة بنا قابعـة حول الحفرة معبأة وجاهزة لرحلتنا الطويلة. وكانت الإبل، منذ وصولـها في عصر اليوم السـابق، ما تزال ترعى على الأرجح مع قطيع ابن هضـبان، ولم تعد من المرعى إلا الـساعة الثـامنة والنصف في صبـاح اليوم التالي، وهو الوقـت الذي كنا وعدنا بوصول الإبل الإضـافيـة عنده. وكان سعـد قد انتهى بشكل أو آخر من ترتيب تفـاصيل الأحمال مقدماً، بالإضافـة إلى أخذ مخزون من المؤونة والطعـام. وكان كل شيء قد بـدا في الحقيـقة جـاهزاً للتحرك مـبكراً عند الصباح. وبدا كل فرد مسروراً وواثقاً من الخطوة التالية من رحلتنا.

الفصل الثالث

البرّية

في صباح الثاني من أغسطس كنت مستيقظاً مع الفجر كالعادة وانشغلت بالترتيبات النهائية للرحلة ولم يكن هناك أي حركة أو نشاط مماثل لنشاطي بين رفاقي الذين كانوا إما يغطون في نوم عميق أو يحتسون القهوة حول نار المعسكر. وكانت الجمال لم تعد بعد من المرعى. وما زال ابن مدعار غائباً. ونظراً لأن عبود -الطباخ- كان يشم رائحة التأخير الذي يتعذر اجتنابه، فقد أشعل النيران تحت قدوره ليعد الغداء. وبخلاف ذلك كان كل شيء جاهزاً.

ولقد كانت الأيام القليلة الماضية فاسدة الهواء قابضة للصدر وثقيلة الوطأة إلى حد ما دون أن تكون حارة على وجه التحديد. وفي الشضيف كنا على ارتفاع حوالي ٤٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، ولكن درجة الحرارة في السابعة صباحاً لم تكن تقل عن ثمانين إلا بقليل. وعند منتصف النهار كانت ترتفع إلى ثمانية وتسعين تحت ظل الخيام (وهذه ليست درجة حرارة مناسبة في الظل)، كما نزل المطر قليلاً. وكانت الظروف الجوية في الحقيقة مختلفة جداً عما كنت أتوقعه في هذه المناطق الجنوبية، وكان من المدهش تكرار تأخير أو تعطيل الغيوم لملاحظتي للنجوم. وكان من الواضح أننا على حافة منطقة الرياح الموسمية، على الرغم من أن الحاجز العالي لجبال اليمن قد استولى على جميع الأمطار الفعلية، ولم تكن الظروف غير مواتية للسفر بالصحراء.

وقد أنفقت وقت الانتظار في قراءة الأعداد القليلة الأخيرة من مجموعة ضخمة من جريدة التايمز التي تلقيتها قبل مغادرتي نجران. وكان العدد الأخير بتاريخ ٢٦ مايو، يحتوي على مراجعة لكتاب فريا ستارك المنشور حديثاً عن رحلتها بحضرموت. وكانت وجهتها أيضاً شبوة، وتساءلت ما إذا كنت سوف أنجح أكثر منها في كشف

السر الذي ظل حتى الآن يتحدى جميع المحاولات لسبر أغواره. وبينما كنت أمكث لقراءة الجرائد إذ جاءني رجل ودخل خيمتي وسلمني خطابا من ماكسويل دارلنج[١] الذي كان قد زار جدة وسهل الحجاز الساحلي في أوائل هذا العام بحثاً عن الجراد. وكان الآن لا يزال يبحث في هذا الموضوع في بيحان التي غادرها المبعوث منذ ثلاثة أيام فقط. إن الأخبار تسير بسرعة في الصحراء بكل تأكيد، وكان ماكسويل دارلنج قد سمع بوجودي في نجران من شخص يدعى (سعيد بن حسين) الذي قابلته في بئر الحصينية[٢] في وادي حبونا واستفسرت منه عن إمكانية الوصول بالسيارة إلى شبوة وبيحان، ووعدني أن يعمل كدليل لي إذا انتظرته حتى يعود من خب، حيث إنه كان في ذلك الوقت ذاهباً إلى هناك في بعثة لتحصيل ديون. وكان مبعوث ماكسويل دارلنج قد جاء إلى الشضيف في مسار رحلته الطبيعي لنجران، ولم يظهر عليه أدنى دهشة من مقابلتي في منتصف الطريق.

وأخيراً وبعد وقت طويل وصل ابن مدعار قرب الظهر، أي في الميعاد المناسب لتناول الغداء. تمَّ تقسيم القافلة إلى جماعتين، واحدة للسيارات وأخرى للإبل، وذلك بعد نقاش كثير. وكان ابن قنيبر قد ضغط على وجه الخصوص ليتم ضمه إلى الجماعة الأولى، وقد قبلت حجته على أساس أننا على الأرجح سوف نسير بين بدو الصيعر في الصحراء أكثر من أي شخص آخر. وعلى أي حال كان عليه أن يركب في الشاحنة، بينما كان ابن مدعار سوف يركب معي بناءً على ما يدعيه من معرفة المنطقة المحلية، والتي كان عمه يقلل منها إلى حد كبير. وكان جعمل، الخبير في صيد البقر الوحشي، سوف يظل في جماعة السيارات، ولكنه انتقل الى الشاحنة، التي تحمل

(١) من الإدارة الزراعية بالسودان. (المؤلف).

(٢) الحصينية: قرية مهمة من قرى حبونا، يمر بها الطريق الحضري، البلادي، بين مكة وحضرموت ص٢٠٦. (المراجعون).

أيضاً محمد السائق، وابن حضيل ليطبخ لنا، وسعد بن عثمان للمحافظة على لحوم الحيوانات. واكتملت الجماعة بابن شماخ، كما تمّ توزيع كل من تبقى على الإبل، وقد أعرب ابن هضبان عن تفضيله ركوب (ذلوله) الخاص.

وفي حوالي الساعة الثانية إلا ربعاً بعد الظهر بدأت الرحلة بانطلاق جماعة الإبل أولاً. وأعطيناهم ساعة بعد التحرك ثم بدأنا في اقتفاء أثرهم عبر الوادي بالطريق نفسه الذي كنا أتينا منه منذ أيام قليلة مضت. ولم نكن قد تجاوزنا الملتقى الثلاثي بكثير عندما طلب مني ابن مدعار -الذي لم يركب سيارة أبداً من قبل- أن أتوقف. وفتحت له الباب، وجلس على الأرض يتقيأ ما تناوله في الغداء. وعندما شعر بتحسن استعاد مكانه بجواري. وبعد مسافة قليلة اضطررنا إلى الاتجاه لليمين نحو قاع شعيب محيجر، ولكن ابن مدعار، في ثورة مرضه، نسي أنه كان من المفروض عليه أن يرشدني. وعلى أي حال كنا قد تجاوزنا الثنية تقريباً عندما أدرك وظيفته. وعند الالتفاف بصورة مفاجئة في الرمل أوقفت السيارة، وأضعنا بعض الوقت في إخراجها وبعد ذلك سرنا قدماً في رافد الوادي بالاتجاه الصحيح، ولكننا لم نكد نقطع مسافة كبيرة إلا وأعلن ابن مدعار عن قرب إصابته بالمرض مرة أخرى. وتوقفت إلى أن انتهى تماماً من التقيؤ وشعر بأنه مستعد وسليم جسمياً لمواصلة المغامرة. وفي هذا الوقت كنا قد وصلنا رأس شعيب محيجر قرب سلسلة تلال منخفضة، وبعدها عبرنا رافداً صغيراً آخر لوادي الأمواه يدعى شعيب ركيب. وبعد ذلك بفترة وجيزة وحيث إننا لم نكن قد سافرنا إلا حوالي ستة أميال من الشضيف فقد دخلنا وادي غمير (ملحة) الواسع وهناك كانت جماعة الإبل قد أقامت المخيّم بالفعل وكانت الإبل ترعى النباتات المتناثرة الخفيفة. وفي هذه النقطة وسط قدر ضئيل من شجيرات السنط والحرمل كان الوادي يلتف في ثنية حادة جداً حول كتف أحد سلاسل التلال المعترضة ليستمر في مجراه عبر التلال المنخفضة حتى يتصل بوادي

الأمواه. ويمكن رؤية مجراه عكس التيار إلى مسافة تمتد حوالي ثلاثة أميال في الاتجاه الجنوب الغربي.

ولكي نقطع الوقت قبل الغروب تسلقت أنا وابن هضبان وابن مدعار وابن قنيبر قمة تل منخفض فوق معسكرنا حتى نلقي نظرة على المنطقة المحيطة. وإلى الشمال الغربي كانت سلسلة المعو الطويلة تسد الأفق بتل جامع الذي يرتفع فوق مستوى منخفض في السلسلة ليكوّن علامة واضحة على موقع وادي خب. وإلى الجنوب والجنوب الغربي ظهرت أمامنا سلسلة كاملة من القمم الشاهقة الجديدة وسلاسل التلال، الهضبة العليا وتمتد لمسافة بعيدة نحو الصحراء جنوب موقعنا تقريباً، وتطل رابية (اللوذ) الجرانيتية العالية وقمتها (زويرة) الشاهقة المطلة على قرى الجوف تحتها وما وراءها ، وهناك قمة (محر) خلف بئر بوع، مع سلسلة (صبرين) على جانبه القريب، وسلسلة صعيفان الطويلة، نصيف والخرشة.

وكانت الصحراء نفسها تختفي عن أنظارنا بسلاسل التلال المتداخلة المنخفضة. ووقع نقاش أخير بعد العشاء عما إذا كان يجب علينا أن نتجه إلى العَبْر أم شبوة. إن الطريق الذي سوف نسلكه في الغد يتحدد بناءً على قرارنا، وكان إجماع الرأي يميل بصورة عامة إلى الطريق الأول لأنه أسهل الاثنين. كما أن هذا المسار يناسبني لأنه يبدو عبوراً مباشراً للصحراء أكثر من غيره، وطبقاً لذلك تمّ وضع خططنا بحيث نصل تلال الريان عند الغروب في اليوم التالي. وكان على الإبل أن تبدأ المسير في الصباح الباكر قدر الإمكان، ونحن نتبعهم على مهل. وقيل لنا: إن أفضل فرصة لنا في العثور على البقر الوحشي ستكون خلال هذه المرحلة الأولى، لأن جفاف الصيف سيكون الآن قد طردها إلى التخوم الغربية للصحراء. وحسب اعتقادي كانت آبار العَبْر تقع على بعد حوالي مئة وخمسين ميلاً من موقعنا الحالي في خط مباشر لحد الجنوب - الشرقي. وكان قطيع من الأغنام - الذي عاد مؤخراً من الشرب في الشضيف، يرعى العشب في وادينا عندما انطلقنا في الساعة السابعة صباحاً على طول

أرض فضاء تمتد عبر السلاسل الأخيرة من المرتفعات. واختار ابن مدعار -دون أن يقول كلمة واحدة- أن يركب مع جماعة الإبل، وحسب أقصى حدود ما أذكره لم يتجرأ أبداً مرةً أخرى على الركوب في أي من السيارتين. إن الساعة الوحيدة من تجربته المثيرة تلك كانت كافية لتبقى معه طول حياته. وجاء مكانه ابن هضبان، وكان هذا التغيير مفيداً من وجهة نظري. فعلاوة على كونه شخصية بارزة من بين طاقمنا كله، فقد كان يعرف المنطقة تمام المعرفة مثل أصابع يده.

وفي هذا الشأن كان هو وجعمل صنفين فريدين لوحدهما، وقد انضم إليهما في هذه المنزلة فيما بعد شخصان آخران من الأشخاص الذين سوف نعترف بفضل خدماتهما عند ظهورهما على مسرح قصتي. ولهذا الرباعي أدين بدين لا يمكن حسابه لامتلاء خريطتي بهذه المنطقة بالكامل والتي لم يرسم لها خريطة حتى الآن. وكانت مكافأتهم على العمل، سخية بما فيه الكفاية حسب معاييرهم، من ميزان مواردي المالية الضئيلة. ومع ذلك فإنهم يستحقون أكثر من ذلك لمساهمتهم القيمة في مجموع المعارف البشرية، وأحياناً أثناء خلو ذهني لفترة طويلة من المشاغل والأفكار المألوفة التي تنتاب الإنسان كنت أستغرق في تأمل غرابة عادات الإنسان وتقاليده. إن مكتشف منجم الذهب ومخترع جهاز ميكانيكي أو دواء من الأدوية المسجلة ببراءة الاختراع أو مؤلف كتاب رائج أو قطعة موسيقية مشهورة، كلهم حقوقهم محفوظة بموجب حماية قانونية. أما مكتشف نجم جديد أو قارة جديدة قد يموت من الجوع، وقد مات بالفعل أحد أعظم المحسنين للعالم -وهو مكتشف بعوض الملاريا- فقيراً معدماً. إن علوم أمثال هؤلاء، التي اكتسبوها بعرق جبينهم، تعد ملكاً مشاعاً. إن العالم لا يشعر بالشكر والفوائد والامتنان للفوائد التي قد يجنيها بدون الاعتراف بها. هكذا الأمر مع العمل الطبوغرافي. إنني أكد وأكدح مجاناً في خدمة العلوم البحتة، ولا أستطيع أن أكافئ بصورة كافية أولئك الذين ساعدوني في هذا الهدف النبيل.

وواصلنا السير حتى شفة الأرض الفضاء (أو الفرجة) التي تتجه للارتفاع شيئاً فشيئاً، وذابت المرتفعات أمامنا لتتكشف لنا الصحراء. وقد اقتبس ابن هضبان مثلاً من بعض أشعار البدو يقول «إن الذي يتجسس على قناو يرهب الطريق المخيف». وعلى بعد حوالي عشرة أميال للجنوب الشرقي ترتفع تلال "قناو" الثلاثة السوداء. وإلى مسافة بعيدة وواسعة امتد أمامنا سهل «جو المليس» الرملي الهائل، والذي تتناثر فيه تلال صغيرة معزولة، مثل تل الرجلاء والقليعة على خط سيرنا نفسه، وبني جعاس و«مطاو»[1] نحو الشرق، وحيض الذي يبرز من بين أمواجه الرملية للشمال - الشرقي، وبليق والشهلا عند مسافة بعيدة للجنوب - الشرقي. وقد سدت سلسلتا الهضبتين مع اللوذ مدى النظر في اتجاه الجنوب.

وطار زوج من الدجاج البري من أمام السيارة ثم حطّ مرة أخرى على الرمل جانباً. وعبرنا خط «غار النويري» الضحل الذي يقوم بتصريف الأمطار والمحدد بشريط من أعشاب الحزم الذابل وقليل من الشجيرات الصغيرة الجافة. وتوقفنا لنفحص دروب قافلة تتجه نحو الشرق والشمال الشرقي نحو تلال الريان. وكانت بلا ريب قاصدة حضرموت، ولم تمر في هذا الطريق إلا الليلة الماضية فقط، ولكنّا لم نرها هي أو أثر سيرها مرة أخرى. ومما لا شك فيه أنها سارت على طريق مختلف إلى الجنوب من طريقنا. وقد رأينا هنا أيضًا أثر سير الثعالب، وكنا قد لاحظنا أول الغزلان على بعد حوالي خمسة أميال بعد ذلك عندما عبرنا مسطحات التصريف الضحلة لكل من حزم وقيسين. وكان سطح الصحراء طيباً بصورة عامة وذا رمال ثابتة ومتموجة قليلاً وبه بقاع متباعدة من الحصباء الخفيفة. وكان طائر وحيد من طيور القنبر الصحراوي يستظل من الشمس تحت شجيرة هزيلة هي الوحيدة الموجودة بالمنطقة لمسافة أميال حولها.

---

(١) في خريطة نجران مقياس (١: ١٠٠٠٠٠٠)، موضع في خط سير هذه الرحلة باسم «مطان» لعله يكون هو الموضع الذي سماه فيلبي مطاو "Matau". (المراجعون).

واتجهنا الآن لخط بعيد من الشجيرات التي تقف علامة على قناة التصريف «شفة الخيل» ولزمناها نحو الجنوب الشرقي. وهنا رأينا أول أثر لسير البقر الوحشي، جديد تماماً، بين الكلأ الضئيل. وواصلنا التزام هذا المنخفض أملاً في رؤية الحيوانات، ولكن بعد فترة من الوقت تحولنا نحو الشمال تجاه مطاو.

وانطلقنا بالسيارة في سرعة جيدة فوق سهل من الرمل الجرانيتي ذي الحبيبات الخشنة، وكنا نقترب من تل مطاو عندما افتقدنا الشاحنة. وقد مسحنا الصحراء في جميع الاتجاهات، وبعد مدة طويلة رأيناها تطير بسرعة كما لو كانت "مجنونة". وكان مما لا شك فيه أنها تطارد غزالاً على الرغم من تعليماتي المحددة بأن تترك جميع أعمال الصيد لسيارتي. إن تموين الوقود معنا لم يكن زائداً بدرجة تكفي أي ترتيبات أخرى. ومن الغريب -على أي حال- أننا لم نشاهد الغزلان على الرغم من أننا عبرنا بعض آثار سيرها. ومهما يكن من أمر فقد قررنا أن نواصل السير حتى مطاو لنتوقف هناك عند منتصف النهار، والآن لاحظنا أنه مأهول بالفعل. فحوله كانت الإبل ترعى ومعها بعض الرعاة. واعتقدنا أنهم ربما يكونون من القافلة التي رأينا أثر سيرها، وتقدمنا بحذر قبل أن نورط أنفسنا. واكتشفنا، على أية حال، أنهم من جماعة الإبل التابعين لنا وقد توقفوا للراحة والطعام على الرغم من أن الوقت كان لا يزال في العاشرة والنصف صباحاً. وكان هذا تقريبًا سيراً طيباً بدرجة كافية لرحلة بلا ماء تمتد لقرابة مئتي ميل، ولكن الإبل كانت هي قدرنا التعيس، فالسيارات تستطيع، على كل حال، أن تصل الريان بسهولة قبل الغروب، أما الإبل فسوف تضطر أن تسير خلال جزء من الليل حتى تخيّم معنا.

ولقد ثبت أن مطاو بقعة ملائمة لنوم القيلولة. فصخوره الجرانيتية المتراكمة بلا نظام وفرت كهوفاً وملاجئ كافية لنا جميعاً، وقمته - التي يمكن الوصول إليها ببعض الصعوبة - أعطتني نظرة طيبة على جميع ما حولها. وقمة جبل زنقر التي تطل على بئر مشينيقة تقع تقريباً إلى الشرق تماماً من موقعنا، بينما باقي تلال الريان، وهي مساحة واسعة من الروابي والسلاسل الجبلية، تمتد من الشمال الشرقي حتى الجنوب الشرقي،

وتسد النظر لما وراءها. ومن أقصى طرفـها للشمال الغربي من مـوقعنا هنا كان هناك منظر رائع للرمـال العالية والتي كـانت أقرب نقطة منها لـنا تبعد حـوالي ميل. هذه الرمال، طبقاً لما قاله ابن هضبان وجعمل، تمتد من حدودها الجنوبية ، على طول خط العرض السابع عشـر تقريباً، في مجموعات صلبـة لا يمكن اجتيازها من سلسلة تلال إلى سلسلة تلال حتى أقصى حدود وادي الدواسر في الشمال. وتتلاشى نحو الغرب تجاهنا نحن والتلال السـفحية اليمنيـة في سلسلة من المنحنيات الخفيـفة مثل الأطراف الناعمة لمروحـة مفتوحة من ريش النعام. ويبـدو أن أطرافها تتموج تقـريباً مع النسيم الذي يهب عليـها. وتختلف مـحاور الأقواس الرمليـة التي يمكن رؤيتهـا من الغرب للشرق عن يسـارنا حيث يتصل اثـنان منها اتصالاً وثيـقاً بتل بني جعـاس، (غرب، جنوب، غـرب) - (شرق، شـمـال،شرق) في المركـز المقـابل مطاو، وإلى (جنوب غرب، شمال شرق) عن جهة اليـمين حيث تصل الحدود الخارجية للريان. وعلى أي حال يبـدو أنها تتهـيأ في تشكيلات أكـثر تكتلاً عند القـاعدة، التي تمتد منهـا التلال الرملية الضخمـة نحو الشرق إلى حدود البصر. أصابع الرمل المنحنيـة الخارجية فقط تمتد تجـاه الجنوب من دربنا الذي ننوي أن نسلكه، وتستمـر من سلسلة قوع في الريان عبر واجهة هذه التلال حتى تل الخليلة الصـغير والمنعزل في الصحراء. هذا الامتداد، كما نكتشف في الوقت المناسب، كان ذا موجات منخفضة وثابتة نسبياً ولم تمثل عقبة خطيرة لمرور السيارات عليها.

وقد أضافت صـخور مطاو إضافة ضئـيلة إلى مجموعة «التـاريخ الطبيعي» التي أمتـلكها حـيث أهدتني زوجاً من الجـرابيع التي يبـدو أنها وفـيرة هنا، والطائر المغـرد الرمادي الذي لاحظت علاوة عليـه «هدهداً» وحيداً عند وصولنا. وعلى أي حـال فقد جاءنا بند أكثر أهمية مع جماعة الشاحنة الذين كانو يقودونها وهم يغنون بصورة مفعمة بالقوة والحيوية احتفالاً بشجاعتهم وبراعتهم. وقاموا بسحب ثور رائع من البقر الوحشي

من السيارة وأحضروه إلى كهفي. وسواء كنت عاقلاً أو لا فقد انتابني الغضب أكثر من السرور، وصببت جام غضبي على هؤلاء الصيادين الذين أصابهم الذهول والاستغراب، فلقد تحدثنا كثيراً لأيام طوال عن احتمال رؤية البقر الوحشي في بيئته الطبيعية بالصحارى. وفي نجران كنت أستطيع أن أضمن عينات كثيرة قدر ما أرغب من خلال تكليف صيادي البدو باصطيادها لي. وقد أهداني الأمير عجلاً صغيراً منها، ولكنه لسوء الحظ مات بعد شهور قليلة وهو في طريقه إلى جدة. إن رغبتي الوحيدة كانت رؤية الحيوان حيًا في وضعه الصحيح والاحتفاظ -إن أمكن- برأس واحدة منها لنفسي. وقد وعدني جعمل بكل ثقة أن يحقق أمنيتي. وهو -من بين كل الناس- قد وفر عليّ المشاق عندما رمى الغنيمة عند قدماي. وبكل بساطة لم يستطع فهم استيائي. وكان من المستحيل أن أحاول تفسيره له. وهكذا تناولنا الغداء من العصيدة في صمت كئيب، ولم يجرؤ رجل واحد على السؤال عن اللحم. وبعد ذلك قمت بقياس هذا الحيوان الرائع وطلبت من سعد أن يسلخه. لقد كان الوحيد الذي استطعنا رؤيته أو الحصول عليه مطلقاً. إن انتهاك جعمل للمحرمات كان أكبر من أن تغفره الصحراء.

وكانت الساعة الثالثة عصراً قبل أن تنطلق الإبل، ولم تصل المعسكر إلا عند الساعة التاسعة. وكان الحاجز الرملي المنخفض، الذي وصلناه بعد أن مشينا خمسة أميال، يمتد في ثلاثة أشرطة منفصلة عبر مسارنا بعمق إجمالي يزيد قليلاً عن ميل واحد. وبعد ذلك بستة أميال دخلنا سلاسل التلال المنخفضة التي ينتشر الرمل عليها والتي تشكل الدائرة الخارجية لأرض الريان. وعصفت ريح شرقية مروّعة بالرمل من تلك المنحدرات في وجوهنا. وعلى أي حال لم يمض وقت طويل حتى وصلنا إلى منخفضات الوادي الوسطى التي تتدفق من منحدرات التلال الشاهقة. وكان أكبرها «شعيب مشينيقة» الذي قاسينا قدراً عظيماً من الصعوبة في عبوره نتيجة وجود كتل ضخمة من الحشائش على كلا جانبي القناة الحقيقية. وإلى مسافة قريبة على ضفة

الشعيب اليمنى اخترنا موقعاً لمعسكرنا في بقعة ذات أشجار قصيرة وشجيرات متفرقة.

ومشيت أنا وابن هضبان في الوادي نرتاده، وبعد نصف ميل تقريباً فوق معسكرنا، حول ثنية من القناة صادفنا موقع بئر قديم محاط بأثر محاولات حديثة لحفره والتي فشلت -على كل حال- في العثور على الماء. وبالقرب منه توجد مقبرة ضخمة نسبياً تحتوي على قبور جماعات من البدو أو ضحايا معارك قبلية. ومن بينها كانت هناك رقعة دائرية محاطة بطبقة واحدة من الحجارة غير المستوية ومزينة على جانبها الجنوبي بقطع أكبر من الصخور بارتفاع يبلغ حوالي قدمين، ومنصوبة إلى أعلى. وكان قطر الدائرة سبع خطوات، والسطح الداخلي بها لا يبدو أن أحداً قد وطأه من قبل. ولم تكن قبراً بالتأكيد، ولكن ماذا تكون إذن؟ هذا ما لم يستطع ابن هضبان قوله ولم أستطع أنا أن أخمنه.

وهناك موقع بئر آخر إلى البعيد قليلاً في القناة مقابل صخرة في الضفة اليسرى مزينة بقليل من النقوش. وهنا أيضاً حاول البدو مؤخراً -ولكن بلا جدوى- الحفر في الرمل طلباً للماء، في حين قد كوفئ بحثهم في بقعة ثالثة قريبة باكتشاف فوهة بئر تم حفرها في الصخور الجرانيتية الحمراء، بقطر ثلاثة أقدام وعمق حوالي عشرة أقدام في الرمل الذي انهال إلى الداخل وسد باقي البئر. ومن الواضح أنهم فشلوا مرة أخرى في العثور على الماء. ويوجد اعتقاد محلي يقول: إن الموارد التي كانت ذات يوم تمد هذه المجموعة من الآبار بالمياه قد جفت لسبب من الأسباب لم يقدم له أحد تفسيراً. إن مشينيقة موقع رئيس بكل حق، ليس فقط للبدو الذين يرتادون مراراً المراعي الوفيرة عادة في أراضي الريان، ولكن أيضاً للقوافل المتجهة لحضرموت. وفي تريم بعد ذلك بعدة أسابيع، عرض عليّ مقال يصف طريق قافلة الحج التي أكملت الرحلة في عام ١٨٦٤م من حضرموت إلى مكة والعودة ثانية بدون حادث مشؤوم. وربما كانت هذه آخر قافلة حج على هذا الطريق يوجد لدينا سجل وثائقي عنها. لقد وجدت بالتأكيد ماءً في مشينيقة في ذلك الوقت، ولكن هذا كان في أيام بحبوحة

العيش والغِنى في عـهد فيصل بن سـعود[1] الذي شمل حكمـه منطقة حضـرموت والذي -كما سنرى فيـما بعد- يبدو أنه قد وجه اهتمامـاً خاصاً لإنشاء هذا الطريق. ولم أستطع أن أكتشف متى بدأت الآبار تجف، ولكنها كانت كذلك لأطول فترة يمكن أن يذكرها ابن هضبان.

وتوجد عـلامة ماء كـبرى وبها ثمـانية وعشـرون نقطة على الصخـور بجانب الوادي، مع تصوير جميل على غير العادة لرجل مسلح يشـير بإصبعه في اتجاه البئر. وعلاوة على ذلك كان هناك رسم واضح بصورة قوية - على الرغم من تشويه الوجه جزئياً - لرجل على حصان جامح وهو يلوح بسيفه الأحدب -على ما يبدو لي- فوق رأسه. وكان هذا واحد من أفضل الرسوم على الصخر التي رأيتها خلال بعثتي كلها، وله أهمية خاصـة على ضوء ما قاله بليني من أنه لم تكن توجد أي خـيول في سبأ. ولسوء الحظ لم يكن عليه تاريخ، على الرغم من أنه يفترض أن يكون من عصر عتيق بدرجة كبيـرة ، ويقدم دعماً تصويرياً لنقش من القرن الثاني قـبل الميلاد يحتوي على أقدم صورة معروفة للخيل (أو بالأحرى أنثى الخيل أو الفرس) في الجزيرة العربية.
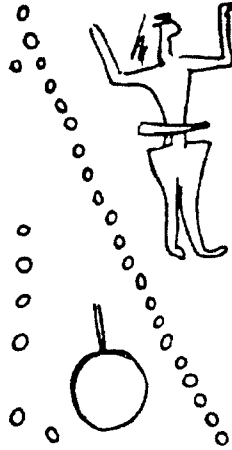
(١) هو الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله، حكم لفـترتين تبدأ الأولى عام ١٢٥٠هـ وامتدت إلى عام ١٢٥٤هـ، والثانية عام ١٢٥٩هـ إلى وفاته -رحمه الله- عام ١٢٨٢هـ. (المراجعون).
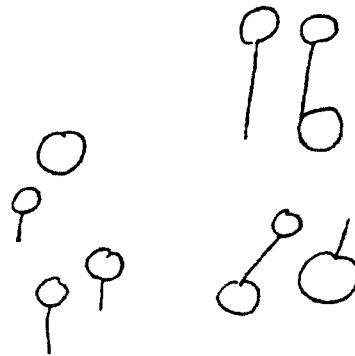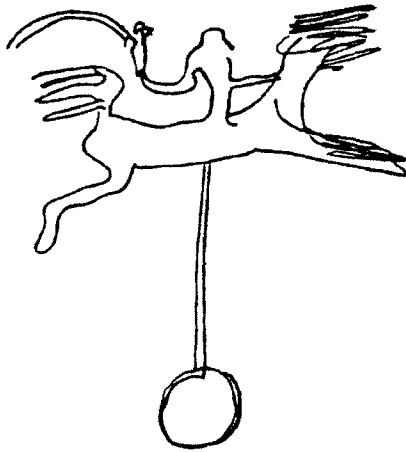
ولسوء حظي في مراقبة النجوم، كعادتي، أظلمت السـماء بالغيوم الكثيفة قبل غـروب الشمس وظلّت كـذلك طول الليل كلـه. وكان عليّ أن أكـتـفي تبعـاً لذلك بالارتفاعـات الضوئية للشـمس في الصباح التـالي لمعرفة خط الطول فـقط. وكانت الغيوم مصحـوبة بريح شمالية عاصفة وقليل من قطرات المطر. ونتيـجة لتأخر وصول الإبل لم نتناول العشـاء إلا عند منتصف الليل، وكان مكوناً من العصـيدة ولحم الثور الوحشي، ولقد كان أكلاً ممتازاً بالفعل.

وقد حدث حـادث عرضاً، إذ بينما كنت أنا وابن هضبـان نتجول في الوادي، انطلق جعمل في الاتجـاه المعاكس ووجد راعياً من الصيـعر، والذي زارنا في المعسكر وشاركنا العـشاء. وكان من الواضح أنه هو وعائلتـه، بما فيها فـتى صغير جـاء معه عندنا، قد مكثوا في هذه المنطقة القاحلة لأسابيع كـثيرة. وكان قطيعه من الأغنام من نوع «مجزي» كـما يقولون - أي ترعى بدون ماء. ما دامت الأغـنام يتم حجزها عن الماء، حسب مـا شرح لنا، فإنها تسـتطيع أن تصبر على العطش لفـترات طويلة، أي لشهور من غـير انقطاع، أو حتى لعام كـامل. ولكن بمجرد أن تأخذها للمـاء فيجب عليك بعد ذلك أن تسقيهـا بانتظام - على الأقل مرة كل يومين. إضافة إلى ذلك فإن الأغنام البيضاء فقط هي التي تتمـتع بطاقة التحمل هذه، أي أنك لا تستطيع أن تأخذ الغنم السوداء للمـراعي التي ليس بها مـاء. وبالنسبة للكائنات البـشرية فإن طعـامهم وشرابهم في آن واحـد هو لبن أغنامهم، ويعرفون بعض المواضع التي يوجـد بها طين مبلل إلى حد ما في الوهاد، ومنه قد يعصرون قطرات قليلة من الماء. وزيارتنا مكنتهم من ملء بطونهم، وقد أخذوا معهم أيضاً بعضاً من لحم الثور الوحشي لنسائهم.

ويبدو أن الوادي كان مليئًا بالثعابين بصورة مزعجة، وقد قمت فعلاً بوضع زوج منها في زجـاجة. وكان أحدهمـا ينزلق خلسة فوق البطانيـة التي تغطي أرجلي عندما كنت أجلس في فراشي للعـمل. وفي الصباح اصطدت أرنباً برياً في مـنحدرات زنقر وكان يوجـد هناك أيضا عـدة طيور من القنـبر الصحـراوي. وفي المساء السـابق عند

الشفق رأيت عليه طائر السِّبد (Nightjar) الذي يطير على ارتفاع منخفض قرب المقابر.

كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة خلال الليل سبعة وسبعين درجة، يبزغ الفجر متجهم الوجه، فاسد الهواء، ملبّداً بالغيوم. وكنا هنا على ارتفاع حوالي أربعة آلاف قدم فوق البحر، بالإضافة إلى قمة زنقر التي ترتفع ٥٠٠ قدم أخرى فوقنا. وعند سفح التل عثرت على قبر وحيد، يبدو من الواضح أنه لشخص هام. وكان على شكل مستطيل، طوله ست خطوات وعرضه أربعة، وشاهد القبر يرتفع ثلاثة أقدام ويقف منتصباً وسط الناحية الشمالية، بينما العمود الجرانيتي، الذي تم تزيينه بعناية ولكن بصورة غير مستوية، والذي يبلغ طوله خمسة أقدام ونصف، كان يمتد بصورة مائلة عبر القبر. وربما كان ذلك لتزيين الناحية الجنوبية من المستطيل.

ومن قمة زنقر كنت قد استطعت أن أجمع فكرة ضخمة عن منطقة الريان وما جاورها. إن وادي مشينيقة الذي يبدأ في منحدرات التلال على بعد نصف ميل جنوب هذه النقطة يلتف حول قاعدة زنقر، وكذا يتجاوز معسكرنا ليفرغ نفسه في سهل طيني واسع والذي يبدو أنه يشطر تلال الريان من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي. والتلال بصورة عامة ليست ذات ارتفاع كبير، ولكن يبدو أن بعض النقاط القليلة منها مثل أكباد وبويقي والقراين وغيرها كانت على ارتفاع "زنقر" نفسه. ومن الرمال الهائلة لم نستطع رؤية أي شيء أكثر مما رأيناه بالفعل من "مطاو" إلا قليلاً نظراً لأن القسم الشرقي من الريان وراء السهل الطيني كان يحد من رؤيتنا. وعلى كل حال يبدو أن شريطاً يبلغ عرضه ميلاً من السهل المنبسط الحبيبي يفصل الريان عن الحافة الجنوبية للرمال.

وكانت الساعة التاسعة والنصف قبل أن نستأنف سيرنا، تابعنا محيط منحدرات زنقر وبعد ذلك انحرفنا عبر السهل الطيني. وقد قاسينا من مشاكل قليلة من شعيب رملي غير مستو يجري على طول جانبها البعيد، ولكن بعده كان السير يسيراً بدرجة

كافية فوق ممر صخري يلتوي خلال بقعة غير منتظمة من التلال المنخفضة والمرتفعات الصغيرة من ركام الحجارة. وفي ذلك الوقت فقدنا أثر سير جماعة الإبل التي انطلقت من المعسكر عند الساعة الخامسة صباحاً. وقد تمّ بصورة غامضة تسمية تل صغير رائع، يدعى «أبو كعب» كمكان الالتقاء للراحة في منتصف النهار. ولكن الأودية الضيقة في المنطقة المجاورة له كانت تشبه بعضها إلى حدّ كبير، وبدا لبعض الوقت أننا نسير على غير هدى. وعلى كل حال فقد حالفنا الحظ حيث إننا عثرنا مصادفة على الوادي الذي كانت الجماعة تخيم فيه وهبطناه. وأوقفت سيارتي قريباً تحت أغصان شجرة كي أجني فائدة الظل المزدوج، على الرغم من أنه لم يكن هناك حاجة ملحّة على وجه الخصوص لعمل ذلك. وبقيت السماء ملبّدة بالغيوم طوال فترة بعد الظهر، وهبت علينا ريح الشمال بعواصف متقطعة، والتي ساهمت في خلق ظروف ملائمة جداً. وكنا هنا قريباً من حافة «الريان» الجنوبية، ولم يستغرق الأمر منا وقتاً طويلاً -فيما بعد الظهر- لمسح منطقة التلال.

وعندما تجاوزناها وجدنا أنفسنا في منطقة مفتوحة وعرة قليلاً، وبها سلاسل تلال «برقاء الأشقر» المنخفضة والمغطاة بالرمل أمامنا، ولكن إلى اليمين قليلاً عن مسارنا. وسلاسل تلال برقاء الأشقر هي الحدود المعترف بها بين إقليم قبيلة دهم وقبيلة الصيعر، والأخيرة تمتد الآن بلا انقطاع إلى التلال شرق وغرب العبر. وبعد عبور منخفض زنيفر الواسع الذي تمتاز صخور القاع فيه بتكوينات زرقاء ورمادية وبها كثير من عروق الكوارتز وحجارة مفككة متناثرة، مررنا فوق شريط طويل ضيق وغريب جداً من الصخور الحمراء إلى حدٍّ ما والذي يمتد من الجنوب الشرقي، إلى الشمال الغربي. وهنا التقطنا رأس ثور ميت. ووراء ذلك دخلنا بقعة صخرية نسبياً التي حددناها لنوقف في وسطها سيارتنا لإقامة المخيّم لنقضي هذه الليلة بجوار نصب تذكاري بارز من ركام الحجارة يعرف باسم رضم الأمير. وقد سارت جماعة الجمالة

-سواء كان ذلك مصادفة أو عن عمد- بعيداً عن طريقنا، ولم نر أي أثر لهم على الطريق كما أنهم لا يمكن أن يكونوا قد تجاوزوا هذه النقطة بكل تأكيد. والحق أننا لم نرهم مرة أخرى إلا قرب الصبح، حيث إنهم قد فضلوا السير بصورة مستمرة من ناحية عملية طول الليل كله لكي يقللوا المسافة بينهم وبين آبار «العبر». ومما لا شك فيه أن إمدادهم من الماء قد بدا عليه علامات النضوب.

إن اكتشاف نصب «رضم الامير» كان ذا أهمية كبرى. ووراءه في خط مستقيم باتجاه «العبر»، تقريباً نحو الجنوب الشرقي تماماً، توجد نصب مشابهة أخرى على مسافات غير منتظمة تبلغ مئات قليلة من الياردات. ولقد تمكنّا من رؤية ستة أو سبعة منها، يقال إنها تمتد على طول الطريق حتى «العبر». والطريق هذا، الذي توجد عليه تلك العلامات لإرشاد الرحالة أو القوافل، لا يزال يعرف حتى هذا اليوم باسم «درب الأمير». وطبقاً لما قاله ابن هضبان فإن مبدع هذا الطريق، الذي لا يزال يذكره تماماً عندما كان شيخا عجوزاً، هو «عبدالله بن مشاري بن قملة»[1]، وكان من شيوخ قبيلة «دهم» واكتشف هذا الطريق ووضع علامات على طوله حتى العبر بموجب أوامر فيصل بن سعود. كما كان يقوم نيابة عن السلطان السعودي بجباية الزكاة عن قطعان أفراد «الصيعر» في آبار العبر حيث أقام الحصن الذي أصبح الآن مجرد انقاض. ويجب أن يكون قد انقضى ما لا يقل عن سبعين عاماً منذ أن عُهد إليه بتلك المهمة لأن فيصل قد توفي عام ١٨٦٧م، ولكن يحتمل أن يكون ذلك قد استمر لأعوام قليلة بعد ذلك، ولا ريب في أنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتنظيم طريق الحج المذكور آنفاً.

(١) تعرف أسرة هذا الشخص بـ «آل بن قملا» من أتباع دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب السلفية التي أوصلتها هذه الأسرة إلى حضرموت. وأبرز ظهورهم هناك في عهد الإمام سعود بن عبدالعزيز سنة ١٢٢٤هـ، وتعريفاً بهذه الأسرة قلبت الألف إلى تاء مربوطة فأسموهم آل ابن قملة، انظر: الكاف: حضرموت عبر أربعة عشر قرناً، ص٥٧، هامش (٣).

ويعد هذا النصب الركام ضمن منطقة بُرقة (برقاء الأشقر) والتي تقع أقرب تلالها على بعد ميلين تقريباً، وفي شكل قوس منخفض في مواجهة النُصُب. ولذلك يمكن اعتبار النصب نقطة بارزة على حدود دهم - الصيعر. والسهل من ورائه امتداد «لجو المليس» الذي يعد بصورة غامضة بأنه يمتد عبر الصحراء تماماً من تلال اليمن السفحية حتى حافة تلال العبر. ولم تعد صخور سطح الأرض الآن من الجرانيت والبازلت، مثلما هو الحال في منطقة الريان، ولكنها من الحجر الجيري البلوري الصلب ذي لون غريب يميل للزرقة.

قد جمعنا الغداء والعشاء معاً بعد الظهر في «أبو كعب» حتى يمكن أن تسير الإبل طول الليل، وتأوي جماعتنا الصغيرة إلى الفراش بلا عشاء. وعلى أي حال فقد أعدّ ابن حضيل لنا خبزاً في الصباح، على الرغم من أن الساعة لم تكن قد جاوزت السادسة والنصف صباحاً عندما انطلقنا في المسير. وكم كنت أود لو سلكت طريق النصب حتى نهايته، ولكن كان من المطلوب أن نتأكد من اللحاق بجماعة الإبل، التي كانت بالتأكيد تسير في مسافة بعيدة عن يسارنا. وهكذا اتجهنا قليلاً للشمال من الشرق بحثاً عن أثر لسيرها. وفي ذلك السهل الفسيح المتموّج بصورة رقيقة جداً والذي تكسوه حصيرة من حصى الكوارتز المنتشر استطعنا أن نذهب حيثما أردنا. وبعد حوالي عشرة أميال من "رضم الأمير" تغير سطح الأرض إلى طبقة من الحجر الرملي الصلب الذي أكسبته عوامل التعرية الطبيعية قوة وتكوينات النتوءات المنخفضة مليئة بتشكيلات الأنابيب والأسطوانات جميلة الشكل. وبالقرب من حافته أتينا على شجرة سرح وحيدة، والتي قام ابن هضبان كإجراء احتياطي بنقش علامة قبيلته عليها (وسم) وكان عبارة عن نقطتين أفقيتين فوق دائرة. وحتى الآن لم نر أي أثر لجماعة الإبل، التي إن لم تصل إلى هذه النقطة تحت أي ظرف فسوف ندرك أننا قد تجاوزناها. وسوف يدلهم أثر سير السيارات على الأرجح قبل أن يروا العلامة. وفي هذه المنطقة رأينا أثر سير ثلاثة إبل كانت متجهة للغرب قبل أربعة أيام، وبعد ذلك بمسافة قليلة رأينا آثار سير قديمة لسبعة ظباء ذاهبة للشرق.

وقد قطعنا حوالي ثمانية أميال بعد شجرة السرح عندما رأينا -أخيراً ومما جعلنا نشعر بارتيـاح عظيم- آثار سير جماعـة الإبل التابعة لنا وانحرفنا معـها نحو الجنوب الشرقي. وإلى الآن لم نقابل شيئاً حياً، ولا حتى طائراً من الطيور، ولكن أول غزال ظهر في الساعة الثـامنة والنصف صباحاً، وفي ذلك الوقت كنا قد انتهـينا من خمسة وعشرين ميلاً من نقطة البداية. وكـان سطح الأرض يتنوع من حين لآخر من حصباء الكوارتز هنا إلى حـجر رملي هناك. وكل هذه البـقعـة من حصى الكوارتز والحـجر الرملي تعرف باسم «رملة العَرَمْرَم». وبعد مـيل أو ميلين كان هناك ارتفاع طفيف في سطح الأرض، وبصورة واضـحة، على مسافة بعـيدة، استطعنا فقط أن نتـبين نقاطاً مرتفـعة قليلة من الهـضبة تحـد الأطراف الشماليـة لمنطقة حـضرموت مـثل مرصص و«دواثر» على اليـمين. وسرعان مـا رأينا بعد ذلك إبلنا قـادمةً من بعـيد، ولـم تمض دقائق قليلة إلا وكـانت السيارة تنطلق بسـرعة قبلهم نحو منخـفضات «سر اليـماني» كثيرة الأشجار حيث اقترحنا إقـامة المعسكر هناك. وانطلقت غزالة أنثى «عفري» تعدو من مخبأها تحت شـجيرة، وانطلقنا وراءها نطاردها، حيث صرعهـا ابن هضبان أرضاً من أول طلقة من بندقيته. ورأينا الآن الكثـير من الغزلان، ولكن كان معنا من اللحم ما يكفي لوجبة منتصف النهار. ولـم تكن الساعـة قد تجاوزت التاسعة إلا بقليل عندما وجدنا بقعة جميلة من شجيـرات السرح الظليلة المتناثرة لإقامة معسكرنا بها. وسوف تصل الإبل تقريبًا بعـد ساعة أخرى، وكنا جميـعاً نشعر بالجوع بدرجة كـافية لتناول الوجبة مبكراً.

وعلى الرغم من الريح الحارة الجـافة، إلا أن الجو كان بارداً بصورة مـناسبة في الظل الكثيف لشـجرة سرح كبـرى اخترتها لإقامـتي الشخصيـة. ولم يبدُ على طائر الصُّرد الرمادي (Grey Shrike)، الذي كان مستقراً بالفعل فوق الشجرة، أي علامة انزعاج عنـد دخولي تحت الظل وتطفلي عليـه، ودفع ثمن طيشـه حـياته. وباسـتثناء طائر واحد من طيور الـقنبر والغزلان لم يظهر هناك أي أثر للحـياة في الوادي. وبعد

جولة قصيرة على الأقدام حول المكان فقد رجعت إلى مخبئي حيث كان ابن حضيل قد أحضر لي بعضاً من لحم الطريدة المشوي في السمن، مع الخبز وكأس الشاي المعتاد. وعندما وصلت الإبل تناولت سلطانية من اللبن، على الرغم من أن تموين الماء كان يبدو لا يشكل أي مشكلة مزعجة الآن لأن مقصدنا كان تقريباً في مرمى البصر. وكانت الإبل قد نال منها التعب مبلغاً، وليس هناك سبب يدعو للعجلة.

إن موقع آبار العبر العالية، كان مبيناً لنا بقمة بامخاري العالية. وعن يمينها يبدو أن جُرُف وقمم مصاير هي كل ما تبقى من هضبة الحجر الرملي ذات الغطاء من الحجر الجيري التي نحتتها عوامل التعرية، بينما سلاسل تلال مرصص ودواثر ومشطة التي تقع خلف الأولى يفترض أن تكون من الحجر الجيري وفيها عروق من حجر الصوان الذي يأخذه البدو -طبقاً لما ذكره ابن هضبان- من هنا ويستخدمونه في إشعال النار ويبيعونه كل ستة حجارة بقرش واحد. ويقوم وادي سر اليماني بتصريف المياه من المناطق الغربية لسهل رمارم جنوباً بعد الطرف الغربي حتى مصاير في منطقة رملة السبعتين الصحراوية.

ولم تستأنف الإبل سيرها إلا الساعة الثالثة والنصف عصراً، وبدأنا بعدهم بحوالي نصف ساعة . ولم يكن لدينا نية بالطبع في محاولة الوصول إلى العبر نظراً لأن الساعة كانت تقترب من الحادية عشر ليلاً عندما وصلت الإبل المعسكر «شعيب ملزق»، أي إنها أخذت تقريبا سبع ساعات ونصف لقطع مسافة ستة عشر ميلاً. وفي البداية سرنا بدرجة كافية من السهولة فوق الحصباء الخفيفة بسهل «أم السمر». وعلى أي حال، وبعد أميال قليلة يتحول السهل إلى سلسلة من الطيات الضحلة كلما اقتربنا من التلال. وفي المنخفضات كان سطح الأرض متقطعًا إلى حد ما بخطوط تصريف المياه، وأشرطة الرمل، وقدر متزايد من النباتات. وفي أحد تلك المنخفضات -قريباً عن يسارنا- رأينا مخيماً صغيراً للعرب في رقعة طيبة من الشجيرات والحشائش والأعشاب الخضراء الجديدة. وبعد مسافة من ذلك أصبحت تموجات هذه المنطقة أكثر

وضوحاً، حيث تتباعد أشرطة من الحصباء الجيرية عن بعضها بأودية واضحة وضيقة، مثل «أبا السرح والبريمية والسقيلية» وكلها تنحدر من المرتفعات حول سلسلة تلال دواثر لتتدفق في اتجاه جنوب غرب على طول واجهة مصاير. وتتحد كلها بصورة تامة مع شعيب ملزق -وهو أكبر قنوات التصريف العرضية هذه جميعاً- لتشكّل وادي حوا الذي يصرّف نفسه بعد قليل في رمال السبعتين.

وقد وصلنا شعيب ملزق عند الغروب، وسرعان ما استرحنا في مخيمنا بالوادي الرملي الواسع والمغطى بكثافة بالشجيرات والأعشاب. وكانت ضفته اليسرى قرب مخيمنا هي أول سلسلة من سلاسل تلال منخفضة مكسوة بقطع صغيرة من الحجر الرملي، والتي تملأ الفجوة بين هذا المكان والسلاسل المسطحة الأعلى قليلاً والتي تلتف حول آبار العبْر في نصف دائرة لمسافة ستة أميال فقط. وقد أدى إطالة توقفنا وسط النهار إلى العبث بما لدينا من تموين الماء وكنا في هذه المساء، وبدون حساب الماء المخصص لسيارتنا فلم يبق لنا إلا برميل واحد، كان مليئاً بماء مشوبٍ بالزيت، وتم فتحه للبدو. وفي الخامسة صباحاً كان كل فرد منا قد استيقظ وتمّ وضع السروج على الإبل وتجهيز كل شيء، وهكذا تركتهم جميعاً يسبقونا ثم نلحقهم على مهل بعد ساعتين أو أكثر.

وعلى بُعد حوالي نصف ميل وراء معسكرنا وقعنا على طريق درب الأمير الذي توجد عليه علامات، ويمتد لمسافة ما على تموجات صخرية وعرة بها الكثير من قنوات التصريف الرملية المعترضة. وبعد ذلك يسقط في ممر بين جدران طينية بارتفاع عشرين قدماً وهي ربما تكون لواد طيني مسدود منذ زمن قديم كما يبدو بوضوح يجري بين سلاسل التلال الوعرة. وبعد ذلك قدنا سيارتنا جزئياً على طول قاع شعيب المدرى وجزئياً على أرض صخرية على كلا جانبيه إلى أن دخلنا مرة أخرى في النهاية إلى واديه الواسع لنمضي بسهولة ويسر حتى العبر. وفي الطريق تجاوزنا مجموعات كثيرة

من الإبل المجتمعة من كل حدب وصوب على عين الماء للسقيا، في حين قابلنا ابن قنيبر وبعض من أصدقائه من الصيعر على بعد حوالي نصف ميل قبل الآبار للترحيب بنا في منطقتهم.

لقد كان كل شيء ساراً وودوداً. وقد تمّ نصب معسكرنا وسط بعض أشجار السنط ذات الانتشار الحسن، وهنا كان جمع غفير من الصيعر من كل جنس ولون، صغاراً وكباراً، أغنياء وفقراء على السواء، قد تجمعوا حول نار القهوة في دائرة مرنة كانت تتسع دوماً. وكان مكاني محجوزاً إلى البعيد قليلاً كالعادة، ولكن من الواضح أنه لا يمكن أن يكون هناك هدوء إلا بعد أن أتبادل التحايا مع كل فرد حاضر. إن قبيلة «الصيعر» لا تسلم باليد ولا حتى تقبض اليد باليد عند السلام، وإنما تضع راحة على راحة وتنحني للأمام إلى أن يتلامس طرفا الأنفين. وتكتمل العملية باستنشاق قليل من هواء النَفَسْ مثلما يحدث في التقبيل مع الهمس بكلمة خفيفة، ويتكرر ذلك بدقة متناهية مع كل قادم جديد. ولم يكن لدى ضيوفنا أي أخبار محددة ليتناقلوها بينهم إلا خبر انتظارهم الطويل لنا وشكهم إلى حد ما في توقع وصولنا. ولم أستطع أن ألحظ أي علامة ولو واحدة من علامات الفتور، ناهيك عن أي مظهر للاستياء أو المعارضة. بل على العكس تماماً كان هناك الكثير من المديح والثناء على ابن سعود. وكانت السيارات بالطبع موضوع كثير من الاستغراب والفضول، على الرغم من أن بعض أولئك الحاضرين قد رأوها بالتأكيد من قبل، وربما يكونون قد ركبوا فيها أثناء زيارتهم لحضرموت. كما كان المذياع مركز الاهتمام الأكبر لأولئك الذين مكثوا الليل معنا بالمعسكر. وسرعان ما انتشرت أسطورة تقول: إنني في كل ليلة على اتصال لاسلكي مع ابن سعود والذي يعلم -تبعاً لذلك- جميع تحركاتي يوماً بيوم. وكان هذا الاعتقاد فيه مزايا شديدة الوضوح لنا حتى إننا لم نبذل أي محاولة لتصحيحه، وهم يستطيعون أن يسمعوا بأنفسهم لغتهم تأتي إليهم عبر الأثير من القاهرة والقدس،

ولكن كان أشد ما أثار فضولهم ضربات المورس لمحطات اللاسلكي في مكة والرياض.

إن وادي العبْر يتشكل، على ارتفاع حوالي مئتي ياردة فوق الآبار، من اندماج شعبي أرغد والمدرى. والأول يأتي نازلاً على طول حافة تل بامخاري من منطقة مرتفعة تقع إلى الشمال الشرقي ، بينما يجري المدرى، الذي لزمناه حتى ألسنته السفلى وهو يجري إلى الجنوب تقريباً من النقطة التي يندمج معه فيها شعب العريجا. ويرتفع كل من المدرى والعريجا في المنطقة المرتفعة حول «دواثر»، ويوجد بالأول بئر تسمى «دحل» في بطنه وعلى بعد حوالي ثلاثة أميال قبل «العبْر». ويسير وادي العبْر، بعد تشكيله هكذا بجوار الآبار في منحنى واسع من حوض التل على جانبه الجنوبي الشرقي، ويجري بالعرض في سهل رملي بعد ذلك في طريقه إلى كثبان السبعتين.

إن قبيلة الصيعر تفخر فخراً شديداً بماء العبْر، ولكن يبدو أنها لا تعرف إلا القليل عن تاريخه الحقيقي. وفي وقت من الأوقات، كما قالوا دون أن يكون ذلك في حدود ذاكرة أحد من الأحياء، امتد حزام ضخم عظيم النماء من أشجار النخيل في الوادي على طول المنحنى بضفته اليمنى. وفي تلك الأيام كان يوجد ما لا يقل عن ستين بئراً في الواحة. وذكر آخرون أرقاماً مختلفة حيث قال بعضهم إن عدد الآبار يصل إلى ١٥٠ أو ١٦٠ أو ٢٠٠. وانخفض عدد هذه الآبار الآن إلى ثلاثة، على أنه في الحوض الرئيس باتجاه المجرى يوجد عدة ينابيع في القناة الرملية. وتقع الآبار الثلاثة الباقية على «قيد الحياة» على مسافات فاصلة تتراوح بين ٢٠٠ أو ٣٠٠ ياردة قريباً من الضفة اليمنى، مقابل الحصن الصغير المهدم الذي كان يقوم ذات يوم على حمايتها. هذا الحصن، الذي يوجد به فوهة بئر مبطنة بالأسمنت ولكنها الآن

جافة داخل أسواره ويحتمل أن يكون قد بناها كما ذكرنا، بالفعل ابن قملة[(١)]، في زمن فيصل[(٢)]. وتنسبه روايات أخرى إلى عهد سعود الكبير[(٣)] في بداية القرن التاسع عشر، أو إلى أحد شيوخ «الصيعر» المنسيين من الماضي السحيق. ومنذ زيارتي تم إصلاح أو استبدال المباني القديمة المهدمة بمبنى جديد تحت رعاية الحكومة البريطانية لسكن حامية صغيرة ومحطة لاسلكي[(٤)].

ومن وقت وصولنا وحتى ساعة متأخرة بعد الظهر كانت الآبار مشغولة بتقديم الماء لآلاف مؤلفة من الحيوانات. إن عطاءها لا يمكن أن ينفد فيما يبدو، وكان أفضلها البئر الأوسطى - وهي بعمق أربع قامات ومعها بركة صغيرة من المياه، وتشاركها القاع كومة من الرمل المبلل بالماء. وفوهة البئر أوسع إلى حد ما من القصيبة وتميل نحوها من جميع الجوانب. والمنحدر الدائري مبطن بالحجارة (لحجز الرمل الذي يوجد فيه البئر) لعمق يبلغ حوالي ثلاثة أقدام. والبئر السفلى من الثلاثة تعد أقلها قيمة وأهمية، بينما البئر التي توجد في مقابل الحصن بالضبط تشبه بصورة عامة البئر الوسطى. وفي الوقت الذي رأيتها فيه كان الماء يخر في القاع من تحت الصخر ويقرقر بصوت مسموع مثل صوت خرير الجدول. ويقف الحصن على رف من الحجر الرملي بارتفاع حوالي ثلاثين قدماً على طول الضفة اليمنى للقناة.

---

(١) أبرز من ظهر من أسرة بن قملا مناصراً للدعوة والدولة السعودية الأولى هما الأخوان ناصي وعلي وللمزيد من التفصيلات عن جهودهما انظر: باحنان، جواهر تاريخ الأحقاف، جـ٢، ص٢٢١-٢٢٢؛ البكري، من جنوب الجزيرة العربية، ص١٤٠-١٤١؛ الشاطري، أدوار التاريخ الحضرمي: ص٢٥٧، البار، سقطري الجزيرة السحرية، ص٩٨-٩٩؛ السقاف: عبدالرحمن بن عبدالله، حضرموت بلادها وسكانها، مجلة العرب، جـ١١، ١٢، السنة ٢٨، الجماديان، ١٤١٤هـ، ص٨٢٥-٨٢٦ أيضاً، جـ١، ٢، سنة ٣٠ رجب وشعبان ١٤١٥هـ، ص١٠٠-١٠١؛ جـ ٩، ١٠، سنة ٣٠ الربيعان، ١٤١٦هـ، ص٦٤١-٦٤٢. (المراجعون).

(٢) المقصود: الإمام فيصل بن تركي الذي سبقت الإشارة إلى امتداد حكمه إلى هذه المناطق. (المراجعون).

(٣) المقصود: الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود من أبرز حكام الدولة السعودية الأولى، كان حكمه خلال الفترة من (١٢١٨-١٢٢٩هـ). (المراجعون).

(٤) ذُكر أنها انسحبت في أغسطس ١٩٣٨م. (المؤلف).

وكان أغلب البدو الحاضرين بالطبع من «الصيعر» ولكن كان هناك عنصر من الكرب معهم بالإضافة إلى مجموعة صغيرة من الفقرا من شبوة نفسها. وكان هناك أيضاً قافلة صغيرة توقفت هنا في طريقها من حضرموت إلى مأرب، أو ربما إلى مناجم الملح في «وادي أبراد» ومن وجهة نظري كان عنصر الفقرا ذا أهمية عظيمة وفورية بالنسبة لنا؛ ولذلك سرعان ما امتدت وشائج الود مع اثنين من أولاد أخ المشايخ أو شيوخ البُريكي في شبوة، هما سالم وعلي ابنا عفيشة.

وكان أصغر الرجلين، مبارك، جميل المحيا بصورة معقولة، غير مميزة، وكان من الواضح شغفه بالعون والمساعدة. أما أخوه الأكبر، سعيد، والذي يميزه حول طفيف في عينيه، وبروز في أحد أسنانه، ثبت في النهاية أنه يتمتع ببعض الصفات الحميدة من الحكمة وصواب الرأي التي كنت أشك فيها. وقد أدرجنا كليهما في الرحلة إلى شبوة، ولكني اصطفيت سعيداً ليكون ضمن جماعة السيارة.

وتزعم «الصيعر» أنها تنحدر بصورة مؤكدة من قبيلة قحطان عن طريق أحد الأسلاف يسمى المقداد بن الأسود الذي يقال إنه صحابي من صحابة الرسول ﷺ. بالقدر نفسه تدّعي الكرب بأنها أيضًا من أصل نبوي عن طريق سودان وهي عشيرة أشراف استقرت لزمن طويل بين السبي في رنية حيث جاء -كما يقولون- الجد الذي كان أول من استقر في ضواحي حضرموت. وفي الحقيقة يجوز لكلا القبيلتين أن تدعي بشكل معقول بأن لديها تاريخاً طويلاً كمقيمين محليين أكثر مما تعلم، لأنهم بالتأكيد من قبائل «الكرباني» و «أصراتي» الذين ذكرهم بليني من بين قبائل جنوبية أخرى[1].

ويبدو أن ماعز قبيلة «الصيعر» بيضاء اللون في معظمها وأكثر عدداً من الأغنام. كما أن ثمنهما غالٍ جداً أيضاً حيث يصل سعر الواحدة منها إلى خمسة دولارت

---

(١) عن أصول هاتين القبيلتين وتفريعاتها المختلفة، انظر: الهمداني، كتاب الإكليل، جـ١، ص١٩١، جـ٢، ص٥٢، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط٣، بيروت. صفة جزيرة العرب، ص١٦٨-١٦٩، تحقيق: محمد ابن علي الأكوع، ١٣٩٤هـ، دار اليمامة الرياض، البلادي، بين مكة وحضرموت، رحلات ومشاهدات، ص.ص١٣٩-١٤٩، ط١، دار مكة. (المراجعون).

(ماريا تريزا)، مقابل اثنين فقط في المنطقة الفقيرة المجاورة لنجران وحدود اليمن. ومما لا شك فيه أن قرب سوق حضرموت يفسر سبب الأسعار الأفضل التي يمكن الحصول عليها. أما أسعار السلع الأخرى، مثل: الحبوب والتمور والقهوة وغيرها، فقد كانت عالية كذلك. ووحدة الوزن المحلية -مثلما الحال في حضرموت- هي الرطل الذي يساوي اثني عشر دولاراً (ماريا تريزا).

وفي المظهر العام واللباس كان أهل الصيعر يبدون لي قريبين جداً من بدو نجد، ربما أصغر منهم في المتوسط وأنحف منهم في الجسم. وكان الكثير منهم جميل الملامح، بهي الطلعة، مع بعض الفتنة والرقة والعيون الناعمة، بينما كان لبعضهم أنوف الساميين الكبيرة والواضحة. وحديثهم كان رائعاً بصورة بارزة لنطقهم الطويل جداً لحرف العلة «ا» و الإدغام «أو» و «أي» والتشدق الجذاب في الكلام. والشيخان الكبيران في القبيلة «يسلم بن جربوع» و«عبدالله بن عون ابن (ملهي)، ويمثلان العنصر شبه المستقر الذي يتركز في ريدة آل حاتم وهي مجموعة متناثرة من المنازل قرب رأس «وادي مخية» في المرتفعات شرق «العبْر». ويوجد شيخ آخر، هو طناف ابن محمد بن رميدان، وله مقر شبه دائم في «ريدة آل بلّليث» على بعد حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين ميلاً شرق «ريدة آل حاتم» ويسيطر على عناصر البدو الرحل الذين تعد هذه الآبار مقرهم المعترف به.

إن مجموعتي هاتين القريتين تعرفان بصورة مشتركة باسم «ريدة الصيعر». وعشيرة «قنيبر» تحت زعامة «علي» قد انفصلت الآن بشكل دائم تقريباً عن الجزء الرئيس من القبيلة، وأصبحت قسماً من مجموعة رئيسة ثالثة، هي «آل معروف»، وشيخها البارز هو «عبدالله بن سالم بن معيقل». هذا القسم قد انضم إلى المملكة العربية السعودية ويتجول في الصحراء شرق نجران. وقد رفضوا بصورة قاطعة دعوة حديثة لهم من شريف بيحان، وهو حليف بريطاني، للعودة إلى حظيرة الجماعة. ووراء «الصيعر» نحو الشرق، على طول المرتفعات وامتداداً نحو الرمال تقع

«العوامر». إن وادي مخية ينحرف شمالاً في نهاية الأمر إلى الربع الخالي ويشكل الخط الفاصل بين الاثنين، بينما وراء «العوامر» تأتي «المناهل» التي تمتد سلسلتها صوب الشمال من النبي هود في الامتدادات السفلى لوادي حضرموت حتى الرمال الشمالية.

وأثناء فترة ما بعد الظهيرة انتهزت فرصة الهدوء في أنشطتنا الاجتماعية - فقد أدت وجبة طيبة من اللحم إلى إبعاد الزاور عنّا وجعلتهم يغطون في نوم عميق عند القيلولة. وتسلقت قمة «بامخاري» مع دليل من الصيعر يدعى «مبخوت». لقد مشينا أطول مما كان يبدو لنا على المنحدر الصخري الرقيق من حافة الوادي إلى سفح التل. وكان جانب التل نفسه وعراً وغير ملائم بصورة زائدة عن الحد بألواحه وشرائحه وكتله الصلبة الخشنة الناتئة بشكل حاد والمكونة من الحجر الرملي الرمادي. وفي المستويات الأعلى كان سطح الأرض مغطى «بورد الرمل» والأشكال المتنوعة الأخرى من الشظايا التي تعريها الريح. والجبهة الجنوبية للتل كانت جرفًا بارزًا حادًا من صخور صلبة عارية، وكانت أجزاؤه السفلى مثقلة بكتلة من ركام الحجارة المفككة وصخور جلمودية ضخمة. وقد بدأنا التسلق في وقت متأخر جداً ولم يتسع لنا المجال للوصول إلى القمة الرئيسة، واكتفينا بواحدة قريبة في الطرف الأدنى من سلسلة حادة تجري بينها وبين القمة العليا، بارتفاع حوالي مئة قدم أو أكثر. وعلى أي حال، عندما ارتقينا هذه القمة السفلى كنا على ارتفاع ألف قدم تماماً فوق معسكرنا وتَمكّنا من إلقاء نظرة ممتازة على الرغم من وجود الضباب القليل نتيجة العاصفة الرملية القوية، التي هبت خلال بداية فترة مابعد الظهر لمدة قصيرة.

والمعلم الأرضي الرئيس الذي رأيناه من هنا كان الصف المنسق الرائع من الجُرُفْ والأراضي الرأسية التي تمتد من سلسلة تلال «بعرورة» المنبسطة القريبة جداً منا إلى الشرق حتى نتوء طرف العين الذي يقع في جهة شرق - جنوب شرق وعلى مسافة نائية، وهناك يواصل خط الجُرف سيره على طول الجانب الشمالي لرمال السبعتين بلا توقف ليشكل الضفة الشمالية لوادي حضرموت بالمعنى الدقيق. إن سلسلة تلال

«بعرورة» والأرض الرأسية تخفي وادي شعيب ميفعة الذي توجد فيه بساتين نخيل «جاهم» و «أم الضيعة» و «الفضية» ولكن لا يوجد سكان. إن «الغيل» أو الجدول الجاري الذي يروي هذه البساتين في تلك الأودية مشهور بأنه ينتج حمى قاتلة، ولا يقوم أصحاب البساتين من الصيعر بزيارة تلك الأودية إلا لجني محصول التمر فقط. وهناك وادٍ مشابه خلف سلسلة تلال «المخاضة» والأرض الرأسية، بعد «بعرورة» مباشرة على اليمين، يخفي حدائق النخيل لكل من «باقم» و «الجابية» و «الجويبية»، بينما يخفي سور «طرف العين» أو الواحة بذلك الاسم نفسه، وهي آخر حد إقليم قبيلة «الصيعر» في هذا الاتجاه. ومن الأرض الرأسية تسير حدود الصيعر - الكرب بمحاذاة الحافة الشمالية لرملة السبعتين.

وباتجاه الغرب من خط الجرف المذكور أعلاه، وامتداداً من التلال في حوض «العبْر» حتى خط الرمال مع وادي «العبْر» كحدود غربية له، يقع سهل «جو طلع» الواسع الوعر الذي يسير خلاله درب العبْر - حضرموت، متجاوزاً جبيل «قرن الذياب» الصغير. ويقفُ تل مشابه، هو «قرن الخرص» كعلامة فاصلة بين «جو طلع» و«جو الخط» وهذا الأخير يقع إلى الغرب من «وادي العبْر». ويعترضه درب العبْر - شبوة في خط جنوبي تماماً إلى أن يصطدم بالحاجز الرملي.

وقد أدى هطول مطر غزير لوقت قصير إلى ترطيب العاصفة الرملية الأولى التي كانت تهب في أوائل فترة ما بعد الظهر، ولكن الريح الشمالية التي كانت تتراوح من قوية إلى معتدلة، استمرت في الهبوب بهبات حادة. وظلت السماء ملبدة بالغيوم طول المساء والليل، واضطررت أن أتخلى عن مراقبة النجوم يأساً من تحسن الطقس. وكانت الأمطار المتقطعة تطردني للسيارة في فترات متفاوتة، بينما أدى انغماسي بإفراط في شرب حليب النياق الوفير الذي قدمه ضيوفنا بكرم غامر إلى اضطراب الهضم عندي شيئاً ما. لقد كانت ليلة شنيعة بشكل عام، على الرغم من أنني نمت نوماً هنيئاً بدرجة كافية - مع بعض فترات التقطع - من الثامنة مساء حتى السادسة

صباحاً. وكنت أتمنى لو بدأت جماعة الإبل الرحلة مبكراً، ولكني استيقظت لأجد المعسكر سليماً تاماً كما هو. إن سوء الطقس في الصحراء قادر على أن يولد الكسل وبطء الحركة، ولكن سرعان ما جعلت رفاقي جاهزين لبدء التحرك فوراً. وفي الحقيقة انطلقت حيوانات الحمل مبكراً عند الساعة السابعة، وركب باقي جماعة الإبل بعد ذلك بنصف ساعة. وفي الوقت نفسه جاء زوار مبكرون متفرقون إلى دائرة قهوتنا ليتجاذبوا أطراف الحديث معي عندما كنت أرشف قدحي من الشاي. ولذلك كانت الساعة تقترب من التاسعة قبل أن تنطلق السيارات نازلة في الوادي. وكان «مبارك» قد رافق جماعة الإبل، ومعي الآن «سعيد» إلى جواري كدليل. وسرعان ما انقشعت الغيوم، وصفا الجو، ولكنه كان صباحاً رطباً فاسد الهواء بدرجة حرارة تصل في الساعة السابعة إلى أربع وثمانين درجة. وكان ارتفاعنا هنا يصل تقريباً إلى ٣٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، أي أقل بحوالي ١٠٠٠ قدم فقط من الشضيف. والمسافة الحقيقية التي قطعناها من هناك حتى «العبْر» كانت ١٥٢ ميلاً حسب عداد السرعة بالسيارة، والوقت الذي استغرقناه بالضبط كان تسعين ساعة من البداية إلى النهاية، وهذا أداء حسن للإبل التي لن تقطع في الظروف العادية أكثر من خمسة وعشرين أو ثلاثين ميلاً على الأكثر في اليوم.

والأميال التسعة الأولى من رحلتنا تجاه شبوة كانت تقع في وادي «العَبْر». وقد بدأنا الرحلة بشكل منحوس شيئاً ما، حيث غرزت السيارة على بعد ميل من الآبار، ولكن كل شيء مضى على ما يرام بعد ذلك. وكانت ضفتا القناة من حجر رملي جيري وعر ذي لون بني، وكان الوادي في أجزاء منه مكسواً تماماً بأشجار السنط الظليلة من السمر والمرخ والراك. وقريباً من تحت الضفة اليسرى على بعد حوالي ميلين أسفل «العَبْر» تقع مجموعة من ينابيع أو صفر الماء في الرمل. هذه هي «تنضل». وطار سرب صغير من حوالي اثني عشر إلى خمسة عشر طائراً من طيور السيسي من قرب المياه ليلوذ بالصخور والشجيرات المجاورة. وقد اصطدت واحداً

منها ووضعته في كيس بالإضافة إلى الطائر المغرد أيضاً. وبرز رجل من خيمة وحيدة قريبة منا ليتبادل التحيات والأخبار معنا. وتصادف أنه كان «صيعري» وهو الذي كان في الحصينية بوادي حبونا عند وقت مروري، وكان من الواضح أنه مسؤول عن التبليغ عن زيارتنا المرتقبة.

وبعد ذلك بمسافة قليلة توسل إلينا سكان مخيم صيعري صغير أن نتأخر لتناول الطعام معهم، ولكننا تذرعنا بحاجتنا للوقت وواصلنا السير. وقد اتسع الوادي الآن بصورة كبيرة، وتجاوزناه إلى سهل «جو الخط» الرملي المنبسط جوار تل «قرن برقة» (برقاء)، وهو تل صغير خارج سلاسل «برقة المُغلل»، ويقف بعيداً بمسافة قليلة عن الضفة اليمنى للوادي. ويلفنا الآن من جميع الجوانب سهل هائل من الرمل ذي الحبيبات الثابتة. وإلى البعيد ظهر الخط القرنفلي «لرملة الخط» وهو الاسم المحلي لهذا الجزء من رملة السبعتين. وتنتشر هنا وهناك إبل الصيعر في مجموعات تتجول للرعي، وتبدو في أشكال رائعة بفعل السراب. ووراء الحاجز الرملي ظهرت رقع من الأرض الرأسية من الجرف الجنوبي حول وادي دُهر. وتوقفنا للحظات قليلة لشرب الحليب المكسو بالزَبَدْ، الذي حلبه سعيد من ضرع بعض النوق الضخمة التي كانت جالسة وهي مكررة القلب من الغم أو الملل في تيه الصحراء غير الظليلة قريباً من دربنا. وكانت مراعي هذه المنطقة تتكون بصورة أساسية من «النصي» و «الضرمة» وكانت تبدو وفيرة النماء بما فيه الكفاية.

وقد سرنا عبر السهل لعشرة أميال إلى أن اقتربنا من حافة الرمال، حيث كنا نخطط للراحة هناك من حرِّ النهار في بقعة صغيرة من الشجيرات الهزيلة تعرف باسم مرخة. ووصلنا هناك عند الظهر، ولم تصل جماعة الإبل إلا بعد ذلك بكثير. وكانت المسافة من «العَبْر» تبلغ حوالي عشرين ميلاً فقط وانخفض الارتفاع حوالي

٣٠٠ قدم. ولقد قنعت بظل السيارة، وتركت أجـمات «المرخ» الضئيلة الأربعة لباقي الجماعة الذين حصلوا أيضاً على الخيام عندما وصلت الأمتعة.

والغريب أن هذا الظل غـير الكافي لتلك الشجـيرات الضعـيفة قد جـمع عدداً مثيراً للدهشة من الطيور، والتي بقيت في مكانها على الرغم من تطفلنا عليها - وكان منها طيور القـنبر، واثنين من الصُّرد الرمادي، والذي بعث على السـرور أكثر من أي شيء آخر، كان وجود طائر وحيد من العصـافير المغردة، كان بلا شك في طريقه من بعض البلدان الشـماليـة القاصيـة. ولم يكن هناك على الأرجح أي طيـور أخرى في حدود نصف قطر قدره عـشرة أميال من هذه البقـعة، وعلى كل حال لم نر أي طائر آخر على الإطلاق.

في حوالي الساعة الثـانية بعد الظهر، يبدو أن عاصفة رعديـة قوية قد تجمعت في الشمال والشمـال الشرقي، وكانت جميع المناظر الطبيـعية خلفنا على قوس واسع من الشمال الغربي حتى الجنوب الشرقي قد اختفت وراء جدار من الرمل يتقدم بثبات نحونا. وكان غداؤنا من العـصيدة جاهزاً لتوه، وتم استدعـاؤنا للطعام قبل أن تصل العاصفـة. وعلى أي حال فقد كـان الطعام ساخناً جداً ولا يمكن بلعـه بسرعة، وفي غضون دقائق قليلة أصبح غير صالح للأكل. إذ كانت العاصفة قد انفجرت علينا بكل عنفوانها وهددت باقتلاع الخيمة، التي أمسكنا بها ضد الريح بينما استقر الرمل بصورة كثـيفة فـوق عصيدتنـا التي أكلنا نصفهـا. ولعشر دقـائق اكتسـحنا الجزء الرئيس من السحابة الرملية. ثم هبط هدوء مفـاجئ قصير، تبعه كتل رملية صغـيرة تتسابق فوقنا في ترتيب واضح. وبعد كل ذلك قصفتنا عـاصفة من ريح مع قطرات قليلة ثقيلة من المطر. ثم جاء الهـدوء، الذي نزل علينا بشكل مفاجئ مثـلما جاءت العاصـفة تماماً. وكان الرمل قد انتشر في كل مكان، ودفن أمتـعتنا وملأ أفواهنا وأنوفنا وعيوننا وآذاننا وشعرنا. ولقد كـانت هذه بحق أول عاصفة رملية حقيقـية في الرحلة، ولكنها كانت نذيراً للكثير الكثير الذي سيأتي في الأيام القادمة لنا.

وكانت الساعة قد تجاوزت الرابعة عصراً عندما مشينا عقب العاصفة باتجاه الجنوب الغربي على طول حافة الحاجز الرملي. وكان على الإبل أن تسير في طريق شبوة العادي، الذي كان الحزام الرملي فوقه خفيفاً نسبياً، ولكنه غير صالح من الناحية العملية لسير السيارات. وكنا سوف نتقابل على الجانب البعيد من الرمال، حيث يكون السير سهلاً للإبل من هناك إلى شبوة في الصباح.

وهكذا خططنا، ولكن القدر كان له تدابير أخرى في جعبته لنا. ولحوالي تسعة أميال انطلقنا بالسيارة في خفة ورشاقة وكنا نسير بسرعة ثلاثين ميلاً في الساعة فوق سهل متدحرج كالموج من الرمل الثابت تماماً والوعر قليلاً بغطاء من كتل الحشائش الرقيقة. وهبت ريح شديدة من الشرق أدت إلى تطاير الرمل في ألواح وشرائح علينا عندما توجهنا للجنوب أو الجنوب الغربي . ثم وقعنا على الحاجز الرملي نفسه في قسم يسمى «رملة نصيبة» وعلى الفور تقريباً توقفنا بصورة مفاجئة قرب قمة تل حاد كنصل السكين، واضطررنا إلى التقهقر للخلف لندور حوله، وكان ذلك يسيراً بما يكفي. ولقد كان المنحدر النازل حاداً بما فيه الكفاية على وجه التأكيد، ولكن وراءه كان هناك منحدر صاعد طويل وسهل ذو سطح صلب نسبياً. وهكذا واصلنا السير عبر أمواج ذات شكل مخيف في بحر من الرمل.

نذهب الآن غرباً، ثم نتجه للجنوب الغربي، وننحرف الآن أكثر للجنوب، ونحن ندور حول العوائق في طريقنا. وكان النور يتضاءل بسرعة، والريح قد غيرت اتجاهها واستدارت نحو الجنوب الغربي وتقصف بالرمل على زجاج السيارة الأمامي. ثم جاء الغسق، ولكن سعيداً -الذي يعاني من قصر النظر في وضح النهار ويعتمد الآن على حواسه في التوجيه والإرشاد أكثر مما يعتمد على عينيه- كان يحرضني على مواصلة السير. وقال: إن النهاية قريبةٌ. وفي الحقيقة كانت أقرب مما يتخيل. ففي ظلام الشفق غطست في مستنقع من الرمل الناعم القريب من قمة حادة مع جرف

منحدر خلفها. وهناك انطمرنا. وكان الظلام الدامس قد لفنا بأستاره السوداء بدرجة يصعب معها محاولة الخروج. ولذلك مكثنا هناك طول الليل.

وكانت ليلة ليلاء !! إن تجربة حياتي كلها لا يمكن أن تشبه الليلة في التعب البدني المحض. فالعاصفة الثلجية العنيفة وحدها ربما تكون هي الأسوأ من تلك العاصفة الرملية التي قبضت علينا بقبضتها لساعة تلو ساعة. لقد كانت بحق عاصفة من الرمل - الجاف، الساخن، النظيف. ولم نتمكن من إشعال النار بأي حال من الأحوال في مثل تلك الظروف حتى نعد لنا شاياً أو قهوة، كما لم يكن هناك ولو قطعة صغيرة من أغصان الشجيرات المقطوعة لأميال حولنا كي نستعملها كوقود، ولا يوجد إلا قليل من نباتات «العلقي» الخضراء. ولم نستطع إشعال لمبة، ولم يكن معنا من طعام إلا التمر الذي أصبح تقريباً غير صالح للأكل فور تعرضه لذلك الرمل المتطاير. واكتشفت أن معي بقية علبة بسكويت وإحدى علبتي السردين اللتين كنت أحملهما للطوارئ، إذ إن الأخرى تم استهلاكها منذ زمن بعيد على قمة «ميهر». ولكي أفتحها كان عليّ أن أنتظر حتى تهدأ العاصفة، وخبأت نفسي وراء ظهر السيارة. ولكن الرمل، على أي حال، قد اكتسح الزوايا من حولها ومن فوق سقف السيارة. واضطررت أن ابتلع السردين بسرعة البرق بمجرد فتح العلبة. ولم أبالِ بمشاركة رفاقي، فماذا عساهم أن يجدوا في مثل تلك الأسماك الصغيرة القليلة وهم عدد كثير من البشر. وكانت راحتي الوحيدة في خضم هذه الاضطرابات جميعاً تدخين سيجار «بورما»، الذي لم أتمكن من إشعاله إلا بإنفاق الكبريت بإسراف، وكنت أدخن خلف حاجز من الأمتعة تم ترتيبه على طول الدواسات الجانبية بالسيارة لمنع الرمل من أن يتسرب لي من أسفل. ثم تمددت على الأرض لأنام، كما أنا، في الرمل. وكانت الليلة معتدلة الحرارة حتى إنه لم يكن من الضروري إعداد فراش على الإطلاق. وكانت الريح تعصف حولنا بلا توقف، وترشنا بين فينة وأخرى بقطرات مطر ضئيلة من السماء ذات اللون الرصاصي. وكان الرمل يطير من خلالنا مثل ألواح

من الرغوة. ولا أستطيع أن أحدد متى توقفت الريح، فلقد سقطت صريعاً للنوم، ونمت نوماً عميقاً حتى الفجر.

ومن المرجح أن رفاقي لم يناموا بعمق مثلي، فلم تكد الساعة تصل الخامسة صباحاً إلا والمعسكر يعج بالحركة وانشق الصبح علينا ببراءة مثل براءة الأطفال، وكان بارداً، مضيئاً على عكس ظلام تلك الليلة الجهنمي. وكان أحد الفئران قد تمّ الإمساك به وإحضاره لي من الرمال، كما زارنا أيضاً غراب أسود. إن مصيبتنا، عندما رأينا حالنا في نور الصباح، كانت مثيرة للضحك والسخرية تقريباً. فالسيارات كانت شبه مدفونة في الرمل، وكانت سيارتي أسوأ بقدر كبير من الأخريات، نظراً لأنها قد اندفعت في جرف ناعم بسرعة عالية. وكانت شجيرات «العلقي» وحشائش «النصي» الشحيحة غير مفيدة لاستخدامها كوقود، وكانت المطمورة غير مفيدة لدعم العجلات في الرمل. وكان علينا أن نستخدم ألواحنا الخشبية والحبل لأول مرة في الرحلة بالكامل. ولو انحرفنا فقط مئة ياردة لليمين لكنا قد تفادينا الوقوع في كل هذه المتاعب. والآن لا ينفع الندم وعلينا أن نعمل على إخراج السيارة، في تبديل بطيء بين الرمال، من مكان انغراسها في الرمل إلى حافة المنحدر الرملي الحاد، والذي سوف تنزلق منه بحكم ثقلها إن لم تنقلب رأساً على عقب. وليس من الوارد إمكانية إعادتها مرة أخرى للمنحدرات الرقيقة على الجانب الآخر. وقد لاحظت بصورة عرضية أن آثار سيرنا في الليلة الماضية قد انطمست تماماً بفعل العاصفة.

وفي الساعة السابعة والربع من ذلك الصباح، وبعد الكثير من المحاولات الفاشلة، تمكنّا من إخراج السيارة إلى حافة الجرف. ووقفت قريباً منها لالتقاط صور فوتوغرافية لنزولها على المنحدر عندما كان محمد يقودها ببطء على الجانب تقريباً. وقد وصل القاع بلا مشقة وانطلق بها بوحشية صاعداً المنحدر الرقيق المقابل حتى وصل إلى سلسلة التلال التالية، وهناك استأنفت الجلوس وراء المقود بينما رجع هو لإحضار الشاحنة. وكنا لا نزال في قسم «نصيبة» من الرمال، وكانت سلسلة التلال

الرملية العالية «الأخيضر» ليست بعيدة منا عن يسارنا. وكان السير يسيراً بدرجة كافية على روابٍ رمليـــة ثابتـــة ومستديرة تشكل طريقاً متعرجاً. وفي المنخفضات كانت هناك أحيـاناً مواضع صلبـة من التربة خاليـة من الرمل. وفي مثلهـا، بل حتى على المنحدرات الرملية المنخفضة وجدت كتـلاً من المحارات الصغيرة الحلزونية، التي توجد عادة في الميـاه العذبة، منتـشرة في منطقـة واسعة. وكـانت معظم هذه البـقع مغطاة بصورة خفيفـة بالحصى الصغير وشظايا الحجارة، وفي كثيـر من الأماكن كانت تنتشر على الأرض شظايا مكسـرة من بيض النعام، وقد وجـدت بيضة واحدة مـتهشـمة، ولكنها كـاملة تقريباً، وهي في مكانهـا. كما رأينا أيضـاً هنا وهناك رقائق من أدوات حجر الصوان والزجـاج البركاني وكسراً صغيرة من العظـام. وكانت السحالي القليلة الموجودة هي عـلامة الحيـاة الوحيدة في هذا القـفر. وبدا لي في ذلك الوقت -وهذا الاستنتاج يبدو أن له ما يبرره بالنظر في جمـيع الدلائل التي جمعتها في هذه المنطقة- أن السطح الطيني المكشـوف في الأودية بين سلاسل التلال يـجب أن يكون جزءاً من قاع نهر قديم ويحتمل أن يكون واسعـاً جداً، والذي قد سحب لاحقاً وبالتدريج على مر القرون الرمال المتطايرة من الصحراء لتستقر في المخبأ النسبي في تجويفته. وهكذا، شيئاً فشيئاً تشكّلت التلال الضخمة على طول خط القناة القديمة وعلى كلا جانبيها إلى أن أصبح مجـرى النهر -بعد مرور الوقت المناسب- شريـطاً عريضاً من الرمل. هذه الرمال تمتـد من التلال على حدود اليـمن فيمـا جاور خط بيحان - مـأرب - الجوف بدون انقطاع حتى مدخل وادي حضرمـوت كما هو اليوم. وسوف أناقش هذه النقطة بمزيد من التفاصيـل في الفصول التالية، ولكني أود أن أستبق هذه المـناقشة بالقول إنه ذات يوم من الأيام كان وادي سـبأ -أو وادي أبراد ووادي حضرمـوت- يشكلان نهراً واحداً أو قناة سيل وحيدة.

ومن نقطة دخـول الحاجـز الرملي في عـصر اليـوم السـابق إلى الموضع الذي اضطررنا للتوقف الإجباري فيه ليلاً كنا قد قطعنا اثني عشر ميلاً. وبعد حوالي خمسة

عشر ميلاً أخرى قطعناها في الصباح وصلنا إلى قاع واد عادي مكوّن من الحبيبات الثابتة الجيدة، والذي لزمنا مساره مسافة ما في اتجاه جنوب - شرق، تقريباً نحو حضرموت. ولكن - على أي حال - كان طريقنا المحدد يميل أكثر إلى الجنوب والجنوب الغربي ، ومن ضفة منخفض هذا الوادي تمكنا من إلقاء أول نظرة لنا على معالم شبوة - مثل قمة «النسر الغربي» البازلتية التي تبرز فوق كتف الرمال نحو الجنوب الشرقي مع بعض التلال المجاورة لها. وفي الوقت نفسه على الجانب الآخر من طريقنا، وإلى الغرب والشمال الغربي نظرنا لأول مرة إلى سلاسل تلال عارين وطرباق والتي رأينا منها -بعد عدة أسابيع لاحقة- الكثير عن كثب أثناء رحلة عودتنا. وبعد ذلك تظهر كتل الرمال الشاهقة لكل من «خل دمنان» بصورة واضحة عن يسارنا على بعد ميلين تقريباً. والآن ولينا وجهنا شطر الأخير، فهو المعلم المعترف به كمدخل للرمال في هذا الجانب، ومررنا قريباً منه في درب توجد به خطوط من بقع محدودة من التربة البيضاء ذات الطفل الرملي في سلسلة من المنخفضات ملاصقة لحافة الحاجز الرملي. ولم يستغرق الأمر منا وقتاً طويلاً للخروج مما بقي من الرمال، وسقطنا في سهل الشقيقات المتموج والمكسو بالشجيرات الخفيفة، والذي يجري تقريباً جنوب شرق على طول الحافة الجنوبية لرملة السبعتين، بعد أن قطعنا مسافة إجمالية قدرها ثلاثة وثلاثون ميلاً على امتداد الأخيرة.

ولأغراض عملية انتهينا عند هذا الحد من الحاجز الرملي، ولكنها لم تكن على الإطلاق نهاية الرمال التي امتدت مسافة هائلة جنوباً حتى حافة السهل الضخم الذي تصب فيه أودية مختلفة من الجنوب - مثل: «جردان» و «همام» و «ومرخة» وخلافها بمياه سيولها. ولكن «الشقيقات» على أي حال يشكل ممراً طبيعياً واسعاً عبر الحاجز من الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي (على الطريق إلى مأرب والجوف). ويتكون من سلسلة من الأحواض الضحلة المتصلة بسلاسل تلال منخفضة تقع بين خطوط تلال «عرق

الأحمر» على اليسار و «عرق الساقية» على اليمين، ويندمج بالتدريج في سهل واسع من الحصباء الخفيفة يحده عن اليمين امتداد تلال «الساقية» المعروف باسم «عرق الضاحية».

وقد قطعنا عشرة أميال على طول درب الشقيقات حتى وصلنا إلى ذيل لقناة فيضان كثيف الشجيرات تسمى القصعة وتتلاقى مع ثنية في الحاجز الرملي يوجد بها عدد من التلال والسلاسل الجبلية في ارتفاع قمتي النسر نفسها. وألقينا عصا الترحال لنتوقف عند منتصف النهار وننال قسطاً من النوم في القيلولة بين بعض أشجار السرح الطيبة على بعد أميال قليلة في أعلى القناة ، في حدود مرمى البصر من تلال شبوة المنخفضة، على مسافة عشرة أميال بالضبط.

ومن «العَبْر» إلى شبوة كانت المسافة التي قطعناها تبلغ ثمانية وعشرين ميلاً، وبهذا يصل إجمالي المسافة ٢٣٤ ميلاً من الشضيف. وقد انتهينا الآن من «الربع الخالي». وعبرنا بالسيارة دون أي صعوبة خطيرة. ولكن هل كان ذلك هو الربع الخالي؟ إن المنطقة التي قطعناها بالعرض مشمولة بالتأكيد في الدرب الهائل المذكور في خرائطنا بهذا الاسم الغامض نسبياً. وكان (ويمان بيري) في صدر القرن الحالي قد عدّ رحلته (التي انطوت على مصاعب ومشاق) عبر الرمال بين أنصاب و بيحان غطت الركن الجنوب الغربي من الربع الخالي. وكتب هانز هلفريتز[1]، عندما سافر من حضرموت إلى بيحان في عام ١٩٣٣م، عن طريقه قائلاً إنه يقع ضمن الحافة الجنوبية للربع الخالي. إن سحر هذا الاسم -مقروناً بالجهل المطبق بخصائص المنطقة إلى الشمال من طريقهما- قد جعلا هذين الرحالتين يدعيان مزاعم لا أساس لها، والتي يجب الآن نفيها بقوة الدليل القاطع والمفحم. إن درب رملة السبعتين ذا التلال العظيمة، والصعب في أجزاء منه، مثل أي جزء من الربع الخالي تجتازه طرق قوافل معترف بها لا تعد ولا

---

(١) هلفريتز رحالة ألماني زار حضرموت، ويعد أول أوروبي يصل إلى شبوة وقد طرد منها بسرعة، حقق شهرة في مجال التصوير أكثر من شهرته بصفته رحالة، له «الجزيرة العربية» و«فتح جنوب (غرب) الجزيرة العربية». بدول الرحالة الغربيون، ص١١٧. (المراجعون).

تحصى مما يصعب معـه وصفها بأنها خالية. وفي وسط الجـزء الأوسع منها تجاه الغرب يقع منجم صافر للملح، والذي يقوم بتشغيله بنشـاط أفراد من قبيلة «عبيدة» من مأرب الحديثة. وفي منتصف الطريق تقع سلسلة تلال «عارين» حيث -كما سنرى لاحقاً- نجد الصخور محفـورة بنقوش قديمة بالقرب من موقع ما زال يستخـدمه الرحالة والرعاة من البدو. كـما أن لسانه الشـرقي الهزيل الذي يتصل في النهـاية ببوابة وادي حضـرموت المأهول بالسكان، يمتد لأميال خلال مسار واد تنتشر فيه الآبار والمساكن البشرية؛ ولذلك ليس من الضروري بالتـأكيد معالجـة الأمر بمزيد من الإفراط -إن طريق رملة السـبعتين الرملي- ومن المهم إدراك حقيـقة أن له اسمًا مميزاً ولا ينظر إليه مـحلياً على أنه مرتبط بأي شيء مع الربع الخـالي -لا يمكن جعله ضـمن الحدود الجـغرافـية للربع الخـالي- والشيء نفسه يمكن أن يقـال عن درب الصحراء والتلال الواقعة بينه وبين «الـعَبْر» ويمتد للغرب والشرق عـبر الأخيرة حتى وادي «الجـوف» وعلى طول الحد الشمالي للهـضبة الجيرية المحاذية للضفة اليسرى لوادي حضرموت.

ولذلك لا يبـقى هناك إلا السهل الصـحراوي، جـو المليس و العَرَمْـرَم و الريان وغيرها، الواقعـة بين خط عرض «العَبْر» والحافة الجنوبية للرمـال العظيمة ، والتي تمتد تقريبـاً على طول خط عرض سبعـة عشر. هذا السهل يمكن -في رأيي- أن يُعـد بمثابة عـتبـة الربع الخـالي، ولكنه يكاد يكون جـزءاً لا يتـجزأ منهـا. إن درب القـوافل من حضرموت إلى نجران عن طريق العَبْر وآبار مشينيـقة ينم عن وجود كثير من حركة عليه في الماضي، وحـتى في الحاضـر، تنفي تهمـة الخلو أو الفـراغ. هذا الطريق في التيـه الصحراوي أضيق من طريق «حمد السوري» الذي يشـبهه في شمال الجزيرة العربية بين بغداد ودمـشق ولا يواجه المسافـر بأي عقبـة أو صعوبة خطيرة. ولـذلك بعد النظر في جميع الأمور كما ينبغي، أشعـر أنني مقتنع بأن اسم الربع الخالي يجب أن يقتصر على الصحراء الرملية التي تمتد حدودها الجنوبية تقـريباً على طول خط عرض سبعة عشر من حافة تلال اليمن السفحيـة حتى تجاه حدود عُمان. ولذلك، بعد كل شيء، يجب عليَّ أن أتخلى عن أي ادعاء بأنني قـد عبرت الربع الخالي بالسـيارة. لقد عزمنا بكـل تأكيد

على إتمام ذلك، ولكن الربع الخالي تقلص أمامنا، وحرمنا من الشرف الذي كنا نسعى إليه بين رماله. ولقد اكتشفنا حدوده الجنوبية (والغربية) ، وكان هذا كل ما في الأمر.

ولقد تمكنت - على أي حال - في هذا التطويق للربع الخالي من أن أدرس مشكلة ذات أهمية كبرى فيما يتصل بتشكيلاته الرملية. وكان بيرترام توماس قد اقترح نظرية بعد رحلته الرائدة عبر الرمال في ١٩٣١م تقول: إن أعلى كتل التلال توجد تجاه الركن الجنوبي الغربي في الربع الخالي. وخلال رحلتي في العام التالي رأيت منطقة القَعَاميّات الرملية قريباً إلى الجنوب من طريقي، وأخبرني رفاقي أنها أعلى كتل الرمال في الصحراء كلها. وموقعها كان في حوالي النقطة الوسط من الحافة الجنوبية للربع الخالي، وقد أوحى لي هذا الموقع وهو أعلى التشكيلات الرملية الموجودة ربما جنوب ذيول الأودية المدفونة التي كانت تجري ذات يوم عبر شبه الجزيرة حتى الخليج الذي تمثله الآن رمال منطقة «خيران». والآن بعد أن طُفتُ حول الحافتين الغربية والجنوبية للربع الخالي فقد أثبت بالتأكيد حقيقة مؤداها أن الركن الجنوبي الغربي لم يكن مميزاً بالتلال الشامخة. لقد رأيت بالتأكيد تلالاً شاهقة معزولة مثل تلال «داعر» في بقع محمية تصلح لتراكم الرمال في شكل إهرامات، ولكن الطرف الغربي كله من الصحراء يمكن أن يوصف بكل معنى الكلمة بأنه منطقة واسعة من الرمل بها القليل من التلال البارزة ولا ترتفع أكثر من مئة قدم من أرضية الصحراء إلا نادراً. ولم يكن بها شيء يمكن أن يقارن بمنطقة القَعَاميَّات أو التلال حول «شنة» و نايفة وليس لديَّ بالطبع أي وسائل لتحديد ما إذا كانت الصحراء، ككتلة، تتحرك نحو الجنوب أو تتراجع نحو الشمال. ولم يكن هناك تلال منعزلة في «جو المليس» أو «العَرَمْرَم» ويوجد بها حبيبات وحصباء توحي بأن الجزء الرئيس قد تركها وهو يتراجع للشمال. وفي الوقت نفسه لا يوجد ما يدل على غزو الرمال المتقدمة من الشمال لمنطقة تلال «الريان» وربما يكون المعلم الأكثر إثارة للدهشة في الحافة الجنوبية للربع الخالي هو خط الحدود شديد الوضوح والدقة بين منطقة الرمل والسهل المنبسط الميت، مثل خط الشاطئ لبحر خال من الأمواج.

الفصل الرابع

شبوة

إن وادي القصعة الضيق ما هو في الواقع إلا دلتا لوادي «المعشار» الذي يجري متجاوزاً «شبوة» ليصب مياه سيوله مقابل رمال السبعتين. ويكتسي الحزام الرملي في هذه النقطة بمتراس أو (سور) من الصخور تشكل سلسلة تلال «القويد» المنخفضة التي تقف تلال «النسر» الصغيرة في شرقها وغربها على كلا جانبيها مثل القلاع والحصون. وتمتد الدلتا على يسار «القويد» والرمال المجاورة لها، بينما على اليمين تسير بين حافة «القويد» التي تعود ثانية إلى الداخل وتل «النسر الشرقي» لتشكل القناة الواسعة التي تقع فيها حقول «جربة النسر» الزراعية. وإلى الجنوب في اتجاه شبوة تضيق دلتا قصعة نحو قمتها، ومن ورائها تجري قناة «معشار» في مجرى واضح المعالم ذي ضفتين عاليتين من الطمي والحصى والكثير من الأشجار الكثيفة.

وحينما كنا نرقد في المعسكر للراحة وقت القيلولة لاحظنا رجلاً وحيداً يقترب منا ممتطياً جمله. واتضح عند وصوله أنه كان «مبارك بن صالح» -ابن عم مرشدنا سعيد-، والذي كان قد اختير في «العَبْر» ليرافق جماعة الإبل التابعة لنا. وأثناء العاصفة في الليل كانوا قد تاهوا عن آثار سيرنا في الحزام الرملي، وبقوا في مخيم لهم حتى ارتفع القمر بدرجة كافية ليضيء لهم الطريق. وبرزوا بصورة أو بأخرى من «الرملة» مقابل «الرُميد» حيث ساروا على طول الوادي ليقيموا مخيمهم في درب جربة النسر.

ومن هناك رآنا رقيبهم ونحن نصل إلى الدلتا، وأرسل مبارك إلينا لمعرفة الأوامر. وقد أعدناه مرة أخرى محملاً بتعليمات تقضي بأنه يجب على رفاقنا أن يتجاوزونا بأسرع فرصة ممكنة للوصول إلى شبوة، حيث إننا نريدهم أن يصلوا قبلنا. وهكذا واصلوا السير حتى جاؤونا في الوقت المناسب. وبعد وقفة قصيرة للقهوة،

استمروا في رحلتهم تجاه مقصدنا. وسوف تستغرق الرحلة منهم حوالي ساعتين أو ثلاث ساعات حتى يصلوا شبوة، بينما نستطيع نحن أن نقطعها في أقل من ساعة. ولذلك مكثنا في المخيم حتى الساعة الرابعة والنصف تقريباً قبل أن نستأنف رحلتنا.

وعند وصولنا إلى هنا لاحظنا عدة قطعان من الأغنام ترعى في المنطقة المجاورة لنا، ولكنا لم نعثر على أي أثر لكائنات بشرية. وبعد أن استقر بنا الحال ظهرت أمامنا امرأة عجوز شبه عمياء. وكانت أخت «ابن عفيشة» الشيخ الرئيس للعنصر البريكي في شبوة. وقالت: إن مرافقيها الصغار قد هربوا من الخوف عند اقتراب سياراتنا. وإنها نفسها قد انبطحت أرضاً تحت شجرة لترى ما قد يحدث، وإن أغنامها قد تبعثرت وإنها لا تستطيع جمعها مرة أخرى لشدة عماها. وقد قام سعيد بمساعدتها في هذه المهمة، وسمع منها -كما سمع جماعة الإبل أيضاً من الرعاة الذين قابلوهم أثناء التوقف- أنه في الصباح الباكر كان هناك إطلاق نار مكثف حول شبوة. وعلمنا فيما بعد أنه كان هناك قتال بين فصيلي «آل زيد» و «العويرة» من قبيلة «الكرب» وأن توسط جماعة «البريكي» في القرية قد أدى إلى التوصل إلى هدنة وضمان انسحاب المهاجمين من آل زيد. ولقد كانت تلك أنباء تبشر إلى حد ما بالخير لنا، ولكن سعيداً كان يعتقد أن مثل هذا الحادث عادي جداً بدرجة لا يمكن أن تثير أي قلق. وقد طلب من المرأة العجوز -عمته- أن تحضر لنا الحليب، وأصبحنا في الوقت المناسب مستعدين لنأخذ الطريق. في الوقت الذي بدأت تصلنا عاصفة رملية كثيفة كانت تتجمع ببطء تجاهنا من ناحية جنوب شبوة أثناء فترة ما بعد الظهر، في البداية لم تكن شديدة العنف، بيد أننا لم نكد نقطع ميلين من مسيرتنا إلا ووجدنا أنفسنا في وسط خضمها. وكانت المنطقة كلها قد اختفت في ظلام العاصفة واضطررنا إلى تغيير اتجاهنا إلى السهل المفتوح بعيداً عن الوادي لنتفادى الجداول والقنوات في المنطقة المجاورة له. وبعد وقت قصير كانت العاصفة قد خمدت وبدأنا مرة أخرى نرى معالم

الأرض. وألقت فتاة وحيدة، -كانت ترعى غنمها- التحية على سعيد، وتوقفنا لتجاذب أطراف الحديث معها. فقد كانت إحدى أخواته، وكانت لا تزال فتاة يافعة، بها مسحة من جمال، تفيض بروح الدعابة والمرح. وكانت طبعاً لم تر سيارة أبداً من قبل، وقد تراجعت خطوات قليلة للخلف عندما بدأت تشغيل محرك السيارة مرة أخرى لمواصلة الرحلة.

وكنا الآن على مقربة من هدفنا. فالقبة البيضاء لضريح «محمد بن بريك» قد برزت بوضوح أمامنا. ولم يمض وقت وجيز إلا وصادفنا أول آثار لعمران قديم، وهي بقايا بناء لقناة مائية. وخلفها تقع أرض «مراحة» للزراعة الموسمية بها قنوات ري رملية ضحلة أعاقت تقدمنا شيئاً ما. واقتربنا ببطء من القرية، ونراها الآن تنتشر في غير نظام على طول قمة وحافة سلسلة جبال صخرية منخفضة يطوقها جزئياً في الطرف البعيد جرف شاهق من الطمي المتراكم. وقد انطلق مبارك يسبق جماعة الإبل ليزف بشرى وصولنا، بينما كان سعيد معي في السيارة. وبدا الفضاء المنبسط -الذي اعتقدت أنه سيكون موقع مخيمنا- عند قاعدة السلسلة يعج بالبشر. فقد خرج السكان عن بكرة أبيهم ليكونوا في شرف استقبالنا، وهم يلوحون ببنادقهم. وربما كان عددهم يتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ فرد. وتجمعت النسوة في ملابس معتمة كحلية تزين أسطح المنازل ليشهدهن الاستقبال. والتف الأطفال زرافات ووحدانا حول المنحدر. وخشعت الأصوات فلا تسمع إلا صوت أزيز محرك السيارة، ولا تبدو على الجموع الحاشدة أي دلالة على السرور أو الغضب. وساعتها ندمت على عدم إعطاء جماعة الإبل وقتاً كافياً للوصول هناك قبلنا، ولكن الشمس كانت قد مالت للغروب، ووصولنا في الظلام لن ينفع شيئاً. وأعترف أنني شعرت بالغضب بشكل واضح، ولكن سعيداً شد من أزري وشجعني. وقال لي: «استمر في قيادة السيارة إلى حيث يقفون». واضطررنا إلى التعامل مع حفرة ضحلة ببطء يمنة ويسرة. وكان يبدو أن السكان يقفون في ما يشبه الصف. وقد أوقفت السيارة على بعد عشرين ياردة منهم،

وفتحت البـاب وترجلت منها. وفعل سعـيد الشيء نفسه. ووقفت السـيارة الأخرى بجوارنا وقذفت ركـابها من بطنها. وكنا سبـعة في مجموعـنا. وأمام صف القرويين لاحظت أن اثنين منهم عليهما ملامح الأهمية والمكانة، وتقدمت قُدماً لتحيتهم. وكان أحدهم ذا قسمات قاسية ولحيـة مثل أسنان الشوكة، وقبضت يده، ولكنه دفعني بقوة للخلف في رفق تجاه رفاقي. وأدركت بطريقة أو بأخرى أنه كان يجب علينا أن نشكل صفـاً واحداً أمـام سياراتـنا مقابل القـرويين. وبينما نـحن واقفون هناك فـي فوضى واضطراب لاحظت حركة بين مضيفينا، والتف الصف الطويل إلى اليمين، ثم استدار لليسار ، واتجه للـيسار مرة أخرى ليمروا من أمـامنا وخلال ذلك كان كل رجل منهم يسلم على واحد منا باليد، حيث يضع راحة على راحة والأصابع منحنية باستدارة في مصـافحة رخوة لينة بدلاً من قـبضة التـسليم، ويُقبِّلون الهواء الواقع بين الشـخصين باستنشاق مسموع الزفيـر وقد حدثت هذه المراسم كلها في صمت مهيب، ولـم ننفك من هذا الطابور إلى مجموعـات غير رسمية لتبادل الحـديث إلا بعد أن انتهت تماماً. لقد كان ذلك بحق نسخة مثيرة مغايرة لفكرة حرس الشرف. فبدلاً من أن نتقدم نحن لنتفقـد حرس الشرف جاء الحراس لاستـقبالنا، فكأنما كان الحرس هو الذي يتـفقدنا. وكان الحرس نفسه لا يضم فقط مندوبين عن القرية، بل يشمل جميع السكان شاهرين سلاحهم. وهذا الترحيب الحار الذي قوبلنا به قد أدخلنا بطريقتهم الديمقراطية في كرم القرية، فقد أقـر كل رجل منهم الآن بمسؤوليته عن سلامة ضـيوفه ورفادتهم. وكنت قد تـنبهت مـسبـقاً إلى أن استـقبالنا سـيكون مصـحوباً بإطلاق النار من الأسلـحة الصغيرة، ولكني طلبت -عن طريق مبارك الذي كان قد سبقنا- أن يتم إلغاء ذلك في جميع الأحوال، نظراً لطبيعة زيارتي الخاصة غير الرسمية، وقد قُبلت رغبتي هذه كما ينبغي. ولا يوجـد شيء أمقتـه أكثر من إطلاق النار بـلا هدف في الفرح، ولا يمكن للمرء أبداً أن يتنبأ باتجاه طلقة من طلقات الرصاص، ولربما طاشت إحداها، وكثيراً ما تقع حوادث مفـجعة كهذه بالتأكـيد. ففي أبها، على سبيل المثـال، عام ١٩٣٤م كان

الأمير سعود[1] قد انتهى من تفقد قوات احتشدت هناك لحرب اليمن وكان عائداً إلى مقره في الحصن الكبير بمصاحبة «نيران فرح» وكان قد اقترب تقريباً من الباب عندما سقط العبد حارسه الشخصي، الذي كان يسير خلفه مباشرة، ميتاً. ولم يعلم أحد حتى الآن من الذي أطلق الرصاصة، وما إذا كانت أُطلقت بسوء نية أو بإهمال. وفي المملكة العربية السعودية -ما عدا المناسبات الخاصة جداً- يثنون الناس بقوة عن إضاعة الذخيرة سدى، ولكن في كافة هذه المناطق الجنوبية فإن الثمن الباهظ نسبياً لا يبدو أنه يعوق هذا الشكل الخاص من التبديد أو الإسراف.

وفور انتهاء استقبالنا، اختلطنا مع الجموع المحتشدة التي كانت -بالطبع- مأسورة بالسيارات إلى حد كبير. واكتشف الأطفال الذين لم يعتادوا قط على رؤية المرايا، لدهشتهم أن هذا المعدن المصقول يعكس صورهم. ولاحظت أن محمداً وسعداً فيما يبدو يلقيان محاضرة عن كيفية تشغيل السيارات لجمهور من الكبار. وتركوني مع مجموعة من شيوخ القرية نتحدث في السياسة والآثار. وكان كبير المتحدثين في جماعتي ذلك الشيخ ذا اللحية المتشعبة مثل الشوكة الذي قد ذكرته قبل، صالح بن حزيق، من جماعة آل عويرة من الكرب. وبالإضافة إلى حياته البدوية العادية فقد كان فخوراً جداً بمكانته الحضرية التي يتبوؤها كصاحب منزل في شبوة، حيث كان يشارك -بفضل وضعه القبلي- في قيادة سياسة القرية مع إخوان عفيشة، سالم وعلي، من عشيرة آل بريك. ولم يكن صالح -على الرغم من أنه كان الرئيس الفعلي لآل عويرة- الرئيس الأسمى نظراً لأن ابن عمه الذي كان في الثمانين من عمره الذي وهن عقله -وكان أيضاً والد زوجته-، ناصر بن قطيان، كان لا يزال حياً ومعترفاً به كأكبر عضوٍ في العشيرة. وكان لهذا الشخص الأخير ولد أيضاً، يدعى محمدًا، والذي كان يبدو لي أنه لا يميل تماماً إلى إقرار أحقية صالح -على الرغم من أنه

---

(١) المقصود هو جلالة الملك سعود بن عبدالعزيز -ولي العهد آنذاك-. (المراجعون).

لم يكن فقط أصغر منه في العمر- بل كان بالتأكيد أدنى منه قدراً. وكنت سأراهما كثيراً خلال الأسابيع القادمة في مواقف مختلفة، ولا أعتقد أنه يمكن أن يكون هناك أي شك في أن صالحاً كان مقبولاً بصورة عامة كحاكم فعلي للقبيلة والمنطقة. ولقد كان من الواضح في جميع الأحوال -في هذه اللحظة وفيما بعدها- أن صالحاً قد تولى أمور القيادة في تحديد موقف شبوة تجاه زيارتنا.

وفي شبوة، مثلما حدث في العَبْر، كانت أخبار قدومنا قد سبقتنا بزمن طويل، وكان أمام الناس الكثير من الوقت ليحددوا ما إذا كانوا يرغبون في إقامة علاقة أشد قُرباً مع ابن سعود أم لا. وقد أخبرهم مبارك بأننا قادمون بعده مباشرة واستقبلونا بشرف عظيم. ولذلك لم أندهش كثيراً -على أي حال- عندما سمعت صالحاً في هذه الدقائق القليلة الأولى من تعارفنا يعرب عن أمله في ألا نتعجل الرحيل. وتحدثوا عن ابن سعود بإعجاب ومودةٍ غير زائفة، وفي اللحظة نفسها تقريباً أشاروا بصورة واضحة إلى الحالة المستديمة للنزاعات الداخلية الضروس التي يعيشون فيها. إنها القصة المعتادة للعداوات الدموية والثأر الذي لم ينته، وفي هذا الصباح كان لديهم مايذكرهم فوراً باضطراب الأمن بصورة حادة عند هجوم «آل زيد» الذي ذكرناه سابقاً.

إنهم يريدون الهدوء والسلام حتى يزرعوا أرضهم بقليل من الأمل في أنهم سوف يتمتعون بالحصاد بدون إزعاج. ولقد قال صالح إنهم ليسوا فقط الوحيدين الذين يتذمرون من ذلك، بل جميع القبائل في المنطقة المجاورة. وأردف قائلاً: «إنهم جميعاً يريدون مقابلتك ورؤيتك، ويريدون خطابات من ابن سعود تضمن أمنهم من أي هجوم». ولم أشك لحظة من هذا اللقاء الأول في أن مثل هذه الأمور قد نوقشت بالفعل قبيل قدومنا. وعلى أي حال اندهشت قليلاً من التحدث معي بصراحة فور أن وطأت أقدامنا هذه الأرض. وليس عندي بالطبع أي سلطان لكي ألزم الملك بأي سياسة أو إجراء. ولكني اقترحت بالفعل أنهم بوسعهم أن يختاروا مندوبين عنهم لإرسالهم لمناقشة الأمور مع الملك، ويستطيع هؤلاء الممثلون أن يسافروا معي أثناء

رحلة العودة. ومن هذا الاقتراح نشأ قرار صالح نفسه بأن يرافقني عند العودة إلى نجران ثم إلى مكة. وقد انطلق سعيد فوراً بعد وصولنا ليرعى شؤون متطلبات التموين. وبعد ذلك بدقائق قليلة كان قد أحضر أربع خراف إلينا كهدية من أهل القرية ، بينما وصل الحطب والماء فور وصول جماعة الإبل. وتركنا نصب الخيام حتى الصباح، ولكن عبود بدأ عمله فوراً في اثنين من الخراف ليجهز لنا العشاء، وفي الوقت نفسه كانت نيران القهوة،واحدة عند كل مجموعة من جماعتنا، تزودنا نحن وضيوفنا بالمشروب المنشط الترحيبي. واجتمع خلق كثير حولي عندما فتحت المذياع، وهم ينصتون مشدوهين للنشرة العربية من الأخبار. وتداخلت العوامل الجوية، الناتجة عن العاصفة الطويلة، في البث الإذاعي شيئاً ما . ومع ذلك سمع سكان شبوة، لأول مرة في حياتهم، بعض الأخبار عن أنشطة العالم البعيد مثل القلاقل في أسبانيا، وعن المشاكل في فلسطين حيث تنهمك القوات البريطانية في أعمال عدائية ضد إخوانهم العرب. وبالنسبة لهم، مع نزاعاتهم الضئيلة، ولكنها مزمنة، كانت الحروب تبدو على الأرجح شيئاً جوهرياً ومن طبيعة الأمور.

وانتظرنا حتى الحادية عشرة والنصف إلى أن نودي بالعشاء الذي كان وجبة ترحيبية شديدة الروعة من لحم الضأن والعصيدة وجلست مجموعة كبيرة حول أطباقنا، وبدا أن ضيوفنا من أهل القرية كانوا من النوع النهم الأكول. فليس من المعتاد عندهم أكل اللحم كثيراً، فالحليب وعجينة الدُخن هما طعامهم الرئيس. وبعد الطعام انصرفوا آفلين ، وكنت سعيداً أن أقبع بمفردي في مكاني، ولكن جاءت كلاب القرية لتتفحص العظام الباقية من وليمتنا. ولاحظت -عندما كنت أهيئ نفسي للنوم- أنها قد رفضت بازدراء أن تأكل العصيدة التي انسكبت من الصحون. وعند منتصف الليل سجل مقياس الحرارة معي ثمانيًا وثمانين درجة وكانت السماء ملبّدة بالغيوم الكثيرة. وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في الليل يرتفع إلى ما يصل ٨٤ْ، وقد بلغ

الحد الأقصى خلال إقامتنا المؤقتة لمدة أربعة أيام في شبوة مئة ودرجتين. ويصل الارتفاع هنا إلى حوالي ٣٠٠٠ قدم فوق سطح البحر أو أكثر من ذلك بقليل .

وابتداء من حوالي الخامسة في الصباح التالي استمر الزوار من القرية في الوصول بأعداد متزايدة دائماً. وعند وصولنا في الليلة السابقة شعرت بشكل غريزي أن شبوة سوف تخيب آمالنا. والآن وفي وضح النهار كنت قادراً على أن أحصي المناطق المحيطة مباشرة بمخيمنا، وكانت كلها كئيبة بما فيه الكفاية. فنحو الشرق يمتد خط طويل في اتجاه شمال جنوب، ولمسافة أميال قليلة يجري جرف «الحوق» مع ألسنته المنتظمة في صفوف. ويقع بينه وبيننا وادٍ تمر قناته الرئيسة قريباً من معسكرنا، اسمه «المحباض» وهو فرع من وادي شبوة الرئيس وهو يعرف باسم «العطف» (أي القناة) فوق النقطة التي يتشعب عندها إلى شعبتين ليمر على كلا جانبي سلسلة جبال شبوة. والفرع الغربي هو «المعشار» الذي ذكرناه سابقاً. ويصرف الجرف مياهه في محباض خلال عدد من القنوات القصيرة، ويكتسي الوادي كله بمظهر الوعورة نسبياً لوجود سلاسل التلال الرملية المتراكمة والقنوات التي تتناثر فيها شجيرات السنط وقليل من نخيل الدوم اليابس. وعلى الجانب الآخر من معسكرنا تمتد الحافة الشرقية لسلسلة شبوة حوالي ميل إلى الجنوب من الشمال. وفي مضيق منخفض بين قمتين في السلسلة يقع قبر (محمد بن بريك) البارز ذو القبة البيضاء، وكان شيخاً كبيراً في تلك المنطقة المحلية. وعن يساره نحو الجنوب تمتد قرية «هَجْر» الصغيرة البائسة، والتي تتكوّن من حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين منزلاً مبنياً من الطين والحجر، وفوق رابية من السلسلة. وعلى اليمين -عن قرب- كانت هناك هضبة صغيرة مستديرة يعلوها متراس منخفض من الحجارة، وتجاه الشمال منه والجنوب من «هَجْر» تمتد السلسلة لمسافة ما وهي مغطاة جزئياً بأنقاض مبانٍ حجرية. وتحت هذا المتراس عند قاعدة السلسلة تقع مقبرتان صغيرتان تفصلهما عن بعضهما مسافة قصيرة. وفي

المقبرة البعيدة عنا يرتفع ضريح «عبدالقادر» ذو القبة، وكان ابن شيخ ورع[1]، وسط قبور أعضاء الأسرة الآخرين. وكانت المقبرة الأخرى لدفن جثث البدو أو الحجاج الذين لا ينتمون لعائلة الشيوخ.

وكان ذلك كل ما أمكن رؤيته من معسكرنا، وبدا لي أن المتراس المذكور أعلاه سيكون على الأرجح النقطة المثالية لعمل مسح عام للآثار التي قيل لي إنها تقع على الجانب البعيد من السلسلة. وقد صدق ظني ، ولكن انتظرت حتى حوالي الساعة الثامنة صباحاً لأتقدم في ذلك الاتجاه. وكان من الواضح أنه من المفيد لي أن أتفادى إظهار أي شوق لرؤية الآثار، ومكثت مشغولاً دائماً بتيار الزائرين الذي يستمر في التدفق . وكان الكثير منهم غلمانًا صغارًا يأتون ومعهم أشياء غير مهمة من الآثار، مثل كسرات من الرخام وغيرها، ولكن واحداً منهم فقط، وهو الابن الصغير لعلي ابن عفيشة نفسه، قدم لنا شيئاً يستحق النظر فيه، وهو بلاطة رخامية شديدة الروعة بها نقش محفور يعلوه صورة لراكب جمل مجسَّم تجسيماً خفيضاً. وقد اشتريت ذلك بريال واحد (حوالي ١ و ٦ دولار) ووضعتها جانباً بجوار صناديقي، بعد أن نسخت النقش. ولم تمض دقائق إلا وعاد الصبي قائلاً إن النقود ليست كافية. ولم يكن من الحكمة في شيء أن أقدم له المزيد، واعتقدت أن الآثار ربما تكون مليئة بمثل هذا النوع من الأشياء. ولذلك أعدت البلاطة للصبي واسترجعت ريالي. إن امتلاك النقش، الذي كنت قد نسخته فوراً، قد توازن إلى حد ما مع شعوري بفقدان شيء هام، ولكني سرعان ما بدأت أندم على ذلك الأثر. وقبل أن أغادر شبوة بأيام قليلة فيما بعد رأيت الصبي وعرضت عليه ريالين، ولكن إحساسه بالقيمة قد زاد، وهكذا اضطررت في النهاية أن أمضي بدونه. وعلى كل حال لم أستطع نسيانه، وخلال رحلة عودتي من حضرموت بعد ذلك بحوالي شهر أشبعت شوقي إليه بإضافته إلى مجموعتي «كهدية» من والد الصبي.

---

(١) هو عبدالقادر بن محمد بن بريك، جد آل بريك في شبوة، وسيأتي ذكرهم لاحقاً. (المراجعون).

وبعد أن قضيت وقتاً معقولاً في التأخير واستضفت زواري بالشاي والقهوة عندما كنا نتحدث عن شبوة وما جاورها قلت: «إن الوقت قد حان لنبدأ زيارتنا للآثار». ورافقني الشيخ صالح وابن عمه محمد بن ناصر وسعيد ومبارك وعدد هائل من الآخرين، منهم أربعة رجال نجديين من حرسي الشخصي مدججين تماماً بالسلاح ضد جميع الحوادث الطارئة، إلى المتراس حيث قضيت حوالي الساعة أو أكثر أدون الملاحظات والاتجاهات والتقط الصور. وهاهو حقل الآثار كله ينبسط أمامنا، ضئيلاً وهزيلاً بصورة مخيبة للآمال. وهناك ضريح ثالث، عبارة عن قبر ذي قبة بيضاء لابن يوسف ، وهو حفيد (محمد بن بُريك) وخليفته، ويقع على بعد نصف ميل إلى الجنوب الغربي مع قرية «المعوان» تمتد نحو الشمال منه على طول الضفة اليسرى لوادي المعشار. وبين المعوان وهجر توجد أنقاض آثار تغطي مرتفعاً قصيراً ومنحدره النازل للأسفل نحو منجمين للملح باتجاه الشمال. وعلى هذه السلسلة توجد مجموعة من الأكواخ، مبنية من الصخور بصورة جزئية من مواد عتيقة، وتمثل حي المثناه وهو ثلث العناصر المكونة لشبوة الحديثة. ولا يوجد مبنى واحد قديم سليماً، ولا حتى عمود واحد من المعابد الستين قائماً. إن عاصمة الحميريين القديمة كانت مجرد أخلاط من الأنقاض المتهاوية. وكل ما أستطيع أن أرجوه أن يكشف فحص الآثار بصورة أكثر تفصيلاً عن شيء جدير بالاهتمام ، وبينما كان هذا الأمل يحدوني تقدمت خطوات لأهبط المنحدر تجاه حافة حقل الآثار. وفي هذا الوقت كان جمع غفير من الناس قد ألحقوا أنفسهم بنا، وساروا وراءنا، ولاحظت أنه في قرية «هَجْر» وحولها تجمعت أعداد كبيرة من الناس، بمن فيهم الكثير من النساء على أسطح المنازل، في مجموعات ليشاهدوا هذا اللهو.

واللهو الذي كانوا يأملون أن يشاهدوه لم يكن معروفاً لي في تلك اللحظة، ولكن لم نكد نصل المنخفض الضحل الذي يفصل السلسلة عن أقرب جزء (السور الشمالي الشرقي) من الآثار إلا وتعالت صيحات التحدي والتحذير من أحد تلك

المجموعات في القرية فوقنا وعن يسارنا. وكان كلٌ من صالح بن حزيق وسعيد البريكي معنا، بيد أنه كان من الواضح وجود جماعة من السكان ينظرون لسبب ما بارتياب واستنكار لما سيحدث من انتهاك آثارهم البكر. ولم أستطع أن أسمع بالضبط ما كان يقوله المعارضون، ولكني لم أكن أريد أبداً أن أكون سبباً لقتال بين العشائر أو لنشوب شجار في القرية. وأكد لي صالح وسعيد أنه لايوجد شيء يثير القلق، وكان من الواضح تفوقنا في العدد بكثرة ترهب أي معارضة، ناهيك عن الحجم العظيم لجماعتي المقيمة في الخيام خلف القرية. وعلى أي حال فقد كنت حريصاً أشد الحرص على تفادي أي أحداث مؤسفة، ولم أكن في عجلة من أمري.

إن الأرض المنخفضة هنا كان ينتشر فيها أعداد صغيرة من القبور الحديثة، وقد جلست على واحد منها، وأعلنت أنني لن أتقدم خطوة واحدة إلا بعد استعادة التآلف والانسجام. وبعد ذلك تقدم صالح إلى جماعة المعارضة ليحاورهم وعاد فوراً مع قليل من زعمائها ليواصل المناقشة والحوار بحضوري. وكان رئيسهم، والأمر المهم أنه كان ابن عمه محمد بن قطيان. وكانت مظلمته أننا لم نطلب إذناً منه لنزور الآثار، حيث إن جزءا عظيماً منها، مثل منجمي الملح الاثنين اللذين يقعان إلى الشمال من المدينة القديمة، يبدو من الواضح أنها تخضع في حقوق الملكية، لفرع «القطيان» من قبيلة «آل عويرة». ولم أكن قد تعرفت عليه إلا في هذا الصباح فقط عندما زارني في المخيّم، ولم أدرك في ذلك الوقت وضعه في القبيلة. وربما أكون قد تعاملت مع صالح بطريقة مكشوفة جداً على أنه هو الرئيس أو الشيخ، وانطلق محمد فيما يبدو مقطب الجبين ليدبر أي وسيلة يحبط بها خططنا. ووافقت الآن بشكل طوعي بمافيه الكفاية على أنه إذا كان هناك أي جزء من الآثار يخصه فلن أزور ذلك الجزء بدون إذنه. واقترحت -على كل حال- أن مثل هذه الصعوبات يمكن التغلب عليها بمرافقته لنا. وكان يبدو أنه يميل إلى الموافقة على ذلك، وتلخص الجدل إلى نزاع بالأصوات العالية بين عشائر القرية عن كيفية تحقيق زيارتي لحقل الآثار كله بدون أن يتعدى أو

يتدخل أعضاء أي عشيرة منهم معي على ملكية عشيرة أخرى. وقلت لهم إن لم يستطيعوا الموافقة على برنامج محدد فسوف أعود للمخيّم وآخذ فوراً ترتيبات مغادرتي من وسطهم.

وبعد ذلك سرعان ما كوفئت على صبري بإعلانهم أن جميع الأطراف قد تنازلت عن حقوقها العشائرية ووافقت على مرافقتي بصورة جماعية في المنطقة كلها. وكان هذا أسوأ قرار غير مناسب من وجهة نظري ، على الرغم من أنه ليس من الخير إضاعة مزيد من الوقت في الجدال حول الأمر. وانتفضت قائماً من على شاهد القبر وتحركت نحو الآثار بصحبة ما يبدو أنهم جميع السكان الذكور في القرية، كباراً وصغاراً. ودخلنا الآثار من خلال بقايا متساقطة من بوابة في السور الشرقي، الذي يمكن التعرّف عليها فقط بخط محدد من الأنقاض مغطى بالتراب. ولا أعلم إذا كانوا يتوقعون أن يروني وأنا أخطف الذخائر المخفية من الذهب والأحجار الكريمة من أقبية المدينة، ولكن الحشود اندفعت تطوقني إلى درجة أنني لم أعد أستطيع الحركة إلا بشق الأنفس . وإذا التقطت من الأرض قوقعة أو خرزة أو خلخالاً مكسوراً أو شظية من آنية خزفية أقاموا سوراً بشرياً حولي وهم يلتفون في دائرة يلهثون، وربما يعتقدون أن هذا الشيء التافه سوف يتحول باهتمامي به إلى جنيهات ذهبية. وإذا توقفت للنظر في مدماك من الحجر من المباني القديمة ويشكّل جزءاً من منازلهم الحديثة من الحجارة المكوّمة فوق بعضها ساورهم الشك في أنني أتكهن بوجود كنز تحته. وهكذا سار الأمر، في حين ألقى بعضهم بنفسه في اللعبة بحماس يستحق الثناء عليه وبدؤوا جمع ما يشبه المواد التي شاهدوني ألتقط مثلها وأضعه في جيبي. وتقدم الحشد الغفير معي بهذه الطريقة، يكنسون سطح الأرض كلما ساروا، وكل دقيقة أو نحوها يحضر أحدهم لي حفنة من الأشياء لأفحصها. وكان بعضها مجرد نفايات يجب رميها، والبعض الآخر كان عبارة عن المخلفات العادية من كسور وأساور أو خلاخيل وخلافها التي كنت أحتفظ بها في جيوبي، بينما كان المتبرعون يتخيلون في أذهانهم

أنني سأقدم لهم هدايا عوضاً عن ذلك في الوقت المناسب. وكان من المدهش حقاً كيف تذكر كل رجل أو صبي بدقة الصنف الذي أعطاني إياه.

وطول الوقت الذي مكثته في المعسكر هذه الأيام كان هناك غدو ورواح دائم من تجار الآثار، وعندما رحلت كانت الأرض حول خيمتي قد اكتست بالمعثورات المرفوضة المبعثرة هنا وهناك، مثل شواهد قبور حديثة مخلوعة من المقابر وكسر من الرخام غير منقوشة وبعض الأشياء غير المهمة الأخرى. ولم يقم أي متعهد باسترداد القطع التي كان أحضرها مرة أخرى. فإذا رفضتها فإنه سوف يقذفها باستياء.

ولكي أعود للآثار، فقد تسلقت المنحدر من البوابة الشرقية، متجاوزاً مسجداً حديثاً -على الرغم من أنه مهجور الآن- مبنياً على قواعد قديمة من كتل صخور جيرية مشذبة تشذيباً جيداً، حتى وصلت إلى سلسلة الجبال الرئيسة التي سميتها مؤقتاً بمنطقة القلعة. وهنا -كما في أماكن أخرى- لم يوجد مبنى واحد سليم قائم منتصب من المباني القديمة إلا وهو كتلة عظيمة من المنازل المهدمة ومداميك قليلة من البناء الحجري غير مهدمة تغطي الجزء الشرقي من القمة والذي يمتد على طول جانبه الشمالي، ونحو الغرب من المسجد، طريق طويل مستقيم يصل إلى أقصى طرف التلال عند حصن حديث نسبياً يشرف على الآبار في أسفل وادي المعشار بالأسفل ويؤدي إلى شبوة من الغرب والجنوب. وعندما سلكت هذا الطريق المرتفع، والذي وفر لي إلقاء نظرة شاملة على حقل الآثار الممتد أسفل المنحدر من سلسلة الجبال ومن قاعدتها تجاه الشمال أصبحنا في منتصف الطريق إلى أعظم أثر في شبوة -الذي سميته مؤقتاً- رغبة في تسمية أفضل، «معبد عشتارت».

وما زال القليل من آثاره قائماً بما فيه الكفاية، ولكنه ربما يكفي فقط لإعطاء المرء فكرة عما كان عليه حال المعبد في العهود الماضية عندما كانت شبوة عاصمة الحميريين. ومن المفترض أن الطريق كان يمر خلال رواق مدخل المعبد الذي تمتد جدرانه الرئيسة محاذية للجانب الجنوبي للطريق، فيما يقابله على طول الجانب

الشمالي تقع أربع قواعد أعمدة مربعة من الحجر الجيري تفصلها عن بعضها مسافة قدرها قدمان ونصف القدم. وكل قاعدة من هذه القواعد تبلغ اثنين ونصف قدم مربع وبها منخفض دائري بالوسط قطره حوالي قدمين، وهذا يبدو أنه يبرهن بالتأكيد على أن الأعمدة كانت مستديرة. وإلى الجنوب من كل قاعدة، وعلى مسافة ستٍّ بوصات تقع كتلة مستطيلة من الحجر الجيري طولها قدمان ونصف القدم -من الشرق إلى الغرب- وعرضها قدم واحد ملاصقة للطريق مباشرة، وهي غامضة الهدف، على الرغم أنها كانت جزءاً من دعامة لجدار مقوس خلف الأعمدة مباشرة. والمسافة بين أول قاعدتين للأعمدة -في الطرف الشرقي- مملوءة بدرجات سُلَّم، بينما توجد علامات غامضة على وجود درجات سُلَّم مشابهة بين زوج القواعد الوسطى. وربما تكون هذه الحالة تنطبق تماماً على الزوج الغربي، ولكن لم تبق أي علامة على وجود درج في هذه الحالة. وأخيراً يوجد كتلة ضخمة من الحجر الجيري متصلة مع الحافة الشمالية لقواعد الأعمدة على بعد ستة أقدام إلى اتجاه الشرق منها، عرضها ستة أقدام -من الشرق إلى الغرب- وطولها عشرة أقدام، وتشكل على ما يبدو مزلقانًا، ويفترض أن تكون هناك كتلة مماثلة على الجانب الآخر، عند رأس سلَّم عريض يؤدي إلى المنحدر النازل إلى الطرف الجنوبي من الشارع الرئيس في المدينة، هذا الدرج، الذي لم يبق منه شيء الآن، يفترض أن يكون عرضه حوالي أربعة وثلاثين قدماً والمسافة من أعلى إلى أسفل تبلغ خمسين قدماً تقريباً حتى رأس الشارع. ووجود علامتين كبيرتين مستطيلتين على السطح العلوي للمزلقان يوحي بقوة شديدة إلى احتمال وجود تمثال ضخم أو أي زينة هائلة أخرى على كل من المزلقانين، على حافة صف الأعمدة، لتشكل ممراً مهيباً إلى المعبد.

وعلى الجانب الآخر من الطريق، الذي يبلغ عرضه سبعة أقدام ونصف القدم بين الحافة الداخلية لقواعد الأعمدة والسور، ما تزال توجد ثلاثة مداميك من كتل بناء مشذبة تشذيباً جيداً ولكنها ليست كبيرة، في سور المعبد الشمالي قائمة بطول يبلغ

حوالي خمسة وخمسين قدماً، وتتداخل مع الأعمدة والمزلقانات على كلا الجانبين. وفي مكان يقع تقريباً مقابل وسط صف الأعمدة يوجد المدخل الحقيقي للمعبد بجوار سلم يخترق السور. ويبلغ عرض المدخل حوالي ثلاثة أقدام، والدرجة الأولى من السلم -بالعرض نفسه- تبرز من خط السور في حرم الطريق، والدرجة الثانية مستوية بمحاذاة السور مباشرة، ولا تزال توجد درجتان أو ثلاثة إضافية مع بقايا السور الذي كان يصطف معهم على كلا الجانبين. وإلى الشرق من هذا القسم الذي يبلغ طوله خمسة وخمسين قدماً من سور المعبد، ويصل طوله لحوالي اثني عشر قدماً، والذي كان في وقت من الأوقات يتصل فيما يبدو بالسور الرئيس من خلال قسم معاودة الدخول والذي لم يبق منه شيء الآن، على كل حال. والطرف الغربي من سور المعبد -كما هو باق الآن- يستمر بقنطرة ضحلة في السور تنحدر باتجاه غرب - جنوب غرب وتتكون من طبقتين من كتل الحجر الجيري الضخمة نسبياً، والمشذبة تشذيباً خشناً، هي أطول من خط السور بحوالي عشرين قدماً وبالتالي تغطي واجهة المعبد - إذا كانت جميع الأقسام التي ورد وصفها هنا جزءاً منها- طولاً إجمالياً قدره سبعة وثمانون قدماً تقريباً.

والجداران الشرقي والغربي من المعبد يمتدان فيما يبدو من أطراف الجدار الشمالي إلى أعلى المنحدر حتى قمته، والذي يبلغ ارتفاعه حوالي عشرين قدماً فوق مستوى الطريق. وعلى أي حال لم يبق أي أثر من كلا الجدارين قائماً اليوم ولا حتى شيء من البناء الداخلي للمعبد الذي يمكن رؤية أرضيته حتى القاع الصخري ذي الغطاء الرقيق من التراب والحجارة فقط. وما تبقى، في الحقيقة، عبارة عن جزأين كبيرين من إناء ضخم من الحجر الجيري، يمثل إلى حد ما مزهرية ضخمة، ولكن يحتمل أن يكون مستخدماً لحفظ الماء أو الزيت. ولم يبق شيء من الجدار الخلفي للمعبد -الذي كان يحد فيما يبدو قمة السلسلة الجبلية المتجهة صوب الجنوب- إلا

بعض الكتل الكبيرة من البناء الخشن المتناثر حـول قمة المنحدر الجنوبي. ومن الواضح أن باقي الجدار قد انطمر منذ زمن بعيد في أسفل الوادي.

وعلى كل حال يوجـد جزء من السور ذي طبـقات خشنة مـتشابهة من الحـجر الجيري والحجر الرملي، يبلغ طوله سبعة عشر قدماً وبارتفاع أربعة مداميك إضافة إلى مدمـاك واحد مشـابه بطول سبع أو ثماني خطـوات تقريباً صـوب الشرق على طول القمة، وكلاهما ربما كانا يشكلان جزءاً من أسوار المعـبد. والجزء الأكبر، ومعه سور جانبي ملاصق له، يدعم السقف المسطح المزخرف برصيف دائري من الحصى الكبير. ويبلغ قطر الدائرة حوالي سبعة أقدام، ولكني لم أستطع تخيل أي وظيفة كانت تؤديها تلك الدائرة.

هذا هو معبـد عشتارت العظيم كـما يوجد اليوم، وقـد وصفته بأكـبر قدر من التفاصيل حـسبما استطعت أن أحصل عليها. ولا أسـتطيع أن أرتاب في أنه كان أكثر المباني أهمية في شبوة، ويشـرف على المدينة بكاملها، ويؤثر تأثيراً عظيماً في الزائرين الذين -عندما يدخلون من البوابة الرئيسة في السـور الشمالي الغربي -سوف ينظرون مبـاشرة من الشارع الرئيس إلى السلـم الكبير المؤدي إلى المدخل ذي الأعـمدة والذي تحفـه على كلا الجانبين تماثيل مـهيبـة أو بوابات عظيمة. وخلفـها يرتفع مبنى المعـبد الرئيس شامـخاً حتى أفق سلسلة الجـبال، وبه قدس الأقـداس والغرف الفرعـية على السطح المستوي للقمة.

ومن هذه القمة توفـر للمرء إلقاء نظرة بأفضل طريقـة ممكنة على المدينة القديمة وما جاورها، والتي سـوف أمضي الآن قدماً في وصـفها بالكامل. ولقد اسـتخدمت حتى الآن في وصف المعـبد الجهات الأصلية للبـوصلة بغرض التسهـيل، بيد أنه من الأهمية أن ندرك أن المـعبد حقيـقة يتجه بالضـبط نحو الشمال الغربـي أسفل الشارع الرئيس إلى البوابة الرئيـسة التي تقع تقريبـاً في وسط السور الشمـالي الغربي. ويبلغ حافة طول مـرتفع المعبد (أو القلعة)، التي تشكل الطرف الجنوب الشرقي غـير المسور

من المدينة وتهبط بانحدار شديد على الجانب الجنوبي الشرقي إلى وادي المعشار مقدار ١٠٠ قدم إلى أسفل، ٤٧٥ ياردة. وفيما عدا بعض الالتواءات الصغيرة، فإن طول السور الشمالي الغربي يبلغ تقريباً القدر نفسه، بينما يبلغ عرض المدينة عبر خط الوسط من البوابة الرئيسة حتى المعبد ٢٧٥ ياردة، وهي أيضاً تقريباً مساوية لمسافة طول الأسوار الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية. وهكذا تكون مساحة المدينة تقريباً عبارة عن مستطيل تام والمساحة المسطحة تصل عملياً إلى سبعة وعشرين فداناً. ويمتد محورها الطويل جنوب غرب - شمال شرق، وهي محاطة على الجانبين الشرقي والجنوب الغربي بوادي المعشار. أما الجانبان الآخران فيتجهان في شبه دائرة من التلال الصخرية المنخفضة التي تشكّل سلسلة تلال دائرية، يحدها وادي المعشار على طول الطرف الغربي. هذه السلسلة تبرز لمسافة ما في اتجاه جنوب، جنوب شرق وراء الزاوية الجنوبية الشرقية من المدينة بين قناتي المشعار والمحباض التوأمين ، وتنتهي عند نقطة تفرع وادي العطف الرئيس. ويلتف فرع المحباض تدريجياً مع ثنية السلسلة ليتصل مرة أخرى بمعشار وراء طرفها الشمالي الغربي. وبالتالي تشكل شبوة والسلسلة «جزيرة» بين القناتين. وإلى الشمال من المدينة القديمة في الزاوية الداخلية من السلسلة يقع منجمان اثنان للملح اللذان يشكلان المصدر الرئيس أو الاقتصادي الوحيد للمنطقة المحلية، بينما يوجد منجم ثالث، توقف العمل فيه، في طية من طيات سلسلة «القلعة» إلى الغرب على مسافة قليلة من المعبد. ويجري عبره وَهْدٌ -والوهد هو الوادي الصغير الضيق شديد الانحدار- منحدر من السلسلة، وهذا ما ساعد على دفن آثار المدينة تحت قشرة من الطين المالح.

وفي الركن الجنوبي الشرقي من المدينة القديمة يختل تماثل شكلها المستطيل نتيجة وجود ممر ضيق عرضه حوالي عشرين ياردة وطوله ١٢٠ ياردة، ويبرز نحو الشمال الشرقي إلى أسفل السلسلة الرئيسة. هذا الممر يحيط نتوء مناظر له في سور المدينة، ويبدو أنه كان يربط المدينة بضاحية ضخمة والتي تمتد من نقطة تبعد قليلاً إلى الشمال

من المتراس الذي أشرنا إليه سابقاً، على طول قمة ومنحدرات السلسلة الرئيسة حتى تصل لمسافة قريبة من ملتقى المعشار والمحباض. هذه الضاحية ليست مسوّرة، على الرغم من أنها محمية على طول قناة المعشار بجرف حاد الانحدار يبلغ طوله ثلاثين قدماً والذي يشكّل ضفتها اليمنى. أما على جانب المحباض فإنها تنحدر إلى أسفل بصورة رقيقة حتى حافة الوادي. هذه المنطقة كلها تتناثر فيها الآثار القديمة، والجزء شديد الأهمية منها يتوّج أعلى نقطة في الضاحية بالضبط مقابل أو شمال شرق الممر القادم من المدينة الرئيسة.

وتوحي الآثار الموجودة فوق هذه الربوة بأن القصر الملكي ربما كان قائماً هنا، وأن الممر المسوّر ربما كان مصمماً لتوفير مدخل مباشر للملك وصحبته إلى المدينة المسوّرة. وإلى الجنوب قليلاً توحي بعض الآثار المعينة بوجود معبد صغير، ربما كان مصلى ملكياً صغيراً، ولكن باقي منطقة الضاحية يبدو أنه كان يضم المساكن الخاصة للمسؤولين الرسميين والمواطنين الأوفر ثروة، وربما فيها حدائق في تكوينات طينية تمتد من بيوتهم إلى حافة قناة المحباض. وبأقصى ما يمكن أن يحكم المرء من خلال تناثر الأنقاض، فإن هذه الضاحية يبدو أن طولها كان يتراوح ما بين ٨٠٠ و ٩٠٠ ياردة، ومتوسط عرضها حوالي ١٠٠ ياردة، أي إن إجمالي المساحة المسطحة يبلغ حوالي ثمانية عشر فداناً. ومن الواضح أن الضاحية قد نمت وتوسعت لاحقاً أكثر من المدينة الرئيسة، وحقيقة أنها غير مسوّرة، على الرغم من وجود القصر الملكي وبيوت الأغنياء، مما يشير إلى فترة من استقرار الحكم والأمن العام.

إن قرية هَجْر الحديثة، وهي عبارة عن قرية صغيرة مكونة من حوالي خمسة وعشرين أو ثلاثين منزلاً، تحتل موقع القصر القديم، الذي ما زال قدرٌ كبيرٌ من أحجاره المقطوعة باقياً في مكانه ليشكّل جزءاً من الأكواخ التي شيّدها أحفاد محمد بن بريك. وفي الواقع توجد بقايا كثيرة من المباني القديمة اللافتة للنظر في هذا الموقع أكثر من أي جزء آخر في المدينة الرئيسة، وتم البناء بالأسلوب نفسه المتبع في معبد عشتارت،

طوب من الحجر الجيري صغير ومشذب بشكل جيد ومبني بطريقة حسنة. وبالنسبة للبيوت الحديثة، حيث لم تدخل الأسوار الأثرية القائمة على أنها جزء منها، فإنها مبنية إلى ارتفاع يبلغ حوالي الثلث من أرضية مكونة من كتل صخرية صغيرة ومقطوعة بصورة خشنة، في حين تتكون الأجزاء العليا من الطين بعوارض خشبية لدعم الأسقف المسطحة. وفي المنخفض أسفل «هَجْر» وامتداداً منه إلى أعلى المنحدر حتى قرب كتف سلسلة القلعة تقع قرية صغيرة أخرى مكونة من منازل حديثة، تسمى المثناه وهذا الاسم يضم أيضا كامل سلسلة المعبد والآثار الموجودة عند قاعدتها.

والبيوت هنا تبدو أنها مبنية من المواد التي تم تكسيرها ونقلها من المباني الأثرية التي ما تزال بعض أسوارها وقواعدها باقية كنواة للأكواخ. وقد ذكرنا من قبل أن المسجد هنا لم يعد مستخدماً، إلا أنه يوجد به -علاوة على بقايا المبنى القديم المحتفظ بنسيجه المهجور- فوهة بئر بجوار المدخل، وهي الآن مسدودة بالحصى والتراب ولكنها كانت بلا ريب في يوم ما مصدراً لإمداد المياه. وفي الجهة الأخرى المقابلة، عند الحافة السفلى لقرية هجر يوجد مسجد آخر، الذي يخدم سكان كلاً من «المثناه» و«هَجْر» في مناسبات الأعياد والاحتفالات، على الرغم من أنه -كما يتضح- لا تؤدى الصلوات اليومية العادية فيه، والتي تُؤدى - أو تُهمل - في البيوت الخاصة. إن الصلاة الجماعية -باستثناء المناسبات الخاصة- ليست نمطاً شائعاً بوضوح في جنوب الجزيرة العربية خارج المدن الكبرى. إن مسجد هَجْر ذو بناء حديث نسبياً، بدون أي علامة على وجود قواعد قديمة أو أي مواد أخرى ما عدا كتلتين اثنتين من الحجر الجيري تحمل نقوشاً حميرية طويلة، ومن الواضح أنه تم نقلهما إلى هذا الموقع من أحد المعابد أو المباني الأخرى.

وعلى الجدار الجنوبي الغربي يوجد نقش عربي يبين تاريخ البناء بأنه: "يوم الإثنين -على ما يبدو اليوم الأول من- شهر الفطر -شوال-، ١٦ بعد ٣٠٠ بعد ١٠٠٠" (أي ١٣١٦ بعد الهجرة). والمحراب على زاوية ٣٠٦ْ، عبارة عن كوة

ضحلة في الجدار ، بارتفاع قدمين وعرض خمس عشرة بوصة، وبه رسم كاريكاتوري غريب لبشر يشبه الدمية محفور بطريقة خفيفة في الوسط. وعلى كلا جانبي المحراب توجد رسومات للزينة توحي أنها مثل أعواد الشموع. وتوجد قرية ثالثة، هي المعوان تكمّل ثلاثية شبوة الحديثة. وتقع خارج الركن الشمالي - الغربي من المدينة القديمة على طول الضفة اليمنى لمعشار، ويعود وجودها لتاريخ قبر شيخها الولي، ابن يوسف، حفيد محمد بن بريك. وهي أصغر نسبياً من هَجْر، ولها المظهر الحقير والمتواضع نفسه، حتى بدون هيبة بقايا الأحجار من البناء القديم.

ومن الواضح أن المثناه ليست أكثر من امتداد لـهَجْر لتسع فائض سكانها، ولكن بين الأخيرة والمعوان لا يوجد إلا تاريخ طويل من الحقد والعداء، وربما يكون هذا شيئاً طبيعياً بدرجة كافية بين المتنافسين على رعاية الحجاج والزائرين. وفي الوقت الحالي أخذ نجم هَجْر في اللمعان، ويضطر سكان «المعوان» أن يتحسسوا أسلحتهم كل ليلة قبل أن يخلدوا إلى النوم. وتحتفظ كلا القريتين بمراقبة دائمة لتتفادى الهجمات المفاجئة، وعندما عدت من حضرموت في زيارتي الثانية وجدت أن معظم سكان شبوة قد انتقلوا إلى المراعي ليستفيدوا من الأمطار الأخيرة. ولكن قد يتخلف أربعة رجال في «المعوان» لحماية القرى من الأعداء. أما الهجرة الجماعية من «هَجْر» فكانت أقل وضوحاً نتيجة لوجود نصف جماعتي بالمخيّم الذين يجب ضيافتهم وتزويدهم بالحاجات والإمدادات الضرورية أثناء غيابي. وفي البداية ابتعد سكان المعوان عني، وعزلوا أنفسهم مني، على أساس أنني ضيف مناوئ، ولكني قمت بزيارتهم، بعد أن أرسلت رسولاً قبلي ليخبرهم بمقدمي، وذلك بعد تجولي بين الآثار في اليوم الثاني. ولقد استقبلوني باحترام ملائم، ولكني لاحظت أن الشيوخ قد تجمعوا لاستضافتي في بيتٍ كبير يقع حقيقة خارج قريتهم وجثموا على زاوية سور المدينة القديمة الذي مازال جزء عظيم منه يقف سليماً في هذه النقطة. وكان -على الأرجح- يساورهم القلق من احتمال دخول أتباعي من «هَجْر» في وسطهم. وعلى أي حال، في زيارتي الثانية جاء

ممثلوهم إلى مخيمنا وأحضروا معهم هدية من الغنم واقترحوا، عند مقابلتهم معي، أنه يجب إحالة نزاعات شبوة الداخلية إلى ابن سعود ليصدر حكماً فيها. وفي المقابل قمت بزيارة ثانية لهم، ولم ينقص كرم ضيافتهم لنا شيئاً، على الرغم من أنهم كانوا يبدون لي أشد فقراً من أهل «هَجْر».

إن أيام الخميس والجمعة هي الأيام المحددة لزيارة الحجاج لأضرحة البريكي[1]. وعند وصول الزوار يسرع حرس الأضرحة إلى تزويدهم بالطعام لإعاشتهم أثناء مدة بقائهم. هذا الطعام وغيره من الاحتياجات الأخرى يتم منحها هبة، ولا تباع. وقد وفرت الخبرة الطويلة بلا شك تقديراً لطيفاً لوضع الحجاج المالي. فكل شخص يتلقى شيئاً ما أقل مما يتوقع أن يعطى مقابله، والفائض يعد بالطبع نظير الفضل المكتسب بزيارة الأضرحة. وأي محاولة لتقليل قيمة الهدايا المقدمة يتم تثبيطها بحزم، حسبما اكتشفت بكلفة باهظة، على الرغم من أن مخالفتي لم تكن متعمدة. فكما ذكرت سابقاً قُدمت لنا أربعة خراف عند وصولنا، وفي اليوم التالي سألت سعدًا عما يعتقد أن تكون قيمتها. وبعد تفكير قال لي: إن القيمة هي ١٢ ريالاً، وعلى الفور أرسلت لهم ١٥ ريالاً كهدية مني مقابل هديتهم. وعادت النقود لي مع تلميح مهذب بأن الأغنام كانت هدية من القرية، وليس من الممكن قبول ثمنها من ضيف كريم، وأنهم قد اشتروا حقيقة هذه الأغنام على وجه الخصوص من البدو بسعر ٤ر٥ ريال لكل خروف !! وهذا يجعل السعر الإجمالي ١٨ ريالاً، وقد تضايقت قليلاً من سوء حسابات سعد، ولكني أرسلته في الحال ومعه ٢٠ ريالاً، وجاء على الفور العمدة وأتباعه لزيارتي زيارة رسمية ويتمنوا لي طول العمر والرخاء. وعند عودتي من حضرموت تكررت الهدية، ولكنهم اقترحوا أنني ربما أفضل ثوراً سميناً طيباً، والذي كانوا يعتقدون أنه ربما يكون أكثر ملاءمة لمثل جماعتي -والمتطفلين عليها-. وقد أعربت لهم عن تفضيلي لحم الضأن.

---

(١) إن البناء على القبور، وشد الرحال إليها، وتعظيم الأموات الذين لا يملكون لأنفسهم او لغيرهم نفعاً ولا ضراً ليس من الدين الإسلامي في شيء، وإنما هي من البدع المستحدثة. (المراجعون).

إن تاريخ بيت الأولياء في شبـوة يكتنفه قليل من الغموض . فـقد كان بريك، وهو السلف الذي أخذت عشـيرة آل بريك اسمها منه، والد محـمد، الشيخ الولي، والذي ربما يكون في الواقع أول من استقر على أنقاض شبوة. ومن المؤكد أن العشيرة قد تمتعت ذات يوم بفـترة من السلطان والنفوذ الزمني، وكانت الشحـر الميناء البحري المهم تخضع لحكم أحـد أفرادها قبل الاحتلال الكثـيري لها والذي دام فترة قـصيرة. وقد تهاوى هذا الاحـتلال تحت أول ضربات القعيـطي. ويقال: إن أسلاف آل بريك من أصل الأشراف، وهناك اعـتقاد عـام بأنهم ينحدرون من «آل حامـد» أشراف بلدة «السيح» في الأفلاج الذين ينحدر منهم أيضاً ابن إسماعيل وأشراف رنية. ولذلك ربما يكون ما حـدث في الواقع أن «أشراف آل حامد» هؤلاء، عندمـا انطلقوا راحلين من اليمن منذ حوالي ٢٠٠ عام مضت بحثاً عن المغـامرة في صحراء الجزيرة العربية، قد خلفوا وراءهم بعثات في مختلف الاتجاهات، جاءت إحدها واستقرت في حضرموت بينما استقر الآخرون في «رنية» و «الأفلاج».

ومن الجدير بالذكر أيضاً أن قبيلة الكرب تدعي ارتباطها المنتقل من جيل إلى جيل مع قوم «رنية» من غير الأشـراف، على الرغم أنه من الصعوبة أن تشك في أن اسمهم مشابه تماماً لقبـيلة «كرباني، قتبان Carbani» الذين قال عنهم بليني إنهم استقروا في حضرموت في عهده. وإذا كان الوضع كذلك فإن الحركة الأصلية ربما كانت في الاتجاه المعاكس من حضرموت إلى رنية، أي حركة «الكرب» مع حلفائها الأشراف تجاه المناطق الأكثر غنى ورخاء في الـشمال أو بعيداً عن الضغط في الجنوب. ومـهما يكن من أمر فإن الارتبـاط الزمني والروحي بين شبوة ورنيـة والأفلاج علامة واضـحة في التقـاليد المحلية، بينمـا يعد ارتباط عشـيرة آل بريك بالكرب حقيـقة محلية واقـعة. ولذلك من المحتمل أن يكون الأشراف عند وصـولهم منطقة شبوة قد أصبحـوا أتبـاعاً -كما أنهم ما زالوا حتى الآن- لقبـيلة «الكرب» حسبما يوحي بذلك تسميتـهم البديلة «بالفقراء»

و«المشايخ»، وهكذا أضحى أشراف آل حامد مستقرين في حضرموت بصفتهم «فقراء» (أو مشايخ) من قبيلة الكرب، بينما في أيام عزهم العظيم استطاعت مجموعة منهم -وهي آل بريك- أن تقيم حكماً قبلياً باسمها، والذي أضاف له المستقبل مهمة روحية أكثر منها مهمة زمنية.

ومهما يكن من أمر فإنه بدءاً من بريك فقط أصبحت شجرة نسب العائلة واضحة بقدر معقول. وقد رُزق بريك، بمحمد الذي أسس نظام حكم ما زال موجوداً في شبوة وتوفي وهو يتمتع بسمعة طيبة من التقوى والورع، وترك وراءه ثلاثة أولاد أسماؤهم على التوالي هي: «شيخ» -الذي ما زال اسماً شائعاً في حضرموت- و«عمر» و «عبدالقادر». ويبدو أن الأخير قد مات بدون ذرية، لأنه اختفى من الرواية ولم يعد له ذكر إلا ضريحه الذي ما زال قائماً يذكرنا بمروره في هذه الحياة الدنيا. وفي الحقيقة يحتمل أن يكون قد خَلَف والده في المهام الروحية دون أن يترك أثراً ذي بال في هذا المجال، ومن المحتمل أيضا أنه قد مُنح شرف بناء ضريح له -أصغر من ضريح والده- لمجرد أنه كان ابن الشيخ الأول وخليفته. أما عن «عمر» فلم تحتفظ التقاليد المحلية بأي شيء عنه إلا حقيقة أنه مدفون بجوار والده في الضريح بقرية «هَجْر». وكذلك الثالث «شيخ» لا يظهر في التاريخ إلا بصفته والد ابنه، ابن يوسف الشهير، الذي لم يجلس فقط على العرش الروحي الذي تركه جده، بل إنه أيضا خلَّف سمعة حسنة تضارع سمعة جده، وكان المصدر الدائم للخلاف في العائلة. فلماذا كان يُدعى ابن يوسف بينما كان اسم والده «شيخ»؟ لا يوجد من يستطيع أن يجد تفسيراً لذلك، على الرغم أنه يبدو من الممكن، إن لم يكن من المحتمل في الحقيقة، أن «شيخ» كان لقب والده وأن «يوسف» كان اسمه الحقيقي، أي «الشيخ يوسف».

وسواء كان الأمر عن عمد أو لا، فقد أصبح ابن يوسف ليس فقط منسوباً لجده، كما ظل حتى يومنا هذا، بل أيضاً مؤسساً لعشيرة تتمتع بتسمية عجيبة تُدعى

«عبدالقوي». هذا الاسم نفسه يوحي[1] بثورة الجند الجدد ضد الأسلاف القدماء في عشيرة آل بريك لصالح الابن الأصغر. وهذا الموقف قد أصبح أكثر إثارة بعد الاقتراح الذي قدمه لي بعض الذين كانوا يزودونني بالمعلومات مفاده أن ابن يوسف -الذي لم يحفظ التاريخ اسمه الشخصي الحقيقي- وأخاه، سالماً، كانا من والدتين مختلفتين. وسواء كانت أمه قد طلبت ذلك أو لا ، فيبدو أن العبيد في بيته -أو ربما واحداً منهم كان يحمل اسم العشيرة- قد زادوا من مستوى الثورة -بطريقة إيجابية أو سلبية- ضد الخليفة الشرعي لعباءة الشيوخ ونادوا بابن يوسف كوريث حقيقي لها. وبعد وفاته تم الاعتراف بتقواه وورعه من خلال إقامة ضريح له يضم رفاته، ومن ذلك اليوم حتى وقتنا هذا حافظ عبيد عبدالقوي على مكانة سيدهم ليظل منافساً للشيوخ الأولياء. ولا يبدوا أنه قد ترك أي ذرية، ولكن عباءته انحدرت -جيلاً بعد جيل- على ذرية العبد الذي جعله على ما هو عليه اليوم. إن رئيس العشيرة في يومنا هذا هو «علي بن سالم بن كرب».

وعوداً لخط الأسلاف الكبار نجد أن الخلافة الشرعية قد انتقلت من «شيخ» إلى ولده الأكبر «سالم» الذي أنجب «صالحاً» الذي أنجب «حسيناً» الذي أنجب عمر الذي ظل اسمه من ذلك الحين لقباً بديلاً للعشيرة، أي «آل بريك» أو «آل عمر» وقد كان هو الجد الأعلى لجميع الفروع الثلاثة الموجودة من العائلة من خلال أولاده الثلاثة: «عفيشة» و«صالح» و «عجيم». والرئيسان المشتركان الحاليان للعشيرة، سالم وعلي، هما ابنا الأول، أما مبارك وسعيد، اللذان كانا يعملان مرشدان لنا من «العبْر» فهما ابنا الثاني والثالث على التوالي. وقد رأيت بعض الصغار من الجيل القادم أثناء إقامتي المؤقتة في شبوة.

(١) ربما على أي حال أن الاسم يعني العبدلله القوي. (المؤلف).

وأعتقد جازمـاً أن منازل هَجْر تحتل موقعاً ما، كان يومـاً ما قصراً ملكياً. ومن المفـترض أن يكـون محـيطه على الجـانب الغـربي مرتكزاً عـلى ممر يؤدي إلى المدينة القديمة، والذي يجب عليَّ أن أعود لوضعه الآن بعد هذا الاستطراد الطويل عن شبوة الحديثة. هذا الممر من المفروض أن يكون له بوابة في الطرف الشرقي، على الرغم من عدم وجود أي دليل عليها في السور المتـهدم في ذلك الطرف. ومن خلال البوابة كان الشارع يمتد، والبـيوت على كلا جانبيـه، والتي يحتمل أنها كانت تتـفرع يميناً ويساراً عند الطرف الغربي لتتصـل على التوالي بالشارع المتجه غرباً من البوابة الشـرقية حتى أسفل الدرج العظيم الذي يمتد على طول مرتفع المعـبد بالكامل. هذا الدرج كان يبدأ من البـوابة الجنوبية الشـرقيـة، التي تقف عند الجـانب الجنوبي من الممر فـوق أعلى منحدر بسيط يؤدي للصعود من الثنية الغربيـة الحادة للوادي، ويوجد بستان صغير من النخيل يزيّن أسفل ذلك المنحدر.

وقد ذكرت سابقاً البوابة الكبـرى في وسط السور الشمالي الغربي، التي تؤدي إلى دخـول الشارع الرئيس عند أسـفل الدرج. ويوجـد داخل هذه البوابة على كـلا جانبي الشارع مبنيان اثنان يبدو أنهما كانا مهمين. والمبنى الموجود على الجانب الغربي أقل تماسكاً من الآخر بكثير، ولكن يبدو مـن تناثر شظايا المرمر (الرخام) وسط ركامه أنه كان بناءً ذا قدر عظيم، ربما كـان معبداً أو مجلساً للمدينـة. وقد كان المبنى الآخر أفضل مبنى مُصان في حقل الآثار بالكامل، ولكنه كـان ذا بناء من كتل الحجر الجيري الخشن. وربمـا كان هذا المبنى للحـراسة أو مكتـباً للجـمارك. وجدرانه فـي الجوانب الأربعة كلها سليمـة، بيد أنني لم أستطع العثور على أي مدخل لهـذا المبنى إلا فتحة في جدار يحتمل أن يكون اللصوص المعاصـرون قد صنعوها. وكان السقف أسطوانياً قليلاً جداً، ولكنه مسطح من فوق وعليه طبقة منبسطة من التراب والحصى، ولا تزال المنشآت بها عـلامات القواطع التي توحي بشدة وجود نوع مـن الإنشاءات العليا التي

اختفت حاليا، ويحتمل أن تكون تلك المنشآت من الخشب أو أي مواد أخرى قابلة للعطب والفناء. ولذلك فمن المعقول -خاصة وأن عدم وجود أي باب يؤيد هذه الفكرة- القول بأن هذا المبنى ربما كان ضريحاً ضخماً، بيد أني لم أتوغل بداخله.

وفي الزاوية الشمالية من المدينة توجد بوابة أخرى يمتد منها شارع عريض في خط مستقيم حتى الشارع الرئيس في نقطة تقع إلى الجنوب قليلاً من ذينك المبنيين. وهكذا كان يوجد شارعان متوازيان يسيران من الشرق والغرب، وبينهما تتناثر أنقاض كثيرة تبرز منها بقايا جدران مبان هامة عديدة. وكان أحدها ذا بناء ضخم، لم يبق منه إلا ثلاثة أو أربعة مداميك، بينما يوجد مبنى آخر يعتلي رابية منخفضة وربما كان معبداً أو مبنى للإدارة. وبجانب هذه توجد منشآت متهدمة أخرى يمكن تتبعها بشكل غامض حتى المنطقة الواقعة إلى الشرق من الشارع الرئيس. وعلى الجانب الآخر حيث يتحدد خلال الوهد الطبقات الأرضية المالحة إلى أن يصل للمستوى الأسفل، فإن حالة التهدم في المدينة تعوق أي تحليل لها. وعلى مسافة بعيدة للغرب -على أي حال- وبجوار حائط بناء ضخم يقع على حافة قاع السيل، توجد بعض بقايا قواعد وجدران مشيرة للاهتمام. ولم يبق إلا ثلاثة مداميك من جدار النهر بينما -باستثناء الجزء الموجود في الزاوية الشمالية الغربية الذي ذكرناه من قبل بالفعل- الجدار الشمالي الغربي لا يمكن تتبعه إلا بركامه الطويل المغطى بالطمي.

والحقيقة نفسها تنطبق على الجدار الشرقي، الذي تمتد أجزاء قليلة منه دون غطاء.

هذه هي مدينة شبوة القديمة. وإلى أن تكشف معاول الحفر عن الكنوز المدفونة تحت الأنقاض المغطاة بالطمي فسوف تظل تفاصيل تاريخها وتخطيطها مجرد مسألة حدس وتخمين. وقد أصبح الآن شيءٌ ما على الأقل معلوماً عن المواد التي استخدمها المعماريون القدماء في بنائها، وكذلك علمنا شيئاً ما عن شخصيتها العامة وترتيب مبانيها الرئيسة. وعلمنا شيئاً ما عن تصميم معبدها الرئيس. ولكن كان من المحبط لنا

أن لا نعثر ولو على مبنى واحد غير متهدم، ولا نقش واحد في مكانه. وكل ما استطعت أن أحصل عليه أو أنسخه كان فقط حوالي سبعة عشر نقشاً، وكان العديد منها مكسراً بصورة شديدة. ولكن كان ذلك بالتأكيد كل ما يمكن رؤيته من دون حفر، وبالرغم من ذلك فإن هذه النقوش قادرة على إثارة قدر عظيم من الاهتمام. وأصبح هناك الآن شيء واحد مؤكد عندي لا يمكن الطعن فيه بأي حال. هذا الشيء هو وصف بليني لشبوة -إذا كان بالإمكان إطلاق ما أسماه «سابوتا Sabota» على تلك الأطلال-. هذا الوصف غير دقيق بكل ما في الكلمة من معنى، حيث يقول مشيراً بوضوح إلى السبئيين الذين ذكرناهم من قبل: إن «جزءاً من هذه الأمة من الحضرمي - الحضارمة»، وفي بيان بالقبائل سابق على هذه الملاحظة كان قد ذكر الحضارمة، الذين كانوا من الواضح الحضارمة من القبيلة نفسها، وقال: إن «عاصمتهم - شبوة - فيها ستين معبداً داخل أسوارها. وفي أحد النصوص الأخرى الذي يتعلق بتجارة البخور يقول: «في وسط تلك المنطقة نفسها تقريباً يوجد الحضارمة، وهم مجتمع من السبئيين، وعاصمة مملكتهم هي سبأ، وقد كان سترابو الذي كتب مذكراته في أوائل القرن الأول الميلادي، أشد حرصاً: وحيطة. فبعد أن وضع قائمة بثلاث من أصل أربع أمم توجد في جنوب غرب الجزيرة العربية، وهم المعينيون والسبئيون والقتبانيون - ذكر الرابعة وقال: «الحضرميون Chatramotitae» هم الأمة الرابعة من هذه الأمم تجاه الشرق. ومدينتهم هي سبأ. وجميع هذه المدن يحكمها ملك واحد، وهي مزدهرة. وتُزينها معابد جميلة وقصور. وبيوتها، بطريقة ثني الأخشاب معاً، تشبه تلك الموجودة في مصر». في هذه القائمة ارتبطت سبأ بماريبا "Mariaba" (وهي مأرب الحديثة) وقرناء Carna وتمنع Tamna (ولم يتم التعرف على أي منهما[1]).

---

(١) لقد تم الكشف عن كثير من هذه الآثار في البعثات الآثارية في السنوات التي أعقبت زيارة فيلبي. فعن هذه المواقع التي ذكر انظر: بافقيه، تاريخ اليمن القديم، ص٢٨-٣٥، ٩٥. (المراجعون).

علاوة على ذلك، كتب المؤلف المجهول لكتاب البحر الأرتيري الأحمر The Periplus of the Erythraean Sea) في القرن الأول الميلادي يقول: «إلى الداخل من هذا المكان (أي كانا Cana) التي يحتمل أن تكون «بئر علي الحالية على ساحل المحيط الهندي» تقع العاصمة سبأ التي يعيش فيها الملك. وجميع البخور المنتج في الدولة يتم إحضاره بالإبل إلى هذا المكان لتخزينه. . » ومن الغريب إلى حد ما أن بليني الذي بلا شك قد حصل على أعمال هذين الكاتبين الآخرين، قد تجاوز وصفهم الواعي لشبوة وارتكب خطأين جسيمين. فشبوة أبعد ما تكون عن وقوعها على جبل شاهق، بل إنها تمتد في صحراء منبسطة بين تلال جد منخفضة، وبالنسبة لعدد معابدها لا يمكن أن يكون هناك ستون منها على الإطلاق، ولا حتى ستة، داخل المساحة المحدودة المطوقة بأسوار المدينة. ولم يكن بها بالتأكيد إلا معبد بارز واحد ذو فخامة عظيمة، واثنان آخران عبارة عن أكوام للأنقاض داخل الأسوار ربما ثبت ذات يوم أنهما كانا معبدين. ولكن ثلاثة معابد تعد مسألة مختلفة جداً عن ستين، وحتى إذا استعرضنا الضاحية الموجودة على الجانب الشرقي للمدينة فليس من المحتمل على الإطلاق أن يوجد بها أكثر من اثنين أو ثلاثة كحد أقصى من أماكن العبادة. ومن المرجح أن يكون بليني أو سكرتيره قد ارتكب زلة قلم نادرة في كتابته ستين بدلاً من ستة، لأنه قبل ملاحظاته عن شبوة «سابوتا» بسطور قليلة كان قد ذكر مدينة تمنع "Tamna"، التي تعود للقتبانيين "Gebanitae" وقال: إن بها «خمسة وستين معبداً»، وهو رقم ينم بالكامل عن حجمه. ومن الواضح أن هذه الأرقام قد ذكرت عن عمد، وعلينا أن نفترض إما أن يكون بليني ساذجًا جداً وسريع التصديق لحكايات الرحالة، أو أنه كان ميالاً للمبالغة قليلاً.

وهناك، على أي حال، تفسير بديل محتمل آخر. فربما كنا نحن المخطئين في تسمية «سوبوتا» بشبوة وأنا فعلاً أميل إلى الاعتقاد بأننا كذلك. فكلمة شبوة يبدو أنها مشتقة من الكلمة العربية «شب Shabb» التي تعني الشب أو الملح، وتشير بوضوح

إلى مناجم الملح التي تعد المعلم الاقتصادي الرئيس في تلك المنطقة المحلية. وشبوة بهذه الصيغة لم تكن معروفة لنا حتى اليوم في أي من المراجع القديمة كاسم للمدينة، التي توجد أمامنا بالفعل ثلاث صور مختلفة لاسمها : سابوتا "Sabota" وساباتا "Sabata" وساباثا "Sabbatha"، في حين نجد في سفر التكوين الجزء ١٠-٧ ذكراً لسبأ Seba وشبأ "Sheba" بين سلالة كوش بن حام وعلاوة على (سابوتا) الخاصة بالحضارمة، يذكر بليني أيضاً مدينة «ساباثا» على البحر الأحمر كمدينة للسبئيين. و سبأ هي الصيغة العربية «لشبا Sheba» بينما نجد أن الحزام الرملي العظيم الممتد من الحافة الداخلية لمرتفعات اليمن حتى بوابة حضرموت لا يزال يعرف حتى اليوم باسم «رملة السبعتين Ramla Sabatainå» (أي السبأين Two Shebas»، وهو اسم قد يظهر في اللغة العربية الفصحى برسم «السبعتين» أو مجرد سبعة. ومن الصعوبة بمكان أن نعتقد أن هذه الرمال التي تغطي اليوم مجاري الأودية السبئية العظيمة - كما سوف أوضح في فصل لاحق - لاتخفي أي آثار من مملكة سبأ أو حمير. ولذلك أميل إلى الاعتقاد بأن بليني لم يكن يشير إلى مدينة شبوة بمفردها، ولكن كان يشير إلى كامل منطقة السبئيين التي ربما كانت حقاً تتفاخر بوجود ستين معبداً بها في أيام أوج ازدهارها القديم. وإذا كان الأمر كذلك فمن المحتمل أن يكون لدينا من الأسباب ما يبرر لنا توزيع معابد تمنع الخمسة والستين أيضاً على أمة «الحضرميين» كلها والتي كانت تشغل عدداً ضخماً من المدن. وبهذه الطريقة فقط يمكننا أن نحسن سمعة بليني كمؤرخ، وبشكل عام من المعقول أن نعطيه الفائدة من الشك عند إمكانية تفسير الحقائق القائمة لصالحه بدون أي إجهاد غير لازم.

إن كثرة الأسماء القديمة التي تشبه شبوة بصورة عجيبة يبدو أنها تمنع إمكانية ربط أي واحدة منها بالقرية الحديثة التي ظهر اسمها المعاصر -في حدود علمي- لأول مرة في أعمال وكتب الجغرافيين العرب بعد الإسلام. ويوجد -على أي حال- في النقوش التي نسختها أثناء هذه الرحلة فقرة ينطبق فيها اسم «شبوة» على المدينة

القديمة. وفي فقرة أخرى يبدو أنه يشير إلى الرسم «عليم Alim» (ربما كان إيلام Elam). وأول فقرة من هاتين الفقرتين يبدو أن تاريخها يعود إلى الجزء الأكبر من عهدنا نحن، وربما يكون بليني حقاً، بعد كل شيء، قد علم اسم شبوة على أنه اسم معاصر للعاصمة الحميرية وأطلقه بصورة غامضة على المملكة الحميرية بكاملها في ذلك الوقت.

وعندما كنت أجلس بين بقايا المعابد في ذلك اليوم الأول وسط هذا الحشد العظيم من الناس الذي ظل يرافقني كظلي أثناء رحلة البحث والتفتيش، كانت الشمس الحارة قاسية علينا خاصة وأن السماء كانت خالية من الغيوم. وقد لاحظت -ببطء ولكن بالتأكيد- الحركة الوئيدة في البداية، فقد أدى الحر الشديد إلى تخلي كثير من الناس عن فضولهم العجيب، وبدأ الزحام يذوب شيئاً فشيئاً. وحتى أزيد من غمهم لم أُبْد أي قدر من الشغف المحموم المتوقع من عرَّاف الكنوز. وقد كنت راضيًا تماماً بالجلوس هناك في مكان بعيد أتأمل ذلك المشهد العجيب لمجدٍ قد رحل. وهكذا عندما نهضت من مكاني لمواصلة سيري على طول المعابد كانت الشمس قد رحمتني وخفضت المرافقين لي إلى أعداد بسيطة يمكن التعامل معها. وقد ظل الشيخ صالح، وهو يتصبب عرقاً تحت عباءته الثقيلة نسبياً، متشبثاً بي وعلى مقربة مني كما لو كان ذلك واجباً عليه. أما منافسه فقد آثر الهرب إلى الظل في بيته. كما ظل سعيد ملازماً لي انطلاقاً من شعور خاص بالأهمية والمسؤولية عني كمن يقدمني للناس والمجتمع. وفي الوقت نفسه كان حراسي الشخصيون النجديون - وكل رجل منهم مدجج بسلاح كامل ويحمل الجراب الذي يحوي أجهزتي المختلفة، ناهيك عن الحمل الذي كان يزيد باستمرار من بقايا الآثار - مضطرين إلى مرافقتي أينما اتجهت وحيثما حللت. وكانت بقية الجماعة تتكون من أطفال القرية الفقراء الذين لم يصبهم التعب، على عادة الأطفال، من التفتيش بين الأنقاض بجوار التل وإحضار ما يجدونه لي يحدوهم أمل لا يُهزم في الحصول على مكافآت خرافية.

واتجهنا نحو الغرب على طول الطريق المرتفع، ونحن نرى بقايا المباني أثناء مرورنا ، إلى أن توقفنا مرةً أخرى في الختام عند قلعة الماء «حصن الماء» على قمة ناتئة مرتفعة قرب نهاية السلسلة. وكان المبنى - من الطين وكسر الحجارة - حديثًا نسبياً، ولكنه يطل على المنطقة حوله من ثلاثة جوانب، كما يشرف أيضاً على البئرين الموجودتين بالوادي في أسفله مباشرة، وقد كنا نتجه إليه الآن، ونحن ننزل بصعوبة على المنحدر الذي تتناثر عليه أكوام الحجارة المفككة وأنقاض الآثار، إلى أن وصلنا إلى قاع وادي «معشار» حيث ينثني بحدة إلى الشمال حول جرف عال أخير في سلسلة المعبد. وقد لاحظت الآن أنه توجد سلسلة مشابهة تمتد شرقاً وغرباً على الضفة اليسرى للقناة وتسمى «كوير»، وكانت في الحقيقة استمراراً للسلسلة الأولى، وكان عبور الوادي يتم خلال ثغرة واسعة في وسطها. وقد أظهرت الجُرُف العالية على كلا الجانبين حواف مسننة من طبقات الحجر الجيري العارية، ومطوية بحدة شديدة، ومهشمة كما لو كان قد تم بفعل بعض الاضطرابات العنيفة تحت الأرض ويحتمل أن يكون ذلك ناتجًا عن ارتفاع قباب الملح عن قشرة الأرض، في شبوة خلال أحد العصور الجيولوجية البعيدة.

وعلى كل حال فإن الحقيقة المثيرة للاهتمام هي وجود سلسلة كاملة من مناجم الفحم، تمتد تقريباً من الغرب إلى الشرق، ولمسافة تبدأ من قرب بيحان ومأرب إلى ما وراء شبوة. وقد فحصت أربعة من أصل ستة منها بالتفصيل. ورأيت واحداً من الأخريات من على البعد. وكل واحد منها يقع في «جزيرة» معزولة من التلال المنخفضة، تشبه تلك الموجودة بشبوة، على مسافة قصيرة تجاه الشمال من جرف الهضبة، التي تتكون طبقاتها من الحجر الجيري من عصر الإيوسين وتغطي قاعدة من الحجر الرملي، ويبدو أن التلال لم تتأثر أبداً بأي حركة أرضية ربما تكون قد وقعت على طول واجهتها. وتوجد سلسلة موحية من الأقماع البركانية على مسافة ما إلى الجنوب من شبوة -كما سترى في الوقت المناسب- والاستنتاج المحتمل هو أن

الصحراء المنبسطة والممتدة من سفح الجرف نحو الشمال قد شهدت اضطرابات أرضية عنيفـة في فترة ما قـبل ارتفاع صفينة الإيوسين التي تـشكل الجزء الرئيس من سلسلة الجبال المرتفعة، وبمثابة السور الجنوبي الواقي لشبه الجزيرة العربية. وفي جميع «جزر» الملح التي فحصـتها هناك كان يوجد نفس التـواء الطبقات الأرضية المميـز الذي رأيته الآن لأول مرة في سلاسل جـبال شبوة. والمظهر الذي لا يـقل وضوحاً عن ذلك في هذه التشكيلات هو أن قبـاب الملح مكسوة بصخور مشبعة بمادة من القـار (البيتومين) التي أدى ارتفاع قـباب الملح إلى دفعهـا إلى السطح من الأعماق الحاملة للبـترول في باطن الأرض. وكان هذا اكتشافاً ذا شأن عظيم، وقد تم حديثاً إرسال بعثة من شركة بترول شهيرة لتتقصى الإمكانيات الاقتصادية للمنطقة بكاملها، على الرغم من أنها لم تتمكن من اختراق منطقة شبوة - مرخة نتيجة لاعتراض السكان المحليين.

إن هاتين البئـرين -اللتين تمثلان المصـدر الوحيد للمـياه في القرية- تقـعان في مجرى «مـعشار» تحت مرتفع المعـبد. والبئر الكبـرى منهما، وتُسمى ديبـان توجد في وسط القناة (المجـرى) على بعد حوالي ١٠٠ يـاردة من سفح سلسلة الجـبل. وكانت هناك مجـموعات كـثيرة من الأغنام والإبل، تنتـظر دورها بفارغ الصبـر عند الآنية أو القنوات، وهي تقف أو ترقـد حول البئـر عندما وصلنا إليه. وقـد كانت فوهة البـئر محاطة بشريط عريض من الطين الأسود الرقيق ذي الرائحة النتنة، وكانت مرتفعة قليلاً عن سطح الوادي، الذي ينحدر إليه مزلقان مائل في جميع الاتجاهات. وكان قطر البئر خمسة عشر قدماً، وعمق البئر حوالي خمس قامات حتى الماء، وكان الماء وفيراً إلا أنه مالح قليلاً، ويستخدم فقط لسقيا الحيوانات. والجدار الداخلي للبئر مبطن بكتل صغيرة غير مـشذبة من الحجارة. وكان عـدد من الرجال والنساء منهمكين في اسـتخراج الماء لقطعانهم في دلاء جلدية مستديرة مـربوطة بحبال، ولم يكن هناك أي منشآت عليا أو بكرات لتساعـدهم على سحب الماء، وكانت النساء كاشـفات وجوههن ، ومن بينهن بعض الفتـيات والشابات الجمـيـلات، واللاتـي جذبـت مفـاتنهن الكـاملـة ناصـرًا،

أحد حراسي الشخصيين النجديين. وهكذا تلكأنا هناك بينما جلس هو يرمق بعينيه ملكة الجمال المحلي، التي كانت فتاة جدّ جميلة ذات قوام رشيق، والتي نالت إعجاب جميع من بصحبتنا بطريقة غير واضحة. وقد تطوع أحد الرجال وأخبرنا أنه عرض عليها بالفعل ما لا يقل عن ٤٠٠ ريال لطلب يدها، ولكنها رفضت !! وقد احمرّت وجنتا الفتاة خجلاً منا وانهالت رفيقاتها في الضحك بسرور وصوت مسموع. وقلت للجماعة، إننا لو لم نكن رحالة مسافرين، لربما جنحنا إلى زيادة المبلغ المعروض لطلب يدها، وهكذا واصلنا السير إلى البئر التالية. ولكن في الغد تطوع ناصر للعناية بملء القرب بالماء.

وتقع البئر الأخرى، وتسمى الحسوة مباشرة تحت الجرف أسفل الحصن. وماؤها عذب ومخصص للاستهلاك الآدمي، ولكنه شحيح نسبياً. وتتناثر حول فوهة البئر حوالي عشرين أو أكثر من قِرَب الماء، بعضها مملوء بالفعل والبعض الآخر ينتظر دوره. وكان إمداد الماء لا يكاد يفي بالطلب، وفي قاع البئر بعمق أربع قامات وجدنا رجلاً وأربع نسوة منهمكين في غرف الماء في أوانٍ فخارية لمجرد ظهوره من طبقات الرمل الضحلة في الأسفل، بينما وقف آخرون على حافة البئر جاهزون لسحب الآنية إلى أعلى وتفريغها في القِرَب الجلدية. وكانت هذه البئر مبطنة بكتل من الحجارة الخشنة الكبيرة نسبياً عما هو موجود في البئر الأخرى. ويتم حمل القرب المليئة بالمياه إلى القرية على ظهور الحمير، وكان عدد من تلك الحمير يستمتع بتناول شربة من الماء من جرة رخامية كبيرة مكسورة، وهي بالتأكيد من بقايا العصر الحميري. وتقع هاتين البئرين في حوض الوادي على طول الجرف من بقعة النخيل الصغيرة في الزاوية بين المدينة القديمة وضاحية «هَجْر» تعود إلى عشيرة آل قطيان وهم أيضا مُلاك مناجم الملح. وقد عدنا لمقر إقامتنا على طول السور الغربي للمدينة القديمة، والذي لا يزال بالإمكان رؤية أجزاء كثيرة من بنائه الهائل.

وكان أفضل جزء باق من أسوار المدينة وجدناه في الركن الشمالي الغربي قريباً

من ضريح ابن يوسف، قد كان عبارة عن مبنى بسيط من الطين، مربع، مطلي باللون الأبيض، وبه نقاط في أعلاه في كل زاوية، وبعضها مزخرف بقرون التيوس الجبلية، جرياً على العادات المحلية، ومن وسط السقف ترتفع قبة طويلة، تشبه إلى حد ما طفاية الشموع، مع قرن تيس في أعلاها. وترتفع حوالي اثنتي عشرة طبقة من البناء الأصلي إلى علو مقداره عشرة أقدام في هذه الزاوية، التي يحتمل أنها كانت المنطقة المحصنة. وقد اختفى الجزء العلوي، ولكنه استبدل ببناء طيني من طابقين، وفي فناء هذا البناء قدم لنا القهوة بعض رجال المعوان. وقد وُجهت لي أسئلة عن عمد تقريباً للاستفسار عن نوايا ابن سعود، ولكني استطعت أن أؤكد لهم أنه لم يخطر على بال صاحب الجلالة أن يشتهي ضم شبوة، ولا حتى بسبب ما بها من ملح، الذي يوجد منه ما يكفي ويفيض في نجد وأجزاء أخرى من مملكته. وأخبرتهم كيف أن ابن سعود قد أخضع جزءاً عظيماً من اليمن في حرب عام ١٩٣٤م، ولكنه كان أكثر سعادة عندما تخلى عن الأراضي التي استولى عليها عن طريق القوة. وأردفت قائلاً: إنه ليس لديه أي طموح في توسيع نطاق مسؤولياته الكبيرة أصلاً، ولكنه كان من الطبيعي أن يرغب في رؤية السلام والهدوء يسودان الأراضي الممتدة على طول حدوده مثلما يعم الهدوء والأمن فعلاً داخل أقاليمه. وإذا عدنا للوراء لسنوات قليلة كنا نجد نجران مسرحاً للفوضى والاضطراب بينما تعد اليوم نموذجاً مثالياً للسلام والأمن، مما حاز بالكامل على رضا ساكنيها الذين كانوا ذات يوم يقاسون عدم الاستقرار.

والآن كنا نشق طريقنا خلال حقل الآثار، ونزور المباني المختلفة التي ما زالت تحتفظ بجزء ما من صورتها الأصلية، وندور في دائرة مع الأسوار الشمالية والشرقية. وكانت الساعة تقترب من الرابعة بعد العصر عندما وصلنا إلى المخيم، سعداء بما فيه الكفاية بالراحة بعد يوم طويل شاق تحت الشمس. وفي ذلك الوقت رأينا سحابة قاتمة من الرمل كانت قد بدأت تتجمع من الجنوب. وفي غضون دقائق قليلة انفجر

الإعصار فوقنا مسبوقاً بعاصفة ريح باردة. واختفى العالم فجأة في ظلام دامس وطوقتنا سحابة الرمل. وكانت الخيمة الكبرى لرفاقي قد اقتلعتها الريح وسقطت على الأرض. وكانت مظلتي المصنوعة من قماش القنب مربوطة بالسيارة في أحد الجوانب ومربوطة بالأوتاد على الجانب الآخر، وقد أخذت تصفق وترتعد وتحاول الانفكاك جاهدة، ولكن دون طائل. واكتسح الرمل فوق كل شيء وداخله. ولم يكن بوسعنا فعل أي شيء إلا أن نجلس مكتوفي الأيدي وننتظر انقشاع الكرب. وظلت العواصف تهب علينا عاصفة بعد عاصفة على فترات زمنية فاصلة مدة ساعتين، وفجأة مرت العاصفة وهدأ كل شيء مرة أخرى، ولكن ذلك كان مع غروب الشمس. ثم عادت العاصفة علينا من الشمال، وكانت الساعات الأولى من الليل كريهة بغيضة بسبب عواصف الرمل ودفعها العالي المتواصل ، بل إنها هي أرض «الشيطان» ذاتها. وعلى كل حال كان هذا هو اليوم الثالث فقط من مثل هذا البلاء، وما زال في الجعبة أيام أخرى لنا.

وطوال ما بعد الظهر كنت معرضاً لهجوم متواصل من متعهدي الآثار، الذين كان معظمهم فتيان صغار من القرية. وقد أحضر أحدهم لوحاً جميلاً جداً من الحجر الجيري -الذي كان دون شك جزءاً أصلياً من إفريز المعبد- به تصوير مجسم تجسيماً خفيفاً لشيخ في ملابس قديمة. وقد تركته لبرهة من الوقت بجواري ، حيث رآه رجل عجوز جد معتوه وذو أفكار غريبة، أو ربما كان قد أتى ليلقي نظرة على شخصي. وكان اكتشاف اللوح قد أدى إلى إصابته بنوبة من شدة الغضب على نحو غير لائق، وبدأ يوبخني بطريقة مشوشة لسرقة الكنوز التي لا تقدر بثمن من المكان. وأمرته أن يغرب عن وجهي إن لم يستطع أن يكون مهذباً، وجاء سعيد، الذي تصادف ظهوره وسط هذا المشهد، ليقوده بعيداً إلى القرية، وهو يرغي ويزبد من هيجان الغضب. وقد قمت بلف هذا الحجر المثير للأذى في ورقة وأخفيته بعيداً في أحد صناديقي

لتفادي مزيد من المشاكل، لأنني شعرت، مقتنعاً أنه يجب أن يكون مسروقاً من أحد الأضرحة. وعاد الرجل العجوز مرة أخرى في اليوم التالي، ولكني لصقت ريالاً في راحة يده، وانصرف بهدوء بأقصى ما يستطيع خشية أن أسترده منه ثانية.

وكان المكان يبدو مليئاً بالثعابين. وقد تم إحضار اثنين منها ذلك المساء لي، وفي الليل جاء «الشعبان الأقرن» من تحت السيارة، وهو يتلوى تحت سرير فراشي. وقد كنت على وشك شل حركته وجعله غير قادر على الحركة بضربة من عصاتي الخيزران وأضعه في زجاج الأرواح عندما حاول أن يلوذ بالاختفاء تحت أحد صناديقي. وكان اثنان آخران من هذه الوحوش السامة وثلاثة ثعابين أخرى قد أضيفت إلى مجموعتي خلال الأيام التالية، نظراً لأن الأفاعي السامة كانت تنجذب إلى لمبتي المضيئة. ولم تكن الطيور هنا كثيرة، كما لم تكن مثيرة لأي اهتمام خاص، باستثناء طائر الأبلق النادر (واسمه العلمي هو Oenanthe Monacha)، والذي لم يكن نادراً في هذه المنطقة الجنوبية.

وجاء صباح هادئ جميل بعد الليلة العاصفة، وقضيت اليوم كله، مرة أخرى، بين الآثار لا يزعجني أي من أولئك الأتباع غير المرغوبين. وقبل أن أبدأ تجوالي - على كل حال، زارني في المخيم «علي بن عفيشة» الذي جاء على جناح السرعة من «عرما» بعد أن سمع نبأ وصولنا. وعلى الرغم أنه كان طاعناً في السن وعاجزاً وهزيلاً إلا أنه مليء بالود ومحبة الآخرين، ولكن كلامه كان متقطعاً قليلاً، ويتكون في معظمه من الإشارات. وهذا العيب يشاركه فيه معظم رفاقه، إذ يبدو أنهم يستخدمون أيديهم كثيراً لتوفير حركة التنفس، ولذلك أحياناً يكون من الصعب فهم حديثهم، ولكني سرعان ما اعتدت على ذلك، وأصبحت قادراً على تقليد إشاراتهم الغريبة بطريقة مضحكة مما آثار سخريتهم.

وفي الليلة التي وصلنا فيها كان أحد الرجال الذين تجمعوا حولي قد أشار إلى القرية وتفوه بكلمة واحدة قائلاً: "اللحم"!! بهذه الكلمة وبسحب يده عبر حنجرته استطعت أن أفهم أن الغنم سيتم جمعها في تلك القرية وذبحها لعشائنا وفعلاً جاءت الذبائح في الوقت المناسب. وقد سألت أثناء مجرى الحديث : «كم تبعد المسافة من هنا حتى حضرموت؟»، رفع شخص منهم يده وأربعة من أصابعه منتصبة إلى أعلى والأصبع الصغير منثن للداخل. وهذا يعني أربعة أيام ونصف -كما فهمت بالطبع-. ووضع شخص آخر كلتا يديه على بعض مع ضغط أصبع واحد وثني آخر، وهذا يعني ١٠ محسوماً منها ٥ر١ أي ٥ر٨ أيام للذهاب والعودة وسألت عندما كنا نناقش احتياجاتنا: «كم من الآبار توجد لديكم هنا؟»، ويبرز إصبعان لأعلى فوراً بدون كلمة واحدة، وهكذا إلى ما لا نهاية . ويبدو أن جنوب الجزيرة العربية كله مدمن لهذه الطريقة في الحديث، ولكني وجدت أنها ملحوظة بقدر أكبر في شبوة، وفي بعض الأحيان تكون متفاقمة كثيراً ومثيرة للغضب. وكان هناك زائر آخر هذا الصباح هو «سالم بن حمد» رئيس فخذ آل مسفر من قبيلة الكرب ومنطقته هي خبت الخالي بين شبوة ووادي دهر. وسوف انتهز مناسبة فيما بعد لأقول مزيداً من التفاصيل عن ذلك الرجل.

وفي اليوم الثاني بدأت بحثي على طول مرتفع هَجْر وبين هذه الآثار العادية نسبياً تصورت مخيلتي منازل الأغنياء جاثمة على حافة جرف معشار وحدائقها تنحدر في مصاطب على مستوى وادي المحباض. وكان البناء المتناثر على السطح مشذباً بطريقة جيّدة عموماً، وكان هناك بعض بقايا من أساسات البيوت ما زالت في مواقعها، بالإضافة إلى آثار ما كان يحتمل أنه معبد صغير فوق رابية. ونزولاً إلى وادي معشار فقد التزمت خط الجرف الطيني حتى الثنية، حيث يوجد هناك قليل من أشجار النخيل والعُناب تمثل البقعة الخضراء الوحيدة في «الجزيرة». وفي هذه النقطة تشكّلت طبقة ضخمة من الطمي عبر العصور قُبالة الطبقات الأرضية المدمرة في سلسلة جبل القلعة، ويبدو أن سور المدينة القديمة كان يمتد من المضيق الذي يفصل بين

المثناه والهجر حتى برج القلعة. ولا يزال بالإمكان رؤية بعض آثار السور، والكثير من أساسات البيوت، ولا شيء خلاف ذلك. والطريق من مدن العوالق في «الأنصاب» ويشبم ينحدر إلى الوادي ويصعد إلى داخل منطقة المدينة متجاوزاً النخيل حتى يصل إلى المضيق.

وتقدمنا الآن في سيرنا باتجاه مجرى الوادي وتجاوزنا الآبار وعبرنا إلى الضفة اليسرى عند الثنية. وعندما تجاوزنا طرف سلسلة الكوير، التي ذكرناها من قبل، دخلنا وادي سهلة الواسع الضحل، وعبرناه على طول ظهر سد طويل منخفض من الحصى والتراب، الذي يسد مجراه بالكامل ويقوم بحجز مياه السيول الموسمية. والمنطقة فوقه مقسمة بحواجز منخفضة إلى أحواض تزرع فيها عشيرة آل عويرة الدخن والشعير. ولا يظهر على السد والحواجز الفرعية أي أثر من البناء القديم، على الرغم أنه ليس من غير المرجح أن تاريخه يعود إلى العصور القديمة. والحقول هنا تشتهر باسم «جربة الكوير»، التي في وسطها، أو الأخرى على أرض مرتفعة في الجانب البعيد من الوادي، أقام «صالح بن حزيق» مخيماً له من خيام سوداء في أيكة صغيرة من شجيرات السنط. وقد دعانا لتناول الغذاء معه، وقضينا أمسية جميلة رائعة في وسط قبيلته وعائلته. وكان صالح، بوجهه المليح ولحيته السوداء الخفيفة، يبدو ملائماً تماماً لمنصب شيخ قبيلة عظيم، وقد قام بأداء شرف الضيافة بسهولة جمة، وكان «محمد بن قطيان» موجوداً أيضاً في الخيمة عندما وصلنا، وكان مخلوقاً وضيع الهيئة مملوءاً بالمكر والبخل. وبالإضافة لهذين الشخصين كان هناك حوالي ستة من الأعضاء الآخرين في العائلة، الذين ملؤوا - مع جماعتي المكوّنة من ثمانية أفراد - خيمة الضيوف ذات الحجم المتوسط تماماً. ومع السجاد المفروش والوسائد وسروج الإبل كنا ننعم بقدر كاف من الراحة ونحن جلوس هناك نحتسي القهوة بأشكالها المختلفة، فأولاً القهوة الحقيقية المصنوعة من الحبوب اليابسة بالطريقة النجدية، ثم "القشر"، المصنوع من قشور حبوب القهوة الخارجية فقط، مثلما تشربه المجتمعات الفقيرة في اليمن وعسير،

وأخيـراً الشراب الحضـرمي المعتاد الذي يسـمى "قفل" أو جفل ويصنع من الحـبوب اليابسة والقشور الخارجية المسحوقـة معاً والمحمصة بالطريقة المعتادة. ومن الصعب في حضرمـوت أن تشتري الحبوب الـتي نُزعت قشورها، ولكن «القفل» كـان شراباً رائعاً على الرغم من أنه خفيف.

ومن مكاني في الخيمة كنت أستطيع أن أرى تحضيرات وجبة الغداء في منتصف النهار وهي تُنفذ تحت مظلة مطبخ صغيرة. وكـانت أم صالح العجوز، تساعدها امرأة شابة جميلة الطلعة التي يحتمل أن تكون إحـدى زوجتيه من القبيلة، وهي التي تقوم بجميع أعـمال الطبخ بنفسهـا، ويبدو أنه كان لديها عـدد ضخم من الأواني والقدور لتعتني به، ناهيك عن قيامها بتحضـير فطائر الخبز المفرود -بسُمك بوصة واحدة وقطر ست بوصات- في رماد نار المطبخ وهـذه الفطائر، بعد نضجها، يتم تكسـيرها ويعاد عجنها بالسمن حتى تصبح كتلة ضخمـة من الثريد، وتقدم للأكل في سلطانية خشبية كبـيرة شبـه مليئة بالمرق من مـواعين اللحم. وجلسنا في دائرة حول الـسلطانيات في مجموعتين أو ثلاثة والتـهمنا محتوياتها، ولكن خبرتي السـابقة في نجران علمتني أن آكل ببطء في البداية إلى أن تنتهي الـطبقة الأولى غير الشهـية لكي أترك مكاناً لقدوم اللحم. هذا اللحم تم إحضـاره إلينا على صينيـة كبيرة من أغـصان الشجـر المجدولة (مثل السلال) بعد تراجعنا للخلف من الثريد، ونحن ننهال بالشكر على مضيفنا لهذه الوجبة الممتازة كما لو كنا لا نتـوقع المزيد. ثم قال مضيفنا: إنه من المفترض أن يكون الجوع قد عضنا بنابه، ثم دعانـا، ونحن نحتج بأننا لا نستطيع تناول أي أكل إضافي، بابتسامة ساحرة لنتقدم مرة أخرى إلى صينيه اللحم التي وضعت أمامنا على الأرض. وفي العـادة لا يجلسون في دائرة حـول اللحم، ولكن نظراً لأن هذه كـانت مناسبـة خاصة وكنا جميـعا ضيوفاً عليه فقد طلب منا أن نلتف حـول الصينية، ونُقدر الطبخ الممـتاز حق قـدره. ولم يبق إلا أقل القليل من لحم الذبيـحتين الاثنتين اللذيذ عنـدما امتلأت بطوننا، ثم أخذ صالحٌ الصينية على حـجره واختار بعناية الأجزاء المناسبة من

اللحم ووزعـها حـسب ترتيب الأسبـقيـة على أولئك الذين لم يشاركـونا الوليـمة. ولاحظت أنه انتـقى أحد العظام التي تحـمل كثـيراً من اللحم عـليها لـولده الصغـير القـوي، حـمـد، الذي كان صـائداً نشـطاً للآثار خـلال هذه الأيام. وظل المتلقـون الآخرون لكرم صالح في أماكنهم وهم يلتهمون ما يأتي من نصيبهم من قطع اللحم. وبقي شيء قليل، بل قليل جداً، بعـدما أخذ كل شخص نـصيبه، وكنت سـعيداً أن أرى هذا القليل الباقي يُرسل إلى المطبخ، حـيث تجمع عدد من النساء الآن ليـساعدن الأم والزوجـة في التخلص من الـنفايات. ولم يكن ممكـناً لكلاب المخيم أن تصـبح سمينة من مثل ما تبقى لها.

وبعد الطعام اقترحت أن نأخذ قسطاً من النوم إن استطاعوا أن يوفروا لي خيمة لي بمفردي. وقد تم توصـيلي إلى خيمة صغـيرة قريبة ، خرج مـنها ساكنوها، وهم امرأة وأطفالهـا الاثنين الصغار وقليل من الماعز. وقد تركـوني وشأني ونمت بعمق لما يزيد عن ساعة، واستيقظت على أصوات قريبة، ووجدت أن المرأة وأطفالها قد عادوا لبيتهـم. ونهضت لأتوضأ وأؤدي صلاتي الظهر والعصـر -جمعاً وقصراً حـسبما هو مرخص به للمـسافر-، وصليـت بمفردي، وعدت للخـيمة بعـد ذلك. وكانت المرأة ترضع طفلها الأصغـر، واستمرت في إرضاعه دونما أي حـرج عندما جلست أتحدث إليهـا. ونظراً لأن سعدًا يعلم عـاداتي التي اعتدت عليـها فقـد أحضر لي كـأساً من الشاي، وأرسلـته في طلب كأس آخـر وبعض السكر لكي نجـعل هذه المناسبـة حفلة شاي. وجاءت والدة المرأة من خيمـة أخرى وانضمت إلينا، وتناوبن شرب الشاي من كـأس واحدة بالدور، ولم تكن هاتان المـرأتان، ولا أي من النساء الأخـريات اللائي رأيتهن في المخيم، تغطي وجهها، وكن يتحدثن بحرية دونما أي خجل. ولكن محمداً طلب مني الآن أن أقدم هدية بصـورة ضرورية لابنه. وقد كنت في السابق، كـما قد يُستشف مما ذكرته سابقاً، لا أرتاح إليـه بشدة، ولذلك قلت له الآن إنني لست معتاداً

على أن أجبر على الصدقة. ونظر إليَّ بغيظ شديد، ونهضت لأنضم إلى صالح، ونزور معاً خيمة الرئيس الشرفي. وكانت ابنته، وهي زوجة صالح الشابة رائعة الجمال، هناك في استقبالنا وإرشادنا إلى مكان وجود الرجل المسن. لقد كان «حمد ابن ناصر بن قطيان» حقيقة رجلاً طاعناً جداً في السن ربما يقترب من التسعين، وكان أعمى من الناحية العملية وعاجزاً جداً بسبب الشيخوخة، ولا يقوى على التحرك من فراشه الذي يجلس فيه إذ لا حول له ولا قوة، وتسنده الوسائد من كل اتجاه. وعلى أي حال لم يكن الرجل قد نسي الجشع الذي كان قد ورّثه لابنه محمداً وقبل مني ريالاً عبارة عن هدية حيث انفرجت أساريره بكل علامات الرضا. وكان حديثه غير متناسق قليلاً، ولكنه اعترف بأنه يتذكر الأيام التي كان فيها فيصل بن سعود[1] حاكماً على الصحراء الجنوبية. وتحدثنا أيضاً عن الاتصالات القديمة نسبياً التي أجراها أهل شبوة مع سلطات عدن. وقد كانوا فخورين بابتعادهم عن كل ما يورطهم في ذلك الاتجاه، وحافظوا على شعار «فقراء بدون مهر» على الرغم من تملق ومداهنة أحد الأشخاص الذي كانوا يسمونه «الكرنين»، وربما كان هو الكولونيل ليك في عدن. وتمت الإشارة أيضاً إلى نجم أقل سطوعاً في سماء عدن يعرف لديهم باسم «الكابتن» وكان يزور بيحان أحياناً. وقد ذكروا «كرنين» آخر يقصد به بالتأكيد الكولونيل بوسكاون وكان محبوباً بقدر كبير في دوائر حضرموت، على الرغم من أنه كان - للأسف- شديد الخجل لدرجة تمنعه من التحدث أو الكتابة عن تجاربه في جنوب الجزيرة العربية.

وكنت قد استطعت أن أتعرف عليه من خلال تقرير يفيد أنه في أحد المناسبات ذهب في رحلة صيد للبقر الوحشي مع جماعة من قبيلة الصيعر إلى الحافة الجنوبية

(١) المقصود هو الإمام فيصل بن تركي بن عبدالله الذي سبقت الإشارة إلى أن نفوذ الدولة السعودية الثانية امتد إلى تلك المناطق في عهده. (المراجعون).

للربع الخالي. وقالوا لي أيضاً: إنه حاول الوصول إلى شبوة، ولكن صدر إليه تحذير بالابتعاد عنها مع تهديد بالمحاصرة المسلحة. وأخيراً تحدثوا بفخر يمكن غفرانه عن تجربتهم مع طائرة بريطانية كانت، وهي تمر فوق منطقتهم في طريقها إلى حضرموت، قد أسقطت رسالة ولفة تحتوي على شريطين طويلين من القماش الأبيض. وكانت الرسالة تقول لهم: إن من بهذه الطائرة سوف يعودون في يوم معين لزيارة شبوة. وإذا كانت هذه الزيارة مقبولة فقد كان المطلوب من سكان القرية أن ينشروا الشريطين الأبيضين في شكل صليب على أرض مهبط ملائم. وكان القماش هدية، حيث تم في الحال تقطيعه إلى أجزاء مناسبة لتكون ملابس جديدة لمن تلقاها. وما حدث بالفعل لم يزد على أن قام سكان شبوة بتسليح الرجال والوقوف على قمم التلال للترحيب بالطائرة ترحيباً حاراً إن هي تجرأت على الهبوط. ولسبب ما لم تعد الطائرة أبداً. وتحدثوا أيضاً عن محاولة أخرى لزيارة شبوة، ولكن قصتهم كانت شديدة الغموض واستعصى عليّ فهمها. وعلى كل حال أعتقد أنني قد توصلت فيما بعد إلى الحل الصحيح للغز، والذي سوف أشير إليه في الوقت المناسب.

وعندما استأذنت من الشيخ الجليل لم أنس أن أضع ريالاً في يد ابنته الجميلة. ثم سرت إلى المطبخ لمكافأة الطباخين، بالطريقة نفسها، على ما قدموه لنا بصورة طيبة. وكان صالح ومحمد وقلة من الآخرين، منهم الصبي حمد - الذي كان من الواضح أنه التفاحة في عين أبيه - قد رافقوني في المشي للنزهة على درب واسع كان ذات يوم مسرحاً للري الكثير أيام مجد شبوة. ويفصل شريط ضيق من الأرض المرتفعة، القناة ذات السدود في وادي سهلة عن قناة الخانق المليئة بالشجيرات والأكثر وعورة نسبياً، ويرتفع الشريط ويسير على طول المنحدر، الذي ينتهي في مرتفعات خشم غالب التي يصل ارتفاعها إلى حوالي ١٠٠٠ قدم فوق مستوى السهل. وبينما ينبسط السهل إلى ما وراء الأراضي الرأسية تجاه الصحراء فإن الواديين يتوزعان في قنوات يصعب تمييزها.

هذا الشريط من الأرض يُعرف باسم العقم أو جفر العقم، ومن الواضح أنه كان في العصور القديمة يشكل الجزء الأكثر أهمية من منطقة الري الواسعة الممتدة بين الجرف الشرقي والغربي. وصادفنا في البداية مجموعة من أربع منشآت كانت تشكل بوضوح رأس القناة، ويوجد عندها القناة الرئيسة وثلاثة فروع تتجه في اتجاهات مختلفة عنها. وكانت جوانب هذه القنوات الفرعية فيها فتحات لتمسك بوابات التحكم بالمياه التي كانت تُرفع أو تُنزل -بطريقة يدوية على ما يبدو بوضوح- حسب الحاجة للمياه في إحدى القنوات. ولم تمتد آثار تلك القنوات لمسافة بعيدة، ولكن القناة المركزية يمكن تتبعها لمسافة طويلة حيث تمتد تقريباً من الشمال للغرب. وعلى طول مجراها توجد بقايا من قطع بناء فيها فتحات لبوابات التحكم بالمياه مثل القنوات الأخرى، وأتينا فترة من الزمن على آثار كثيرة من البيوت الطينية ومبان أخرى متفرقة. وكنا هنا في سهل واسع يمتد من قناة معشار على أحد الجوانب إلى منخفض «الخانق» مرتفع لسان «غالب». على الرغم من أن هذه الأرض الآن مهجورة وغير مستعملة، وتنتشر بها أجزاء من قنوات الري المبنية هنا وهناك، والعديد من تلال الطمي التي يتراوح ارتفاعها من عشرين إلى خمسة وعشرين قدماً، والتي يبدو أنها تحدد أضلاع مستطيل كبير. وكان من الصعب تحديد رأي فيما إذا كانت هذه التلال الطينية تمثل مباني طينية متهدمة أو بقايا سور دائري. ويوجد في بعضها أثر من بناء حجري يوحي بأنها كانت بيوتًا، ويحتمل أن السور المستطيل. كان يطوق مخيماً أو حصناً لحماية الزراعة. وعلى أي حال لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك في أن هذه البقعة كانت في العصور الماضية مزروعة على نطاق واسع، وكانت تُروى بطريقة تامة ومتقنة. ولا يزال جزء صغير منها يُزرع الآن في مواسم السيول الكبيرة، ولكن لاتوجد أي محاولة لتخزين أو توزيع المياه لاستخدامها في الري الدائم، على الرغم من أنهم ما زالوا يتأملون بحسد في الزراعة الواسعة التي كان يشتغل بها القدماء،

الذين يسمون أعمالهم بالكفرية -أي غير مؤمنين أو بني غسان-. وكان اثنان من حجر الرحى المكسورين هما كل ما رأيته من آثار الأواني المنزلية في تلك الأيام الغابرة.

وعدنا إلى مخيمنا في شبوة بعد حلول الظلام بكثير، حيث إننا كنا قد ابتعدنا عن قرية «المعوان» تفادياً لها خشية أن يخطئوا ويحسبونا أعداء، وسرنا بجوار الآبار. وفي منتصف الطريق أثناء العودة اقترحت أن ينصرف صالح ومحمد إلى خيامهم، نظراً لأن حرسي الشخصي سوف يرافقني في العودة. وقد انصرف صالح فعلاً مع حمد الصغير وهو يسير خلفه، ولكن محمداً مكث معي، وشعرت أن شيئاً ما يدور في رأسه. وقال بعد دقائق قليلة: «أنا أعرف صخرة... صخرة كبيرة مثل هذا» وسحب عصاه على طول الأرض وصنع مربعاً تبلغ مساحته حوالي اثنتي عشرة ياردة أو أكثر، وأردف: «وعليها كتابة قديمة في جميع وجوهها». وسألته: «أين هي؟. إذا لم تكن بعيدة أود رؤيتها». فأجاب: «إنها ليست بعيدة، ولكن أعتقد أنني أعرفها، فقد عثرت عليها ذات يوم عندما كانت إبلي ترعى قريباً منها». وقال: «ولكن ماذا سوف تعطيني إذا أخذتك إليها لكي تراها؟» فقلت له: «لا شيء ولا يهمني إن كنت أراها أم لا؛ ولن أحدد ثمناً لها. إنني لا أشتري مثل هذه الأشياء. وأنت تعلم أنني كريم مع أولئك الذين يخدمونني، ولكن لا أحب هؤلاء الذين يساومون». وواصل حديثه بلا خجل قائلاً: «إنك إن لم تعطني حقوقي، فلن أريك الصخرة المكتوبة ما لم تدفع لي». فأجبت: «احتفظ بصخرتك لنفسك، وبالنسبة لحقوقك لا أعلم شيئاً عنها، وأنا لا أعطي أي رجل إلا على سبيل السخاء». وبهذه العبارة ذهب بعيداً عني، غاضباً محبطاً، ليلحق بصالح في طريقه إلى مخيمهم. وفي اليوم التالي زارني مرة أخرى ليطالب بحقوقه. فقلت له: «أخبرتني أمس عن صخرة مكتوبة. ولن تنال شيئاً مني إلا إذا رأيتها، وبعد ذلك فأنا الذي سوف أحدد ما أعطيك إياه».

وكان اليوم خالياً من العواصف الرملية، ولكنا لم نكد نعود إلى المخيم حوالي الساعة السابعة مساءً إلا وانفجرت علينا سحابة تراب فجأة بعنف شديد، واستمر ذلك لنصف ساعة. وبعد ذلك تفرق إلى سلسلة من العواصف الرملية مصحوبة بقطرات قليلة من المطر، الذي أدى إلى خمود الغبار، على الرغم من أن الريح العاصفة هبّت علينا في أوقات متقطعة أثناء الليل. وفي الصباح التالي استأنفت رحلتي، بدءاً بطريق الطرف الشمالي لسلسلة جبل هجر ونزولاً منها إلى ملح المغيرة عند سفح سلسلة جبل غارة الملح. وكان الجزء العلوي من السلسلة يتكوّن من مزيج الحصى والطمي، وتحته يقع الملح الحجري في مستوى الأرض وتحتها. والمنجم نفسه عبارة عن تجويف يمتد لعمق ثلاثين قدماً، ومساحة مسطحة تبلغ حوالي خمسين قدماً في كل اتجاه. والطبقات الصخرية الممتدة فوق الملح وتحت الغطاء الطيني ذات لون أسود تشبه البترول أو القار (البيتومين)، ومتقشرة نسبياً وناعمة. وقد هبطت داخل المنجم بمنحدر حاد من فتحته. وتظهر خطوط على جدار الملح من أثر الضرب بالآلات مستدقة الرأس.

والعمل في الملح يعد امتيازاً مقصوراً على عُتقاء المشايخ وقطيان الذين يتلقون نصف ريال عن كل حمولة إبل من الملح مأخوذة من المنجم. وتحفر ثقوب في الملح لتوضع عليها أصابع الديناميت، التي يؤدي تفجيرها إلى تفكيك كتل ضخمة من الصخور. وبعد ذلك يقوم العمال (العتقاء) باستخراج الملح بالفؤوس ويجمعونه في أكوام جاهزة للتعبئة في القرب الجلدية لنقله إلى حضرموت ونجران أيضاً. هذا الملح جيّد النوعية، يشبه البلّور الأبيض. والمنجم الثاني، «ملح الرشيد» هو أكبر الاثنين ويقع تحت السهل بحوالي ١٠٠ أو ١٥٠ قدماً، وعرضه أربعون قدماً، وعمقه خمسون قدماً، ويتكوّن من حفرتين متصلتين بفتحة صغيرة تربط قاع واحدة بأخرى. والسطح يتكون من الطمي وكسر الحجارة بعمق حوالي عشرة أقدام فوق الملح. وجدران الملح في كلتا الحفرتين عليها خطوط من أثر المعاول مثلما هو الحال في منجم (المغيرة). هذه المعاول عبارة عن عصيٍّ غليظة يبلغ طول الواحدة حوالي ثلاثة أقدام ومركّب

عليها مطارق حديدية ذات أطراف مستدقة لتكسير الملح إلى أحجام ملائمة للتداول، ويدر الملح ربحاً وفيراً يصل إلى حوالي أربعة ريالات لكل حمل بعير في أسواق حضرموت. وكانت فوهة هذه الحفرة محاطة بعشرين أو أكثر من القرب الجلدية مملوءة بالفعل وجاهزة للنقل، وكانت هناك قافلة صغيرة قد بدأت تتجمع لهذا الغرض.

وبعد أن تركنا مناجم الملح اتجهنا ناحية المدينة القديمة وسرنا مع سورها الشرقي إلى أن وصلنا قرية هَجْر حيث قمت -بعد فحص وتصوير الأجزاء الباقية من البناء القديم- بزيارة للشيخ علي بن عفيشة في بيته على قمة سلسلة الجبل. وكانت مجموعة متواصلة من درجات سلم تؤدي إلى غرفة الاستقبال، التي كانت مفروشة بصورة هزيلة جداً من حصير النخيل فقط. ولم يقدم لنا القهوة ولا حتى الماء، الشيء الذي كنا سنرحب به بعد جولاتنا، فقد كان الجو حاراً جداً في الشمس، وانصب الحوار بين مضيفنا وأتباعه الأوفياء بصورة رئيسة على التوبيخ العنيف ضد سكان المعوان الذين، كما قال علي: «كانوا سابقاً خدماً في بيت والدنا ولكنهم الآن يبدو أنهم أصبحوا منافسين لنا». إن ضمان السيطرة على ضريح ابن يوسف هو الطموح الوحيد لشيوخ «هَجْر». فبالنسبة لهم لا يهم أي شيء آخر، وكان جهلهم بالعالم وأحواله مثيراً للدهشة والاستغراب مثل افتقارهم إلى كرم الضيافة.

وكنت الآن قد بدأت أشعر أنني فحصت شبوة تماماً قدر الإمكان بدون فأس للحفر، ولكن بعد زيارتي للمسجد ونسخ مابه من نقوش حميرية، قمت بزيارة وداع للمعبد الكبير. ثم عدت للمخيّم بعد أن حفرت قليلا بين أكوام الأنقاض التي تقع فوق منجم الملح الثالث الذي يُدعى «ملح ربيعة» ، و الذي توقف العمل فيه. وقد وصلت المخيم بعد الساعة الواحدة ظهراً بقليل، واستقبلت الزوار بالتتابع المعتاد أثناء العصر. كما قمت بالتنزه مشياً على الأقدام في منطقة قناة المحباض التي تحتفظ ببقايا ضئيلة من نظام الري القديم، على الرغم من أنها كانت أقل وضوحاً مما هي في منطقة العقم. وعلى كل حال كان من الواضح أن هذا الجانب من "الجزيرة" كان مزروعاً في

العصور القديمة، في حين أنه في الوقت الحالي لا توجد إلا زراعة بسيطة فقط في المناطق المعرضة للسيول تحت الجرف قرب حصن صغير يسمى «حصن باشعنون» وإلى الجنوب بعيداً يسمى «حصن المشايعة» في النقطة التي يبدأ عندها مجرى قناة «العطف» التي تنثني نحو الشمال من وادي عرما بين الجُرُف العالية من الحجر الجيري.

وانتهى اليوم بالعاصفة الرملية الحتمية التي -بعد أن تجمعت وتشكلت طويلاً في الشمال من ساعة غروب الشمس تقريباً- انهالت علينا عندما كنا نجلس لتناول العشاء في الثامنة مساء. وبعد نصف ساعة نزلت زخة من المطر وتحسن بعدها الأمر، على الرغم من مواصلة هبات من الريح في الهبوب علينا حتى الساعة العاشرة ليلاً، توقفت العاصفة فجأة مثلما بدأت. لقد استمرت طويلاً بما يكفي، على أي حال، لإفساد الألحان والغناء في الهواء الطلق بالمخيم والتي كان يعزفها مغنون زنوج محليون، الذين جاؤوا بالطبول والآلات الوترية بعد أن انتهينا من العشاء، وظلوا يعزفون إيقاعاً ضعيفاً نسبياً إلى أن أجبرتهم الهبات القاسية للريح على الدخول في الخيام. إن جزءًا مقدرًا من سكان شبوة يتكون من هؤلاء «العبيد» ومعظمهم من الأبناء الأحرار المنحدرين من العتقاء الذين كانوا عبيداً عند زعماء قبيلة «آل بريك» أيام مجدهم. وما زالوا هم العمال في مناجم الملح، ولكنهم يحصلون على مكافآت نظير عملهم الشاق في حفر الملح بالمعاول وتعبئته في الأكياس للنقل. وكان بعضهم رجالاً ذوي بنية بدنية رائعة جداً، ويميلون إلى المشاكسة وحب الخصام مثل باقي السكان. وقد جاء أحدهم إلى مخيمنا يطلب أجرًا على التمتع بميزة زيارتنا مناجم الملح، وبدا عليه الإحساس بالظلم عندما طعنت في دعواه. ولكني في النهاية أعطيته ريالاً واحداً مع معلومات مجانية حيث قلت له: «إن مناجم الملح في شبوة لا يمكن أن تعد بسهولة من ضمن العجائب السبع في العالم». وقد بدت عليه الدهشة تماماً، ولكن كان قد نال الريال، وهذا مايريده. وعلاوة على نصف الريال المستحق دفعه لعمال

المناجم العبيد فإن عائلة «آل قطيان» تتقاضى حقوق ملكية قدرها ريال ونصف أو ريالان عن كل حمل بعير يغادر المناجم.

ولم أزر ضريح محمد بن بريك إلا بعد عودتي من حضرموت لأقيم مرة أخرى إقامة مؤقتة في شبوة، ولكن ربما يكون من الملائم أن أُضَمِّن وصفاً له في هذا الفصل. والضريح من الخارج عبارة عن مبنى طيني ذي أبعاد صغيرة وبه أبراج في كل زاوية، وقبة بيضاء ذات طفاية شموع في وسط السقف . هذه القبة وواحد (أو اثنين) من الأبراج مزينة بقرون التيس الجبلي (الوعل). وعلى الجانب الغربي من الضريح الفعلي توجد ساحة صغيرة محاطة بأسوار منخفضة مع مدخل منخفض جداً على الجانب الشمالي. ومما لاشك فيه أنه مصمم على حسب مبدأ الأبواب الدوارة -التي تسمح بدخول شخص واحد أو خروجه- لكي يمنع أي ازدحام للزوار، الذي يتوقع من كل واحد منهم أن يدفع مبلغاً قليلاً من المال قبل أن يرى المشهد. وبمجرد أن تدخل الساحة يواجهك باب الضريح نفسه، حيث إنه موضوع قرب الطرف الشمالي للسور الغربي. وداخل الضريح كان الظلام حالكاً، نظراً لعدم وجود النوافذ والسرج، المكوّنة من نصف قشور بيض النعام المتدلي الذي يحتوي على فتيل عائم في الزيت، لم تكن مضاءة. وفور أن اعتدت على الظلام فقد بدأت أحدد محتويات هذه الغرفة المرفدة والتي لم يوجد بها، لدهشتي، أي أثر من الآثار القديمة. ولم يكن فيها إلا ممر ضيق يسير حول ثلاثة جوانب وممران آخران متقاطعان يسمحان بالطواف الكامل حول الشيخ الولي وولده، نظراً لأن المكان برمته كان مشغولاً بأربعة قبور، ومحاورها الطويلة تمتد شمالاً وجنوباً. وأول قبرين، على يمين الداخل، كانا لامرأتين، هما بالتحديد: فاطمة، التي لم يستطع علي بن عفيشة وآخرون من الحاضرين أن يذكروا أي تفاصيل عنها مهما كانت، على الرغم من أنه يبدو، من المحتمل أنها كانت إحدى زوجات الشيخ وشبلة وهي امرأة من قبيلة بالحارث -ويحتمل أن تكون من قرية بيحان- ويقال: إنها كانت زوجة الشيخ. ولا يُغطي هذين القبرين أيُّ نوع من المظلات. وهما ممسوحان

مسحاً تاماً بالطين، وأحدبان قليلاً مثل النعوش التي ما زالت مستخدمة في الجزيرة العربية لحمل النسوة إلى الدفن، هذا التحدب المكسو بقماش متدل ومتجعد مصمم ليخفي معالم جثة الأنثى المتوفاة، والقبران أيضاً قريبان من بعضهما بدون ممر بينهما أو بينهما وبين الجدار.

وبين شبلة وعمر -ربما يكون ابن الشيخ الولي فيها- يوجد ممر ضيق، في حين تفصل مسافة مشابهة الولد عن أبيه. وكلاهما يرقدان في قبر طيني مماثل لقبري المرأتين، ولكن فوق قبري الذكرين الاثنين تقف مظلة مستطيلة من صندوق خشبي يعلوها سقف، يرتفع صرفه حوالي سبعة أو ثمانية أقدام فوق الأرض. إن السطح الخارجي لمظلة محمد بن بريك ممسوح تماماً وبصورة كثيفة بنوع ما من الشحم اللزج، ولقد لاحظت أن الناس المحليين الذين دخلوا معنا قد قاموا بالدوران دورة حول القبر -ولكن ليس حول قبر عمر- وهم يتحسسون بأصابعهم ويقبلون كل بوصة تقريباً من البناء على طول اتصال جدرانه بالسقف وعند الطرف الشمالي للمظلة، وداخلها بالقرب من الأرض عند رأس القبر، يوجد شيء ما، يشبه الإناء مليء بالرمل الناعم، الذي يأخذ منه الزوار ويقوم بنثره فوق رؤوسهم وأكتافهم. وكان الجو داخل الضريح حاراً ومقززاً، وكنت سعيداً بالخروج مرة أخرى في الهواء الطلق. وقد انتهينا من زيارتنا الرسمية، ورأيت ما يكفي في أحد أضرحة شبوة مما جعلني قادراً على تصور محتويات الأضرحة الأخرى دون تجشم عناء زيارتها.

وهكذا انتهينا من شبوة - ومن دون بنات سبأ فهي الأكثر بؤساً، مثل بَغيٍّ في شيخوختها، فقيرة وشريرة وحقيرة، قد أتلف مرور السنين سحر شبابها، وذهب جمالها الغض تماماً كأن لم يكن. ولا نستطيع أن نكتشف في ندوب وتجاعيد اليوم إلا بالكاد ما يدل على فتنتها وروعتها، التي طارت الإشاعات بها إلى روما البعيدة مع التوابل والعطور العربية. ومع ذلك فقد ظلّ اسمها باقياً عبر العصور، ليمثل إغراء دائماً لمحبي الاستطلاع. ومن الغريب حقاً أن تبقى خصوصيتها سليمة لم تُمس

لصـــروح طويلة من الزمـــن. ولقـد ذكـرت ســـابقاً بعض المحـاولات غير الناجـحة في التـسلل إليهـا، ولحد علمي في هذا الوقت فـقد كنت أول أجنبي يـرى مفاتنـها الذابلة.

وفي الحقيقة لم تكن كـذلك !! فقبيل مغادرة نجران كنت قد تلقـيت مجموعة ضخمة من جـريدة «التايمز» التي قضيت وقت فراغي الضئيل في قـراءتها أثناء سفري نحو الجنوب. وفي الشضيف وبالمصادفة العجيبة، وقبل أن أنطلق بقليل عبر الصحراء في طلب شبوة، قـرأت أحدث عدد من تلك الصحف، وهي التـايمز بتاريخ يوم ٢٦ مايو، التي تصادف أنهـا تحتوي على مراجعـة لكتاب «فريا ستارك» الذي نشـر حديثاً بعنوان: «البوابات الجنوبـية للجزيرة العـربية» وقرأت فيـما يلي: «كان هدف ستارك الوصول إلى مـدينة شبـوة القديمة، التي لم تر عين كـافر قط مـعابدها السـتين حتى الآن». وهكذا خلال الأيام الأولى في شبوة كنت أنقـب في آثارها متصوراً أنني كنت أول أوروبي -مع أنني لست كـافراً- يراها. وعند عـودتي من حضـرموت كنـت قد حصلت على معلومات بصورة أفضل.

ولم أقرأ كتـاب «البوابات الجنوبية للجزيرة العـربية» إلا بعد ذلك بشهور كـثيرة، عندمـا كنت أنا بنفسي أرقـد مريضـاً بالحمى في مكة بعـد الحج، وبدا لعقلي الملـتهب بحرارة الحمى أن يد امرأة قد قادتني بنعـومة ورقة عبر المشاهد المألوفة في «وادي الموت» مثلما يتحدث صوت امرأة بطريقة فاتنة عن أناس عرفتهم هناك وأماكن رأيتها. ومع هذا بدا لي الأمر غريباً لأن المرأة التي سمعت كثيراً من القيل والقال المحلي لم تسمع بحكاية «هانز هلفريتز» وزيارته الناجـحة لشبوة خلال الأيام التي هي نفسهـا ترقد مريضة بمرض خطير في شبام. وربما حجب مضيفوها الكرام الأنباء عنها نظراً لمصيبتها المؤسفة. ولكنها كانت تعلم بالطبع أن هلفريتز كان في حضرموت في ذلك الوقت، يخطط لزيارة الهدف نفسه الذي كانت تقصده. لقد كانت في الحقيقة، كما اعترفت هي صراحة، يتم إخبارها أولاً بأول بتحركاته يومياً. وكـان لديها أصدقاء في الوادي وعدوها بأن يحبطوا خططه،

حتى تكون هي أول من يصل شبوة. ثم تدعنا لنرى كيف كانت متحاملة بقوة ضد الرجل، الذي رفضت حتى ذكر اسمه فيما يرتبط بهذا المشروع، على الرغم من أنه قد ذُكر بالاسم في أعمال أخرى. بل إنها تقر قائلة: «إن شعوري لم يزد على أن أبتسم من هذه الفكرة»، عندما أخبرها مضيفوها صراحة "بأملهم الودود في أن شيئاً ما مثل حادث أو موت مفاجئ قد يقع له في طريقه" إلى شبوة !.

«ثم جاءت الأخبار بأن . . . الشاب الألماني قد انطلق. فقد عثر على أحد البدو في سوق سيئون، واتخذ الترتيبات اللازمة للذهاب إلى هناك مباشرة. . . وشعرت بالخزي». وتعترف قائلة : «يجب عليّ أن أشعر بالقلق إذا وصل الآخرون إلى مدينتي قبلي، لأن مسألة أن تكون الأول ليست في الواقع عاطفة صادقة». وتواصل القول: «وصل الألماني إلى القطن واستمر في الرحلة. وجاءني وعد من السلطان. . . بأن البدوي الذي معه - على الرغم من أنهما قد وصلا القرية الحديثة، لن يكون قادراً على أخذه إلى موقع المدينة القديمة، وهي على بعد مسيرة يوم على الدواب، وفهمت أن ذلك مجرد لطف من جانب السلطان، ولكنه قد تحقق فعلاً». فبعد شهور تلقت أنباء من شبام مفادها أن «الألماني. . عاد من شبوة. . . وقال: إن هناك منجمًا يحوي بترولاً وذهبًا يمكن اكتشافه. . وإنه لم يكن مسروراً هناك، ولم يمكث إلا نصف يوم، لأن القبائل هجمت عليه. . ورحل إلى ضواحي شبوة ولكن لم يدعوه يدخلها كلها. » واختتمت الفصل قائلة: «ولقد كان السلطان محقاً في ظنه، ومازالت المدينة القديمة ومعابدها الستين تنتظر الرحالة».

هذه الأشياء كانت تقع خلال الشهور الأولى من عام ١٩٣٥م. وكان كتاب فريا ستارك قد نشر في إنجلترا عام ١٩٣٦م، بيد أن هانز هلفريتز - بسبقه إياها إلى شبوة - كان أيضاً الأول في الميدان بوصفه لمغامراته في كتاب نشر بألمانيا عام ١٩٣٥م تحت عنوان «غموض حول شبوة - Geheimnis un Schobua». ويبدو من الغريب أن كلا من

المؤلفة والصحفي الذي راجع كتابها «البوابات الجنوبية للجزيرة العربية» في جريدة التايمز لم يسمعا بالكتاب المنافس السابق، الذي كان سيُعدل من وجهات نظرهما وآرائهما بصورة كبيرة. فقد وصل هو وجماعته في جوف الليل إليهم طبقاً للخطة، وقبعوا في الكوخ الذي كان بمثابة فندق لراكبي القوافل القادمين. وعند الفجر جاء الزوار ليفحصوا القادمين الجدد. ولما اكتشفوا «أفرنجياً» بينهم أدى ذلك إلى حدوث هياج وضجيج حتمي. وبينما كان مواطنو شبوة الغاضبون يتناقشون -وهم يأكلون طعام إفطاره ويشربون قهوته- ليس في مسألة قتله أو لا، وإنما في كيفية قتله، فقد هرب هلفريتز باثنين من كاميرات التصوير الخاصة به «لتصوير» الآثار. وأثناء هذه العملية ألقى جمهور الغوغاء القبض عليه، وهرب مع مرافقه تحت وابل من النار الوحشية، وكان يأخذ لقطات سريعة خلال خروجه من موقع الخطر. ومن المحتمل أنه لم يمكث أكثر من ساعة من نهار في تلك المدينة. ومع ذلك فقد استفاد منها استفادة طيبة، وكانت شجاعته ورباطة جأشه في مواجهة خطر حقيقي فعلاً تستحق بالتأكيد الثناء الحار.

وأرى أن يوضع إكليل الانتصار على جبين هانز هلفريتز لأنه أول أجنبي يدخل مدينة شبوة القديمة. ولفترة وجيزة كنت قد ارتديته أنا شخصياً بكل فخر، ولكن لم يكن أمراً حكيماً إلى أن قابلت في إحدى الليالي، في سيئون رجلاً أخبرني بالحقيقة. وفي ذلك الوقت لم أكن أعلم إلا كتاب هلفريتز المعنون (أرض بلا ظلال) الذي يصف فيه مروره على مسافة من شبوة، دون أن يدرك فيما يبدو بوضوح أنها تستحق الزيارة، وهو في طريقه إلى بيحان واليمن. ولم أعلم مغامرته اللاحقة ، وتحديت من أخبرني بها أن يقدم لي دليلاً يؤيد كلامه ذاك. وفعلاً قدم لي نسخة هدية من كتابه بالألمانية (غموض حول شبوة) ولم يكن أمامي مفر إلا الاعتراف بخطئي. وبعد ذلك أخبرني كثيراً عن مقدار فرح مجتمع حضرموت بالتنافس بين المرأة الإنجليزية والشاب الألماني، وكيف أن الأخير قد كسب الرهان بفضل الله عليه وبقليل من العون لا من ذكائه. ويبدو أنه لم يكن حزيناً على النتيجة، وربما كان لديه غرض ما يستفيد بها

فيه. إن هانز هلفريتز لـيس بالتأكيد بدون أصدقاء في حضرموت. إن الحـقيقة المؤكدة نفسها من إرساله نسخًا من كتبه إلى أصدقائه بالوادي تبرئه من تهمة الحقد والضغينة. وربما وجدوه أقل خطورة من الإنجليزي الذي يتبختر بكبـرياء مصطنع، ويشيعون فيها جواً من اللطف والكياسة مع أنهم مولعون بحب التملك.

كان هذا كلام كثير عن مكتشِف شبوة، والمتحـدي الوحيد المحتمل لأسبقيته قد توفي منذ زمن طويل، ولكن يجب الإشارة إلـيه بإيجاز، نظراً لأن دعواه قـد أحياها حديثًا السيد آر. إتش . كيرنان في كتابه الجديد: «اكتشاف الجزيرة العربية -Unveil-ing of Arabia» وهو عبارة عن تاريخ لاسـتكشاف شبه الجزيرة منذ أقـدم العصور حتى اليوم الحاضر. ويقـول: إن أدولف فون ريد، وهو عسكري ورحّالة من بافاريا، قد وصل شبـوة خلال رحلة قام بها عـام ١٨٤٣م. ويكرر أيضاً قصة زيارته لـلحافة الجنوبية من الربـع الخالي، حيث قـام هناك برمي قلة من النحاس وزنهـا نصف كيلو لأبعد مسافة يستطيعها في الرمال وشاهد كيف أن الرصاص يغرق في الرمال حتى بعد حوالي خمس دقائق إلى «أن اختفى طرف الحـبل في قبر يبلع كل شيء». وكما رأينا بالفعل من قبل، فإن سيارتين اثنتين محملتين بأحـمال ثقيلة قد عبرتا الآن بأمان فوق سطح ذلك «القبر الـذي يبلع كل شيء». وفي العصور الغابرة، عندمـا كانت الجزيرة العربية غيـر معروفة إلا قليلاً لدرجة أنه قد يكون من الحـماقة أن لا تصدق الروايات الخرافية التي يحكيها الرحّالة العائدون من ذلك البلد، ربما كان يوجد أناس ذوو مكانة مرموقة مستعدون لتأييد أو غيـر مستعدين لدحض قصة فون ريد. ولكن وجهة النظر المقبولة بصـورة عامة اليوم، التي تعـود إلى تاريخ كتابة الدكتـور هوجارث في إيجاز رائع في بداية القرن الحالي، تقـول: إن قصة أدولف فون ريد غير جـديرة بالتصديق بقدر مـا يزعم أنه قد اخترق الطرف الـغربي من وادي «دوعن»؛ ولذلك يجب رفض هذا الادعاء، ومما يثيـر الدهشة والاستغراب إلى حد ما أن يتـم إحياؤه وتجديده دونما تقديم أي دليل جديد عليه.

ولا يبقى لي إلا أن أختتم مسح أراضي شبوة بإشارة موجزة لما كان لا يزال في عداد المستقبل عندما ركبت سيارتي وغادرت آثارها في ١٢ أغسطس. وعند وصولي إلى شبام أفادوني أن شاباً إنجليزياً، يعتزم زيارة شبوة، كان مقيماً في استراحة «العجم» بضاحية السحيل. وفي الوقت المناسب قابلت السيد نورمان بيرن الذي كنت أعرفه سابقاً من اجتماع وحيد عقد في لندن العام السابق ومن وصفه، الذي نشر في جريدة التايمز، لرحلة بالإبل في الصحراء قبل بضع سنوات مضت. وكانت سلطات عدن قد زودته بجميع اللوازم الضرورية والتزكيات إلى سلطان شبام والناس المهمين الآخرين. وكانت التجهيزات لرحلته تجري في تقدم نشط في تلك الأيام، على الرغم أنني كنت قد اندهشت قليلاً عندما أخبرني أنه من الناحية العملية لا يعرف أي كلمة باللغة العربية، ولم يتم تزويده بما يكفي من الأموال، وهذه مسألة خطيرة نسبياً في بلد مثل الجزيرة العربية. وقام سلطان شبام بتجهيز عدد قليل من الإبل مع رعاتها البدو -كلهم قالوا: إنهم كانوا جماعة من ستة أو سبعة رجال، بما فيهم بيرن نفسه وخادمه العدني- لتوصيله إلى شبوة والعودة منها نظير ثلاثين ريالاً لكل جمل، نصفها مدفوع مقدماً والباقي يتم دفعه عند الرجوع بسلام بعد عدد محدد من الأيام في شبوة. وكان السلطان واثقاً من أن كل شيء سيسير على خير وجه. ولكن آخرين اعترفوا سراً لي أنه لن يصل شبوة أبداً أو أنه لن يسمح له بدخولها إن وصل هناك، وانطلق بيرن وجماعته في الرحلة من شبام. ولقد رأيتهم بالليل في «هينن» عندما عدت إلى شبام لأجل رحلتي إلى المكلا.

وفي الصباح التالي انطلق مسافراً في الصحراء، حيث أخذه مرشدوه على طول درب «العبْر»، وليس لطريق شبوة العادي، لسبب ما بلا تفسير. وقد وصل إلى نقطة وراء قرية «خويران» الصغيرة بقليل. وهناك، وبينما كان يتجول في أرجاء المكان لالتقاط الصور وتحديد الاتجاهات، تركه مرشدوه، الذين أخذوا معهم أيضاً خادمه

حيث هددوه بالقتل في ذلك الوقت والمكان، إن هو رفض الذهاب معهم. وسرعان ما أدرك بيرن، وهو مهجور بالصحراء ولا يعلم أي موقع لبئر قد يكون موجوداً هناك، وبلا طعام أو ماء ولا يعرف الناس ولا لغتهم، إنه في موقف خطير، وقرر بحكمة أن يمشي عائداً تجاه وادي حضرموت، ولحسن حظه صادفته جماعة من الحطّابين العائدين من الصحراء ورافقوه حتى «هينن»[1] حيث عاد في الوقت المناسب إلى الساحل في «الشحر»، وهناك استمعت لقصة محنته من لسانه نفسه على متن باخرة صغيرة كانت ستقله للعودة إلى عدن. ومنذ ذلك الحين نشر وصفاً لتجاربه هذه في مجلد بعنوان «البحث عن سبأ Quest for Sheba».

هكذا ظلت شبوة تستعصي على اختراقها تحت رعاية عدن، ولكن ذلك لم يدم طويلاً. ففي مايو ١٩٣٧م انطلقت من عدن رحلة جوية مكوّنة من أربع طائرات، يرافقها الكابتن جي. سي. هاملتون ابن اللورد بيلهافن وستنتون، والذي كان معي في الرياض تحت اسم الكولونيل آر. إي. آيه. هاملتون[2] منذ عشرين سنة مضت، متجهة إلى «بيحان» حيث قضوا الليل هناك. وفي الصباح التالي طاروا إلى شبوة، ومكثوا ساعتين بها، وعادوا عن طريق بيحان إلى عدن. وفي وقت كتابتي لهذه السطور لم تكن أي تفاصيل عن تجارب هذه البعثة قد نشرت بعد. ولكن طبقاً لتقارير صحفية مختصرة عن تلك الزيارة فقد وجد الزائرون العناكب الذئبية وهي نوع من

---

(١) هينن: من قرى حضرموت، الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٤، ص٧٦٠. (المراجعون).

(٢) هو الوكيل السياسي البريطاني في الكويت وكان الكولونيل هاملتون من مرافقي فيلبي في أول رحلة رسمية قام بها داخل شبه الجزيرة العربية حينما تم بعثه على رأس بعثة ليقوم بالتقرير عن الأحوال السياسية والعسكرية داخلها وليقرب وجهات النظر بما يضمن المصالح البريطانية بين أبرز القوى السياسية وتحديداً الملك عبدالعزيز وابن رشيد والأشراف وقد نشر تقرير بعثة فيلبي وترجمه الدكتور عبدالله العثيمين. ونشره في كتاب بعنوان بعثة إلى نجد كما ترجمت رحلة هاملتون إلى اللغة العربية، تحت عنوان، يوميات هاملتون عن رحلته إلى نجد ١٣٣٥-١٩٩٧م، قام بهذه الترجمة عصام ضياء الدين السيد علي. ضمن بحوث الكتاب السنوي الأول، للأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية، ص ص ٧٥-١٥٢، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض ١٤٠١هـ. (المراجعون).

العناكب الكبيرة وفيرة بصورة مزعجة في بيحان وعثروا على مبان من الحجر الجرانيت في شبوة. هذه المباني الجرانيتية لم أرها بالتأكيد، أما بالنسبة للعناكب فلدينا شهادة بليني. وعلى كل حال أعتقد أن العناكب الذئبية هذه كانت (Jerrymanders). وأتساءل بعجب كيف تمتع أصدقائي في شبوة بتلك الزيارة التي تمت، كما قالت لنا الصحف، «بناءً على طلب صريح منهم». إنني أتعجب فقط!. ففي الآونة الأخيرة (وبالتحديد في فبراير ١٩٤٨م) كان شيخ شبوة -عندما كان بمكة للحج- قد أعطاني رواية مختلفة نسبياً لهذه القصة، حيث قال: إن رسولاً قد وصل على متن بعير من بيحان ومعه خطاب من الشريف المحلي يعلن فيه الزيارة الجوية المحتملة ويضمن براءة الغرض منها. وبعد وصول الرسول بيوم جاءت الطائرات لشبوة، وهبطت في السهل الواقع إلى الغرب من ضريح ابن يوسف. وكان معظم الناس غائبين عن القرية في المراعي، ولكن بعض أولئك الحاضرين أتوا لرؤية الزوار. وكان شريف بيحان يعمل كمتحدث رسمي لهم، وقام الزوار البريطانيون بزيارة حافة حقل الآثار، على الرغم من أنهم لم يروا المعبد الذي رأيته أنا. ومن الواضح أنه لم تقدم لهم أي ضيافة، ولا حتى قهوة. وبعد وقت وجيز طاروا عائدين من حيث أتوا، بينما بدأ أهل شبوة -لتفادي مثل هذه التطفلات في المستقبل- العمل في وضع أكوام من الحجارة في السهل المنبسط حتى يكون هبوط الطائرات أكثر إثارة. والتعليق على ذلك ليس ضرورياً بكل تأكيد، «فأنا أروي القصة التي سمعتها تروى». ومع ذلك ما زال يحدونا أمل في أن تنشر يوماً ما صور شبوة التي أخذت من الجو.

الفصل الخامس

وادي الموت

ثلاثة أيام كاملة من العمل الدؤوب كانت كافية لإنجاز ما نبتغيه في شبوة تماماً بأفضل طريقة ممكنة. وقد رأيت هذا المكان ثانية في طريق عودتي من حضرموت حينما كنا في مجموعة نقص أعداد أفرادها وتغيّر تكوينها. فضل أصحاب الجمال من عشيرة يام استخدام حقهم المنصوص في العقد بعدم التقدم إلى ما بعد شبوة وذلك للإجهاد الظاهر على جمالهم؛ ولذلك فإنهم استبدلوا بمجندين محليين وجمال محلية من الكرب وتركنا مجموعتين من نجد خلفنا للاعتناء بأغراضنا ومخازننا والتي وضعت في مبنى منحنا إياه ابن عفيشة -وكانت الأغراض تضم مجموعاتي المتكاملة- وتركنا غذاء أكثر من كافٍ لتغذية تلك المجموعة التي تركناها خلفنا لكل المدة التي سنقضيها والتي قدرت بأسبوعين. وقد استنزف وقودنا بواسطة سيارتي النقل التي أصبحت فجأة كثيرة الاستهلاك. ولم يكن هنالك وقود في شبوة لمقابلة حاجتنا. كما أنه لا توجد صفيحة كيروسين فائضة واحدة، وقد أخطرنا أنه يمكن الحصول على القليل من الكيروسين في واحدة من قرى عرما التي تقع على بعد نصف يوم فوق الوادي، وعليه فقد أُرسل رجل من أهل المنطقة ليشتري لنا صفيحتين أو ثلاثاً وقد عملنا على أن تزود سيارتي بالوقود الصافي بينما تبدأ الناقلات بمستودع معبأ ثم يخفف تدريجياً بالكيروسين وبالطبع سنجد كل ما نحتاجه من الوقود في مدن حضرموت.

احتفظت شبوة بسمعتها المعروفة بالأحوال الجوية السيئة حتى النهاية وكانت الليلة قاسية مع رياح عاصفة رملية تحصب على معسكرنا ولكن مع ذلك لم تعكر صفاء منامي. ولقد قررنا أن نبدأ رحلتنا في الصباح الباكر ولكن عند الساعة السادسة صباحاً هبت ريح جنوبية متوسطة منذرة بعاصفة قادمة، بعد ذلك بساعة هبت العاصفة علينا مغرقة كل شيء في رمالها. وكان الوضع غير مريح حيث كنا نحتشد

خلف السيارات والأمتعة. وكان عبود هو الوحيد الذي استمر في عمله كالمعتاد فلا يمكن أن تعيق العاصفة طبخ الطعام. وثمة لحم لاثنين من الأغنام وكمية ضخمة من الثريد كانت تتقلب في المرجل محدثة صوتاً خفيفاً. وعند وقت الأكل القليل من الرجال لا يقلق كثيراً. وكان علينا أن ننتظر حتى تسكن العاصفة والذي لم يحدث حتى اقتراب منتصف النهار. ولم يخف رجالي كراهيتهم لشبوة وكانوا يطلقون عليها بلاد الشياطين، وبالتأكيد فقد وجدنا فيها ظروفاً جوية سيئة ولكن سكانها كانوا عطوفين أو مضيافين. فقد تقبلوا دون اعتراض الإقامة المستمرة المؤقتة لنصف مجموعتنا في داخل منازلهم في مقابل عودة النصف الآخر. ووجودنا معهم كانت له ثماره بالنسبة لهم، فقد خلق سوقاً جاهزة لأشياء مثل اللحم والحليب. وكذلك أوجد بعض فرص العمل. وكنا ندفع لهم بسخاء.

حوالي الساعة التاسعة صباحاً غطت سحب الرمال كل المنطقة. لم أكن أرغب في التحرك حتى أرى العلامات الأرضية، وحتى اللحظة الأخيرة كنت مشغولاً بالعديد من الزوار معظمهم من الشباب والأولاد الذين كانوا يجلبون بعض القطع الأثرية التافهة مقابل قليل من النقود. ولكي أتجنب حمل أكوام من المخلفات القديمة غير المهمة إلى المعسكر كان لابد لي من اختيار الأفضل، في الوقت نفسه لم يكن لشبوة عملة نقدية، فأصغر عملة نقدية معدنية كان هو دولار ماريا تريزا والذي يعرف محلياً -كما في حضرموت- بالقرش وعليه فقد اضطررت لاستعمال العملة المعدنية الصغيرة لسوق نجران الزلط اليمني -مقارنة بالزلوطي البولندي-. وكان الدولار يعادل ثمانين أو مئة وستين نصف زلط. وهذه العملة لم تكن ذات استعمال عملي بالنسبة للمتقبلين لها ولجعلها متوافرة كعرض وغطاء قانوني فقد أنشأت مصرفاً لتبديلها إلى دولار بمعدل ٩٠ للدولار الواحد وقد حقق المصرف ربحاً معقولاً في هذه العملية واسترجعت كل الزلط لي ولرفاقي الذين أنشؤوا مؤسسة منافسة لبيع البن والشاي والسكر للقرويين. وعليه فقد كان الجميع سعداء وقانعين.

في منتصف الصباح جلبت لي امرأة طاسة مليئة إلى النصف بالحليب وبالمقابل منحتها قبضة ممتلئة بالنقود المعدنية مع إبداء بعض اللوم لما أظهرته هي من بخلٍ. فأجابت: «لقد أصابنا الجفاف ولا يوجد حليب في أثداء أغنامي في هذه الأيام». بعدها أعلن وقت تناول الغداء وأسرعنا جميعاً لتناوله قبل أن تهب علينا الرمال مرة أخرى، ويعد الأمر مستغرباً أن يكون في مقدور أي شخص الطبخ في مثل هذه الظروف وعلى الرغم منها فقد كان اللحم والوجبة ممتازة. وقد جلب اللحم سالم بن حمد رئيس قبيلة آل مسفر من الكرب. وفي اليوم السابق أخبرني أن هذا الرجل يحملُ عليَّ وقد يسبب لنا متاعب لأن الطريق إلى حضرموت يمر عبر منطقته. وفيما يبدو أنه قد مر على خيمتي في الصباح مزجياً التحية المعتادة وبما أني لم أتعرف عليه فقد رددت له التحية كالمعتاد دون أن أقدم له الدعوة ليمكث معي. وقد تم تصحيح الخطأ بسهولة فقد أرسلت له سعد بن معيلم للقاء خاص وأتى في الحال. وقلت له: «لقد أخبروني أنك غاضب ولكن بالتأكيد دون سبب، خلال كل اليوم يمر الناس عليَّ يرددون الدعوة لخلاصي وأنت فعلت ذلك مع الآخرين وأنا لست بنبي لأعلم أن سالم بن حمد هو الذي يحييني. والآن علمت ذلك فمرحباً بك. إذا سرت معنا إلى حضرموت فسيكون هذا شرفاً لنا وسوف تكون راكباً بجانبي. وليس فقط إلى حضرموت الآن ولكن إلى نجران ومكة عند عودتنا، ولكن لو حدثتني أنك سالم بن حمد عند مرورك لكان أفضل. لقد بقيت كل هذه الساعات دون أن أحظى بشرف معرفتك، وعليه فقد عقد الصلح بيننا والأغنام التي أكلناها الآن كانت هي هبة السلام». وركب سالم بن حمد معنا حتى حدود منطقته وهو رجل ذو جاذبية، رقيق نتيجة لحياة الصحراء القاسية ومتوسط العمر وناضج، ذو شعر رمادي اللون خفيف وعيون براقة وقوية، وخفيف اللحية ورزين الملامح.

كانت الساعة الثانية ظهراً عندما تلاشت العاصفة وعادت علامات المنطقة الأرضية للظهور فبدأنا رحلتنا. وطريق حضرموت عبر كل طوله يجري ويضيق

بالتدريج إلى ممر رملي أو سهل من الحصى يفصل البحر الرملي، رملة السبعتين في جانب وصف الأراضي الرئيسة لمنحدر حوق الصخري في الجانب الآخر: وفي البداية كان علينا أن نتعامل مع قناة المحباض القاسية حيث تميل حول النهاية الشرقية لجزيرة شبوة لتلاقي المعشار. والفرعان الصغيران لوادي المعشار هما شعيب البدعة وسليل معني يجريان إلى أسفل من المنحدر الصخري لتقاطع طريقنا على بعدٍ قليل، وبعدها انحرفنا عن طريقنا الداخلي في سهل شاسع من الرمال القوية أو الحصى الخفيف.

بعد عشرة أميال خارج شبوة وصلنا إلى مناجم ملح مقاة وهي مقاة في البقعة الرملية المنخفضة والتي تشكّلت من الشق المرتفع والشق المنخفض لمجموعة صغيرة من التلال في زاوية التقاء «شعيب البييرة» و«وادي مقاة» وكلاهما ينحدر من الصخور التي على يميننا -مع ذيل وادي المعشار وعندها يخرج الأخير من خلف النسر الشرقي، وعلى طول جانب مرتفع القويد-ذي الفجا- والتي في النهاية تُمتص في حوض رملي ضحل يسمى الخشعة.

وقفنا لفترة عند حُفر الملح في الحوض المحيط بالتل. وقد غادرت مجموعة راكبي الجمال شبوة في الوقت نفسه معنا حيث اتفقنا على أن نعسكر عند الأرض الرئيسة في خشم رميد لقضاء الليل بها وعليه سوف يتوفر لنا بعض الوقت الكافي لفحص المناجم، كما هو الحال في تلال شبوة. وتتكون المرتفعات والمنخفضات من طبقات مشوهة للغاية ومطوية بحدة وكأنها قد قذفت إلى أعلى وإلى الخارج بواسطة قوة عظيمة من أسفل. وتجدر الإشارة إلى أن المرتفع الرئيس والذي يبلغ طوله ٥٠٠ ياردة يجري عبر الحافة الجنوبية لحوض الملح في أربعة خطوط متوازية تقف طبقاتها بشكل عمودي تقريباً. وهنا على النقيض من شبوة، أعمال الملح لا تكون في داخل أو تحت الصخور الواقفة إلى أعلى ولكن تحت سطح الحوض أو المنخفض المحيط بها. وهي عبارة عن عدد كبير من الحفر ومعظمها تقريباً مدفونة في الرمال، أكبرها حفرة كبيرة في الأرض حوالي ثلاثين قدماً في العمق وألف خطوة في مساحتها السطحية

والتي تعطي ناتجًا يعادل ١٩٠٫٠٠٠ قدم مكعب من صخور ملحية والتي حفرت في خلال ألفين أو ثلاثة آلاف عام. وهذا التقدير يجب أن يضاعف للوصول إلى الإنتاج الكلي للمنجم في مجمله، وذلك لأن معظم الحفر مغطاة بالرمال لأعماق كبيرة مما يجعل قياسها صعباً للغاية. ونتيجة للغياب الكلي للماء في هذا الجوار فإن ملح منطقة «ملح مقاة» فقط يعمل فيه البدويون (آل مسفر) الذين يملكونه عندما يكون المرعى المحلي جيداً مما يسمح بالمعسكر في وادي مقاة والمناطق القريبة منه. وعليه فزمن العمل محدود ولكن في معظم السنوات تغذى هذه الأودية بواسطة السيول وتوفر غذاء للجمال والأغنام لفترات مختلفة.

كان الجو حاراً في الأحواض وكان العرق يتصبب منا عندما كنا جالسين أو متجولين حول الحفر تحت لسعات شمس النهار التي لا ترحم. والسير فوق سهول كبيرة من الرمال الناعمة المتموجة قليلاً، كان جيداً عندما استأنفنا سيرنا للوصول إلى أسفل الأرض الرأسية (غير المحروثة) حتى رميد بعد مسيرة خمسة أميال. وفي هذه النقطة تغير الاتجاه فجأة إلى الشرق. ملأت أمواج متلاطمة من الرمال الدائرية ومعها كمية من الأعشاب (المرخ - أكاسيا والسرح) وحشيش خشن الممر بين الأرض الرأسية والخط الطويل ذي الاتجاه الشرقي من رمال السبعتين، والذي تبرز منه في فترات ألسنة عريضة من كثبان الرمال الثقيلة متجهة جنوباً نحو الخلجان على امتداد الخط الصخري المنحدر العظيم. وأول هذه الخلجان الذي يقع بين رميد والأرض الرأسية التالية من التهيفات - كتلة رائعة من الصخور الجيرية الخلابة، واثنان من خطوط التصريف (قناة الحسوة إلى الشرق وداجل إلى الغرب) اتحدت لتكوّن القناة الرملية العريضة، قناة واديان والتي تجري في أمواج الرمال التي ذكرت من قبل. وعلى ضفتيها تصطف أعداد من أشجار السنط الرائعة والتي اخترناها كموقع مناسب لمعسكرنا.

وبعد قليل من إقامة المعسكر هبت عاصفة رملية شديدة من الجنوب. ثم بعد قليل أصبحت تهب من الشمال بحدة غير متناقصة ومرة أخرى عادت تهب علينا من

الجنوب. وفي هذا الوقت أرخى الظلام سدوله وأشعلت مصباحي ولكن الهجمة الأخيرة للعاصفة أطفأته ولجأت أنا إلى النوم حتى تصبح الأحوال مناسبة لنشاطي الليلي المعتاد. أيقظني من النوم عند الساعة الحادية عشر ليلاً الإعلان لتناول طعام العشاء وفي هذه الأثناء تناثرت قطرات قليلة من الأمطار وكانت السحب الثقيلة تغطي السماء؛ لذا نمت مرة أخرى تاركاً تعليمات لإيقاظي عندما تظهر النجوم. وعليه فقد قمت بإجراء ملاحظاتي قبل أن يخفى الفجر النجوم. وقد كانت ليلة مدهشة ولم يكن هناك شيء رائع أو مثير في هذه العواصف الرملية التي تحدث باستمرار في شبوة. وهي فقط عبارة عن سحب من الرمال تتجول من هنا إلى هناك كأنها لا تدري ما تود أن تفعله. وهي في اعتقادي تشابه العرب المحليين لا مرسى لهم ولا فطنة، يتجولون ويتساءلون متى يرضى عنهم الله ليحوّل فقرهم إلى غنى. ولقد لفت نظري سالم بن حمد؛ وذلك لأن له هدفاً في حياته أكثر من رفاقه. وحتى في تلك اللحظة كان مشغولاً بمشروع لاستخراج الماء من واد ليس به آبار. وكان يتحدث بتعقل عن مستقبله ومستقبل قومه ويتحدث بغيرة عن حياة جيرانه من الجهة الشمالية الآمنة. وملامحه من النوع النجدي وملابسه كذلك.

في الصباح ذهبنا سوياً لنتسلق قمة الأرض الرأسية في رُميد وكان مقدمتها وجانباها شديدي الانحدار مما يجعل المهمة صعبة. وكان علينا أن نسير إلى مسافة على طول قاعدتها قبل أن نجد منحدراً به سهولة معقولة من الأحجار الجيرية الخشنة القاسية جداً، حيث زحفنا بحذر إلى قمة الأرض الرأسية العريضة المسطحة، وهناك تمكنت من رؤية منظر كامل للمنطقة المحيطة. قريباً من شبوة نفسها في الجنوب وحتى الساحل الضبابي في خشم عساكر من ناحية الشرق، بينما في اتجاه الشمال يقع حاجز رملة السبعتين وخلفه كما قال يمكن أن تظهر تلال العبْر في ظروف جوية أفضل. وهبت رياح عاصفة عندما كنا جالسين هناك حوالي ٤٠٠ قدم فوق معسكرنا. وكانت السماء

ملبدة بالسحب الكثيفة والجو مفعم ببرودة محببة ولكن كان كل ما حولنا ضبابيًا قائمًا وقد وجدت عدداً من أحافير عصر الأيوسين في القمة وفي المنحدرات والمرتفعات معاً عندما كنا ننزل إلى أسفل مرة ثانية. وغادرت مجموعة راكبي الجمال منذ مدة طويلة قبل وصولنا إلى رفاقنا في المعسكر. جلسنا لنحتسي أكواباً من الشاي وبدأت تهب نصف رياح عاصفة ومرة أخرى انفجرت عاصفة الرمال علينا ولكن لبرهة قليلة.

واجهتنا مشاكل بسيطة من سيارات النقل عند البدء مع وقودها المخلوط ولكن عند الساعة التاسعة صباحاً تمكنا من المغادرة وكنا نشاهد المنظر الرتيب للمنحدرات الصخرية والأراضي الرأسية ممتدة بلا نهاية على طول الجانب الأيمن من خط سيرنا. وبعد اثني عشر ميلاً من السير السهل وصلنا إلى وادي شعيب النقعة وهو قناة واسعة تنحدر من خليج عميق بالقرب من أرض رأسية ضخمة تسمى قفض وتغطيها كمية وفيرة من الأشجار الخفيضة. وكان الممر في هذا الوادي خشناً للغاية ووعراً وذلك لوجود الأكوام والهضاب الصغيرة من الطمي التي تعتمد عليها أعشاب الحرمل والضفار. وقد أغرى المرعى النضير مجموعة راكبي الجمال لقطع رحلتهم على الرغم من أن الوقت ما زال مبكراً. وبعد أن أوضحت لهم رأيي في تقدمهم البطيء واصلت السير في طريقي تاركاً لهم أن يتبعونا. وكان مجرى القناة في المنطقة التي عبرنا فيه يبلغ عرضه أكثر من ميل، وخلفه يقع سهل شاسع من الحبيبات الخشنة القوية والرمل الخفيف والتي فوقها قدنا سيارتنا عدة أميال في اتجاه الشرق. وأشار سالم إلى واد صغير (مُصيرم) ناحية الجنوب من رقعة الأعشاب والتي حضرت تبعاً لنصح سيد من حضرموت له سمعة محلية في القدرة على معرفة أماكن الآبار، وقد عمل في حفريات البئر آنفة الذكر. وقد ذكر أن اسمها "بئر القرظي" وذلك توقعاً للنجاح الذي لم تقطف ثماره بعد. ولم أستطع أن أزور الموقع في طريق عودتي كما كنت أتمنى ولكن بالتأكيد إنها لا تبدو لي موقعاً مناسباً للبحث عن الماء.

وبعد قليل وصلنا خلف السهل إلى بئر عساكر في واد واسع مليء بالأعشاب يسمى سليل شبيريم أو سليل البئر، يجري على طول منحدر صخري لخشم عساكر لينتهي عند حافة الرمال. وعند البئر وجدنا القليل من الرجال والنساء يقومون بسقي أغنامهم وجمالهم وجميعهم من قسم المرادعة من قبيلة نهد، وعليه فهم من أقارب ناصر بن شماخ الذي استطاع الآن أن يحصل على أخبار مؤكدة عن موقع عائلته. والرجال ذوو وسامة وسذاجة وكانوا عراة حتى الخصر ويلبسون ما يستر العورة حتى الركبة وهذا اللباس مزين بخنجر مثبت على الخصر بواسطة لفة من القماش[1] غير محكمة. واحدة من النساء ذات مقام رفيع عمرها بين عشرين إلى خمس وعشرين سنة تملك جمالاً ملحوظاً كتمثال فينوس مزيّنة بقميص أزرق مثبت بالخصر بواسطة حزام من مادة مطرزة أو مزخرفة رخيصة ومفتوح من الجانبين، كاشفة عن خطوط بارزة لجذع جميل عندما تعمل هي على الحبال. وكل النساء يلبسن الملابس نفسها، بينما الفتيات الصغار كن عاريات حتى الخصر ويلبسن فقط مريلة من السيور الجلدية مزينة بأصداف الودع المعلقة فيها وذلك لتغطيهن من الأمام والخلف، وحول العنق يوجد عقد من الخرز. والأولاد الصغار بالمقابل عراة كلياً من الخصر إلى أسفل، ولكنهم يلبسون خرقًا ورقعًا فوق أجسامهم. واكتمل المشهد الإنساني بحضور اثنين من الأطفال مغطيين بظلة من الأغصان المقطوعة ويجلسان فوق مهد من الجلد. والمرأة الجميلة الصغيرة وبنت أخرى صغيرة الحجم تلبس مريلة من السيور. ولقد تحققت أنهما أكبر وأصغر شخصين من عائلة تتكون من سبعة أفراد تتبع لرئيس المجموعة واستقبلنا أفرادها بضيافة وقدموا لنا الحليب ودعونا إلى مخيمهم في أعلى الوادي لتناول وجبة مكتملة عندما ينتهي عملهم اليومي في السقي.

سميت بئر عساكر بهذا الاسم كما قال سالم، لأنها حفرت في موقع عمود يرجع تاريخه إلى العصور القديمة، بواسطة جنود تابعين للإمام فيصل بن سعود[2] في

(١) يسمى الإزار وهو لباس يشتهر في جميع سواحل جزيرة العرب على البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي. (المراجعون).

(٢) أي الإمام فيصل بن تركي. (المراجعون).

الوقت نفسه الذي خطط فيه طريق العبر للحجاج. وعمق البئر ليس أقل من خمس وثلاثين قامة. وقد وجدت عند قياسي للحبل أن طوله أربع وثلاثون مرة مثل طول امتداد يدي الاثنين ولنقل ٣٤×٥,٧٥ أو ١٩٨ قدماً. ويبدو لي أنه من المستغرب أن يستعمل هؤلاء الناس آباراً بهذا العمق الهائل ومع ذلك لم يستخدموا نظام السحب بواسطة الجمال التي تستعمل عادة في نجد وفي الآبار العميقة في الربع الخالي. والحقيقة أن كل العمل تقوم به النساء وهن ينشدن «ياهب وهب هب وهي هي أوب» ويتواصل الإنشاد حتى يرتفع الدلو إلى أعلى البئر من العمق في الأسفل حتى يُمسَك به ويصب الماء في الأحواض المصنوعة من الجلد الموضوعة بين الحيوانات. هذا عمل عظيم بالتأكيد ولكنهم لا يعيرونه اهتماماً. وكل ذلك جزء من الواجب اليومي الذي يفرضه الله الذي يراقب رعيته وعباده. ويبلغ قطر البئر في الأعلى ١٢٠ قدماً تقريباً، أما فوهة البئر فقد رصفت بحجارة غير مشذّبة متوسطة الحجم من أعلى حتى القاع خلال رمال الوادي.

هناك طريق الجمال العادي من حضرموت إلى قرى عرما الذي يجري إلى أعلى هذه القناة ومن ثم إلى داخل خليج مبطن بمنحدر صخري شديد، ومنه يرتفع إلى شريط رفيع من السهل الواسع ثم ينزل إلى وادي عرما في الخلف. وخشم عساكر نفسه عبارة عن كتف جبل يرتفع ٧٠٠ أو ٨٠٠ قدم فوق البئر في حافة صخرية طويلة مفلطحة القمة وخلفه صفوف غير واضحة من الأراضي الرأسية المتشابهة تذوب في البعد في أراضي «الرملة». وكان الجو حاراً والهدوء مخيماً عندما توقفنا وقد مددنا فترة التوقف هذه حتى الساعة الرابعة والنصف ظهراً وذلك لأن مجموعة راكبي الجمال ما زالت خلفنا بمسافة طويلة. وقد ظهر خط من الظلام في السهول الصفراء ويبدو أن هنالك عاصفة تختبئ في مكان ما على البعد في اتجاه الشرق والجنوب الشرقي، جاهزة لتهب علينا أثناء تقدمنا.

مررنا من الوادي إلى طريق من الحصى الخشنة انطرح من منحدرات البقايا التي تكسو الجزء الأسفل لحواف جبل عساكر كالمريلة. وهنا طريق الجمال الملتوي مسجل بعلامات عميقة على سطح السهل. وعلى جانب الطريق يقف ركام ضخم من الحجارة يمثل المساهمة الدينية للمسافرين عبر هذا الطريق لأضرحة بعض الأسياد المتوفين الذين لا تعرف الأجيال الجديدة أسماءهم الآن. والطريق في هذه المنطقة يجري في مسافة غير بعيدة جداً من خط المنحدر الصخري حيث يتقاطع في فواصل بواسطة أربعة خطوط عشبية للتصريف تجري إلى أسفل في اتجاه ذيل وادي عساكر. وعلى اليسار توجد كتل متلاطمة من الرمال تصل إلى حافة سهل الحصى، تحد عرض طريق المرور الذي كانت له سمعة سيئة في بعض الأوقات كملجأ للصوص قاطعي الطريق. ومما لا يدع مجالاً للشك أنه للحفاظ عليه كطريق مفتوح لاستعمال المسافرين الشرعيين، شيدت القلعة الصغيرة أو نقطة مراقبة قرن البنا في العصور القديمة، كما أعيد بناؤها ثانية في فترات مختلفة لحكومات قادرة على فرض احترام سلطاتها.

في هذا المكان، بعد الاستمرار في قيادة السيارة لعشرة أميال من بئر عساكر، نصبنا مخيمنا لقضاء الليل ولننتظر بصبر حتى تصل جمالنا وكذلك طعام العشاء. وبما أن الوقت كان على مقربة من وقت مغيب الشمس عند وصولنا، تركت الهضبة الصغيرة وآثار الخراب التي أخذت اسمها منها وذلك لإجراء الفحص عند الصباح. وعند قاعدتها تقع بئر مهجورة مشيّدة بمهارة عالية بواسطة كتل حجرية مشذّبة وقطرها عند فوهة الأسطوانة حوالي عشرة أقدام. ولم يستطع سالم أن يخبرني عن الوقت الذي كانت تحتوي فيه البئر على ماء ولكنه افترض أن العمود والبئر معه قد أُجريَ لهما صيانة واحتلت بواسطة جنود فيصل. وكذلك لم يستطع أن يخبرني عن عمق الأسطوانة حتى سطح الماء. وفي الوقت الحالي فهي مغطاة بالرمال من حوالي خمس وعشرين قدماً أسفل القمة. أما الهضبة نفسها فلم يكن ارتفاعها أكثر من ثلاثين قدماً وتتكون من حجارة رملية ضخمة في القاعدة مغطاة بواسطة ألواح ضخمة وصخور كبيرة الأحجام

من الحجر الجيري وهي جسم خارجي معزول من المنحدر الصخري الرئيس والذي خفض إلى خطه الحالي على بعد ميل بواسطة التّغيرات الجوية منذ آلاف السنين.

وعلى القمة توجد بقايا الخراب المتداعية لمبنى صغير غير مثير للاهتمام ما عدا وجود جدران مغطاة بالأسمنت والتي قد تكون عبارة عن صهريج على جانبه. وهو خالٍ كلياً من النقوش وقد لا يكون أي شيء أكثر من عمود للطريق. وحول قاعدة الهضبة بين مداميك الحجارة الرملية الناعمة الوجه والمتهاوية على المنحدر وجدت عدداً من النقوش الحميرية للعرب الأوائل، فضلاً عن رسومات ومخربشات عديدة تشمل تمثيلاً جيداً لراية الاتحاد البريطانية.

ونقطة الحراسة هذه استعملت من أجل حماية الطريق، إذ تتحكم في الدلتا الشاسعة لوادي دُهر والتي ترتفع إلى الخلف بعيداً في عمق السهل الواسع بالقرب من رأس وادي عربة في اتجاه جنوبي غربي من هنا، منحدرة إلى السهل، لتجري بين الخطوط المتباعدة لسلسلة ثنائية من منحدرات صخرية رائعة وأراض رأسية عند قدم الكتف (دعامة) المهيب يدعى خشم عندل والذي يمتد في الدلتا عن طريق ثلاثة خطوط تصريف سهلة التمييز مغطاة بكثافة عشبية وشجيرية أكثرها نحو الغرب، ويأتي شعيب فريحة نحو قرن البنا ويحيط به عند مروره إلى نهايته الرملية. وفي القناة الوسطى مستوطنة صغيرة تسمى محيميد -تتكون من حصن منفرد من طابقين واثنين أو ثلاثة أكواخ طينية منخفضة- في قاعها، وتتلاشى إلى سهل رملي في اتجاه الشرق. والفرع الثالث سيله الذي يجري بالقرب من المنحدرات الصخرية على طول ضفته اليمنى والذي يمكن اعتباره المجرى المؤثر لوادي دُهر. إنه يمر على الأرض الرأسية لخشم مجوعة، وعند أسفله في القناة توجد بئر تحمل الاسم نفسه، ليلاقي الوادي الهام، وادي رخية في بئر حمد، ثم تستمر القناة المشتركة حتى وادي حضرموت. وعليه فإن دُهر في الوقت الحالي هو الفرع المؤثر لوادي حضرموت في جهة الجنوب

من الرملة. وكل القنوات التي تقع على جهة الغرب منه تختفي في الرمال قبل أن تصل إلى هدفها المنشود. أما مستوطنة محيميد فهي تتبع لسالم بن علي بن مقصف رئيس عشيرة القمازين من قبيلة نهد. وقرن البنا تعد عموماً الحد الفاصل بين قبائل الكرب ونهد، والأخيرة (نهد) تحتل فقط الدلتا في دهر ورخية، بينما سهل الحوق يتبع لمجموعة آل بلعبيد التي لها صلة قربى مع الكرب في اتجاه الشرق حتى المراكز الرئيسة العليا لرخية وهي مع المنطقة المحيطة بها تتبع لوحدة قبلية غير مرتبطة ومستقلة تدعى سهابيل. وتزعم نهد أنها من أصل قحطان وتكون مع المرادعة والقمازين أقسام تدعى آل يزيد (السويدة وبني زوع)، آل ثابت والحكمان (السكارين وآل عجاج) إضافة إلى ذلك فإن القائمة الكاملة للأقسام والفروع الصغيرة لنهد تشمل: بذياب، آل يماني، حديجان، آل بدر، حتيرش، مقيزع، آل منيف، السرمان، آل حويل، عطير، عرفان، آل شبيب، آل عبري، المقاريم آل خرشان(1).

حتى الآن ونسبة للضباب المحيط بنا فإننا لم نر أي شيء من البلاد الواقعة شمال الرمال، والتي تكون عند الظروف الجوية الممتازة واضحة بسهولة حتى جبال العبْر. وهنا من قمة قرن البنا استطعنا أن نرى المشهد الأول من هذا الجانب للأرض الرأسية لطرف العين والتي لوحظت من قبل من قمة أبو مخاري. هذه هي البقعة الأولى التي يبدأ فيها الحزام الضيق لرملة السبعتين والأودية التي على جانبيه لتصبح محاطة من الجانبين بالمنحدر الصخري حيث تكوّن ما يشبه القمع الذي يربط القناة الميتة الثلاثية لسبأ القديمة، مع الوادي الحي «حضور الموت». ومن خلف «طريق العين» في اتجاه الشرق، كان يمكننا أن نشاهد بغير وضوح دعامات وادي سر البعيدة، وهي دهر على الجانب الجنوبي، تمثل الرافد الأول العامل لوادي حضرموت من

(1) هناك فروع أخرى من هذه القبيلة لم يوردها المؤلف، وللمزيد عن هذه القبيلة انظر: الشاطري: أدوار التاريخ الحضرمي، ص ١٧١، ١٨٠، ٣٦٣-٣٦٤.

الجانب الشمـالي للرملة، والذي تقع حافته الجنوبية إلى الخلف على بعـد ثلاثة أميال من موقعنا الحالي.

تركنا سالم بن حمد عند قرن البنا قبل أن نستمر في رحلتنا، وبدأت الجمال من قبل عند الساعة ٥:٣٠ صباحاً حـتى تستطيع استعادة الزمن الذي فقدته أمس. وبقي سالم في ذاكـرتي في هذه الرحلة الطويلة كواحد من أكـثر الأفراد الذين التـقيت بهم منطقـاً وجاذبـية ولم يبـد في أي وقت أي عـلامة لحب المال والـربح الذي دائماً مـا يحجب الصفـاء الداخلي لرجل الصحراء. وقد تقبّل هديتي البـسيطة دون أي كلام. وودعني بدعواته بعـد أن تحدثنا كثيراً عندمـا كنا نجلس على قمة التل الصغـير وجدياً عن سياستـهم في الصحراء وآمالهم ومخاوفهم. ثم غـادرنا إلى القصر الذي أتينا منه تحت قيـادته وأخذ مـعه من مخـزوننا قليلاً من البن وقليـلاً من الخبز كـزاد للطريق. وسوف يلتقي ببعض أهل منطقته عنـد طيات منحدر عساكر أو في الوادي ومن بينهم زوجته.

كانت الليلة كـئيبة وهبت فيـها رياح نصف عاصفة في مـعظم الوقت. وكلما تهب الريح تحمل أيضـا سحباً من الرمال، عندمـا كنا مجتمـعين، سالم وكاتب هذه السطور والقليل من الآخرين، أمـام المذياع حتى يتوفر لي الزمن لتسـجيل ملاحظاتي ولكي نستمع إلى الصـوت الذهبي للقدس يعلن الأخبار اليوميـة وكنت دائماً أتعجب كـيف يكون شكل تلك المذيعـة التي يصلنا صـوتهـا كل ليلة هناك في تلك المنطقـة الموحشة، بهدوء ووضوح. بالنسبة للعرب الذين لا يفـهمون معنى كلماتها هو مجرد صوت امرأة تتحدث في تلك العاصفة، ولكن قد يثير انتباههم بغير حماس في الحالة الخاصة عندما يعلن المذيع العربي توقيع الاتفاقية بين مصر وبريطانيا. وذلك أمر يمكن أن يفهموه في خـضم الأشياء الأخرى غير المفهومـة على الرغم من أنها ذكرت باللغة العربـية. وعند منتـصف الليل زاد عنف العاصـفة ولكن الفـجر كـان هادئاً وسـاكناً وبريئاً.

بينما اختفى سالم بعيداً، اتجهنا بسيارتنا إلى جهة الشرق وسرنا في طريقنا عبر الشواطئ العديدة لوادي دهر والأشرطة المتداخلة من الحصى بين قناتي مذينب والسيلة. وكانت القيادة سهلة جداً عبر سهل رملي عريض بينما الأشرطة العديدة من المناطق المغطاة بالشجيرات والخطوط المنخفضة من الرمال المكونة لوادي السيلة لم تشكل أي عائق. وبعد ذلك بميلين أو ثلاثة أميال وصلنا إلى بئر مجوعة وهي بئر عميقة عند أو بالقرب من قاعدة أرض رأسية شامخة تحمل الاسم نفسه. وهذه البئر يبلغ عمقها خمس وثلاثون قامة، مبطنة بحجارة إلى ست قامات من رمال الوادي، وبهذا تقطع عبر صخرة الحجر الرملي التحتية، وهناك عدد من الرجال والنساء متبلدي الإحساس وغير مضيافين كانوا يسقون جمالهم وأغنامهم، أخبرونا أن بئرهم على وشك أن تجف، وهذا ما يبدو فعلاً. ولم يشهد وادي دهر أي سيول هذا الموسم على الرغم من أننا وجدنا أن مجرى وادي رخية الذي يبعد خمسة أميال مبتل من هطول أمطار غزيرة في الأسبوع الماضي.

تقف الأعمدة الثنائية المربعة الرؤوس في قوايم السر أو الثكمين كحارس لمدخل وادي سر خلف حزام الرمل، الذي ظهر لنا للمرة الأخيرة من على البعد من ناحية الشمال الشرقي. وفي الحال وصلنا إلى حافة الدلتا الواسعة بوادي رخية والتي عندها يمتد إلى الخارج على شكل مروحي من واديه العريض المحاط بالمنحدر الصخري ليلتحم مع دهر عند حافة الرمال. وفي وسط هذه الدلتا على بعد ميلين وصلنا إلى الحصن الصغير وبئر عامر حيث قررنا أن نعسكر حول البئر التي يوجد بالقرب منها مجموعة من الأكواخ الصغيرة مصنوعة من قضبان مضفرة بالقصب والقش. وعلى بعد أميال قليلة في أعلى الوادي وأسفل أرض رأسية على ضفتها اليمنى تقع مجموعة أخرى من الحصون الصغيرة حول بئر تسمى الحسوة تتبع آل خرشان وهي من الأقسام الصغيرة لنهد، وقد أخبرت أيضاً بمستوطنات أخرى أعلى النهر. ونحن الآن بالتأكيد على أعتاب منطقة بها مياه جيّدة وبها مجموعة سكانية معتبرة من نهد والذين يعد

ميلهم نحو عدم احترام القانون العائق الوحيد لتطوير منطقتهم الخصبة على الرغم من أنها رملية. وبالقرب من معسكرنا يوجد حوض كبير محاط بفواصل رملية لتحجز مياه السيول. وفي إحدى زواياه كوّنت الأمطار التي هطلت حديثاً بركة كبيرة بينما تغطي مجموعات من أشجار "العلوب" المخضرّة مساحة كبيرة. ومياه بئر عامر عمقها ست وعشرون قامة عن صخرة الأحجار الرملية والجزء الأعلى من الأسطوانة مضفور بالحجارة كما هو الحال في مجوعة.

كانت مجموعة الجمال قد استقرت للراحة منتصف النهار بين أشجار العناب (العلوب) ولكنهم انضموا إلينا في البئر والتي أردت أن أقيم المعسكر فيها لإجراء ملاحظاتي . وهناك بعض الزوار من نهد أتوا مباشرة بعد استقرارنا، وسمعتهم يحيون رفاقي عند وصولهم ويقولون: «أيها الربع، هل هذا نصراني» وفي هذه المناطق تستعمل هذه الكلمة لتعني عادة شيئاً أكثر من أجنبي بقليل، وإنهم سمعوا كما أوضحوا الآن أن هنالك نصرانياً يسافر في المنطقة؛ لذا فقد أسرع رفقائي لتصحيح الخطأ لهم وقد ترددوا في قبول التوضيح. وعلى كلٍ فقد جلسوا معنا ليستمتعوا بضيافتنا عند تناول وجبة العشاء. وقد لاحظت أنهم حصروا اهتمامهم على اللحم، متجاهلين عجينة الخبز والتي أصبحت منذ زمن بديلنا للأرز.

هنا، مرة أخرى هبت علينا عاصفة رملية بعد وصولنا وأتت علينا من الشمال ومؤقتاً أخفت كل العلامات الأرضية في هذا الاتجاه، وبعد توقف العاصفة في منتصف النهار تجولت بين أشجار العنّاب والتي أوت مستعمرة كبيرة من العصافير الصغيرة، لا توجد طيور أخرى عملياً لكنني رأيت طائر الذعرة وطائراً صغيراً ذا ذيل طويل يهتز بالقرب من الماء. وقد كان الجو حاراً وثقيلاً أثناء النهار وساكناً جداً مع سحب العاصفة المتجمّعة حولنا في تلك الليلة وللمرة الأولى جذب الفانوس مجموعات من الحشرات ومعظمها كان من الجنادب. وجدت في رمل القناة كتلاً من أصداف صغيرة ملتوية وفي صباح اليوم التالي (١٥ أغسطس) لم يكن هناك ما يشير

إلى هبوب عاصفة ولكن ظهر على الأرض ضباب خفيف أخفى العلامات الأرضية البعيدة. وكالعادة تقدمت مجموعة الجمال وسبقتنا في الرحيل وبدأنا نحن الرحيل حوالي الساعة ٨ صباحاً وبعد التحرك مسافة ثلاثة أميال وصلنا إلى بئر عمقها ثماني عشرة قامة وهي بئر حديجان التي يوجد بها الحصن، كالمعتاد بجانبها، و تتبع الحكمان من نهد. وكانت هناك مبان شبيهة تحمي البئر تحت الأرض الرأسية عاصم وحزيم التي ليست بعيدة. وإلى يمينها توجد الحواف الصخرية "بودو Budu" التي تكوّن الضفة اليمنى لدلتا رخية عندما تظهر في السهل. أما بئر عاصم التي وصلنا إليها بعد ذلك تقع في وسط واد رملي شاسع مع وجود بعض أشجار السدر وشجيرات خفيضة الارتفاع أخرى وهذه البئر غير عميقة وذلك نسبة لامتلاء الأسطوانة العميقة بالرمل، ولكن عموماً تماثل بئر عامر في بطانة الحجارة. وخلف هذه النقطة تعرّج طريقنا والتف كثيراً ليتجنب الألسنة الطويلة للرمال والتي كأنها قذفت إلى الخارج بواسطة أحزمة الرمل في اتجاه المنحدر الصخري. وتظهر الآن مستوطنات نهد على مسافات متكررة وتلك التي تتبع لحزيم المذكورة من قبل، وهي عبارة عن قرية صغيرة مكوّنة من نصف دستة من المساكن الشبيهة بالحصن، ثم الحصن المنفرد دويد ثم قرية مالك الصغيرة تحت أرضها الرأسية المهيبة يتبعها حصون شريج في موقع مشابه. ويوجد عند مالك بستان نخيل صغير دون علامات لوجود تمر وخلفها يصبح الطريق وعراً على هيئة شريط من الأرض الحجرية يفصل قاعدة المنحدر الصخري من قنوات السيل الرملية التي تنحني دائرياً من تجويفها إلى الوادي الرئيس. والآن بدأنا نرى الأرض الرأسية قمران وكثر التي تكون بوابات حضرموت وتقدمنا عبر غطاء كثيف من أشجار السدر المنتشرة في الوادي بعيداً عن قاعدة المنحدرات الصخرية.

وبينما كنا نمر على مستوطنة شريج أتى بعض سكانها (من آل ثابت) إلى الطريق ليعبروا عن احتجاج خفيف، ولقد أوضحت لهم مجموعتنا من الجمال الوضع من قبل، والاحتجاج كان بسبب مرورنا عبر منطقتهم لزيارة معسكر أعدائهم

(الحكمان). وحقاً، كان يجب أن نتقبل ضيافتهم، وإن رئيسهم كان موجوداً في مكان ليس ببعيد في أحد الأودية الصغيرة في طيات الجرف. واعتذرنا لهم ووعدناهم بزيارتهم في طريق عودتنا ومن ثم تركونا نمر دون إصرار ولكن هذه الحادثة أكدت لنا الحالة غير المستقرة في هذه المنطقة التي نمر بها. بعد ثلاثة أميال من شريج ولمسافة بسيطة في اتجاه اليسار من طريقنا يقع نخيل وقرية حصن مبارك، مع الحوض الرملي الشاسع الخشعة، الذي يمتد شرقاً في جبهة واسعة لمسافة ثمانية أميال. وهذه المنطقة بها العديد من الحصون والقرى الصغيرة، وقد ذكر أنها تحوي ما لا يقل عن ثلاثين بئراً. ولكن هذه المنطقة ذات الإمكانيات الهائلة لإنتاج الحبوب تظل مهملة وغير مستقلة وبقيت كذلك لسنوات عديدة وذلك يرجع إلى الفوضى التي تتمتع بها قبيلة نهد التي لا تدين بولاء إلا إلى السلطان القعيطي، فكل قسم يتبع لرئيسه أو زعيمه. وزعماء الحكمان وأهل ثابت في حروب مستمرة مع بعضهم. ومستوطنات الخشعة الأخيرة التي تقع على الطريق هي حصن دويد وقرية رهطان المكوّنة من رقعة من النخيل وثلاثة حصون في وادٍ عريض يخرج من الجرف المجاور.

ابتداء من هذه النقطة فنحن في منطقة آل عجاج ومن ثم تحت حماية زعيم الحكمان وطريقنا يقع على سهل من حبيبات رملية خشنة، والخط الواضح المؤدي لرملة يقع على بعد ميل على يسارنا، والمنحدرات الصخرية للجرف تقع على طول جانبنا الأيمن. ومن الأخيرة أصبح طريقنا قناة ذات خواص ملحية، ما زالت مبتلة من الأمطار الأخيرة، حتى وصلنا إلى أول الآبار في جانب الطريق (الساقية) والتي تميز وادي حضرموت، وقد أنشئت من أجل فائدة المسافرين العطشى نتيجة لفضل تقويم الحضارم. وفم البئر محاط بواسطة جدار حجري منخفض وهي مسقوفة بقبة بيضاء، وهذه البئر تقع عند قاعدة الأرض الرأسية في آل كثير وفي جانبها البعيد وعند التفافنا حول الزاوية رأينا هدفنا المباشر وهو قرية قعوضة وبساتين النخيل وحقول الذرة في وادي «آل كثير» أمامها.

سافرنا حوالي ثلاثين ميلاً بعيداً عن بئر عامر ولم يكن الظهر قد حل بعد عندما ارتفعنا من أعلى الوادي إلى المنحدر المكون من الحصى الخشنة، ومررنا عبر سكان القرية المتجمهرين وفي طرقاتها الملتوية ومن ثم مررنا إلى منزل الشيخ.

بعد تجوال طويل في الصحراء بدا لنا أننا بدأنا نعود إلى الحضارة ثانية. ومضت ثلاثة أسابيع فقط منذ أن تركنا الراحة والأمان في نجران، ولكنها تبدو وكأنها أطول من ذلك. فالتعب الجسماني نتيجة للسفر في الصحراء لا يعني شيئاً مقارنة بالضغط العصبي والنفسي خاصة في الأراضي الحدودية للصحراء حيث لا يمكن الاستخفاف بالولاءات القبلية. وفي حقيقة الأمر لم نقابل بغير الود والصداقة تقديراً واضحاً لخوف الصحراء من ملك الصحراء[1]، ولكن نجاح كل يوم كان ثمنه القلق في الليلة السابقة، وإنه لشيء جميل أن نشعر أن مشاكلنا وقلقنا قد انتهى لمدة من الزمن. ويمكن أن نستلقي ونرتاح لفترة في أحضان الترف والحضارة. ومن المؤكد أن استقبالنا في قعوضة أنتج أو أكد ذلك الوهم.

مبارك بن محمد بن منيف زعيم قسم الحكمان من نهد رجل جذاب، عمره بين خمس وخمسين وستين سنة وطقم أسنانه المصنّع بغير إعداد جيد جعل من الصعب فهم حديثه. فالرجل لا حدود لضيافته وكرمه ووجه غير زائف. ولقد زار مكة للحج في عام ١٩٣٤م وكانت له أحاديث كثيرة وعديدة ودية مع ابن سعود. وكان لا يخفى حقيقة أنه تابع لملك العرب[2]. وعلى الأقل فإنه يرفض ارتباطه بولاءات أخرى ولكنه يحتاج للسلاح للحفاظ على موقعة في عالم القبائل المكتظ بالأعداء. وكان هذا همهُ الشاغل الآن. وعن الأمور الأخرى كانت معرفته ضئيلة على الرغم من سنوات عمره

(١) يقصد بملك الصحراء الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود -طيب الله ثراه- وهذا اللقب واحد من الألقاب العديدة التي أطلقت عليه من قبل الكتاب والمؤرخين. (المراجعون).

(٢) ملك العرب: لقب من الألقاب العديدة التي أطلقت على الملك عبدالعزيز -رحمه الله-. (المراجعون).

المديدة، وفي المواضيع الأخرى ليس لـديه ما يثير الاهتمام إلا الـقليل. ومنزله عبارة عن قلعة من الطراز الحضرمي. فالبناء كـالح وكئيب من الخارج وجميل من الداخل، وحجراته واسـعة ولطيفة بسيطة الأثاث. ويلاحظ أن الدرج والممرات والحـجرات لها أرضية من الأسمنت وكذلك الحمامات والمراحـيض نظيفة جداً. ولقد تم توجيهنا إلى أعلى إلى الغرفة الرئيسة للضيوف في الطابق الثالث وهي غـرفة كبيرة مربعة ومدعمة بأربعة أعمدة رفيعة من الخشب ومنحوتة ببساطة في الوسط. والجدران مطلية بحرص خالص وبهـا نوافذ في ثلاث جهات مـتجهة إلى الخـارج. ويلزم التنويه إلى أن عدداً كبـيراً من الطبقة الحـاكمة قد تجـمعوا لاسـتقبالنا. وبينـما كنا نجلس في شكل دائرة مـتكئين على وسائد على الأرض، كـان أحـد العبـيد يصب لنا القـهوة في أكـواب صغيرة، كوب واحد لكل شخص من الحاضرين. وتوضع الأكواب عادة على الأرض بالقرب من الضـيوف لكن بالنسبـة لي فقد وضعت أمـامي ثلاثة أكواب على الأقل. وكانت هذه أول تجـربة لي مع هذه الطريقة المميـزة الحضرميـة للترفيه عن الضـيوف. وثمة إشارة وهي أن الملابس التي يلبسها الناس المجتمعون كانت متنوعة.

العديد منهم كان عاريًا حتى الخصر ويلبسـون قماشًا يحيط بالخاصرة ومربوطًا بعدد من قطع قمـاش أخرى يخرج من طياتها خنجر في غمـده المحلّى بالجواهر. أما الآخرون فقـد كانوا يلبسون قمـصانًا تغطي الصدر (صديرية) بسيط بالإضـافة إلى ما وصف، بينما يضـيف البعض لهذا بدلة من قمـاش ملون ذات زرار واحد عند العنق ولكن يظل الجزء الأكبر مفتوحاً.

بعد ذلك قدمت لنا وجـبة منتصف النهار في ثلاث صـوان دائرية مصنوعة من أغصان الدانة مجدولة وضـعت على الأرض كل واحد في ركن من أركان الغرفة وفي وسط كل منها وضـعت طاسة كبـيرة من المرق حولهـا الأرز ولحم الضأن. ولم يكن هناك خضار أو أي إضافات أخرى للوجبة والتي كانت غير مثيرة ولكن مطهية جيداً. وجلس مضـيفنا بعد تـردد معنا في منضدة الزعـيم عند إصرارنا على الدعـوة، وبعد

الوجبة سألت إذا كان من الممكن أن تخصص لي غرفة للراحة، وقد دعيت إلى غرفة صغيرة نظيفة مجاورة لحجرة الضيافة الكبيرة. وأيقظني من النوم صوت عالٍ لطلقات رصاص عند الساعة الرابعة بعد الظهر ويبدو أن هنالك شخصاً كان في وضع مكشوف للعدو المتربص في المنطقة المحيطة بالقرية. كانت هذه هي الطلقات الأولى التي سمعتها منذ أن بدأت رحلتي في شهر نوفمبر السابق. وبينما كنت أنظر من خلال النافذة إلى الجمهور المتجمع حول السيارات في الشارع رأيت مجموعة صغيرة من الفتيات في البلكونة السفلى ينظرن مثلي. ومن المفترض أنهن بنات مضيفنا مع صديقاتهن وخدمهن وأعمارهن تمتد من سنوات قليلة حتى اثنتي عشرة أو أربع عشرة سنة. وكان منظرهن جميلاً للغاية، كن يلبسن ثياباً مُزَهَّرة (بها رسومات أزهار) من الأزياء المحلية، قصيرة من الأمام ولكنها طويلة مجرجرة من الخلف. ويبدو أن اللون الأحمر هو السائد مع أنماط من الأخضر والأسود والأصفر، والعنق مربع يميل على الكتف على جانب أو آخر. رؤوسهن غير مغطاة وشعرهن مصفف باهتمام مع فاصل في الوسط وضفائرهن بها أشرطة، وبعضهن ذوات جمال خلاب مع وجود الكثير من الآثار السيئة الصغيرة من عهد الطفولة.

كانت الساعة الخامسة بعد الظهر عندما غادرنا منزل الشيخ مبارك واعدين إيَّاه بزيارته ثانية في طريق عودتنا. وبدأنا الرحلة من قعوضة إلى هينن والتي يمكن رؤيتها بغير وضوح في الجانب الآخر للوادي تحت المنحدر الصخري قمران والخليج العظيم المحاط بالمنحدر الصخري الذي يعرف بوادي الكثير هو حقيقة عبارة عن اتحاد لثلاثة أودية هامة، هي: وادي دوعن، ليسر، وعمد والتي تجري قناتها المشتركة الآن شمالاً عبر وادي حضرموت لتروي حقول هينن، والتي يروى جزء من منطقتها من وادي هينن الذي يجري إلى الوادي الرئيس من جهة الشمال. ولا شك أنه في مواسم السيول الاستثنائية فإن مياه دهر و رخية تصل إلى هذه المنطقة، على الرغم من أنها قد لا تمتد خلف أرض الخشعة. وعبر الخليج عندما بدأنا رأينا صورة وديار البقري وقد زارتهما

فريا ستارك حديثاً، والتي تُطلق على قعوضة دائماً المدينة المنافسة أسفل المنحدر الصخري.

كان الزمن كافيًا للوصول إلى هينن عند مغيب الشمس ولكن تضافر بعض الظروف المعاكسة أخّر وصولنا حتى بعد الظلام. وكانت المسافة حوالي ثمانية أميال، وزامن عند مرورنا في حافة وادي حضرموت هبوب عاصفة رملية غطت المنطقة أمامنا، وسرعان ما أحاط بنا الضباب الكثيف مما أرغمنا على التوقف. لم يكن بإمكاننا أن نرى إلى أبعد من ياردة أمامنا، إضافة إلى ذلك أن الوادي كان قد قطع بواسطة قنوات سيول حديثة، وعليه فإنه من الخطأ أن نتقدم دون التمكن من الرؤية. ونتيجة لهطول أمطار خفيفة توقفت العاصفة، ولكن كان تقدمنا بعد ذلك في اتجاه أسفل قناة السيل يعوقه بين الفينة والأخرى وجود بقع مشبعة بالماء والتي تتسبب في وحل السيارات، وعليه فقد وصلنا إلى قرية آدم بصعوبة وهي قرية كثيفة السكان على الضفة اليمنى للقناة لنجد أنفسنا في وسط منطقة العدو.

وتتبع القرية إلى آل ثابت المنافسين لمضيفنا الحالي. ولم يكن هناك ما يخفي إننا قضينا وقتاً في قعوضة. وقائدنا بالتأكيد واحد من رجال مبارك الموثوق بهم. وعليه فقد أوقفنا في وسط القرية بواسطة جمهور كبير من أهلها الذين لم يكونوا عدوانيين ولكن من الواضح أنهم لا يعترفون بحقنا في المرور وقد عبّروا عن اعتراضهم لقائدنا وادعوا الحق في أن يرشحوا قائداً منهم. وكان من غير الممكن لي أن أعترض، ولحسن حظنا فإن شيخ القرية قد قرر أن يرافقنا وهو رجل صغير العمر يدعى شيبان، يمكن أن يتخذ كنموذج لتمثال أبولو، عارٍ ما عدا وجود قطعة قماش تحيط بالخاصرة وخنجر وحزام عريض وبندقية، نموذج للإنسانية كما يمكن تخيله، ونُقلَ القائد الذي أتى من قعوضة إلى سيارة النقل بينما ركب معي شيبان كمرشد وعليه فقد خرجنا بسرعة من الجمهور المهتاج إلى الظلام المتجمع الذي عمَّ الوادي، متجنبين قناة السيل ومتقلبين على متاهات كثبان الرمال التي في طريقنا. ولحسن حظنا فإن الأمطار

والسيول التي حالت دون استخدام القناة كطريق للسفر جعلت الكثبان الرملية صلبة، أما شيبان الذي لم يركب سيارة أبداً من قبل فقد أرشدنا بكفاءة مذهلة، وكان لابد لنا من التوقف بين فترة وأخرى لنبحث عن ممر بين كثبان الرمال. وعند اقترابنا من هينن شكلت الحقول التي جُرفت حديثاً وغمرت بالمياه للزراعة، عائقاً آخر لتقدمنا، ولكن الحظ كان حليفنا، فعند الساعة السابعة في المساء تمّ الترحيب بنا في أول نقطة حدودية للسلطنة القعيطية، وهي جزيرة من الحضارة في البحر المضطرب بفوضى نهد.

الوصول إلى حضرموت من شبوة كان من خلال منطقة قبلية مستقلة تتبع الكرب (آل مسفر) حتى قرن البنا وإلى أقسام مختلفة من نهد بين تلك البقعة وبين مداخل حضرموت. وتمتد منطقة نهد حقيقة في الوادي حتى فرت -مع عدم تبعية هينن لسلطانها- حيث تبدأ سلطة القعيطي. وشبوة نفسها كما رأينا تقع في منطقة آل عويرة (الكرب) بينما الجروف والسهل الشاسع في حوق التي تقع إلى الجنوب من خط سيرنا تتبع لعناصر مختلفة من مجموعة قبائل بلعبيد -والتي يعرف الكرب فيها أكبر وأهم وحدة- حتى المواقع العليا من دهر ورخية، حيث وجدنا عناصر نهد "الشحابلة Sahabil" المستقلة.

ومن ناحية جغرافية فإن محافظة حضرموت محاطة من الغرب بخط وادي عمد ووادي هينن مرتبطة عبر الوادي الرئيس بوادي الكثير من قعوضة إلى هينن. ومن الوجهة السياسية فإنما تكون سلطنتا القعيطي والكثيري مع عدد من الوحدات القبلية المستقلة أو شبه المستقلة وتعد الحدود الطبيعية الجنوبية هي الحد أو الخط الفاصل الذي يقسم وادي حضرموت من الممرات الضيقة والسهل الساحلي للشحر والمكلا، وهي إمارة تتبع للقعيطي والتي يتبع لها سياسياً القسم القعيطي من حضرموت. وإلى الشمال من هذا الحد الفاصل وإلى الغرب من خط عمد هينن توجد منطقة قبائل مستقلة تمتد حتى وصولنا إلى حدود سلطنة العوالق (العليا

والسفلى) الـتي تقع تحت الحماية البـريطانية. وإلى الشـمال من خط سـيرنا وخلف الحزام الرملي لرملة السبعتين تقع منطقة الصيعر التي تمتد حتى الأرض الرأسية لطرف العين في جـهـة الشرق، بيـنما الأراضي بين تـلك البقـعـة وهينن تتـبع آل زيد من الكرب. وكلا الوحـدتين القبليتين مسـتقلتان تماماً على الرغم من أن القـسم البدوي للصيـعر والممتد عـبر الصحـراء حتى حدود نجران ينظـر أهله لابن سعود كسـيدهم المعروف دون حدود.

وحـسب علمي حتى الآن فـإن الأوربي الوحـيد الذي حـاول من قـبل القيـام باستكشافات جغرافية جـادة في هذه البلاد التي وصفت في هذا الفصل هو قائد سرية أ.ر.م ريكاردس الذي سافر من حضرموت في عـام ١٩٣٣م عبر طريق أحياناً يتطابق مع طريقي هذا ويختلف في أحايين أخرى، والتفّ حول جنوب شبوة -والتي لم يرها أو يزرها- ومتقدماً ناحية الـغرب إلى أنصاب وبيحان بطريق سوف تسنح لي الظروف أن أصف جزءاً منه في فـصل قادم من الكتاب. ولا يبدو أنه عـرف أن الأودية المهمة دهر ورخية هي روافد من وادي حضرموت وفي خريطته غير المنشورة جعلها تجري في اتجاه العبْر. ووفاته في حادث طائرة أثناء رحلة طيران استكشافية فوق الساحل العربي للخليج العـربي في خـريف ١٩٣٧م ترك فراغـاً يؤسف له في سلسلة اسـتكشافـات الجزيرة العربية. والذي يستخدم الطائرة له فـرصة ضئيلة لعمل فعال في بلاد العرب، ولكن بالتأكيد أن هذا الرجل تمكن من استغلال الفرص التي تأتي في طريقه استغلالاً تاماً وبالتالي حصل على مكان مع أولئك الذين ساهموا في زيادة معرفتنا ببلاد ما زال ماعرف عنها نزراً يسيراً.

إضافة لقائد السرية أ.ر.م. ريكاردس فإن الكولونيل يوسكوين الذي لا يصرح أبداً عن رحلاته المكثفة في جنوب البلاد يجب أن يكون قـد رأى شيئاً من هذه البلاد في رحلته غير المكتملة لزيارة شبوة. وأخـيراً هانز هلفريتز الذي سافر عام ١٩٣٤م و ١٩٣٥م عبر هذا الطريق أثناء رحلته إلى بيحان وشبوة على التوالي. وفي المرة الأولى

قد عـدّ خطأ أن عياذ هي عرمـا بينما في الرحلة الثانـية -بعد طيرانه من شـبوة- زار عرمـا، من الواضح دون أن يدرك خطأه الأصلي. ووصفه لهـذه الرحلات ذو قيـمة علمية ضئيلة ما عدا الصور الفوتغرافية الرائعة التي التقطها.

الفصل السادس

فاصـــل

بوصولنا إلى هينن في الظلام وجدت نفسي في بلاد تعيش إلى حدٍ ما حياة غير سهلة وحزينة تحت ظل الأطراف الـقصوى لأجنحة الإمبراطورية الـبريطانية العظمى. وبعد الظهر في ذلك اليوم وللمرة الأولى طوال رحلتنا من مكـة سمعنا فرقعة البنادق البغيضة وقد أطلقها رجلٌ على آخر مثله بسوء النية. وكان علينا أن نرى ونسمع كثيراً من هذه الأحداث في الفترة القادمة. وصلنا أول نقطة حدودية لسلطنة القعيطي والتي تقف على فوهة واديها تحت المنحدرات الصخرية لأرضها الرأسية العظيمة -جزيرة في سلام وحياد في جـدول ضيق من فوضى نهد، مفصـولة عن الأرض الرئيسة للسلطنة بامتداد عـريض، لواد أجرد؛ لأن العداء العائلي جعل مـن الصعب على أي عائلة أن تزرع تربته أو أن تروي الرقع الصـغيرة للنخـيل الموجودة، وهي بقايا لبعض الفـترات السعـيدة في الماضي والتي تموت ببطء من الإهمال في الحـاضر. وهينن نفسهـا مدينة صغيرة جذابة، بها منازل عالية مبنية جيداً وبها بعض النخيل على طول قاعدة المنحدر الصخري وإلى مسافة أبعد في أعلى الوادي.

وكان وصولنا عبـارة عن مهرجان شعبي غـير رسمي، وعلى الرغم من الظلام فقـد أتى كل الرجال لرؤية السـيارات التي قـامت بعمل لم تقم به سـيارات قـبلها، وكذلك ليروا المرافقين على الجمال من نجد، أول زوار لهم من تلك البلاد البعيدة منذ أيام فيصـل بن سعود[1] البعيـدة، وهي أبعد من أن يدركها المواطنون الأكـبر سناً في هينن. وحكومـة القعيطـي التي يطلق عليهـا دائماً دولة -والتي أيضـاً تعني السلطان والذي هو حقـيقةً الحكومة- تمثل بضـابط شرطة يقود عدداً من الجنود، ولكـن الجهة المؤثرة على الشؤون المحلية هي شـريحة التجار من عائلة آل مرتع، الشـيخ محمد بن سيد آل مـرتع. توجهنا إلى منزله عندما أقـمنا لنعسـكر في مكان مبـتل بمياه الأمطار

(١) الإمام فيصل بن تركي. (المراجعون).

أمام المدينة. وهناك على سقفه المكشوف تحت السماء المرصّعة بالنجوم، وجدنا البناء مؤثثًا بسخاء بالسجاد والأرائك. وأخذنا راحتنا مع القهوة والشاي حيث دعاني الشيخ محمد بعد فترة بسيطة إلى غرفة متصلة ومؤثثة بمنضدة وكراسي جلبت من جاوة. وهناك مع سعد بن ناصر ورئيس المرافقين لي وقائد الشرطة ناقشنا خطط المستقبل، وبعد ذلك قمت ومعي المضيف بكتابة رسائل إلى السلطان والتي سلمت في الحال بواسطة أحد أفراد الشرطة العراة حتى النصف ومعه واحد من رفقائي وكان يلبس زياً مكتملاً.

ويلاحظ أن النجدي عموماً يستمتع بتساقط العرق الذي يتصبب إلى أسفل جلده بين طيات ملابسه الثقيلة ولا يمكن لأي شيء في مثل هذه المناسبة أن يجعله يخلع غطاء رأسه أو أي جزء من ملابسه عدا العباءة، ودعاهم مضيفنا أن يعدوا أنفسهم في ديارهم وأن يبردوا على أنفسهم في هذا الجو القابض الرطب والثقيل فوق العادة ومع هطول الأمطار حديثاً. وتخلصت من كل ما استطعت من الملابس دون أن أحرج رفاقي، وعموماً وجدت أن الوضع مريح عندما تخلصت من أول جزء من العرق. والزي الذي يرتديه أفراد الشرطة المحلية ويحسدون عليه بعض الشيء يتكوّن من عمامة من قماش خفيف تلف حول الرأس، وجذع عارٍ تماماً حتى الخصر الذي يبدو أنه مثقل بطريقة غير مريحة بحزام مليء بطلقات البندقية وزوائد أخرى تعمل على تثبيت الخنجر الكبير المعقوف وتحتوي على نفايات مثل: تلك التي يضرب بها المثل في جيوب أطفال المدارس الإنجليزية. ويلبس أفراد الشرطة إزاراً عادياً أو إزارًا أسكتلندي الطابع خفيفاً يصل من مفصل الورك حتى الركبة، إضافة لبندقية ضخمة تحمل على اليد أو تعلق على الكتف والفوهة إلى أعلى. والشرطي المحلي يبدو عملياً وتظهر عليه صرامة العسكرية، ولكن عموماً له جاذبية لاسيما وأنه عنصر ذو أخلاق حميدة في مجتمعه.

قُدم لنا التمر ونحن جلوس فوق سطح البناء وذلك لتزجية الوقت بين وصولنا وتقديم وجبة العشاء التي قدمت لاحقاً في تمام الساعة ١١ مساء، وكانت عبارة عن

أرز ولحم ممتاز أكلناه جيداً ثم جلسنا داعين الله سبحانه وتعالى أن ينعم على مضيفينا لحسن ضيافتهم لنا. ولم يمض وقت كبير حتى عدنا إلى معسكرنا وأسرعت لترتيب ملاحظاتي الهائلة جداً حتى أتمكن من الحصول على راحة جيّدة في الليل. وكنت قد قررت أن أجعل كل أيامي في حضرموت رحلة للمتعة في أيام العطلة بلا شعور بالتزام وارتباط بالعلوم أو الإنسانية، وهي المهمة التي قام بها كما يفترض مسافرون كثيرون من الذين زاروا المكان في الماضي القريب أو البعيد. ودون صعوبة يمكن لأي شخص له إلمام بتاريخ الاكتشافات العربية أن يذكر عدداً من الأسماء لزوار أجانب لوادي حضرموت، بعضهم أكثر جدية وآخرون أقل جدية كمساهمين بالإضافة للمعرفة الإنسانية عن الوادي الذي يبدو أنه الأكبر وبه إمكانيات رخاء أكثر إذا ما قورن بأودية الواحات العربية الأخرى.

وثمة نظرة إلى الخرائط الموجودة الآن للمنطقة تبين أنه ما زال هناك مجال كبير لعمل مسح مفصّل، ولكني على أي حال لا أستطيع أن أجد الزمن الكافي لعمل ذلك؛ وهذا لارتباطي العميق بالعمل في اتجاهات أخرى من قبل. ولكن أفترض أن المواقع الحقيقية للنقاط الأكثر أهمية في الوادي قد ثبتت بواسطة باحثين سابقين عن هينن؛ لذلك كنت مهتماً بمراجعة الدقة العامة لأجهزتي وكان سعيي في إنجاز ذلك ناجحاً ولكن كلفني ساعة أو ساعتين وهو الزمن الذي كان مخصصاً للنوم. وكان المساء عند وصولنا وضاءً وواضحاً، فالنجوم تظهر بكل رونقها وعظمتها، ولكن الظروف الجوية الناجمة عن حدوث عاصفة بعيدة في الشمال منعتني من التقاط توقيت غرينتش من القدس، ونظراً للانتظام المثير للإعجاب لواحدة من ساعاتي فقد كان أثر ذلك بسيطاً، عندما أصبح كل شيء جاهزاً لممارسة هوايتي الخاصة بالنجوم، تعطل المصباح الكهربائي مما أضاع وقتاً طويلاً حتى استطاع سعد إصلاح العطل. ولكن بعد إصلاح المصباح بقليل بدأت النجوم في الاختفاء خلف السحب، ثم اكتشفت أن النجم القطبي كان يختفي خلف مقدمة المنحدر الصخري الضخم الذي

يقف شاهقاً فوق المدينة. هذه الحقيقة حتمت عليَّ تحريك جهاز مقياس الزوايا إلى موقع مختلف وتكبدت كل المشاق لإعادة تعديل مستواه. وبعد فترة تغلّبت على كل العوائق بعناد وصبر. وبقي لي فقط انتظار إيجاد النجوم المعروفة في الفضاء المحاط بالسحب ورؤيتها حين تتحرك بسرعة من حماية سحابة إلى أخرى. وكان الوقت متأخراً قبل أن يصبح ضميري صافياً وذلك بعد أن خططت بالقلم موقع هينن على الخريطة وكذلك فإن ضجة العمليات اللوغاريثمية في عقلي لم تزعج أحلامي الأساسية بقضاء إجازة في أرض حضرموت ولن يُفسد شعور قوي سخيف في أن أقوم بواجبي تجاه الإنسانية والعلم، هو شعور سرق مني ساعات من النوم تحت السماء الملبّدة بالسحب في الأسابيع الماضية.

نمت نوم قرير العين، وكانت الشمس عالية في السماء عندما استيقظت لأجد جمهرة من المعجبين بعمق نومي. ناديت على إبراهيم ليجهز لي الشاي وأخذت إناء الماء وذلك للاغتسال مستغلاً الخصوصية التي تمنحني لها السيارة ثم صليت صلاة الصبح أمام الكثير من المشاهدين من سكان المدينة والذين بلا شك معتادين بما يكفي على أداء العبادة في مثل هذه الساعات المتأخرة. وكنت نادراً ما أجلس لتناول الشاي دون أن يأتي زوار ويجلسون حولي، بعضهم أذكياء ولكن هنالك البسطاء من أقارب آل مرتع الكبير والذي كان شقيقه عوض -الآن في بتافيا- يعمل كمرشد وفيلسوف وصديق وسائق لفان دير مولين وفون فيسمان بمناسبة زيارتهم لهذا الجزء من حضرموت في سنوات مضت. وفيما يبدو، فإنهم وجدوا هينن في حالة متقدمة من الدمار والضعف التي عزوها كثيراً إلى الزحف الثابت للصحراء في الوادي. ولكن السبب الحقيقي لمثل هذه الفترات من تدهور الحضارة في نظري يعود إلى الشر الذي يفعله الناس والذي يبقى بعدهم. وبعيداً في أعلى الوادي باتجاه الغرب من هنا في الخشعة ومناطق أخرى هنالك مساحات شاسعة من الأراضي القابلة للزراعة الآن والتي تظل مهملة، وسبب ذلك فوضى نهد الداخلية المهلكة والتي هي بالتأكيد الأقل

جاذبيــة في المجمــوعات القــبلية التي لي صلة بهــا. وعلى كل حال فــإن هينن التي أصبحت الآن تتبع للقعيطي منذ عشر سنوات يبــدو أنها قد استعــادت بعض رخائها الذي كان موجــوداً في الزمن الماضي، والفضل يرجع إلى الحماية الــتي وفرتها الدولة ومشاريع آل مرتع التجارية التي جلبت ثرواتها من جزر الهند الشرقية. ومع أن القرية تبدو واحدة في مظهرها الخارجي ولكنها حــقيقة تتكون من جزأين، الحزم إلى الغرب وهينن إلى الشرق. فالجزء الأعلى من الحزم يتكون معظمــه من خرائب مهجورة قديمة ولكن هذه قد استبدلت بواسطة سلسلة جميلة من مبانٍ جديدة نسبياً بعضها مميز، تقع على طول قاعــدة المنحدر الصخــري. والمظهر العام للــقريتين المتحــدتين يعكس رخاء يرضي النفس. الشيخ مــحمد بن مــرتع واحد من هؤلاء الرجال الذين تميــزوا بحسن المعاملة فأصبحــوا مثالاً للتهذيب والتحضر، وهو عمومــاً رجل جذاب ومضياف وذو خبرة واسعة وذكاء وقّــاد. وكان لي أن ألتقي بالعديد من نوعه في الأيام العشر القادمة وكان هو الأول وقد ترك انطباعاً مرضياً عندنا جميعاً.

بعد أن فرغت مباشــرة من استقبال الزائرين، تركت تعليمات للتــجهيز للرحيل باكراً وذهبت إلى منزل ابن مرتع لتنــاول الإفطار المكوّن من شاي وتمر. وبما أن الشيخ محمد سيــرافقنا إلى القُطنْ لم يكن هناك سبب خاص للتأخير أو الاســتعجال وكانت الساعة تشير إلى العاشــرة قبل أن نبدأ الرحلة. في هذه الأثناء كافأت المرشدين الذين أرشدونا من قعــوضة. أما آدم الشيخ الصــغير من قعــوضة فقد كان أنمــوذجاً للإنسان الطيب الذي لم يعله شيء سوى قطعة جوخ متدلية حول الخصر.

في طريقنا إلى خارج الــقرية عبرنــا قناة تصريف مكشوفــة تنقل مياه مــجاري القرية إلى بالوعة مجاورة. ومررنا على بقايا مــفككة لما كان موقعاً لمولد كهرباء عندما كان ابن مــرتع يضيء منزله بواسطة الكهــرباء. دخلنا في الوادي عبر كــثبــان الرمال المتلاطمة المنقطة بالقــبور البيضاء النظيــفة بمنطقة الدفن (المقبرة) المحليــة. وكان الشيخ محمد يــركب معي بينما كانت السيارة الأخــرى ممتلئة إلى سعتها القــصوى بما يعادل

سبعة أو ثمانية أشخاص وكتل من الأمتعة. والمساحة الكبيرة من الأرض الطفلية (رمل وطين) القابلة للزراعة والمعتمدة على هينن تتميز باستقبال السيول من جانبي الوادي. أما المصدر الأكثر أهمية فهو قناة سيل وادي الكثير التي تجمع تصريف أودية دوعن وعمد ويسر في المصب العظيم حورة -قعوضة لتصب إلى أعلى في الوادي ويصرف وادي هينن السهل الشاسع، وفمه يتموج بأمواج منخفضة من الرمال ويبلغ عرضه حوالي ثلاثة أميال على طول طريق السيارة حيث يتحد في الوادي الرئيس تدريجياً. وبعد وصولنا إلى الأرض الرأسية مباشرة في الاتجاه المعاكس والتفافنا على طول حافتها لبعض الوقت سرنا بعيداً من الضفة الشمالية للوادي عبر المنطقة الرملية الواسعة التي تملأ وسطه. وهنا، تحت الأرض الرأسية -الأرض غير المحروثة- تقع القرية الصغيرة جوعة آل مهنا وهي مستوطنة نهدية مبنية من قسمين يبعدان عن بعض بحوالي ٣٠٠ ياردة كأنها نصب تذكاري من النزاع والفوضى. ولا يوجد أي إنسان ظاهر في أي من القسمين، ومررنا دون تحية أو تحدٍّ تحت عيون كل الذين لا يمكن رؤيتهم ولكن يروننا زمرة من القنّاصين الذين يتمركزون على أسقف المنازل خلف الطرف الغليظ من البنادق وهم جاهزون دائماً لإطلاق أعيرتهم النارية عند ظهور أي شيء يشبه هدفاً بشرياً في القسم المنافس.

والشخص الغريب عندما يمر بمنطقة النزاع يُقدس وسابقاً كان النساء والأطفال من القسم المنافس يتمتعون بالحصانة نفسها ولكن السنوات الحالية تميزت بتكثيف وتصعيد للكراهية المحلية وقبل يومين فقط أو ثلاث قبل عودتنا إلى هينن عند نهاية إجازتنا في حضرموت كان هناك اثنتان من النساء تقدمتا لجمع الحطب لإشعال النار فقتلتهن طلقات من أبناء عمهن. ويمكن لهؤلاء الناس أن يتجرؤوا ويخرجوا فقط تحت غطاء الظلام، بينما بساتين نخيلهم الصغيرة تموت لانعدام الري وحقولهم من غير فلاحة، قرى منافسيهم المهجورة منظرها شديد الكآبة وغير محبب للرؤية وهذا كله يعد دلالة بليغة على أخلاقيات وآثار الحماية البريطانية، وهو موضوع سنتطرق له

لاحـقـاً. وكنت أتعـجب قليـلاً لماذا لا يطلق علينا هـؤلاء الناس الأنانيـون النار من أسقـفهم السـاكنة، ولكن الإجـابة سهلة،ليس لديهم الـرغبة مـهمـا يكن لإيذاء أي شخص غـير أقاربهم وأنسبـائهم وجيرانهم. ومن ناحيـة سيكولوجية فـهي حالة من السادية[1] المتقدمة جـداً أو المازوخية[2] في بقايا مرضى من جنس شديد الانحطاط. وهذا المرض يمكن معالجـته بسهولة ولكن المعالج المحلـي ينظر دون أن يمد يد المساعدة أو غير مبالٍ فهو فقط مهتم بمنع الأطباء الآخرين من التعدي على عمله.

استمر الطريق في خط مستـقيم تقريباً ولكن انحناءة للوادي جعلت قطره يقطع الأرض الرأسية فـورت على ضفته اليمنى على بعـد خمسة أميـال. وطريق السيارات يقع معظمه فوق أرض من كـثبان رملية خفيفة مـغطاة بعض الشيء بواسطة شجيرات صحراويـة، ولم تكن هناك صعوبة شديدة للقـيادة ما عدا أنه كـان من الضروري أن نبطئ في بعض الحالات مـستعملين ترس السـرعة الثاني. وبهدوء وصلنا إلـى بستان نخيل ضبعان تحت الأرض غير المحروثة، وهناك عبرنا الخط الحدودي الذي يسم أرض نهد من المنطقة التي تقع تحت السلطة والحكم المؤثر لسلطان القعيطي تمتد من هنا دون انقطاع؟ لقناة السيول بوادي ابن علي وراء شبام. وبالتأكيد هنالك رخاء وأمن أكثر في هذا الجزء من الوادي والذي يمتد فـيه الحزام الأول لبساتين النخـيل عملياً دون انقطاع إلى مسـافة طويلة خلف مدينة -القُطنْ- إلـى خمسة أمـيال أو أكثـر. ولكن القريتين اللتين تتبعـان إلى مستوطنة فورت يمتلكـهما جنود السلطان، غالباً وكـانتا حتى وقت قريب في حرب مع بعضهـما، وفي هدنة تحت ضغط السلطان لمدة ١٠ سنوات متفق عليهـا. حتى الآن كما أذكـر فهذه هي النقطة السـوداء الوحيدة في اللوحة النظيـفة للسلام القعيطي التي لاحظناها في وادي حضرموت.

---

(١) السادية: اشتقـاق اللذة عن طريق القيام بتعذيب الآخرين، وهي تـنسب للماركز دي ساد (١٧٤٠-١٨٨٤). فرج عبدالقادر طه وآخرون، معجم علم النفس ص٢٢٣. (المراجعون).

(٢) المازوخية: اشـتقاق الفرد للذة من قيـام الآخرين بتعذيبـه وتوجيه العدوان إليه، تنسب إلى الـكاتب النمسوي ساخرمازوخ (١٨٣٦-١٨٩٥م) والمازوخية نقيض السادية وعكسها. المرجع السابق، ص٣٨٩. (المراجعون).

خلال مسافة ميلين مررنا من فورت إلى المستوطنة المبعثرة ديار البكري، ثم على طول القرية الكبيرة قرية الخيبة من أضرحتها المقدسة الشبيهة بالقباب، وفي النهاية مررنا خلال البوابة الشمالية الغربية للمدينة المحاطة بالجدران، مدينة القطن، والتي أيضاً تسمى حوطة القعيطي والريضة حسب المزاج. وكنا نقود سيارتنا بحذر عبر جمهرة من الأطفال الذين أتوا في اندفاع إلى الطريق الرئيس الضيق على مقربة من البوابة الجنوبية والحائط. وكان السلطان علي بن صلاح، ابن العم الثاني للسلطان صالح بن غالب سلطان المكلا وتحت سلطته العليا أيضاً، سلطان القسم القعيطي من وادي حضرموت شبه المستقل، على باب القصر فتقدم لتحيتنا وقيادتنا إلى غرفة عليا كبيرة الأبعاد، ذات أثاث جذاب من كراس ومناضد وسجاد من جاوة. أجلسنا على الأرض نتكئ على وسائد سميكة وقُدم لنا الشاي بينما كنا نتحدث ثم نشر الغداء على قماش أبيض على الأرض لنا جميعاً. وشرفنا السلطان بمرافقته في وجبة الاستقبال الأولى. أما في الوجبات التالية فقد كنا نشارك السلطان سعد بن ناصر ضيفاً آخر قد يكون هناك - ابن مرتع مثلاً. ووصل السيد في اليوم التالي من عينات إحدى مستوطنات القعيطي في أسفل الوادي خلف تريم بينما باقي مجموعتي يبدون كلياً في غير مكانهم في هذا المحيط السلطاني الفخم، وقد قدم لهم الطعام منفصلين في الأسفل.

كانت معجزة وصولنا من مكة حتماً المادة الرئيسة للمحادثات الأولى وقد صمم السلطان على القيام برحلة الحج بالسيارة في المستقبل القريب كبداية لرحلة كبيرة إلى الخارج. وعند انتهائي من موضوع حضرموت أصبحت متعباً من تكرار هذه المادة، لأن الأعداد الكبيرة من الأشخاص الذين تعرفت عليهم حديثاً تجعلني أقوم بالإجابة عن مجموعة كبيرة من الأسئلة عن تفاصيل الطريق التي في معظم الحالات قد سردت له من قبل بواسطة شخص آخر كان قد استمع إلى سردي. وعلى كل، فإن الموضوع ما زال حديثاً وحياً والاهتمام الشديد الذي وجده عند الجميع هذا الكشف لطريق الحج بواسطة السيارات شجعني على القيام بتسجيل كل المعلومات في كراستي لكي تكون جاهزة في متناول يدي حتى أتمكن من الإجابة عن كل الاستفسارات.

والهيكل المقترح الذي وضعته للرحلة أمام الجمهور ليتأملوه هو مدة الرحلة عشرة أيام ومسافتها ١٥٠٠ كيلومتر، كل سيارة تحتاج إلى ٦٠ جالوناً من الوقود. وبالنسبة للأمن وهو الشيء الذي يشغل بال كل مسافر في بلاد حضرموت ذكرت لهم أنه لا داعي للقلق على الناحية الأمنية في الطريق من العبْر إلى مكة. وللوصول إلى العبْر في أمان -ما يعادل ١٠٠ كيلو متر أو أكثر بقليل- يجب أن ينظموا صلحاً للقضاء على مشاكلهم المحلية. وكنت أدرك تماماً أننا قد فتحنا طريقاً عملياً للحج في البر من حضرموت ولكن الفضل الكبير يعزى للاهتمام النشط للسلطان علي، -والآخرين الذين قابلتهم فيما بعد- في أن هذه التفاصيل ظهرت بهذه العجالة من غموض مذكراتي.

كان علي بن صلاح رجلاً يبلغ عمره أقل من خمس وثلاثين سنة ويبدو أصغر من ذلك بكثير، متوسط الطول، ليس له لحية، وشنبه صغير وجسمه رفيع، رأسه طويل ونحيف ينتهي إلى انتفاخ كبير في الجمجمة. ومن ناحية فكرية فإنه عالم أكثر من ملك، ولكن نشاطه كإداري لاسيما حبه باستمرار في الحركة من مكان إلى آخر في منطقته -قد يصحح ذلك الانطباع. وهو مهتم بعمق بواجباته كحاكم وكذلك كثير الاهتمام بالسلام وتطوير البلاد التي تتبع لسلطته. ولكن عندما يكون في فترة الاسترخاء والامتاع الشخصي تجد في الحال أن مزاجه الشخصي يميل إلى قراءة الكتب ومساجلة الأفكار والمعرفة. وبالنسبة لشخص لم يغادر بلاده أبداً فإن نظرته العقلية ومعرفته الواسعة بالعالم تعد مدهشة. وهو متحدث سهل وطبيعي ويمتلك الكثير ليحكي عنه، ومن الواضح أنه يقرأ كثيراً. وقد وجدته أكثر شخص مرن يمكن مناقشته من بين كل الذين قابلتهم في هذه البلاد. أما السلطان علي بن منصور الحاكم الكثيري لسيئون فيمكن أن يعد قريباً منه. فكلاهما له القدرة على التحدث طبيعياً دون أن يتساءل أحدهما هل يتحدث أم لا. ومن جهة أخرى، فإن الآخرين الذين قابلتهم خلال هذه الأيام قليلو الكلام دون أن تكون هنالك دوافع بعيدة لصمتهم، وآخرون يتحدثون كثيراً دون تمييز أحياناً ويسببون قليلاً من الضجر عندما يسمح لهم تهذيب

وصبر مستمعيهم بفرصة أكبر، فأشخاص كهؤلاء يعدون أقلية. ومع ذلك فهنالك آخرون يملؤهم التفكير العميق والأفكار العظيمة والآراء المتطورة والحذر والحكمة في نقاشهم خشية أن تكون للحيطان آذان فتنقل كلماتهم إلى أقصى نهايات أرضهم. والمجموعة الأخيرة ومعهم العليان (علي بن صلاح وعلي بن منصور) يبدو لي أنهم يمثلون خلاصة الموهبة المحلية.

يبدو القصر مبنياً حديثاً من ثلاثة طوابق كان هو مدخلي لآخر أسلوب معماري لحضرموت والذي وصل ذروته في القصرين العظيمين في سيئون التابعين للكثيري. وفي المظهر العام قد يلفت الناظر إليه على أنه ذو تصميم أوربي ولكنه حقيقة ينسجم -بصورة مثيرة للعجب- مع المعمار المحلي والذي يقف في وسطه كما يجب أن يكون القصر. وحقيقة أن التصميم البلدي المحلي له ميزة عظيمة، فحيطان الطين في المنازل صقلت جيداً للغاية خلافاً للتجصيص الطيني غير الناعم الذي يرى في نجران مثلاً والذي يكون فيه المعمار المحلي قريباً في التصميم العام من ذلك الموجود في حضرموت أكثر من أي مكان آخر أعرفه. وإذا أردنا الإشارة إلى دلالة أفضل فسوف أذكر هنا الأسلوب العام للبناء في شرق اليمن والذي يهدف بشكل أساسي للدفاع ضد الأعداء. وحقيقة، فكل منزل في شرق اليمن يمثل قلعة في تصميمه بينما نجد الشيء نفسه في حضرموت جنباً إلى جنب مع مبان ذات خواص عسكرية أقل وميزات فنية أكثر عظمة في داخل الحيطان بالمدينة ومهمتها الدفاع عن الجميع. وعليه فإن الأوجه الملساء لحيطان الطين وكأنها مطلية، بها نوافذ خشبية ذات تصميم جميل، أقواس مغربية (مراكشية)، شبكية، وأقواس على شكل قباب. ويلاحظ أن الطين المحلي شديد التماسك وشديد التحمل. والقصر ليس كعامة المنازل فهو مغطى تماماً بزخرف أبيض من الجبس المحلي وهو ليس فقط للزينة ولكن لتقوية سطح الطين ضد الأمطار. وقد يفترض الشخص من مظهرها أنها مبنية من الحجر والأسمنت، ولكن في كل حضرموت فإن الحجارة والأسمنت استعملت فقط في الأساس أو كحاجز

ضد السيول. وداخلياً تطلى بالجبس، وبالجزء الأعلى من الحيطان لون بظلال رقيقة من الأخضر والأزرق وألوان أخرى للتناقض مع اللون الأبيض الباهر في الأسفل. وبالطبع هنالك اختلافات لا نهاية لها في تأثيرات التزيين من منزل إلى آخر ولكني لا أستطيع أن أتذكر أني قد رأيت مبنى قديماً أو حديثاً خارجياً أو داخلياً يُظهر ذوقاً سيئاً. ولم يكن هناك أي شيء مزخرف أو سوقي (مبتذل) في معمار حضرموت الآن ما عدا النافورة في الحديقة الجديدة في مجمع السيد أبي بكر بن الشيخ الكاف في سيئون. وهذا هو الاستثناء الوحيد الذي أتذكره للقاعدة العامة للذوق الرفيع الهادئ. ونظراً لصعوبة الحصول على الأخشاب فإن الأسقف في الحجرات بكل أحجامها كان لابد أن تدعم بأعمدة طينية -في بعض الأحيان الأعمدة الخشبية تغلف بالطين والجبس- عمود واحد أو أكثر. أما غرف الاستقبال التي تخص ابن مرتع في هينن فبها أربعة أعمدة كهذه تكوّن مربعاً في الوسط. وقاعة الاستقبال في القطن بها (٦×٢) من الصفوف تكوّن مستطيلاً في وسط الغرفة. وفي كل الحالات تقريباً تفضل الأعمدة الرفيعة التي لا تقلل من مساحة الغرفة بصورة كبيرة. ولفت نظري هذا القصر كمسكن له سحر عظيم؛ ولذا فإنه ليس من المستغرب أن يستخدمه السلطان علي في أوقات كثيرة من العام، مفضلاً إياه على القصر الكبير في شبام والذي مع كبره فإنه عتيق بعض الشيء وغير مريح. ويلاحظ أن الحمامات ومكاتب الأسرة كما رأينا من قبل في هينن وقعوضة ساهمت في إظهار القواعد الصحية الحديثة أكثر من الشعارات والأقوال.

وعلى مقربة من القصر يوجد المسجد المحلي الذي يطغى عليه القصر، وهو مبنى جذاب من الطين المزخرف بالجبس الأبيض وبه باحة في الوسط مفتوحة ومحاطة بصف أعمدة غير عميقة. وإحدى زوايا المسجد تعلوها مئذنة ارتفاعها يماثل ارتفاع المبنى نفسه. والبناء ذو تصميم يشبه السلال. وخلفه ينظر الشخص إلى خلفية من أشجار النخيل خارج حائط المدينة إلى الشمال والغرب. وكذلك في جانب آخر توجد

طرقات متعرجة ومباني منطقة مدنية صغيرة تكوّن أفضل منازلها قوسًا غير منتظم حول فضاء واسع بينها وبين القصر. والبوابات والجدران ليست مميزة ما عدا الجزء من الأسوار الذي يتبع خطوط الانحدار عند قاعدة الجرف الصخري العظيم، ٥٠٠-٨٠٠ قدماً من الحائط الصخري. وفي كل طرف في هذا القسم من المدينة تقف المباني المستخدمة للدفاع جذّابة، ولكن جزئياً، كقلعة مربعة متهدمة وهي ليست مأهولة بالسكان. وبعيداً في الخارج باتجاه الشرق تمتد بساتين النخيل الكثيفة حيث تتناثر حولها المساكن التي تشبه الحصون وبعض القرى الصغيرة باتجاه حافة السهل العريض ذي الرمل الخفيف الذي تنمو فيه محاصيل القمح والدخن عندما تروى بالأمطار. وخلف ذلك تبدأ بساتين نخيل آخر نخيل شبام والقرى التي تعتمد عليه.

وقد تركنا نجران في بداية موسم التمر منذ حوالي ثلاثة أسابيع ولكن وجدنا وادي حضرموت في نهاية الموسم الذي امتد لشهرين. فهم الآن يقطعون عذوق التمر لتخزين الثمار، ولكن كنا محظوظين لنحصل (بصعوبة) على ثمار طازجة. والقدر القليل من زراعة الفاكهة الثانوية أدهشنا دون أن يسعدنا ولم يكن ممكناً الحصول على عنب أو تين أو رمان. وهنالك نشاط بدأ من قبل لتصبح هذه الفجوة التي يسهل تصحيحها. وسوف أذكر النتائج لهذا النشاط في وقت آخر عندما نصل المنطقة الأكثر تقدماً من الوادي. وحتى هذه اللحظة فإن التمر الحجيري الأسود، أفضل في المرحلة الأخيرة مع اللون الغامق، وتمر الحزيز يمنحان تنوعاً لطيفاً في وجبة من اللحم والأرز، والخضار قليل كالفاكهة. ويبلغ عمق الآبار في القطن سبع أو ثماني قامات خلافاً لآبار هينن وقعوضة والتي قد يبلغ عمقها ثماني عشرة قامة. وكبداية استخدمت هنا مضخة تدار بماكينة للضخ وقد استخدمت أيضًا للإنارة الكهربائية المؤقتة وعصر الماكينة أحدث تحولاً في حياة أهل المنطقة لاسيما في أسفل الوادي وسوف ينتشر استعمالها في المناطق المذكورة في المستقبل لتعم الفائدة الكبرى الجميع.

اليومـان اللذان قضيـتهـما في القطن كانا لطيـفين دون عمل وكـانا هما أول أيام الراحة منذ أيام نجران. ولم أتحرك خارج القـصر الذي يطل على منظر كافٍ لكل ما أود أن أرى. وكان المساء لطيفاً جداً، وكنا نتحدث على سجيتنا عندما نجلس قبل وبعد وجبة العشاء (وثانية في الصباح الباكر) على المصطبة (الدكّة) الممتدة من مستوى الطابق الأول. وفي أعلى تسكن أسرة السلطان، والأعـضاء الوحيـدون الذين رأيناهم هم الأبناء الثلاثة للسلطان صالح وسالم وفـضل. فالأول هو الأكبر ويبلغ عمـره ١٢ سنة ويتلقى تعليمه باللغة الإنجليزية بواسطة معلم كان في سنـغافورة. ويفكر السلطان قليلاً في إرسال أبنائه إلى بغداد لتكملة تعليـمهم وذلك لأنه يخاف من تأثر مصـر وجيرانها بالغـرب المتقدم. ومن المؤكد أنه قد يكون منزعـجاً الآن لسماعه أن العراق تبدو حـديثة في مظهرها العام كأخواتها. وبالنسبة لعربي من المدرسـة القديمة (جيل الكُتّاب) هنالك تضارب محدد بين الحداثة من جـهة والأخلاق والقـيم من جهة أخـرى. وهذا التضـارب واقع ولكنه فقط عرضي. والمجـهود لخلق انسجام بين الجـيّد والمهم في حضارة الغـرب المادية مع المبادئ الأساسـية للفضيلة والـطهارة العربية يحـتاج لنضال شـرس وعنيف إذ لا يمكن لأمة أن تعيش في المستـقبل دون الحاجة للأدوات المادية للعلوم الحديثة. والمشكلـة الأساسية هي استعمـال هذه الأدوات دون أن ندعها تقلل من أهمية أسس وقواعـد الإنسانية. ومازال الناس في أوربا وأمريكا بعيدين عن حل المشكلة. فالمنطقـة العربية ما زالت منكمشة من مواجهـة معانيها الكـاملة. ويبدو أن من التعقل اتباع أسـلوب عدم الاستعجـال والتقدم بحذر. ولكن مستقبل هذه المنطقة غير متوازن كما هو الحال في كل العالم حولها.

المشكلة العاجلة في حـضرموت تتصف بالمحدودية وتتلـخص في الفوضى وعدم الاستقرار. وقد كـشفت المشكلة بقدر ما بسبب الانهيار الاقتـصادي في كل أنحاء العالم الذي أثر على رخـاء وثراء المواطنين الحضـارمة من سنغـافورة، وجـزر الهند الشرقـية الهولندية[1]. وهؤلاء الناس الذين حـتماً تقلصت تحـويلاتهم الكبيـرة الآن، كانوا في

(١) اندونيسيا الآن. (المراجعون).

السابق دماء ترفد الحياة للرفاء المحلي. والضريبة الكبيرة في المستعمرات الهولندية إذا قورنت مع الضرائب القليلة في الملايو البريطانية تعرضت لبعض النقد، والمعاملة الصعبة من الإدارة الهولندية كانت موضوعاً لبعض الاحتجاج ولكن التصرف السلبي لسلطات حكومة الوصاية في عدن- أو بمعنى آخر الحكومة البريطانية- كانت هي الموضوع الرئيس للاهتمام المباشر لحكام وقيادات المواطنين في حضرموت. وفي هذا الوقت، في قعوضة والقطن أخذ الاحتجاج شكل شكوى وتذمر بأن القوى الحامية سوف لا تمد السلطات المحلية بالأسلحة والذخيرة لتجعلهم قادرين على بسط وتأسيس السلام والأمن في المناطق التي يديرونها. وبعد قليل يجب أن نناقش هذه المشكلة بمفهومها العريض.

كان هدفي أن أخصص أقل زمن ممكن من إجازتي في حضرموت لزيارة مدن رئيسة بينما يقوم رفقائي لشراء احتياجاتنا في شبام وكاحتمال ضعيف لنقوم باندفاع سريع إلى الساحل -لتكملة عبوري من الشمال إلى الجنوب في الجزيرة العربية-. بينما تحمل جمال شبوة البطيئة مخزوننا من الغذاء والوقود... إلخ إلى ذلك المكان الذي تركنا فيه جمالنا القادمة من نجران لترعى في سلام حتى عودتنا. وبعد الظهر في يومنا الثاني في القطن بدأنا تحركنا إلى شبام تاركين السلطان مع أسرته في منتجعهم الصيفي. وفي هذه الأثناء وصل رجل صغير السن يدعى حسيناً إلى القطن في سيارته وبكرم أصبح مرشدنا للمرحلة القادمة وهو واحد من الإخوان الأربعة لآل عجاج من العاصمة وكان بمعيته شخص معروف مسؤول في خدمة السلطان وقد ركب معي ليخبرني بأسماء الأماكن المختلفة التي نمر بها أثناء المسافة لخمسة عشر ميلاً إلى شبام. وحتى نهاية إقامتي في حضرموت وضع الاثنان أنفسهما تحت خدمتي بدون تحفظ ودون إلحاق ضرر بعملهما الخاص. وأنا أدين لهما بعمق بالمتعة والفائدة التي جنيتها من زيارتي. فهما يعرفان البلاد، سياستها، وكربها وطموحها عن كثب. وكان شعوري بالأسف الوحيد أني لم أستطع أن أجد طريقة لمكافأتهما لكل ما تكبداه عند مغادرتي وأنا أتشوق وأتمنى أن أجد الفرصة لإمتاعهما كما أمتعاني إذ حدث وأن زارا

الحجاز. وقد أثار اهتمامي حسين العجاج لأنه يقظ وحذر ونشط وذكي مع عدم وجود المجال الكافي لممارسة مواهبه في الظروف الضيقة في بلاده. وتتكون ثروة أسرته من ممتلكات في سنغافورة. ومن الطبيعي أن لهم ممتلكات في حضرموت ولكن الثروة دون فرص للعمل نعمة مشكوك فيها.

ليس هناك شيء مميز جداً في المنطقة بين القطن وشبام. وسوف نصل إلى نهاية النخيل في الأولى (القطن) قريباً. وانطلقنا عبر سهل مكشوف وخالٍ ولكنه قابل للزراعة معتمداً على هطول الأمطار والسيول من الخليج العميق بالجرف الجنوبي الذي يقع على يمين مسارنا. وبعد أيام قليلة هطلت أمطار محلية وكان هذا السهل ممتلئاً بالمياه مما يجعل مرور السيارات خطراً، ويمكن زراعة الدخن هنا كما في نجران وينتج ثلاث مرات في مدة الاثني عشر شهراً. وأرض النخيل في شبام تبدأ بمزرعة بعيدة ومبانيها صغيرة تسمى دار الراك في وسط الوادي، حيث لا تزال الحبوب والبطيخ (الدلاع) تحتل الجزء الأكبر من الأرض والبساتين الكثيفة في خشامر تحت الحافة البارزة للمنحدر الصخري الجنوبي وقريته الغنية. وبالقرب من هذه البقعة يقع خزان من الحجر مبني بالأسمنت يسمى الموزع أو القاسم (الفاصل) يوقف مرور مياه السيول في قناته المعتادة ويحوله إلى بستان نخيل شبام. ولكن بحق الأسبقية لأهل شبام فإن بستان خشامر محروم من هذا الماء، إلا عندما يكون حجم السيول كافيًا لتغطية الخزان ويعلو عليه. والخزان ارتفاعه محدود بالقانون أو العرف -وارتفاعه حوالي سبعة أو ثمانية أقدام على جانب أعلى الوادي. ورغم أنهم يتلقون بعض المياه من الجبال إلا أن عليهم أن يعتمدوا على الآبار أيضاً للاكتفاء من المياه. وقد قمنا بزيارة الخزان في الوقت نفسه بعد الظهر، بعد أن نادينا على الشيخ يحيى بن عبدالحميد بن علي جابر المواطن الأول للقرية التي تبعد فقط أربعة أميال من شبام. وتجدر الملاحظة أن هناك جماهير كثيرة تجمعت في منزله لمساعدته في الترويح عنا أثناء زيارتنا التي كانت قصيرة للغاية.

أصبح المبنى الفخم الغـريب لشبام واضحاً بصعـوبة قبل فترة كبيـرة من الحافة الغربية لحزام نخيلها، ولم يكن مثيراً للاهتمام مع أنه يقف عالياً كعملاق على رجلين خشبـيتين مرتفعتين على بعـد عالٍ من أعالي بساتين النخيل المحـيطة. وقارن فان دير مولين هذه البساتين بقطعة كيك مع غطاء سكر زينة أو كيكة شوكلاته عتيقة المظهر في أعلاهـا غطاء سكر للزينة الأبيض غـير منتظم، قـد يكون أفضل وصف لهـا. ومن المؤكد أنها خيبت توقـعاتي كثيراً والتي اعتمدت قليلاً عـلى تقارير المسافرين الآخرين الذين من المحتمل أن تكون مباني القصرين العظيمين في الجانب الشرقي (غير واضحة من الغرب) قد سـيطرت على انطباعهم. وعند مـرورنا فوق حاجز منخفـض لكثبان رملية سهلة، التففنا حول حافة مقبرة شـاسعة بها حجارة شاهد لضريح، بنية الوجه، منقوشة ومـختلفة مع قبـاب بيضاء وقبـور مزخرفة بالجص. وفي الحال أصـبحنا في تجاويف مطوّقة عميقاً بسدود تحتوي على بساتين النخيل. وهذه السدود جعلت الطريق خطراً لحركة السيارات، ولم يكن من السهل عبور الأجزاء الضيّقة الملتوية منه. ويكوِّن حائط المدينة نوعـاً من المنحدر الخفـيف حول التل والصخر الـذي بنيت عليه المدينة، ويبدو أنه مستمر على امتداد الحيطان الخارجية للمنازل التي كانت تقف شاهقة فوقنا. وبين الحائط وموقعـنا تقع بعض بساتين النخيل، مع المسجد الصغـير الأبيض المسمى «مـعروف» في وسطهـا بجانب الـطريق. والطريق نفســه يلتف حـول الركن الجنوبي الغربي للمـدينة منحدراً في مجـرى النهر العريض الرملي الذي تتناثر فـيه الآبار التي يحصل منها النـاس على الماء المشهور بملوحته. ويحـصل المواطنون الأغنياء على الماء من بئر ذات ماء عـذب تبعد مسـافة بعيدة في وسط الوادي في اتجـاه قرية قُرَّة في فم وادي سـر. ويمتد من القناة التـي نزلنا فيـها طريق مـرصـوف عريض ولكنه شـديد الانحدار يقود إلى البوابة الرئيسة والتي تبرز عتبتها من الأرض بقدر يحتم قيادة حذرة جداً. وتوجد بوابة مماثلـة مباشرة خلفهـا، تقود إلى فضاء واسع مكشوف، مـلامحه الرئيسة هي البـالوعة الكبيرة الرئيســة للمدينة التي توجد في الوسط. ويوجد مـسجد

جميل خلفها مباشرة وكذلك القصران العظيمان البني والأبيض اللذان يتبعان للسلطان شُيّدا على صخرة في الركن الجنوبي الغربي للمدينة. وأطول القصرين والذي يقع قليلاً إلى الخلف من الآخر هو مسكن العائلة. والآخر يحتله السلطان بنفسه ويحتوي على غرفة الاستقبال وغرف السكن... إلخ وعند باب هذا القصر توقفنا وكان خالياً وعملياً بلا أثاث في غياب السلطان، وقد وضع بواسطة السلطان لخدمتي مع مجموعتي. وهو مبنى كبير ومتعرج به أربعة طوابق من الطراز القديم، وليس نظيفاً جداً ويبدو مهملاً وبه تجهيزات صحية عتيقة. وفي الحال جعلنا أنفسنا كما في منازلنا بين طابقيه الأعلين وكان سطحاها يتيحان منظراً عريضاً مبهجاً لأسفل الوادي.

وصلنا الآن الحد الأقصى من رحلتنا. وعليه ولعدم رغبتي في إنفاذ صبر رفقائي أكثر من ذلك قضيت جزءاً من الصباح التالي في توزيع المكافآت المعتادة عليهم، كل منهم حسب رتبته وخدمته. فأولئك الذين حصلوا على مكافأة أقل كانوا غير راضين عن ذلك؛ لأنهم لم يحصلوا كالآخرين، ولكن الرضى الواضح على أوجه أولئك الأعلى درجة أثبت أني قد كنت كريماً. وكان كل ذلك للفائدة ووضعت بعد ذلك خططي للمستقبل. وفي الأيام القليلة القادمة سيشرف سعد بن ناصر على شراء إمداداتنا الضرورية بينما سأندفع لوحدي لقضاء ليلتين على الأكثر بسيئون وتريم وكل ذلك كان حسناً. وعند عودتي فإن الجمال التي تحمل الأمتعة سوف تسير إلى شبوة ومعظم مجموعتي يمكنها الذهاب معهم تاركين عدداً قليلاً من الآخرين وأنا لنأتي بالسيارات. وسوف أذهب بمفردي إلى أسفل إلى الساحل على ظهر حمار وأعود دون تأخير. أما مجموعة الأمتعة فقد لا تصل إلى شبوة قبل أن نلحق بهم بالسيارة وهذا الاقتراح كان مختلفاً؛ ولذا قد أعلنت حالة من التمرد في الحال. ربما قد أشرت إلى هذا الاحتمال في حديث عرضي ومن غير شك فقد فكروا في هذا الأمر ورفضوه وجاء ردهم على شفاه الممثلين لهم من البدو. والملاحظ أنه كلما كنت معهم فهم لا يهتمون كثيراً بما أعمل أو إلى أين ذهبت، ولكن إذا تركتهم في موقف

محرج فإنهم كذلك سيتركونني في موقف مماثل. وهم جميعاً لهم أسرهم ويودون أن يعودوا إليهـا. هذا حسم الأمر، إضافة إلى أني قد أُثـنيت عن رحلة الساحل بشروط أصحـاب الحمير البـاهظة وهي ٣٥ ريالاً لكل حمار إلى المكلا وعـائداً منها، و ٢٢ ريالاً للجمل الذي يحمل الأمتعة، بينما جـمالنا من نجران إلى شبوة وعودة إلى نجران تكلف ١٥ ريالاً فقط لكل جمل، وعليه أعلنت التخلي عن الخطة. وبعمل ذلك فقد تخليت عن فرصـة لتسجيل إنجـاز جديد وهو عبـور الجزيرة العربية من الشـمال إلى الجنوب، من سـاحل البحـر الأبيض المتـوسط الذي تركتـه في نوفمـبر إلى المحـيط الهندي.

بالتأكيد ليس لي سـبب آخر للذهاب إلى السـاحل، والعمل البطولي سيصبح - لو قمت به - أهم بقليل من حب الاستطلاع للاستكشافات وهذا هو الدافع أنه في كل التاريخ لم يسجل أن هنالك إنسانًا قد عبر الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب أو بالعكس وقد يكون من المحتمل أنه لم يقم بذلك أي إنسان فعلاً. بالتأكيد لا يوجد أي سبب واضح يدفع أي شخص إلى مـحاولة القيام بهذه الرحلة باستـثناء القيام بها عن طريق الجـو في المستقـبل. على كل قاومت الإغـراء الطفيف للإصـرار على هذا الأمر وحسم كل الأمر باقتناع عن طريق قرار متفق عليه أن نبدأ رحلتنا من شبام بأقل تأخير ممكن. وبعد عـودتي من سيئون وتريم سوف يقومون بتـجهيز كل شيء للرحلة وحينها أقضي وقتي مستمتعاً.

تجـولت في هذا الأثناء في الخـارج مع حسين لأرى المديـنة. وحدّدت أبعـادها الأفقية بواسطة مساحة قاعـدة العمود الذي تقف عليه. ونلحظ أنها قد نمت رأسياً في محاولـة نبيلة من سكانها للتغلب عـلى هذا العائق الطبيعي. ونتج عن هـذا المجهود سلالة من البنائين الـذين من المؤكد أنهم يعرفـون شيئاً عن فـن البناء بالطين. وتجدر الإشارة إلى أن شبام هي الوحـيدة من مستوطنات حضرموت التي تتكون كل مـبانيها تقريباً من خمسة أو ستة طوابق، لا أظن أن أياً منها به سبعة طوابق ولكني لا أستطيع

أن أجزم بذلك. ومستوى السقف في المدينة تقريباً منتظم كانتظام السطح الذي نهض وارتفع منه. ولإعطاء الطين قوة ضد التحلل عن طريق الأمطار فإن كل سطوح السقف المسطحة وحواجز السقف قد طليت بجبس صلب متماسك وأملس كالإسمنت الجيد.

وبشكل عام فالقصران مطليان جزئياً باللون الأبيض لتعطي تأثيراً لونياً أخاذاً ولكن هنالك أسباب اقتصادية عاقت استخدام الجبس على الجدران العمودية. وعندما تصبح شبام مدينة ثرية حقيقة لابد من تصحيح هذا النقص؛ وذلك لأن الخلفية التي تعطيها بساتين النخيل الخضراء الغامضة مع المنحدر الصخري ذي اللون البني المتجهم فإن المدينة ستقف كقصر في أرض خيالية ساحرة إذا ما ألبست لوناً أبيض. والمباني الوحيدة ذوات الطابق الواحد هي المساجد وبعضها له مميزات كبيرة مع بساطتها، بينما المسجد الرئيس الذي يعرف بمسجد هارون والذي يزعم بأن بناءه يرجع إلى أيام الخلافة العباسية[1] أما المباني الحالية فهي بالتأكيد لا ترجع إلى ذلك العهد ولكن قد يكون المسجد ممثلاً لنفس الموقع منذ عهد سحيق. وهنالك تقدير محلي يعطي مباني الطين عمراً قدره ٢٠٠ سنة تقريباً ويبدو أن ذلك التاريخ تقريباً أقصى حد يمكن أن تبلغه الذاكرة محلياً. ومن ثم لسكن وحياة الإنسان منذ الأزمان الأولى وتسبح المدينة في كوكبة من الأسماء البديلة.

مع تحكم القعيطي في الميناءين البحريين المكلا والشحر فإن شبام هي العاصمة التجارية لحضرموت وعدد من مواطنيها تجار لهم مكانة معروفة. وهم ينجزون كل أعمالهم في منازلهم الخاصة، حيث تستخدم غرف أرضية واسعة ولكن متسخة كمخازن، بينما المكاتب تحتل مستوى أعلى. وترك السوق كلياً لأصحاب المحلات

---

(١) تذكر المصادر الحضرمية أن عمارة هذا المسجد سنة ٢١٥هـ وربما قبل ذلك، وقد حقق المؤرخ عبدالرحمن بن عبدالله السقاف عمارة هذا المسجد، انظر مجلة العرب، ج٧، ٨ سنة٢٩، محرم وصفر، سنة ١٤١٥هـ، ص٥٢٢. (المراجعون).

التجارية الصغيرة، ويتكون من طريق رئيس مع عدد من الطرقات الفرعية الصغيرة الوضيعة، وفضاء صغير مكشوف يستعمل قنوات التصريف المفتوحة الأشد اتساخاً مما يزيد الانطباع العام بعدم العناية التي تمتد إلى كل شوارع المدينة. والاهتمام بالصحة والنظافة يبدو أنه لا يثير اهتمام مواطني المدينة. والمخاطر التي يتعرض لها الشخص عند مروره في شوارع المدينة بين المنازل المرتفعة تحتاج إلى قلم «جوفينال» لكي يصفها وصفاً كاملاً. وقد يكفي أن نقول: إن كل شارع به مجرى (قناة) تصريف مفتوح. يجري هذا المجرى إلى وسط الشارع إلى بالوعة مغطاة جزئياً أو كلياً والتي لا أعلم إلى أين تقود. ويحدث التصريف من المنازل إلى الخارج ومن ثم إلى داخل هذه القنوات عن طريق الهبوط من أعلى منتهياً في منخفض والذي يخرج الأوساخ إلى أسفل كتف أسمنتي في مستوى الأرض. والغرض من ذلك هو حماية الأساس الحقيقي للمنازل من التلوث ثانية بواسطة التصريف العائد، وينثر الأخير في اتجاه تصريف الشارع. فإذا حدث أن مررت على نقطة كهذه عند لحظة ترسيب التصريف المنزلي، فمن الأفضل أن تمر أبعد ما يمكن في الجانب الأقصى. ومما ذكر حتى الآن يوضح أن التجهيزات الصحية في شبام تحتاج لجهد كبير لتطويرها. ولحسن الحظ فهي تعد المدينة الوحيدة في حضرموت التي يخالف نظامها الصحي كل مبادئ الصحة العامة والنظافة.

من الطبيعي أن يفضل الأغنياء من المواطنين تشييد قصورهم في أطراف المدينة دائماً حيث يسير تصريف المنازل في اتجاه بساتين النخيل في الأسفل. فمنزل عائلة عجاج والمنظر الذي يطل عليه المنزل في اتجاه الشمال عبر بساتين النخيل في الأسفل والوادي المفتوح في الخلف يستحق أن يشار إليه. والمدخل الرئيس لهذا المنزل يتجه إلى الداخل إلى المدينة حيث يقابل فضاء ضيقاً ولكنه مكشوف ونظيف بينما أثاثه الداخلي ونظامه لا يضاهيه شيء آخر. إنه من المستغرب أن تتحمل أسر متندرة مثل هذه القذارة والأوساخ بمدينتهم ولكن في اعتقادهم أن المصلحة العامة للمدينة من اختصاص الحكومة. وظاهرة عدم المبالاة في الجزء القعيطي من الوادي واضحة خلافاً

للسلوك الأكثر تطوراً الموجود خلف حدوده. ويجب أن نعترف إنصافاً لأهل شبام أن مساهمتهم في التطور في هذا الوقت تتركز على ضواحي الحديقة وفي الساحل عند الجانب الآخر من الوادي تحت ظل الجرف. وفي هذه الأرض نما عدد كبير من المساكن ذات الطابق الواحد الجذابة والمطلية بالجبس الأبيض، كل منها في داخل بستان نخيل أو أشجار فاكهة حيث تقضي عوائل العاصمة الثرية جزءاً كبيراً من فصل الصيف بها. وبعض هذه المساكن تتميز بالترف والبذخ بوجود حوض سباحة وهناك واحد منها تملكه عائلة آل عجاج محجوز كلياً لسكن الزوار الأوربيين تقريباً.

سكنت في ذلك المنزل فريا ستارك في عام ١٩٣٥م خلال مرضها الخطير والذي تطور بصورة مزعجة، وفقاً لما ذكره السلطان علي، وعزى ذلك كثيراً لرفض المريضة اتباع قوانين التغذية أو الوجبة المحلية وإصرارها على الاستحمام المتكرر. وسكن الكولونيل بوسكوين في هذا المسكن مراراً كما كان أيضاً في متناول يد كل زوار الوادي من قوات الطيران الملكية وحتى عند زيارتي كان يسكن فيه شاب إنجليزي جذبه إلى هذا المكان إغراء سبأ وشبوة، وقد وصل قبل أربعة أو خمسة أيام عن طريق وادي دوعن من الساحل واسمه نورمان بيرن وقد ذكر من قبل في باب متقدم. وخلال فترة بقائي في شبام رأيته في مناسبات عدة وأشركته معي في وجبة من الأكل المعلب دون أن أغير إيماني الراسخ أنه في هذه الحالات يجب أن تعيش حياة ريفية، أي تأكل ما يأكله أهل المنطقة. وفيما يبدو أنه قد مر بتجربة غير حسنة عند تناول الطعام العربي في الطريق وقد تحدث عنه دون حماس وحتى ملابسه الأوربية لم يتخلص منها حتى الآن مع أنه قام بذلك متبعاً لنصيحة محلية قبل رحيله إلى شبوة، والشيء الأشد غرابة أنه اعترف بجهله التام عملياً باللغة العربية والذي عوضه بعض الشيء عن طريق استخدام مترجم من الخدم في عدن.

كان عليّ أن أستسلم إلى نوع من التسلية على غير المتوقع في مساء اليوم الذي وصلنا فيه وذلك عندما كنت أجهز لتسلية أصدقائي بموسيقى من الراديو من مصر

والقدس. وأرسل لي شاعر محلي يدعى علي بن عوض بن حمد بانعيمان رسالة طالباً الإذن لزيارتي وقد أذنت له في الحال فتقدم وألقى علينا قصيدة مدح وترحيب ممجداً فضائل ابن سعود. ومن المحتمل أن يكون قد أشعر سلطات عدن بالصدمة وذلك لأنه يشير بوضوح إلى اتجاه خفي في الأفكار المحلية، الذي لم يكن غائباً أبداً صراحة عن النقاش العرضي في هذه الأيام. وهنالك بلا شك حركة تململ وضجر تحت الخفاء في حضرموت والتي يبحثون عن علاج لها، وعليه فإنه من الطبيعي أن يفكروا في ابن سعود كمنقذ لهم من مشاكلهم. وبعض الشجعان يطالبون بتدخله وآخرون أكثر جبناً يتعجبون بصوت عالٍ كيف يستطيع هو مساعدتهم. أجبت أنا عليهم بثبات أن ابن سعود لا رغبة له تحت أي ظرف في ضم المنطقة تحت مسؤوليته أو أن يتدخل في الشؤون الداخلية للدول العربية المجاورة له. واستشهدت بالتسوية مع اليمن على صدق ذلك واقترحت عليهم أن بمقدورهم تبني النموذج السعودي في السلام والأمن ويجعلونه ملائماً لاحتياج ظرفهم الخاص.

قضيت ثلاث ليالٍ في شبام في هذه المناسبة الأولى. وفي ظهر اليوم الثالث نُظمت لي رحلة إلى قرية بابكر الكثيرية وذلك استجابة للدعوة الملحة من مواطنها الأول نسيب بن علي بن عبدات. وقد كان في رفقتي حسين ومعروف. وقدنا سيارتنا على طول حافة ضواحي حديقة الساحل عابرين مجرى الوادي الرئيس، ثم مررنا بمنطقة واسعة من النخيل الصغير تسمى السبخة. وتقع قرية الحزم قليلاً إلى جهة اليمين في مقابلة ميلان المنحدر الصخري وهي متناثرة في غير نظام (زرتها في مناسبة لاحقة). وهذه القرية تبدو كجزيرة مستقلة تتبع لعدة أسر من السادة بالقرب من الحدود الشرقية لمنطقة القعيطي، والتي تحاط هنا بواسطة قناة السيول الرملية العريضة التابعة لوادي ابن علي حيث تخرج من مدخلها العظيم إلى الجنوب قليلاً من خلال

بساتين كثيفة وغنية يتخللها عدد من القصور الجميلة والقرى الصغيرة. ويمتد الخط الحدودي لمنطقة القعيطي عبر الوادي الرئيس إلى فم وادي جعيمة -قادم من الهضبة الشمالية-، ولكن تستثنى من ذلك القرارة وواحدة أو اثنين من قرى الكثيري. وبعبورنا قناة وادي ابن علي مررنا عبر بساتين نخيل الحوطة التي تتبعثر منازلها من غير نظام في خط طويل حول منحدر لجرف عالٍ، محددة مدخل الرافد إلى داخل وادي حضرموت الرئيس. ونحن الآن في منطقة الكثيري.

وتحتل سلسلة متعاقبة من قرى صغيرة مع حقولها وبساتينها مساحة كبيرة على يسارنا من الوادي، ياب، وقريو وباليت، أوصلتنا إلى مستوطنة بابكر وهي المكان الذي نقصده وهي ذات حجم معقول وتبعد حوالي ستة أميال من شبام. وجمع مضيفنا هنا مجموعة كبيرة من زملائه من القرية للاقاتي، ومرة ثانية ظهر الاهتمام الكبير بالتفاصيل التي تخص طريق السيارة الذي أصبح الآن مشهوراً، وقد عبروا عن أملهم في أن هذا الاتصال الذي أعيد وضع الأسس له سوف يجعل ابن سعود قادراً على مساعدة أهل حضرموت عديمي الحظ، ليحققوا السلام والأمن الذي يرغبونه جميعاً. ولكن إذا تركوا وحدهم فإنه ليس لهم أمل في تسوية مشاكلهم وذلك لطغيانهم وغيرتهم وتقديرهم الضيق. والمظالم المحدودة لعشيرة الكثيري ستناقش قريباً. ولكن فيما يبدو لي أن عائلة ابن عبدات اهتمامها بالتعصب وكبرياء العشيرة أقل من الاهتمام بالسلام الذي ينشدونه بأي تكلفة عن طريق أي شخص. فالسلام هو الهدية التي يطلبونها من حكوماتهم، بينما تعدد الحكومات هو العائق الواضح للسلام، ولقد أكرمونا بالشاي مع التمر وشرائح الأناناس المعلبة وكمثرى كليفورنيا . . . إلخ ثم عدنا من الطريق نفسه إلى شبام قبيل غروب الشمس.

عند وصولنا وجدنا أن السلطان عليًا قد عاد إلى عاصمته واستقر في منزل نائب الحاكم المقابل للقصر. وكنت مسافراً الصباح التالي لزيارة سيئون وتريم. رُتب الأمر

بحيث إنه يجب أن تنتقل مجموعتي إلى جناح آخر من القصر بينما الشقق والغرف التي كنا بها يجب أن تحجز لاستخدام السلطان. وفي هذه الأثناء شاركنا السلطان بعد العشاء الاستماع للراديو والذي كان مثمراً جداً وقضينا أمسية جميلة في المناقشة في كل المواضيع. ولقد جاء السلطان إلى شبام للبقاء لعدة أيام لإنجاز بعض الأعمال المحلية وغيرها من الأعمال ومن المتوقع أن أجده هنا عند عودتي. ولكنه لم يوافق على اقتراحي بأن نرحل نحن إلى معسكر خارجي ليتمكن هو من استخدام القصر. تظهر سيئون بصعوبة في يوم صاف وتبعد حوالي اثني عشر أو ثلاثة عشر ميلاً من شبام، وطريقنا حتى بابكر كان مشابهاً للذي وصفته من قبل. وبعد مرورنا على تلك القرية مباشرة دخلنا منطقة أخرى من المناطق الخطرة في الوادي وهي القرية ذات الجدران الكبيرة، قرية الغرفة -تبعد أقل من ميل من بابكر- التي كانت في حرب مع القرية التالية، قرية «أهل فاس»، حوالي نصف ميل إلى الخلف، حتى وقت قريب عندما تم تدبير عقد هدنة. وكانت الأمور تبدو هادئة وآمنة ولكن آثار إطلاق الأعيرة النارية تلاحظ حتى في المساجد والأضرحة والأبراج المحطمة جزئياً مما يعكس محنة القرية. ولا نحتاج أن نذكر أن القريتين تتبعان إلى عشائر بني عمومة وهم آل عامر وأهل عمرو من قبيلة آل كثيري. وعداوتهم مزمنة مع أنه تتخللها فترات هدنة ترتب بواسطة السلطان أو صناع السلام الآخرين. وهذا وضع مثالي لحل مشكلة روميو وجولييت باستثناء أن جوليتات المحلية (الفتيات) نادراً ما يمكن أن تراهن في الخارج بعد عمر تسع أو عشر سنوات عند ذهابهن إلى زيارة بساتين النخيل المحفوفة بالمخاطر فدائماً ما يصطحبهن عبد أو قريب حاملاً معه بندقية مع حزام مليء بالطلقات حول وسطه.

خلف قرية آل فاس، يدخل الرافد العريض لوادي سر إلى الوادي من جهة الجنوب مع وجود قرى عديدة عند مدخله، أيضاً المهري الصغيرة ثم المستوطنة الكبيرة تريس التي نظر إليها حسين بشوق وهو يعترف بخجل أنه تزوج مرة ثانية حديثاً من

فتاة من هذه القرية من المشايخ المحليين. وبعد الزواج ترك عروسته لتعيش مع والديها لفترة ولكن يرغب في أن يأتي بها إلى شبام في المستقبل القريب لتشارك زوجته الأولى في السكن في بيته البلاطي الفخم. وتؤدي المرأة دوراً ثانوياً في الأحاديث العادية في حضرموت وعزلها في منزلها يظهر أنه عزلٌ تماماً، وأكثر تشدداً من نجد والحجاز. وقد أثار اهتمامي غرابة تطور هذا الجنس الذي يكون رجاله معتادين ومطلعين على الحياة الأوروبية في جاوة وسنغافورة، والنساء اعتدن على طرق الراحة الميكانيكية لحضارة الغرب وإن لم يكن ذلك فإنهن معتادات على تقاليد الغرب الاجتماعية. وحسب علمي فأنا لم أر أي امرأة من الطبقة العليا خلال فترة بقائي في حضرموت. وقد لفت نظري أن النساء البسيطات والفلاحات ونساء الطبقة العاملة عامة من الصعب تميزهن من ناحية الزي عن نساء الطبقة العليا في وسط الجزيرة العربية. فإنهن يلبسن الثوب الفضفاض نفسه الذي يجر على الأرض ومحجبات بالخمار كلياً، ومن المحتمل أن الفرق الوحيد الذي يمكن ملاحظته هو أن ثيابهن مشرقة ومفعمة بالحيوية وبلونها الأزرق الغامق وتكرار الأزياء ذات اللون الأخضر القاتم أو المغري الأصفر.

وأزياء الرجال، خلافاً لذلك، تبدو كما لو أنها ليست عربية كلياً، ومع ذلك يمكن أن تعد أنها وسط بين الملابس الفخمة لسكان الأراضي العالية في حضرموت التي تتكون من إزار ولا شيء آخر ما عدا أحزمة حول الخصر. والزي الجاوي الذي قد يكون تطويراً لزي حضرموت يتكوّن في الأساس من إزار وصديرية خفيفة وبدلة بزرار خفيف للجزء الأعلى من الجسم. وأكثر العناصر سحراً عند سكان حضرموت هو جمال البنات في سن الطفولة. حتى في عمر التاسعة والعاشرة فإنهن يظهرن متجولات بلا قيود، وقد رأيت أكثرهن شجاعة تجري خلف السيارة وهو اللهو المفضل لأخواتهن الأقل جاذبية منهن واللاتي فيما يبدو أنهن لا يجدْن أي صعوبة في أن يجعلن من أنفسهن مصدر إزعاج بغيض خاصة للغرباء في داخل أسوارهم. والنظر

إلى البنات يدخل السرور إلى النفس وهن عامة يظهرن بعض الجبن والهدوء ولكن يملؤهن حب الاستطلاع. وهن جميلات كحديقة أزهار ويلبسن ثياباً بها رسومات لأزهار ومصنوعة من الحرير الياباني، الإزار طويل يجر في الغبار والأوساخ ولكنه مفتوح من الأمام إلى أسفل قليلاً من الركبة حتى لا يعيق الحركة وبه عنق مربع عريض يرسل انزلاقاً مع كل انثناءة في الجسم على الأكتاف الساحرة الرقيقة البناء. وأياديهن وأقدامهن جميلة وشعرهن الأسود طليق أو مضفور وعادي دائماً. وهن عادة ما يتجولن في مجموعات تتكوّن من ست أو أكثر وهذا التنوع الكبير في ألوان ملابسهن يعطي تأثيراً كاملاً أو ببساطة يعطي الانطباع الذي يعطيه حوض من الزهور الجميلة. إنهن حتى الآن يشكّلن المظهر الوحيد الأكثر إثارة وبهجة في الأرض التي يحببن حتى تجبرهن التقاليد على الانسحاب والتواري من نظرات العامة إلى عالم المرأة.

على الضفة اليمنى لمصب سر تقع القرية الصغيرة ثوم والتي تندمج بساتين نخيلها في حافة واحة سيئون العظيمة. ودخلنا المدينة نفسها عن طريق بوابة متواضعة في حائطها الغربي، حيث طرقاتها الضيقة الملتوية لم تصمم لحركة السيارات، كما توجد جمهرة من الأولاد الصغار تجعل التقدم فيها بطيئاً. خرجنا في الحال إلى فضاء واسع في الجانب الشرقي من المدينة حيث يوجد قصر السلطان العظيم -حسب تقديري فهو المظهر المعماري الرئيس لحضرموت- توجد أبراج فوق السوق لم يكتمل تشييدها بعد وقد صممت وشيدت بواسطة شركة سيد أبوبكر بن حسين بن الشيخ آل كاف، الثاني من خمسة إخوان من العشيرة القيادية لعائلة آل الكاف العظيمة. ويقف قصر سلطان تريم بالقرب من قصر السلطان نفسه وينافسه تقريباً، بينما بعيداً في اتجاه الشرق تمتد الواحات الشاسعة التي تنتشر في بساتين نخيلها المنازل الصيفية البيضاء للأثرياء من المواطنين والذين عادة ما يقضون الخريف أو موسم التمر كما يقولون في الصحراء والتي يقصدون بها بساتين النخيل. ويجري حائط المدينة بعيداً في شكل دائري ليحيط بمساحة كبيرة لهذه البساتين والمدينة نفسها، بينما نمت خلفه حديقة كبيرة

في الضاحية تسمى القرن بها العديد من المساكن ذات الطابق الواحد والمنازل الصيفية والفنادق.

عند توقفنا في باب القصر كان السلطان في مسكنه الصيفي على بعد نصف ميل ومن ثم ذهبنا إلى هناك فقط لنكتشف أنه كان يقضي اليوم في فيلا تتبع لأخيه جعفر، ووجدناه هناك بمعيته مجموعة معتادة من أفراد العائلة تتكون من اثنين من أبنائه -حسين وآخر نسيت اسمه- وأخويه الاثنين حسين وأحمد. وتعرفت مؤخراً في اليوم نفسه على محمد من فرع العائلة بتريم والذي يحتل القصر الثاني الذي ذكر من قبل ويحكم أخوه عبدالله منطقة تريم. وجلسنا نتحدث بحرية أثناء شربنا للشاي وتدخيننا للتبغ في غرفة استقبال حسين وهي قاعة ذات حجم معقول وحيطانها مطلية بزخارف الجبس الرقيقة. وقام حسين بأداء فريضة الحج قبل سنوات قلائل -أعتقد في عام ١٩٣١م- مع أبيه منصور الذي توفي في عرفات. والإخوان الثلاثة جميعهم الآن متحمسون لاحتمال ذهابهم إلى الحج عن طريق السيارة كما أن لهم مطالبهم الخاصة التي يعتزمون أن يشغلوا بها مكاتب ملك العرب(١).

قدم طعام الغداء وكان لذيذاً جداً، تبعاً لموضة "جستافيل الجاوية"، كل نوع من الطعام طهي إلى حد الكمال، وقدم صحن أو اثنان من الباباي الحلو المذاق، والأكثر عجباً هو تقديم المياه المثلجة والتي من شدة برودتها كان من الصعب أن تشربها إلاّ على رشفات. ودون أن ندرك، فإننا عبرنا حقلاً ثقافياً وسياسياً جديداً. ودون أدنى شك فإن شبام هي المركز التجاري لحضرموت مع أن سوقها أقل جاذبية بكثير من سوق سيئون. وهو كذلك أكثر تخلفاً كما هو جلي من إهماله للراحة والنظافة والزينة. وفي سيئون دخلنا منطقة نبلاء إقطاعيين يعيشون حياة سهلة مريحة -ولكن لبعض الأسباب السياسية لم يكونوا سعداء- يمتلكون متع الحياة ويستمتعون بترفها

(١) أي الملك عبدالعزيز -رحمه الله- (المراجعون).

البسيط. وفي الظاهر أنهم أغنى من منافسيهم القعيطيين وبكل المقاييس أكثر إسرافاً في صرفهم. والمضخات التي تدار بواسطة الماكينة هنا عددها أكثر من الغرب البعيد، فمعظم المساكن بها أحواض سباحة يستعمل الفائض من مائها في ري الحدائق الصغيرة المزروعة بتنوّع عظيم من أشجار الفاكهة، السيارات أكثر عدداً، والإضاءة بالكهرباء بدأت تدريجياً، وأسلوب الطهي متقن ولكن قمة الترف هي الماء المثلج ووجود أقل من ستة من التلفونات التي تهيئ الاتصال بين المنازل الأكثر أهمية. ولكن فوق الجميع فإن سيئون -مع كل الشعر الذي قيل عن تريم- هي البقعة الأكثر جمالاً في حضرموت.

فُضِّلَ المشهد الذي يمكن رؤيته من قصر السلطان على كل المشاهد الأخرى باستحقاق بواسطة فان دير مولين. وبالتأكيد فإن رؤيته تبهج النفس. تريم هي مركز حضرموت الروحي والثقافي. والعنصر المسيطر هو العدد الكبير من سكان المدن في الوادي وهم عائلة علوي سعيد من آل كاف استوطنت هنا معظم ألف سنة الماضية، منذ حركة القرامطة في القرن العاشر والحادي عشر والتي جلبت إلى هذه المدينة من البصرة جد العشيرة سيد أحمد بن عيسى المهاجر العلوي والذي تظهر قبته حتى الآن في هضبة على بعد خمسة أميال من سيئون. وعلى ما هم فيه فإنهم يتمتعون بقدر كبير من التقديس في وسط العداء الدنيوي من قبل جيرانهم. والبدو لا يتحرشون بهم ولكن من الخطأ أن نظن أنهم يعيشون في جنة منزوعة السلاح. فبينهم -كما في كل مكان- آخر علامات العشيرة المعروفة.

ولكل عشيرة -بالطبع- أتباعها، والحرب الأهلية بين الأسياد عندما تنشب تشمل -بالطبع- أتباعهم. وبعيداً عن هذا فإن الفضل الكبير الذي تقوم به عائلة آل الكاف هو الدور المميّز الذي تؤديه الآن في طليعة التقدم، وكقواد لحركة الحضارة والتطور. وتفقد الطبقات الدينية؟ عادة الكثير من سلطانها بتعليم وتثقيف الشعب ولكن عائلة الكاف لا تبحث أو ترغب في أي نوع من السلطة المؤقتة وقد استفادوا

عن طريق اتصالهم بجاوة وسنغافورة وجلبوا إلى أوطانهم الكثير من التقدم. وسارت جهودهم في ذلك ببطء ولكن بتأكيد لنشر ذلك التطور. وكل التكاليف التي صرفت على العملية تحملتها المخصصات الخاصة بأسياد الكاف. وإنهم بالتأكيد وضعوا نموذجاً نبيلاً في وسط ظروف غير مشجعة، ولكن التاريخ لن ينسى أنه في زمن ما رممت عائلة مميزة الصدع الذي فشل حكام الأرض أن يقفوا في وجهه وهو انقضاض اليأس والفوضى.

يجب أن أختصر تجربتي الأولى في سيئون، وبما أن برنامجنا المحدد يشمل وصولونا إلى تريم عند غروب الشمس. وبعد وجبة الغداء انتقلنا إلى الفيلا الخاصة بالسلطان علي. وعند وصولنا كنت مستغرباً أن أرى منظر حطام. فالحائط الجنوبي لمجموعة المنازل المنتشرة وجزء كبير من قاعدة العمود المربعة النظيفة البيضاء للمسكن الأرضي وبعض الغرف الأمامية قد دمرت قبل أسبوعين بواسطة سيل رهيب من وادي فغمة الرافد من الهضبة الجنوبية والذي يشارك وادي سر -الذي ذكر من قبل- في المحافظة على واحات سيئون حية ويانعة. وقد يبدو أن السلطان قد بنى قصره الصيفي في قناة السيل في الوادي وكأنه يبحث عن المشاكل. ولكن الحقيقة هي أن السيول الكبيرة في أودية حضرموت ليس لها حدود أو قيود وقد تكون قاسية مع أي شيء في طريقها. فحيطان الخندق العظيم التي لا تخترق تبتعد عن بعضها بما يكفي مما يجعلها تتحمل أهوال السيل الجارف. وباستثناء المنطقة المحطمة فإن المسكن ذا الطابق الواحد ساحر في عموميته، وبه حوض سباحة كبير وهو الآن خالٍ، وفي الوسط ردهة واسعة مفتوحة صالحة لجلسة المساء. ويوجد عدد من الغرف المريحة المفروشة جيداً بالأبسطة في الجزء الشمالي للاستعمال أثناء اليوم وتوجد حمامات كاملة التجهيز ونظيفة للغاية. وهناك فناء حديقة صغير مليء بترف بأشجار البابای والموز. وبينما تعانق أشجار النخيل المحيطة خارج سور الردهة والذي تتعلق في أعلاه شجرة أكاسيا ذات أزهار بيضاء ساحرة في وقت إزهارها الكلي. والمطلوب الآن هو قسط قليل من

الراحة مع وجبة خفيفة من التمر والفاكهة المعلبة والبسكويت قبل أن نغادر لمواصلة رحلتنا مع الوعد بقضاء الليلة التالية هنا كضيوف للسلطان.

مررنا بعد نصف ميل من هذه البقعة عبر البوابة الشرقية لحائط المدينة إلى نخيل القرن ومنطقة الفيلا والتي بدا خلفها بعد ميل واحد حزام واسع لأشجار نخيل مزروعة حديثاً معتمداً كلياً على الري بالسيول. وتعرف هذه باسم حمى سيئون -أو محمية الرعي- التي تحدد حدودها البعيدة بعد المرور على القرية المدمرة، قرية حصن الحوارث، في حافتها على اليمين، نهاية واحة سيئون. وتمتد واحة سيئون شرقاً وغرباً حوالي خمسة أميال طولاً بينما عرضها على طول خط وادي فغمة إلى داخل الوادي الرئيس قد يبلغ ثلاثة أميال. وتقع على حدودها الشرقية مع طريق العربات المتعرج خلال مقبرة غير نظيفة في طرفها القرية المتسخة مريْمَة التي تطغى عليها هضبة منخفضة من الحجر الجيري والتي تحتفظ جوانبها وقمتها ببقايا جدران قديمة ومبان. وقد ذكر أن هذه الأطلال قديمة جداً ولكن مع ذلك ودون فحص دقيق، أعتقد أن موقعاً مثل هذا لابد من أن الإنسان استوطنه لفترة طويلة وبالتالي مبانيه القديمة لابد أن تكون قد استهلكت وذلك نتيجة لاستخدامها كمواد بناء في تشييد المباني اللاحقة. ويبدو أن هناك العديد من الروابي المتشابهة التي تقع بعد فواصل جبلية قصيرة من مريْمَة، عبارة عن شظايا كبيرة من الجروف الصخرية تساقطت حرة في الوادي وتشكلت مع الزمن، كانت قد احتلت بواسطة محاربين. وتعد حالة الخراب الكاملة للقسم الشرقي مريْمَة نفسها خلف الهضبة دليل على إقطاع قديم استوطن بصعوبة في هذه المنطقة. وأصبحت البلاد غير قابلة للسكن من هنا حتى قرية آل باعلوي (علوي) -حوالي أربعة أميال-، كما يبدو، لسبب ما. وقريتاها الصغيرتان حوطة سلطانة -التي يملكها مشايخ عشيرة الزبدة- وقارة العرفضاء على هضبة منخفضة- معظمها محطم والأرض التي حولها غير مزروعة، على الرغم من وجود منطقة من النخيل على شمال الوادي تسمى مثاوير البوع.

دخلنا بعد حوالي ميلين ونصف من مرْيَمَة إلى مستوطنة تاربة الكبيرة والتي يبدو عليها الرخاء. وتتكون من مساحة كبيرة من النخيل على الضفة اليمنى من الوادي الجانبي بتاربة حتى اتحاده مع الوادي الرئيس، وثلاث أو أربع قرى كبيرة على جانبي القناة نفسها كما أن هنالك العديد من المنازل المعزولة كبيرة الحجم. وذكر هانز هلفريتز عند قضاء ليلة في قرية تاربة المحصنة أنه باستثناء الحقيقة هنا أو في أي مكان آخر في حضرموت خارج المدن المحاطة بالجدران والمنازل التي تتشكل كحصن فإنه من الصعب أن تجد في كل الوادي مستوطنة أقل في المظهر العسكري من هذه. وهي ليست محصنة بالمعنى المعروف لهذا المصطلح. وهي تقع في الحد الغربي لمنطقة خطر أخرى بل المنطقة الأكثر خطورة حتى الآن. وهنالك هدنة مستمرة منذ مدة طويلة بين تاربة وتريم والوادي مفتوح للحركة لمسافة ثمانية أميال من طريق السيارات. والمنطقة التي تتخلل ذلك يحتلها العدو والذي يمتد جسمه الرئيس -قسم آل جابر من آل كثير- ليشمل كل الطرق إلى أعلى وادي عدم على طول التقائه مع الوادي الرئيس والذي ينحرف هنا انحرافاً حاداً باتجاه الشمال إلى تريم نفسها ومن ثم يأخذ مجراه الشرقي. وعلى طول طريق السيارات أو بالقرب منه توجد قرى الأعداء الريضة وكذلك السويري والغرف. ولاستبعاد احتمال الحرب قامت عائلة آل الكاف ذات العقلية التجارية ببناء طريق سيارات محفوف بالمخاطر فوق وعبر المنحدر العظيم الذي يفصل بين تريم وتاربة. ويسير هذا الطريق بالتأكيد بجانب المنطقة العدوانية ويختصر المسافة بين المستوطنتين كثيراً، ولكني جد مسرور لأن الهدنة الحالية تجنبت الإشارة إلى ضرورة اختبار هذا الطريق الجديد وذلك لخطورة صعوده وهبوطه. وقد يساعد الطريق في الهدنة ولكنه في هذا الوقت يحتاج إلى إصلاح وذلك نسبة للإهمال الطويل والأمطار الحديثة.

يعد وادي عدم الذي علينا الآن أن نتغلب على دلتاه القاسية أحد أهم الروافد الحقيقية لوادي حضرموت بالمقارنة مع وادي ابن علي والثلاثي الذي يكون الوادي الرئيس لحضرموت يبقى كمجرى نهر على طول الطريق من خلف هينن إلى البحر في

فترات تحدد بوجود مناطق مستنقعات وأحواض محاطة بالقصب. ولكنه يصبح هنا عند اندماج وادي عدم رافداً شبه دائم تحت اسم المسيلة ويحمل الماء إلى أسفل نحو البحر. ويعبر الطريق هذا النهر ومنه يمتد إلى مسافة ميل تقريباً على امتداد سلسلة صخرية لتجنب تلال الرمال وأكوام الطمي التي تعترض الوادي. وفي النهاية البعيدة للطريق الذي قد اتسع، نزلنا إلى سطح متموج من الطمي والصخر مكوناً الفم الواسع لوادي بثي الذي يأتي إلى أسفل عبر السهل الشاسع باتجاه حوض تريم الذي يعد شريانه الرئيس. ويدعم إمداده المائي بواسطة الروافد الأقل أهمية وهي عيديد ودمون على جانبي المدينة والتي يقع بالقرب منها إلى ناحية الشرق في الضفة اليسرى لقناة المسيلة، نخيل وقرى النجير.

ومبلغ علمي أن الموقع الحديث لتريم لا يوجد ادعاء لاعتباره موجود منذ القدم. إن بعض أجزاء حوضه تبدو ظاهراً أنها كانت تحت احتلال نشط بواسطة الإنسان منذ زمن بعيد. ومما تجدر الإشارة إليه -ولفائدة الباحثين في المستقبل- أنه بالرغم من أن تريم قد ذكرت بواسطة الجغرافيين العرب القدامى إلا أن بليني واسترابو لم يذكرا أسماء تحمل أي شبه لها. وذكر بليني في قائمته أسماء ثلاث مدن حميرية وهي سيبي، وثمنة، ونجية وهذه ذكرت بوضوح. وكذلك ذكر بغير وضوح أسماء مثلث شبي، ودمون، والنجير. ولا يمكن أن نحمل الأمر أكثر من ذلك خاصة وقد تكون طمي كثير في سطح وادي حضرموت. على أن الحفر والتنقيب الأثري وحده كفيل بكشف الأسرار المدفونة في أعماق التربة.

ما زالت بثي في فم الوادي باقية كقرية صغيرة بها مساحة كبيرة من النخيل. وتطورت عيديد بسرعة إلى مدينة ذات حدائق، مع الفلل والمنازل ذات الطابق الواحد لعائلة الكاف، وتقبع بساتين نخيلها المنتشرة من جدران المدينة باتجاه الخارج فوق فم الوادي حيث يجري طريق على مدى حافتها على طول طريق جذاب من أشجار السدر حتى حائط المدينة والتي دخلناها عن طريق واحد من أبوابها المتسخة مباشرة بعد مغيب

الشمس. وتوجد المقبرة المحلية الضخمة في هذه النقطة في داخل الحائط مباشرة، وهي مقسمة إلى عدة أقسام بواسطة الطريق الذي يمر خلالها في عدة اتجاهات. وتكوّن القبور النظيفة المعتنى بها جيداً مع الشواهد المنحوت عليها وبعض الأضرحة الشبيهة بالقبب والسراديب مدينة موتى حقيقية عند عتبة مدينة الأحياء. ومررنا خلال المقبرة بالطريق ذي الطابع القديم المتعرج في اتجاه مسكن السلطان عبد الله بن محسن حاكم الكثيري. وكان ذلك مساء الخميس والطرق مزدحمة بالنساء اللائي يلبسن ثياباً صفراء أو خضراء خفيفة أو زرقاء وهن عائدات إلى منازلهن يحملن مؤناً لاحتياجاتهن الأسبوعية. ويوجد بمدينة السادة وقف منظم جداً هو مؤسسة لتوزيع الأغذية والنقود وضروريات الحياة على المحتاجين. وفي مساء كل يوم جمعة يذهب الفقراء إلى مصادر الإحسان. وهم في هذه اللحظة متجهون إلى منازلهم يحملون عطاء الله في جيوبهم الكبيرة. والأطفال في هذا الازدحام عددهم كبير كأمهاتهم ليس من السهل أن تمر من خلال هذه الجمهرة. ووصولنا إلى مسكن السلطان أصابه بدهشة، لأننا لم نتمكن من إبلاغه مسبقاً عن رغبتنا في زيارته. وكان يجلس مع قلة من الأصدقاء في الخارج تحت ظل المبنى الكبير الذي أجّره مؤقتاً من أحد أعضاء عائلة آل الكاف بينما أعيد بناء وتحديث القلعة القديمة في هضبةٍ في وسط المدينة ليسكن فيها السلطان نهائياً. ووجهنا مباشرة إلى أعلى حيث غرفة استقبال كبيرة ثم انتقلنا بعد زمن قليل إلى السطح لنستمتع ببرودة المساء. وانتشرت أخبار وصولنا في المدينة في لحظات قليلة وعليه تجمع كل الناس في القصر لاستقبال الزوار والترحيب بهم. وكان معظم المتجمعين من الشخصيات الكبيرة من أفراد عائلة آل الكاف، العديد منهم كانوا صغاراً في بداية طريق الرجولة، مع وجود السيارات وسبل الرخاء الأخرى تحت تصرفهم، وأمامهم الحياة كلها ليستمروا في أداء العمل الجيد كالذي قام به كبارهم من الجيل الحالي، ولم يهمل تعليمهم ذلك لأنه إضافة لوجود عدد من المدارس في المدينة التي أسستها عائلة الكاف، فإن للعائلة مدرسة خاصة لأبناء العائلة فقط.

وتعد اللغة الملاوية عند هذه العوائل لغة ثانية ويتحدثونها بطلاقة فيما بينهم ومع خدمهم. وعندما تكون العائلة في جاوة وسنغافورة كأنها في بلدها حضرموت ولكن الحضرمي مهما يكن من أمر فإنه في الخارج لا ينسى بلاده الأصلية -وليست هي بالضرورة الأرض التي ولد فيها-، وبلا استثناء تقريباً يرجع لها يوماً. ويلاحظ أنهم يحبون بلادهم بشدة حتى عندما يكون انتقادهم لنواحي التقصير فيها عنيفًا جداً. ولقد كنت غير محظوظ في توقيت زيارتي وذلك لأن الإخوان الثلاثة المعترف بهم كقيادة لمجتمع تريم كانوا في زيارة لمصر والذين يوجدون معنا هنا هم أبناؤهم. أما الزعيم المعترف به عامة لرواد التطور في حضرموت هو سيد أبوبكر بن الشيخ الكاف، الثاني من الإخوة الثلاثة الكبار، أما الاثنان الآخران فهما عبدالرحمن (الأكبر) وعمر. العضو الأكبر مقاماً في العائلة والذي يعتقد أنه الأكبر عمراً مع أنه أكبر مني بقليل هو أبوبكر بن حسين بن الشيخ الكاف رجل جذاب وسيم، راجح العقل وقد قام بواجبه كالعضو الأكبر في العائلة لتسليتنا والاهتمام بنا جميعاً في وقت الغداء في اليوم التالي. وبالنسبة لبقية أعضاء العائلة كان من الصعب عليَّ أن أعرفهم جميعاً لأني كرجل غريب في أول زيارة لي لا يمكنني أن أجد طريقي خلال هذه الأسماء المتطابقة لعائلة قادت التطور ونمت إلى حجم قبيلة. ولم أنجح في اكتشاف من هو الكاف الأصلي الذي أصبح اسمه هو اسم العائلة لفرعه من السادة آل علوي وكذلك لم أعرف متى عاش، ولكن بعد زمن قليل أدركت أن المصطلح المألوف «الشيخ» يستعمل في هذه العائلة كاسم حقيقي.

قضيت الصباح التالي في جولة من الزيارات إلى عدد كبير من منازل عائلة آل الكاف في المدينة نفسها وضواحي عيديد. والمنازل الأخيرة (في الضواحي) ذات بناء حديث على شكل فيلا بينما منازل المدينة قد يرجع تاريخ بنائها إلى نصف قرن أو أكثر، وهي عامة أكثر فخامة مع ميل بسيط للزخارف النباتية. وفي الحالتين فإن الإلهام أتى من سنغافورة أو جاوة. ورأيت ماكينات دويتز في واحدة أو اثنين من حدائق

عيـديد والتي يستـخدم معـظمها لأغـراض الضخ. وبعض المنازل بها إضـاءة كهـربية وحمامـات ممتازة إضافة إلى حـوض السباحة (يابي). وفي مـعظم المنازل يوفر الثلج، وفي اعتـقادي أن كل منـازل آل الكاف ومنازل السلطان الاثنين موصلـة كلها بأجـهزة تلفونات يحتوي كل منها على عشرين إلى ثلاثين رقـماً. وحققت التجارب في حدائق الفاكـهة تقدماً جـيداً في بعض المجمـعات، حيث رأيت أشجـار الكرم والرُمان والموز والتين والجوافة والخوخ والمشمش والباباي والذي يعد أكثر الأشجار الدخيلة نجاحاً كما هو الحال في مكة المكرمة. أما أشجـار الليمون فيبدو أنها متقـدمة في النمو والتأسيس وإنه لشيء مفـرح عندما ترى حـرص كل أفراد العـائلة الصغار والناضـجين على هذه التجارب تحت التطوير وهم بالتـأكيد يجعلوننا نعجب بهم للمثال الجـيد الذي يضعونه للعامل. ودون ريب فإنه في السنوات القادمة سوف لن يكون لهم سبب لينكمشوا من المقارنة بالآخرين. ولا غرو فإن الله أعطاهم منطقة خصبة وساحرة كأي مكان آخر.

على الرغم من أن ماكـينات الضخ تتقـدم بسرعة لكن مـازال هناك العديد من الآبار تعتمد كما في الماضي على السـحب بواسطة الإنسان، فريق مختلط من الرجال والنساء، أربعة أو ستة يسيرون إلى أعلى أو أسـفل، في منحدرات قصيرة مطابقة في طولها إلى عمق الآبار غير العمـيقة لحسن الحظ. وفي كل مرة يصل الفريق إلى أعلى المنحدر، يتوقف ويندفع إلى الأمـام مردداً أغنية ساحرة قبل سـحب الحبال إلى أسفل لسحب دلو الجلـد المليء بالماء إلى أعلى. وهؤلاء الفلاحون الـذين يعرفون بالفـقراء يبدو أنهم أحفاد المشايخ[١] وهم يكونون نسبة كبـيرة من السكان، وفي الأيام السابقة كانوا يمثلون طبقات الموظفين في السلك الكتابي، يعيشون على هبات السادة وزوارهم ولكن مصطلح المـشايخ قد فـقد منذ زمن طويل أي دلالة على التـعليم وأصبح الآن

(١) الفقـراء: من قبائل شبـوة، يعرفون بالفـقراء عند أهل الجوف، وبالمشـايخ عند أهل حضرموت، الحـجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها ج٢، ص٤٤٥. (المراجعون).

مجـرد إشارة إلى الطبقة أو العـشيرة، وبالتـأكيد فهـو مؤشر إلى الدونيـة. ولم تعد حضرموت أرض القـديسين تربي وتغذي جمهوراً من المتطفلين ليـشاركوا البدويين في سلب حجاجها. وعليه فإن الفقراء عليـهم لكي يعيشوا أن يكدحوا في خدمة الأسياد الأعلى الذين صنعـوا هذه الثروة في الخـارج بالعمل في الأرض والأعـمال التـجارية ويستعملونها الآن في تطوير بلادهم.

وتريم في مجمـلها مدينة مخيـبة للآمال، ومن المحتـمل أن يعزى ذلك إلى أن وحدة المشـهد تعترضـها دعامـة منخفضة من الـهضبة تختـرق المدينة لتوطيـد القلعة القديمة. وفيمـا عدا ذلك ووجود القصور الجميلة للسكان الأغنياء، فـإن المدينة تفتقر إلى مبان عامة عظيمـة، وبها منطقة سوق ضعيفة وسيئـة للغاية. فالمدارس عبارة عن منازل حوّلت لأغراض تعليمية وحتى بين المساجد لا يوجد هناك مبنى يثير الإعجاب، وهناك مئذنة مسجد المحضار الطويلة المربعة والجمـيلة التي تمثل مظهراً معمارياً حقيقياً يمكن أن تفـخر به المدينة، ويبـدو أنها ليس في مـكانها كليـاً على الرغم من أني لم أتسلقها ولكن أستطـيع أن أقول إنها مطلة على منظر جميل للمدينة. وعليـه فإن قمة باعشـمين الأكثر علواً وبعـداً يمكن رؤية مشهد جـميل للمدينة منهـا كذلك. إذن لا يمكن مقارنة المنظر هنا بسيئون. والمسجد الجامع، هو مـبنى جميل للغاية ستة أو سبعة صفوف من الأعمدة في اتجاه القبلة وتوجد ساحة مـفتوحة تفصلها عن صفوف أعمدة مشـابهة ولكن أقل عمـقاً في الجانب الآخـر. والمبنى ضخم ولكنه بسـيط للغاية في الأسلوب. وبما أنه المسجد الجـامع الوحيد في المدينة فقد صـمم ليسع كل السكان من الرجـال البالغين في وقت واحـد. ومع أن عدد الـسكان الكلي في المدينة ٣٠٫٠٠٠ نسمـة مما يعني سعة ٨٫٠٠٠ إلى ١٠٫٠٠٠ مـصل. وكان المسجـد ممتلئًا بالناس في صلاة الجمعـة إلى أقصى سعة عندما حضرت الصـلاة مع السلطان. وكان موقعنا في الصف الثـاني بالقرب من المحراب. أمـا الصف الأول فيـبدو أنه مـحجوز للـعلماء والذين دخل وخرج مـعظمهم عن طريق باب الإمام الخاص بالقـرب من المحراب في

الحائط الخلفي. وأثارت الصلاة هنا انتباهي وذلك لوجود لمسة (متكلفة) أكثر من الصلاة في نجد والحجاز، فمثلاً يكون الإمام محجباً كلياً عند دخوله بواسطة غطاء رأسه ذي اللون الأبيض الذي يشبه القلنسوة. وبعد الصلاة عند مغادرتي للمسجد مع السلطان سائرين في اتجاه السيارة شعرت بأني بطل المناسبة. إذ تجمع جمهور كبير حول السيارة، وعندما ظهرت على عتبات المسجد ونزلت نحو السيارة عرفت أني الشخص المحتفى به من الجمهور بهدوء ونظام واضح. وسمعتهم يقولون: «ذلك هو» ثم «السعودي». وكان مروري بالأرجل أو السيارة مناسبة في كل مدن حضرموت مماثلة لهذه ولكن بطريقة أصغر من هذه المظاهر. ودائماً كنت أسمع همسات رهبة تقول أحياناً «نصراني» وهو مصطلح أقوى بقليل من مصطلح رجل إنجليزي أو أجنبي. وأعتقد أنه سوف يتحدث الناس في حضرموت لزمن طويل عن زيارتنا لهذه الأجزاء وخاصة وصولنا بالسيارة كمناسبة ذات أهمية أو معنى غير عادي. وخلف هذه الهمسات تتسلل رؤى موحية بالسلام.

ولا عجب أن تشكل الدائرة الطولية لحائط المدينة، المبتدئة من نقطة على خندق شديد الانحدار والمنتهية في آخره، الحماية الوحيدة للسكان ضد الحرب. والعدو على أبوابهم أو على بعد ميل منهم تحت الخندق المقابل. ويأمل الجانبان في استمرار الهدنة، ولكن أي حادث مؤسف بسيط قد يضع حداً لها. وتوجد في الحائط أبواب ليست فيها ميزة معمارية، تعمل كمدخل للمدينة من عيديد ومن سيئون ومن الشحر وطريق العربات من عينات ومن دمون على التوالي وبهذا الترتيب من الغرب إلى الشرق في اتجاه عقارب الساعة. وثمة منازل للحراسة توجد على أبعاد متفرقة ومكررة بين الأبواب، قوية البناء، بينما وقف حصن صغير كحارس في كل طرف من الحائط. ولا يوجد حائط على طول وجه الخندق وليس هناك حاجة للمراقبة.

لا حاجة لي إلى الحديث كثيراً عن الضيافة الجميلة لأهل تريم أثناء فترة بقائي معهم التي كانت قصيرة جداً، وفي كل ذلك الوقت قاموا بخدمتنا والترفيه عنا دون

كلل أو ضجر. واستخدام الشاي هنا بدلاً عن القهوة في الضيافة. وتجهيز الشاي هنا عملية معقّدة وطويلة كما هو الحال في تجهيز القهوة في نجد. ويجهز الشاي في غرفة الاستقبال بواسطة خدم يشرفون على تقديم الشاي بكل معداته الضرورية من شاي وسكر وبراد (إبريق) وأكواب وملاعق. وعندما يغلى الماء يملأ إبريق صغير إلى نصفه بأوراق الشاي ومن ثم يملأ بالماء ويترك في الموقد. وتملأ الأكواب إلى ثلاثة أرباعها بالماء الساخن ثم يضاف السكر. -في كميات كبيرة ولكن كان دائماً يجهز لي إبريق شاي بلا سكر منفصلاً ومعه كوبان حسب حاجتي- ويصب الشاي من الإبريق الصغير في الأكواب وهو قوي جداً ومر. وتوضع الأكواب عادة على الأرض أمام الضيوف بواسطة الخدم. ويقدم للضيوف أو الزوار المميزين كوبان، وهذا أيضاً يحدث عند تقديم القهوة وهو مظهر غريب على قواعد التشريفات. وعندما يأتي الزوار في وقت غير وقت الوجبات فإن المضيف لا يعد ضيافته مكتملة دون أن يقدم وجبات خفيفة منعشة، مثل البسكويت والحلوى والمعجنات المنوعة محلياً والفاكهة المعلبة. وعليه فإن ضيافة يوم يمكن اعتباها اختباراً جاداً لسعة تحمل الضيف وذلك نسبة لكمية الأكل الكبيرة التي تقدم.

يختلف السلطان عبدالله بن محسن عن أخيه محمد الذي يعد بعض الشيء نحيلاً وضعيفًا. والسلطان عبدالله ثقيل في بنائه الجسماني وأكثر مرحاً ولكن دون طموح فكري كبير أو مقدرات نقاش. ومظهره الذي يشبه مظهر حفيده السلطان علي ابن منصور من سيئون، يعطي انطباعاً بأنه مزارع صغير ميسور الحال أكثر منه حاكم الأرض والذي نجد أن مسؤولياته قد تكون السبب في تجعد جبينه الذي لفت النظر. وفي محيطه الخاص فهو يحتل موقع ملك مستقل ولكن إلى حد ما تطغى عليه عناصر عائلة آل الكاف، وفي نواح أخرى فرضت الظروف عليه بعض القيود التي بالتأكيد يستاء منها. وقد حدثت مشكلة بينه وبين السيد أبي بكر بن الشيخ الكاف قبل حوالي أربع سنوات لم أحاول أن أتحقق منها. ونتج عن المشاجرة هجرة السيد إلى

سيئون تحت طلب السلطان علي، وهناك ما زال يعيش في منزل جميل جداً من طابق واحد والذي بناه لنفسه في حي الحديقة في المدينة، وعلى الرغم من أن حديقة المدينة لم تكتمل بعد إلاّ أن المنزل نفسه مع غرفه الواسعة وحوض سباحته الكبير من المحتمل أن يكون أفضل فيلا بنيت حتى الآن في حضرموت. وكان لابد لي من أن أقضي هذه الأمسية في منزله هذا وذلك لأني وجدت عند وصولي إلى سيئون أن السيد سقاف بن السيد أبي بكر الذي كان بعيداً في مصر قد استجدى السلطان ليسمح له باستضافتي.

يقع بعيداً إلى الشرق من تريم واحات عينات وقسم، وفي الوراء تقع بني هود وبئر برهوت وكانت جميعها مغرية لي، ولكن بما أني وصلت ورأيت تريم فلابد أن يكون هناك حد لتجوالي. وعليه وبعد يوم لطيف من الضيافة المكثفة، مررت مرة أخرى عبر حائط تريم وعدنا بالطريق نفسه الذي أتينا به فوصلنا إلى قصر السلطان. وكان القصر خالياً وبدون أثاث لأنه في مثل هذا الفصل يسكن السلطان كأي شخص آخر في حديقة المدينة. والغرف التي بها أثاث هي الصالون الرئيس وفي تقديري أن مضيفي قد نقل نفسه هنا مؤقتاً ليمنحني المتعة المُقدرة جداً لرؤية القصر من الداخل ورؤية منظره المشهور. وتحركنا جميعاً إلى منزل الكاف الأرضي بعد راحة قصيرة هنا لشرب الشاي. أخذني السلطان برفق، بسيارته في طريق متعرج غير مباشر عبر المدينة لكي أرى شيئاً من داخلها. ولاحظت أن المدينة أكثر وسعاً في جانب الحديقة منه في الجزء القديم في اتجاه البوابة الغربية، والمنازل بالمدينة جيّدة البناء، والطرقات واسعة نسبياً ولطيفة. وفيما عدا المسجدين الصغيرين اللذين يمكن أن ينجذب لهما الناظر فهنالك القليل الذي يمكن ملاحظته.

أرسل السيد السقاف دعوات إلى عدد كبير من الناس لمقابلتي بينهم مواطن حضرمي من مكة والذي وصل حديثاً هنا بعد أن بقي كثيراً في موطنه في وادي دوعن. وكانت غرفة الاستقبال الرئيسة في المنزل محاطة من الجانبين بواسطة شرفة حيث جلسنا نتحادث أثناء شرب الشاي حتى وقت وجبة العشاء. وكان غالب النقاش

عن طريق السيارات إلى مكة الذي كـان يثير اهتمامهـم للغاية. وفي أثناء النقاش برز موضوع شبوة وفي هذا الوقت علمت أن هنالك زيارة قام بها هانز هلفريتز قبل ثمانية عشر شهـراً إلى عاصمة حمـير قد سبقت زيارتي لها. وعندمـا لجأت إلى السرير في تلك الأمسية جلست أقـرأ في قصته التي هي مغامرة مـثيرة يعزى نجاحها بقـدر كبير لشجاعته وبراعتـه. وشعرت بسرور معين وذلك لحقيقة أني إذا لم أكـتشف شبوة فقد اكتشفت على الأقل من هو مكتـشفها. وبطريقة ما شعرت أن خيـبة أملي على قلتها بهذا الاكتـشاف هي مماثلة لخيبة أملي عندمـا وجدت شبوة نفسهـا لا تستحق كل هذا اللغط الذي أثير حولها.

لقد اكتشفت في تريم عرضياً اكتـشافاً آخر أقل إدهاشاً ولكنه ليس مهماً، فمن كل المجمـوعة التي تجمـعت في منزل الكاف في أمسيـة وصولي كان الرجل الوحـيد الذي له طمـوح وجاد ورغـبة في التـعلم أو القراءة الواسـعة هو سـيد مـحمـد بن هاشم[1]. وبعد بعض الحديث عن طريق سيرنا عبر الصحراء إلى العَبْر تذكر أنه رأى تقريراً عن طريق الحـجاج القديم هذا في مجلة عـربية نشرت قبل بضـعة سنوات في بتافـيا. ولحسن الحظ فـإنه كان قـادراً على أن يمدني بالموضوعين منشـورين في مجلة تسمى الرابطة بتاريخ يونيـو ويوليو ١٩٣١م. والحج الذي ذكر قد قامت به مـجموعة من تريم مع آخرين من أجزاء أخـرى من الوادي والتي تجمعت في قعوضـة في شهر شوال من العام ١٢٨١هجرية (١٨٦٤م). وتقـدمت في المراحل السهلة إلى العبْر ومن هناك إلى خلف مشينيقة. وكـان الطريق الذي اتبع مطابقاً لطريقنا وقد كان على طول

(١) هو محمـد بن هاشم بن عبدالرحمن العلوي ولد سنة ١٣٠٠هـ بحـضرموت وتلقى علومه على جـماعة من شيوخ تريم حتى برع في عدة علوم وفي سنة ١٣٤٥هـ رحل إلى جاوة وساهم في تحرير صحفها وتزعم البعثة المرسلة إلى مـصر سنة ١٣٢٤هـ، وأحـيا الندوات الثقـافيـة في بلده إلى وفاته سنة ١٣٨٠هـ ، لـه عدد من المؤلفات منها: تاريخ الدولة الكثيرية، طبع في مصر سنة ١٩٤٨م، السقاف، تاريخ الشعراء الحضرميين جـ٥، ص٢٨٩-٣٠٠، دار المعـارف الطائف، ط٣، ١٤١٨هـ، الحـبشي، مصـادر الفكر الإسـلامي في اليـمن، ص٥٢٤، المكتبة العصرية، بيروت ١٤٠٨هـ. (المراجعون).

خط درب الأمير، والنقطة الأكثر تميزاً وروعة فيه أن القافلة كما ذكر من قبل استطاعت التزود بالماء عند البئر التي تعد الآن ميتة وهي بئر مشينيقة وعليه استطاعت تجنب الشضيف. قاطعين في خط مستقيم عبر الصحراء عن طريق مرتفع الحيض إلى وادي الخب المنخفض ثم تقدم أهل تريم إلى القرى الواقعة في أعلى الوادي ومنها وصلوا نجران عن طريق صعدة. ثم اندفعوا من نجران عبر الجبال إلى محايل ووصلوا إلى ساحل البحر عند القنفذة ومنها تقدموا إلى مكة المكرمة. وكل الرحلة من قعوضة عرفت بثلاثين مرحلة ولم تصادف المجموعة أي صعاب خطرة(١). وكاتب الموضوعين مواطن من تريم يدعى السيد محمد بن إبراهيم بلفقيه آل علوي والذي يبدو أنه اشترك في الرحلة. وجهز قريب له هو عبدالله بن حسن الفقيه كتاباً ولكن لم ينشره عن السيد أحمد بن عيسى أول السادة العلويين الذي سعى أن يقيم في حضرموت. وفي هذه الأيام كانت تريم في أيادي عشيرة محلية تسمى الصبرات والتي لأكثر من قرن رفضت أن تسمح للسادة العلويين بالبقاء في المدينة. ومحمد بن هاشم نفسه نشر كتيباً عن تجواله في منطقة حضرموت الذي قدم لي نسخة منه.

سكنت لفترة الليل في سطح سقف مطل على حوض السباحة ووجدت، بذهابي إلى هناك أن ثمة استعدادات متقنة للغاية قد جهزت لراحتي، ناموسية جديدة ولكن غير ضرورية ومرتبة مريحة ومترفة للغاية وأغطية غنية بالزخرفة والتطريز ووسائد عديدة. وفي الصباح التالي كان عليّ أن أتخلص من مضيفي والعديد من الآخرين الذين كانوا يميلون أن يجعلوا من استقبالي مناسبة بينما أنا كنت أميل أكثر لتناول شاي الصباح في عزلة. وعلى كلٍّ انضممت إلى المجموعة العامة من الطابق الأسفل لتناول الإفطار وبعدها قمت برحلة للحدائق الكبيرة التي لم تكتمل بعد. وتوجد نافورة في الوسط مزينة بزينة هندية مليئة بالأزهار تبدو أنها لا تناسب الجو

---

(١) عن طريق الحاج الحضرمي انظر: الحداد، الشامل في تاريخ حضرموت ومخاليفها، ص١٣٣؛ البلادي، بين مكة وحضرموت، ص١٨٦-١٨٧. (المراجعون).

البسيط الساحر المحيط بها، وفي الركن الأقصى من الحديقة توجد البئر ومعها ماكينة دويتز التي جهزت للضخ وستصبح الحديقة أنموذجاً لكل حضرموت في سنوات قليلة آتية كما هو المنزل الآن.

وعدنا السلطان محمداً أن نذهب إليه في القصر وهذا ما سنفعله الآن بعد أن غادرنا السيد سقاف والسلطان علي عند أبواب منزل الكاف، وقصر محمد تقريباً رائع كقصر ابن عمه. وكلاهما مزيّن بالطلاء الأبيض تتخلله أشرطة زرقاء باهتة ذات تأثير مثير جداً. وأكبر القصرين هو قصر علي الذي يقف في العراء فوق المباني المنخفضة للسوق. وبعد دورات الشاي المعتادة كان لنا الحرية أن نغادر وعليه قدنا السيارات عبر البوابة الغربية للمدينة متجهين إلى شبام. وكان برنامجنا يشمل زيارات إلى الأفرع القيادية لعشيرة آل كثيري والتي تقع مساكنها على الطريق، وكذلك فإن البرنامج يشمل انعطافين خفيفين عن الطريق. فالأول كان إلى الشيخ عمر بن عبيد الجبيري الذي يعيش في منطقة الغرفة. وقبل أن نصل إلى النقطة التي كان علينا أن ندور من عندها، قاطعنا رسول من سلطان علي بن صلاح معه رسالة إلى حسين.

بالنسبة لمقتل فلاح قعيطي حديثاً بواسطة واحد من عشيرة العبيد فقد أصدر السلطان أمراً بأن لا يسمح لعضو من تلك العشيرة بدخول منطقته. ونتيجة لهذا فقد تكون هنالك رغبة للانتقام عند مضيفنا المزعوم؛ ولذا فقد رأى حسين أنه من الحكمة أن نترك هذا الجزء من البرنامج. وواصلنا سيرنا خلال الغرفة إلى الحوطة مباشرة، تاركين الطريق الرئيس إلى شبام، حيث تقدمنا على امتداد قرية التبيقول المبعثرة ومروراً بقرية سالم بن مانع الصغيرة وهو تاجر كثيري ثري من سنغافورة يعيش الآن في بومباي. وكان هدفنا الوصول إلى العقدة، وهي مجموعة من المنازل الجميلة وبساتين النخيل فوق الوادي (وادي ابن علي) ولكن بعد فترة وجدنا صعوبة في إيجاد الطريق الصحيح إليها. وبعد محاولات عديدة اهتدينا إليها وحالاً وصلنا إلى البوابة الضيقة لمبنى فخم للغاية. ويشكل هذا المنزل ومنازل أخرى مشابهة ذات

طراز حديث مساكن عشيرة تتكون من أخوة وأحفادهم وزعيمهم هو مضيفنا سالم بن جعفر بن سالم بن مرعي بن طالب الكثيري. وبعـد العائلتين الحاكمتين لسيئون وتريم تأخذ هذه العشيرة الأسبقية بين الكثيري مع عـمر بن عبيد من الغرفة في المرتبة الثالثة من التسلسل. والرجل العجوز كما يدعى دائماً بواسطة أقاربه وأتباعه وخدمه استقبلنا في باب قلعته وقادنا إلى الطابق الأعلى إلى غرفة الاستقـبال حيث ساعده في ضيافتنا أخواه وابن أخيـه المتوفى. وفي الأصل هناك ستة إخوان يعـيش منهم ثلاثة فقط وهم مضيفنا نفسه وعبدالله وصالح.

كان الرجل المـسن سالم هو الأكثـر حيـوية في كل المجمـوعة وقـد أصرّ على سيري مـعه إلى أعلى إلى سطح المنزل لإجراء مسح للبـلاد عن طريق تلسكوبه حتى المواضع الداخلية البعيدة من روافد وادي ابـن علي. وكان الوادي كله كثيف الأشجار وتوجد فيـه بساتين نخيل وعدد من القـرى الكبيرة والصغيـرة ومنازل متفردة مبـعثرة بينهما. وقـال لي سالم: هناك ترى بلادي وأصدقائي وأعـدائي. ولا يوجد من يهتم بقضية السلام أكـثر منه من بين كل الرجال الذين التقيتهم. فالرجل عـاش حياة مليئة بالمشاكل وذلك يرجع تقريباً إلى بداية الخلط الذي أدى إلـى توزيع القوى والامتيازات الحالي. إنه يريد السـلام لأحفاده الذيـن قد يستـمتعـون بالإرث الذي استطاع هو أن يحـافظ عليه مـتمـاسكاً بل طوره. السلام بأي ثمن. ويقـول: «على ابن سـعود أن يتدخل بين الحكومات المحلية المنافسة من أجل السلام والأمن في البلاد» وأوضحت له أن ملك العرب ليس له نيـة للامتلاك والكسب في أي اتجـاه. وهو فخور باستـقلاله الخاص والأمـن الموجود في بلاده. وهو دائمـاً مسـتعـد لمساعدة جيـرانه من الـعرب ليتمـتعوا بالسلام والاستقـلال. أما ميثاق العـرب والذي استهل باتفاقية العـراق فهو مفتوح للجميع لتبنيه. ولم ننو أن نمكث حـتى وقت الغداء ولكن مضيفينا لم يضيعوا وقتهم في المشاهدة بينمـا نحن نتجاذب أطراف حديث شيق لم أستـمتع بحديث مثله

خلال هذه الأيام. وقُدمت لنا وجبة ممتازة مع بساطة ذكرتنا أن زمن المغادرة قد حان. وكان الرجل المسن سالم واقفاً في البوابة بينما نحن نتحرك بعيداً ويبدو كأنه شبح من الماضي يستحضر في ذهنه مستقبلاً باهراً لأحفاده.

بمرورنا على طول جوانب قرية السيد من الحزم المبعثرة وعبر مدينة سحيل، عبرنا الوادي وأصبحنا للمرة الثانية ضيوفاً للسلطان علي بن صلاح في شبام. وما زال السلطان هنا يحتل جزءاً من القصر ولكن عند المساء انتقل إلى المنزل المقابل ليترك لنا مساحة أكبر. وتناولت طعام العشاء معه ووجدته متلهفاً لمعرفة التفاصيل عن خروجي، من قابلت؟ ماذا قالوا لي؟ وماذا فعلنا . . .إلخ. ويعرف كل الناس بعضهم بعضًا في بلد صغير مثل هذا بالطبع، فإن الحادثة البسيطة التي لها دلالة عند الخبير قد لا تعني شيئاً للزائر. وفي هذه الأثناء لم يتوقف سعد بن ناصر عن العمل، فقد قام لتجهيز كل شيء. والجمال التي تحمل الأمتعة قد غادرت من قبل إلى شبوة تحمل أربعة وعشرين برميلاً من البنزين ومؤنًا أخرى لرحلة عودتنا. وفي اليوم التالي بدأت الجمال المرافقة تتحرك مع تعليمات مني للقاء في هينن.

وتبدأ رحلة السيارة بعد يوم من ذلك وهو يوم ٢٤ أغسطس. وفي هذا الوقت كان عليّ أن أكتب بعض الخطابات للوطن وأن أعد نسخة ثانية من نقوش شبوة لكي أرسلها إلى المتحف البريطاني. وهنالك الكثير من أعمال ترتيب الأمتعة يجب عليّ أن أقوم بها. وعندما أصبح كل شيء جاهزاً ذهبت إلى المنزل في سحيل لتناول الغداء مع «بيرن» والذي كان سيبدأ رحلته إلى شبوة بعد الظهر، وقد قدم لي غداءً ممتازاً من المعلبات ثم تركته ينتظر جماله ومرافقيه الاثنين من عرب شبوة. جاء ليودع السلطان حوالي الساعة الخامسة مساء والذي كان يقيم حفل استقبال في شقته في ذلك الوقت لمشاهدة رقصة حضرموت والذي قدم في الميدان في الأسفل وكان الاستمتاع واضحاً على الجمهور الغفير الذي كان يضم مجموعة كبيرة من الفتيات الصغار يلبسن ثياباً مزهرة جميلة. وكان «بيرن» يلبس ملابس عبارة عن خليط فني من البني والأزرق

وبزة فوق ملابسه وكـان مظهره جميلاً. ذهب «بيرن» وسـوف نلتقي ثانية عند هينن. كان الرقص في الأسفل رتيباً بعض الشيء وغير جذاب. فقد نظمت المجموعة نفسها حول أربعة جوانب من المـيدان غير الواسع جداً، يدفع المرشدون المتطوعـون الجمهور من وقت إلى آخـر إلى الوراء لمنعـهم من الدخـول إلى حلبة الرقص مـحـافظة على الشكل العام. وفي منتصف هذا الفضاء وقف خمسة من قارعي الطبل، فالرجل الذي في الوسط معـه الطبل الأكبر بيـنما الآخرون يحـملون طبولاً صغـيرة كل زوج منهم يحمل شكلاً مـختلفاً من الطبـول. وعلى كل جانب من خط قارعي الطبـول وقفت مجمـوعة من الراقصين. تقرع الطبول مرة فـي صف وثانية إلى الصف الآخر. وعند مرحلة التسخين يتـقدم صف إلى الآخر لأداء دوره حتى تصبح فرقة الطبول مـتجمعة في الوسط. وعندما يرقصون إلى الوراء عائدين إلى وضـعهم الأصلي يتبعهم الصف الآخر إلى الطريق المسدود نفسه.

وهكذا استمر الرقص بلا نـهاية حتى بعد غروب الشمس مبـاشرة، عندما أخذ الراقصـون يتخلصون من هراواتهم القـوية ويتبعـون فرقة الطبول، خـارج المسرح إلى الشـوارع. ويبدو الرقص مملاً عندمـا يكون صف الراقصين ثابتـاً وهو عبـارة عن أربع خطوات يتبعها بعض التمايل والحركة إلى الجانبين ثم إلى الأمام والخلف. وأثناء التقدم والتقهقر للراقصين هنالك تنوع كبـير في الأشكال مما يجعلهم يتعلمون بمختلف الطرق عند الوثب من نقطة إلى أخرى أو القفـز إلى أعلى في اتجاه الأمام والخلف مع تماسك الأيادي أو الأذرع، وهكذا يستمر الرقص أربع خطوات أخرى يبدو أنهم يأخذون الأمر بجدية فائقة وبعض الأشخاص مولعون بتقديم رقص جديد من اختراعهم.

كان ذلك آخـر تجربة لنا في شـبام رغم أن السلطان حـضر مـعنا لاحقـاً جلسة استماع للراديو فوق سطح القصر. وقمت في الصباح التالي بجولة أخيرة حول طرقات المدينة. وكان كل شيء جـاهزاً حوالي الساعة ١٠ صبـاحاً. وبدأنا رحلتنا الطويلة إلى نجران بالسيارة المحمّلة. وقد ذهب السلطان نفـسه إلى هينن في عمل سياسي له ارتباط

باتفاق أسقطته فوضى نهد، وسوف أراه هناك لأودعـه نهائياً. وعند وصولنا إلى المقبرة لاحظنا أن السيارة الأخرى لا تتبعنا؛ لذا فقد انتظرت قليلاً حتى جاء خادم ليخبرني أن هناك عطلاً في السيارة الأخـرى وأن الصيانة لن تستغرق وقـتاً طويلاً. وعليه يمكننا أن نستمـر نحن ونتركهم يتبـعونا لاحقاً وبعـد تفكير بسيط قررت أن أستـمر في الرحلة. وهطلت الأمطار الغـزيرة بين شبـام والقطن بعـد ظهر اليـوم السابق وقـد لاحظت من السقف سـحباً رعدية في جهـة الجنوب الغربي. وبدت التربة الطينيـة المالحة في الوادي غير مفرحة ولكنا سرنا إلى القطن دون مغامرة. وهناك وجدت المرافقين لي على الجمال قد استقروا بكل ارتياح في القصـر ينتظرون وجبة منتصف النهار. لقد فكروا في أن أي تلكؤ مثل هذا سيكون مـبهجاً أكثر من الاسـتمرار في السير إلى موعـدنا المحدد. وقد عبـرت عن رأيي في ذلك بإيجـاز ثم تناولت غدائي وواصلت رحلتي. وخـلق وجود بعض الرمل في خزان وقود السيارة مشكلة كبيرة مما عطلنا قليلاً. وعندما انضممت إلى السلطان وابن مرتع في صالون الأخير الرائع كان الوقت ما زال باكراً.

كنت أستمتع باستراحة ترحيب في السـاحة المتصلة بالبهو في ظل الحائط عندما أيقظني صوت وابل من الطلقات النارية. وكـان هذا الصوت مجرد تحية مـعتادة لوفد من خمـسة رجال من قريـة من منطقة نهد، وكان هـذا أول وفد من الوفود الخمـسة القادمة من الأقسام المتنافسة المختـلفة لحضور مؤتمر دعا له السلطان. وبينما كنت أنظر إلى السهل من عـلى السقف رأيت الوفود الأخـرى قادمة إلـى هينن، كل رجل كان سائراً على رجليه ومدججاً بالسلاح. وتكرر الترحـيب نفسه والاستقبال لكل الوفود. وعندمـا يصل الوفد أمام المـنزل يطلق وابل من الطلقات مع اسـتمـتاع أطفال الـقرية الواضح، بعد ذلك يقـترب الوفد من الباب حـيث يرحب بهم فردياً وذلك عن طريق السلام بالأيدي وهزها بواسطة أعـضاء عائلة آل مرتع ومن ثم يسلمـون أسلحتهم إلى الخدم عند الباب ويقدمـون إلى السلطان من غرفة الاستقبال في الأسـفل بعد الانتهاء يخرج أعـضاء الوفود المخـتلفة ويستعـيدون أسلحتـهم راحلين إلى بلادهم تاركين مع

السلطان وثيقة موقعة تحمل الشروط التي اتفقوا عليها جميعهم تحت رعايته. ومن الواضح أن المفاوضات كانت سريعة ومع أني لم أر الوثيقة ولكن فهمت أنها تحوي اتفاقية مقنعة جداً. وذهب السلطان في صباح اليوم التالي بالسيارة مرسلاً حرسه الخاص أمامه للوفاء بوعد أو اثنين في قرى مجاورة ليحسم أمر نتائج مفاوضات بعد الظهر والتي نتجت عن الاتفاقية المذكورة أعلاه. وعند عودته تناولنا الإفطار وبينما نحن منهمكين أعلنت أصوات الطلقات عودة القوات من الجنود وعليه اندفع كل الأطفال لمرافقتهم إلى الداخل. ويتكون الحرس الشخصي للسلطان كلياً من العبيد وعددهم حوالي ٢٥٠ أو ٣٠٠ رجل وهذه الكتيبة المعيّنة عددها حوالي عشرين رجلاً لهم منظر رائع وقد قدموا عرضاً لائقاً عند قدومهم في سرعة راقصة، وهي خليط بين الجري والخطوات المتنوعة ينشدون أغاني الحرب ويطلقون ذخيرة بنادقهم. وتكلفة الذخيرة على حساب السلطان بالطبع، إذ تكلف كل اثنين أو ثلاث طلقات من الذخيرة ريالاً واحداً وبذا تكلف الاحتفالات السلطان وزواره أثناء المفاوضات جنيهًا أو جنيهين وهذا -بالطبع- مبلغ كبير في حضرموت.

أصبحت قلقاً في هذه الأثناء على السيارة الأخرى عندما لم تصل عند غروب اليوم السابق. وقد اعتقدت أن الخدم قد كتب لهم أن يقضوا ليلة أخرى في الراحة المتحضرة. وعليه فقد توقعت وصولها في الصباح الباكر. وعند وقت الغداء تعجبت لما حدث. وقد كنا جميعاً مستعدين للمغادرة عند وصول السيارة الأخرى. جاء واحد من شيوخ نهد للمفاوضات، شخص بدين اسمه حمد بن عبري وقد كان معنا في الغداء وأعلن عن رغبته أن يرافقنا في طريق العودة إلى مكة ومقابلة ابن سعود. أجبت مرحِّباً ولكن نوهت له بأن يحصل على سيارة لوحده لأن ما يحمله من أمتعة سيتسبب في كسر سيارتنا. وفي تلك اللحظة وصل شخص من الذين يقومون بتسليم الرسائل جرياً من شبام تم تغييره بشخص آخر من القطن، حاملاً خطاباً من حسين آل عجاج معلناً أن سيارة الأمتعة قد كسر فيها محور العمود الخلفي.

الفصل السابع

القضاء والقدر

لقد جاءت بي العناية الإلهية من شواطئ البحر المتوسط إلى حضرموت، كما أعدت لي استقبالاً حاراً على شواطئ المحيط الهندي، وأعرضتُ مُتعمداً ،على الرغم من أن ذلك لم يكن نابعاً بالكامل من إرادتي الحرة عن استحسان العالم لعمل بطولي فذ في سجلات الأسفار. فلا إليوس جاللوس قد كحَّل عينيه بمحيط الهند، ولا ملكة سبأ قد مشت بخطى وئيدة على كورنيش بحر «المنطقة الوسطى» فلا ينبغي ذلك، ولا يمكن أن يكون. فالقدر لم يكتب النجاح للطامحين الذين يخطبون ود قمة إيفرست العذراء. ومع ذلك يجب على الجزيرة العربية أن تدفع الغرامة عوضاً عن برودة جبال الهملايا. وفي تلك اللحظة كان هناك شيء واحد فقط يحتمل أن يكون سبباً في إيقافي عما عزمت عليه، وفي تلك اللحظة وقع هذا الشيء. فسيارة الأمتعة -نظراً لزيادة حمولتها بشدة على الرغم من تحذيراتي المتكررة- قد كُسِر عمود محورها الخلفي. وكان خبراؤنا في جدة قد أفادونا قبل بدء الرحلة أن مثل هذا الشيء لا يمكن أن يقع، ولم يكن هناك عمود احتياطي ضمن معداتنا التي كانت تضم قطع غيار بوفرة لجميع حالات الطوارئ الأخرى تقريباً والتي يمكن تخيّلها؛ ولذلك تركنا الشاحنة في وضع بائس في شبام . وكان التصرف المحتمل هو أن نهجر كلا السيارتين ونواصل الرحلة بالإبل، فسيارة واحدة قد تكون مصدر إزعاج على أفضل تقدير وخطراً على أسوأ تقدير. وهذا -على كل حال- ما لم أكن مستعداً لتنفيذه دون أن نبذل كل جهد معقول أولاً لإصلاح العطل. وكنا قد علمنا من قبل أن شبام قد تم البحث فيها عن قطع غيار دون جدوى. وربما يمكن أن تمدنا سيئون أو تريم بما عجزنا عن العثور عليه. وإذا لم يتحقق ذلك فليست الشحر إلاّ على بُعد أربع وعشرين ساعة من تريم بطريق السيارات، وإذا عدنا بخفي حنين من الشحر، فالمكلا لا تبعد

عنها سوى ساعات قليلة. ومن هناك يستطيع المرء في الواقع أن يتصل بعدن برقياً. وإذا لم تستطع عدن أن توفر احتياجاتنا فيمكننا أن نتخلى عن تلك السيارة أيضاً. وفي أسوأ تقديراتي قد يستغرق الأمر منا أسبوعين للحصول على غيار للعمود من شبام. وفي الحقيقة استغرق ثلاثة أسابيع، نظراً لطول الفترات الزمنية الفاصلة بين القوارب القادمة إلى المكلا من عدن. وفي تلك اللحظة كان الشيء الأكثر أهمية هو أن نقرر ما سنفعله الآن، وكان قراري الفوري أنه يجب على جماعة الإبل مواصلة السير إلى شبوة وتنتظر وصولنا هناك، في حين عدت أدراجي إلى شبام، وأنا أفكر ملياً في خططي أثناء السير.

ولم أكد أنتهي من التفكير إلا ونفذت ما اهتديت إليه. ففي الساعة الثانية والنصف ظهراً كنت قد وصلت فعلاً إلى شبام وبدأت أتفحص موقع المصيبة، يحوطني تسعة من رجالي الأشداء أقوياء البنية والذين قصموا ظهر السيارة. وفي غضون دقائق قليلة كنت قد شرحت خططي، التي ربما تنطوي على زيارة للمكلا. وتنهدوا جميعا بتأوهات عالية من احتمال بقائهم أسبوعين في تلك الورطة، ولكني أخبرتهم بصراحة وقسوة أنهم هم أنفسهم المسؤولون عنها. وأجابوا في حلم ولين إنها كانت قضاءً وقدراً. وربما كانت فعلاً من محن القضاء والقدر. وبعد الانتهاء من تخزين أمتعتنا في كوخ مكشوف بجوار الطريق انطلقت إلى بيت آل عجاج لتناول كوب من الشاي قبل استئناف رحلتنا في الرابعة والنصف عصراً إلى سيئون مع دليل، والذي سرعان ما ضل الطريق وورطنا بين بساتين النخيل وقنوات الري في القرى الواقعة بين الحوطة والغرفة. وعند تلك القرية الأخيرة سلكنا الطريق الرئيس مرة أخرى، وفي الخامسة والنصف عصراً كانت سيارتنا تصلصل وهي تسير داخل قرية سيئون وتشق طريقها حتى وصلنا إلى فيلا السلطان. وقد تسبب وصولنا في حدوث قدر معتدل من الاهتياج والضجة، ولكن لم تكن هناك أي شائبة في حرارة ومودة استقبال السلطان لنا. وكان محمد -السائق- قد جال في جميع المخابئ بحثاً عن عمود محور احتياطي

دون جدوى، بينما مكثت أتجاذب أطراف الحديث مع السلطان علي وقلة من الآخرين حتى العشـاء، والذي كان عشاء جاوياً من الطبقـة الأولى. ولقد كان السلطان -علي ابن منصور- شخصاً شديد الجدارة بالحب. مليئـاً بالفطرة السليمة والحكمة، ومتحدثاً لبقاً غير متكلف، وقد منَّ الله عليه بنعم الحياة الطيبة، مثل: الحياة المنزلية السعيدة مع أولاده الستـة وكريمتـيه الاثنتين، والثروة العـظيمة، والممـتلكات الواسعـة، وقدر من الاستقـلال السياسي مع جيش دائم قـوامه حوالي ٥٠٠ من المماليك ليـدفع عنه كيد الأعداء، علاوة على قوات القـبائل التي يمكنه أن يستدعيهـا عند الحاجة. ولم أستطع أن أتمالك نفسي من القول له، عندما كنا نتكئ في ساحة القـصر المكشوفة بعد عشائنا الرائع للتمـتع ببرد الليل الجميل ونـحن نحتسي أكواب الشـاي وندخن الغليون: كم تبدو ساحرة لي هذه الحياة العامرة باليسر والراحة عند مقارنتها بعملي ولهاثي الذي لا يتوقف. فـأجاب قائلاً: «الغريب. . . قد يـبدو الأمر كذلك، ولكن الأشيـاء ليست دائماً كـما تبـدو. . .» وقد جـمع في هذه الملاحظة كل شكواه في إيجاز شـديد كي أمعن النظر فيها. هذه الشكوى لم تصدمني لكونها كبيرة جداً أو مزعجة، ولكن لأنه إلى درجة مـا لا يمكن علاجها فـي ظل الظروف القائمة. وتنصـهر هذه الشكوى في نقطتين اثنتين يمكن إيجازهما بالتحديد كما يلي:

١) إن منطقة نفوذه ليس لها منفذ عـلى الساحل، وهذا يعني أنه هو وشعبه لا يستطيعون السفر إلا بالمعاناة وشق الأنفس، كـما أنهم عُرضة لأن يشعروا بعدم الراحة والإزعاج بالكامل من تلك الجمارك والإجراءات التي تفرضها عشائر أخرى وقد تكون سارية في أي وقت، وهـي اسميـاً تنطبق على الجمـيع بدون تمييز، ولكـنها في واقع الأمر لا تُطبق على العناصر التي لها محاباة أو تفضيل.

٢) إن أي مسألة يريد أن يتشاور فيهـا مع الحكومة البريطانية يجب عليه تقديمها عن طريق السلطان القعـيطي في المكلا، على الرغم من أنه حر في إرسال نسـخة من مثل تلك المستـندات المقدمة إلى سلطات عدن مبـاشرة. وهذا تنازل إن دلَّ على شيء

فإنما يدل على مواصلة الإذلال بهذا الترتيب. وفي الحقيقة قد لا يكون لهذه الشكاوى إلا أهميـة قليلة، ولكن شرارة واحـدة تكفي لتفجـير مخـزن بارود. ولـم أستطع أن أخفي شعوري بأن شرارة -وقد تكون خطيـرة- تكمن في مكان ما في أعماق السخط والاستياء لدى آل كثيري.

إن إطالة إقامتي المؤقتة في حضرموت والبلاد الواقعة على شاطئها على نحو غير متوقع قـد وفرت لي فرصة كي أسمع وأرى أشيـاء ،في غضون تلك الفترة القـصيرة التي خططت لقـضائها في المنطقـة، لم أكن أستطيع أن أتمنى دراسـتهـا بصورة كافـية لتغطي ولو مسحـاً موجزاً للموقف. وحيث إنه كان أمامي ثلاثة أسـابيع إضافية وليس لدي شيء مخـصوص لإنجازه ، نظراً لأنني قـد تركت كل متاعي ورائي، بما فـيه من كتب ربما كان لدي مـتسع من الوقت الآن لقراءتها، فـقد أصبح الموقف مخـتلفاً نوعاً ما. لقد سمعت كثيراً ورأيت كثيراً. وتكونت لدي آراء وآراء، بعضها مؤقت، والآخر عن اقتناع. فإنني أزعم أني مؤهل للحكم على الأمور بلا تحيّز. والآخرون - من زوايا مختلفـة نظروا منها على المشكلة عن قرب - بلا شك - مؤهـلون بصورة أفضل مني للكتابة عن حـضرموت نفـسها. ولن أتجـاوز حدودي بقدر كبـير للتدخل في مـجال عملهم، باسـتثناء ما قد يكون ضـرورياً للتركيز على المـشكلة المحلية في نطاق الوضع العربي الأوسع، الذي تنتمي إليه. وسوف أعـالج النقاط المختلفة التي برزت لي عندما لاحظتهـا أو نضجت لديّ أحكام قاطعـة عنها أثناء جـولاتي، ولكني سوف أضع بين أيدي القراء فوراً سيرة جد مختصـرة عن تاريخ حضرموت الحديث، مع ترجمة كاملة للوثائق والمستندات التي يبدو أنها تحدد الوضع السياسي القائم حالياً لهذا البلد وشعبه.

فيما مـضى من الزمان، كان هناك البرتغاليون الذين تحكمـوا في مصائر منطقة حضـرموت، من خلال الميناءين الرئيسين فـي الشحر والمكلا. ويبدو أنهم قـد احتلوا أيضاً مـواقع قليلة في الأقاليم الداخليـة. وكان نصف أهدافهـم استعـماريًا والنصف الآخـر أو ربما النصف الرئيس كان تجـارياً. ويومـاً بعد يوم زالت قـوتهم البحـرية،

وانتهت مصلحتهم في حضرموت. والتـفاصيل الدقيقة لذلك التاريخ القديم لا تعنيني في قليل أو كثير. ولذلك أتحول فجأة وبصورة عاجلة إلى الموقف منذ حوالي مئة عام مضت، والذي نشأ منه بصورة مباشرة أو غير مباشرة الوضع الحالي للأمور. في ذلك الأوان كان هـناك في السلطة أسرة مـحلية حـاكمـة من أصل يافعي تُعـرف باسم آل كسادي، وكـانت تحكم المناطق الساحلية فقط في الشحـر والمكلا على الرغم من أنها بلا شك كـانت تمارس سلطاتهـا الواسعـة على المناطق الداخليـة من السـاحل. أمّا الشحر والمكلا فكان يحكمهما على التوالي فرعـان مختلفان متنافسان من تلك الأسرة الحاكمة، في حين كان هناك وجهاء إقطاعيون شـبه مستقلين مثل العوقلي في السدة، والبطاطي في القُرّة والحـدادي في الغيل وآخرون غيرهم بلا ريب في خـدمة واحد أو آخر من هؤلاء الحكام -وأحـياناً، ربما- لا يخدمون أياً منهم. وفي كـل الأحوال كان حاكم الشحر علي ناجي بن بريك، هو الذي يبدو أنه الشخصية المسيطرة في السياسة المحليـة. وفي الوقت نفســه شكلت عـشائر الكـثيـري في وادي حضـرموت اتحـاداً كونفدرالياً مفككاً من الدول الصغـيرة المستقلة، والتي كانت قد بدأت في ذلك الوقت تشعر بنفوذ غالب بن محسن من العشيرة المعروفة باسم أهل عبدالله. ولم تكن أسرة القعـيطي الحاكمة الآن قـد بدأت تأخذ شكلها الحـالي بقدر ما يتعلق الأمـر بالجزيرة العربية. على الرغم من أن عُمر، وهو الجد الأكبر لكلا السلطانين الحاليين صالح وعلي، كان قد وضع أسـاس أقدار عائلته في الثروة والسلطة النابعـة من مناصبه الموروثة في تلك الولاية الهندية العظيمة التي تدعى حيدرآباد. وكان لعمر أربعة من الأبناء، أرسل منهم ثلاثة الآن مجهزين تجهيزاً كاملاً بالمال الكافـي ليشقوا طريقهم بأنفسهم ويتعلموا مهنة لهم في أرض أجـدادهم. أما الرابع، ومن الواضح أنه كـان أصغرهم ،واسـمه صالح، فقد احتفظ به معه ليقتفي أثره ويسير على نهجه. وذهب محمد، وهو الابن الأكبـر، إلى وادي حضرمـوت وحاز بالشـراء على نواة الأملاك العظيـمة في القطن والتي ظلت تحت يد فرعه من الأسرة منذ ذلك الحين يتوارثونها مثل الإقطاعيين.

ويبدو أن صفقته الرابحة قد نالت رضاه، وترك أخاه الثالث، عوضًا، الأكثر نشاطاً، والذي آثره على عبدالله أخيه الكبير الثاني بعده مباشرة، واختاره ليضيف إلى نصيبه أكبر قدر قد يكون ضرورياً، حتى يحقق الطموحات التي أثارت والدهم لإرسالهم إلى العالم الخارجي. وبالسيف في أيديهم والجنود المرتزقة في خدمة مواردهم الوفيرة انطلق عبدالله وعوض سعياً وراء المغامرة في حقل عامر بالثمار. وكان الضعف المتزايد لأسرة آل كسادي قد وفر لهما أول فرصة في إحراز إنجاز عسكري. وكان آل كثيري لم ينزلوا إلا مؤخراً من الجبال ويكتسحوا الشحر، التي استولوا عليها فعلاً من علي بن ناجي. وفي غضون شهور قليلة تمكن الأخَوَان القعيطيين من طرد الغاصبين. قام عوض باحتلال الشحر لنفسه، بينما استولى عبدالله على الغيل. وقبل ذلك بزمن طويل كانت أسرة آل كسادي في المكلا تواجه مشاكل أيضاً من أعدائها. وهبَّ عوض لنجدتهم بالمال والرجال. وهكذا تم إنقاذ الدولة، ولكنها لم تستطع أن تسدد الفاتورة التي قدمها منقذها. وتم تقسيم المكلا نفسها إلى قسمين حيث عُرض نصفها على المنقذ عوض، وقبله ليصبح تحت حكمه. ولكن تقسيم المملكة قد أدى إلى حدوث احتكاك بين الملكين الشريكين. وأصبح أول احتكاك فضيحة مدوية، وأفضى وصول سفينة حربية بريطانية إلى تسوية النزاع لصالح الطرف الأقوى. وهكذا أصبح عوض حاكماً على المكلا والشحر، في حين تم نقل آخر ملوك أسرة آل كسادي إلى أفريقيا ليعيش في المنفى هناك. وبمرور الزمن مات عبدالله، وترك الإمارة مقسمة بين حسين ومنصّر، وهما أكبر أولاده. ودب خلاف بينهما ومع عمهما. وبالتالي جاءت سفينة حربية بريطانية ونقلتهما إلى وطن والدهما مرة أخرى في حيدرآباد بالهند. وظل عوض هو الحاكم المهيمن على الساحل بدعم من البريطانيين الذين أيدوه، بينما كان وادي حضرموت قد تُرك ليبقى ميداناً للصراع بين المتنافسين من آل القعيطي وآل الكثيري. وقد ظل هذا الوادي كذلك حتى بعد الحرب العظمى.

وقبل هذا بزمن طويل حدث حادث -على كل حال- ذو أهمية قصوى لما تلاه من تاريخ حضرموت. فقد زاد الاهتمام البريطاني بشؤون جنوب الجزيرة العربية بصورة مطردة منذ احتلال عدن في عام ١٨٣٩م. وكانت محمية عدن قد بدأت تستحوذ على الرعاية البريطانية بصورة متزايدة مثل الذرات التي تلتصق بالنواة الكبرى. وكانت منطقة حضرموت تعاني من القلاقل والاضطرابات، وتنتظر دورها في السقوط. ولقد رأينا كيف تدخل البريطانيون لصالح عوض ولتخليصه من إزعاج أسرة الكسادي. ولم تأت الفرصة بعد لهم حتى يخلصوه من أولاد أخيه عبدالله. وفي الحقيقة كان عبدالله لا يزال على قيد الحياة، ويعمل بنشاط مع أخيه عوض في وضع أسس دولة المستقبل. ولقد كان عبدالله هو الذي تفاوض ووقع على شهادة التأمين التي أصدرتها بريطانيا العظمى. كان ذلك في عام ١٨٨٨م وفي أول يوم من شهر المحرم. ولا تزال الوثيقة سارية المفعول، ونصها كما يلي:

«انطلاقاً من رغبة الحكومة البريطانية وعبدالله بن عمر بن عوض القعيطي ممثلاً عنه نفسه وعن أخيه عوض بن عمر القعيطي في إقامة وتقوية روابط الأمن والصداقة القائمة بينهما».

«وأن الحكومة الإنجليزية قد عينت الكولونيل آدم جورج فوربس هوق بوظيفة المندوب السامي السياسي في عدن للتوقيع على معاهدة بهذا المعنى».

«وأن المذكور أعلاه الكولونيل آدم جورج فوربس هوق وعبدالله بن عمر بن عوض القعيطي ممثلاً لنفسه وأخيه عوض القعيطي قد اتفقا على توقيع المواد التالية:

١- استجابة لطلب الموقع أدناه عبدالله بن عمر القعيطي ممثلاً لنفسه وأخيه عوض بن عمر القعيطي تتعهد الحكومة البريطانية بإنشاء حماية من حكومة صاحبة الجلالة الملكة الإمبراطورة على المكلا والشحر وملحقاتهما التي تقع تحت حكمهما وداخل نطاق حدودهما.

٢- يوافق المذكور، عبدالله بن عمر بن عوض القعيطي ويعد بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عن أخيه عوض بن عمر القعيطي وعن خلفائهم وورثتهم أنهم سوف يمتنعون عن الدخول في أي مراسلات أو اتفاقيات أو معاهدات مع أي شعب أو حكومة أجنبية، ما لم يكن ذلك بعلم وموافقة الحكومة البريطانية، كما أنهم يعدون بإفادة المندوب السامي في عدن أو أي موظف بريطاني آخر ينوب عنه فوراً بأي محاولة من أية حكومة أخرى للتدخل في المكلا والشحر وملحقاتهما.

٣- المعاهدة المذكورة أعلاه ستصبح سارية من هذا التاريخ»[١].

هذه هي معاهدة الشحر لعام ١٨٨٨م، والتي تم بها تحديد الوضع السياسي للأقليم المعني بها في جميع الأوقات ومنذ ذلك الحين فيما يتصل بالعالم الخارجي[٢]. والأدهى أن المنطقة الحقيقية والحدود التي نحن بصدد الحديث عنها لم تكن محددة[٣]. فقد كانت المصلحة المشتركة لبريطانيا العظمى وأسرة القعيطي الحاكمة تميل -على كل حال- خلال نصف القرن التالي أي تفسير مصطلح «ملحقاتها» على أوسع نطاق ممكن حتى يشمل أكبر قدر من اختراق الأقاليم. وبصرف النظر عن مشكلة أسرة الكثيري، التي ظلت منذ ذلك الحين شوكة في حلق الطرفين الموقعين على هذه

(١) يلاحظ أن هناك معاهدة أو اتفاقية صداقة بين الطرفين من سنة ١٨٨٢م، ثم عززت بمعاهدة الحماية سنة ١٨٨٨م، وللمزيد عن هذه المعاهدات وغيرها من الملاحق السرية، والعوامل التي أدت إلى عقدها، انظر: بامطرف، في سبيل الحكم (خمسون عاماً من التناحر الذي أدى إلى فرض الحماية البريطانية على حضرموت) دار الحرية، بغداد، ١٩٧٤م، ص١١٢ وما بعدها. وملحق الوثائق ص١٥٧ وما بعدها. (المراجعون).

(٢) كان توقيع هذه المعاهدة متزامناً مع السياسة البريطانية العامة في الخليج وجنوب الجزيرة العربية التي انتهجت فيها بريطانيا خطاً بوضع تلك المناطق تحت الحماية البريطانية وهي ما تعرف بالمعاهدات المانعة أو معاهدات الحماية التي حصرت التعامل الخارجي لدول الحماية مع بريطانيا فقط. (المراجعون).

(٣) يبدو أن مشكلات الحدود كانت عبارة عن قنابل موقوتة أرادت بريطانيا زرعها في جسم الأمة الإسلامية لتقوم بإشعال فتيلها حين تقتضي مصلحتها ذلك وخاصة حين تسعى إلى تطبيق سياسة (فرق تسد) التي نجحت فيها كثيراً في سبيل ضمان مصالحها في المنطقة. (المراجعون).

المعاهدة، فلم يكن لمسألة الحدود أي شأن أكثر من الأهمية الأكاديمية إلى أن برزت حديثاً القوة السعودية في الجزيرة العربية وأثارت المشكلة لأول مرة بصورة واقعية وملموسة. إن نطاق الصحراء الغامض الذي تقع في مكان ما منه الحدود المفهومة بالبديهة بين المملكة العربية السعودية وملحقات المكلا والشحر الخاضعين للحماية البريطانية، والاستكشاف يبين بثبات أكيد هذه المواقع. كما أن النتائج الجغرافية ودراسة الأعراق المنبثقة من رحلتي هذه سوف تحتاج للنظر فيها بعناية فائقة من جميع الأطراف المعنية. ويرجع الأمر لرجال الدولة البريطانيين في البحث عن حل وتقديمه بحيث يكون معقولاً ومقبولاً بصورة أساسية من الناس المعنيين. وسوف نرى قبل نهاية هذا الفصل أن السلطات البريطانية في عدن قد ضربت مثالاً طيباً بحل دعوى تشبه -على الأقل- المطالب الأصلية لإيطاليا في الحبشة. فلا ينبغي لتلك السلطات أن تنسى أن مواطن الخطر (Walwals) هذه قد جلبت دموعاً ودماءً، ومهما يكن فإن بريطانيا هي التي قادت بصورة ضعيفة تيار المعارضة لمطامع إيطاليا وأساليبها الاستعمارية. وعليهم أيضاً أن ينظروا ولو لبرهة من الزمن فيما إذا كانت «الحماية» بلا مسؤوليات تتوافق مع مبادئ ومثل العالم المعاصر. إن محمية عدن نفسها عبارة عن شكل غريب -وجدير بالرفض- من أشكال الاستعمار أيام الملكة فكتوريا، وما زال ماثلاً أمام عيوننا. وإنها لتحتاج إلى إصلاح حتى تتماشى مع المفاهيم المعاصرة لمسؤوليات السيادة.

ولكن نعود من هذا الاستطراد إلى حضرموت، فقد استراحت الحكومة البريطانية، بعد أن أغلقت على نحو مرضٍ لها البوابات الجنوبية للجزيرة العربية في وجه الاختراق الأوروبي المنافس لها. وظل عوض، الذي يبدو أنه كان عاهلاً ذا قدرة وتميز فائقين، على قيد الحياة بعد معاهدة عام ١٨٨٨م بحوالي عشرين عاماً. كما لم يجد منافسه الكثيري العظيم غالب بن محسن أي صعوبة في المحافظة على راية عشيرته مرفوعة في المواقع المنعزلة والنائية من وادي حضرموت، ولكن لم يكن باستطاعته أن يؤثر على الأسس الصلبة لقوة عوض على الساحل. وهذا، بضمان ودعم من الحكومة

البريطانية، كان كافياً لتأكيد الوضع الأعلى مقاماً والأرفع منزلة لعرش آل القعيطي دون الاقتراب من الاستقلال المحلي الذي اكتسبه آل الكثيري في منطقتهم هم بمرور الزمن. وحتى هذا اليوم ظل ذلك الأمر -على الرغم من أن الانحرافات والأخطار الحادة في المنطقة الداخلية- هو الصفة الغالبة في سياسة حضرموت. وكانت إمارة آل القعيطي شبه المستقلة في شبام تعترف دائماً بهيمنة المكلا عليها، والتي كانت بالمقابل تحترم الوضع الخاص لسلالة محمد. وعند وفاة هذا المذكور أخيراً، آلت الإمارة إلى ولده صالح، وبعد وفاته في عام ١٩٠٤م خلفه ولده الأكبر محمد، وتلاه بالدور (في عام ١٩٣٦م) أخوه الأصغر علي، الذي كان مضيفي في شبام. والمشكلة الوحيدة في هذا البيت هي البرود الموجود بين ولد محمد الثاني صالح، وعمه الذي يقاربه في السن. وقد انضم صالح في الوقت الحاضر -بعد عودته من إقامته الطويلة في حيدرآباد بالهند إلى أن توفي والده هناك- إلى بلاط سلطان المكلا.

وقد أدت وفاة غالب الكثيري إلى تقسيم عرشه وأملاكه بين ولديه منصور ومحسن، حيث أخذ الأول سيئون والثاني تريم على أنهما نصيبهما من الميراث. وقد أدى هذا التقسيم حتماً إلى إضعاف خطط آل الكثيري، في حين كان الآخر -غالب- الذي خلف والده عوض على العرش قادراً على الاعتماد على القوة الموحدة لعناصر آل القعيطي. وانتقلت المنافسة بين الآباء إلى الأبناء في وقت كانت الحرب العظمى على وشك أن تشجع وتساعد على تدبير المكائد والخداع وإثارة النزاعات. وكانت بريطانيا العظمى أشد انشغالاً في مواقع أخرى حتى إنه لم يكن لديها أدنى فرصة لتزعج نفسها بالفوضى المحلية. وقد كانت -حقيقة- لا تسمح لتلك الفوضى أن تقض مضجعها كثيراً عندما تكون أقل انشغالاً، وإنه لمن الحقيقة الساطعة والجديرة بالملاحظة أن نذكر أنه خلال الأربعين[1] عاماً التي تلت توقيع معاهدة الشحر

(١) كذا في الأصل (اربعين عاماً) ويبدو أن المقصود خلال الثلاثين عاماً كما حددها المؤلف بعد ذلك بالفترة ما بين (١٨٨٨-١٩١٨م). (المراجعون).

(١٨٨٨-١٩١٨م) لم يتجشم أي مسؤول بريطاني واحد عناء زيارة وادي حضرموت. كما أنه في غضون الفترة نفسها لم يزر أي رحالة بريطاني تلك البلد سوى السيد والسيدة ثيودور بنت، يرافقهما مساح هندي، في عام ١٨٩٣م. وهي أيضاً السنة نفسها التي شهدت زيارة المستكشف النمساوي ليو هيرش. ولم يذهب هذا الأخير أبعد من قرية الحزم، أما أسرة بنت فلم تتجاوز شبام. وليس هناك حاجة ضرورية كبرى لإبداء الملاحظات والتعليق على مثل هذا الوضع للأمور. فقد كانت القوة «الحامية» لا تعلم ولا تريد أن تعلم ما يجري في المناطق الداخلية.

وعلى كل حال -وخلال الحرب- أصبحت عدن وما جاورها التفاحة الحقيقية التي تتنازع عليها الإدارات المختلفة في الحكومة البريطانية، حيث كان مكتب الهند و«وزارة الخارجية» و«وزارة المستعمرات»، ناهيك عن «الجيش» و «الأسطول» في أيام ما بعد الحرب. و «القوات الجوية» كلها تتشاحن فيما بينها وتناضل للحصول على السيطرة العليا. بل إن جزءاً من المحمية كان يتمتع بمنزلة فريدة على أنه الجزء الوحيد من الإمبراطورية البريطانية الواقع تحت احتلال العدو.

ومع ذلك -وفي خضم هذه الفوضى- بدأ ضوء خافت من الاهتمام بشؤون حضرموت يظهر شيئاً فشيئاً في الخطط البريطانية؛ لأن كل فرد كان يعلم على العكس أن المنطقة الداخلية ربما كانت تعج بمناجم الذهب والبترول والإمكانيات الزراعية. وكانت تنمية موارد الإمبراطورية هي حديث الساعة. وهكذا في عامي ١٩١٨ و١٩١٩م، وأخيراً جاء إلى حضرموت اثنان من المسؤولين البريطانيين من ذوي الكفاءة المعترف بها في المهام الموكلة إليهما. فقد وصل السيد لي وارنر -الذي توفي مؤخراً- من هيئة «مستعمرات المضايق» لإجراء فحص عام للظروف السياسية والاقتصادية والزراعية في وادي حضرموت. وكان تقريره المثير بشدة للاهتمام قد طبع كما ينبغي كوثيقة إدارية سرية، ولم يصل أبداً إلى دائرة القراء الأكثر اتساعاً والتي يجدر بها أن تطلع عليه. وكان السيد ليتل، من «إدارة العلوم الطبيعية المصرية»، عالماً في

الجيولوجيا، ولا يزال تقريره المنشور يعد العمل القياسي عن جيولوجيا حضرموت. ولسوء الحظ لم يتغلغل في الوادي العظيم نفسه، والذي كانت حافته الجنوبية تقريباً آخر حدود دراساته. وفي هذه المرحلة، وفي ذلك الوقت، كانت معرفة العالم بحضرموت تعتمد على الوصف الذي نشره هؤلاء الأفراد الستة المذكورون أعلاه بالاسم، علاوة على وصف كان قد نشره رحالة قديم يدعى أدولف فون ريد وهكذا تمكن سبعة فقط من الأوربيين من زيارة بلد ظل خاضعاً «للحماية» البريطانية ما يربو على أربعين عاماً.

ولم تستطع الحكومة البريطانية أن تجد سبباً يرضيها أو يسرها في نتائج أربعة عقود من حمايتها للوادي. وعلى كل حال، فقد أثارت فعلاً همتها الآن لتساهم في رعاية شعب الوادي ورفاهيته، وفي أثناء تنفيذ ذلك فقد أعدت نظرية مثيرة للتساؤل بقدر ما، مؤداها أن المنطقة الداخلية كانت بالضرورة ملحقات طبيعية لموانيها. ولقد كانت هذه نظرية ملائمة، على الرغم من أنها تتعارض تماماً مع الحقائق الاقتصادية. ولا يمكن أن توجد المواني بصورة عامة إلا لتغذية المناطق الداخلية ،فتلك جدة والحديدة وبورسودان وغيرها على سبيل المثال، وهكذا كان الحال-في الحقيقة- مع الشحر والمكلا. ومهما يكن من أمر فلم تكن هذه النظرية قد اقترحت فقط، بل تم تنفيذها فعلاً، وبُذلت محاولة لتسوية النزاع القديم بين آل القعيطي والكثيري كما ينبغي. ونتيجة لتلك المحاولة تم إعداد معاهدة أمن وصداقة دائمة والتوقيع عليها بين الطرفين في ٢٧ شعبان ١٣٣٦هجرية (١٩١٨ ميلادية) بالشروط التالية:

«بسم الله الرحمن الرحيم، وبعد، قال الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ.. ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠ .

(٢) سورة الحج، الآية: ٤١ .

«ونحن -والحمد لله- نؤمن بالله ونتبع سنة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- ونؤمن بوحدة العمل الذي قد يجلب النفع للمسلمين والرخاء للشعب والوطن، ونرغب فيما قد يهب الناس الأمن والهدوء والتقدم داخل وخارج الوطن، ولذلك قامت الحكومتان الكريمتان للقعيطي وأهل عبدالله بإعداد معاهدة فيما بينهما إلى الأبد حتى يصير الغراب الأسود أبيض وتهلك الأرض.

«فليعلم السلطان السيد غالب بن عوض بن عمر، وعمر بن عوض بن عمر القعيطي بالأصالة عن أنفسهم ونيابة عن ورثتهم وخلفائهم وكفلائهم كطرف أول، والسلطانين منصور بن غالب ومحسن بن غالب من آل عبدالله بالأصالة عن أنفسهم ونيابة عن ورثتهم وخلفائهم وكفلائهم كطرف آخر، والذين اتفقوا جميعاً على الشروط التالية:

١- يوافق السلطان القعيطي، حاكم الشحر والمكلا، وسلطانا آل عبدالله من آل كثير على أن منطقة حضرموت من الملحقات التابعة للحكومة البريطانية والخاضعة لسلطان الشحر والمكلا.

٢- يقر السلطان القعيطي، حاكم الشحر والمكلا، بأن سلطاني آل عبدالله هما سلطانا آل شنافر وأن آل عبدالله هم الحكام في حضرموت على مدن وقرى سيئون وتريم وتريس والغرف ومريمة والغيل. ومن المعترف به أن عشائر الشنافر المذكورة فيما أدناه من رعايا سلاطين آل عبدالله، وهم بالتحديد آل عَمْرو، وعشائر آل كثير وآل عوامر وآل باجري وكل ما تضمه حدودهم المعلومة والمشهورة.

٣- السلطان القعيطي، حاكم الشحر والمكلا، نيابة عن نفسه وخلفائه كطرف أول يقر بنفسه أنه يقبل ويعترف بحقوق وسيادة سلاطين آل عبدالله وورثتهم وخلفائهم في تلك المدن والقرى المذكورة، وعلى عشائر الشنافر

المذكورين في الشرط الثاني أعلاه، ويتعهد بعدم التدخل معهم مطلقاً في أي أمر مهما كان، ويعترف بأنهم سلاطين مستقلون في مناطقهم كما هو محدد في الشرط الثاني.

٤- يوافق سلاطين آل عبدالله نيابة عن أنفسهم وورثتهم وخلفائهم كطرف آخر على أنهم لن يتدخلوا بأي طريقة مهما كانت في حكم حضرموت علاوة على المدن والقرى الواردة في الشرط الثاني، وأيضاً العشائر المحددة في الشرط المذكور، ويوافقون ويقرون بأنهم ليس لهم أي حق في التدخل بالمراكز المحلية الأخرى.

٥- يقر سلاطين آل عبدالله بأنهم يقبلون المعاهدة المبرمة بين الحكومة البريطانية وحكومة آل القعيطي في عام ١٨٨٨م على أنها ملزمة لهم كما لو كانوا قد وقعوا عليها، ويقرون بأنهم سوف يلتزمون بإخلاص بشروطها، ويوافقون أيضاً على أن جميع تعاملاتهم ومراسلاتهم مع الحكومة البريطانية ستكون عن طريق السلطان القعيطي، حاكم الشحر والمكلا.

٦- يوافق الطرفان على أنهم سوف يضعون فوراً نهاية للقلاقل الحالية والمقبلة، ويوافقون على نسيان الماضي كله والعفو عنه، ولن يقوم أي منهما بالانتقام أو المطالبة بأي دعوى ترتبط به، ويوافقون على المحافظة على الأمن على الطرق في المستقبل داخل حدودهم المعروفة، وأن يقيموا العدل طبقاً للشرع، وأن يوقروا السادة العلويين ويساعدوا المظلومين ويرسوا دعائم العدالة العامة داخل حدودهم المعروفة.

٧- توافق الأطراف المذكورة على مساعدة بعضها البعض إذا وقع بلاء أو حدثت مشكلة من أي من الجانبين لرعاياهم وأصدقائهم والتابعين لهم أو للأشراف أو المسافرين أو الضعفاء، ويوافقون على أنهم سوف يحمون

أرواح وممتلكات التابعين لهم ورعاياهم ومن تحت حمايتهم ما داموا يتعاملون معهم أيضاً بالعدل والإنسانية ومع باقي أصدقائهم.

٨- توافق الأطراف المذكورة أعلاه على أنه ستكون هناك حرية كاملة للتجارة، وأن الرسوم سيتم فرضها بالتعرفة والأسعار نفسها على جميع الأشخاص بالتساوي، سواء كانوا رعايا أيٍّ من السلطانين المذكورين أعلاه.

٩- إذا أراد أي سلطان من المذكورين أعلاه أن يزور الآخر فمن الضروري له أن يخطره بنيته تلك حتى يمكن اتخاد الترتيبات اللازمة لاستقباله بما ينبغي من احترام، ولا يجوز في أي ظرف مهما كان أن يزيد عدد القوات (المرافقة له) عن خمسين، حتى يمكن تفادي وقوع اضطراب أو مشاكل بين القوات المختلفة.

١٠- يوافق سلاطين القعيطي وسلاطين آل كثير بصورة متبادلة على مساعدة بعضهم البعض حسب قدرتهم وطاقتهم في أي خطة لتحسين الظروف في حضرموت ولتقدمها.

١١- نظير قبول الشروط السابقة من قبل سلطان الشحر والمكلا وسلاطين آل كثير من أهل عبدالله سوف تسعى الحكومة البريطانية إلى تسوية وإنهاء جميع النزاعات التي قد تنشأ في المستقبل بين المذكورين أعلاه بعد تاريخ هذه المعاهدة بالتحكيم من خلال المندوب السامي في عدن»[1].

وقد يستطيع أحد المحامين أو المشتغلين بالقانون أن يكتشف بسهولة الثغرات الموجودة في نصوص هذه الاتفاقية، في حين سوف يكتشف القارئ العادي الذي يقرؤها عن غير قصد أن بها إمكانيات ظاهرة جلياً لسوء الفهم والخلاف. ولقد كان

(١) انظر نص هذه المعاهدة وغيرها من المعاهدات التي تلتها -وكان الهدف منها إصلاح الأوضاع المختلفة في حضرموت وتوحيد قوة الدولتين القعيطية والكثيرية- لدى: القعيطي: السلطان غالب بن عوض، تأملات عن تاريخ حضرموت، ص١٣٦-١٤٤، مكتبة كنوز المعرفة، جدة ١٤١٨هـ. (المراجعون).

السيد لي وارنر شديد الصراحة في انتقاده لها حيث قال إنها ليس لها أي فائدة سياسية من الناحية العملية نظراً لأنها لم تقدم أي ضمانات قيِّمة. وعلى العموم فالغرض والأثر العملي لهذه الوثيقة واضحان بما فيه الكفاية، ويمكننا أن نسلم عن طيب خاطر بأن منطقة حضرموت ككل قد استفادت فائدة عظيمة من سد الثغرة الرئيسة في دفاعاتها ضد الفوضى والاضطراب. فقد تبدل التنافس القديم بين غالب الكثيري وعوض، وبين أولاد الأول وغالب القعيطي، بالعلاقات الحالية المرضية نسبياً بين هاتين الأسرتين الحاكمتين، بناءً على بيان مواقفهم النسبية التي لا تنطوي على سوء فهم حقيقي، وتشترط التحكيم البريطاني في حالة نشوء أي نزاع.

وكان العنصر القعيطي بالطبع هو الذي ربح كثيراً من التسوية، وكان ذلك بمثابة مكافأة ملائمة لجيلين اثنين من الإدارة الحازمة وغير الظالمة تحت حكمهم. ومن ناحية أخرى كان آل الكثيري ،على الرغم من شكواهم الضئيلة التي أشرنا إليها من قبل، قد نالوا أيضاً مميزات غير قليلة من الاتفاق النهائي مع خصومهم القدامى. أما الطرف الثالث... أي الحكومة البريطانية (التي سماها الكاتب tertius gudens) فلم تكن طرفاً حقيقياً في هذه الاتفاقية، ولم توقع عليها أيضاً فيما يبدو بوضوح ،ولذلك يجوز لها في هذه الحالة أن تتمتع بحق وتسعد بدورها الخيِّر الذي أدته كصانع للسلام بين عدوين قديمين وبالنجاح الذي صاحب وسيلة فجة وغير بارعة لمنح أوسع تفسير إقليمي ممكن للنص غير المرضي على الإطلاق لمعاهدة ١٨٨٨م. والآن لا يمكن أن يكون هناك أدنى شك مهما كان في أن إقليم سلاطين آل كثير، المحدد بالتفصيل في هذه المعاهدة، ومنطقة آل القعيطي، يشكلان معاً محمية بريطانية والذبابة الوحيدة في هذه المراهم (أي العيب الوحيد في هذه الاتفاقية) هي الحقيقة المثيرة للدهشة والاستغراب من أن المعاهدة لم تُوقَّع، ولم يتم التفاوض في الحقيقة عليها بموافقة سلطاني آل كثير الاثنين، منصور ومحسن، اللذين لم يكونا في عدن، حيث ترأس

المندوب السامي البريطاني المفاوضات. ويزعم أولادهما أن أختامهما التي تم وضعها لاحقاً على الوثيقة لم تكن إلا إذعاناً للقضاء والقدر[1].

إن هذا الوضع في الأمور ،وربما يجدر بنا أن نسميه تسوية النزاع القعيطي، الكثيري، قد أثمر بالفعل نتيجة طيبة واحدة ذات أهمية كبرى على الأرجح. فإذا ذهب زائر لحضرموت، وكان على دراية بالمناطق الأخرى من الجزيرة العربية، لن يكون بوسعه بالتأكيد إلا أن يُصدم بحقيقة أنه في ذلك الوادي الخصب الواسع -الذي يمتد إلى مئة ميل أو أكثر من أقصاه إلى أقصاه- لا يوجد إلا ما يكاد يصل إلى عشرة بالمئة فقط، وربما لايزيد عن خمسة بالمئة، من النخيل الذي قد يبلغ عمره عشرين عاماً. ويستطيع المرء بصورة تقريبية أن يقدر عمر غالبية بساتين النخيل بأنه يتراوح بين عشرة إلى خمسة عشر عاماً. فالجذوع الطويلة الموجودة في نجد والتي تشكل غابات حقيقية بكل ما في الكلمة من معنى يندر وجودها هنا حتى إنه يصعب ملاحظتها بدرجة كافية، وإن وجدت فإنها تكون بصورة عامة في مجموعات صغيرة، ولا تشكل بساتين حقيقية إلا أحياناً. هذه السمة السائدة في الوادي قد قُدِّم تفسيرها لي بطرق مختلفة، فلقد قال بعضهم إن النخيل لا تنمو إلى ارتفاع عظيم في حضرموت، ولكن تكذبهم النسبة المئوية الصغيرة لهذا النوع من النخيل الذي يراه المرء فعلاً، ويقول آخرون: إن النخيل لا تعمر طويلاً في حضرموت مثلما تعمر في أماكن أخرى، وآخرون -بقدر كبير من التعقل- ينسبون هذا الوضع إلى القلق المزمن الذي ينتج عنه انغماس مفرط في التدمير على فترات دورية، ومع ذلك يلقي آخرون باللوم على أوضاع الحرب أو الحصار المزمنة والتي تمنع حفر الآبار وصيانتها. وفي رأيي يجب أن

---

(١) رغم أن المؤلف بريطاني وسبق له أن كان من رجال الإدارة البريطانية إلا أنه يلمح هنا إلى شيء من الممارسات الاستعمارية البريطانية وطريقتها في صياغة المعاهدات بينها وبين البلدان المستعمرة أو بين البلدان المستعمرة بعضها البعض. تلك الصياغات التي تضمن لبريطانيا حقوقها كاملة ولا تلزمها في الغالب بأية التزامات قانونية. (المراجعون).

نسعى للتفسير الحقيقي في السببين الأخيرين، والسبب الثالث أشد أهمية من كليهما. ففي الماضي عانت النخيل أشد المعاناة على أيدي الأعداء، وكانت تتحرق شوقاً للري، الذي كان يتم تبديله على فترات فاصلة لتعرضه لنفس التقلبات في حينه. ولا يستلزم الأمر قدحاً لزناد الفكر حتى نقبل في حالة أية منطقة معينة بنظرية وجود دورة من القلق والاضطراب فيها تمتد لمدة عشرين أو خمسة وعشرين سنة، ولكن جزءاً ضخماً جداً من إجمالي المساحة المخصصة للنخيل اليوم قد تمّ زراعتها في الآونة الأخيرة نسبياً حتى إن المرء يستطيع بناءً على هاتين النظريتين أن يفترض وجود فترة مليئة بمحن الحرب وكوارث السلب والنهب منذ حوالي عشرين عاماً مضت. ونجد في الحقيقة عكس ذلك ،حيث وجدنا المفاوضات الودية لبث السلام الأبدي. وإلى هذا السلام يدين وادي حضرموت بفضل زراعة مساحات شاسعة كانت قد تركت مهجورة من قبل نتيجة الفوضى السائدة. ولنبتهل إلى المولى تبارك وتعالى أن تكبر الجذوع التي ما زالت صغيرة حتى تصل إلى هامة العمالقة!!! والقصة نفسها ترويها لنا زراعات الفِطْر (التي تسمى بالعَامِيَّة الفقع أو الكمأة) في مدن المزارع، مع بيوتها الريفية وفيلاتها وبساتينها، والقصة نفسها، مرة أخرى، تحكيها لنا المساحات الواسعة المتوافرة الآن لزراعة القمح والدُخْن.

إن قيمة الأرض -لا سيما عند قربها الشديد من المدن- مرتفعة. وعلى سبيل المثال تصل قيمة أرض زراعية عادية ذات جودة متوسطة في منطقة شبام إلى مبلغ ٥ أو ٦ ريالات للمطيرة التي تبلغ مساحتها حوالي ستة وثلاثين ياردة مربعة، وفي وادي ابن علي يتراوح السعر من ٧ إلى ١٠ ريالات. ولكن -على أي حال- في المناطق المجاورة مباشرة لشبام يرتفع السعر إلى أن يصل مبلغاً يتراوح بين ٢٥ إلى ٤٠ ريالاً. وفي المكلا ،لأسباب اقتصادية بحتة، البيت الذي قد يُؤجر بسهولة بمبلغ ٢٠٠ جنيه إسترليني، في جدة لا يدر إيجاراً سنوياً إلا في حدود٢٠ ريالاً فقط. وليس هناك من شك في أن تسوية الخلاف في حضرموت بين آل القعيطي والكثيري عام ١٩١٨م قد

بشَّر بميلاد عهد جديد من الازدهار الاقتصادي المحتمل. وكانت سرعة التقدم فيما تلا ذلك بطيئة بصورة مخيبة للآمال.

ولم أتمالك نفسي من الشعور بالأسى قليلاً، إشفاقاً على علي بن منصور، حيث قمت، بعد السادسة صباحاً مباشرة بقيادة السيارة متجهاً نحو تريم، وأنا أتأمل في عبء مصيبته. وقد شعرت في ذلك الوقت، وما زلت أشعر بما يلي: أولاً: إن تسوية عام ١٩١٨م قد عكست بدقة تقريباً الموقف الحقيقي النسبي لأطرافها في ذلك الوقت، وثانياً: إن حضرموت مثل الجزيرة العربية ككل، لا تزال بحاجة إلى قدر أكبر من التوحيد إن كُتب لها البقاء والازدهار في ظل الظروف المعاصرة. وعلى كل حال فقد مضى مؤلفو هذه المعاهدة، غالب وعمر من ناحية ومنصور ومحسن من ناحية أخرى الآن كلهم إلى قبورهم، بعد أن رأوا بعض ثمار مسعاهم. وأولادهم الذين ترعرعوا في عبق هذا الجو الجديد من الود والارتياح، لا يمكنهم بصورة معقولة أن يطعنوا في حكمة أسلافهم. وباستطاعتهم أن يتعاونوا معاً ليلموا شتات شعوبهم التي سادها التفرق الشديد في بلدهم وينسجوهم مرة أخرى في التصميم الأصلي الذي أراده صانعو المعاهدة. وإذا لم تبرز بعض الشخصيات المسيطرة على الساحة بعد هذا الوقت لتقلب التوازن القائم، فيبدو لي أن العنصر الكثيري سوف يصبح يوماً ما أكثر بقليل من خميرة في وسط الأكثرية القعيطية.

وعند الثامنة صباحاً كنت أمر عبر بوابة تريم. وبعد بعض التجول غير الضروري بين المدينة وعيديد اتجهنا في نهاية الأمر نحو بيت الأخوين عبدالقادر (سعيد) ومحمد، أولاد حسين بن الشيخ آل الكاف. وكان البيت أحد المباني الأولى من العهد الجديد، فقد كان مسكناً فخماً كالقصر على طراز المباني في سنغافورة وجزر الهند الهولندية، ويقع بالقرب من الطرف الشرقي للمدينة. وكان عتيقاً بقدر قليل في التصميم العام، مع حمام السباحة في فناء البيت، ولكن تجهيزات دورة المياه

والاستحمام كانت نظيفة وصحية. وبصورة حتمية يتعذر اجتنابها اجتمع حشد هائل من آل الكاف وآخرين، بما فيهم السلطان عبدالله، واندفعوا بأعداد ضخمة إلى البيت تشدهم الجاذبية التي لا تُقاوم الناتجة عن وجود زائر جديد. إن مأساة هؤلاء القوم الأغنياء أنهم -في ظروف حياتهم- ليس لديهم عمل يفعلونه قد يبقيهم مشغولين طول اليوم. ومما يبعث السرور بدرجة كافية -ولكن ذلك ليس مريحاً جداً- أن حياتهم تمضي في التلكؤ والثرثرة والترفيه. وربما يكون عندهم أحياناً عمل ولكنه يكون بصورة عرضية ولا ينال تركيزهم واهتمامهم.

وكان واحد من الجماعة التي احتشدت هنا اليوم لم أره من قبل، وقد كان رجلاً مسناً ذابلاً تبدو على وجهه علامات المكر والخداع، وقد قدرت من منظره أن سماً زعافاً يجري في عروقه. وكانوا في هينن قد أخبروني أن سيداً من قرية بور في وادي عدم قد جاء منذ زمن مضى إلى أرض نهد ليعقد صلحاً بين عشيرتي آل حكمان وآل ثابت اللتين كانتا ولا تزالان تتحاربان. وقد نجح بالعسل على طرف لسانه والسم في قلبه في أن يجعل الصلح مستحيلاً. وكان هذا هو الرجل الذي يجلس الآن بجواري، واسمه السيد عيدروس، يصب في أذني بلسان ذرب الحكاية الطويلة لكوارث ومصائب الحضارمة والتي لا يمكن علاجها إلا بتدخل يد قوية.

وابن سعود فقط هو الذي يستطيع علاج علل حضرموت. ولقد حاول السادة، وهو نفسه منهم، رأب الصدع ولكن دون جدوى لأنه لم تكن هناك حكومة تستحق هذه التسمية في حضرموت. يجب أن يتدخل ابن سعود حتماً، ويمكنه الاعتماد على النفوذ الكامل للسادة. ثم بصوت عال تحدث أحد الرجال الأصغر سناً من الأول بين الحاضرين بكلمات مجنحة أدهشتني كثيراً بقدر ما أسعدتني حيث قال: ، «من أنت حتى تتكلم؟ أليس معروفاً في جميع أنحاء المنطقة أنك -أنت وحدك- بجهودك في الصلح، الذي صنعت الخلاف الحالي بين النهد؟ ولولاك لكانوا في أمن منذ أمد بعيد» وقد بلغ

السيل الزبى وتوجهت أنظار جماعة الحاضرين لي ضارعة كما لو كانوا يطلبون العفو عن إزعاج السيد وإلحاحه. ولكن السيد، على كل حال، كان يسعى إلى أن يوقعني في مصيدة لأتفوه بكلمات طائشة. ولذلك واصل قائلاً: «انظر إلى تريم وانظر إلى قرية بدو هذه عبر الوادي، لا تبعد إلا عشر دقائق على الأقدام. لماذا!! لا يوجد أحد من السادة هنا، ولا فرد واحد من تريم يُظهر نفسه في العراء هناك. ليس لدينا أمن، ويعلم الله أننا بحاجة إليه».

ولم يكن بالإمكان التخلص من الرجل، وعلى أي حال فقد استطعت أن أرد عليه بصراحة وصدق وبطريقة نالت القبول بوضوح، حيث أجبته قائلاً: ، «أنت تطلب ابن سعود، ليمنحكم الأمن. إن ابن سعود -وهذه حقيقة- قد نشر نعمة الأمن في كافة ربوع بلاده حتى أقصى حدودها. انظر لحالتي. لقد خرجت منها لتوي سالماً، من سوريا إلى حضرموت، وفي طول رحلتي لم أسمع طلقة رصاص واحدة حتى وصلت أول قرية في بلدكم. كما أن ابن سعود -وهذه حقيقة- يرغب أن يرى العرب في كل مكان ينعمون بالأمن، والرخاء، والاستقلال. ولكن بالنسبة للتدخل في شؤون الحكومات التي تجاوره، فذلك أبعد ما يكون جداً عن تفكيره. ولا يشتهي بوصة واحدة من أراضيها. فهو بالتأكيد لا يطمع في بلدكم حضرموت ولا في أي أراض أخرى. وبالنسبة للأمن فأنتم وحكوماتكم تملكونه بأيديكم أنفسكم حتى تسعون إليه وترسون دعائمه. وعليكم أولاً أن ترغبوا الأمن إذا كنتم تريدون تحقيقه، لأن (الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)».

وقد جاء غداء «جاوي» فاخرٌ ووضع نهاية للنقاش، وبعد نوم القيلولة المطلوب، ذهبت للتجول بالسيارة مع مضيفي، وقد مررنا أولاً بعيديد حتى وصلنا إلى المسجد الأبيض الصغير في أعلى الوادي، حيث يستطيع المتنزهون في المساء أن يتوقفوا هناك لأداء صلاة المغرب، وبعد ذلك عدنا خلال المدينة وخرجنا إلى قرية

دمون، وكـانت بالأحرى مسـتوطنة مـتسخـة قليلاً. وفي طريق عودتنـا عرجنا على السلطان عبدالله لزيارته في بيـته الثاني قرب بوابة دمون، وبعد صـلاة العشاء وشرب الشاي رجعنا للبيت لتناول العشاء. ثم تفرقت الجـماعة، وتركوني وحدي على شرفة بالسطح لأنام عندما أريد. وهنا لاحظت لأول مـرة في حضرموت وجـود البعوض، الذي يعود بلاشك لوجود بركة استحمام في البيت.

ولا يبدو أن الملاريا شائعة في هذا الوادي. كما كـانت بالتأكيد شائعة في نجران وأودية الحجاز. والصـحة العامة لهذا البلد أعلى بوضوح من المعـدل العام الشائع في الجزيرة العربيـة كما أن الجلد الناعم المكتنز والأجـسام الرشيقة النحـيلة للناس، سواء الرجال أو الـنساء، يبـدو أنها تدل على مناخ صـحي. والطبيب الهندي الـذي كانت توظفه سـابقاً أسـرة آل الكاف في تريم لم يعد هنا، وربما شـغل مكانه على الأرجح صيدلي من جاوة. وفي الشحر أيضاً صيدلي آخر مسؤول عن مستشفى صغير، وكان هو الذي اعتنى بصحة فريـا ستارك خلال مرضها الخطير في شبـام. ولقد كان فخوراً للغاية بالشهادة التي مـنحته إياها مريضته، ويأمل أن تحوز له يومـاً ما على وظيفة في مكان آخر غير الشحر. وفي المناطق الداخليـة ينظرون إلى التعليم على أنه أكثر أهمية من الطب، ولكن كليهمـا متروكان لمشاريع أسـرة آل الكاف، التي تدرج بين أنشطتها أيضاً تسجـيل وترقيم السيارات. ومعظم هذه السـيارات تنتمي -في الحقيـقة- لأفراد مختلفين من الأسـرة، والتي أصدرت أيضاً عملة محلية من قطع النيكل المـعدنية لسد الفجـوة التي يشعرون بها كـثيراً بين نصف البنس الجاوي والدولار النمـساوي، الذي يعد المعيار لـلقيم المحلية في جميع أرجاء النصف الجنوبي من الجـزيرة العربية. وعلى الساحل تتداول الروبية الهندية وكسورها أيضاً.

ومن الإسهـامات النبـيلة الأخرى لأسـرة آل الكاف نحـو رخاء وازدهار أرض وطنها شق طريـق للسيارات من تريم إلى الشـحر، الذي سـوف أقود سيـارتي عليه الآن. وكانت الـساعة لم تكـد تبلغ السابعـة صباحـاً (في يوم ٢٧ أغسطس) عـندما

غادرت بيت عبدالقادر ومررت من خلال بوابة الشحر لعبور الوادي. وعند قناة المسيلة قرب أسفل الطريق المتعرج الصاعد إلى الجرف حتى مستوى الهضبة، توقفنا لنسحب ماءً لرحلتنا الطويلة. وكان لدينا سيارتان، واحدة سيارتي الخاصة والأخرى من طراز بيوك وضعتها أسرة الكاف تحت تصرفي، وبالإضافة إلى محمد، السائق، وأنا، كانت الجماعة تضم مرشدين اثنين من عشيرة آل جابر وكاتباً يعمل لدى آل الكاف كان عائداً إلى الساحل، وسائقًا. والطريق الصاعد من الوادي إلى حافة الهضبة مشهور باسم «عقبة باعشمين». وينسب إنشاؤها إلى مهندس محلي يتفاخر بلقبه الغريب المستعار الذي يكنى به وهو «الإنجليزي». ولم يستخدم الطريق أحد منذ أن سافر عليه إخوان آل الكاف منذ ثلاثة أشهر مضت في طريقهم إلى مصر. فمنذ ذلك الحين هطلت كمية طيبة من الأمطار، ويبدو أنه لا يعلم أحد ما إذا كنا نستطيع أن نقدر بثقة على الوصول إلى جهتنا المقصودة. إن كل شيء سيكون على ما يرام إذا لم تكن الأمطار قد جرفت الطريق ومحته من الوجود، وسوف تكون تجربتنا مفيدة لإخوان آل الكاف، الذين يُتوقع عودتهم بعد فترة قصيرة إلى الشحر.

وكان الطريق الصاعد للجرف حاداً بما فيه الكفاية على وجه التأكيد. ولذلك فقد آثرت أن أصعد سيراً على القدمين، ولقد واجهت كلتا السيارتين بعض الصعوبة عند المنعطفات المنحدرة الحادة. ولكن كلتيهما -على أي حال- وصلتا بسلام إلى القمة، ومن واجبي أن أقول إن الطريق كان تحفة رائعة في مجال إنشاءات الطرق، ويضيف قدراً عظيماً من الفخر والفضل للمهندس المسؤول عنه. فدرجات الميل والانحدار، على الرغم من أنها مازالت منحدرة بشدة، كانت معتدلة بأقصى ما تستطيع العبقرية البشرية إبداعه. وكان سطح الطريق ممتازاً. ولا يمكن تفادي المنعطفات الحادة إلا بشق الأنفس. ومع ذلك كان المشي ساراً ولطيفاً أكثر من ركوب السيارة. وفي القمة ألقينا نظرة رائعة على تريم والوادي في الأسفل من ارتفاع حوالي ٧٠٠ قدم.

والهضبة في هذه النقطة تشكل لساناً ضيقاً ولكنه يتسع أكثر فأكثر بين الوادي الرئيس عن يسارنا ودلتا وادي عدم عن يميننا. ويسير طريق السيارات في البداية نحو اتجاه جنوبي، شرقي على طول سفح رف بارتفاع ٢٠٠ قدم إلى الغرب، ويطل على وادي عدم. وعلى كلا جانبي الممر الضيق الذي يمتد فيه الطريق توجد شقوق عميقة مفتوحة على الأودية. وقد تركت قيادة السيارة لسائقي حتى أتفرغ لكتابة الملاحظات والمذكرات بدون تعطيل، وكم كنت سعيداً لأنني لم أكن أقود السيارة. وصعدنا وهبطنا في طريق متعرج لا ينتهي، حيث كنا نرتفع إلى حوالي ١٠٠ قدم ونهبط بالقدر نفسه، مرة بعد مرة، والآن نسيرعلى طول منحدر من الصخور المفككة، والآن فوق سهل جيري منبسط، ويتناثر هنا وهناك ممر ضيق تماماً بين الشقوق المنفرجة على كلا الجانبين. بيد أننا كلما تقدمنا كانت الهضبة تتسع أمامنا وتصبح أماكن المرور الخطر أقل تكراراً. وهكذا انطلقنا بالسيارة بسرعة ثابتة على أرض غير ذات زرع، وسطحها مفكك، وفي سهل جيري لا أثر فيه لأي نباتات.

وبعد حوالي خمسة عشر ميلاً مررنا برأس شعيب غاتر، وهو صدع عميق ينحدر لأسفل، والذي قالوا عنه إنه يؤدي إلى ممر النبي هود. ودرب القوافل إلى عينات من وادي عدم يعبر طريقنا عند هذه النقطة، حيث كانت الهضبة أمامنا مكشوفة للرؤية بوضوح حتى مسافة هائلة في جميع الجوانب، مع انتشار واسع للتلال وسلاسل الجبال المنخفضة وشريط طريق السيارات يلتف معها أو بينها على الأرض المنبسطة. وهنا وهناك تقف شجيرات قليلة، ذابلة على وشك الموت، ذات جذوع سميكة، وقد توقفت عن النمو، وهي تتشبث بصورة بائسة بشفاه الصخور المشققة والمنحدرات الصخرية في الأودية الضيقة المكونة بين الشقوق على هذا الجانب أو ذاك. وقد كنا نصعد إلى أعلى دون أن ندري، وعلى بعد حوالي أربعين ميلاً من العقبة وأعلى منها بحوالي ٦٠٠ قدم، أتينا فجأة على رقعة طيبة من الخضرة النباتية حول حافة صدع عظيم يهبط نحو وادي عدم، وكانت تلك الخضرة تتكون من أشجار

وشجيرات صغيرة خضراء. ووراء هذه النقطة كانت الخضرة المماثلة تتناثر في الهضبة، حيث توجد أحد البقع الوفيرة النماء بالنباتات وشجيرات السنط في ريعان توردها بالأزهار على رأس صدع آخر. وكنا نقترب بوضوح من منطقة هطل بها المطر مؤخراً، وسرعان ما وصلنا إلى واد عامر بالشجيرات، يدعى رؤوس الشاة أو قرون الغنم والذي يتدفق إلى أسفل حتى القرية الصحراوية المسماة غيل ابن يمين نحو الشرق. وكانت دروب القوافل، التي تسير في الاتجاه نفسه، قد تركت أثراً عميقاً من سيرها في قاع الوادي. وتوجد هنا وهناك حظيرة خراف مطوّقة بحزام صخري لتروي قصتها عن الرعاة الذين كانوا يحرسون قطعانهم بالليل. وطفر زوج من الغزلان مبتعدين عن مرعاهم بين الأعشاب الصغيرة الغضة على ضجيج اقترابنا منهم. وعن رأس الوادي نزلنا إلى وهد «حصن الخرْب» الضيق الذي يهبط أمامنا بين سلاسل الجبال حتى وادي حرو وهو شريط واسع منخفض ذو لونين من الأبيض والأخضر يجري في الجانب الآخر منا تجاه الغيل.

وقد قطعنا الآن حوالي خمسين ميلاً من رحلتنا. وعن يسارنا في الحافة الصخرية المنحدرة من الوادي تقع كهوف مستوطنة، لأولئك البشر، من الرعاة البؤساء لقطعان المشايخ الذين يقسمون وقتهم بين رعي الغنم وفلاحة الحقول التابعة لبدو آل جابر من العرب في وادي حرو بعد تجمع مياه السيول. وفي البداية شاهدنا فقط الغنم مع حمير قليلة ونساء. ثم اندفع الرجال والصبيان خارجين من مخبئهم في منطقتهم المكتظة بالسكان ليتبادلوا الأخبار مع مرشدينا، عندما توقفنا لاستكمال ما نقص من إمداد مائنا من بركتهم. ولقد كانوا قوماً ودودين، ومفرطين في الفضول وحب الاستطلاع، على الرغم أن مرور السيارات عبر واديهم لم يكن شيئاً جديداً. وعندما نزلنا، سرعان ما وصلنا إلى حافة وادي حرو وعبرناه إلى الضفة اليمنى، التي لزمناها حتى تجاوزنا مساحة هائلة من الأرض المراحة، وتتناثر فيها مبان متفرقة من الطين والحجارة حتى قرية كريف ضبوعة الصغيرة والمهجورة الآن. وفيها بركة صغيرة

محاطة بحـزام من التراب وأشجار العَلْب. وقد اقتـرحت أن نقف هنا لتناول الغداء، ولكن مرشدينا من آل جابر اعتـرضوا على أساس أنه -على الرغم من الفراغ الواضح في المكان وخلوه- ربما يكون هناك ناس حولنا. وفي هذه المنطقـة كان من الأفضل -كما قالوا- أن نتفادى اجتماع الناس غير الضروري. وهكذا واصلنا السير، حيث كان الدرب محدداً بحجارة في الوادي، الذي كان اتساعـه يبلغ ميلاً أو أكثر، وبه كثير من النباتات. وبطول الناحـية التي عن يسارنـا امتد جرف منخـفض من الحجر الجـيري، وعند ثنيته عبرنا قناة السيل لنـتوقف على الجانب الآخر لتناول الغداء وسط واد ضيق تنتشر فيه شجيرات السنط والسرح.

ولم يكن غداؤنا فاخـراً، بل كان يتكوّن فقط من معجون التـمر والسمك الخام المجـفف (اللخم)، الذي يشكل الوجـبـة الرئيـسة للـبدو وركـاب القـوافل في هذه المناطق. ويقـولون إن السمك يأتي من كـمران ، وهو نوع جـد عادي من السـمك، والذي يذهب قليل منـه لمسافـاة بعـيدة، وهو مُـغَـذٍّ بلا شك، ولكن طعـمه يفـوق الوصف، وبالتأكيد ليس بنفس سوء رائحته. والقناة التي عبرناها وأخرى على الجانب الغربي من الشجيرات كانتا روافد من وادي حرو الرئيس، والذي يقع رأسه في أرض مرتفعة قليلاً على مسافة بعيدة إلى الغرب. وحرو يعود إلى آل جابر من وادي عدم، وهم مع آل عَـمْر وأهل عـبدالله يشكـلون اتحاد آل كـثيـر. المشايخ، الذين يزرعـون أرضهم، يحصلون على نصف المحصول، ولـكن عليهم أن يوفروا البذور علاوة على العمال. وعلى كل حال، في وقت مرورنا كان الوادي خالياً ومهجوراً، ينتظر الأمطار الموسمية.

ويمتـد الطريق الآن تـقـريبـاً نحـو الجنوب-الجنوب الغـربـي في سـهل مليء بالشجيـرات والذي يصرف جزءا من مياهه في منخفض حـرو، والجزء الآخر في ممر رسب الضيّق الذي ينحدر إلى أسـفل من قناة عميقة وضيـقة حتى وادي عدم. وعلى طول حافته على الجانب البعيد تقف نصف دستـة من المباني تشبه الحصون يسكن فيها

عدد قليل من السكان المؤقتين (من آل جابر). وتبدو غير مأهولة الآن، حيث لم نر فرداً واحداً من البشر. وبعد أن سرنا حوالي ستة أميال بعد الغداء أتينا على الصدع الذي يشكل رأس ممر رسب الضيق، وهو يهبط إلى المستوى الأسفل في جرف شبه دائري وشديد الانحدار بحوالي ستين أو سبعين قدماً. وعلى كلا جانبينا امتدت سلسلة جبال منخفضة، وعند ملتقى الطرق بها كان درب السيارات يسير في خط مستقيم فوق سهل واسع ممتلئ بالشجيرات. وبعد عشرة أميال أخرى وصلنا إلى النقطة التي يرتفع عندها الطريق على سلسلة الجبال على طول رف صخري وعر قليلاً. وفي القمة على ارتفاع مئة وخمسين قدماً فوق السهل، كنا أعلى بحوالي ١٠٠٠ قدم من قمة با عشمين».

وعلى الجانب البعيد من سلسلة الجبال تحتنا يمتد وادي زبون، العامر بالشجيرات، والذي تصرف فيه المرتفعات القاصية عن يسارنا في الأمام مباشرة في وادي عدم. ووراءه مرة أخرى، وبعد أميال قليلة، اعترض شعب سلتوه مسارنا في طريقه إلى الشريان الرئيس نفسه. وكانت الهضبة التالية وعرة وصخرية وتنتشر فيها بقدر معقول أشجار قصيرة توقفت عن النمو، وذات جذوع سميكة، وهي على وجه التحديد أشجار البشام أو البلسم، والتي أهملها جيل قد نسي تجارة التوابل القديمة في وطنه. وقد انتهت هذه الهضبة عند حافة جرف منحدر يشرف على منطقة طبيعية كثيفة الأشجار تجري خلالها الجداول الكثيرة المتفرعة من وادي العشرة نحو الغرب حتى عدم. ومن حافته استطعنا أن نرى على البعد سلسلة جبال الفقرا الشاهقة التي تواجه نحو الجنوب المحيط الهندي. وقد أفضى بنا طريق وعر قليلاً إلى واجهة الجرف في أخدود عميق، الذي يتسع عند قاعدته في أول قناة من قنوات عشرة. وعلى يمين طريقنا تقع أربعة أو خمسة قرى صغيرة في مستوطنة ريدة بعدد سكانها القليل من عرب المعارة الذين يزرعون الأراضي المنبسطة -التي تروى بمياه السيول من هذه

الأودية- بالدخن والمحاصيل الأخرى ضئيلة القيمة. والجرف خلفنا يشكل حداً طبيعياً بين قبائل آل جابر والمعارة. ويتكوّن وادي العشرة من ثلاث قنوات مهمة وعدة قنوات أخرى رافدة وهي التي واجهنا قليل من الصعوبة عند عبور بعضها.

وخلفها تمتد مجموعة ثانيـة من مجاري التصريف الضحلة على كلا جانبي قناة رملية واسـعة تنتشر عليـها مجمـوعة مماثلة من القرى الصـغيرة المأهولة أيضاً بقـبائل المعارة. وهذه تشـتهر باسم وادي ريدة، ويجب أن تعد القـرى وهي ديرة آل با حسن والقرن، وآمون، والقزة، وبثي وقليل غيرها، جزءاً من منطقة مأهولة واحدة، تشمل أيضاً قرى عشرة. وأكبر قـرية من هذه القرى، وهي ديرة آل با حسن، تقع فعلاً على الطريق، وقد توقـفنا فيها لتـوظيف مرشد يكون رفـيقاً يسهل لنا المرور خـلال منطقة قبائل المعـارة. وقد وقفنا تحت شجرة «عَلْب» رائعـة مترامية الأغـصان، وكانت هناك أشجار كثـيرة مثلها متناثرة في أرجاء الوادي، مع أشـجار السنط وقليل من النخيل، وسرعان ما طوقنا سرب ضخم من فتيات ونساء القرى. وكن جميعاً يغطين وجوههن بالكامل، ولا نستطيع أن نرى عـيونهن إلا بصعوبة، ولكن يبـدو أنهن كن على قدر قليل من الجـرأة وعدم التحـفظ وفي منتهى التـودد، وكثـرة الثرثرة، وكن يتـزاحمن ويتدافـعن على السيارة ليحـدقن في داخلها. وقد مكثن يسلينا بهـذه الطريقة إلى أن جاء رجل. وبعد التبادل للتحايا مـعنا، أخذ مكانه في السيارة. وربما يعود لنا غداً أو بعد غد أو في الشـهر القادم، ولكنه بقدر ما أستطـيع أن أتذكر لم ينبس بكلمة وداع واحدة لأي شـخص. وهنا بدأ محـمد تشـغيل المحرك، وقـفزت النسـوة المذعورات مبتعدات عن هذا الوحش الحديدي، وانطلقنا في طريقنا.

وتبعد القرن ١٤٠ ميلاً عن عـقبة با عشمين بالطريق البري، وكنا لا نزال على ارتفاع حـوالي ١٠٠٠ قدم فوق تلك النقطة، ولكنا نـزلنا على الأقل ٤٠٠ قدم من قمة الجرف. وقد واصلنا لما يقرب من مـيلين التزام الضفة اليمنى لقناة ريدة حتى أتينا على مقـابر، تشرف عليها قـبة بيضـاء لقبر أحد الصـالحين. وهنا عبرنا قاع مـجرى

السيول وكان من رمل ناعم نسبياً، وبعده عبرنا أيضاً قناة رافدة تسمى شعيب ضنتة وتقع قرية آمون الصغيرة على ضفتها اليسرى. وقد كان سطح الهضبة بعد ذلك وعراً وكثيراً ما تقطعه خطوط تصريف ضحلة، والتي تجاوزناها في حينه حتى وصلنا إلى الأرض المرتفعة الأسهل من ورائها. والآن دخلنا بالتدريج في ممر على كلا جانبيه سلاسل جبال منخفضة ومتقاربة بالإضافة إلى سلسلة من القنوات الضيقة، وكلها تنزل للأمام معنا لمسافة معينة إلى أن تلتوي مرة أخرى لتصب في ريدة. وعند رأس الممر، وعلى ارتفاع حوالي ٥٠٠ قدم أعلى من القرن، وجدنا أنفسنا على تجمع أمطار مهم. وقد اعترضت سلسلة جبال نحيلة تماماً هنا بين آخر رافد في شبكة روافد ريدة ووادي دسبة على الجانب الآخر، والذي تتدفق مياه سيوله لتصب في المحيط الهندي، من خلال ممرات ضيقة وعميقة ومنحدرة. ويسير درب السيارات عبر سلسلة الجبال وينزل بانحدار إلى وادي دسبة، حيث توقفنا فيه لنأخذ ماء من أحد البرك على بعد نصف ميل باتجاه تيار المجرى. ويأتي الوادي من الجنوب الغربي ويتجه إلى الجنوب الشرقي خلال ممر شديد الضيق بين كتلتين ضخمتين من مرتفعات الحجر الجيري -الفقرة.

وعند مكان تجمع الأمطار - على بعد ١٦٥ ميلاً من باعشمين - كنا على ارتفاع حوالي ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، ولكن مرتفع الحجر الجيري هو الجزء الرئيس أو المركزي من جبل أو سلسلة جبال أمامنا خلف وادي دسبة، كان يرتفع إلى ارتفاع شاهق بقدر عظيم. وكان الوادي نفسه كثيف الأشجار، بأنواع من أشجار السنط تسمى القرضة، ذات أوراق شديدة الاخضرار وأغصان ممتدة مثل شجر الأرْز. ويقوم البدو المحليون بصنع صبغة من أوراقها المسحوقة. والانحدار إلى الوادي من تجمع الأمطار كان حوالي ٣٠٠ قدم. وقد أفضى بنا طريق معبد بطريقة ممتازة به ثنية حادة واحدة وارتفاع منحدر إلى مستوى مرتفع حوالي ٥٠٠ قدم فوقه على الجانب الآخر. وكانت الشمس قد مالت للغروب، وكنا نسرع الخطى بأقصى ما نستطيع،

وتارة نرتفع لأعلى وتارة أخرى نهبط إلى أسفل، وتارة نلتف حول محيط كتل الحجر الجيري الهائلة التي كانت ترتفع إلى عدة مئات من الأقدام فوقنا. وقد قطعنا آخر خمسة أميال في الظلام، ثم بعد أن يئسنا من الوصول إلى رأس الطريق في وقت معقول، قررنا أن نخيّم حيث كنا. والبقعة التي اخترناها تقع قرب رأس صدع عميق ومباشرة وراء مضيق صغير بين كتلتين من كتل التلال، والتي تقف عليها بجوار الطريق آثار كوخ صخري وحيد، وهو إما كوخ أحد الرعاة أو ربما محطة تجارية على الطريق من العهود الماضية. ويشتهر هذا الأثر باسم «الشيخة»، والأخدود الصغير يسمى شعيب رصع. ومن الواضح أنه رافد من وادي غنم.

وفي العشاء تناولنا أرزًا مع السمك المجفف (مسلوق ومحمر). وكنا قد قطعنا فقط ما يزيد على ١٨٠ ميلاً من الممر ونحن على ارتفاع حوالي ٤٦٠٠ قدم فوق سطح البحر. وإلى الجنوب والغرب لم يكن هناك شيء ذو أثر هام في المنطقة، وكانت قمم التلال ربما تصل إلى حوالي ٥٠٠٠ قدم فوق البحر. وعلى كل حال، كانت الأرض إلى الشمال الشرقي ترتفع بقدر أكبر، وضلوع الجبال العظيمة تمتد إلى أسفل من قمم تبلغ ٦٠٠٠ قدم أو أكثر نحو البحر، وهناك سلسلة لا تنتهي من مثل تلك الجبال، واحد تلو الآخر صوب الشرق حتى مد البصر. وكان السطح الجيري الوعر للمنحدرات حولنا مغطى بشكل كثيف نسبياً بشجيرات غريبة المنظر تسمى «دينّي»، والتي كانت جذوعها الدرنية الضخمة تتدفق باللبن بمجرد خدشها خدشاً بسيطاً. وكان هناك شجيرة مماثلة ،تسمى «الدمعة»، ينزل منها سائل ذو لون داكن. وليس هناك استفادة من كليهما ،بقدر ما أستطيع أن أتذكر، ولكن المادة الصمغية واللبن ذي الرائحة الخفيفة قد يكونان على الأرجح استخدما في العصور القديمة عندما كانت مثل هذه الأشياء مطلوبة. وكان مرشدنا من قبيلة «المعارة»، ويدعى طالب قد أحضر لي صفيحة مملوءة بالماء حتى تكون جاهزة بجوار فراشي للوضوء عندما تحين صلاة الفجر. وبعدما وضعها كسر غصناً صغيراً من نبات قريب ووضعه بعناية

بالعرض على أعلى الصفيحة. وقال رداً على استفساراتي: إنه سوف يبعد الأرواح الشريرة عن طريقنا[1]. وكان الجو معتدلاً يبعث على السرور في هذا الارتفاع الشاهق. وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة أثناء الليل أعلى من ٧٠ْ بقليل.

وفي الصباح التالي نهضنا في ساعة مبكرة، واستأنفنا رحلتنا عند الخامسة والنصف، وكنا نهبط بسرعة ثابتة. وكان الطريق وهو لا يزال يتبع محيط تضاريس كتل التلال قد التف واستدار عندما كان يطوق رؤوس الشقوق الضخمة التي تنزل إلى الأودية من على جانبي سلسلة شاهقة من جبال الحجر الجيري. وكان أمامنا خمسة أميال فقط لنقطعها، وسرعان ما وصلنا إلى نهاية الطريق على جرف عال يسمى رأس الحروة. وقد نزلنا ٧٠٠ قدم من أعلى نقطة وصلناها في اليوم السابق على الضفة اليمنى لوادي دسبة، وكنا الآن على ارتفاع حوالي ٤٠٠٠ قدم فوق البحر. ولم نتعرض لأي صعوبة خطيرة في أي نقطة على الطريق. ومع مرور الزمن بالرعاية والاهتمام سوف يتحسن هذا الطريق بلا شك، ولكن من الصعب الاعتقاد بأن طريقاً أفضل من الساحل حتى وادي حضرموت سوف يُؤسس بعيداً إلى الغرب كما قد يود سكان المكلا. وقد حبا الله الشحر فرصة عظيمة الآن؛ لأن حركة مرور السيارات لكل من المسافرين والبضائع قد أصبحت سبباً جوهرياً من أسباب الراحة والمتعة في الحياة بجنوب الجزيرة العربية. وسوف تربح الشحر كثيراً من هذا الطريق، ولكن -في هذا الوقت- لا تزال فجوة شاسعة من المنطقة الوعرة فاغرة فاها بين «أقصى الشمال» في رأس الحروة ورأس جزء الطريق الممتد من الشحر إلى المعدي. وعلى كل حال، في غضون الأشهر التسعة التي انقضت منذ مروري عليه، كانت هذه الفجوة قد تم

(١) في هذا التصرف إشارة إلى ما ورد في «صحيح مسلم» رقم (٢٠١٢) عن جابر رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. أنه قال: «غطُّوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأغلقوا الباب، وأطفئوا السراج؛ فإن الشيطان لا يَحُلُّ سقاءً، ولا يفتح باباً، ولا يكشف إناء. فإن لم يجد أحدكم إلا أن يعرض على إنائه عوداً، ويذكر اسم الله فليفعل. فإن الفُويقة تُضرِمُ على أهل البيت بيتهم». (المراجعون).

التغلب عليها وردمها، وأضحى من الممكن الآن أن تسافر المسافة كلها من الشحر حتى تريم بالسيارة. وقد تم الاحتفال بإنجاز الطريق بافتتاحه رسمياً في يونيو (١٩٣٧م) من قِبل السير برنارد بيلي، حاكم مستعمرة عدن. والآن من الممكن حقيقة أن تسافر بالسيارة من المكلا إلى مكة المكرمة أو إلى دمشق أو لندن.

وكان علينا أن نترك السيارات في رأس الحروة تحت حماية مندوبي قبيلة آل جابر الذين رافقونا، ونسير على الأقدام إلى المعدي بعيداً إلى أسفل في الوادي، حيث سيأتي في الوقت المناسب مندوبو باحسن (الحمومي) ليتولوا المهمة أثناء غيابنا على الساحل. ولم نتمكن من رؤية البحر نتيجة للضباب الذي يمتد فوق السهل الساحلي والتلال التي تحفه. والمنظر العام لتلال وسلاسل جبال الحجر الجيري التي تنتشر أمامنا كان مخيفاً نسبياً، ولم نهدر الوقت سدى أكثر مما هو ضروري لجمع أمتعتنا وتغطية السيارات ضد احتمال سوء الطقس. وكانت هناك دائرة واسعة، خالية من الصخور تقريباً، استخدمناها كموقف للسيارات وموقع للمخيّم. وقد ودعنا مرشدينا من آل جابر وانطلقنا في المشي نازلين من التل، وكان الكاتب والسائقان الاثنان والمرشد المعري وأنا نحمل أمتعتنا.

وبدأنا السير في السابعة صباحاً نحو الشرق على طول الحافة اليمنى لمر وادي غنم الضيق العميق، والذي يقع قاعه على بعد حوالي ٥٠٠ قدم تحتنا. ومن الواضح أن وادي دسبة يتصل بهذا الوادي بعد مسافة طويلة، كما يتصل به أيضاً شعيب رصع الذي أقمنا مخيمنا بجواره لقضاء الليل. وكان الطريق مستوياً في الميلين الأولين أو نحوهما، حيث كان سطحه الصخري قد اهترأ وأصبح ناعماً في أجزاء منه بما يشبه الرخام نتيجة مرور القوافل عليه. وبعد المشي حوالي ثلاثة أرباع الساعة أتينا إلى نقطة مقابلة لدرب الجمال والحمير المتعرج أعلى الممر المنحدر لعقبة عرشة. وهذا هو الطريق المعتاد للقوافل المتجهة من الشحر إلى تريم أو وادي عدم أو غيل ابن يمين. وعند سفح

الممر، في وادي غنم، توجد بقعة صغيرة من أشجار النخيل تسمى «غيضة العقبة». وعلى جانبنا من الوادي، وعلى ارتفاع شاهق بجوار الطريق، كان كتفاً غريباً مقوساً بصورة طبيعية يبرز إلى الخارج من صفحة الجرف.

تحولنا الآن إلى الجنوب الشرقي نازلين على المنحدر غير شديد الانحدار ولكنه صخري على جانب التل، وكنا متجهين إلى ممر المعدي الضيق بحق. وبعد ساعة من المشي وصلنا إلى رأس درب متعرج نازل إلى عقبة وعرة. وفي خلال نصف ساعة أخرى وصلنا واحة من أشجار النخيل (نخيل التمر وجوز الهند) في أرض الممر. ومن رأس الحروة حتى كتف الجبل كنا قد نزلنا حوالي ٢٠٠ قدم. وكانت قمة عقبة المعدي منخفضة عنا بحوالي ١٣٠٠ قدم، والواحة -التي دخلناها- كانت منخفضة بمقدار ٨٠٠ قدم أخرى أسفلها. وهكذا كنا قد نزلنا ما مجموعه حوالي ٢٣٠ قدماً منذ أن غادرنا السيارات، ومن هناك وحتى رأس الطريق في جانب الوادي للشحر يكون الأمر مختلفاً، ولكن حتى تلك الصعوبة قد تم الآن التغلب عليها.

وبأقصى ما أستطيع أن أتذكر، لم أكن قد رأيت نخيل جوز الهند وهو ينمو طبيعياً منذ أيام طفولتي في سيلان. وكان من دواعي سروري أن أراها الآن، وهي تشارك هذا الممر الاستوائي الضيّق مع نخيل التمر المألوفة. وكان التمر قد تم -بالطبع- جنيه منذ زمن طويل، ولكن جوز الهند كان يانعاً، ولم أمكث وقتاً طويلاً إلا وكنت أعب من سائله الطازج وألتهم لبه الأبيض، في حين كانت وجبة الغداء وسط النهار يتم تحضيرها. وكانت أشجار التين البري[1] واضحة أيضاً بكثرة، وكانت أسراب هائلة من طائر السوادية -وهو طائر ذو ريش أسود لامع- مشغولة بثمراته الضئيلة، وهي تحتج بنغمات عذبة على غزونا لمجالها وتطير لتلوذ بالجُرُف الناتئة فوقنا، ولكنها تعود دائماً إلى أكل وجبتها. وقد ذكر هانز هلفريتز البغاوات ضمن

(١) يطلق عليه في الحجاز "البرشوم". (المراجعون).

من يقيم في هذا الفردوس الصغير، ولكني لم أر أياً منها بالتأكيد. وكانت طيور القنبر والبلبل تبدو مبتهجة ومتمتعة بالماء والظل. وتنمو أشجار الكَوْثل -وهونوع من فصائل النخيل- البنغالية هنا فقط من بين جميع مناطق الجزيرة العربية.

إن المعدي بقعة ساحرة بأقصى قدر يتمناه المرء، فأشجار النخيل والتين ،إضافة للصخور الضخمة الهائلة التي سقطت من فوق، تمنح ظلاً ظليلاً من وهج الشمس الساطعة على هذا الممر الضيق من سماء خالية من السحب. وكان الجو حاراً وشديد الرطوبة على نحو مزعج. كما كان هناك جدول صغير فيه ماء دائم طول السنة يجري برقة وضعف حتى الوادي، وقد سده تراب الردم والصخور حتى أصبح بمثابة بركة متوسطة الحجم ومليئة بالنباتات المتعفنة، ويسكنها العديد من الضفادع وصغارها. ويوجد اثنان أو ثلاثة من الأكواخ الحجرية البائسة، ترتفع كثيراً فوق قمم الأشجار، على المنحدر الحاد بالضفة اليمنى، مكونة قرية صغيرة. وكان سكانها الذين قد لا يزيدون على أربعين أو خمسين شخصاً كما قالوا جميعاً، لا يحتاجون بوضوح إلى المأوى إلاّ نادراً لاتقاء العوامل الجوية. وسرعان ما اندفعوا حولنا مثل النحل، ولكن جاء الرجال فقط، أما النسوة فكل ما رأيته كان اثنتين أو ثلاثاً من العجائز اللائي كنّ قد نزلن إلى البركة ليأخذن الماء. وكان الصبية يصطادون حول الماء بالمقلاع ويطاردون الطيور. وقد أصاب أحدهم طائراً من طيور السوادية، وآخر قتل اثنين من القنبر، وسقط بلبل أيضاً صريعاً بفعل مهارتهم. وقد كانوا ودودين أيضاً، دون أن يكونوا معاندين ومكابرين، وكان معظمهم جميل المحيا بصورة مذهلة، ذوي ملامح طيبة وأجسام في اتزان تام. وكان الرجال أيضاً -في معظمهم- ذوي طلعة وسيمة، أجسامهم صغيرة ولينة غضة، ولكنهم كانوا رجالاً أشداء باستثناء أخلاقهم وحديثهم، الذي كان جهورياً ويميل إلى المشاكسة والخصام. وبالنسبة لهم لم نكن ضيوفاً، بل مسافرين أو عابري سبيل، أي ضيف الله، يجب أن يخدمونا بإخلاص وأمانة حتى ينالوا أقصى قدر ممكن من الفائدة لأنفسهم. ومنذ عهد سحيق كانوا يحتجزون هذا

المرر لأخذ المكوس أو الأتاوة من أولئك الذين يجدونه ضرورياً أو ملائماً للمرور. وقد زودهم الله وحده بضروريات الحياة، -التمر وجوز الهند-. وكانت المكوس التي يجمعونها توفر لهم الكماليات والترفيه مثل: السمك المجفف من الساحل، والملابس لنسائهم، وبقدر أقل لهم هم أنفسهم والتبغ الذي يبللونه ويضعونه في أفواههم ليمضغوه[1]. وكانوا يحتفظون بالغنم والماعز حتى يحلبوها ويشربوا لبنها أو يبيعوها لحماً، ولديهم القليل من الإبل لتحمل محصولهم من جوز الهند إلى السوق ولتأجيرها في النقل لعبور الفجوة التي لا يوجد بها جسر في طريق السيارات. وبالنسبة لهم كان إنشاء الجسر المقترح على تلك الفجوة يبدو خطراً يهدد حياتهم وكسب رزقهم، ولذلك قاوموا جميع المطالبات والمناشدات التي وُجِّهت إليهم للحصول على موافقتهم على تنفيذ هذا العمل. وهكذا قامت هذه الجماعة الضئيلة من السكان، والتي لا يكاد عدد أفرادها يبلغ أربعين فرداً، بإعاقة خطة ذات مزايا محتملة هائلة يستفيد منها عشرات الآلاف من جيرانهم، ولم تكن حكومات حضرموت قادرة على إقناعهم أو إجبارهم على أن يكونوا أكثر تعقلاً وحكمة.

ولم نكد نحط رحالنا لنقيم مخيماً في أماكن ظليلة حول البركة إلا وبدأت المساومة على ثمن عبورنا. وكان هؤلاء القرويون يدركون ما نحتاجه دون أن نخبرهم بذلك. وكنا نحن أيضاً نعلم ما يريدون، ولم يكن الأمر أكثر من مجرد تعديل احتياجاتنا حسب طلباتهم. إن هذه المهام دائماً أتركها في المرحلة الأولى لرفاقي. ولذلك بعد أن اطمئن قلبي إلى أن الأواني اللازمة لطهي وجبة غدائنا وسط النهار يمكن أن توفرها القرية لنا؛ لأننا قد نسينا فعلاً إحضار غلاية الشاي، ولم نذق طعم الشاي أو القهوة منذ أن غادرنا تريم، اخترت أشد الأماكن ظلاً في المنطقة المجاورة

(١) يبدو أن المقصود هو ما يعرف بالسويكة أو الشمة، وليس التبغ، لأن التبغ معروف أنه يستخدم بشكل آخر. (المراجعون).

وهيأت نفسي لنوم القيلولة. وكان صياح القرويين الذين يساومون قد اندمج بصورة غير محسوسة في حلم، واستيقظت منه لأجد الطعام جاهزاً للأكل، وكان يتكون من الأرز والسمك المجفف، وهذا الأخير كان محمراً، ثم جوز الهند والشاي والقهوة.

وبعد ذلك كان لزاماً عليّ أن أهتم بأمر الصفقة. وكان رفاقي قد جهزوا أرضية ملائمة للنقاش، وليس أكثر من ذلك. وقد اعترض مضيفونا بقوة في البداية على ذهاب مرشدنا المعري معنا إلى (الشحر)، التي كان يريد زيارتها. واستطاعوا أن يطالبوا بسيارة «أي رسوم مرافقة» لتوصيله بأمان إلى السيارات، حيث يستطيع أن ينتظر عودتنا هناك. ولم نكن بحاجة إلى خدماته بصورة حيوية؛ ولذلك لم يكن من الصعب أن نعقد اتفاقاً عاماً بأنه يجب -بعد كل ذلك- أن يذهب معنا. والنقطة التالية كانت رسوم المرافقة. فقد وافق رفاقي من حيث المبدأ على دفع رسوم يومية قدرها نصف ريال لكل رجل يخدمنا. وطلب القرويون مضاعفة المبلغ، ولم يكن من الصعب الوصول إلى حل وسط، حيث اتفقنا على أن الرجلين اللذين سيرافقاننا إلى الشحر سوف يتقاضيان نصف ريال لكل منهما، أما الاثنان اللذان وقفا حراسة على السيارات فسوف يحصلان على ضعف ذلك. وقد قوبل هذا الاتفاق بالاستحسان والهتاف كتقدير حكيم. ولكن ماذا تفعل جماعة السيارات في مسألة إحضار الماء؟ وسوف يصبح من اللازم أن ندفع على الأقل نصف ريال كل يوم لشخص ما لإحضاره، وأيام إقامتنا المؤقتة على الساحل ليست معدودة؟ ولهذا اقترحت ،حيث إن الرعاة يستطيعون الحصول على الماء من أماكن منعزلة في زوايا الجبال وشقوقها المعروفة لهم، أن يتم دفع رسم قدره ريالان بغض النظر عن طول مدة غيابنا. وقد تم الاتفاق على ذلك. وهكذا كان كل شيء قد تم تسويته بصورة سعيدة بيننا وبينهم. ويبقى أمامهم أن يتفقوا فيما بينهم على من سيذهب للسيارات ومن سيأتي معنا، ومن

سيضطر للبقاء في بيته. وقد نتج عن هذه المشكلة الكثير من الإثارة أكثر من التسوية معنا. فقد كان كل واحد منهم يريد أن يربح من هذا الاتفاق بأقل قدر ممكن من الإزعاج لراحته الشخصية. ومن الواضح أن رئيس هذا الجمع الصغير هو عوض، الشاب ذو الشعر المجعد والملامح الحادة الماكرة، على الرغم من أنه كان وسيماً. وكان هو مع فرد آخر سيذهبان معنا لأنه إذا كانت المكافأة المتفق عليها قليلة فالترف الموجود في الشحر سيكون أفضل من ليالي الجوع المؤلمة في تلك الفيافي والقفار. وكان رجل مسنٌ جدًا قد بلغ من العمر عتياً -ومن الواضح أنه متمرس على الجوع بحكم خبرته الطويلة أكثر من الباقين- هو المرشح الواضح للإقامة المؤقتة لمدة طويلة بالصحراء. ولذلك كان الجدال يعلو وينزل، وفترات الصمت تتبعها فترات من الصياح والصراخ الحاد. وكلما تحدث رجل بدأ الجميع في الحديث، وواصل كل فرد الحديث عندما كان كل فرد آخر يتحدث. والصمت الذي يلي ثورات الشرثرة الكثيرة هذه كان صمتاً مطبقاً. واختراقه من أي فرد منهم كان إشارة لبابل حتى تبدأ الحرب مرة أخرى. وهكذا ظل الوضع على هذا الحال حتى العصر، عندما حان وقت استئناف رحلتنا.

واللغة التي تحدثوا بها كانت بالطبع اللغة العربية، ولكن نطقهم لها كان يعتريه تغييرات غريبة ومثيرة، حيث كانوا ينطقون على سبيل المثال كلمة «مي» عوضاً عن «ما» (أي الماء) و «قيرش» عوضاً عن «قرش» (أي ريال) و «قيربة» بدلاً من «القربة»، وهلم جرا. ويبدو أن الاختلافات كانت تتركز بصورة رئيسة في حروف العلة، ولكن بالرغم من كل شيء، كان هؤلاء الناس المعزولون في ذلك الوادي البعيد أيسر في فهم كلامهم من البدو الحقيقيين، الذين يكون حديثهم عني بالتفاصيل وتعبيراتهم أشد تلميحاً وغير مباشرة. ولم يبق أي شك في ذهني عن صلات القرابة الساميّة لهؤلاء الناس من آل معدي، وبنيتهم الجسمية الصغيرة كانت ناتجة بالتأكيد عن سكناهم في بيئة جبلية. إن عشيرة آل باحسن فخذ من قبيلة الحموم، وهي مجموعة من اتحاد المشقاص الجنوبيين الذي يضم جميع العناصر من غير آل كثيري جنوب

القسم الشرقي من وادي حضرموت. والمشقاص الشماليون يشملون كلاً من قبائل المناهيل و العوامر و تميم[١].

وفي حوالي الثالثة والنصف انطلقنا من مخيمنا بجوار البركة. وبعد أن عبرنا إلى الضفة اليسرى من الوادي مقابل بيوت القرية، سرنا على درب مستوٍ تقريباً يرتفع حوالي ٣٠٠ قدم فوق قاع الوادي. وكانت أشجار نخيل التمر وجوز الهند (كثب)، وتبدأ من حوالي ثلاثة أرباع الميل فوق البركة، قد امتدت باتجاه مجرى الوادي ما يزيد تقريباً على ميل. وفي أحد البساتين المنخفضة يوجد الضريح الواضح بجلاء، ذو القبة البيضاء، وهو لأحد الأولياء المحليين، «عبدالقادر الجيلاني» البغدادي. ويبدو أن أحداً لا يعرف كيف جاء هذا الولي المشهور إلى هنا. ولكن هاهو هنا، وقبره يحظى بالتبجيل والاحترام من السكان المحليين، ويقام له احتفال سنوي، اعتقد في شهر ربيع الأول، وهو عيد النيروز القديم بعد أن تم تحريكه من مكانه بالتقويم القمري للإسلام. وقد أخبرنا عوض وأحمد، وهما المرافقان لنا من آل معدي، بحادثة وقعت منذ عدة سنوات مضت عندما انتهز أعداؤهم فرصة الاحتفال وشنوا هجوماً عليهم. وعلى كل حال تم إيقاف المهاجمين بسهولة على مسافة بعيدة بنيران البنادق المنطلقة من سلسلة الجبال المقابلة[٢].

وعلى مقربة من أسفل ضريح الولي، وخلف جرف عال تلفه قلعة مهدمة الآن يتصل أخدود السيق العميق بوادي المعدي. وفي مجراه عكس التيار توجد أشجار نخيل التمر وجوز الهند مملوكة لعشيرة الحيمة التي تندمج مع اليماني والمصلي في

---

(١) ذكر الحجري أن المشقاص من قبائل حضرموت، وهم رجال حراوزه وآل زعبنات، وآل علي بن كثير، وآل كثير الغتمة والمناهيل. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٢، ص٧٠٨. وللتوسع انظر: البصراوي، مشرق اليمن السعيد، ص ص٥٣-٥٥. (المراجعون).

(٢) هنا تظهر للقارىء صورة أخرى من صور الانحرافات العقدية التي كانت سائدة في المنطقة في تلك الفترة وهي ظاهرة التعلق والتقرب من قبور من يظنون أنهم من الأولياء والصالحين. (المراجعون).

التلال والسهل الممتد إلى الجنوب والشرق ليشكلوا معاً جماعة الشميلي. وكلهم يعترفون بسيادة حكومة القعيطي عليهم، على الرغم أنه من الواضح أنهم لا يدفعون أي ضرائب، ويمارسون الامتيازات الأخرى للاستقلال الحقيقي.

لقد كنت أتوقع مشواراً طويلاً، ولكن لم نكد نمشي ثلاثة أرباع الساعة تقريباً، بعد الالتفاف حول جرف شاهق يشرف على التقاء السيق والمعدي، إلا وأطللنا فجأة على رأس طريق السيارات القادم من الشحر. وكان رسول قد ذهب قبل وصولنا إلى المعدي بخطابات إلى السلطان في الشحر، يطلب إرسال سيارة إلى رأس الطريق بأسرع فرصة ممكنة. وإلى البعيد نحو الشرق كنا نستطيع أن نرى خط الطريق المحدد بعلامات ظاهرة جلياً وهو يلتوي حتى سهل وادي عرف الذي يعد وادي غنم (عرشة) رافداً من روافده. بيد أن الشمس قد غربت وراءنا ولم يظهر أي أثر للسيارة المتوقعة، ولهذا خيّمنا عند رأس الطريق، على أمل أن تأتي في الغد. وفي الحقيقة وصلت السيارة بعد الغروب بحوالي ساعة، وكان كل فرد متلهف على بدء الرحلة إلى الشحر في الحال. ولكنني أشحت بوجهي بقوة عن مثل هذه الفكرة، فقد كنت أريد أن أرى هذه المنطقة، وعلى كل حال سيكون من المفرح أكثر أن نصل الساحل في وضح النهار. ولذلك بعد بعض الجدال والنقاش، استقر رأينا على أن نبيت الليل هنا.

كانت مؤونتنا ضئيلة، ولكن عوضاً قدم لنا بعض التمور الرديئة وجوز الهند الممتازة والتي جعلتنا نقتصد في السمك المجفف. وقد جهزت فراشي بعيداً عن الآخرين قليلاً، وفي الظلام لم يكن هناك ما أصنعه إلا أن أحاول النوم، بيد أن صياح قوم المعدي ،بعد أن انضم إليهم في المساء آخرون من نوعهم كانوا عائدين من الشحر واثنان من مزارعي «المشايخ» العائدين بمخزون من الإمدادات إلى بيوتهم في ريدة، جعلوا النوم مستحيلاً حتى ساعة متأخرة. وكان الجو بالتأكيد غير بارد، على الرغم أنه لم يكن حاراً بكل المقاييس، ولكم كنت سعيداً بما معي من بطاطين. وقد قام

عوض ورفاقه ببساطة بفك حزام كتاني زائد من إزارهم وقاموا بلفه حول أكتافهم طلباً للدفء.

وعند الفجر فتحت عيناي فوجدت صفاً من الأشكال البشرية، وهم يجلسون على امتداد الأفق، صامتون وبائسون. ولما دفّأت الشمس أجسامهم المرتعشة من البرد بدؤوا في الثرثرة. ونظراً لعدم وجود شاي فقد كنت استهلك جوز الهند، بينما كنت أشاهد المنظر المترامي الأطراف أمامي حتى البحر غير المرئي. وكانت السماء تسبح فيها غيوم قليلة، وانتشر الضباب بثبات فوق السهل، وشكّل مدينة ضب ضب التي لا تظهر إلا قليلاً في ظلمة الضباب، مع حصنها البرتغالي، على مسافة بعيدة إلى اليسار من الشحر. وكانت المرتفعات تمتد خلفنا ونتوءات جرفها الهائل تبرز للخارج -واحدة تلو الأخرى- نحو الشرق. وكان زوج من طيور السوادية يلهو بنفسه على شجرة البشام قريباً منّا. والأرض الصخرية كانت مفروشة بشجيرات الدمعة التي ينز منها سائل أسود.

وبعد السادسة فوراً تجمعنا نحن وأمتعتنا في الشاحنة وانطلقنا نازلين من التل. وأفضى بنا درب متعرج منحدر إلى النقطة التي يتقدم عنها وادي المعدي عبر سلسلة الجبال في ممر ضيق رائع. وقد تسلقنا مضيقاً منخفضاً في المرتفعات ونزلنا منه في وادي الصوير الموازي له ليشكل سهلاً واسعاً. وبعد حوالي أحد عشر ميلاً وصلنا إلى طريق الشحر- المكلا الرئيس حيث تمتد بساتين نخيل السلطان في الحبس وقرية الحوا إلى البعيد قليلاً عن يميننا. وكنا الآن نسير على طول سفح سلسلة طويلة من الجبال تتناثر فيها مسلات مثل أبراج الساعات، كنا نلتف حول ثنيتها الجنوبية حتى أصبحنا في مواجهة قرية تبالة التي تقبع على سلسلة جبال وسط بساتين النخيل. وهذا المكان مشهور بعيونه الحارة التي يلجأ إليها كثير من السكان المحليين طلباً للعلاج. وكان هناك حصن رائع على جرف عال يطل على القرية والطريق، وقصر السلطان الصيفي

الأبيض الذي يبهر الأبصار هما من المعالم الواضحة في تلك المنطقة. وإلى البعيد نحو الشرق وقرب الساحل توجد مجموعتان مماثلتان من العيون الحارة في الديس والحامي.

ويستمر الطريق على طول الجانب الشرقي من سلسلة الجبال التي ذكرناها من قبل مع امتداد نتوءات من سلسلة تبالة على يسارنا. وبعد أميال قليلة ألقينا أول نظرة لنا على البحر، وكان لونه رمادياً، كئيبًا حزينًا، يتحرك ببطء. وفي الوقت نفسه -تقريباً- لمحنا منظر أسوار الشحر، وبوابتها البيضاء اللامعة تتجه للشمال. وعلى طول الطريق كان هناك خط أنابيب يحمل الماء العذب من عيون تبالة الحارة إلى المدينة. وهكذا بعد مسيرة عشرين ميلاً بالضبط من رأس الطريق، دخلنا الشحر من أوسع أبوابها. ولأول مرة في سجلات التاريخ تم عبور شبه الجزيرة العربية من الشمال إلى الجنوب.

فالرحلة التي بدأت من ساحل البحر الأبيض المتوسط، وفي الواقع كانت بدايتها الحقيقية من لندن، قد انتهت بلا حوادث على شواطئ المحيط الهندي. وباستثناء عقبة المعدي، كانت الرحلة كلها بالسيارة.

الفصل الثامن

حتى رتب تسكانيا

يستطيع أفراد عسكر تسكانيا[1] التحلي بالصبر بصعوبة لإبهاج الآخرين، ولكن صفوف وطوابير طبقة الموظفين البريطانية مليئة بالموظفين الأشد قسوة وعبوساً. إن الشهامة وهي التراث اللطيف القادم من «الجنوب الحار»، تُدرَّس حقيقة في مدارسنا ومعسكرات الكشافة لدينا، ولكنها سرعان ما تُنسى وسط قلاقل المسؤوليات الإمبراطورية. كما أن روح الدعابة والنكتة سلاح رقيق وخطير يجدر بنا أن نتركه يصدأ في غمده. فالموظف المشغول ليس لديه وقت لهذه أو تلك (أي الشهامة أو التندر). فهؤلاء الذين ليسوا معهم أو منهم يُعدون ضدهم، مجرد كائنات يجب التعامل معها بلطف وكياسة مع إظهار التفوق إن كانوا مطيعين، أو التعامل معها بقسوة وخشونة إن كانوا شديدي الاستقلال والاعتماد على النفس. وكما يقول المثل اللاتيني: «أطلق سراح الرعايا واسحق المتغطرسين». ولكن هؤلاء الموظفين يصطدمون أحياناً بعقبات خفية.

إن عدن -طبعاً- مركز خارجي هام للإمبراطورية، وهي المرساة الكبرى للأسطول البريطاني، وحلقة الوصل الحيوية في سلسلة المواصلات الإمبراطورية. فلا عجب إذن أن يعد هؤلاء الموظفون أنفسهم ذوي خطر شديد، هؤلاء البشر الذين يجلسون هناك، بل ربما ينظر هؤلاء الموظفون لأنفسهم على أنهم ذوو مكانة وخطر كبير أكثر مما يلزم بقليل. وهناك يجلس -هؤلاء المسؤولون في مستعمرة عدن- كل مئات السنين هذه على صخرتهم الحارقة عند «البوابات الجنوبية للجزيرة العربية» ولا يرغبون أبداً -أو نادراً جداً ما يرغبون- في النظر ولو خلسة وراء تلك المداخل الغامضة لقصورهم. لقد ظلت عدن تحت الاحتلال البريطاني لثمانين سنة دون أن تقع

---

(١) تسكانيا: إقليم خصب وسط إيطاليا، يعد مركزاً حضارياً قديماً، اشتهر بالتجارة والصناعة والفنون. (المراجعون).

عين موظف على وادي حضرموت. إن وايمان بيـري، الذي يعلم كثيراً عن السلطنات المحمـية أفـضل من أي موظف في إدارة عـدن قبل أو منذ هذا التاريـخ، قد طاردته الكلاب حـتى خرج من المستـعمـرة، مع أنه قنع من الغنيـمة بالإياب إليهـا في زمن الحرب تحت جناح الأسطـول البريطاني. ولـم يبدأ الموظـفون إلا مؤخـراً جداً، وتحت حماية أجنحة القوات الجوية الملكية في إدراك أنهم يستطيعون -بقدر معقول من الراحة والأمان- أن يروا أجزاء ضخـمة من العالم أكثر مما يمكن رؤيته من الـشرفات العادية في مقـار سكناهم. ولـم يقم إلا قليل منهم، بل قلـيل جداً، مثل ريكـاردس وانغرام بتنفيذ أعمال استكشاف ذات قيمة حقيقية بالمعنى الصحيح. فقد أوضحا على الأقل -مع لي- وارنر ولِتل، في أوائل فترة ما بعد الحـرب، أنهما لم يتركا إلا القليل الذي يمكن استكشافـه بعد ذلك في هذا الجزء من الجزيرة العـربية، وكأن ذلك لـم يزد إدارة عدن إلا قدراً هائلاً من غير المبالاة بشكل مثير للدهشة والاستغراب ولا يمكن تبريره. وكثـيراً من الذي يمكن أن يكونوا قـد فعلوه في خـدمة العلم قـد تمّ تنفيـذه بمشاريع أهلية، ولكـنها كانت أجنبـية بصـورة رئيسة إلا مـا قام به بنتس. إن أفـضل خريطة نشرت لمنطقة حـضرموت هي تلك التي أعدها فون ويسمـان وفان دير مولين. ونَدين بمعارفنا الجغرافية عن «المحميات» الغربية لويمان بيري. والشخص الوحيد الذي سبقني على طريق السيارات بين تريم والشـحر كان بوسكوين، أما الوحيـد الذي سبقني إلى شبوة فكان الشاب الألماني هلفريتز.

إن لدى عدن في الحقيقة الكثير من أخطاء الإهمال والإغفال التي يمكن حسابها بميزان العلم. ولذلك فلا عـجب أن يميل موظفوها إلى عدم تشجيع اخـتراق منطقتهم الداخلية من قبل أفـراد من الأهالي يبحثون عن المغامرة أو المعلومـات الدقيقة التي لا يمكن الحصول عليها في عدن نفسها. ولا عجب أيضاً في أنهم قد استاؤوا من أعمال المغامرة الطائشـة مثل تلك التي قام بها هلفـريتز والمغامرات الأكثـر هدوءاً التي نفذها بوسكوين. ولا عجب كـذلك في أنهم قد عضوا أنامـلهم من الغيظ مني، ولكن في

حالتي كانوا أكثر حكمة وتعقلاً وحافظوا على هدوئهم وأخفوا غمهم وكدرهم. ولو لم يفعلوا ذلك لكان هذا الفصل لم يكتب أبداً. إنني لم أرتكب شيئاً مهماً كان يمكن أن يجلب الخزي. بل على العكس فلقد فعلت ما لم يفعله أي رجل قبلي في جميع العصور. ولقد فعلت ذلك ليس بطريقة بهلوانية مثيرة، ولكني وضعت خططي بأقصى قدر من العناية حسبما يمكن في مثل هذه الظروف، ولقد جمعت معلومات ومواد لرسم خريطة لعدة عشرات الآلاف من الأميال المربعة، ربما تصل إلى ٢٠٠ر٠٠٠ ميل مربع. والتي تمثل إضافة حقيقية للمعرفة البشرية عن العالم الذي نعيش فيه. لقد صنعت شيئاً أفخر به، ولقد كنت فخوراً بما صنعت. ولكني لم أستغل تسهيلات التلغراف في المكلا، عند وصولي هناك، لبث إنجازي إلى العالم. لقد كنت أستطيع أن أسترد جزءاً عظيماً من نفقات رحلتي إن أنا فعلت ذلك، ولكني كنت أدرك أن هناك قدراً هائلاً من العمل الشاق والمضني الذي يجب تنفيذه قبل أن أتمكن من بث مادتي في قالب مناسب يمكن أن يحكم عليه الخبراء. ولذلك آثرت أن أقدم إنتاجي ليحكم عليه الخبراء في الوقت المناسب بدلاً من أن أسعى إلى تصفيق الغوغاء.

إن احتياجاتي الفعلية كانت ذات ثلاثة أجزاء هي: قطع غيار للسيارة المعطلة، والمزيد من أفلام التصوير، وأخيراً المال. وبالنسبة لهذا الأخير، نصحوني أنني أستطيع الحصول عليه محلياً مقابل حوالة على شركتي في جدة من الوكيل بالمكلا لشركة ألكسندر بيس الشهيرة في عدن. وكانت الطلبات الأخرى لا يمكن شراؤها في المكلا، ولقد ترددت للحظة ما بين بدائل الاتصال تلغرافياً بوكيل فورد في عدن أو إرسال برقية بالتلغراف أيضاً إلى «المندوب السامي». وقد دفعتني اعتبارات المجاملة إلى سلوك المسلك الأخير. وكنت أعلم أن السير بيرنارد ريلي، الذي لم يكن غريباً عني، كان غائباً في إجازة، ولكن لم يكن عندي أي سبب يجعلني أعتقد أن نائبه الكولنيل ليك لن يكون إلا ودوداً. ولذلك أبرقت إلى «دار المندوب السامي» بالعبارات التالية: «تحية

طيبة. وصلت المكلا أمس. بحاجة ماسة أولاً: إلى محوّل خلفي وترس تعشيق رقم بي ٤٢٣٥، وثانياً: لبّاد رقم بي ٤٥١٦، وكلاهما لسيارة فورد فيتون موديل ١٩٣٤م. ثالثاً: اثني عشر فيلم كوداك لكاميرا نوع «لايكا Leica». أقدم لكم تقديري لكريم المساعدة في شراء ما ورد أعلاه وشحنه على أول باخرة.».

ورداً على هذه البرقية[1] طلب نائب المقيم (الكولونيل ليك) - في الوقت نفسه الذي وعد فيه بكرم شديد أن يشتري ويشحن احتياجاتي بأسرع فرصة ممكنة، معلومات تتعلق بالخطط المقبلة لي و «لجماعتي السعودية» في منطقة «المحمية». وذكّرني بأن شبوة تشكل جزءاً من «محمية عدن» مع اعترافه بأنها ليست خاضعة لإدارة «الحكومة البريطانية» التي «تحكم» فقط (هكذا قال دون أي تعديل) مصالحها، أياً كان معنى ذلك. واقترح أن يقوم الرحالة الذين يعتزمون السفر إلى أماكن تقع في المناطق الداخلية -حسب نصيحته الطيبة- بالحصول على تصريح مسبق من دار المندوب السامي لعدن. وأكد لي أن هذه النقطة تصبح أكثر إلزاماً ووجوباً عندما ترافق الرحالة «جماعة من حكومة أجنبية». وقد تلقى تقارير تقول: إن منطقة مرخة كانت مدرجة في برنامج رحلة عودتي، ولهذا طلب معلومات توضح ما إذا كانت هذه التقارير صحيحة أو لا حتى يمكنه أن ينبه سلطان العوالق الذي تقع مرخة في نطاق قبيلته، وأضاف بصورة بارزة قائلاً: «إذاً كانت زيارتك يمكن اعتبارها صالحة من الناحية السياسية».

إنني بالتأكيد لم أتوقع أن تنهال باقات الورود عليَّ اعترافاً بالعمل البطولي الفذ غير المسبوق الذي حققته. ومع ذلك أصابني الإحباط وخيبة الأمل قليلاً من هذا التجاوب مع إنجازي. فبالإضافة إلى البيانات غير الدقيقة بوضوح والمتعلقة بحقائق الموقف، والتي سوف أتناولها في الوقت المناسب، كان هناك لهجة تهديد خفية وبغيضة في هذه البرقية جعلتني أستاء منها. وعلى كل حال كنت أعلم حساسية

(١) قد أفادوني أن أسباب حقوق النشر تمنع نشر النص الحقيقي لبرقية الكولونيل ليك. وعلى كل حال فإنني واثق من أن كلماتي التي استخدمتها هنا للتعبير عن جوهرها لم تظلم الكولونيل ليك (المؤلف).

موقفي. لقد كنت -في واقع الحال- ضيفاً في إقليم معـاد. وكان المضيفون الحقيقيون لي -وهم ممثلو «الحكومـة العـربية» في المكلا- في منتـهى الجـمال والكرم بما يفـوق قدرتي على الوصف. ولن أنسى أبداً كرم ضيافتهم ولطفهم مع غريب داخل بيوتهم، ولن أقدر أبـداً على مكافأتهم والوفـاء بدينهم. ولكنهم لم يكونوا سـادة بالكامل في بيوتهم هم أنفسهم، وكان تاريخ هذه البوابات الجنوبية للجزيرة العربية مليء عن آخره بعلاقات المتسلطين ببقايا الحرب أو الأسطول البريطاني. إن البعبع المحلي منهم يسمى «منور»، أي رجل الحرب. والآن قـد أصبح للبـعبع القديم ريش وجـناحان، وباتت المكلا على مرمى حجـر في خط مستقيم من عدن. إنني بالتـأكيد لم أكن أرغب في ترحيلـي، نظراً لأنه ما زال أمامي الكـثير الذي يجب تـنفيذه وذو أهمـية ومـصلحة جوهرية، ولكن كـان من الواضح أن الكولونيل ليك يرى مراعـاة قواعد التشـريفات الرسمية أشد أهمية من تقدم المعرفة. وكان الطريق الواضح الذي يجب أن أسلكه هو أن أساير تيـار الرأي والظروف، وأن أرد على هذا الغضب الشـديد بإجابات رقيـقة. وهكذا جلست لأكتب الرد التالي:

«أشـعر بالامـتنان العظيم لـعرضكم الكريم لإرسـال احـتيـاجـاتي. إن زيارتي لحضرموت نفسـها تأتي نتيجة لأسباب قهريـة لإعادة التزود بالمؤن وشراء الوقود وخلافه، وزيارتي للسـاحل نتيجة تعطل عمود السـيارة والذي لا يمكن إصلاحه محليـاً. وهذه أول فرصـة للاتصال مـعكم والتي استـفدت منها تمامـاً هنا نظراً لتعطل الاتصالات فيما بقي من منطقة «المحمية». وبصرف النظر عن حضرموت فإن الرحلة كلهـا تقع في إقليم غير مكتشف وبغـير حدود ووضعـه السياسي لا يمكن أن أناقشه فلست مؤهلاً لذلك. إنني أستنكر مثل هذه المناقشة بكل احترام. إن جماعتي ليس لها صفة رسمية أياً كانت، مع أنها كانت قد تم تنظيمها بصورة حتمية في نجران. كما أنها تنتظر عودتي إلى شبوة لاستئناف الرحلة التي توقفت على نحو مشؤوم. إنني أخطط بصورة غامضة للاتجاه نحو بيحان ثم أشق طريقي

شمالاً خلال الحزام الرملـي حتى نجران. إنني لا أنوي زيارة إقليم العوالق ولكن أشكرك شكراً كثيراً على عرضك لمساعدتي في ذلك الاتجاه».

هذه البرقية كـانت قد أرسلت في أول سبتمبر، وانقضى أسـبوع كامل قبل أن أتلقى رداً عليها[(١)]. وفي الوقت نفسه كان من الواضح أن الأمر قد تمت إحالته بالبرق إلى الحكومة البريطـانية، وأن حكومة صاحب الجلالة قـد وجهت الكولونيل ليك بأن «يطلب» مني سحب «جمـاعتي المسلحة السعودية» من «المحمـية» بأسرع وقت ممكن. وكان لديهم أيضـاً رأي يرى أن السلطات البريطانيـة كان يجب «إخبـارها» بما عزمت عليه قـبل تنفيذ الزيارة. وقـد اعترف الكولونـيل ليك بأن زيارتي لحضرمـوت كانت نتيجة ظروف خارج نطاق سيطرتي، ولكن هذه الحـجة لا يمكن تقديمها لتبرير زيارتي لشبوة مع «جمـاعتي المسلحة». إن شبوة، كما أكد لي الكـولونيل ليك «تقع بالتأكيد ضمن محمية عدن» (هكذا). وأضاف أن قبيلة الكرب في إقليم شبوة وشيخها الرئيس المقيم في القرية كانا «بصورة رمزية تابعين «لسلطان العوالق» (هكذا). وزاد بأن طلب مني الرجوع إلى كتاب «دليل الجزيرة العربية»، وهو كتاب عتيق ميؤوس منه من إنتاج جهلنا زمن الحرب!!، لمعـرفة الوصف الدقيق لحدود عدن الشماليـة من الضالع باتجاه الشمال الشرقي. ولقد اعتـرف -على كل حال- أن هذا الخط الشمالي - الشرقي لم يكن مرسوماً في الحدود وأن «قدراً كبيـراً منه» غير مكتشف كما زعمت أنا من قبل. ومع ذلك أصرّ على أن الوضع السـياسي للمنطقة الواقعة تحت هـذا الخط ليس مسألة معروضة للنقاش»، وأنها تخضع «بحكم الواقع» (هكذا) للحماية البريطانية. واستناداً لذلك وجد نفـسه مضطراً لأن «يطلـب» مني مع «جماعـتي السعودية المسلحـة» عدم الدخول فـي إقليم بيحـان حيث إن شـريف بيحـان كان أحد الرؤسـاء الأطراف في معـاهدة عـدن ما لم يكن «السـير عـبر جـزء من إقليم بالحارث ضـرورياً لأسـباب

---

(١) انظر الهامش السابق. (المؤلف).

طبوغـرافية». وعلى أي حال فـقد سلَّم بأنه إذا كنت أرغب في زيارة بيحـان بمفردي «ولا يرافقني السـعوديون المسلحـون» فإنني أستطيع عـمل ذلك إذ كنت كريماً بما فـيه الكفاية لإفادته بمثل هذه الرغبة قبل مـغادرة المكلا. وفي الختام أعطاني الأخبار السارة بأن قطع الغيار التي طلبتها سوف تغادر عدن في الغد.

وبقدر ما كان الأمـر يهمني فقد كانت هذه الرسالة مرضـية لي تماماً. ولقد أثبت حقي في السفر بالجزيرة العربية بدون موافقة المندوب السامي في عدن. وعلى الأقل فإن أي محاولـة لتحدي هذا الحق قد تحـاشيتهـا بعد الرجوع إلى الحكومة البـريطانية. وفي غضون أيام قليلة سأكون قادراً على مغادرة المكلا عند وصول قطع الغيار. وبرزت إحدى المصاعب الصـغيرة فـقط من التصرف غـير الودود لسلطات عدن، حـيث رفض الوكيل المحلي لشركـة الاسكندر بيس صرف حوالتي. ولم يكن مـعي إلاّ ٢٠ جنيهاً استـرلينياً فقط تحت تصرفي، مع احتـمال قضاء حوالي شهر في الرحلة المـقبلة، وقبل أن أستطيع استكمـال النقص في رصيدي في نجـران. ومن حسن الحظ أنه كـان هناك ما يكفي من الوقت لإرسال برقية تلـغراف إلى جدة، حيث قام وكيلي هناك على الفـور كما توقعت بإرسال الأمـوال التي طلبتـها بالتلغـراف إلى شركة «كـوسجي» بعـدن. وهكذا جاءت السفينة التي كانت تحـمل قطع الغيار والأفلام بنقودي أيضاً. وخلال سـاعة من وصولها كنت قد غادرت المكلا، لكي أفك عـمود السيارة طراز «بارثيان» بعدن وكـتبت تلغرافاً للمندوب السامي عند خروجي قلت فـيه:- «شكراً جزيلاً على قطع الغيار التي تلقـيتها كما ينبغي. سوف أغادر المكلا اليوم للتقدم في .G.H.Q وللإشراف على إخلاء المنطقة المحتلة[1]. ليس عندي رغبة في زيارة بيحان. شكراً».

---

(١) يُظهر فيلبي سخـريته هنا من مقولة نائب المندوب السامي في عدن «السيـد ليك» الذي وصف المرافقين لفيلبي «بجمـاعتـه المسلحة». حـيث يذكر فـيلبي بأنه ذاهب إلى G.H.Q (general head quarters). أي مركز القيـادة العامة، يعني بذلك مرافقـيه الذين تركهم في شبوة وهم بضعـة أشخاص. وهذا من باب التندر على مقولة ليك غير الواقعية. (المراجعون).

كانت هذه نهاية مراسلاتي مع الكولونيل ليك، وهي المغامرة الوحيدة في رحلة طويلة على غير العادة. ولكن الكولونيل ليك كان يخبئ خطة ليستخدمها عند الحاجة، وقد بدأ الآن يلعب بها. ففي العدد القادم (عدد أكتوبر) من جريدة «عدن جازيت» التي تتمتع بانتشار محدود بين السكان الأميين بالكامل تقريباً لتسجل المبادرة المنتظمة حسب الأوامر لنجوم عدن ونعاسهم والقلاقل العرضية التي تسببها المذنبات غير المتوقعة، ظهر التنبيه التالي والذي اكتسب شهرة وشيوعاً من خلال إعادة تكراره في جريدة صنعاء التي تسمى «الإيمان»:

تنويه

المسافرون في المحمية بلا تصريح

«الرقم ٧٧: لقد دخل أحد الرعايا البريطانيين ويدعى السيد هـ. سانت. جي. بي. فيلبي مؤخراً أقاليم حضرموت، وهو متخف في ثياب عربية ومصحوب بقوات سعودية. وعلى الرغم من أنه قيل بصورة عامة في المحمية إن رحلته لحضرموت كانت قد نُفـذّت بموجب تصريح من حكومة صاحب الجلالة، إلا أننا نعلن للعموم تبعاً لذلك أنه لم يصدر أي تصريح مهما كان للسيد فيلبي لإجراء أسفاره في «المحمية» وأن حكومة صاحب الجلالة لم تعتمد بأي طريقة كانت أيّاً من التصريحات التي أدلى بها هناك طبقاً لما ورد في التقارير التي رفعها الزعماء».

إنه لمن المؤسف أن عدن ليست مجهّزة بعد بمحطة إذاعة، لأنه سيكون من المضحك -على الأقل- والتوغل في الخيال أن يخبر جهاز المذياع الذي أحمله معي المستمعين الذين يجلسون معي بالليل بحقيقة أنهم كانوا يؤوون ويضيفون خارجاً على القانون. وكان هناك عضو آخر في جماعتي الصغيرة، هو حمد القردعي، مشهور بأنه هارب من غضب ملك اليمن عليه، وأن هناك جائزة لمن يأتي برأسه. لقد كان

آمناً تماماً في مثل تلك البيوت في هذه الأرض القصية التي لا تعترف بملك ولا بحكومة. ولذلك أنصتنا للسجل الرسمي لعمليات المقاومة التي ينفذها ثوار فلسطين، والذي كان يذاع من القدس، وتعاطف المستمعون الذين كانوا معي بلا ريب مع ثوار فلسطين. إن هلفريتز كان، كلما صادفنا فرداً رث الملابس بصفة خاصة وذا هيئة وحشية، أعطانا انطباعاً بأنه كان مجرماً خارجاً على القانون. وفي تجربتي كلها كان طريد العدالة الوحيد حمد القردعي، ومع ذلك فقد كان أكثر أعضاء جماعتي تأنقاً وذا مظهر بريء إلى حد كبير. ولم أدرك إلا بعد بضعة شهور تالية، عندما أصبحت آمناً بين حنايا قلب الأمن السعودي، أنني أنا، على الرغم من هندامي الجميل ومظهري المعتدل، كنت رفيقاً له منذ زمن طويل في الأسى والحزن.

لقد ذكرت المراسلات التي جرت بين الكولونيل ليك وبيني كما وقعت، وأترك للقراء حرية الحكم على وقائعها الموضوعية. وتوجد بها -على كل حال- بعض النقاط التي تحتاج إلى تمحيص واختبار، أولها أنه يجب ملاحظة أنها وقعت في وضح النهار بالكامل وعلى الملأ الموجود بالمنطقة المحلية. إن تبادل رسائل التلغراف كان يتم -طبعاً- بلغة واضحة. وكان الموظفون وكثير من الناس في المكلا يعلمون فحوى رسائل عدن فور أن أتلقاها أو حتى قبل أن تصلني. لقد كانوا بالتأكيد في حيرة وارتباك من هذا الموقف غير العادي إلى حد كبير، ولكني أجد لزامًا عليَّ أن أعترف بأن كرم ضيافتهم لم يهتز أبداً في الظروف التي قد تبرر نوعاً من البرود والجفاء.

لقد احتج الكولونيل ليك ،واحتجاجه هذا أيدته وزارة المستعمرات، بأنه كان من الواجب عليَّ الحصول على تصريح من المندوب السامي في عدن قبل زيارة الأماكن التي زرتها ضمن رحلتي. وإجابتي على هذا الادعاء بسيطة ومختصرة تماماً. فأنا إذا كنت طلبت هذا التصريح لكان طلبي قد رُفض بالتأكيد، وحتى إذا صدر التصريح لكان غير ذي أدنى منفعة لي. ولنأخذ هذه النقطة الثانية أولاً. إن الشخص الوحيد الذي نجح في زيارة شبوة قبلي، وهو هانز هلفريتز، قد فعل ذلك دون مثل هذا التصريح، وعلى

الرغم من وجود قدر معين -في الحقيقة- من المعارضة الفعلية. ومن ناحية أخرى فقد نال العديد من الأشخاص الآخرين هذا التصريح مع مباركة عدن لمحاولتهم اقتحام شبوة البكر، ولكنهم باؤوا جميعاً بالفشل، مثل ريكاردس وبوسكوين وفريا ستارك -على الرغم من أن المرض في حالتها هو الذي منعها من بدء الرحلة- ونورمان بيرن وأول بعثة جوية من عدن. وإنه من المناسب أن أذكر على الأقل حقيقة أن أول محاولتين ناجحتين لاستكشاف شبوة قد نُفِّذتا بدون تصريح أو دعم من عدن. لقد كنت، أنا وهلفريتز، أول رائدين يقومان بهذه المغامرة، وعلى خطانا سارت البعثة الجوية الثانية من عدن التي نالت قدراً عظيماً من الشهرة والدعاية حيث زارت شبوة. على الرغم من لومنا لوصولنا هناك أولاً. كما أن تحقيق غايتنا المنشودة دون تصريح من عدن يكفي، في رأيي، لتبرر إغفالنا السعي للحصول على مثل تلك التصاريح.

وأكرر: إنه لو كنت قد سعيت لها لكان طلبي قد رُفض. كيف أستطيع أن أقول ذلك دون أن أجرب؟ لقد جربت مرة واحدة، ولكن ذاكرة الكولونيل ليك ربما ليست طويلة جداً مثل ذاكرتي. ففي إحدى المرات طلبت فعلاً تصريحاً لزيارة حضرموت، ولكنه رُفض. وفي تلك المناسبة سجلت لديهم قَسَماً بأنني، في يوم ما، سوف أزور هذا البلد الممتع، ولكن بدون تصريح. كان هذا منذ أكثر من اثني عشر عاماً مضت. إن مذكرتي لشهر يناير ١٩٢٥م تحتوي على المقتطفات التالية والتي كتبتها بمناسبة زيارتي لعدن:

السابع من يناير: في هذا الصباح زرت «باريت»، وهو المساعد الأول للمندوب المقيم، وتجاذبنا أطراف الحديث بصورة عامة. وفي رده على استفساراتي المحددة عن تصرف الحكومة تجاه مواصلة مغامرتي من المكلا قال: إن الجنرال تي. إي. سكوت سوف يقابلني بنفسه غداً الساعة الحادية عشر صباحاً ويشرح لي كل ما يتعلق بذلك. وهذا الموقف لا يشجع بالضبط، ولكني ما زلت أشعر بشدة أنني متوعك الصحة -من الآثار الناجمة عن الإصابة الشديدة بالإسهال- لدرجة أنني كنت آمل تقريباً أن

تكون الإجابة بالرفض القاطع، حتى أستطيع العودة دون مزيد من التعب وبضمير مريح.

«الثامن من يناير: يوجد -بعد كل ما قيل وفُعل- شيء مرضٍ قرب النهاية. فلقد قابلت روزيتا فوربس المندوب السامي هذا الصباح، وسلمها خطاباً صريحاً يبين أنه لا يستطيع أن يسمح لها بدخول الجزيرة العربية عبر أي من الموانئ تحت اختصاصه. وبعد أن علمت ذلك، ذهبت لمقابلته عند الساعة الحادية عشر صباحاً، وتسلمت خطاباً مماثلاً في الصراحة يقول: إن الحكومة لا يمكنها أن تسمح لي بدخول جنوب الجزيرة العربية وتحذرني من أن العقوبة العادية المترتبة على عدم طاعتي لهذا الأمر ستكون الفصل من الخدمة، وقد كان ذلك تكراراً كثيراً للكلام نفسه الذي سمعته قبل ذلك في جدة. وقد كان الجنرال سكوت رائعاً بصورة استثنائية وهو يوضح ذلك وقد أنصت لقصتي بالكامل حتى النهاية. وقد قلت له: إن السبب وراء قدومي لعدن كان استكشاف حضرموت وأي مكان يقع فيما وراءها. وأنا الآن عندي إجابتي -واضحة ومحددة- وهي أنني سأعود أدراجي في أسرع فرصة ممكنة. وقد شكرني على الطريقة الواضحة التي شرحت بها قصتي، فقد كان يعلم عني الشيء الكثير من قبل، وتأسف من أن خططي قد أخفقت، وكان يعتمد كثيراً على تفهمي للموقف. وقد أكدت له أنه ليس عندي أي نية في عمل أي شيء من وراء ظهره، وقال: إنه يدرك تماماً أن كلينا يتحدث اللغة نفسها ونفهم بعضنا بعضاً. وأكد لي أنه ليس لديه أي عداء ضدي».

هذه السطور في مذكراتي منذ اثني عشر عاماً مضت تسجل أسوأ حالة فشل في حياتي وأشدها مرارة. ولكن بالنسبة للجنرال سكوت سنكون أنا وروزيتا فوربس أول من عبر الربع الخالي. وفي السنوات التي تخللت هذه المدة كانت قد سعت إلى الشهرة والمجد وحققتهما في مجالات أخرى. أما أنا فبقيت مخلصاً للجزيرة العربية، ولا يسعني إلا أن أعتقد أن الجنرال سكوت والكولونيل باريت إلى جواره مثلما كان

يحدث بالماضي في ردهات «فالهالا» كان سوف يترنح من الضحك عند رؤية الثائر الذي يعرفه وهو يمشي بهدوء عائداً إلى داخل عرين الأسد ، ثم يخرج مرة أخرى بخصلة أو خصلتين من عُرْف شعر الأسد الغاضب.

وحيث إنني أعلم أن عدن لن تمنحني تصريحاً إذا طلبته وأن تصريحها لم يكن ضرورياً ولا مفيداً لي فلا يمكنني أن أقول إنني نادم على أني ذهبت إلى هناك بدونه. إن مكتشفي الأراضي المجهولة كثيراً ما يجدون أنفسهم في موقف يضطرهم إلى الدوران حول العوائق الرسمية التي توضع في طريقهم. ولا يمكن تنفيذ أي استكشاف إذا عوملت مثل تلك العقبات باحترام لا تستحقه. إن الصيد عمل غير جدير بالاهتمام في بلد منبسط ليس به حفر أو أسوار نباتية كما أن توماس لم يكن ليحقق أبداً أول عبور للربع الخالي إذا كان قد طلب تصريحاً من الحكومة السعودية، ولكن لم يعتقد أحد أنه سوف يفعل عملاً سيئاً ويمضي في إتمام عبوره بدون تلك الإجراءات الرسمية. والاحتجاجات الرسمية يمكن أن تنشأ بين الحكومات في أعقاب هذه الأعمال. وقد احتج الملك السعودي ضد مخالفة توماس للقواعد والأصول. كما احتجت الحكومتان البريطانية واليمنية ضدي أيضاً لنفس المخالفة. وفي مثل تلك الحالات جميعها تستطيع الحكومة التي تتلقى هذا الاحتجاج أن تنفي مسؤوليتها عن الأعمال التي ينفذها الأفراد. وهكذا في كلتا الحالتين السابقتين فَعَلا الشيء نفسه تماماً.

إن سلطات عدن قد بذلت مجهوداً شجاعاً لتمثيل رحلتي على أنها مغامرة عسكرية تدعمها القوات السعودية. وربما كانوا ساذجين قليلاً حتى إنهم صدقوا بسرعة التقارير المبالغة التي وصلتهم عن معداتي المخيفة والعربات المدرعة والرشاشات والمدافع مع جيش جرار من القوات السعودية. ولا يبدو أنهم كانوا يدركون أنه من الأمور العادية بالجزيرة العربية أن تحمل أسلحة عادية أثناء السفر والترحال. وأنا شخصياً لا أحمل شيئاً مرعباً أكثر من بندقية صيد في خدمة العلم، ولكن لن يعد أي عربي نفسه مرتدياً هنداماً لائقاً بدون نوع ما من الأسلحة الخطيرة. وهكذا كان جميع المرافقين لي مسلحين. إن كل عربي تقريباً يعد جندياً منذ بلوغه سن الحُلُم فما فوق،

ولكن باستثناء حالة الطوارئ التي لا مفر منها عندما يمكن استدعاء الجنود للخدمة في تلك الحالة، لم يكن فرد واحد من أفراد جماعتي عضواً في القوات المسلحة بالمملكة العربية السعودية. ولم يستلم أي رجل منهم راتباً عن خدمته لي من أي شخص سواي. إن الحديث عنهم بأنهم «جماعة مسلحة سعودية» كان محض هراء. بيد أننا قد ارتكبنا جريمة اكتشاف شبوة. ولم نكتف بذلك فقط، بل إننا كنا الرواد في تمهيد طريق السيارات على طول الجزيرة العربية بالكامل من الشمال للجنوب.

إن أولئك الذين كانوا أو قاموا حديثاً بتنفيذ خدمة مماثلة لأوربا قد اتشحوا بالميداليات والأوسمة بدرجة كثيفة حتى الاختناق. ولا يسعني أن أتمنى جائزة أفضل من غيظ عدن الضعيف وغضبها مني. وأستطيع أن أدعي أنني قد أثرت همم موظفيها حتى ثاروا في انفجار غير عادي للنشاط الاستكشافي بالأجزاء الداخلية من البلد التي يُفترض أن يقوموا بحمايتها. فقد زارت بعثة جوية شبوة منذ أن كنت هناك، على الرغم من أنها مكثت فترة وجيزة. وقام موظف مهندس فعلاً بالسفر على طريق الشحر - تريم للسيارات حتى يرسم خريطة مبدئية (كروكي) له، وكانت الخريطة التي أعددتها هي الأولى على الإطلاق. إن السيد إنقرامز قد قام بزيارة ثانية لحضرموت ليبطل الأثر السياسي الناجم عن زيارتي، وكلما زاد من تكرار زياراته كان ذلك أفضل لأنه لديه قابلية جادة للعمل العلمي. كما أن عدن لها سجل هزيل حقاً من الاستكشاف على مدى مئة عام التي قضيناها هناك، ولو كان مسؤولوها يعلمون قدراً أكبر مما يعلمونه الآن عن مناطق وقبائل المحمية لكانت قد اختفت الحاجة إلى قصف سكانها بالقنابل.

وبالنسبة لحدود منطقة المحمية يمكن القول بكل اطمئنان: إنه لا يوجد موظف واحد من بين موظفي إدارة عدن يعلمها. وفي الفصول اللاحقة وفي خريطتي[1] سأكون قادراً على بيان الخط الذي يفصل ولايات المحمية عن المنطقة الخلفية المستقلة. ومع

(١) لسبب ما لم يوضح لي قررت سلطات (الجمعية الجغرافية الملكية) رفض بيان هذا الخط، ولكن القارئ يستطيع بلا صعوبة أن يستنتجه مما ورد في النص. وكما شرحت من قبل فالخريطة مرسومة بمقياس رسم صغير جداً لدرجة يصعب معها الاستفادة منها. (المؤلف).

ذلك كان من الواضح أن الكولونيل ليك لم يستطع أن يعثر على ذريعة أفضل من اقتباسه من كتاب (دليل الجزيرة العربية) القديم جداً وغير المطور؛ ليؤيد قوله بأن الحدود «ليست مسألة مطروحة للنقاش؛ لأن المنطقة الواقعة جنوبها تخضع (بحكم الواقع) لحماية الحكومة البريطانية»، ولا يخضع (بحكم الواقع) ولا (بحكم القانون) الإقليم الممتد وراء حدود ولايات المحمية الوطنية، كما أن القبائل الموجودة به لا تعلم ولا تقبل مثل هذا الإدعاء، كما سنرى عندما نأتي إليهم في الوقت المناسب. وبالنسبة لمسألة النقاش من عدمه، فإنها في الحقيقة مسألة مطروحة للنقاش إلى حد كبير، حيث إنها ظلت خاضعة للمناقشة الدائرة فعلاً بين الحكومتين البريطانية والسعودية لبضع سنوات، وما زالت المناقشة جارية حتى الآن. هل من المحتمل أن لا يكون الكولونيل ليك على علم بتلك الحقيقة؟ أو هل كان يعتقد -ربما- أنني لا علم لي بها؟ ومهما يكن من أمر فلقد سافرت على طول خط الحدود الفعلي دون اللجوء لعروضه الطيبة بمساعدتي لدى سلطان العُلاقي أو سلطات بيحان.

ومن لحظة مغادرتي هينن في رحلة عودتي لم تطأ قدماي إقليماً خاضعاً للحماية البريطانية، ولكني عدت لزيارة شبوة مرة أخرى وزرت عياد والحاضنة ومرخة ولا تعترف أي منها لا بحكم سلطان العوالق ولا بالحماية البريطانية. إن سلطان شبام لا يقبل بالتأكيد الرأي القائل إن شبوة تحت سيادة سلطان العوالق. بل إنه هو نفسه قد عقد ترتيبات عمل مع سكان شبوة من خلال سيطرته على سوقهم العادي -سوق شبام- ولكنه نادراً ما يمارس أي سلطة فعلية على قبيلة الكرب المستقلة. ومع ذلك كانت سلطات عدن دائماً توصي المتقدمين بطلبات زيارة شبوة والذين توافق على منحهم شرف تلك الزيارة بأن يستفيدوا من المساعي الحميدة التي يبذلها سلطان شبام وليس سلطان العوالق. وهذا رد نهائي على الكولونيل ليك، ولكن الحقيقة المؤكدة هي أن قبيلة الكرب والقبائل الأخرى في شبوة تتمتع بالاستقلال، وربما يكون من الملائم هنا فيما يرتبط بهذا الموضوع أن أذكِّر الكولونيل ليك وأولئك الذين يفكرون مثله بوعود مكماهون لعام ١٩١٥م المتصلة باستقلال العرب. لقد جاء ذكر عدن

بصراحة في المراسلات بين حسين ومكماهون، حيث تمّ الاتفاق على أن عدن يجب «أن تظل كما كانت»، وإذا أردنا أن نعرف كيف كانت في ذلك الوقت فلا يسعنا إلا الرجوع إلى الكتيبات التي أعدتها وزارة الخارجية لإرشاد المندوبين البريطانيين المشاركين في «مؤتمر السلام». ففي أحد تلك المجلدات يتضح أن المنطقة الخاضعة لسيطرة سلطات عدن كانت تتكون من ٩٠٠٠ ميل مربع. وجميع الولايات المحميّة خارج هذه المنطقة كانت ولا تزال اليوم دولاً مستقلة ترتبط بعلاقات معاهدة مع بريطانيا العظمى، واستقلالها مضمون بوعود مكماهون. وحتى عندما كنت في المكلا كان هناك «قانون» في «المجلس» جاهزاً لتوقيع صاحب الجلالة البريطاني عليه، ينص على تشكيل «مستعمرة عدن» الجديدة تبعاً لنتيجة الإصلاحات الدستورية الهندية التي كان سريان مفعولها سيبدأ في ١ أبريل ١٩٣٧م. وكانت الدول المحمية غير مدرجة بالطبع في نطاق هذا القانون نظراً لوضعها المستقل. ولكن يبدو أن زيارتي لحضرموت قد أثارت الحماس حول المسؤوليات الإمبراطورية، فقد نص قانون ثان في المجلس بتاريخ مارس ١٩٣٧م على توسيع مزايا الحكم البريطاني ليشمل جميع الدول المحمية، والتي أصبح «حاكم مستعمرة عدن» الآن «حاكماً وقائداً عاماً لها.

والاستنتاج الواضح من ذلك هو أن السلاطين المستقلين لتلك الدول حتى اليوم قد انحطت مراتبهم بموجب قانون المجلس إلى وضع التابعين «لحاكم عدن». وسوف يكون رد فعلهم على هذا القانون الجديد مثيراً للدهشة وجديراً بالمراقبة. والكثير من ذلك يعتمد على ما إذا كان القانون الجديد قد صيغ بصورة محضة للمحافظة على المزايا السياسية الفريدة لبريطانيا العظمى أم أنه يعبر عن الروح النبيلة لفائدة الشعوب «المحمية». وإذا كان من الواجب أن يكون السلام والتقدم المطردان هما هدية بريطانيا للمنطقة التي أضيفت الآن إلى «إمبراطوريتها» فليس من المرجح أن يعترض أحد على ذلك. أما إذا كانت الفوضى والاضطراب اللذان تتغاضى عنهما «الحماية» البريطانية سوف يستمران فسوف تبدأ عوامل أخرى في التفاعل والتأثير. لقد عدت «اللجنة

الملكية لفلسطين» أن الدول الجنوبية بالجزيرة العربية دولاً مستقلة وسوف تظل مستقلة طبقاً لوعود مكماهون. وأعلن السيد إيدن إيمان الحكومة البريطانية الراسخ بأنه لا يجوز لأي «قوة عظمى» (بما فيها بريطانيا العظمى) أن تؤسس موقع سيطرة وهيمنة على الشواطئ الشرقية للبحر الأحمر. ومع ذلك تمضي إيطاليا قدماً في تطوير قاعدتها البحرية في عصب وسيال، ولا تخلو من الأطماع في الجزيرة العربية التي يمكن أن تتوسع لمسافة بعيدة في الصحراء بتواطؤ مع حكومة الإمام في اليمن.

إن العرب الآن في المنطقة الخلفية لعدن قد أضحوا أشد ألفة ونفوذاً على البنادق الإيطالية أكثر من البنادق البريطانية، ويرجع الفضل في ذلك للوسيط اليمني. والاختراق البريطاني سوف يواجه نظيره الإيطالي. وسرعان ما يكون قد فات الأوان لتفادي الصراع بينهما. وقد ينقذنا قانون منكر للذات من كثير من متاعب المستقبل، ولكن يجب أن يكون هذا القانون من جانب طرفين أو متعدد الأطراف. إن الاستقلال العربي يعد أحد السمات المعترف بها في السياسة البريطانية. ولا يجوز أن تكون بريطانيا هي أول من ينتهك هذا الاستقلال في جنوب الجزيرة العربية، حيث تتعرض سياستها التقليدية في تقديم الإعانات دون مسؤولية لأقسى انتقاد.

كما أن سياستها في احتكار جميع المواد الخام المحتملة في الجزيرة العربية، مع الإشارة على وجه خاص للبترول، عرضة بقدر مماثل للاعتراض. ويتحدث لسان الحكومة البريطانية بطريقة عفوية غير متكلفة بدرجة كافية أمام الأبواب المفتوحة، ولكن وكلاءها في الموقع يحتفظون بالمفتاح مختبئاً بأمان في جيوبهم. إن المملكة العربية السعودية واليمن -وهذه حقيقة- قويتان بما يكفي لمقاومة أي نوع من الانتهاكات التي قد تقع على حرمة أراضيهما التي تتمتع فيها الشركات البريطانية والشركات التجارية الأخرى بحرية التنافس على قدم المساواة. ومن المثير للدهشة أن نلاحظ أنه في كلا البلدين حصلت الشركات البريطانية على بعض الامتيازات، على الرغم من أنها ليست امتيازات حصرية. ومع ذلك وفي أماكن أخرى على طول

السواحل الشرقية والجنوبية للجزيرة العربية. ففي البحرين -وهذه حقيقة فعلاً- تحتفظ شركة أمريكية بامتياز للتنقيب عن البترول، ولكنها لم تحصل عليه إلا بعد أن تخلّت عنه شركة بريطانية على أساس أنه عرض غير مبشر بالنجاح. وكان هذا خطأ في التقدير والحكم على الأمور، ولكن تم اتخاذ الإجراءات الملائمة لتفادي تكرار مثل هذا الخطأ في أماكن أخرى. ففي الكويت وفي شبه جزيرة قطر، وفي جميع «الدول المتصالحة» على ساحل الخليج العربي، وفي عُمان وفي جميع الأقاليم المواجهة على المحيط الهندي إلى أقصى مسافة حتى عدن نفسها تم اتخاذ إجراءات لتشديد السيطرة البريطانية على التطور الاقتصادي بها. ويمكن أن تطرق الشركات غير البريطانية الباب، ولكن لا يُسمح لها بالدخول. ويتم تشجيع الشركات البريطانية بنشاط ومساعدتها رسمياً لضمان وتشغيل أي امتيازات قد تكون جارية. والمنافسة معدومة، ولذلك يمكن الحصول على الامتيازات بأسعار رخيصة جداً.

إن هذه السياسة يمكن تبريرها من وجهة النظر الضيقة للمصالح الإمبراطورية البريطانية، ولكنها ليست صحيحة ولا عادلة للمستفيدين من حمايتنا. وهي مناقضة بالكامل لنص وروح وعود مكماهون. إنها سياسة الاستبداد والتحكم التي سوف تجر العقاب في قطارها وسوف يتلوها تعريض علاقتنا مع السعودية للخطر، التي يمثل استقلالها الضمان الوحيد للأمن في شبه الجزيرة، والتي تستحق الصداقة معها اهتمام بريطانيا العظمى لتنميتها استعداداً لحل مشاكل المستقبل. إن ابن سعود لا يرغب في شيء أكثر من رغبته في أن يكون على صداقة ودية مع بريطانيا العظمى، ولكن كانت المبادئ الموجهة للسياسة البريطانية في جميع الجوانب خلال العشرين عاماً الماضية هي تطويق الحدود الإقليمية للسلام والأمن السعودي في أضيق دائرة قدر الإمكان.

وفي باقي الجزيرة العربية لا تزال فوضى واضطراب العصور السابقة سائدة. وهذا لا يتضح في مكان آخر أكثر مما يتضح عياناً في الأقاليم التي تتمتع بالحماية البريطانية على أيدي إدارة عدن. ولا عجب كذلك إذا كانت الصيغة التي يُستشهد بها

تمثل الموقف الموقر للحكومة البريطانية وهي أن: المحمية غير خاضعة للإدارة، مصالحها تحكمها الحكومة البريطانية. وخلال مدة إقامتي المؤقتة بها لم أر بالتأكيد أي دليل على أي اهتمام بمصالح هذا البلد. وباستثناء ما في المكلا -حيث لم تقم حكومة السلطان إلا مؤخراً بالاستيلاء على ما كان سابقاً شركة خاصة لعائلة آل الكاف- لا توجد في البلد محطة لاسلكي[1] واحدة، ناهيك عن مكتب تلغراف. والطريق الوحيد الصالح لمرور السيارات -وهو أيضاً مشروع وطني لعائلة آل الكاف- إلى المناطق الداخلية ما زال ينتظر انتهاؤه نتيجة للعناد والتصلب القبلي، وقد اكتمل بعد ذلك، وهذا ما يسرني قوله، ولكنه كان تحت رحمة الابتزاز القبلي. ولا توجد في طول البلاد وعرضها هيئة بريد، ولذلك يجب إرسال الخطابات -حتى الواردة من الساحل- إلى عدن حتى توضع عليها قيمة طوابع البريد ليتسنى إرسالها إلى جهاتها المقصودة. وفي المناطق الداخلية فإن التعليم متروك بالكامل للمؤسسات الأهلية، وقد قامت المؤسسات الأهلية بما تستطيعه. ولا توجد محاولة لتأسيس مؤسسة نقد لفائدة التجارة والاقتصاد باستثناء ما بذلته عائلة آل الكاف من محاولات كبرى من خلال إصدار عملات من النيكل مضمونة بضمان خاص، لمواجهة آثار الفوضى في العملات الأجنبية التي ينفذها أناس محليون نيابة عن أناس خارجيين. والشكوى عامة في الدوائر الرسمية من أن سلطات عدن تضع العراقيل في طريق الحصول على الأسلحة والذخيرة والتي بدونها لا تستطيع الحكومات المحلية المحافظة على النظام والأمن. ومن ناحية أخرى يمكن لأفراد من الأهالي الحصول على تصاريح خاصة من عدن لاستيراد أسلحة لاستعمالهم الشخصي، وهذه التصاريح يتم منحها بدون الرجوع للحكومات المحلية التي لا يسمح لها بالاحتفاظ بمثل هذه الإرساليات من المواد العسكرية في موانيها. وفي الحقيقة، بغض النظر عن تخطيط بعض مهابط الطائرات

(١) منذ زيارتي قامت الحكومة البريطانية بإنشاء محطات لاسلكي في سيئون وفي العبر لأغراض عسكرية (المؤلف).

في مراكز محلية على الساحل وفي المناطق الداخلية لمصلحة «القوات الجوية الملكية» في عدن، لا أستطيع أن أتذكر مساهمة حقيقية واحدة صنعتها الحماية البريطانية لتقدم ورخاء حضرموت.

والناس متروكون للدفاع عن أنفسهم بأنفسهم. وهناك تيار خفي واضح من القلق في حضرموت نفسها، نابع من الثأر والعداوة القديمة بين الكثيري والقعيطي، وزاد فيه وجود عناصر لا تعترف بالحكم الفعال لكليهما. وبين نهد في الطرف الغربي من الوادي الرئيس توجد فوضى وحرب متقطعة. وفي جميع الأنحاء إلى الشمال والغرب يوجد نزاع قبلي وتكرار هجوم القبائل على بعضها، مما أدى إلى ترك مناطق واسعة صالحة للزراعة مهجورة خوفاً من أعمال السلب والنهب واللصوصية. إن أكبر وأجمل واد في جميع الأودية بالجزيرة العربية لا يزال منظره منظراً حزيناً بعد نصف قرن من الحماية البريطانية. «إن خمسين عاماً من أوربا أفضل من دورة كاثاي» (Better fifty years of Europe than a cycle of Cathay) ومع ذلك فقد أعطت خمس سنوات من حكم ابن سعود نجران ما لم تنله أبداً من قبل وما تريده حضرموت أكثر من أي شيء آخر، إنها نعمة الأمن والسلام التي لا تقدر بثمن.

إن الحماية البريطانية اسم خطأ بقدر ما يتعلق الأمر بمحمية عدن. كما أنه غير فعال وعقيم حتى لحماية المعينين في مناصبها ذاتها من الإهانة أو الإصابة إذا هم ضلوا الطريق وابتعدوا عن مساراتهم المألوفة. فقبل زيارتي بشهر أو شهرين كان ماكسويل دارلنج قد احتجزته قبائل المنقعة بغية السلب، وكان من الضروري اللجوء إلى عمل عسكري لإنقاذه والثأر له. وبعد زيارتي بشهر أو شهرين كان الكابتن بيتش قد تعرض لهجوم على طريق السيارات ووقعت خسائر في مفرزته، وسوف يتم الانتقام له في الوقت المناسب من رجال القبائل الذين اعترضوه. كما تم تحذير بوسكوين بالابتعاد عند محاولته زيارة شبوة، واضطر ريكاردس أن يسير بسيارته بعيداً عن المكان نفسه، وأُطلق

الرصاص على هلفريتز لإخراجه منه، ونورمان بيرن تركه مرشدوه مهجوراً وسط الصحراء وهو في طريقه إليها، وتم إعاقة أول بعثة جوية من تنفيذ زيارتها المحتملة.

إن هناك شيئاً ما يجب تعلمه من تلك المظاهر الغريبة للخوف من الأجانب وكرههم. هذا الشيء هو الحقيقة البسيطة التي مؤداها أن هؤلاء العرب، وهم ينعمون بالاستقلال منذ أيام الإمبراطورية الحميرية القديمة، ليس لديهم رغبة في أن يتسلط عليهم ويحكمهم أجانب، غرباء عن جنسهم وغرباء عن دينهم. فبالنسبة لهم الاختراق الأجنبي مرادف للاستغلال. وبالنسبة لهم يعدون الملح ثروة والآثار القديمة المدفونة في ترابهم مصدراً من مصادر الغنى. والأجنبي يأتي للتجسس على أرضهم لصالح من بالخارج ولضمها إن كانت جديرة باهتمامه. ومع ذلك أتيت أنا ورأيت وفتحت، لماذا؟ إنهم لم ينظروا لي على أني أجنبي يسعى لسرقة ثروتهم. وفي نظرهم لم أكن سوى رسول من ابن سعود، أتى في النهاية بعد انتظار طويل ليعرض عليهم الأمن والسلام بعد الفوضى الطويلة. لقد كان ذلك على الأقل شيئاً ينتظرونه ،شيئاً لا يستطيع أحد غيره أن يدخله في حياتهم المضطربة. وكنت على الأقل قد فتحت الباب على مصراعيه للأمل. وإذا أصابهم الإحباط وخيبة الأمل بعد رحيلي عنهم فهذا لم يكن خطأي. ومن أجل الأصدقاء الذين وافيتهم في تلك الأراضي الجنوبية، لا أملك إلا أن آمل من الحكومة البريطانية -بعد أن سدت طريقهم إلى بعض الأمن والسلام تحت حكم ابن سعود- أن تمنحهم بدلاً منه شيئاً أفضل من الفوضى والبؤس اللذين صاحبا الحماية البريطانية طوال الأعوام المئة هذه. وإذا كانت لا تستطيع عمل ذلك فلتدع أرض سبأ القديمة تسترد استقلالها، كما تقترح الآن أن تفعل، بعد عشرين عاماً من الجهود العقيمة، حتى سواحل فلسطين.

ولا يمكنني أن أختم هذا الفصل بدون الإشارة إلى الأحداث اللاحقة. ولا يمكن إنكار أن سلطات عدن -بعد أن أدركت عدالة الانتقادات لطرائقها في الحماية

المعروضة في هذا الفصل والفصول الأخرى- قد عقدت العزم ووجهت الجهد بنشاط إلى مهمة إزالة الوصمة من شعار النبالة في الإمبراطورية البريطانية. ولكنهم على أي حال، ما إن يخلصوا أنفسهم من أحد العيوب حتى يسقطوا في آخر. لقد تم إدخال الطائرات القاذفة للقنابل في عدن لدعم العجز المدني بها. وتم إعفاء كلٍّ من السلطان «القعيطي» و «الكثيري» من سلطاتهما واستقلالهما. واعترفت الحكومة البريطانية بشن ثماني حملات جوية ضد قبائل حضرموت، وانطلقت حملة أخرى في فبراير ١٩٣٨م. وقامت ست من هذه الحملات بصب وابل من القنابل على البيوت والقرى البائسة وبساتين النخيل في البلد. وليس من السهل في مثل تلك الحالات التحقق من العدد الدقيق للموتى والمصابين. وهناك على الأقل رجل وامرأتان وطفلان بريئون تمام البراءة بالتأكيد بين الموتى. وربما يكون هناك آخرون. لقد بدأت جريدة التايمز مؤخراً مقالاً افتتاحياً بالكلمات التالية: «باستعراض علني للقوة القاهرة تجبر الحكومة الألمانية وزارة السي فون شوسكوشنق على الاستسلام والاستقالة». استبدل ذلك ببريطانيا العظمى وحضرموت، وتظل الجملة صحيحة، مع فرق واحد. هذا الفرق هو أن الألمان لم يطلقوا قنبلة واحدة، وإذا كنا مضطرين لاستخدام القنابل لفرض إرادتنا بالقوة فلا يجوز لنا على الأقل أن نرمي الآخرين بالحجارة. دعونا نكون أمناء مخلصين إذا أردنا أن نكون جادين في عالم شديد الانتقاد. إننا جميعاً نعلم أن الطائرة القاذفة هي الوسيلة الأرخص والأكثر فعالية والأشد إنسانية لإخضاع الشعب الذي لا يستطيع أن ينتقم بالمثل. وهناك مثل لاتيني يقول: «عندما يحافظون على العهود، فإنهم يطلبون السلام».

الفصل التاسع

البوابات الجنوبية

بعد أن قطعت سياق روايتي أحداث عدن، أعود الآن لمواصلة سرد أسفاري. .
تخطينا بوابة (الشحر) الرئيسة (الشمالية) وعطفنا (من الطريق العام) إلى شوارع جانبية قادتنا في نهاية الأمـر إلى منزل الضيافة الخاص بعشيـرة آل الكاف. والمنزل عبارة عن مبنى أبـيض اللون، نظيف ومكوّن من طابقين، مقـام في فناء صغـير يحـيطه سور، وكان يقف أمـام باب المنزل مجـموعـة من الأطفال ينظرون بانشـداه واستـغراب إلى السيارة ومحـتوياتها، بينما قام الدكتـور محمود خواس، الطبيب المحلي، باسـتقبالنا ببشاشة نيابة عن مضيفيـنا الغائبين، الإخوة الثلاثة من عشيرة آل الكاف والذين يتوقع وصولهم من مـصر على ظهر المركب القـادم. انتقلنا إلى الطابق العلوي حيث غـرفة الضيـافة الرئيسـة وكان بصحـبتنا حشـد من الزوار، كأنما انشـقت بهم الأرض حال سمـاعهم إشـاعة وصـول غربي إلى الديار، لقـد كان هاجـسي الوحيـد وقتـها هو الاستحمام وتغـيير ملابسي، ولهذا طلبت تخصيص غرفـة لشخصي ثم صعدت إلى الدور العلوي حيث وضعت مـجموعة من الغرف الصغيـرة تحت تصرفي، ويبدو من النفايات المتـراكمة أن هذه الغرف لـم تسـتعمل منذ فتـرة، إلا أن مجموعـة من عمال النظافة تمكنوا -في وقت وجـيز- من تنظيف إحدى الغـرف بحيث أصبحت مـلائمة للسكن. وفي هذه الأثناء صعدت إلى سطح المنزل لإلقاء نظرة عابرة إلى معالم المدينة وجوارها المباشر. بعد ذلك نزلت إلى الغرفة التي تم تخصيصها لي ووجدتها مفروشة بالسجـاد كما وجدت في انتظاري حـشداً من الزوار ملؤوا الغرفـة على سعتهـا وكان عليّ -والحال كذلك- تأجيل الحمام وتغيير الملابس لتسلية هذا الحشد والتحدث إليه.

كان ممثل عشيـرة آل الكاف (في هذا الحشد) هو سعيد شيخ الشـتيري، وقد ألحّ عليّ كثيراً بزيارته في منزله لتناول طعام الغداء أو وجبة أخرى وقد اعتذرت له بأنني لن

أحتاج إلى وجبة الغداء في ذلك اليوم، خاصة وأن الدكتور الخواس يقوم بتحضير وجبة الإفطار، إضافة إلى أنني لـن أتمكن من قضاء الليلة بمدينة الشحـر، حيث يتوجب علي أن أكون بمدينة المكلا في وقت مبكر. وكان -وسط الحـشد المذكور- زائر آخر مهم هو الشيخ صالح صقر، قـائمقام أو حاكم الشحر، وهو سيد كبـير في السن يستعمل الحنَّا لإخفاء آثار السنين عليه. وعند زيارتي له، فيما بعـد في قصره الكبير المتداعي للسقوط وجدت أنه من الدعاة المتحررين لاستعمال بذرة معدى، الغوفل (التامبول) وقد كان هو ومن معه -في ذلك الحين- يمضغون تلك العشبة بمتعة شديدة وبجانبهم مبصقات معدنية يرمون فيها فتات ما يمضغون.

قـام الدكتـور حـواس، بعـد أن تعرف على عـاداتي من الذين يرافـقـونني في أسفـاري، بوضع تُرمُس معبـأ بالشاي بجانبي، بينمـا قُدمت القهـوة العربية إلى بقـية الضيوف. وكان الحاضرون تواقين إلى سماع "أخبار ابن سعود" وأخبار الرحلة بالسيارة عبر الصحراء واحتمـالات أداء فريضة الحج بالسيارات بدلاً عن الدواب. . . إلخ. وقد طالت جلسـتنا في حديث يبـدو أنه بلا نهاية وكـان تُرمُس الشاي العمـلاق يزودني بما يساعد على الصبر والإلهام. وقد يسعد المرء أحياناً أن يكون جالساً هكذا دون عمل أي شيء محدد، لقد ألمحت للدكتور حـواس، الخبير المحلي بعادات الأوروبيين، بأنني لن أتناول إفطاري قبل الاستـحمام وأنني لا أنوي الاستـحمام أمام هذا الحشـد الكبير من البشر. وبدأت حشود الأطفال والمتسكعين والضيوف في مغادرة المكان تدريجياً ومن ثمّ فتحت حقيبة السفر وأخرجت منها ملابس نظيفة.

لقـد لاحظت أن بالغرفـة أبواباً أكثـر مما هو ضروري، وأن مـعظم هذه الأبواب مصنوع من الزجاج، إضـافة إلى أنها غير قابلة للإغلاق تمامـاً، كما لاحظت أن بعض الأطفـال وبعض الكبـار والذين لم يسمـح لهم بالدخول لاسـتـقبـالي نظراً لمنزلتـهم الاجتماعيـة المتدنية، كانوا يتجولون أمام الأبواب الزجاجيـة الشفافة، آملين رؤيتي وأنا أغـير مـلابسي. وعندما اسـتـدعيت مـحمـوداً وأخبـرته بأن من حـقي أن تكون لي

خصوصيتي، وأن أمنح متسعاً من الوقت للاغتسال والوضوء بعيداً عن الأنظار، أجاب محمود «إنني على استعداد تام لتقديم كافة الخدمات لكم». وقد كان وفياً بعهده، ذهبت إلى الحمام واغتسلت وغيرت ملابسي بدون أي تطفل من الآخرين، بعدها وصل الطبيب ليعلن أن وجبة الإفطار جاهزة وكانت تتكون من دجاج مقلي مع كاري خفيف إضافة إلى بيض وخبز، أجابني الطبيب بعد أن شكرته على الوجبة الممتازة وكرم الضيافة بقوله: «إنني أسعد كثيراً بمقابلتك». وأعتقد أن الرجل سعيد حقاً برؤيتي ومقابلتي، فقد أخبرني كيف أنقذ حياة فريا ستارك وعرض عليّ شهادة شكر وتقدير، ممهورة باسمها، حيث عبّرت له عن أمانيها بأن يتبوأ المكان اللائق به كطبيب ماهر بدلاً من الوظيفة المتواضعة في مدينة الشحر براتب شهري قدره ٦٠ ريالاً على نفقة حكومة السلطان. وحقيقة الأمر أن ليس للدكتور خواس أي اعتراض أو تحفظات تجاه مدينة الشحر غير أنه يدرك تمام الإدراك أن بإمكانه الاستمتاع بمزايا الحضارة والتقدم في أي مكان آخر، مثل مدينة عدن التي تلقى فيها دراسته وحيث إنه -فيما أظن- أحد مواطنيها، وعلى كل حال فللدكتور شخصية لطيفة وساحرة.

وكان عليّ تذكير الدكتور برغبتي في مشاهدة بعض معالم المدينة أولاً، ثم تلبية دعوة السلطان والتي سبق أن قدمها لي وقبلتها ثانياً. سألني الدكتور «هل نركب السيارة أم نسير مشياً على الأقدام؟»، ويبدو أنه ارتاح كثيراً عندما أجبته برغبتي في المشي سيراً على الأقدام. بدأت الجولة الاستكشافية بمشاهدة بعض معالم المدينة والتي تبدو عليها سيماء الفقر والتواضع، في الوقت الحاضر على الأقل، ومن الواضح أنها شهدت عصوراً ذهبية في الآيام الغابرة، ومع ذلك فسيكون لها مستقبل جيد ما كانت تحلم به، خاصة مع اكتمال طريق السيارات إلى تريم. لقد أُنْعِمَ على الشحر بواحد من أسوأ الموانئ في العالم، وهو عبارة عن مرسى مفتوح في مواجهة ساحل رملي ممتد تتكسر عليه الأمواج العالية. كانت البواخر الصغيرة القادمة من عدن والمراكب الصغيرة الأخرى ترسو بعيداً عن الشاطئ بينما يتم تحميلها وتفريغها من البضائع

والركاب بواسطة صنادل كبيرة، وتتولى أطقم قوية ومدرّبة من الزنوج مهمة تجديف هذه الصنادل ويبدو عليهم وهم يقومون بهذا العمل الشاق، سيماء المرح والابتهاج، بالرغم من المخاطر العالية، وكان ينتابني إحساس قوي بأن هذه الصنادل سوف تنقلب رأساً على عقب، ومن المدهش أنها لا تتعرض لهذا الأمر. لقد تعرضت لتجربة قاسية مع إحدى هذه المراكب، وأتمنى ألا يتكرر الأمر معي.

إن مرحلة بداية رحلة خارجية هي بالطبع أكثر المراحل إثارة وتشويقاً، يرتفع القارب الصغير في مواجهة الأمواج المتكسرة القادمة ويتحول إلى جانبه العريض ثم يرتفع مرة أخرى ثم يستعيد المركب توازنه فوق الماء ويشق طريقه بجهد بينما تكون مقدمته أو مؤخرته، لا فرق في اتجاه العدو. وكل ما أتذكره -في هذه التجربة- أن النهايتين متشابهتان تماماً وأنه يمكن التمييز بينهما، في أي لحظة كانت بواسطة الإحساس بالاتجاه. ولا يتحقق التوازن الكامل للمركب إلا عندما تكون وسط المياه العميقة حيث ينبغي على الطاقم التجديف بكل ما أوتي من قوة ومهارة، وحيث يستعيد الركاب الآخرون جَلَدَهم ويطردون مخاوفهم. والمرحلة الحرجة، عند العودة للشاطئ، هي لحظة اصطدام القارب بالرمل. وأشهد أن أطقم هذه القوارب تتمتع بمهارات مذهلة للغاية مع أن الأجر الرسمي لرحلة العودة زهيد للغاية ويكاد لا يساوي أي شيء، وكان يقيني أنني لن أدفع لهم أقل من أربعة أضعاف القيمة المقررة رسمياً، ولقد اكتشفوا "إبريقاً" وطالبوا بالمزيد وفي النهاية نالوا مرادهم. وما لم يستوعبوه تماماً أن هذا الكرم من ناحيتي لا يساوي قطرة من محيط مهاراتهم الفائقة.

يوجد كوخ أو كوخان على خط البحر (الماء) وهي عبارة عن مكاتب سلطات الجمارك، غير أن البضائع التي يتم تفريغها من السفن تظل مبعثرة على طول الساحل حتى حضور أصحابها لاستلامها. لقد أوكلت مهمة تحصيل الرسوم الجمركية بمدينة الشحر، بما في ذلك رسوم الدخولية (البلدية) المقررة على البضائع الواردة إلى المدينة أو الخارجة منها إلى أحد تجار قوجراتي واسمه عبدالله جعفر، هو ينتمي إلى طائفة

الشيعة وذلك بمبلغ وقدره ١١٠٠٠ ريال في الشهر. وفرضت ضريبة مقدارها ريالان على كل حمولة داخلة إلى المدينة أو خارجة منها، بينما حددت تعريفة الجمارك البحرية بمقدار ٥٪، ٨٪ أو ١٠٪ حسب القيمة المنصوص عليها في فاتورة الشراء ووفقاً لنوعية البضائع، كما تم تخصيص ضريبة خاصة بالتبغ الذي يمثل الإنتاج الرئيس لسواحل حضرموت. قدرت ضريبة التبغ بين ٦٠-٧٠ ريالاً لكل عبوة مقدارها ٣٠٠ طن، وتتراوح قيمتها بين ٦٠-٧٠ ريالاً، وهذه تمثل على وجه التقريب ٢٠٪ لقد كانت السلطات المسؤولة تفكر -وقت زيارتي للمدينة- في إلغاء نظام تكليف أفراد بعينهم مهمة جباية الضرائب نظير مبلغ محدد مقابل أتعابهم ومسؤولياتهم وأُدخل نظام جمع الضرائب المباشر، ومما لا شك فيه أن هذا النظام المقترح -إذ طبّق بمصداقية وأمانة- سوف يزيد الربط السنوي الحالي للجمارك والرسوم التي تبلغ مئة واثنين وثلاثين ألف ريال (١٣٢٠٠٠) سنوياً (حوالي ١٠٠٠٠ عشرة آلاف جنيه إسترليني من الشحر وحدها.

بعد انتهاء زيارتي للحاكم، سجّلت زيارة خاصة إلى التاجر عبد الله جعفر وقد زودني بالإحصائيات والبيانات أعلاه. كما رحب بي كثيراً وغمرني بكرم الضيافة وقدم لي وجبة خفيفة من البسكويت والفواكه المعلبة. لقد لفت انتباهي أن السوق المحلي لا يخلو من بعض القذارة والفوضى والتصدّع ومع ذلك يبدو أن السلطات مهتمة بأمره ورعايته. لقد خصص الطابقان الأرضي والأول لمؤسسة عبد الله جعفر كمكاتب للأعداد الكبيرة من الكتبة والموظفين الذين يعملون في المؤسسة، أما حسابات وسجلات المؤسسة فهي محفوظة في قوجراتي. أما الطابق العلوي والذي خُصص لأسرة عبد الله جعفر فتبدو عليه آثار النعمة والبهجة. كان مضيفي حزيناً بعض الشيء بسبب احتمال فقدان مهمة جباية الضرائب التي تديرها مؤسسته لسنوات طويلة. إن الجالية التي ينتمي إليها عبدالله جعفر، وتشمل قليلاً من التجار

الأقل ثراء منه هي الجالية أو العنصر الأجنبي الوحيد المقبول في مدينة الشحر. الأوروبيون لا يجدون أي تشجيع أو مباركة للإقامة هنا أو في المكلا، ومع ذلك ومنذ زيارتي فقد رأت الحكومة البريطانية أنه من الأنسب تعيين ممثل رسمي لها في المكلا تحت اسم (مقيم)، تماماً كمن يضع الطرف الحاد من الفأس فوق جذع شجرة ضاربة في العراقة والقدم يحرص أهلها على المحافظة على استقلالها وتفرّدها.

أما قصر الحاكم فهو عبارة عن مبنى رائع التصميم ويتكوّن من عدة طوابق، وإن بدت عليه آثار السنين والإهمال، ويطل القصر على حصن قديم بالقرب من النهر يُعرف بقصر ابن عياش، وينسب إلى الأمير عبد الله بن عمر القعيطي الذي جعل من الشحر عاصمة له. وتوجد بالقرب من هذا القصر بقايا مبنى يبدو أنه شيّد في تاريخ سابق إلا أنني لم أتمكن من زيارة هذا الموقع الأثري. ولاحظت أن السور الذي يحيط بالمدينة من ثلاث جهات (عدا جهة البحر) كان في حالة جيّدة مما يدل على الاهتمام بصيانته والعناية به، ولهذا السور بوابتان تتميزان بأشكال معمارية رائعة، البوابة الأولى تقع بالجهة الشمالية وقد سبق أن أشرنا إليها آنفاً، أما البوابة الأخرى فهي بالسور الغربي وقد قامت عائلة آل الكاف في السنوات القليلة الماضية بتشييد مجموعة من المباني رائعة التصميم والتنفيذ وذلك في أقصى الجزء الشرقي للمدينة.

هذه إذن بعض الملامح العامة لمدينة الشحر التي تمكنت من مشاهدتها والوقوف عليها على الرغم من الوقت القصير المتيسر لنا. وعند عودتي من هذه الجولة الاستكشافية الخاطفة وجدت سيارة تقف أمام الباب لنقل المجموعة المرافقة إلى مدينة المكلا. بدأت الرحلة عند الساعة الثانية ظهراً على الطريق الذي أتينا به وبعد حوالي تسعة أميال انحرفنا في اتجاه الغرب إلى المكلا، وهذا الطريق هو الأطول والأكثر وعورة الذي يربط بين المرفأين، ذلك أن الطريق الأقصر والأسهل لا يمكن استخدامه أثناء فترة هبوب الرياح الموسمية، حيث تغمر مياه البحر الطريق المحاذي لخط الماء تماماً.

وبما أن الشحر والمكلا لم تخضعا في كل الأوقات لحاكم واحد، إلا أنهما ظلتا في اتصال ثقافي متميّز بالعادات والتقاليد والممارسات المتشابهة. لقد استمدت المراكز أسماءها من أسماء المرافئ التي لها السيطرة الإدارية واليد العليا، مع أنه ليس بالضرورة القاطعة أن تكون هذه المراكز امتداداً للمرافئ. ومن الجدير بالذكر أن أياً من هذين الموقعين المحليين لم يكن يحمل هذا الاسم في المصادر التاريخية القديمة. ويبدو أن السبب وراء ذلك هو أن كل الساحل الجنوبي للجزيرة العربية لم يكن ملائما ولا مضيافاً للبحارة الذين يجوبون تلك المناطق مما حتّم أن يكون موقع اتصالاتها البحرية محكوماً بما يدور في الداخل، بعيداً عن الموانئ والمرافئ الساحلية، لهذا السبب نجد أن قنا (كأنها من قِنا المصرية) تطابقت مع بئر علي وموشا الحديثتين، ومن المحتمل أن تكون إحدى موانئ ظفار التي جذبت اهتمام القدماء.

تعد قنا أقرب الموانئ إلى مراكز الحميريين مثل شبوة وما جاورها، بينما ظلّت ظفار تخدم مناطق إنتاج البخور التي تقع من خلفها. ولم يكن لحضرموت الحديثة -على الرغم من أنها كانت وما زالت مصدراً مهماً للإنتاج الزراعي الوفير- الأهمية الخاصة التي تمتعت بها مناطق اللبان والبخور وعاصمتها السياسية، ولكن بعد أن فقدت تجارة التوابل أهميتها وبريقها، وبعد أن أصبحت شبوة مهجورة؛ لذلك السبب أو لأي سبب آخر استعاد وادي حضرموت موقعه كمركز تجاري مهم. أضف إلى ذلك أن المرافئ القديمة، مع افتقارها لأي جاذبية تستدعي المحافظة عليها والاهتمام بها على الرغم من بعدها الشديد عن المركز الجديد، قد هُجرت هي الأخرى لصالح الطرق الجديدة الأقصر مسافة. لقد ظلّت شبام تمثل مراكز جذب بالنسبة للاجئين من شبوة، أما المكلا فهي أقرب نقطة يمكن الوصول إليها عبر الساحل من شبام كما أن ميناءها يعد أحسن من أي ميناء آخر على الساحل، أما اسمها في حد ذاته فهو دليل قاطع على احتلالها المبكر.

إن اسم المكلا -في واقع الأمر- مأخوذ من الكلمة الإغريقية "مايكل" وهناك عنصر إغريقي، كما يذكر "الدليل" في جزيرة سقطرى، ولذا ربما لم يتعدَ الأمر

مجرد المصادفة في أن اسم المكلا لم يذكر في الأدبيات القديمة[١]، ذلك أنها ربما لم تكن مركزاً للتجارة الدولية. وقد استبعدها "الدليل" إلى حد ما، وعدّها جزءاً من طريق الساحل، أي جزءاً من التجارة الساحلية فقط دون أن يكون لها أي دور في التجارة العالمية. أما الشحر إذا كانت موجودة منذ القدم، فلديها هي الأخرى نصيبها من الازدراء والإهمال، ولا أظن أن هذا المرفأ على الرغم من إمكانياته المتواضعة إن لم نقل الرديئة، يمكن أن يكون قد أعقب نمو وازدهار شبام، وعلى كل حال يصعب وجود أي رابط لغوي قديم بين الشحر والساحل، ولا يوجد أي ربط بين الاسمين إلا فيما يوجد بين الطباشير والجبن، وإذا جاز لي التخمين فإنني أقول: إن أصل ومنشأ الشحر هو اشتقاقها من الشحر[٢] الفارسية "المدينة". إن الفرق في اللفظ المتوسط لا يعني بحال اعتراضاً صحيحاً بالنظر إلى الأصل الأجنبي للاسم. وإذا أخذنا اسم بوشاير (بو شهر على وجه الدقة)، فإنه يمثل حالة مشابهة لما نقول.

وعليه يمكن أن نقول بعدم وجود أي ذكر -في الكتابات القديمة- لأي من المرفأين ومع ذلك فيبدو أن السيدة فريا ستارك تنكر أن يكون لهما نصيبهما من الاهتمام القديم الذي تستحقانه، كما أنها تعتقد أن ماركو بولو وياقوت أول من ذكر اسم الشحر كمدينة، وهي تقول على وجه التحديد: «إن أول إشارة معاصرة للمكلا كانت من قبل ابن المجاور في القرن الرابع عشر». وشخصياً لا أدعي بأنني بحثت

---

(١) تذكر المصادر الحضرمية أن «المكلا» دال على مسماه، فأصل مادة كلأ في اللغة مرفأ السفن لأنه يكلؤها من الريح أي يدفع الريح عن السفن ويحفظها، فهو ملجأ لسفن الشحر والواردين إليه من الآفاق عندما يهيج البحر في أيام الخريف لأنه مصون بالجبال بخلاف ميناء الشحر المكشوف. انظر السقاف، حضرموت: بلادها وسكانها، مجلة العرب جـ ٧، ٨، السنة ٢٦، محرم وصفر، ١٤١٢هـ، ص٤٧٠، المنجد في اللغة والأعلام، ط٢٧، ١٩٨٤م، ص٦٩٢-٦٩٣. (المراجعون).

(٢) اللفظ الفارسي هو "شَهر" ويعني المدينة أو الدولة. انظر، التونجي: المعجم الذهبي - فارسي عربي، دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٩٢م، ص٣٨٣. (المراجعون).

الموضوع بحثاً عميقاً، غير أن سعيد بن نشوان[1] قد اقتبس بيتاً من شعر قس بن ساعدة، الذي عاش في أوائل القرن السابع:

وعلى الذي كانت بَموكَل داره

يهب القيان وكل أجرد شاحي

وأورد المؤرخ نفسه النص التالي من قول الشاعر العجاج الذي عاش في النصف الثاني من القرن السابع:

رحلت من أقصى بلاد الرحَّل

من قُلَل الشِّحر فجنبي موكل

لقد كانت البوابات الجنوبية للجزيرة العربية خلال القرن السابع لعصرنا هذا مغطاة بسديم العصور القديمة، وأن الأسماء التي بقيت في الذاكرة المعاصرة لم تكن "قنا" أو "موشا" إنما التي بقيت هي أسماء الشحر والمكلا ويمكن على الأقل تتبع آثار الاسم الأخير إلى مكلا والتي ظهرت بوضوح تام، بالرغم من موقعها الداخلي البعيد في خريطة بطليموس الشهيرة، في القرن الثاني الميلادي. وقد لفتت فريا ستارك إلى حقيقة أن (اللبان الساحلي) ما زال يسمى (اللبان الشحري)، ونحن في أوروبا ما زلنا نتحدث عن بُن المخا، بينما توقف العرب عن ذلك منذ فترة طويلة. لكن لا يمكن تسمية اللبان أو البن بأنه ساحلي "والأسماء التجارية" على كل حال، قد تكون ملائمة لكنها لن تكون أبداً الدليل القاطع على المنشأ والأصل.

وعند وصولنا نقطة مفترق الطريق، أخذنا الطريق المؤدي إلى المكلا، وهنا ينحرف وادي حويرة في اتجاه الجنوب الغربي ويعبر بعض الحواجز الصخرية التي

---

(١) الاسم الصحيح هو نشوان بن سعيد الحميري، علم مبرز في اللغة والتفسير والنحو والصرف. شاعر فصيح وكاتب بليغ له العديد من المؤلفات في هذه الفنون، وفي التاريخ والأنساب وفاته سنة ٥٧٣هـ، وللمزيد من المعلومات عنه انظر: الأكوع: نشوان بن سعيد الحميري والصراع الفكري والمذهبي والسياسي في عصره، دار الفكر، دمشق، ١٤١٨هـ، وللأكوع أيضاً: هجر العلم ومعاقله في اليمن، دار الفكر دمشق، ١٤١٦هـ، جـ١، ص٥٤١-٥٤٩. (المراجعون).

تشكل الرف الصخري الخارجي الأكثر انخفاضاً لهذه السلسلة الجبلية. وهناك سهل اسفيني الشكل منبسط ومنحدر في اتجاه تدفق الوادي ويوجد في هذا السهل المنبسط عدد من بساتين النخيل التي تتبعثر حولها منازل العاملين، بالإضافة إلى قرية متوسطة الحجم تقع غربي السهل. هذه البلدة اسمها المعيان وهي تقع على الطريق مباشرة، وبالقرب من مفترق الطريق توجد قرية الحبس وبها أيضاً حقل نخيل يملكه سلطان المكلا. وبين هذين الموقعين توجد بساتين الهواء ومعروف، ولا يبدو أي من هذه البساتين والمزارع ذا قيمة اقتصادية تذكر، إلا أن وجود كميات من الماء يمكن الوصول إليها، كانت سبباً كافياً لقيام أنشطة زراعية في هذا الجزء من العالم. ومع ذلك فإن أي إضافة -مهما كانت بسيطة- إلى الإنتاج المحلي تعد أمراً مقبولاً.

يمر الطريق بعد المعيان بمنطقة وعرة وجرداء لعدة أميال قليلة، ولا يوجد بهذه المنطقة سوى حوض وبناية صغيرة من اللبِّن الطيني عبارة عن استراحة لراحة المسافرين، ولكسر جمود ورتابة الرحلة، وفيما وراء الحوض يخترق مجرى وادي حما الطريق حتى يلتقي بوادي حويرة، بينما تنتشر أبراج المراقبة فوق سلسلة الجبال بالجهة الجنوبية. وعند النهاية القريبة لهذه السلسلة المنحدرة إلى الخلف وصل ركبنا إلى واد منبسط وواسع تنتشر فيه العديد من القرى وحقول القمح وبساتين النخيل المثمرة. يدخل الطريق إلى السهل الممتد بين بساتين النخيل في نقب بالجهة اليسرى وسده التي تمتد إلى حوالي ميل واحد على طول الجهة اليمنى من الطريق. وتوجد بالأخيرة قريتان صغيرتان وبقايا حصن قديم يسمى حصن العوالق، وهو الأثر الوحيد الباقي لسلالة العوالق والتي كانت تقيم بهذه المنطقة قبل وصول العشيرة القعيطية.

أما المستوطنة الأخرى والأكبر فهي القارة والتي كانت تنتمي -في تلك الأيام- إلي بيت آل بطاطي المنافس، أما القرية الأصلية والحصن الذي يحرسها (حصن البطاطي) فقد أصبحت أثراً بعد عين وسط بساتين النخيل وحقول القمح؛ وتمتد القرية الجديدة، التي تنقسم إلى جزأين، على طول سلسلة منخفضة في محاذاة السهل

الصالح للزراعة. وفيما وراء القارة وعند النهاية الغربية للسهل، تقع الغيل والتي تعد أكثر ثراء وأهمية في الوقت الحاضر. وتليها قرى بلحماس وظهبان النائية. وتتبع معظم مزارع وبساتين الغيل إلى ملكية التاج المكلي. وقد كنت في عجلة شديدة من أمري، فلم أتمكن من البقاء لوقت أطول للتعرف عن كثب على هذه المنطقة ولكن نظراً لأنني قد أتمكن من عبور هذه المنطقة مرة أخرى في طريق عودتي فسوف أترك تفاصيل وصفها إلى نهايات هذا الفصل من الكتاب، وتكفي الإشارة إلى أن سهل هذا الوادي يعد -بلا منازع- منطقة إنتاج التبغ، موطن ورقة نبات الحمومي المشهورة جداً، ولهذا السبب كانت المنطقة مركز القيادة لساحل حضرموت. لقد اندثرت بيوت البطاطي والعولقي وبقيت أنقاضها ومن ثم آل الحكم لسلطان الشحر والمكلا دون منازع. وهكذا ازدهرت الغيل كما سنرى لاحقاً، وهي تساهم بقدر كبير جداً في الدخل القومي للدولة. وقد صادف وقت زيارتي موسم جمع وحصاد التبغ، وفيما عدا مناطق زراعة الدخان وأشجار النخيل، فإن ما تبقى هو مناطق بائسة ومقفرة إضافة إلى صخور جبلية غير قابلة للاختراق أو الزراعة.

وبعد أن تخطينا الغيل دخل الطريق مجرى وادي الغصن وتبعه لمسافة قصيرة. يبلغ عرض وادي الغصن حوالي ثلاثين ياردة، ويشق الوادي طريقه بين ضفتين ارتفاعهما عشرين قدماً، وتتكون من حجر جيري هش ومتآكل، وهذا الوادي يصرف مياه منطقة الغيل إلى البحر عند مدينة الشحير، هذا الطريق يستخدم في موسم الجفاف فقط، ، وهناك طريق آخر يتجه شرقاً عبر منطقة حجرية مرتفعة بعيداً عن مجرى الوادي، ويفترق الطريقان عند ظهبان ويلتقيان مرة أخرى بعد حوالي أربعة أميال، يجتازان سهلاً حجرياً وعراً يمتد حتى مشارف الشحير، وبعد ميل واحد من ملتقى الطرق أعلاه يعبر قناة شضب الضيقة ليلتقي مع وادي الغصن ومن ثم يستمر الوادي المتحد في جريانه حتى يلاقي قناة وادي الشحير على بعد مسافة غير بعيدة أعلى القرية.

أما الشحير نفسها فهي مستوطنة كبيرة ومتسخة تقع عبر سلسلة الضفة اليسرى للوادي على حوالي ميلين من مصبه. وهناك مجموعة من بساتين النخيل متفرقة حول الأرض المنبسطة أو على طول ساحل البحر، هي من أملاك القرويين أنفسهم. المبنى الوحيد اللافت للنظر في هذه المنطقة هو منزل الحاكم المحلي وهو عبارة عن بناية مرتفعة تشبه الحصون العسكرية، وخلف القرية يوجد الوادي الذي يبلغ عرضه حوالي نصف ميل ويرتفع لعدة أميال فوق سطح البحر وتنتشر فيه البرك والمستنقعات التي تكوّنت بعد السيول. وتتوفر المياه بصفة مستديمة في هذا الوادي ومع ذلك فإنها لا تعيق حركة سير المواصلات في الأوقات العادية. وفيما عدا ذلك وتحديداً في مواسم الأمطار والسيول فإن حركة السير تتوقف تماماً. وأثناء رحلة عودتنا علقت سيارتنا تماماً في الأرض الطينية الموحلة. ويوجد بالناحية الغربية طريق آخر مرتفع تم تعبيده وإصلاحه لتسهيل حركة مرور السيارات حتى السهل الرملي الصحراوي الممتد وراء هذه المرتفعات. وبداية هذا السهل الصحراوي عبارة عن حزام واسع من هضاب رملية صغيرة الحجم تشبه فقاقيع صابون في حوض غسيل مملوء بالماء، وعلى بعد أربعة أميال من الشحير، مهبط أراض تم تنظيفه من الحجارة ووضعت حجارة بيضاء في أركانه الأربعة مع دائرة بيضاء في المركز. هذا السهل هو مطار المكلا السابق. أما المهبط الحالي فقد تحوّل إلى منطقة فوة الواقعة على الساحل غربي العاصمة. ويبدو أن السلطات المعنية قررت الاحتفاظ بمهبط الشحير للاستخدام في حالات الطوارئ.

يمتد هذا السهل الحجري لمسافة خمسة أميال أخرى على طول الضفة اليسرى لوادي فليك، ويوجد فوق الوادي الذي تجري مياهه طوال العام جسر متين للعبور. وبعد مسيرة ميلين آخرين يقابلنا وادي البويش والذي تصب مياهه في البحر. وتتجمع مياه الوادي أسفل الطريق وتكوّن بركة تظل محتفظة بمياهها طوال السنة، أما على خط الطريق المباشر فإن مياه البركة تجف، عدا أوقات السيول والأمطار. وتتنوّع المشاكل التي تواجه السائقين في هذه المنطقة، وفقاً للأحوال الجوية السائدة، ففي

موسم الأمطار مثلاً تكون العقبة الكؤود هي الوحل والطين، أما في مواسم الجفاف فيتمثل الخطر الرئيس في الرمال الكثيفة المتحركة. وخلال أسبوعين من الزمان واجهنا كلتا العقبتين ولم يكن أمامنا خيار يذكر عدا أن الطريق الرملي أنظف من الطريق الطيني. وتغطي أسفل الوادي غابة كثيفة من شجر الطرفة، بينما توجد على جانبيه مستوطنات كبيرة وهي تحديداً: مستوطنة ناجل بالضفة الشرقية، وبها بساتين نخيل كثيفة، ومستوطنة البويش بالضفة الغربية، وتكسوها هي الأخرى حقول وبساتين من النخيل وأشجار القطن، وتعطي في مجموعها منظراً بديعاً في غاية الروعة والجمال.

وبعد هذا الوادي تمتد الجبال على هيئة غطاء واسع ووعر من التلال السطحية، وتتجه إلى أسفل حتى حافة البحر. ويأخذ الطريق خطاً متعرجاً على هذه التلال (العقبات الجبلية). ثم عبرنا وادي ركب الذي يشق طريقه نحو البحر، واتبعنا مسار بطن شعيب سدق الضيّق والمتعرج حتى وصلنا ضواحي قرية المعوس، وهي قرية صغيرة وجميلة بها مجموعة من المنازل الريفية الضخمة، والتي يمتلكها بعض تجار المكلا. وهي وسط مجموعة من الصخور البركانية والتي تمثل المشارف الخلفية لمدينة المكلا، ثم مررنا بالعديد من ضواحي الميناء، مثل: يبرين، وبها قصر ريفي واحد وحدائق نخيل، وقرية البقَرين، والتي تحتوي على مصادر المياه التي تغذي مدينة المكلا عبر خط أنابيب. ثم وصلنا القصر الصيفي للسلطان في النقعة، وتحيط به حدائق جميلة فوق ربوة عالية، ثم أخيراً وصلنا إلى قرية الديس ثم قرية مروارا.

تخطينا قرية الديس ووصلنا وادي المعوس الذي يصب في مجرى وادي السغم العريض، وهو عبارة عن واد وخليج صغير، وتنتشر حوله برك واسعة من ماء مالح وشبه مالح. يميل الطريق في شبه دائرة عبر جسر صناعي بالناحية الشرقية للمدينة، وهذه المنطقة تعد المتنفس الطبيعي لسكان المدينة الذين يتقاطرون نحوها، راجلين أو بالسيارات عند الأصيل حيث يقضون بعض الوقت. وعندما مر ركبنا بالمنطقة شاهدت

العديد منهم. دخلنا المدينة قبل غروب الشمس بقليل، وفجأة توقفت السيارة بسبب سيارة أخرى كانت تسد الطريق أمامنا. لم أكن أتوقع هذا، ومع ذلك ترجلت من السيارة وكنت في حالة من التعب والإرهاق لا أحسد عليها أبداً. لقد كان حاكم المكلا داخل السيارة التي سدت علينا الطريق. وقمت بواجب التحية وكان الحاكم أكثر دهشة مني، وما كان يتوقع وجودي في هذا المكان وفي هذا الوقت بالتحديد. أعطى الحاكم تعليماته لسائق السيارة وأشار إليه بمواصلة السير، بينما بقيت أنا مع أصدقائي الجدد.

قال الحاكم: حسناً لقد استلمت من الساعي، قبل ساعة من الزمان، بريد شبام والذي يشير إلى مغادرتكم البلدة في طريق رحلة العودة إلى نجران، والآن ها أنت معنا هنا، كيف وصلت إلى هنا؟ على كلٍ مرحباً بقدومكم، ولكن لماذا لم تخطرنا حتى نكون مستعدين لاستقبالكم بما تستحقون من حفاوة وتكريم؟». سلمت الحاكم خطابات التعريف التي أحضرتها معي من شبام وتريم. ويبدو أن الحاكم لا يعرف القراءة، بدليل أنه سلم الخطابات المعنية لمرافقه والذي قرأ محتوياتها. -وكما ترى- بدأت أشرح الأمر للحاكم: «لقد غادرت شبام قبل أربعة أيام، وإن ساعيكم، الذي وصل اليوم، يكون قد استغرق ستة أيام في رحلته إذا كان قد بدأها يوم مغادرتي شبام للذهاب إلى هينن التي تقع في طريق عودتي». وحدثت الحاكم عن عمود السيارة ومغامراتي اللاحقة في الطريق. وعند غروب الشمس أدينا صلاة المغرب جماعة ثم جلسنا لفترة قصيرة نتجاذب أطراف الحديث، ولقد لاحظت أن الحاكم ومرافقه يرغبان في سماع أكثر ما يمكن من الأخبار قبل الآخرين. وقد سردت عليهما قصة الرحلة بالسيارة عبر الصحراء وكيف أنه من الممكن استخدام الطريق الجديد هذا لرحلة الحج. وعند حلول الظلام انحشر ثلاثتنا بالمقعد الخلفي للسيارة المفتوحة واتجهنا نحو المكلا وعبرنا البوابة الكبيرة وسرنا على طول ميدان الاستعراض المطل على الشاطئ البحري الطويل حتى وصلنا منزلاً كبيراً في وسط السوق.

حاكم المكلا الحالي هو أحمد بن ناصر البطاطي، وهو رجل رشيق ونشيط وفي خريف عمـره. وهو دائم المرح ومتحدث مـن الطراز الأول. وكما يوحي اسمـه فهو سليل بيت حاكم منذ قديم الزمان. كـان الحاكم يرتدي الزي التقليدي المكون من إزار وجاكيت مع عمامة خـفيفة. وهذا الزي يعطيه مظهراً مبهجاً، تعززه مـلامحه الدقيقة وعفويته. ولقـد عرفت ولمست الكثير عن هذا الحاكم أثناء إقـامتي بالمكلا وإنني مدين له بالكثيـر، أقله اهتمامـه الشخصي وكـرمه الفيـاض. وبما أنني وصلت البلدة بدون سابق إنذار كاف، فقد قضيت الليلة ضيفاً على الرجل الذي كان بجانب السلطان عند الجسر، والذي قرأ له خطابات تعريفي التي أحضـرتها معي، كما سبق أن أشرت إلى ذلك قبل قليل. هذا الرجل اسمه السيد سـالم بن أبي بكر بن حسين، من قبيلة مضر بوادي دوعن.

إن سالماً وأخاه الأصـغر حسينًا همـا أصغر أفراد الأسـرة التي يتزعمهـا حالياً شقيـقهم الأكبر حـامد، الذي أصبح مرافـقاً دائماً للسلطان في أسفـاره، وسوف يتم تعيينه كما سـمعنا وزيراً عما قريب. وهذه الوظيفة كان يشـغلها من قبل جده ووالده على التوالي، وتعـد هذه الوظيفة من الناحـية العمليـة منحة وراثية للمضـريين. أما الشيخ حامد الأخ الأكبر والذي قابلته بعد ذلك بفترة وجيزة، فهو رجل هادئ ورزين وسريع البـديهة. ومن الواضح أنه صاحب كـفاءة عالية، ولديـه بالتأكيد طمـوحات كبـيرة. أما شقـيقاه فإنهـما يختلفـان عنه في كل شيء تقريباً، في الذكـاء وفي بنية الجسم، وفي خفة الروح والمرح وسرعة البديهة. كمـا أنهما متجهما الوجه دائماً، إلا أن كرمهما الفيّاض يغطي كل هذه العيوب والمآخذ.

تقع غرفـة الاستقـبال الرئيسـة لمنزل الأخوين المذكـورين -والذي دخلته الآن- بالطابق الأول في مواجهة نافورة معطلة كـانت تزين الميدان أو الدوار الذي تتقاطع فيه طرق السوق الرئيسة. تؤدي إحدى هذه الطرق إلى الميناء ومكاتب الجمارك وأخيراً إلى أقدم أحياء المدينة القائم على ربوة عالية. وتنتشر حول الدوار مقاهي المدينة بطاولاتها

الصغيـرة المستديرة وكراسـيها، ويبدو أن أصـحاب هذه المقاهي لا يتقـيدون بالأوامر المحليـة التي تنظم الطرق، بدليـل وضع الطاولات والكراسي داخل حـدود الطريق، ضاربين بحـرمة هذه الأمـاكن عرض الحائط. أمـا سائقي محـمد باخـشيم وهو من مواطني وادي دوعن بالميلاد، فقد وجـد أصدقاءه وأقرباءه وأبناء جلدته ولـم أملك إلا أن أبتـسم للتناقض الواضح بيـنه وبين رفاقـه، فـهـو بلباس أهـل مكة الكامل وهم بشعـرهم المجعـد وأجسامـهم العارية التي تلمع كـما النحاس المصـقول، ولا يسـتر أجسامهم غير قطعة قماش حول الخصر والحزام الذي لا فكاك منه.

امتـلأت غرفة اسـتقبـال سالم حتى فـاضت بالزائرين، ودارت أقداح القـهوة والشاي، بيـنما واصل المدخنون تدخـينهم بمزاج شديد. كنت جـالساً بين أحـمد بن ناصر وسـيّد آخر عرفت فـيما بعد أنه قـاضي المكلا، وهو الشيخ محمـد باجنيد من وادي دوعن. وبدعوة منه دخلنا -هو وأنا- في مناقشة ساخنة. ومن الواضح تماماً أن الرجل كان منزعجاً من احتمال ضم حضرموت إلى الأراضي التابعة لنفوذ ابن سعود. وحاولت طمأنته بعدم النية في الإقـدام على هذا الأمر، غير أنني أوضحت له بجلاء تام عدم قـبولي بأن حـضرموت مـخلاف (مقـاطعة) تتـبع لليمن. واقـترحت أنه إذا حصـرنا المناقشة في الـسياق التـاريخي وحده يمكن أن تقودنا إلى القـول بأن فلسطين يهودية[1] وإسبانيـا عربية. ومن المؤكد أن المسـتمعين كانوا يؤيدون وجـهة نظري بأن حضـرموت دولة مسـتقلة الآن. وهي لا تنتمي إلى الـيمن أو السعـودية. وهاجمني القاضي ووصفني بأنني «رجل هزيل وجائع» يبحث عن شكوى ومظلمة، لكنه تخلى عن عداوته قبل قليل مـن مغادرته المجلس. وقد تقابلنا -القـاضي وأنا- مرات أخرى في مناسبات عديدة وكان ودوداً معي، غير أنه لم يزرني في مكان إقامتي كما وعد.

---

(١) الأدلة التاريخية لا تؤيد ما ذهب إليه فيلبي بأن السياق التاريخي يقود إلى أن فلسطين يهودية. (المراجعون).

انحصر النقاش بعد ذلك حول الموضوع الذي ظل يفرض نفسه في كل جلسة وهو طريق السيارات الجديد، والذي يعني الكثير جداً لمدينة المكلا، التي لديها مصالح كثيرة فيما يتعلق بموضوع الحج عن طريق البحر. وربما تكون فكرة استخدام حجاج وادي حضرموت الطريق البري الجديد غير مقبولة للعديد من الذين استمعوا إلى ما قلت، وكان بين الحضور رجل في منتصف العمر، ومن الواضح أنه تعرض لتجربة مريرة أثناء رحلته إلى مكة، لهذا كان أكثر الحاضرين صراحة في التعبير عن قناعته الشخصية بأن لا أحد من الحجاج الحضارمة على استعداد لاستعمال طريق السيارات البري، حتى ولو كان أقل تكلفة مالية من الطريق البحري الحالي. إن التقديرات العامة لتكلفة الرحلة البحرية من حضرموت إلى مكة وبالعكس تبلغ حوالي ٣٠٠ ريال (٢٢ جنيهاً إسترلينياً تقريباً) لكل حاج. وتستغرق رحلة الذهاب والإياب حوالي أسبوعين أو أكثر، أما الرحلة بالسيارة، إن كانت جيّدة التنظيم والتحضير، فإنها بالقطع سوف تحسن التدابير الحالية فيما يتعلق بالزمن والإنفاق المالي.

بدأ الحضور في مغادرة المجلس تدريجياً وكانت دهشتي كبيرة عندما اكتشفت أن الساعة قد بلغت العاشرة، وأنه قد نودي لصلاة العشاء. وضع محمد سريري على المصطبة المكشوفة لغرفة الاستقبال، وقد سعدت كثيراً كوني أويت إلى فراشي مبكراً. ومراعاة للتقاليد العربية الأصيلة، جاء سالم لينام مع ضيفه في غرفة الاستقبال تاركاً وراءه زوجته. ودغدغني صوت الأمواج المتكسرة على الشاطئ الصخري ورحت في سبات عميق. كانت ليلة باردة والسماء ملبّدة بالغيوم، ولم يكن الجو رطباً ولا يوجد بعوض.

تختلف المكلا كثيراً عن جدة، والتي تكون في مثل هذا الوقت (٢٩ أغسطس) في أسوأ حالاتها: شديدة الحر، عالية الرطوبة، إضافة إلى الناموس. أما هنا في مدينة المكلا فإننا في نهاية موسم الرياح الموسمية التي تبدأ عادة في شهر يونيو من كل عام. تبلغ أدنى درجات الحرارة في هذه الأيام (٨٢) درجة، ومع ذلك، ففي أحد الأيام، ومع هبوب السموم الحارقة سجل ميزان الحرارة الذي أحمله معي (٩١) درجة

لمدة ساعة أو ساعتين، وقد يكون من الصعب جداً تخيل ظروف مناخية أكثر لطافة من هذه! لقد جرت العادة على أن تتجنب السفن الكبيرة ميناء المكلا أثناء فترة الرياح الموسمية التي تستمر ثلاثة أشهر، لكن أثناء إقامتي هنا لاحظت سفينتين كبيرتين راسيتين في الميناء، واحدة متجهة نحو الشرق، والأخرى نحو الغرب، وهذا، في حد ذاته مؤشر بنهاية موسم الأحوال الجوية السيئة.

استيقظت من النوم عند الخامسة صباحاً، لأداء صلاة الفجر، ومع ذلك لم أستطع مقاومة رغبة العودة إلى السرير لإغفاءة أخرى امتدت حوالي الساعة، استعداداً لمقابلة الزوار. وقد كانت وجبة الإفطار ممتازة وتتكون من دجاج وأرز وخبز، إضافة إلى عسل دوعن المشهور. وأحسب أنني كنت بحاجة إلى هذه الوجبة الدسمة استعداداً ليوم طويل وحافل. كان أول الزائرين هو أحمد بن ناصر، وبعده توافد الزوار من كل صوب وحدب، مثل مياه النهر المتواصلة الجريان. وفي أغلب الأحوال كان يتواجد بالغرفة ما بين عشرين إلى ثلاثين شخصاً، ولا يقل العدد عن اثني عشر رجلاً على الإطلاق. وأحسب أنه لا يوجد أحسن من هذا الوضع، أي أن أكون جالساً بجانب النافذة أتجاذب أطراف الحديث مع زواري المتعطشين لمعرفة أخباري وقراءة أفكاري، بينما أسترق النظر من وقت لآخر إلى السوق المزدحم والمكتظ بالمتسوقين أسفل النافذة. اغتنم مضيفي فرصة مغادرة الزوار وأرسل إلى أحد الحلاقين للعناية بشعر رأسي ولحيتي. كان الحلاق أفغانياً وقد ظل يزاول هذه المهنة في البحرين منذ عدة سنوات لكنه هرب منها إلى المكلا أثناء فترة حكم الميجور دالي. وبينما كان الحلاق يقص شعري الكثيف بمقص كبير، ظل يسليني بقصص تلك الأيام الصعبة.

وفي حوالي الساعة الحادية عشرة صباحاً ذهبت إلى محطة اللاسلكي الموجودة في إحدى زوايا الفناء الواسع لقصر السلطان المطلّ على البحر. ولما كان اليوم يوم

أحد، فقد فشل عامل التلغراف لمدة ساعتين في إيقاظ زميله بمدينة عدن المستمتع بنوم عميق في إجازة نهاية الأسبوع، ولهذا ظلت رسالتي في مكانها ولم تغادره إلا في اليوم التالي. عدت إلى منزل سالم لتناول طعام الغداء، وبعدها نمت حتى مغيب الشمس وبعد ذلك اصطحبني أحمد بن ناصر وسالم في رحلة قصيرة بالسيارة إلى القصر الصيفي للسلطان في النقعة، وفي الطريق إلى القصر شقت السيارة طريقها أعلى جبل مرتفع ودارت حوله بسرعة بدت وكأنها محفوفة بالمخاطر، إلا أننا وصلنا سالمين إلى حديقة القصر. ويا لها من حديقة رائعة! حيث نباتات الزينة تنمو بكثافة وغزارة، إضافة إلى أشجار القطن المزهرة وأشجار السنط والباباي والموز والجوافة، إضافة إلى تعريشة رائعة من الكرم يحيط بها حوض مربع يغذيه جدول تتدفق فيه المياه العذبة لسقاية هذه الجنة الوافرة. أُحضرت السجاجيد والأبسطة من داخل المنزل وفُرشت فوق منصة بجانب الحوض، وجلسنا هناك نتجاذب أطراف الحديث بينما كان الخدم يقدمون أكواب الشاي والقهوة والفواكه. وفي طريق عودتنا للمدينة عبرت السيارة حديقة وساحة كبيرة، تحيط بها -من جوانبها الثلاثة- مبان فخمة. أما القصر المركزي والذي كان يقيم فيه السلطان الراحل عمر، فقد وُضع تحت تصرفي الكامل طيلة بقية فترة إقامتي بالمكلا.

لقد أتاحت لي الإقامة في هذا القصر المزيد من الحرية والخصوصية الشخصية، بالمقارنة مع ما كان متاحاً في وسط المدينة. لا يبعد القصر كثيراً عن المدينة، ولهذا فإن الزوار الذين يرغبون في زيارتي كانوا يحضرون بدون مشقة أو عناء، ومع ذلك فإنه يعد بعيداً عن مراكز النشاط الرئيسة الأخرى مما لم يُتح للمشاركين في هذه الأنشطة زيارة القصر أثناء فترات الاستراحة التي لا تزيد عن نصف ساعة، على أحسن الفروض. وعلى كل حال فقد كان مجلسي عامراً أغلب فترات الصباح وما بعد الظهر، وكان أحمد بن سعيد يزورني يومياً للاطمئنان علي، وكان يصحبني في

بعض الأحيان في سيارته. وكان يقوم بخدمتي والسهر على راحتي أحد خدم السلطان الأوفياء، وهو عجوز وقوي ونشط ومنضبط للغاية واسـمه عبد القادر، وكان قد خدم ما لا يقل عن أربعة سلاطين متتالين. لقد وُلد عبد القادر في خدمة السلطان عوض بحيدر آباد لوالدين تمتد جذورهما إلى شبام، وهو حالياً الحارس المؤتمن لجميع القصور القديمة التي ينزل بها ضيوف السلطان.

كانت وجبات طعامي تجلب من المطبخ الأميري (السلطاني) مرتين في اليوم، والأسلوب المتبع في الطبخ هو النمط الهندي. وتتكون كل وجبة من الكاري والمخلّلات التي تطبخ بطرق وأشكال متعددة. كان مجلسي المفضل أثناء ساعات النهار بالطابق الأول، وهو مكوّن من عدة غرف واسعة. وكنت أستقبل ضيوفي في هذه الغرف. أما بعد مغيب الشمس فإنني أصعد إلى الطابق العلوي المكوّن من عدة غرف صغيرة المساحة، كنت آوي إليها عند هطول الأمطار. كما توجد أيضاً حمامات، ويتوفر كميات من الأسرّة والكراسي والمناضد عند الضرورة، غير أنني كنت أفضل افتراش الأرض للنوم وعند تناول الطعام.

يطل سطح المنزل الذي أقيم فيه على أحد المناظر الخلاّبة لمدينة المكلا، ولقد تم بناء القصور القديمة الثلاثة بالقرب من بعضها على فناء رحب بالقرب من السور الغربي للمدينة، وإذا اتجهت بنظري نحو البحر، فإن القصر الذي يقع على يميني يلامس السور الغربي، وكان السلطان غالب يقيم في هذا القصر، وذلك قبل أن يأمر ببناء القصر الآخر الواقع على ساحل البحر. ويقع في الجهة المواجهة لقصر غالب، القصر الذي كان يقيم فيه والده عوض، وهذا القصر يبدو في حالة متردية، مع أنني لاحظت حركة دائبة لترميمه وإصلاحه. وبين هذين القصرين، وعلى الناحية الشمالية للميدان، يوجد قصر عمر، وهو القصر الذي أقيم فيه حالياً. أما جانب الميدان المواجه للبحر فتوجد فيه حديقة رائعة الجمال تتكون من أشجار جوز الهند وأشجار

أخرى باسقة. وقد ألقيت نظرة من أعلى هذه الحديقة على قصر السلطان، والحديقة والميدان والتي تشغل كل الحيز الممتد بين الشارع الرئيس والبحر من الناحية الغربية للمدينة. ويكوّن القصر وملحقاته منظراً جذاباً من المباني بسيطة التصميم. وأجمل هذه القصور بدون منازع، هو القصر الحالي للسلطان، الذي تمّ تشييده منذ ثلاثين سنة، "في مواجهة زبد البحار المحفوفة بالمخاطر". أما أمواج البحر فإنها تتكسر دائماً على حيطان القصر الصخرية وترسل رذاذاً عالياً ليرتطم على واجهات النوافذ، بينما تعصف الرياح عبر دهاليز وممرات القصر. ويقع أقدم قصور مدينة المكلا -والذي كان يقيم به السلطان عوض أول سلطان قعيطي- في الجزء القديم من المدينة فوق قمة الجبل بجانب المرفأ. ومن الواضح أن فترة بنائه سبقت بكثير بناء القصور الأخرى. لقد شيّد هذا القصر ليكون سكناً للسلطان وقصراً للحكم وإدارة شؤون الرعية، وتبدو عليه سيماء الفخامة والأبهة، غير أنه بحاجة ماسة إلى الترميم والإصلاح. لقد سبق أن أشرت إلى قصر السلطان الصيفي في النقعة، وهناك قصر ريفي آخر على بعد ميل أو ميلين من الجهة الشرقية للمدينة تحت القمة التي تتخللها سلسلة جبال القارة، ذات المناظر الطبيعية الخلاّبة، والتي تمتد حتى حافة البحر. وهناك قرية مهجورة اسمها خلف تقع على طريق الساحل في منتصف المسافة بين القصر والمدينة.

كان الليل عاصفاً بعض الشيء، وقد نزلت زخات متقطعة من المطر، لدرجة أنني فكرت أن أدخل إلى غرفتي، غير أنني بقيت بالسطح حتى بزوغ الفجر، ولم يكدر صفو البحر إلا مويجات صغيرات ترتطم باسترخاء شديد على الساحل. وما إن ارتديت ملابسي وتناولت طعام الإفطار، حتى أعلن عن حضور بعض الضيوف وكان بينهم صالح بن محمد بن صالح، وهو ابن أخ علي بن صالح من شبام، مع إن الاثنين في نفس السن تقريباً. وكان والده -الأكبر من علي بحوالي عشر سنوات- سلطاناً في شبام حتى وفاته بمكة أثناء موسم حج ١٩٣٢م. وقد خلف علي شقيقه في

الحكم. ويبدو أن هذا الأمر لم يعجب صالحاً، وحقيقة الأمر أن الأخير لا يخفي كراهيته وحقده على عمه، ولهذا السبب اختار السكنى في قصر السلطان عمر منذ وفاة والده. وقد قام صالح قبل حوالي ستة أو سبعة أشهر من زيارتي هذه، برحلة إلى حيدر آباد، حيث كان السلطان عمر راقداً على فراش الموت. وبعد وفاة السلطان عمر اصطحب صالح السلطان الجديد -واسمه هو الآخر صالح- إلى المكلا. كان صالح ممتلئ الجسم ويوحي مظهره بالحزن والغضب، وكان يفتقر إلى أي من مزايا عمه الجميلة. ولم أشجعه على الحديث المكرر والممل عن مرارته الشخصية تجاه عمه؛ أما رفيقه السيد محمد بن عبدالله الحبشي، فقد كان يشغل وظيفة صغيرة ضمن سكرتارية السلطان، وكان يعيش معظم عمره في مدينة أديس أبابا، إلا أنه غادر الحبشة خوفاً من الغزو الإيطالي. وقد علمت أنه كان يشتغل بالتجارة أثناء إقامته هناك.

وبعد مغادرة هؤلاء الزوار، وصل أحمد بن ناصر وكان في حالة هياج وعجلة شديدة من أمره، وخاطبني قائلاً: «هيا استعد لقد وصل السلطان»، وكان المركب واسمه (الحق)، والذي يزور ميناء جدة من وقت لآخر، يقترب من المرفأ. لم أستغرق كثيراً من الوقت في الاستعداد لرحلة المرفأ، وانطلقت بنا السيارة في سرعة رهيبة وسط أكوام البشر المنتشرة بالسوق، وشكراً لبوق السيارة العالي الذي أزاح هذه الكتل البشرية عن طريق السيارة المسرعة. ولا أبالغ إن قلت إنني أمقت هذا النوع من التهور في القيادة، وهو أمر شائع اشتهر أهله باللطف والاحترام! وإذا كان الإغريق يكرهون أبناءهم الرياضيين فإن لسكان الجزيرة العربية من الأسباب ما يدفعهم للعنة سرعة وتسابق سائقي السيارات.

على العموم وصلنا إلى بوابة الجمارك وواصلنا سيرنا نحو المرفأ ووجدنا أمامنا حشداً من البشر حضروا لتحية واستقبال سلطانهم العائد من أسفاره الخارجية، وكان الجيش المحلي يقف في تشكيلة عسكرية تمثل ثلاثة أضلاع مربع أمام الباخرة. وكان عدد الجنود المشتركين في هذا الاستعراض العسكري حوالي ثلاث مئة وأربعين جندياً.

نصفـهم من قبائل يافع وهم من عـشيرة السلطان نفـسها، وقـد تم تدريبهم على يد العقيد ليك ومجموعة أخرى من الضبـاط الإنجليز بمحمية عدن أو الفرقة اليمنية والتي تم تسريحها. كان الجنود يرتدون قمصاناً وأردية من الكاكي، ومن الواضح أنهم نالوا تدريباً مكثفاً على فـهم واستيعاب معاني الأوامر التي يصـدرها لهم ضباطهم الإنجليز باللغة الإنجلـيزية. أما النصف الآخـر من القوة العسكـرية الاستعـراضية فـهم خدم السلطان بملابسـهم الحمراء والزرقـاء وشعرهم المضـفر والمتوهج، وهناك فـرقة إسناد أخرى مكوّنة من الطلاب العسكريين تحت التدريب وكلهم من طبقة العبيد، غير أنهم كانوا يرتدون قـمصاناً وأردية من الكاكي مـثل لباس الجنود من قبـيلة يافع. ويكتمل الاستعراض العـسكري بفرقة الموسيقى التي أتيح لنا سمـاع ألحانها مراراً وتكراراً أثناء إجراء تمارينهم وتدريباتهم في ساحات القصور القديمة.

وبعد قليل من وصولنا، وصل القارب السلطاني وعليـه عبيد أقوياء يرتدون زيّاً موحداً ويجـدّفون بقوة ومهـارة. وكانت أمواج البحـر عالية إلا أنهم قهـروها بقوتهم وخبرتهم الطويلة. نزل السلطان من المركب وكان أحمد بن ناصر أول المستقبلين، وبعد ذلك تقدمت أنا للسلام. كانت ملامح وجه السلطان محايدة تماماً، فلم تُظهر استغرابًا أو فرحًا أو عدم رضا. أُمرت الجماهيـر المحتشدة بإفساح الطريق للسلطان وابنه عوض الذي يبلغ عمره ستـة عشر عاماً. سار الموكب السلطاني إلى ميـدان الاستعراض الذي يطوقه الجنود وعزفت الفرقة الموسيقـية لحن «ليحفظ الله الملك"، ووقف سموه الكريم لتلقي التحية العسكرية، ثم أطلقت المدفعية نـيرانها تحية للسلطان بينما استقل السلطان وابنه، يصحبهم أحـمد بن ناصر، السيارة الملكية التي انطلقت بهم نحـو القصر. وقد عرض عليَّ صالح بن حزيق، الذي زارني صباح اليوم بمقر إقامتي، أن يصطحبني معه في سيارته إلى القصـر. نزلت من السيارة عند البوابة ومشيت راجـلاً إلى غرفتي وقد أخبرت صالحًا بأنني لن أتمكن من زيارة السلطان إلا بأمره، ولهذا بقيت بالغرفة وحدي أستمع إلى الجنود العائدين إلى ثكناتهم بعد انتهاء الاستعراض العسكري، وهم يعزفون

ألحاناً عسكرية جميلة. والجدير بالذكر أن الاستعراض العسكري كان ناجحاً بكل المقاييس، ومع ذلك ما زلت أسأل نفسي عما إذا كان مفهوم مواطني المكلا للحضارة والتقدم هو المفهوم الصحيح والمناسب لدولة عربية.

وبينما كنت أتأمل وأفكر في مثل هذه القضايا والمشاكل دخل عليّ مبعوث السلطان يطلب مقابلتي بالقصر، وقد استقبلني السلطان بحفاوة، وبالرغم من تمنعي واحتجاجي أصر عليّ أن أشاركه الجلوس على عرشه، وهو عبارة عن أريكة كبيرة ومريحة. وكان في مجلس السلطان بعض من مرافقيه في رحلة الباخرة (الحق)، وهم تحديداً: الإخوان الثلاثة من عائلة آل الكاف، وأربعة من أعضاء البعثة العلمية المصرية، والتي قضت بضعة أشهر في اليمن، وهي الآن في رحلة قصيرة إلى وادي حضرموت. وبعد أن سلمت على الجميع بدأنا نتجاذب أطراف الحديث وتطرقنا إلى شبوة والطريق البري بالسيارات، وقد كان مجلساً عامراً. انفض سامرنا وتركنا سموه لمقابلة أفراد أسرته، وفي تمام الساعة الخامسة مساء دُعيت لتناول الشاي بالقصر، وهي مناسبة لتبادل الأحاديث الخصوصية، وفي حقيقة الأمر فإن السلطان لا يتحدث كثيراً ولا يخلو من انعدام الشفافية والعاطفة والحميمية، ومع ذلك فقد كان انطباعي عنه أنه ودود وحريص على القيام بواجباته تجاه رعاياه، وكان شغوفاً لسماع أخبار ابن سعود وما يجري داخل الجزيرة العربية. أما من جانبه فليس للسلطان الكثير ليقوله عن أسفاره، كما أنه لم يتطرق أبداً خلال المناسبات التي جمعتنا سوياً إلى مناقشة أي موضوع حساس أو شائك، ذلك أنه مدرك تماماً لموقف سلطات عدن تجاهي، ولكنه لم يشر أبداً إلى أنه يعرف هذا الأمر، وفي حقيقة الأمر فإن الوضع غير مستقر وغير مريح مع اعتبار عدن المجاور. لقد اعتلى الرجل العرش بعد أن تقدمت به السن، وكان يحمل معه كل أوجه القصور التقليدية لتجارب السيادة الهندية ومع ذلك فقد أدهشني كإنسان يفضل عناء التفكير لنفسه بالرغم من حذره في التعبير شفاهة عن

أفكاره. ولقد واجه منذ البداية مشكلة لم تواجه السلاطين الذين سبقوه، ولا يملك المرء إلا أن يتمنى له كل خير فيما هو قادم عليه، وأن يتمكن من أن يؤدي دوره في المحافظة على استقلال بلاده في مواجهة الضغوط المتواصلة لعالم أصبح بحق وحقيقة عالماً مجنوناً.

لقد حدثني أحد موظفي السلطان بصراحة شديدة بأن عرب حضرموت ليسوا مؤهلين للاستقلال ولا يرغبون حتى فيه، وهم راضون وقانعون باعتمادهم على الحماية البريطانية، إضافة إلى أنهم سيكونون أكثر سعادة لتعاون ابن سعود إذا تمكن الأخير من تبرير الأمر بحصافة ولباقة مع البريطانيين. ثم واصل محدثي قوله بأن هناك انطباعًا عامًا بأن سادة آل الكاف يعادون ابن سعود إلاّ أن هذا الانطباع بعيد جداً عن الواقع، ذلك أن عرب حضرموت، من بين جميع الشعوب، سيكسبون كثيراً من تدخل ابن سعود لإحلال السلام والأمن بدلاً عن الفوضى وعدم الاستقرار، ومن هذا المنطلق فلا توجد عداوة بين الفريقين. والاستنتاج الذي يمكن استخلاصه من هذه الملاحظات العامة واضح تماماً: أنهم -أي عرب حضرموت- يدركون تماماً أن ابن سعود قد فرض السلام والأمن على المملكة العربية السعودية وهم يرغبون في إحلال هذا السلام على ربوع بلادهم، وأن الحماية البريطانية لم تتمكن في الماضي ولن تستطيع مستقبلاً معالجة المشاكل الناتجة عن الفوضى وعدم استتباب الحكم. كما قد سألني موظف يحتل وظيفة مرموقة بصراحة تامة ما إذا كان في مقدور ابن سعود إرسال كتيبة أو تجريدة صغيرة من الجنود السعوديين في حدود مئتي رجل لفرض الأمن والسلام في حضرموت، وواصل المسؤول الكبير قوله بأن حكومة السلطان سوف تتحمل جميع نفقات هذه الكتيبة. أجبت الرجل قائلاً: «نعم لكن ماذا سيكون موقف أصدقائكم في عدن حيال هذا الأمر؟». ضحك الرجل؛ وكلانا يدرك الصعوبات التي تحول دون تحقيق هذا الرجاء. إن الحكومة البريطانية لا تستطيع بسط الأمن والسلام

في ربوع حضرموت، أما ابن سعود فهو الوحيد القادر على ذلك بدون أي شك. هل يقوم البريطانيون بدعوة ابن سعود ليؤدي هذا الدور؟ أبداً!.

وفي طريق عودتي إلى مقر إقامتي بعد حفل الشاي الذي دعاني له السلطان قمت بزيارة مفيدة إلى الإخوان آل الكاف والبعثة المصرية، وكانوا يقيمون في قصر غالب، ولما كانت فترة إقامتهم بالمكلا قصيرة جداً فقد كان لي شرف مقابلتهم جميعاً مرة أخرى في تريم. لقد قام المصريون بزيارة عدد من المواقع الأثرية الهامة في اليمن مثل: ناعط، وعُمْران، وحَجَّة، وخَرْيد، غير أن صاحب الجلالة الإمام قد وضع بعض العقبات أمام زيارتهم المقررة إلى مأرب والجوف، بحجة عدم الاستقرار والأمن السائدين في تلك المناطق. لقد أذن ابن سعود للبعثة المصرية بزيارة نجران وعندما كنت هناك خلال شهر يوليو كان الحاكم يتوقع وصولهم في أية لحظة، ويبدو -مع ذلك- أن الإمام لا يرغب في تقديم التسهيلات اللازمة والضرورية للرحلة عبر تخومهم الشمالية، ولهذا لم تتمكن البعثة المصرية من زيارة نجران مما أضاع فرصة نادرة لوضع خريطة للمنطقة الجنوبية والتي لم يسبق أن وضعت لها خريطة من قبل. وبعد إجراء ما هو ممكن ضمن الحدود والتخوم التي تمكنوا من زيارتها، واصل أعضاء البعثة رحلتهم إلى عدن وقابلوا السلطان وسادة آل الكاف الذين أقنعوهم بالقيام بزيارة ولو قصيرة إلى بلادهم. كانت البعثة العلمية المصرية تتكون من: رئيس البعثة، سليمان حزين (علم الأجناس، الآثار والجغرافيا)؛ م. توفيق (علم النبات وعلم الحشرات)؛ ن. شكري (الجيولوجيا)، إضافة إلى خليل نامي (دراسة النقوش)، وكانت هذه أكبر بعثة علمية تزور الجزيرة العربية منذ رحلة كارستين نيبور في القرن الثامن عشر، وسيكون الجميع في انتظار تقرير هذه البعثة، خاصة وأن السيد حزيناً قادر على القيام بعمل مقدر في مجال فرع الإنثروبولوجيا الذي يبحث في قياس الجسم البشري. وبهذه المناسبة فقد أخبرنا في اليمن كما أُخبر من قبلنا الدكتور راثيانز عالم الآثار

الألماني، بأن الخرتيت يعيش في بلاد أرحب، وقد أُكدّ للدكتور راثيانز أيضاً بأن الزراف يعيش في المنطقة نفسها. وكلتا الروايتين مشكوك في صحتها ولا يوجد في واقع الأمر مصدر إثبات موثوق يكون قد رأى بعينيه أياً من هذه الحيوانات في أي موقع في الجزيرة العربية.

إن الحياة في المكلا ليست مثيرة وهي تختلف قليلاً (عدا في المناخ) عن الموانئ الأخرى الواقعة على البحر الأحمر والخليج العربي، فيما عدا أن سكان المنطقة ما زالوا متمسكين بتقاليد ونمط حياة أهل الشرق، فلا توجد بالمكلا مسارح أو دور سينما، ولم يهتم أحد من المسؤولين بإيجاد أماكن لهو وترفيه لجماهير المدينة، عدا الفرقة الموسيقية التابعة للسلطان. وفي حقيقة الأمر فإن السكون التام يخيم على المدينة وأهلها بعد مغيب الشمس.

ولقد اعتاد الجميع الخروج من منازلهم عند الأصيل، فرادى أو جماعات، راجلين أو بالسيارات للترفيه عن أنفسهم. يفصل مجرى سغم بين المكلا وضاحية شاري التي تتميز بمنازلها الكئيبة والموحشة والمصنوعة من القش أو أغصان الشجر. ومع ذلك يوجد القليل من البنايات الكبيرة، إضافة إلى المسجد، وهذه تعد مباني حديثة بالمقارنة مع المباني الأخرى. لقد أقيمت هذه الضاحية فوق منطقة مرتفعة بعض الشيء تبعد حوالي ميل عن البحر، ويقف من خلفها حزام كثيف من كثبان الرمال البيضاء كما الثلج، وتفصل هذه الكثبان الرملية الضاحية من الصخور السوداء للسلسلة الساحلية. أما السهل الرملي الذي يقع أمام الضاحية فقد تمّ تخصيصه كمحطة أو موقف للقوافل. ولهذا تجدها دائما مكتظة بالجمال والحمير والبشر في حركتهم الدائبة بين المدينة ومناطقهم الريفية. وتفوح روائح السمك المجفف وروث الجمال من هذه المنطقة، بينما يلعب شباب المدينة كرة القدم في معظم فترات ما بعد الظهر على طول شاطئ وادي سغم حسب لوائح الاتحاد. ويوفر الشاطئ الممتد جهة

الغـرب حيث تتـلاطم أمواج البـحر بهـدوء وتؤدة على خط الماء البلوري، وتتـسارع القشريات المائيـة في طريقها نحو جحورها عند سـماع خطوات المارة والمتسكعين على الشاطئ، ويوفر هذا الشاطئ البلوري الجـميل مجالاً رحباً للترفـيه عن النفس وتزجية الفراغ، ولا يعكر صفو المكان إلا أصوات السيارات المسـرعة المتجهة نحو منطقة فوه، حيث يوجـد المطار الجديد. وتوجد أيضاً صـخور مسطحة تمتـد على طول الشاطئ، نصفها مغمور في الماء ويتـخللها العديد من البرك الضحلة. وفي هذا المكان -تحديداً- تتجمع نساء ضـاحية شاري، وبعض البدويات الأخريات لأجل الاستـحمام والنظافة والغسيل، وذلك بعد نهاية عمل يوم طويل استعداداً لصلاة المغرب والتي يؤدينها على ساحل البـحر. وكن في أغلب الأحيـان يستحـممن بكامل ملابسـهن وفي هذا فائدة مزدوجة: تنظيف الأجسام والملابس. وقد كنـت أتمشى إلى مسافات بعيدة على طول هذا الساحل الهادئ الجميل ثم أعرج على كثبان الرمال البيضاء العالية، وأجلس هناك حتى المغيب مـتأملاً بعض الحيوانات المائيـة الصغيرة وهي تصعـد المنحدرات المنزلقة، وترفع هذه الحيوانات رأسهـا من وقت لآخر مما يتسبب في دحرجتهـا مرة أخرى نحو القـاع، إلا أنها تعـاود الصعـود بجد لا يكل وعـزيمة لا تلين. تُرى ماذا تعـمل هذه الحيوانات المائية الصغيرة فوق هذه القمم الرملية، عدا الاستمتاع بالهواء العليل؟! هذا سؤال لم أتمكن مـن الإجابة عنه أبداً، ومع ذلك فـإن الرحلات الاستكشـافيـة لهذه الحيـوانات الصغيـرة تترك وراءها لوحات سـريالية فوق الرمـال. وكنت أسلي نفسي بخلع المحارة أو المـأوى المتحرك لأي من هذه الحـيوانات المائيـة ومراقبـة محـاولاتها المستـميـتة للعـودة إلى دارها أو محـارتها. وأية محـارة بحجم مـلائم يمكن أن تفي بالغرض على أكمل وجه، وتزداد المنافسة حدة وتشويقاً إذا تركت محارة واحدة لاثنين من الحيوانات منزوعة المحارة!.

أقام السلطان -مساء اليوم الثاني لعودته من الخارج- حفل عشاء بالقصر حضره جمع غـفير من كـبار موظفيـه، إضافة إلى سـادة آل الكاف وأعضاء البـعثة العلمـية

المصرية وكاتب هذه السطور. كان الحفل عبارة عن مناسبة اجتماعية غير رسمية، وكان الطعام رائعاً، وقد تم تقديمه بالطريقة الأوروبية، وكان الحديث فاتراً بعض الشيء احتراماً ومراعاة لصمت السلطان وميله الطبيعي للسكوت وقوبلت محاولاتي المتكررة لجذب ابنه عوض للحديث والحوار بردود فعل لا تتجاوز الكلمة الواحدة، مما يعني -بطريقة أو بأخرى- عدم رغبة الابن -كوالده تماماً- في الحديث والثرثرة. وفي اليوم التالي غادرت البعثة المصرية المكلا في طريقها إلى تريم، وكان في صحبتهم سادة آل الكاف. وقد تركت وحيداً.

ذهبت ذات ليلة لجلسة استماع إلى الراديو في منزل يوسف شريف، الوكيل المحلي لشركة بيسي، كما قمت أيضاً بزيارة أو زيارتين لمنزل المحضار الذي كان دائم الحركة والنشاط بعودة السيد حامد، وأعترف أن الحياة الاجتماعية في المكلا لا تخلو من الفتور والركود، كما لو أن أي شخص يخاف أن يسمعه وهو يقول شيئاً مفيداً يستحق أن يُسمع. ولا شك في أن موقف عدن خلق قناعة لدى الجميع بأن الصمت أكثر أماناً من الحديث. وفي الحقيقة ليست لديّ أية رغبة لإطالة إقامتي في المكلا، إلا أنني مضطر لانتظار المركب القادم من عدن لاستلام قطع الغيار المطلوبة، وليس في مقدوري بالطبع استعجال قدوم المركب.

وقد كان لوصول الباخرة ذات المدخنة الزرقاء، واسمها بوليفيمس، القادمة من جزر الهند الغربية، دور في كسر الرتابة والوحدة التي انتابتني خلال الأيام القليلة الماضية، كما أنني كنت بحاجة ماسة إلى التبغ وبعض الضروريات الأخرى، لهذا انتهزت هذه الفرصة لقضاء الفترة الصباحية بالبحر فوق سطح المركب. كان القبطان الكابتن بروير، الذي امتدت سنوات خدمته في البحر إلى اثنتين وأربعين سنة، من المؤمنين بالروتين والتنظيم، وما لفت نظري حقيقة هو البرنامج الصارم الذي يطبقه الرجل على نفسه، والذي لا يتحمله إلا الأنبياء والمتدينون، فهو لا يدخن ولا يشرب الخمر، وقد حرّم على نفسه كل أنواع السلوك غير السوي، إضافة إلى أنه يتناول

وجبات طعامه في مواعيد محددة بدقة شديدة، كما أن مواعيد قيامه ونومه محددة. إضافة إلى التفتيش اليومي للسفينة. وفوق هذا وذاك يقتطع كابتن بروير ساعة كاملة من برنامجه اليومي لمزاولة هواية النجارة والتي أثمرت عن صنع أثاثات بديعة لمنزله في هولندا، كما أنه يقتطع ساعة كاملة أخرى في كتابة جزء من خطابه لزوجته العزيزة، ولا أشك مطلقاً في أن الرجل قد وصل لقناعة تامة بأنه وجد الإجابة الشافية للغز حياته. وأحسب أنه يمكن تقرير هذا الأمر بالنسبة للكابتن -غير أنه- وأنا في طريقي داخل المركب نحو الساحل أشعر بسعادة بالغة بأنني لم أتوصل إلى هذه الإجابة الشافية بعد.

وبخلاف الوضع في الشحر، فإن إدارة الجمارك في المكلا تديرها وكالة حكومية، وقيمة الرسوم الجمركية هنا ثابتة وتبلغ ٨٪ مع رسوم إضافية على السكر وبعض المنتجات الأخرى. وتبلغ رسوم التبغ ١٧ ريالاً على حمولة ٣٠٠ طن من التبغ، وتتفاوت القيمة وفقاً لأسعار السوق، ما بين ٥٠-١٠٠ ريال، ولم أتحقق من مجموع متحصلات الضرائب السنوية، غير أنه بالتأكيد يفوق ثلاث أو أربع مرات مقدار الربط السنوي لمدينة الشحر. ولا يختلف اثنان أن المصروفات المترتبة على جيش يتراوح بين أربع مئة وخمس مئة جندي تستنزف نسبة كبيرة من دخل الدولة، كما أن هناك التزامات مالية أخرى تصرف على المدارس المحلية والمستشفى، وفيما عدا هذه البنود فيبدو أن القائمة المدنية والخدمة العامة يمثلان أوجه الصرف المهمة. وللسلطان - بالطبع- أملاكه الخاصة التي تدر عليه دخلاً سنوياً خاصة في غيل باوزير.

يبلغ عدد السكان المنحدرين من أصل هندي في المكلا حوالي ٢٠٠ نسمة، ومن أهمهم: يوسف شريف، وكيل شركة بيسي، وكان موظفاً سابقاً في خدمة الدولة؛ وحسين جعفر وكيل مؤسسة كواسجي دنشاو في عدن ومدير مؤسسة قوجراتي العريقة، والتي يمتلكها عبد الله بهوي لاجي.

وقد قضيت صباحاً جميلاً فوق السفينة «بوليفيمس»، وقمت بجمع مجموعة

كبيـرة من المطبوعات الهامشـية اليومية الـتي صدرت حديثاً، مثل: العـدد الأسبوعي لجريدة ديلي ميـرور مما مكنني من الإحاطة -ولو جزئياً- بمجريات الأحـداث العالمية. زارني -في عصر أحد الأيام -أحمد بن ناصر واصطحـبني معه في سيارته إلى القصر الصيفي في الـنقعة، حيث سبـقنا إليه السلطان وابنه، وفي مساء اليـوم التالي تناولت طعام العشاء -مرة أخرى- مع السلطان ،كان عـشاء عائلياً هادئاً. وكانت سعادتي لا توصف عندما لمحت في الساعات الأولى من صباح يوم ١٠ سبـتمبر نقطة صغيرة في عرض البحر، وخـيط رفيع من الدخان المتصاعد، وهذا يعني وصـول السفينة. وعند منتصف النهار وصلت السفينة ومعها قطع الغيار والأفلام والمال.

وعند الساعة الثالثـة من عصر اليوم نفسه، وبعد تناول الغداء فـي قصر عمر، ذهبت إلى السلطان لوداعه وقد أصرّ على قطع نومه ما بعد الظهيرة لاستقبالي، وبعد أن شكرت أحمد بن ناصر على كرمه وعطفـه اتخذت موقعي في السيارة وخرجنا من المكلا. وما أسفت على شيء قدر أسفي على عدم تمكني من رد إحسان وعطف وكرم أهلها الفيّاض.

لقد هطلت أمطار غـزيرة منذ رحلتي الأخيرة على هذا الطريق، كـما أن أودية البويش والشحيـر أعاقت تقدمنا، ومع ذلك وعند الساعة الخامسـة مساء كنا قد قطعنا مسافـة ٣٣ ميلاً ووصلنا إلى مدينة الغيل حـيث سنقضي الليلة فيهـا نزولاً على رغبة وإلحاح سيد أحمد الحـدادي، الذي زارني بالمكلا وأصر على رد الزيارة. لقد سبق أن سمعت عن جمال وفخامة حـدائق السلطان بمنطقة الغيل، غير أنني ما كنت أتصورها بهذا البهاء والجمال أبداً، وأسـتطيع أن أؤكد بأنني لم أر أجمل منها على الإطلاق في الجزيرة العربية كلهـا. سارت السيارة وسط شارع تحيط به أشـجار جوز الهند، وغابة من أشجار الزينة الأخـرى، ويتوسط هذه الغابة الخضراء حوض مـاء مستطيل الشكل وبجـانبه يقـوم بيت السلطان الـذي يتكوّن من طابقين مع شـرفاته المواجـهـة لحمـام السباحة.

لم نتمكن من إخطار مضيفنا بقدومنا مسبقاً، إلا أن حارس المنزل بعد أن فتح لنا الباب وأدخل أمتعتنا وأغراضنا، توجه فوراً إلى صاحب الدار لإخطاره بوصولنا، وفي هذه الأثناء كان أمامي حوالي نصف الساعة لكي ألقي نظرة عامة على الحديقة. لقد أثار انتباهي وعجبي تعدد أشجار الفواكه في حديقة عربية: النخيل، وأشجار جوز الهند، وأشجار التين، والموز، والباباي، والسفرجل الهندي، والجوافة، والليمون، والرمان والكرم وربما تكون هناك أنواع أخرى لم ألاحظها.

أما أشجار الزينة، بالرغم من أنه لا يوجد ما يضاهي شجرة جوز الهند جمالاً وبهاءً، فقد كانت تشكل جداراً عالياً يحيط بثلاثة جوانب من حوض السباحة، وتشمل نباتات الزينة هذه: أشجار القطن، والنيم، والتمر هندي. وقد لاحظت أن هناك بعض المحاصيل المزروعة مثل: الفلفل، والدخن، وأصابع السيدة (البامية)، وخضراوات أخرى عديدة. وفي واقع الأمر فإن هذه الحديقة رائعة بكل المقاييس، إضافة إلى أنها أصبحت جنة وملاذاً للعديد من أنواع الطيور الجميلة مثل: الحمام الأخضر، والبلابل، والطيور الحمراء المغرّدة، وطيور الماء، إضافة إلى الأعشاب المتدلية من سعف جوز الهند الذي يشبه المروحة.

وصل القائمقام ولحقت به عند الشرفة حيث وضع الخدم كميات كبيرة من الفواكه: أولاً حليب ثمرتين من ثمار جوز الهند، ثم التين، والرمان والباباي. يمكن وصف سيد أحمد بأنه يميل إلى الوحدة، وهو يعيش في عزلة تامة بمنزل الحكومة المحلية المخصص له والذي يشبه البرج المحصن. لقد توفيت زوجته منذ خمس سنوات، ويتلقى ابنه الوحيد تعليمه في حيدر آباد. والرجل كريم بكل المقاييس وطيب المعشر والصحبة. وبعد قليل وصل بعض الأعيان وأغلبهم من أصل يافعي. جلسنا جميعاً نتجاذب أطراف الحديث حول الموضوع الذي يشغل الجميع، ألا وهو التبغ، حيث عبروا عن بالغ أسفهم لتدني أسعاره خلال السنوات القليلة الماضية، وعلمت أن

هذا الوقت هو ميعاد نثر البذور في الأرض وتجهيز النباتات لغرسها فيما بعد. أما موسم الحصاد فهو في شهر ديسمبر من كل عام. وكان المزارعون، في الزمان الفائت، يعملون بنظام الدورتين في العام، أي يزرعون ثم يحصدون، ثم يزرعون مرة أخرى، غير أنهم اكتفوا بدورة واحدة نظراً لارتفاع التكلفة المالية.

وحدة وزن التبغ هي الفرسلة، وهي تساوي عشرين رطلاً إنجليزياً، وتبلغ حمولة الجمل الواحد عشر فرسلات، أي مئتي رطل. وتبلغ قيمة أجود الأنواع من هذه الحمولة في عدن، بعد خصم أجرة الترحيل بالجمال والباخرة، وكذلك الضرائب المحلية، إضافة إلى رسوم عدن حوالي ٢٣٠ ريالاً، بمعدل ثلاثة وثلاثين ريالاً لكل «مند»، (وحدة وزن هندية)، يزن ٢٨ رطلاً. أما في الوقت الحاضر فقد انخفضت أسعار التبغ إلى ١٣ ريالاً لكل مند، وتبلغ قيمة حمولة الجمل الواحد (عشر فرسلات) ٩٠ ريالاً فقط. وكما سبق فإن هذه الأسعار تمثل أسعار أجود أنواع التبغ المتوفرة في الأسواق والمعروض منها قليل جداً، أما الدرجات الأخرى (الدرجة الثالثة للتُمباك أو الورق عالي الجودة، والثالثة الأخرى للورق الأردأ والساق) فإن أسعارها متدنية جداً بالمقارنة مع السعر المذكور أعلاه. تعتمد بساتين وحدائق الغيل على الري الانسيابي من مياه الينابيع، إضافة إلى أنها تتمتع بمناخ مداري رائع. والأمطار هنا ليست منتظمة الهطول وقد يمر عام كامل دون أمطار. إن أهل الغيل فقراء وتنقصهم المبادرة والاجتهاد، ولا شيء يهمهم غير التبغ. ومما يؤسف له عدم إدراكهم واستيعابهم لمغزى وجود هذه البساتين السلطانية، وما يمكن أن تمثله لهم من سوابق وتجارب يمكن أن يطبقوها بأنفسهم ولمصلحتهم الذاتية.

تتكوّن حامية الغيل من ٢٥٠ فرداً من القوات القبيلية، وليس بينهم جنود نظاميون، وجميعهم من عشيرة اليافعي، ولا يوجد بينهم أي عنصر من العبيد. ولقد لاحظت في المناطق الأكثر استقراراً وجود القليل من ممارسات تجارة الرق إن لم أقل انعدامها تماماً، وبما أن هؤلاء العبيد من المماليك إلا أنهم يعدون في عداد المنقولات

بالنسبة لأسيادهم. أما في المناطق القبلية فـهناك ممارسات واضحة لتجارة الرقيق، وقد أخبـرني السيد أحـمد أنه قضى عـشر سنوات من حيـاته في جاوة حيث كـان يعمل مقـاولاً في مجال مواد البنـاء المتعلقة بتشـييد حـصن كانت الحكومة الهـولندية تقوم بإنشائه، وبعـد ذلك نُفي خمس سنوات أخـرى في حيدر آبـاد وبعدها أي قبل سـتة أشهر فـقط، وصل إلى المكلا مع السلطان. وأضاف الرجل قائلاً أن تعيـينه في الغيل يعد أول وظيـفة حكوميـة يشغلهـا، لكنه نقل إلى وظيفة أخـرى في سكرتارية المكلا تحت "النظام الجديد" وأن خلفـه الأكثر حـيوية ونشاطاً، عمـر المخيرش، قد اغـتاله بعض أفراد قبيلة الحموم في يناير ١٩٣٨م.

وعند مغيب الشـمس وكذلك صباح اليوم التـالي استمتعت بحـمام في حوض السبـاحة، وبعـد تناول طعام الإفطار، قـمنا -السيـد أحمد وأنا- بنزهـة في الحدائق المجاورة وزرنا بقـايا قلعة قـديمة إضافة إلى القـصر المخصص لحـريم السلطان والذي يفصله من الحديقة فاصل كثيف من أشجار الزينة.

يتميـز المبنى المخصص للنساء بالطابع المحلي البحت بالمـقارنة بالمنزل المخصص للرجال. وبعـد أن شاهدنا كل ما نريد مـشاهدته في منطقة الحـديثة ذهبنا إلى المدينة ودخلناها بالسيارة، من البـوابة الغربية وواصلنا سيرنا مروراً بالمدرسة والمسـجد الكبير حتى وصلنا الفسحـة المواجهة للبوابة الشرقية، وأبرز معـالمها هو حصن منصور الذي يقيم فيـه القائمقام. صـعدت إلى سطح الحصن وتمكنت من مشـاهدة المدينة والمنطقة الريفية التي تحيط بها، وبعد وجبة خفيفة وقهوة قدمها لنا مضيفنا ، واصلنا السير مرة أخرى لزيارة مزارع التبغ الواقعة في طريق الشحر.

تتوسط منطقة التبغ بئران ارتوازيان كبيـرتان هما: حومة الحرف وحومة غالب، وتقعان على بعد مـيلين شمال المدينة. وتشبه هذه الآبار بمياهها العـميقة والداكنة آبار مناطق الخرج والأفلاج والتي أعـرفها جيّداً. وقـد شاهدنا عند وصولنا مجـموعة من

الأطفال يستحمون في إحدى هذه البرك المائية. إن الأحواض التي تنمو عليها نبتة التبغ لا تسقى من هذه البرك وإنما تسقى من آبار محفورة ويتم رفع المياه بواسطة قواديس (دلو) مربوطة بحبال، ويتم سحب الحبال فوق بكرات مثبتة على منصة فوق فوهة البئر. وهذا المنظر يشبه مناطق الفحم في إنجلترا.

يُزرع التبغ في أحواض مربعة وصغيرة جداً، وكان وقت زيارتنا قد بدأ ينمو ويظهر فوق سطح الأرض. وبعد أن تنمو النبتة وتصل إلى حجم معين يتم خلعها من جذورها لإعادة غرسها في مربعات كبيرة في داخل وحول القرى والبساتين المجاورة. تسمى منطقة زراعة نبتة التبغ والآبار التي ترويها بـ "القاف"، ويوجد بستان نخيل صغير اسمه النقيعة يقع في طيه وسط الجبال على بعد نصف ميل في اتجاه الشمال الشرقي. يبلغ إنتاج التبغ السنوي لمزارع الغيل حوالي ٤٠٠٠ بهارة من التمباك درجة أولى -به ثلاثة درجات مختلفة-، إضافة إلى ١٥٠٠ بهارة من الأوراق ذات الجودة المتدنية، ويمكن تقدير قيمة الإنتاج السنوي للمحصول في حدود ٢٥٠ر٠٠٠ ريال (حوالي ١٩ر٠٠٠ جنيه إسترليني)، بينما يمكن أن ترتفع القيمة في عدن، بعد خصم جميع المصروفات، إلى ٤٥٠ر٠٠٠ ريال حوالي (٣٤ر٠٠٠ جنيه إسترليني)، ويبلغ نصيب الحكومة في حدود ٩٠ر٠٠٠ ريال (٧ر٠٠٠ جنيه إسترليني)، وما تبقى يمثل أجور النقل والضرائب الأخرى وأرباح الوسطاء. وإذا تم تطبيق الأصول الصحيحة لتسويق إنتاج الغيل من التبغ يمكن أن تزيد أرباح المزارعين أضعافاً مضاعفة، بالمقارنة بأرباحهم الحالية. ويمكن أن نقول: إن شركات إنتاج التبغ الكبرى تستطيع أن تطرد صناعة الغيل وتبعدها عن المنافسة إذا تمكنت (الشركات الكبرى) من جذب جمهرة المدخنين إلى إنتاجها. وفي فترة من الفترات كان الجميع على ساحل البحر الأحمر مثلاً يدخنون التبغ "الحمومي" المشهور. أما أبناؤهم اليوم فإنهم يفضلون أصناف "باسنغ شوز" و "لكِي إسترايكز".

وصلنا الشحـر بسلام حوالي منتـصف النهار، وعند وصولي إلى استـراحة آل الكاف أخبرني الدكتـور خواس أن «نورمان بيرن» قد عاد من محاولتـه غير الموفقة في شبوة، وأنه قد ركب لتوه الباخرة «أفـريقيا» والتي من المفترض إبحارها في أي لحظة. واقترحت عليه أن نأخـذ مركباً صغيراً لوداع الرجل. ولـم تمر دقـائق معدودة حتى كنا على ظهر مركب يجدفه طاقم من الزنوج الأشداء، وشق المركب طريقه وسط الأمواج العاتيـة، وكان بيرن وربان السـفينة فوق السطح العـلوي للسفينة يقـرؤون الصحف، وبعد قليل أخـبرني نورمان بتفـاصيل الاضطرابات التي حدثت في الصـحراء. وهذه كانت نهـاية مؤسـفة لجهـد بدأ بالكثيـر من حُسن النية مع انعـدام التجـربة والمعدات اللازمة (مـالية وعلمـية)، والتي لا يمكن إغفـالها أثناء السـفر والترحـال في الجزيرة العربية. وقد أعرب ربان السفينة عن دهشـته لأي شخص لديه الرغبة في التجوال في هذه الصـحارى. وهو نفـسه الذي يصطحب المسـافرين على باخـرته للنزول في هذا الساحل الـقاني وغيـر المضيـاف، ثم يعود بهم إلى ديارهم وهم أكـثر خبـرة وحنكة وتجربة، وإن كـانوا أقل وزناً. لقد أخبـرت القبطان بأنني أفضل العـودة إلى جدة عن طريق البر، كـما أنوي أن أفـعل، وليس على ظهر قاربه الذي أصـبح داراً له. ينظر البحـارة دائماً لوظيفـة مريحة فوق اليـابسة وبعيـداً عن أهوال البحر، وذلك لقـضاء خريف وشتـاء ما تبقى من حيـاته في البحر. إن الاستقـرار وطيب العيش هو هدف إنساني يسعى الجميع لتحقيقه، والبحارة ليسوا استثناء من هذه القاعدة.

لقد كانت الباخرة أفريقيا جاهزة وعلى أهبة الاستعداد للعودة إلى المكلا وعدن، وتمنيت للرجلين رحلة سعـيدة ثم غادرنا السفـينة وعدنا إلى اليابسة وبعـد ذلك قمت بجولة طويلة حول المدينة وصـورت معالمها الرئيسة ثم ذهبت إلى منزل الـسيد الشيخ الشتيري لتناول وجبة الغداء، وعند منـتصف الأصيل كانت سيارتنا تطوي الأرض طياً عبر البوابة الشمالية في اتجاه بداية طريق الخروج، وتعرض أحد إطارات السيارة لثقب عطل مسيرنا قليلاً، ومع ذلك وصلنا إلى المكان المقـصود قبل غروب الشمس وأقمنا

معسكرنا استعداداً لقضاء الليلة هناك، كما فعلنا في المرة السابقة لم يكن معنا طعام للعشاء وقد كانت معي قطعة كيك أحضرتها معي من الشحر، إضافة إلى تفاحة وجوزة هند وهي تكفي لتخفيف حدة الجوع، ومع انعدام أي مصدر للإنارة في هذا المكان الخلوي كان عليّ أن آوي إلى فراشي مبكراً وكان البعوض يلسعني من وقت لآخر، وكأنه يبحث عن ضحايا في أسفل الوادي. بذل زعيم قبيلة المعدي جهداً مقدراً لإحضار بعض الطعام، على حسابي الخاص، وعرض علينا إرسال شخص إلى قريته لإحضاره، وأخبرته بأنه من واجبه أن يبذل قصارى جهده لراحة ورفاهية ضيوفه، بدلاً من مساومة أحدهم حول ثمن كرم الضيافة! وعلى كل حال كان الوقت متأخراً ومن المؤكد أنني سأنام قبل إحضار الطعام وتجهيزه وطبخه. ثم ماذا إذا قضينا ليلة واحدة بدون طعام بعد كل الترف والرفاهية التي عشناها خلال الأسبوعين الأخيرين في المكلا.

قضينا الساعات الأولى من صباح اليوم الثاني لحسم مسألة الجمال التي ستحمل أغراضنا إلى المعدي، وكذلك استمرار سيرنا عبر سلسلة الجبال التي أمامنا. صعدت قمة أحد الجبال الصغيرة وتركت للرجال قرار تحديد أجر الجمال أو أن يتركوا المسألة لتقديري الشخصي فيما بعد. وبعد كثير من الجدل اختاروا الخيار الثاني وبدأنا سيرنا على طريق المعدي وكان الجو هادئاً مع ضباب ورطوبة، وبعد مسيرة قصيرة بزغت الشمس وبدأت ترسل أشعتها الحارقة على أجسادنا، مما أفسد علينا متعة الرحلة الصباحية، مع ذلك وصلنا المعدي حوالي السابعة والنصف صباحاً وخلدنا إلى راحة طويلة حتى الساعة الثانية والنصف بعد الظهر حيث بدأنا سيرنا على الجبل. لقد سبق أن اشتريت عندما كنت في الشحر، ترمسين ياباني الصنع وكان ثمنهما بخساً نسبياً، أي حوالي الشلنين للواحد، وكان هذان الترمسان من أسلحتي المهمة جداً للسفر عبر الصحراء، ذلك أنهما كانا يوفران لي الشاي الذي أحبه في أي وقت أطلبه ليلاً أو

نهاراً، مما أراح مرافقي كثيراً وأعانني شخصياً على تحمل الرحلة حتى نهايتها. ولقد هنأت نفسي كثيراً على هذا القرار الصائب وهذا الإنجاز الرائع.

وبينما انشغل الرجال بتحضير وجبة الغداء المكوّنة من الأرز وتوابعه من جوز الهند والقهوة، آثرت أن استحم في البركة شبه الراكدة حيث ابتعدت الضفادع والحشرات المائية وتركت كل شيء تحت تصرفي، وقد وزعت وقتي بين الصخور الواقية وأشجار التين البري بحثاً عن ظل يحميني من أشعة الشمس. يستخدم السكان المحليون سائل شجرة التين البري كمرهم لعلاج الجروح، ويقال: إن له خواصاً تساعده على سرعة التئام الجروح، ولاحظت في زيارتي الحالية هذه أن حضور وتوافد النساء أصبح مكثفاً وملحوظاً بالمقارنة بزيارتي السابقة. وقد شاهدت بعضهن يسقين الأغنام والقنان للسقاية، أما الأمهات -من بينهن- فقد كن يحملن صغارهن فوق منطقة الورك أو داخل وعاء جلدي صغير يشبه دلو الماء، وذلك وفقاً لعمر الطفل المحمول. ترتدي النساء ملابس ثقيلة مع أن التنورة لا تغطي الكاحل أو تتدلى إلى الأرض كما عند نساء نجد. وتجدر الإشارة إلى أن استعمال التنورات الطويلة في المناطق الجبلية غير مناسب، إن لم يكن خطراً. ترتدي نساء اليمن ثوباً خارجياً فضفاضاً أزرق اللون مع أكمام واسعة تكشف عن الخاصرتين، بينما يغطى الرأس بحجاب كثيف مع منديل طويل يكاد يغطي حتى العينين، وتبدو عليهن سيماء التعب والكآبة كما أنهن يفتقرن إلى غنج ودلال أخواتهن البدويات.

قررت أن أتمشى قليلاً لاستكشاف المنطقة، وصعدت أحد الجبال المجاورة ولم تكن تجربة سيئة على كل حال، خاصة وأن هبوب عاصفة رعدية قد لطف الجو كثيراً مما ساعدني على الوصول إلى قمة الجبل. وبعد هنيهة، هطلت أمطار قليلة فقفلت راجعاً إلى موقف السيارات في رأس الحروة. قام الرجال بجمع بعض الحطب الجاف وأوقدوا نار المعسكر وامتلأ الجو برائحة الحريق والدخان. أمضينا حوالي الساعتين والنصف منذ أن تحركنا من المعدي حتى وصولنا قمة الجبل، وقد سعد الذين كانوا

يتولون حراسة السيارات في غيابنا أيما سعادة بعودتنا، ولاحظت قطيعاً من الضأن حول المعسكر وكان أصحابها قد جلبوها إلى هنا على أمل أن نشتري منهم، غير أن أسعارها كانت مرتفعة.

لقد زاد عدد المجموعة التي تصاحبني من الرجال ووصلوا حوالي العشرين شخصاً، ولا يوجد -قطعاً- طعام يكفي هذا العدد، لهذا رأيت شراء خروف وعرضت على صاحبه مبلغ خمسة ريالات، وهو السعر الساري في أسواق المدن إلا أن أصحابه أصروا على سبعة ريالات رفضت وأخبرت مرافقي برغبتي في النوم بدون عشاء. قال زعيم مجموعة المعدي: "لكن ليس لدينا معاش (طعام)" وهم في الظروف العادية لا يأكلون اللحم إلا مرة واحدة في الأسبوع، إذا تيسر لهم ذلك. وأجبته محاكياً نفس نبرته ولهجته: «ولا حتى أنا». واستطردت: «لكنني سأعيش بدونه». هنا انخفض السعر المعروض إلى ستة ريالات، لكنني رفضته على أساس أنه سعر غالٍ: «خمسة ريالات ونصف؟» حاول أصحاب القطيع لكنني بقيت عند موقفي وعنادي، ولم يكونوا هم أقل عناداً على كل حال. وفي نهاية الأمر، ولكي أضع حداً للجلبة والضوضاء ناديت عوضاً وأخبرته بأنني سأدفع خمسة ريالات ونصف للخروف وإنني لن آكل منه شيئاً. وكل هذا لم يحرك ساكناً في أصحاب الخروف. وتحول غضب وسخط البدو إلى ضحكات ترقب وأمل وهم جالسون حول قدر الطعام. وعلى أي حال لا أستطيع أن أجزم متى تناول القوم عشاءهم بعد أن ذبحوا الخروف. ذلك أنني كنت قد شبعت نوماً وقتها ولم يحاول أي منهم أن يعكر صفو نومتي تلك. ويبدو لي أن هؤلاء القوم غير طيبي المنبت والأصل، وربما يكون من الخطأ الشنيع الحكم عليهم بأي من المعايير الإنسانية. ولقد انطبعوا في ذاكرتي وحوشاً كاسرة، غير أنهم مسلون. ومع هذا فإنني لا أملك إلا أن أشعر بوخز الضمير، ذلك أن طريق السيارات الذي يعبر منطقتهم الجبلية المنحدرة وغير المضيافة سوف يؤدي -وإن كان ببطء وثبات- إلى تشذيب سلوكهم وطبعهم إلى مستوى عالم يختلف

اختلافاً شديداً عن العالم الذي يعيشون فيه منذ الخليقة. إن الحياة القاسية والمعاناة الشديدة، وشظف العيش قد وجهت ذكاءهم الإنساني لخدمة أهداف وغايات لا تختلف كثيراً عن أهداف وغايات غير عقلانية. إن الصفة المميزة لهؤلاء هي الأنانية، وقياساً على هذا المعيار فإن مواطني المعدي -وأقرانهم الآخرين الذين يعيشون في مضائق حضرموت- ليس لهم منافس خطير[1].

في صبيحة اليوم الثاني، وبعد انقضاء ليلة هادئة ونوم مريح، كنت في حالة نشوة واسترخاء دفعني لمراقبة سلوك هؤلاء القوم الذين لن أراهم مرة أخرى. أجريت عملية حسابية ذهنية سريعة للتموينات والخدمات المصاحبة التي قدمها القرويون وقررت أن مبلغ عشرة ريالات كان كافياً كتعويض لهم، بما في ذلك ثمن الخروف، ولم أكتف بذلك بل قررت مضاعفة المبلغ ووضعت مبلغ عشرين ريالاً في جيبي لأسلمها لعوض عند مغادرتنا المعسكر. هذا الترتيب لم ينفذ بحذافيره، ذلك أنه بعد أن استيقظت من النوم وبدأت في شرب شاي الصباح مع ما تبقى من جوزة الهند، جاء عوض يحمل فاتورة حسابه كأنني سأهرب من المكان قبل تسديدها. وقد قاومت رغبة ملحة في أن أقذف مبلغ العشرين ريالاً في وجهه وأخبره بأن يذهب إلى الجحيم، وبدلاً من ذلك بدأت مراجعة الفاتورة وكانت كما يلي: ٥,٥ قروش (ريال) ثمن الخروف، ١ قرش ثمن قربة ماء، ١ قرش ثمن جوز الهند، ٢ قرشان لجمل الترحيل، ١ قرش للأرز الذي قُدِّم لنا في القرية بالأمس، إضافة إلى أصناف أخرى، حتى بلغ المجموع أربعة عشر ريالاً ونصف الريال. وقمت بتسديدها مباشرة مع ملاحظة أن قيمة كل الأصناف المذكورة كان مبالغاً فيها ومع ذلك لم أسأل أو أعترض، وكان عوض سعيداً أنه تمكن من أن ينتزع مني كل هذا المبلغ، وذهب

(١) يلحظ هنا قسوة من المؤلف في أوصافه لأهل هذه المنطقة ويبدو أنه كتب عباراته تحت تأثير تلك المواقف التي مرَّ بها وهي تجارب شخصية في ظروف معينة لا يمكن أن تعطي معلومات وافية لبناء هذا التصور المبالغ فيه من فيلبي. (المراجعون).

ليقتسم الغنيمة مع بقية الخلق الآخرين. كان ضجيج نقاشهم لا يوصف، ولم يدرِ أي منهم أنه كان بمقدورهم اكتساب خمسة ريالات ونصف أخرى لو كانوا أكثر حصافة ودبلوماسية.

وبينما انشغل عوض وزملاؤه في تقسيم الغنيمة. بدأنا نحن في تجهيز السيارات استعداداً للسفر. لقد تبخر كل الوقود الذي كان في صهريج السيارة، وأذكر أنه عندما تركنا السيارات في هذا الموقع قبل أسبوعين، كان الصهريج ممتلئاً حتى النصف وكان لدينا وقوداً إضافياً في صفائح محكمة الإغلاق. شغل السائقون محركات السيارات وانطلقنا وتركنا البدويين وراءنا منشغلين في حل المعضلة الحسابية المتعلقة بتوزيع مبلغ الأربعة عشر ريالاً ونصف الريال ! . وبهذه المناسبة أجد لزاماً عليّ أن أذكر أن سيد أبوبكر، أحد الأخوة من آل الكاف، وبعد أن سمع بالنفقات المالية التي دفعتها للأعراب نظير حراسة السيارات في غيابنا، أصر على دفع كامل قيمة الفاتورة التي تبلغ ستين ريالاً، ذلك أنهم -إثباتاً لأصول الكرم العربي- يعتقدون أن كل مسافر داخل حدودهم هو ضيف عزيز يجب إكرامه. إن فضائل هؤلاء القوم لا يمكن تقييمها بالمال أبداً.

ومع شروق الشمس، وبسبب العاصفة الرعدية العابرة، هطلت زخات من المطر استمرت مدة عشر إلى خمسة عشر دقيقة، بينما تجمعت سحب كثيفة فوق البحر ومع ذلك يمكن -بالعين المجردة- رؤية مدينة الشحر وبعض المعالم الأخرى. أعطينا ظهرنا للمحيط الهندي واندفعنا داخل متاهة الجبال الصحراوية. كان معظم الأودية ممتلئة بمياه الأمطار التي هطلت هنا قبل فترة وجيزة، وعادت الحياة والخضرة إلى الهضبة الواسعة والجافة، والتي كانت ميتة عندما عبرناها قبل أسبوعين، وخرج البدو من الأودية وانتشروا في الهضبة وكل يختار المكان الأكثر خضرة وعشباً لرعي قطعان ماشيته، وقد بدأ سكان منطقة وادي ريدة ووادي العشرة استعداداتهم للزراعة الموسمية.

احتشد جمع من سكان قرى القرن (ديرة آل حسن) عندما سمعوا أصوات السيارات، وذلك لاستقبال طالب بعد غيابه الطويل، ولاحظت وسط هذا الحشد البشري فتاة صغيرة عليها علامات وشم كثيرة. لم تكتمل فرحة طالب بالبقاء مع أهله، ذلك أنه يجب عليه مرافقتنا حتى تخوم منطقة المعارة، وقد حاول مرة أو مرتين الرجوع إلى دياره قبل أن نصل تلك التخوم إلا أنني رفضت وطلبت منه مرافقتنا حتى سفوح (الجبل) الذي يقع خلف أودية العشرة. وفي هذا الوادي بالتحديد غرزت إحدى سيارات آل الكاف، ماركة بويك، في بركة بجانب الطريق، وقد ساعدنا طالب كثيراً في تخليصها من هذا الوحل الشديد. والرجل يتمتع بذكاء وفطنة، غير أنه عندما حانت لحظة الفراق أظهر كل عيوب عشيرته البدائية. لقد كان الاتفاق المبرم بيننا هو أن يتقاضى طالب ريالاً واحداً يومياً -تماماً مثل الرجال الآخرين من قبيلة المعدي- وبهذا يكون مجموع استحقاقاته عشرين ريالاً، إلا أنه طلب عشرة ريالات أخرى نظير مرافقته لنا. رفضت طلبه جملة وتفصيلاً وأخيراً قام الرجلان من قبيلة الجبيري بإقناعه بقبول مبلغ العشرين ريالاً وأطنبا في وصف شهامته وشجاعته. ارتسمت علامات الرضى والسعادة على وجهه وغادرنا عائداً إلى دياره مردداً قولة البدو المحليين: سماح.

بعد أن تخطينا جرف العشرة، غرزت السيارة ماركة بويك، مرة أخرى مدة ساعة كاملة، في أحد مجاري وادي زبون، وعند طرف أخدود رسب قابلتنا امرأة من قبيلة الجبيري ترعى غنيمات لها. قبّلت المرأة أيدي مرشدينا الاثنين وزودتهم بآخر أخبار الطقس والقبيلة. ونحن نواصل سيرنا في الوادي كثيف الأشجار لاحظنا غزالة منطلقة بسرعة البرق بعد أن سمعت أزيز السيارات، ولاحظت أيضاً وعلى مسافة بعيدة عبر سهل أجرد، ثلاثة رجال يسيرون على طريق بعيد عن خط سيرنا، وبعد أن شاهدونا اندفعوا مسرعين نحو الطريق في محاولة للوصول قبلنا وقطع الطريق علينا.

بدا لي الأمرغريباً وسألت المرشدين هل نتـوقف لهؤلاء الرجال أم نواصل سيرنا، وقد نصحوا بعدم التوقف، وأضافوا أن الرجال الثـلاثة من جماعة الجبيري ولا أحد يعرف ماذا وراءهم. زاد سائقنا محمد من سرعـة السيارة، وتوقف أحد الرجال عن محاولة قطع الطريق علينا. أما الرجل الآخـر، وبعد أن أيقن أننا سنعبـر منحنى الطريق قبل وصوله إليـه بزمن طويل، فقـد جلس مستنداً على ركـبته ورفـع بندقيتـه فوق كتـفه استعـداداً لإطلاق النار، وفي هذه الأثناء كنا في محاذاته تماماً، إلا أن محـمداً سائقنا الماهر، انحرف بالسيارة عن الطريق الرئيس عبر السهل الحجري، ودفعت غريزة البقاء -كلينا- إلى الانحناء إلى أسـفل حتى لا يصـيبنا الطلق الناري، وبالرغم من سـرعة الحدث والارتباك فقد كان لدي شعـور بأن المرشدين الاثنين اللذين يجلسان في المقعد الخلفي سيكونان هدفاً سهلاً للقناص، وكانت لحظات عصيبة إلا أن الرجل لم يضغط على الزناد أبداً.

شرح لنا محمد أن أحد أصدقائه من المكلا أخـبره بالخدعة البسيطة التي تعلمها قطاع الطرق هؤلاء، وهي إصابة إطار السـيارة مما يجبر السائق علـى التوقف ويصبح السائق ومرافـقوه عرضة للابتزاز والتهـديد. وعليه فإن انحراف محمـد بالسيارة على بعد ٥٠٠ ياردة أصبح أمراً عـسيراً، إن لم يكن مستحيـلاً على القناص. أما السيارة الثانية فقد كانت تسير أمامنا بمسافة طويلة ولم تتعرض لهذا الموقف الحرج. عاد قاطع الطريق أدراجـه وانضم إلى زملائه. ومن عـجائب الصدف أن كـابتن بيش الأوروبي الذي سافـر بعد ذلك على هذا الطريق نـفسه قـد تعرض لإطلاق النار، وأن سـائقه وراكباً آخر قـد أصيبا، وربما كان السائق لا يعرف خدعـة إطار السيارة المطاطي. وقد وضع الكابتن بيش في الخريطة التي رسـمها للطريق علامـة سيفين متـقاطعين، إشارة إلى حادث عسكري، ويبدو أنه المكان نفسه الذي تعرضنا فيه للحادث المذكور. قامت سلطات عدن بغارة جوية وإسقاط قنابل على مـساكن رسب، انتقاماً لما حدث للكابتن

بيش، نتج عنها موت ثلاثة أشخاص (امرأة وطفلان) كانوا يحاولون إبعاد غنمهم خارج جحيم القصف[1].

عند مرورنا بقرية ضبوع في طريقنا باتجاه الجنوب، وجدناها خالية من سكانها الذين هاجروا إلى وادي صرو القريب. قابلنا على مشارف القرية خمسة رجال من بدو قرية ضبوع وأجبرونا على التوقف وقد أصبحنا بالفعل تحت رحمتهم.

ذلك أن السيارة الأولى كانت قد تعرضت لمشكلة تتعلق بأنبوب توصيل البترول مما اضطرنا للانتظار مدة نصف ساعة لإصلاحه. كانت مطالب الرجال الخمسة -على الرغم من أننا نصطحب اثنين من قبيلتهم- هي دفع رسوم الطريق، وهذا إجراء غير قانوني وعندما أخبرتهم بأنني ممثل لابن سعود تراجع الرجال عن مطالبهم فوراً. تناولت بندقية الصيد، وذهبت في جولة لمشاهدة الطيور التي يوجد الكثير منها بمختلف أنواعها خاصة بعد توفر المياه والعشب بالمنطقة مثل: القطا، والوروار، والشادي الأحمر وأنواع أخرى عديدة. كان مشايخ المستوطنة المعزولة مشغولين في حرث أراضي حكامهم من قبيلة الضبيري وقد امتد حرثهم حتى شمل جزءاً من الطريق بهدف زيادة المساحات المزروعة مما تسبب في إعاقة سير السيارات.

كانت الساعة تشير إلى الثانية بعد الظهر وأصبح الأمل ضعيفاً في قطع مسافة الستين ميلاً للوصول إلى مدينة تريم قبل مغيب الشمس ولم تقابلنا أية عوائق أخرى في الطريق، وعند المغيب كان أمامنا حوالي عشرة أميال إلى خمسة عشر ميلاً للوصول لمحطتنا التالية. وبما أنه ليس هناك داع للسفر ليلاً فقد فضلنا إقامة معسكرنا في منطقة مسطحة في هذه الهضبة الجبلية، وحسب علمي فإن احتياطنا من الطعام قد انتهى إلا أن أحد المرافقين كان لديه كمية من الأرز تكفي لوجبة العشاء. أرخى الليل سدوله وغطت السماء الصافية بنجومها اللامعة الصخور الكلسية الجرداء، ومع ذلك

---

(١) المقصود بسلطات عدن: السلطات البريطانية في عدن. (المراجعون).

أصرت جحافل البعوض على مصاحبتنا وإزعاجنا إلا أن برودة الطقس كانت كافية لوضع حد لهذا الغزو .

وفي الساعات الأولى من صباح اليوم التالي رأينا ثلاثة رجال من البدو على ظهر جمال ولكنهم كانوا مسالمين ولا ينوون أي شر، بل واصلوا سيرهم -فيما أظن- إلى غيل ابن يمين. وسرعان ما بدأت ملامح الوادي الرئيس في الظهور وراء أخاديد الهضبة الجبلية، وفي تمام الساعة السابعة والنصف صباحاً وصلنا رأس العقبة التي تؤدي -نزولاً- إلى تريم وفضلت السير على الأقدام بالطريق المنحدر والمتعرج وبعد ذلك ركبت السيارة التي قطعت المسافة القصيرة عبر الوادي حتى وصلنا منزل مضيفنا سيد عبد الرحمن ابن الشيخ الكاف، المبنى جميل ومن الطراز الحديث ويتكوّن من طابق أرضي مع حوض سباحة كبير ويوجد بجواره مبنى قديم في ضاحية حديقة عيديد.

السيد عبد الرحمن هو زعيم أسرة آل الكاف وكان منزله مكتظاً بالضيوف بما فيهم أعضاء البعثة المصرية والذين تنحصر نشاطاتهم واهتماماتهم العلمية في علم الإنتروبومتري بينما انحصرت اهتمامات المهندس توفيق في القبض على الجنادب وأي حشرات أخرى تدخل المنزل ليلاً.

لقد علمنا عند وصولنا منزل مضيفنا، أن ابنه الثاني والأكثر تحضراً وتمدناً واسمه السيد أبو بكر قد غادر إلى منزله في سيئون وبصحبته مهندس تركي كان قد حضر معه من عدن لفتح وإنشاء ورشة لصيانة وخدمة السيارات وبعض الآليات الأخرى التي أصبحت من معالم هذا الوادي. وكان من بين الحضور أيضاً أهل الشيخ أبوبكر، عميد أسرة السيد الذي قدم من منطقة عينات وهو شيخ وقور في الخامسة والسبعين من عمره ويبدو فخوراً بحفيداته الكثر على الرغم من أن أيّا من أحفاده الثلاثة عشر لم ينجب ذكراً ليحمل اسم وزعامة القبيلة ويحفظ الإرث الذي لم ينقطع خلال خمسة وثلاثين جيلاً. لم ينقطع أمل السيد محمد في أن يُولد ذكر في العشيرة

لحمل الاسم والرسالة وليس لديه ما يؤرقه خاصة أن أبناءه الثلاثة وأحفاده الثلاثة عشر ما زالوا في ريعان الشباب وقمة الخصوبة.

تمتد جذور أسرة السيد محمد إلى جدهم الأكبر الشيخ أبوبكر والذي تَفصِل بينهما عشرة أجيال كاملة وقد أخبرني الرجل -عندما كنا نتقاسم إحدى غرف المنزل في ظهيرة أحد الأيام- بتفاصيل شجرة نسب العائلة التي تستحق الذكر: هو السيد محمد بن علي بن عمر بن عبد الله بن أبي بكر بن عبدالله بن أبي بكر بن حسن بن حسين بن الشيخ أبي بكر، -الجد الذي اشتقت منه القبيلة اسمها- بن سالم بن عبدالله بن عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن السقاف بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد بن علوي بن عبيد الله بن أحمد بن عيسى بن محمد بن علي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب. أول الأسماء التي تحتها خط في القائمة أعلاه (أحمد) يعود إلى مؤسس نفوذ أسرة آل الكاف في حضرموت. أما بقية الأسماء التي تحتها خط فهي لأئمة طائفة الشيعة.

إذا افترضنا ثلاثة وسبعين عاماً متوسط عمر كل جيل من هذه الأجيال الخمسة والثلاثين، نكون أدركنا سر قوة واستمرارية حكام حضرموت والتي ظلت موطناً للعشيرة قرابة الألف عام. ويتطلع السيد محمد -مثل بقية زعماء شخصيات حضرموت- أن يسود السلام والأمن في الحاضر والمستقبل ولم يخف الرجل رغبته الشخصية في أن يرى ابن سعود حاكماً مطلقاً أو سيداً باسطاً سلطته على حضرموت وليس لديه تحفظات تجاه وجهة نظره هذه. أما في الوقت الحاضر فقد رمى الرجل بثقله في مؤازرة سلالة القعيطي الحاكمة وقد وقع معها اتفاقية أو معاهدة وتنفيذاً لأحكامها فقد تم وضع كتيبة من خمسة وعشرين جندياً من قبيلة القعيطي لحماية عينات من غدر بعض القبائل الأخرى، ولقد ألحّ عليّ الرجل كثيراً لزيارته بمنزله وقام

بوضع الترتيبات اللازمة لزيارة قبر هود والكهف الغريب، وبئر بَرَهُوت[1] وكان الانطباع السائد لفترة طويلة من الزمن أن هذا الكهف يحتوي على فجوة بركانية نشطة حتى أثبت كل من فان ديرمولين وفون فيسمان أنها مجرد فجوة في الصخور الجيرية. وكان من بين الزوار أيضاً، السيد عيدروس بن عمر بن أبي بكر بن عبدالله وأظنه من عينات أو منطقة قريبة منها ومن المحتمل أن يكون صنواً للسيد محمد في المكانة الاجتماعية. وجاء من الجانب الآخر للوادي، من مشهد بوادي دوعن تحديداً، ضيف من السادة العطاس هو السيد أحمد بن حسين بن عمر بن هارون العطاس ومعه شقيق السيد حامد الوزير الجديد الذي تم تعيينه بالمملكة عمر بن أبي بكر بن حسين المحضار وهو أيضاً من وادي دوعن. أما والده أبوبكر فقد كان وزيراً سابقاً -مثل والده من قبله- وهو الآن على قيد الحياة مع أنه استقال من الوظيفة المهمة بسبب كبر السن والضعف والوهن ويكفيه على كل حال أن يرى ابنه حاملاً الراية نيابة عنه.

يشعر المقيم في مدينة تريم بعبق القداسة والتدين إلا أن أحاديث المائدة التي تتم بين علية القوم العصريين لا تتطرق للدين أبداً إنما تنحصر حول التطور الاقتصادي تليه في الأهمية أمور السياسة والحكم والزعامة. وكان المحور الأخير يدور حول اتفاقية ١٩١٨م وإن اتسم الحديث حولها ببعض الحذر والسرية. الجدير بالذكر أن الاتفاقية المذكورة لم تكن في مصلحة سلاطين آل كثير مما ملأ صدور جيل كامل منهم بالضغينة والبغضاء مع العلم أنه -أي هذا الجيل الحديث- لم يستوعب تماماً الظروف والملابسات التي أدت إلى إبرام الاتفاقية. ولم يكن هناك أدنى شك من أن سلاطين آل كثير سوف يضعون حداً من جانبهم لهذه الاتفاقية والمسألة كلها مسألة وقت

(١) برهوت: بئر في حضرموت ونقل الحجري عن القاموس أنه: «واد أو بئر عميقة بحضرموت اليمن لا يستطاع النزول إلى قعرها، وهو مقر أرواح الكفار كما حققه ابن ظهيرة في تاريخ مكة، وأخرج الهروي عن علي -رضي الله عنه- والطبراني في المعجم عن ابن عباس -رضي الله عنهما- شر بئر في الأرض برهوت». الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج١، ص١١٧. (المراجعون).

وأسلوب. ولقد تطرق بعض المتحدثين بصراحــة إلى إمكانية تدخل ابن سعود لتسوية هذا النزاع، غيــر أنه كان واضــحــاً للجمــيع أنه لابد أولاً من تصــفــيــة الضغــائن والحــساسـيات التــي تسبب فــيــها البــريطانيــون قبل وضع حــد نهــائي للخلافــات القعيطيــة/الكثيرية، وأثناء إقامــتي في تريم كان الجميع يأملون فــي تدخل ابن سعود لوضع خطة تُرضي الجميع وتؤدي في نهاية المطاف إلى السلام والأمن والاستقرار.

ونظراً لضيق الوقت فقد أرسلت محمداً إلى شبام ومعه قطع الغيار التي أرسلت من المكلا لإصلاح الشاحنة الخفيفة بينما أمــضيت وقتي متنقلاً بين تريم وسيئون، وقد كان ظن محــمد إنجاز مهــمته في غضون يومــين واتفقنا على أن ألتقيــه في شبام في منتصف يوم الســابع عشر مــن شهر سبــتمبــر، وفي هذه الأثناء كان لديّ مــتسع من الوقت والفراغ للتجــول والتحدث مع الآخرين وقد قابلت أحد مــواطني مكة واسمه حسين شيبة ويعمل في وظيفة سكرتيــر للسيد عبدالرحمن، وهو شقيق لمصطفى الذي يعمل في مــصلحة التلغــراف بالسعــودية، وقد توطدت العــلاقة بيننا وأصــبح حسين المرشد والفــيلسوف والصــديق الحميم، وقــمنا برحلة إلى تريم وضواحــيها كــما زرنا العديد من أعيان ووجهاء المدينة وعلى رأسهم السلاطين. وفي يوم وصولي أقيم حفل غداء كبير بمنزل السيد عبدالرحمن، أما العشاء فقد كان بمنزل السيد محبر بن حسين. أما وجــبة غــداء اليوم التالي فــكانت بمنزل علوي بن أبي بكر الكافي وتخللهــا نقاش سياسي مــستفيض وكــانت وجبة العشاء بمنزل أحــد أفراد عائلة الكاف واسمــه السيد محــمد بن حسين بن شــيخ والذي آنسني كثيــراً أثناء زيارتي السابقــة واصطحبني في زيارة إلى حديقــته الوارفة الجــميلة في عــيديد والتي تروى بواسطة مــاكينة ضخ نوع دويتز. وبهــذا يمكن القول: إن الحــياة في مــدينة تريم أصبــحت سلسلة لا تنقطع من المناسبات واللقاءات الاجتماعية والولائم وكان وقتي (بالطبع) قصيراً جداً.

تتكون مدينة تريم من عدة أحــياء وقرى قديمة متفــرقة التقت مع بعضها نــتيجة حركة العمــران والنمو والتوسع حول المركز. والمعلم البارز للمــدينة هو منطقة السوق

والتي تتكون من أزقة ضـيقة ومنازل لا تلفت الأنظار كثيـراً عدا مجموعـة من قصور زعماء قبـيلة آل الكاف بالناحية الشرقية. يقع حي النويدرة علـى جانبي السوق ويمتد في اتجاه الشمال الشرقي حتى بوابة دمون، أما الجانب الآخر من السوق فيقع فيه حي الخليف الذي يمتـد في اتجاه الجنوب الغربي نـحو عيـديد، ويتضمن المـقبرة وقـصوراً جمـيلة، ويوجد الساحل بالناحـية الشمـالية للسوق. ويـقع حي الحاوي جنوب حي النويدرة، وفي منتصف المسـافة بين هذا الحي وحي المجاف وهو عبارة عن جـمهورية مستقلة لإحـدى عشائر السيد وتسمى الحداد، بينما ينحـصر حي الحالف بين الساحل وحي النويدرة بالناحية الشمـالية. أما بالنسبة للحصن القديم في تريم فـقد شُيد فوق جرف منخفض ويحيط به السوق وحي الخليف والسـاحل، ويعرف هذا الحصن بقصر الرنات وقد أعيد بناؤه في عهد السلطان عبـد الله وتبدو عليه آثار التجديد من الخراب الذي لحق به منذ فتـرة ما قبل الإسلام، ويلاحظ المشاهد العـديد من البوابات -والتي تسمى السدَّة- على السور المحيط بالمدينة وتخدم كل بوابة من هذه البوابات أحد طرق المواصلات المحليـة من وإلى المدينة. وأطلقت الأسماء الآتيـة على هذه البوابات بدءاً بالناحية الغربية ومروراً بالنواحي الجنوبية والشمالية والشرقية: بوابة أنبار وتخدم طريق عيديد، بوابة جادين وتغطي جهة سيئون، بوابة لوميع على طريق الشحر، وسرور بن سعيد لطريق عـينات وقبر هود. وأخيراً بوابة محبوب على الطريق المـتجه شمالاً إلى دمون.

لقد ودعت آسفـاً كل الذين استضافوني بمدينة تـريم واصطحبت معي شكري، خبيـر الجيولوجيا بالبـعثة المصرية وعـبرنا بوابة جادين في طريقنا إلى سيـئون. وبعد مغـادرتنا تريم بقليل توقـفت السيـارة بسبب ثقب في أحـد إطاراتها وبينمـا نحن في انتظار إصلاح العطب توقف معنا اثنان من بدو قبيلة العوامر وكانوا يسيرون في اتجاهنا نفسه، توقف الرجـلان وتبادلا معنا أطراف الحديث، علمت منهما أنهـما أتيا من آبار ثمـود وثمـيـد بـوادي ينحـدر في اتجـاه الربع الخـالي، ويصـب في نواحي جـبـال

حضرموت، وأكد لي الرجلان -رداً على بعض تساؤلاتي- بأنه لا يوجد في بلادهم تلال أعلى من منحدرات نيد (نجد) الشاهقة، وهذا الاسم الذي يطلقونه على الهضبة التي تقع شمال وادي حضرموت، وبهذا يميزونها عن (هيد) حيد، حوق الواقعة بالجهة الجنوبية للهضبة. وواصل الرجلان إفادتهما بأن عوامر الرمال يعدون أنفسهم من رعايا ابن سعود وأن اسم زعيمهم ابن ركاض. وقد لاحظت بوضوح مظاهر انبهار هؤلاء البدو بمظاهر الرقي والتمدن والحضارة المنتشرة في الوادي.

لقد سبق أن أُخطر السيد أبوبكر بأننا في طريقنا إليهم وعند وصولنا إلى منزله -والذي سبق أن نزلت فيه في زيارتي السابقة ضيفاً على ابنه السقاف- وجدت حشداً كبيراً من الضيوف الذين تمت دعوتهم على الغداء. وكان بين هؤلاء الضيوف السلطان علي وشقيقه حسين. وقبل تناول طعام الغداء أخذت حماماً في حوض السباحة الكبير وكان الغداء دسماً وهو يتكون من أطباق غربية، مثل: حلوى المانقو، اليوسفي والكمثرى وكلها معلبة ومستوردة إما من جاوه أو اليابان. كانت غرف المنزل مزدانة بصور فوتغرافية مكبرة لمساكن عائلة الكاف بتريم وسنغافورة، إضافة إلى لوحات زيتية تمثل مناظر طبيعية خلابة من اليابان تعكس مناظر القمر والنهر والأشجار المثمرة والمزدهرة والقلاع والجبال والمراكب الشراعية.

كان السيد أبوبكر مشغولاً بمشروعه الخاص بإقامة وإنشاء ورشة في سيئون، إضافة إلى تطوير حديقة زهور وفواكه أنموذجية بواسطة الري الصناعي من الآبار المتوافرة. وأثناء ساعات النهار كنت أشاهد المهندس التركي واسمه قادر وكانت وسيلة التخاطب بيننا هي اللغة الألمانية والتي كان -يجيدها أكثر مني-، وكان إحساسي الشخصي أن السيد أبوبكر قد جلب لنفسه مشاكل لا حصر لها، بتعيين هذا المهندس براتب قدره مئة وخمسون ريالاً شهرياً. وقد كان الاتفاق الأساسي بين الرجلين هو خمسون ريالاً شهرياً، إلا أنه وبعد أن لاحظ المهندس التركي بذخ وكرم مخدومه طالب بزيادة الراتب إلى ثلاثة أضعاف مع التهديد بعدم الذهاب إلى حضرموت. وقد

تمت الموافقة على جميع مطالب المهندس التركي والذي أصبح يتصرف وكأنه أمير. ولاحظت أنه لا يقوم بأي عمل يدوي فيما يتعلق بالإنشاء وإقامة الورشة المعنية، وطلب مني المهندس معاينة تصميم الورشة، والتي يفترض أن تسع الأعداد الهائلة من الماكينات والأغراض غير الضرورية، والتي طلبها المهندس شخصياً بأسعار لا أشك مطلقاً أنها تضمنت عمولة لا بأس بها. وعلى كل حال، وحتى وصول وتركيب الماكينات فليس في نية المهندس التركي القيام بأي عمل مفيد، ويبدو أنه قرر أن يظل خميرة عكننة لمخدومه وللآخرين لدرجة أنه رفض تناول الطعام مع السيد أبوبكر بحجة أن أي شخص في مكانه ومنزلته لا يمكن أن يأكل من طبق انغمست فيه أيادٍ أخرى حسب العادات والتقاليد العربية في الأكل. ويبدو أنه كان يشغل وظيفة متميزة في بلاده وليس كمهندس قطعاً. لقد خدم الرجل في شرطة إسطنبول حيث كان مديراً للقسم السادس. وكانت مسؤولية هذا القسم تنحصر في مراقبة وتنظيم حركة مرور القطارات والسيارات بالعاصمة. وقد أخبرني أن دخله الشهري الأدنى كان يعادل أربعة آلاف ريال شهريًا، هذا المبلغ الكبير لا يشمل الراتب الشهري كما اعترف لي صراحة، بل هو عبارة عن نصيبه الشخصي في الرشاوي والغنائم! وقد شرح لي الأمر بكل وضوح، قائلاً في حالة الحوادث المرورية كنت أتولى أمر القضية وإجراءاتها. وكان السائق الذي يتسبب في الحادث المروري على استعداد تام لدفع أي مبلغ أطلبه بدلاً من الخضوع إلى إجراءات قانونية معقدة ومطولة تنتهي بالسجن لفترة زمنية محددة. ولهذا -وكما ترى- فإنه من السهل جداً كسب مثل هذا الدخل. ولم أتمالك نفسي من سؤاله لماذا ترك الوظيفة التي تدر عليه الذهب والفضة وتؤمن له المستقبل الزاهر وحضر إلى هنا لمضاعفة مشاكل العطالة المتفشية بعدن؟ أجابني الرجل: آه، وواصل حديثه: «لكن تلك قصة محزنة. كانت بطلتها امرأة وكان عليَّ مغادرة إسطنبول بأسرع ما يمكن». وتخيلت أنه قام بابتزاز امرأة من علية القوم وكانت نتائج فعلته وخيمة بكل المقاييس، وإنني على ثقة بأن أي رجل في مثل عمره -التاسعة والثلاثين-، كما يدعي، ينتظره

الكثير من الإثارة والزخم في مقتبل أيامه. غير أن مرحلة حضرموت بالنسبة للمهندس ستكون قصيـرة جداً. وستكون (للأسف) خالية من أي إثارة وتشـويق، ولقد شعرت بشيء من الأسف والأسى والشفقة على هذا الرجل!.

عند مغيب شمس يوم ١٦ سبتمبر سمعت صوت ثلاث طلقات نارية من مدفع قديم معلنة رؤية هلال شهر رجب وقد حجب الرؤية عنا نتوء الجرف الشاهق بالناحية الغربية للمـدينة ويعد اليوم الأول من شهـر رجب إجازة محلية (رجبـية) وتقام طوال هذا الشهر العديد من الاحـتفالات والزيجات المحلية. تم تشيـيد منزل السيد أبي بكر قبل سنتين، أي في عام ١٣٥٤هـ وتم حفر نقش تذكاري على باب المنزل هكذا:

ب ي ت ك ل م ن د خ ل
٢ ، ١٠ ، ٩٠ ، ٢٠ ، ٣٠ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ٤ ، ٦٠٠ ، ٣٠ ،

ف ي هـ ك أ ن أ م ن أ
٣٠٠ ، ١٠ ، ٥ ، ٢٠ ، ١ ، ٥٠ ، ١ ، ٤٠ ، ٥٠ ، ١ = ١٣٥٤[1].

وفي مساء اليوم نفسه اصطحـبني السيد أبو بكر في سيارته لزيارة السلطان علي في منزله الفـخم بالرغم من أن السـيول كانت قـد أحدثـت به بعض الأضرار وقـد سيطرت السـياسة المحليـة وأمور الحكم على النقاش الذي دار بين ثلاثتنا وفي صـباح اليوم التالي غادرت سيـئون وأنا أكثر قناعة لفشل اتفاقيـة ١٩١٨م التي لا تستحق أكثر من هذه النهاية بالرغم من أن لهـا حسنة واحدة هي أنها وضعت نهـاية للعداء المتحكم بين قبيلتي القعيطي والكـثيري مما أتاح لحضرموت هدنة واستقراراً استـمرا مدة عشرين سنة كـاملة، ومع ذلك لم تكـن أحد طرفي الـسلام، أي الطـرف الذي لم يوقع على الاتفاق ولم يفوض غيره بالتوقـيع على الشروط التي فرضت عليه من قوة عظمى، لم يكيف هذا الطرف نفسه أبداً لسـلام يفتقر إلى العزة والكرامة. ويبـدو هذا الأمر وكأنه

(١) هذا بحساب الجمَّل والذي يقوم على وضع قيمة عددية لكل حرف وصياغة بجمع هذه القيم لتعطي الكلمات والتاريخ المطلوب لتحديد تاريخ معين ومعناه وهنا (بيت كل من دخل فيه كان آمناً). (المراجعون).

رجع الصدى لاتفاقيـة فرساي ومنذ ذلك الوقت بدأت عدن تبدي اهتماماً كـبيراً وغير عادي للوضع السياسي في حضـرموت. لقد ضُربت قبائل الجبيري والصـيعر والحموم بالقنابل وأجـرى المستر انـغرامز، المسـتشـار أو الممثل المقـيم الذي عين حديثـاً أجرى محادثات مـع سلاطين الكثيري والقـعيطي وتولى مزاولة واجبـاتهم وسلطتهم الإدارية وتم ضم حـضرمـوت إلى الإمبـراطورية البريطانيـة حسب القـرار الصادر فـي مارس ١٩٣٧م. وقام سلاح الجو الملكي البريطاني بزيارة إلى شبوة، وكنت آمل أن لو تمكنت سلالة الكثيـري الحاكمة من التوصل مع النظام الحاكم الجـديد، إلى شروط أحسن من تلك التي توصلت إليـها مع العـهد البائد كـما المسـتجـير من الرمضـاء بالنار. توفي السلطان علي نهاية سنة ١٩٣٨م واستلم مقاليد الحكم والإدارة من بعده شقيقه حسين.

بدأت نشاطات اليوم التالي بـحمام منعش وجميل بحوض السبـاحة، وأخبرني مضـيفي أثناء تـناول وجبة الإفـطار بأنني أحتـاج إلى بعض المؤن والتمـوينات لرحلة الاثني عشر ميـلاً إلى شبام والتي ينبغي الوصول إليها عند ساعـة الغداء وأخبرته بأننا لا نحتـاج إلى أي شيء إلا أنه أفـادني لاحقاً بأنـه قد وضع صفـيحـة بسكويت في سيارتي، ذلك أنه ربما نحتاجها، وشكرته على عطفه وكرمه، بدون الخوض في المزيد من المناقشة. ولم أكتشف إلاّ بعد الظهر، أن صفيحة البسكويت كانت عبارة عن طرد ضخم مـعبأ بأشـهى وأطيب أنواع المعلبات، والتي بقيت مـعي لأكثر من أسـبوعين، مثل: البسكويت وحلوى المانجو والكمثرى واليوسفي والأناناس وعلب الحليب المكثف وإنني لَجِـدٌّ شاكـر وممتن لكل هذا وخاصـة علب الحليب. ومرة أخـرى أجد نفـسي مضطراً لتكرار شكري وتقديري للسادة آل الكاف ومواطني حـضرموت عامة وقد كان كرمهم هذا الذي طوقوني به، تجـربة شخصية ثرية ما كنت أستـبدلها بأي شيء آخر. وهذا أمر مثير للاستغراب والدهشة حتى على نطاق الجزيرة العربية نفسها.

عندما وصلت مدينة شبـام علمت أن السلطان علي بن صالح خارج المدينة في رحلة إلى القطن. وقد تم إصـلاح السيارة المعطوبة أما بقـية مجمـوعتنا التي تركناها

وراءنا هنا قبل خـمسة عشـر يوماً فقد فـرحوا غاية الفرح بعـودتنا بعد أن ذهبت بهم الظنون بأنني قد أكون غادرت المكلا عن طريق البحر. ولا يوجد الآن أي عائق يحول دون انطلاقنا، ومع ذلك فقـد انتظرنا حتى تناولنا طعام الغداء بمنزل أسـرة آل العجاج وجددت نشاطي بإلقاء نظرة على مناظر شبام الرائعة. تحرك ركبنا بعد الظهر وصحبني حسين حتى القطن وعاد أدراجه في الليلة نفسهـا. وواجهتنا بعض المشاكل عبر السهل المنبسط بين المدينتين بسبب الأمطار التي هطلت حديثاً، أما قرية خشامر التي تقع تحت الجرف من الناحية اليسرى فكانت تبدو كجزيرة مستقلة وسط الأراضي الخاضعة لقبيلة القعيطي وتتبع لإحدى عشائر اليافعي واسمها آل علي بن جابر.

استقبلني السلطان علي بحفاوة بالغة وأنزلنا في قصره الذي سنقضي فيه الليلة. كان السلطان مشغولاً -أثناء غيابي- بسبب بعض حوادث النهب والسلب التي قام بها -قبل فترة وجيزة- مجـموعة من قطاع الطرق وأرسل السلطان فرقة من الجنود الرقيق لمحاصـرة المجرمين، وقـد وصلت الأخبـار بنجاح الحـملة وتمكنها من السـيطرة على الوضع. وبينما نحن جالسون نتجاذب أطراف الحديث سمعنا صوت إطلاق نار بكثافة شديدة كما لو أن ثورة قد اندلعت. انتـابني بعض الخوف والفزع إلا أن السلطان عليّاً أكد لي أن الـذين يطلقون النار هم مـجموعـة من جنوده العائـدين بمناسبة عـودتهم وانتصاراتهم. ولا بد أن هؤلاء الجنود قد استـخدموا في الإعلان عن انتصاراتهم هذه ذخائر أكثر من التي كسروا بها شوكة الخارجين على القانون. وعلى أية حال فقد كان السلطان علي سعيـداً بنجاح مساعيـه ومجهوداته لوقف غارات القـبائل على رعاياه، وكانت هذه الانتصارات حديث المجتمع وقد وجدت مواطني ربيعة يتحدثون عنها في مسـاء اليوم الثاني، إضـافة لذلك فقـد طلب السلطان علي من مواطني شـبوة تسليم الرجال الذين تخلـوا وهجروا المستـر بيرن في الصحـراء وتم حبسهـم بسجن القطن وادعوا أن المسـتر بيرن هو الذي تخلى عـنهم وتركهم في الصحـراء. وقد تم إطلاق سراحهم في نهاية الأمـر. كان طموح علي المباشر هو إخضاع الصيـعر ونهد لسيطرته

المباشرة إلا أنه اشتكى من عدم توافر الأسلحة والذخائر اللازمة والضرورية لتحقيق هذا الحلم، وقد سألته عن رأيه حول شبوة مشيراً إلى ادعاء سلطات عدن بتبعية الإقليم لسلطان العولقي واعترض الرجل بشدة وأكد أن شبوة تقع تحت نفوذه المباشر مع العلم أن سكانها مستقلون.

وصلنا هينن في صباح اليوم التالي وقد استقبلنا سكرتير محمد بن آل مرتع، نيابة عن مضيفنا الذي غادر البلدة، لتقديم العزاء والمواساة لبعض الأقارب والأصدقاء في ديار آل بقري وكنت أخشى أن نضطر لقضاء الليلة في هذه البلدة إلا أن غياب محمد بن آل مرتع بدد هذه المخاوف وبعد أن تناولت طعام الغداء خلدت لقيلولة قصيرة وبعدها ودعنا وادي حضرموت نهائياً بعد إقامة مستمرة امتدت لمدة تزيد على الشهر تقريباً، وسط أهله الطيبين. ومع أن برنامج الرحلة كان مشوشاً ومضطرباً إلا أنني لست نادماً على شيء أبداً.

الفصل العاشر

طريق الحج

أثار إعجابي أثناء إقامتي بحضرموت الاهتمام الشديد الذي أبداه الجميع بمختلف طبقاتهم الاجتماعية برحلتنا بالسيارة عبر الصحراء من نجران السعودية إلى اليمن. ذلك أن هذه الرحلة أثبتت إمكانية السفر إلى مكة بالسيارة كبديل مفضّل على الرحلة الشاقة بالجمال إلى ساحل البحر، ومن ثم بالباخرة إلى جدة. ولعل الحجيج من النساء هن الأكثر تضرراً من السفر بالباخرة بسبب إجراءات الحجر الصحي. وعلى وجه الخصوص بالنسبة للنساء. ولقد تأكد لي -بما لا يدع مجالاً للشك- بأنه لو تم فتح طريق بري يكون ملائماً لحركة السيارات، فإن الآلاف من المسلمين سيؤدون الفريضة سنوياً بدلاً من المئات الحاليين. ولقد تمت مناقشة الموضوع بإسهاب في تريم، ولقد عُرضت علي نسخ من مجلة عربية تصدر في باتافيا اسمها (الرابطة)، صدرت في يناير ويونيو عام ١٩٣١م،وتحتوي على مقال من جزأين يصف طريق قافلة حج من تريم إلى مكة في عام ١٨٦٤-١٨٦٥م، وكان طريق القافلة متعرجاً إلى حد ما، واستغرقت الرحلة سبعة أسابيع بما فيها التوقف والراحة، غير أن كاتب المقال أشار إلى أنه إذا سلك المسافرون طريقاً آخر يسير عبر نجران فسوف تكون الرحلة على ثلاثين مرحلة، بدلاً من الخمس والثلاثين مرحلة الحالية: أي ما بين خمسة إلى ستة أسابيع، بما في ذلك فترات التوقف والراحة. ولقد أثبت بالفعل استخدام هذا الطريق بواسطة السيارات بين مشينيقة العبر وطريق آخر من مشينيقة إلى نجران ومن ثم مكة. وحقيقة الأمر أننا لم نجرب الطريق من آبار العبر وبوابات حضرموت، وعليه فقد خططت للسفر على هذا الطريق إلى أبعد نقطة يمكن الوصول إليها في اتجاه آبار العبر ثم محاولة اكتشاف طريق عبر الرمال للعودة إلى شبوة على طريق يختلف عن طريقنا القديم الذي سافرنا عليه.

وفي يوم ١٨ سبتمبر وصلنا إلى هينن على أساس تنفيذ الخطوة المذكورة، ومع أننا لم نعلن مسبقاً عن قدومنا، ومع غياب ابن مرتع فقد أعلنا رغبتنا في مواصلة

الرحلة غرباً، مع إمكانية الانتظار قليلاً. ولن نلوم غير أنفسنا على وجبة نصف النهار الهزيلة والمكوّنة من خليط من البلح والأرز وسمك مجفف مطبوخ، وهو الغذاء الرئيس لسكان هذه المناطق ما لم يكن هناك ضيفٌ، وكانت هذه الوجبة كافية لإقامة أودنا، خاصة بعد أسفارنا وإقامتنا المترفة في حضرموت. قام سكرتير ابن مرتع بتقديم واجبات الضيافة والاستقبال، وكانت غرفة الضيوف تعج بالخدم والقرويين، وقد لاحظت أن العديد منهم كان يمضغ التبغ الممزوج بالرماد[1].

وقد كان بين الحضور رجل كان قد وصل قبل فترة وجيزة من مستوطنة ريدة الصيعر، وكان يحمل -على أمل التكسب والربح- علبة مسطحة أو قدر صغير مثبت بسلك معدني وجد على طائر لونه أبيض -ربما يكون طائر اللقلق- والذي أصيب بطلق ناري. ولأن الطائر كان مجروحاً فقد ظل حيّاً، إلا أنه مات بعد فترة متأثراً بجراحه، ولهذا لم يتمكن الرجل من إحضاره معه بسبب تحلل الجثة. وقد وجدت رسالة داخل العلبة فيها تفاصيل عن المنطقة التي أتى منها الطائر في رومانيا، حيث تم تطويقه وربط العلبة حول عنقه بهذه الطريقة البدائية. قدمت للرجل ريالاً مقابل احتفاظي بالرسالة المكتوبة، إلا أنه قد استنتج أن قيمة الرسالة أكثر من ذلك بكثير فتمنّع من المقايضة واسترددت ريالي وأعدت إليه العلبة بمحتوياتها بعد أن حفظت عن ظهر قلب محتويات الرسالة.

وبعد قيلولة قصيرة وعند الساعة الثالثة والنصف مساء كنت جاهزاً لمواصلة الرحلة. وكان أن أوصيت بتخفيف حمولة السيارتين وذلك باستئجار جمال ترحيل لحمل بعض مرافقينا إلى شبوة بمن فيهم بلال مساعد الميكانيكي؛ وعندها أعلن محمد -سائق الشاحنة الخفيفة- عن نيته إنهاء خدماته معي، خاصة وأننا بالقرب من ديار أهله في هجرين مما يمكنه من تنفيذ تهديده المبطن هذا بدون عقاب يذكر إذا ما حرم

(١) وهي ما تعرف عند أهل المنطقة بـ «السويكة» وقد تقدم الإشارة إليها (ص٢٧٧). (المراجعون).

من خدمات مساعده، وعليه فقد استجبت للتهديد ووافقت على بقاء المساعد مع الاستغناء عن خدمات أحد البدو وكمية كبيرة من البضائع التي حملها المرافقون بغرض البيع والتكسب منها في نجران. ومع ذلك لم أكن على استعداد للمخاطرة وتعريض الشاحنة الخفيفة لعطب آخر. وبما أنني سأتكفل بنفقات الترحيل بالجمال، فلم أقبل من الرجل الحق في التذمر أو الشكوى.

أفادنا ناصر بن شماخ بأنه يعرف الطريق جيّداً وعليه فقد صار دليل الرحلة، وبهذه الصفة الجديدة شاركني في المقعد الأمامي للسيارة. وما إن قطعنا حوالي الميل إلا ووجدنا أنفسنا تائهين وسط كثبان الرمال، وعندها عدنا أدراجنا حتى وجدنا آثار الجمال وتبعناها. عبرنا قرية أرض آل حويل التي تقع تحت جرف قمران، وهو جرف شديد الانحدار، ثم عبرنا قرية صغيرة أخرى وسلكنا بعدها طريقاً يتوسط المسافة بين الجرف وطرق الكثبان الرملية، وتبلغ المسافة بينهما حوالي ربع الميل. تمتد البقعة الرملية أمامنا على هيئة أصابع طويلة وتواصل انتشارها حتى سفوح المنحدرات الصخرية الشاهقة. وبعد أن سرنا مسافة قصيرة اكتشفنا أننا ندور في حلقة مفرغة وسط الكثبان الرملية المتحركة، وكان علينا -وللمرة الثانية- أن نعود أدراجنا سالكين طريقاً يمتد على أطراف المنطقة الرملية حتى وصلنا مشارف قرية صغيرة بائسة اسمها ربيعة، تطل عليها من جانب الجرف صخرة جيرية مستقيمة ذات منظر أخّاذ وتسمى "عُرف الديك" لقد قطعنا مسافة عشرة أميال منذ أن تحركنا من هينن، ولو كان سيرنا في طريق مستقيم فإن المسافة الحقيقية تبقى سبعة أميال فقط. لقد عانيت اليوم ما فيه الكفاية، ثم إن الشمس كادت أن تغيب، لذا فكرت في إقامة معسكرنا وقضاء الليلة في هذه القرية والتي تبدو مكاناً مناسباً للراحة والنوم، إلا أن مساكنها المتباعدة جداً والتي تشبه الحصون بدت خالية من السكان تماماً، بعد أن رحل أهلها بحثاً عن الكلأ والماء، خاصة بعد هطول الأمطار خلال الشهر الماضي.

وبينما نحن نشق طريقنا ببطء عبر القرية التي غطى بعض أجزائها العشب الأخضر بعد أن ارتوت الأرض بمياه الأمطار، لاحظنا حركة بأحد المنازل بالطرف البعيد للقرية توحي بوجود بعض الناس، وبينما نحن نقترب ببطء من المنزل ظهر رجل فوق سطح المنزل يحمل سلاحاً نارياً. أوقفت السيارة على بعد حوالي مئتي ياردة من المنزل ونزل ابن شماخ من السيارة في انتظار ترحيب الرجل بنا، بينما نزلت أنا من الجانب الآخر للسيارة ولاحظت أن الرجل قد أسند سلاحه على حاجز سقف المنزل ووجه فوهة البندقية نحوي مباشرة، وعندها انسحبت إلى مؤخرة السيارة بعيداً عن أنظار الرجل وفي هذه الأثناء حاول ابن شماخ أن يوضح للرجل نيتنا في قضاء الليلة هناك، وبعد فترة -خلتها دهراً- نزل الرجل من سطح المنزل وقرر استقبالنا. كان مضيفنا كبير السن بعض الشيء ولا يرتدي من الثياب إلا ما يستر عورته (الإزار)، إضافة إلى سلاحه الناري، وكان منفعلاً وهائجاً بعض الشيء ولا يوحي منظره العام بأنه سليم العقل تماماً. ومع ذلك أبدى شعوراً بالرضى والمودة والاستعداد لاستضافة هؤلاء الغرباء، وبعد هنيهة بدأ سكان المنزل في الظهور! وكان أول الخارجين من الدار شابان في مقتبل العمر، ثم امرأة مسنة يبدو أنها والدتهما، وظهرت أخيراً شابة ذات حسن وجمال وهي ابنة العجوز والتي يبدو أنها استثمرت لحظات التوجس والترقب في إكمال زينتها حتى تظهر كأجمل ما تكون أمام الغرباء! كانت الفتاة ترتدي ثوباً جميلاً مصبوغاً بلون نيلي ومثبتاً عند الخصر بحزام مطرز ولم تكتف الفتاة بهذا، بل وضعت العديد من الحلي الفضة اللامعة. ويبدو لي أنها كانت تأمل -مجرد الأمل- أن يتقدم أحدنا ليطلب يدها. وعلى العموم فقد كانت الفتاة لطيفة وودودة بقدر ما أعطاها الله من جمال فريد، وقد كانت تتحدث بطلاقة وبدون أي خجل أو حرج. وربما لا يكون لها أي اتصال يذكر بنساء أُخر خارج نطاق دائرة العشيرة الضيّق. تقدمنا بدعوة الفتاة وأمها لتناول طعام العشاء البسيط معنا وكان

مكونا من أرز إلا أنهما فضلتا مراقبتنا ونحن نأكل ويبدو أنهما لا تفضلان الأرز كطعام، وبما أن خرافهما ترعى بعيداً عن الديار، فلم يتيسر لنا الحصول على أي نوع من اللحم.

ينحدر سكان قرية ربيعة من آل جذنان وهي إحدى بطون عشيرة نهد. أخبرنا علي -الرجل العجوز- بأن لديه ثلاثة من أبناء إخوته يعملون في كيسمايو بالصومال الإيطالي، وأنهم يراسلونه ويمدونه بمساعدات مالية لتغطية نفقات الأسرة، وبهذا فالرجل مشدود -بصورة غريبة- إلى العالم العريض البعيد عن نطاق وعيه وإدراكه، وقد استمع الرجل وابنته -في تلك الليلة- ولأول مرة إلى صوت العالم يتحدث وسط أراضيهم اليباب، ومما يؤسف له أن الإرسال كان مشوشاً ومع ذلك فقد تعرف الرجل وابنته على لغتهم التي سمعوها من المذياع وقد اندهشوا أيما دهشة بما سمعوا. وبعد أن أنهيت الجلسة واستلقيت استعداداً للنوم، بدأت استعراض أحداث هذا اليوم الشاق، وبدأنا الاستعداد للرحيل في جو مفعم بالرضى والأماني الطيبة.

كان خط سيرنا العام في اتجاه الجنوب الغربي نحو صخرة القليعة المنعزلة، وقمتي تكمين على مصب وادي سر. ويقع الجرف وكثبان الرمال خلف طريق سيرنا بحوالي ميل واحد تقريباً. واصلنا السير فوق هضبة تكسوها -إلى حد ما- أشجار السنط القصيرة وبعض الشجيرات الصحراوية الأخرى، وبعد أن قطعنا حوالي ستة أميال مررنا قريباً من بئر رشيدة وكانت تقع على يميننا، وبعد ذلك بقليل تخطينا قصر كردان، وهو يعد حصن قبيلة نهد. ويقع الحصن المذكور على يسارنا، وبعد مسافة خمسة أميال أخرى وصلنا بئر الجديدة وهي مثل القلعة من ممتلكات شخص اسمه عبدالله بن مبارك الكردان. يبلغ عمق البئر ثلاث عشرة قامة، وهي ذات فوهة ضيقة وقصية مصفوفة بالحجارة. وبعد حوالي ميل آخر في اتجاه الشمال الشرقي وصلنا إلى وادي مضلاب المنحدر من اتجاه الشمال بين أراضي مهباد -بعض الأحيان تسمى مضلاب- وميس، ويتلاشى الوادي رويداً رويداً في الرمال. وتدل غزارة المياه في

البئرين المذكورتين والهضبة المغطاة بالعشب الأخضر على الأمطار الغزيرة والسيول التي غمرت هذه المنطقة مؤخراً.

يمتد الوادي في هذا السهل ليلتقي بوادي سر الأكثر أهمية، حيث إنه يمثل شريان التصريف الرئيس للهضبة الشمالية والرافد الأكثر نشاطاً في أقصى الجهة الغربية ليلتقي بوادي حضرموت من الناحية الشمالية. ويمتد مجرى وادي سر حتى السهل الواقع بين هضاب ثكمين بالناحية اليسرى وخشم العفر بالناحية اليمنى، ويقع هذا الوادي في اتجاه الشمال الغربي من السهل الذي نسير فوقه الآن وهو -أي السهل- يشكل دلتا الوادي الذي تكسوه أشجار السنط الكثيفة. هناك خط من شجر الحرمل والفرد وبعض الأعشاب المختلفة يشكل المعلم الرئيس لمجرى مياه الوادي المكوّن من الرمل والحصى. ويوجد بجانبه وعلى هضبة صغيرة حصن بدر بوطويرق -ويسمى أيضاً حصن سر-. لقد لاحظت أن طريق ريدة الصيعر، المركز الرئيس للفرع المستقر للقبيلة الموالية للشيخ يسلم بن جربوع، يعتلي الهضبة عن طريق عقبة شاهقة، لكن يبدو أنها ليست صعبة. وتقع قرية ريدة الصيعر في وادي المخية، وهو أحد أودية الهضبة التي تصب في اتجاه الشمال، وينتهي في السهل الكبير الذي يكثر فيه الحصى، وهو يمثل الحد الفاصل بين القرية والربع الخالي.

توجد أيضاً سلسلة من الجبال المنخفضة عند الطرف الغربي للدلتا، وقد تخطيناها عبر ممر ضيق وانحدرنا بالجانب الآخر حتى وصلنا الحصن الوحيد بتلك الجهة، وتحيط به أكواخ قليلة مصنوعة من أغصان مضفورة بسيقان القصب والآبار الأربعة التابعة لحصن آل خويران. وتتميز هذه الآبار بفوهات ضيقة مع ضفيرة الحجر على طول البئر، وبها مياه وفيرة على عمق يتراوح بين ١٨-٢٠ قامة. التقينا في هذا الموضع مع مرافقينا الذين استقلوا الجمال من هينن، هذه الجمال يمتلكها صاحب الحصن الذي قرر عدم مواصلة الرحلة معنا لمقابلة زوجته والاطمئنان عليها، وكانت

الزوجة وقتها تقوم بسقاية أغنامها عند البئر، وكنت أتوق إلى أكل لحم طازج، إلا أن الانتظار يعني ضياع وقت ثمين.

استرحنا حوالي الساعة واستنفدت خلالها ملء ترمس من الشاي بينما كان المرافقون الآخرون يشربون القهوة. وقد أخبرني مضيفنا عبد الله آل خويران أن المستر بيرن لم يصل في أسفاره إلى النقطة التي نجلس فيها الآن، وأنه عاد أدراجه من جوار بئر رشيدة. يقع أسهل الطرق لعبور الأرض الرملية -الجزء المعروف ببئر بايوس، احتمال أن يكون مشتقاً من اسم بئر قديمة بالمنطقة- على بعد حوالي ميلين أو ثلاثة في اتجاه الجنوب الغربي من آل خويران. والآن أستطيع أن أفهم لماذا انسحب البدو المرافقين للمستر بيرن عند السهل ذي الأشجار الكثيفة وسلكوا ذلك الطريق إلى مدينة شبوة.

بدأت الأشجار تتباعد عن بعضها فوق السهل، بينما كنا نحن نقترب من بئر الجديدة على بعد عشرة أميال غربي آل خويران. وجدنا فوق البئر مجموعة من الرعاة مع ماشيتهم من القمازين نهد ومعهم عدد قليل من الرعاة من المطاحلة -بطن آل زيد من قبيلة الكرب-، وبينما نحن في سيرنا تقدمت مجموعة مكوّنة من ثلاثة أو أربعة من هؤلاء الرعاة يحملون بنادقهم في حالة استعداد لكنهم سرعان ما تعرفوا على شخصية عبد الله آل خويران الذي كان جالساً معي في المقعد الأمامي للسيارة كدليل بدلاً عن ابن شماخ. استقبلنا الرعاة بترحاب شديد وكانت بينهم بعض النساء اللاتي كن يسحبن الماء من بئر بعمق خمس وثلاثين قامة. تقع هذه البئر على طرف الرمال مباشرة وتفصل بينها وبين الكثبان العالية مسافة تبلغ حوالي ربع ميل فقط. وعلى الجانب الآخر يرتد الجرف إلى خليج شبه دائري واسع يقع بين خشم معول بالناحية الشرقية وطرف العين بالناحية الغربية. وينحدر عبر هذا الخليج واديان هما: وادي ثاني ووادي عكبان. وتُغطي جزء الطرف الغربي لهذا الخليج جبال برق العين وهي جبال مبعثرة ومنخفضة الارتفاع، أما وادي أم السمر فيقع بين جبال برق العين وجبال طرف

العين وينحدر الوادي في اتجاه التربة الرملية. تكسو دلتا وادي ثاني وعكبان شجيرات وأعشاب شبه يابسة ويبدو أنه لم تنزل عليها أمطار منذ فترة ليست قصيرة.

توقف حجيج عام ١٨٦٤-١٨٦٥م عند هذا الموقع في منتصف النهار بعد وصولهم من قعوضة عبر رهطان -على طريق شبوة- وقضوا ليلتهم في بايوس قبل مجيئهم بطريق دلتا سر ومن هنا واصل الحجاج سيرهم بطريق وادي المنفلقة وقرن الذياب حتى آبار العبْر.

دخلنا الآن سهلاً واسعاً وأجرد تتفاوت طبيعة أرضه بين الرمل والحصى وتتواجد فيه غزلان بأعداد كبيرة. شاهدنا ظبية من نوع العفري وحاولت مطاردتها بالسيارة إلا أنها دخلت منطقة وعرة لكننا كنا أكثر حظاً مع ظبية من نوع إدجي بعد أن أطلقت عليها طلقة من سلاحي الناري عيار ٤١٠ (والطلقة رقم ٧) بعد مطاردة قصيرة بالسيارة، وبعد حوالي ستة إلى سبعة أميال من بئر الجديدة وصلنا إلى بطن وادي أم السمر؛ حيث أصبح الطريق وعراً والسير صعباً بسبب الأشجار الكثيفة والغدران. كان طريقنا بهذا الوادي قريباً من جبل طرف العين ومن هنا ينحرف الجرف في اتجاه الشمال مسافة عشرة أميال أو تزيد قبل أن يتخذ مساره الغربي في اتجاه عبر وادي العبر وبعده يتلاشى في طرف حافة مصاير. وتتوافر هنا مياه الينابيع وأشجار النخيل التي لا تحتاج إلى سقاية في أعلى وادي أم السمر أو في واد جانبي بالناحية الشرقية وتسمى هذه المنطقة العين، ويمكننا أن نرى بوضوح معالم العبر على الجانب البعيد لخليج صحراوي واسع يمتد وتره من طرف العين حتى سلسلة جبال مصاير.

وبعد مسيرة أميال قليلة من أم السمر وصلنا إلى واد آخر اسمه وادي حجير. ويجتاز هذا الوادي السهل من الناحية الغربية لطرف العين وتنمو في هذا الوادي أشجار غزيرة وعشب أخضر وقد شاهدت بعض النساء مع أغنامهن إضافة إلى ثلاث

من الظباء، ذكر وأنثيين، تنام تحت ظل شجرة قريبة من حيث تقف النساء ويبدو أن ركبنا قد قطع على الظباء نومة الظهيرة الهادئة، لهذا انطلقت بسرعة البرق وأسرعنا نحن خلفها وركزنا على ذكر الظبي الذي كان أمامنا بمسافة غير قصيرة إلا أننا تمكنا من اصطياده في نهاية الأمر. لدينا الآن ما يكفينا من اللحم لفترة معقولة. واصلنا سيرنا في اتجاه قرن الذياب وهي أبعد نقطة كنت قد خططت للوصول إليها في اتجاه العبْر. قطعنا مسافة ستة عشر ميلاً عبر سهل جو الطلع الذي تغطيه الرمال والحصى وكانت بعض أجزاء الطريق وعرة إلا أن سيرنا عموماً كان سهلاً وممتعاً مع اكتساء الأرض بالخضرة من وقت لآخر. كانت الساعة تشير إلى الواحدة والنصف بعد الظهر وهو موعد الأكل والراحة.

تبعد منطقة قرن الذياب -والتي كنت أود أن تكون محطة استراحة الظهيرة- على بعد أقل من ميلين إلا أنه يفصلنا عنها شريط واسع من أرض جبلية، ولا يبدو أن الأمر يستحق مخاطرة تعرض سيارتنا لأي عطب أو تلف. وعلى كل حال فقد أصبح من الواضح تماماً أن طريق سيارات الحج لابد أن يدور حول هذه الأرض الوعرة وذلك بالاتجاه غرباً إلى وادي العبْر والسير في محاذاته حتى منطقة الآبار. وعليه انحرفنا جانباً عبر منخفض شبه مسطح تكسوه بعض الشجيرات التي استمتعنا بظلالها بنومة بعد الظهيرة التي استمرت حتى الرابعة مساءً. لقد قطعنا حوالي ستين ميلاً منذ أن غادرنا ربيعة في الصباح الباكر وقمنا بتفقد الطريق البري الذي سوف يسير عليه مستقبلاً حجاج حضرموت. بدأ سعد مباشرة سلخ إحدى الغزلان التي يكون لحمها وجبة دسمة سواء أكان مقليًا أم مشويًا وختمت هذه الوجبة بعلبة المانجو التي كانت من ضمن الهدية الشخصية التي قدمها لنا السيد أبو بكر. وقد سبق الوجبة وأعقبها كالعادة الشاي الذي لا يفارقنا أبداً.

عبد الله آل خويران شخصيته لطيفة جداً مع أنه كثير الكلام وقد أخبرني مرة أن إقليم نهد يمتد من منطقة قريبة من القطن بالجهة الشرقية حتى الخط الذي يربط بين

طرف العين وغالباً التي تقع هي الأخرى شـمال وجنوب الحزام الرملي على التوالي. وغرب هذا الخط تحتل الكرب المنطقة التي تقع جنوب حزام الرمال بينما تشغل الصيعر المنطقة التي تقع شمال الرمال.

وتمثل الرملة مـا يمكن أن يطلق عليـه «الأرض التي لا مـالك لها» أي المنطقـة المشاعة للجـميع مع أن الكرب تسيطر عليـها سيطرة فعلية. ينحـدر المنخفض -الذي توقفنا فيه- ناحيـة الشمال لمسافة ميلين تقريباً حـتى يصل إلى جرف كبير تحت أرض خشم جاحم التي تقع على جانبها حـدائق نخيل وينابيع جاحم والقليب. تابعنا سيرنا حول الجرف في اتجاه الشرق حتى وصلنا منطقة ماضـيه (أم الضباء) التي تحفها حدائق النخـيل التي تروى بميـاه الينابيع، وبعـدها وصلنا إلى أم الكلاب بأشـجـار نخيلهـا وينابيعها ثم باقم بأشجار نخيلها وينابيعـها أيضاً، ثم عبرنا عجل ومليحان حتى طرف العين. هذه المناطق غير آهلة بالسكان وعلى الرغم من ذلك فإن إنتاج مزارع النخيل -التي سبق الإشارة إلـيها- جيد ووفـير. وقد علمت أن ملاك هذه الحـدائق من قبائل الصيعر يحضرون في مواسم الصرام لجني التمور ثم يعودون أدراجهم بأسرع ما يمكن وذلك خوفاً من الأبخـرة التي تنبعث من الينابيع المتدفقة وأن البـقاء والعيش في هذه الأودية يعني لهم الموت بعينه.

واصلنا سيـرنا بعد نومة القيلولة وعـبرنا مجرى وادي جـاحم الذي يتدفق من أعلى المرتفعـات حتى دلتا حجـير على مسـافة قصيـرة من الحزام الرملي. ثم واصلنا مسيرتنا في اتجاه الـشرق حوالي ستة أميال فوق سهل من الحـصى واسع حتى أصبحنا على بعد حوالي ميل واحد مـن أرض باقم حيث تمكنا من رؤية بعض حدائق النخيل المنتـشرة في واديهـا. وتوجـد في هذا الوادي أربعـة ينابيع -وتسمـى الغيل وتشـمل المجاري المتدفقـة منها- وهي: باقم، الجابية -وبها حصن غـير مأهول-، أم الغربـان وآل فرج. وتنمو في كل من هذه الينابيع حديقة نخيل يلاحـق بعضها بعضًا. انحرفنا

الآن في اتجاه الجنوب على خط مواز للجرف، وسرنا أولاً عدة أميال فوق سهل منبسط من الحصباء حتى وصلنا وادي المنجور الواسع الذي تكسوه أشجار السنط والنباتات. ويبدو أن هذا الوادي أصبح نقطة تجمع للمياه المنحدرة من باقم والمرتفعات المجاورة لها، وتتدفق هذه المياه -عبر وادي المنجور هذا- حتى تلتقي بوادٍ آخر اسمه السديحات الذي ينحدر من خشم المنجور ويحتضن سفح الجرف حتى يصل طرف العين ثم يلتقي مع وادي حجر في طريقه إلى الرمال.

تبعد نقطة العبور المنحرف لوادي المنجور حوالي ثلاثة أميال وبعد ذلك أصبح طريقنا سهلاً ومن دون عوائق تذكر، ويمتد طريقنا فوق سهل تكسوه طبقة خفيفة من الحصى ويواصل امتداده غرباً على أطراف وادي العبر. ويسمى الجزء الشرقي من هذا السهل قحوضًا، ومن هنا وعلى بعد حوالي ثمانية أميال من باقم، عبرنا مساراتنا الخارجية ومن تلك النقطة سلكت طريقاً في اتجاه الجنوب نحو أطراف الرمال التي تبعد حوالي خمسة أميال. ويقع الخط الأول من الكثبان الرملية على بعد حوالي ميل آخر غير أنه لايبدو من الحكمة أن نتورط بالتوغل في هذه المتاهات الرملية ذلك أن الوقت قد تأخر بعض الشيء كما أن المنطقة خالية تماماً من أي أعشاب أو شجر، وبدأنا في التفكير فيما إذا كنا سنجد حطباً كافياً لتجهيز وجبة العشاء خاصة وأن معنا كميات كبيرة من اللحوم.

اتجهنا نحو الشرق على أطراف الحزام الرملي الذي تبرز منه نتوءات من الرمل الصلب. غابت الشمس من وراء ظهورنا وواصلنا سيرنا بدون استخدام مصابيح السيارة خوفاً من إثارة انتباه أي بدوي يكون في الجوار. وفجأة شاهدنا أمامنا وعلى مسافة قريبة أشكالاً داكنة كما لو كانوا مجموعة من الرجال على ظهور جمال. إلا أن عبد الله تعرف على هذه الأشكال وأفاد بأنها نوع من أشجار السنط تسمى (الركاب) على أساس تشابهها العجيب برجال يركبون جمالاً وكانت هذه الأشجار خضراء

بمعنى أننا لن نجد فيها الوقود الذي نحتاجه، وواصلنا سيرنا ثلاثة أميال أخرى -مسافة تسعة أميال منذ أن اتجهنا شرقاً- حتى وصلنا منطقة غزيرة بالأشجار في حوض أو منخفض يسمى رأس الخب. وكان علينا إقامة معسكرنا هنا لقضاء الليلة، شئنا ذلك أم أبينا؛ ذلك أن الظلام أصبح دامساً للحد الذي تعذرت فيه الرؤية تماماً ولم يسفر البحث المستمر عن أي عشب أو حطب جاف للوقود وعليه أوينا إلى مضاجعنا من دون وجبة اللحم التي كنا نمني أنفسنا بها! وكان معي على كل حال -وكالعادة- ترمساً مليئاً بالشاي الذي تم تجهيزه أثناء استراحة منتصف النهار. أعطيت مرافقي مجموعة من علب الأناناس واكتفيت بعلبة من سلطة الفواكه مع قليل من البسكويت ،وطوبى لك يا أبا بكر، وعند الساعة السابعة والنصف مساءً هبت رياح يصحبها رمل ناعم وغير مريح وكانت بعض السحب تغطي السماء ومع ذلك تمكنت من تسجيل كل ملاحظاتي ومشاهداتي ثم أدرت مؤشر الراديو واستمعت إلى موسيقى رقصة السبت كانت تُبث من فندق الملك داود في بيت المقدس وقد استمتع مرافقيّ، خاصة البدو منهم بهذه الموسيقى. ولقد قضينا يوماً طويلاً وشاقاً قطعنا فيه مسافة تسعين ميلاً تقريباً وأظن أننا جميعاً أخذنا ما نستحق من النوم والراحة تلك الليلة.

وفي صباح اليوم الثاني قمت بجولة حول المنطقة لمشاهدة بعض المعالم التي من حولنا غير أن همنا الأول كان تدبير وجبة الإفطار وملء بطون خاوية تماماً ووجدنا من حطب الوقود ما يكفي أغراضنا من الشاي والشواء. كونت الأعشاب التي عسكرنا حولها جزيرة واسعة منعزلة وسط بحر من الرمال المتحركة ببطء. وتوجد كثبان الرمل على بعد حوالي ميل واحد في اتجاه الجنوب بمنطقة تسمى شقاق الحرمل. ومن وراء هذه المنطقة وعلى مسافة بعيدة تمكنت من رؤية أعلى أراضي مجوعة وقويم ويمتد خط وادي أم السمر بأشجاره الكثيفة في منطقة داكنة من طرف العين حتى يصل حافة الرمال، وقد خمنت أننا لا نبعد كثيراً عن منطقة بئر الجديدة. لقد كانت لدي بعض

المخاوف من عبور الحزام الرملي الممتد أمامنا، إلا أن عبدالله الذي يعرف المنطقة جيداً أكد لي أننا لن نواجه أي عقبات أو مشاكل، ولم يتحرك ركبنا إلا حوالي الساعة التاسعة إلا ربعاً صباحاً. سرنا أول الأمر مسافة قصيرة على أرض رملية سهلة ومتموجة حتى وصلنا إلى حزام واسع تكسوه كثبان منخفضة وبدلاً من أن ننحرف جانباً لكي نتحاشاها، اندفعت وسط اثنين من هذه الكثبان وكنت أواصل القيادة بسهولة وأمان إلا أن محمداً -سائق السيارة الأخرى- اختار مجرى مغايراً وغرزت سيارته في رمال ناعمة. استغرقنا بعض الوقت حتى خلصنا السيارة من الرمل. ثم تقدمت سيارة محمد مرة أخرى متتبعاً بعض المجاري المتداخلة بطريقة سهلة، وانحرفنا تدريجياً من الشرق إلى اتجاه الجنوب الشرقي حتى وصلنا سهلاً رملياً ممتداً وكانت كثبان الرمل العالية على مسافة ليست بعيدة على جانبي طريقنا.

وبعد أن قطعنا مسافة أحد عشر ميلاً من نقطة انطلاقنا وصلنا إلى شبه وادي، أحواض طينية رملية متتالية تكسوها طبقة خفيفة من الحصى وبعض الشجيرات التي تتعرج عبر متاهة الروابي والكثبان الرملية. تسمى هذه المنطقة الفوة (الفم أو الممر) وبينما كنت أسأل نفسي متى الخروج من هذه المتاهة لمواجهة الصعاب والمشاكل الحقيقية التي تنتظرنا أخبرني عبدالله أن العبور قد انتهى وخاطبني عبدالله «انظر إلى تلك المنطقة ذات الحشائش»، وأردف قائلاً: «تلك هي مستوطنة عدة التي حدثتك عنها». وقد سبق أن أخبرني عبدالله والآخرون عن بئر حمد والأطلال التي تحيط بها والتي يرجع تاريخها إلى قوم عاد في عصور ما قبل التاريخ وفي بحثهم وسط هذه الأنقاض وجد العرب القدماء آثاراً قديمة مثل تمثال من الذهب لحصان وسيفين وأشياء أخرى. ومن الواضح أن هذه الآثار القديمة قد أرسلت إلى صنعاء أو حضرموت للبيع والتكسب واشتهر المكان وسط السكان المحليين بأن به كنوزاً مدفونة مع العلم أنه لم يرد لهذا الأمر ذكر في أوروبا.

لم نستغرق وقتاً طويلاً للوصول للأطراف الشمالية للموقع الأثري وهو ذو قيمة تاريخية مهمة. وتوجد العديد من الركائز والدعائم المغطاة بالحجر مع بقايا بناء صلب وكتل فخارية غير مصقولة، مع معثورات أخرى مختلفة. لقد تم بناء هذا الموقع على هيئة شـهب مربعة طول كل ضلع منها حوالي نصف مـيل أو أكثر، ومن الواضح أن البناء قد تم على أرض مـرتفعة ذلك أن أطرافه تبدو مـرتفعة عن بقية الـسهل المنبسط وربما كان مركـزاً زراعياً -في العصور القديمة أوالقـرون الوسطى- على ضفاف وادي دُهر السفلية وبسبب الزحف الصحراوي قد هجره سكانه بعد أن صعبت إن لم تتعذر الزراعة في المنطقة. وعلى كل حال فإن المنطـقة التي نتحدث عنها تقع في خط وادي دهر. بينما يدخل وادي رخيـة المنطقة الرملية على بعد مسافـة في اتجاه الشرق. ومن المحـتمل أن تلـقي الأواني الفخـارية والآثار الأخـرى بعض الضـوء على تاريخ هذه المستوطن التي ربما يثبت أنها واحدة من العديد من المدن القديمة الضائعة، غير أنني لم أعثـر على أي شيء من قبيل النـقوش وسيكون من الصـعب تحديد ومعـرفة المكان. ويبدو أن الجهة الجنوبيـة لهذه المنطقة كانت محصنة تمامـاً للحماية من آثار سيل وادي دُهر ويمتد السد الترابي إلى الجهة الغربية أيضـاً. أما الزاوية الشمالية الغربية التي تعلو بئر حمد فيبدو أنها كانت الحي السكني وتتناثر فيها العديد من بقايا أوان فخارية وقطع أثرية أخرى وقد جمعت ما استطعت من هذه الآثار وبعد ذلك اتجهت إلى البئر حيث اتخذ مـرافقي معسكرهم وبدؤوا تجـهيز وجبـة الغداء بما تبقى من لحـوم الغزلان التي اصطدناها بالأمس.

يوجد حصن طيني صغير تم تشييده لحماية بئر حمد التي تقع على مجرى أحد فروع وادي دهر المنحدر عبر الجانب الجنوبي للمـنطقة الأثرية المهجورة حتى يصل فرع الوادي إلى منطقة مليئة بالأعشاب والشـجيرات في محاذاة طرف الرمال. ويبلغ عمق البئر ثمانية عشر رجلاً (قامة) وبهـا ماء وفير حلو المذاق، وقد وجدنا فوق البئر ثلاث نساء ورجلاً من قبيلة نهـد يسقون خمسة جمال ويرددون أغانـيهم وأهازيجهم المعتادة

هيا، هبوبا، هيا، هبا. شاركنا الرجل طعامنا بينما نهضت من مكاني حول المائدة وحملت فخذاً من لحم الغزال قدمته للنساء كما قدمنا لهن بعض الأرز إلا أنهن لم يرغبن فيه واكتفين باللحم. لقد أكلت نصف جوزة هند أثناء فترة انتظار تجهيز الطعام وكانت هي آخر ما تبقى من زادنا الذي حملناه معنا من مدينة المعدي، إضافة إلى علبة يوسفي وكوب شاي. لقد علمتنا حضرموت الإسراف والبذخ. وارتفعت درجة الحرارة أثناء الظهيرة وبلغت ١٠٤ْ فهرنهايت عند الساعة الثالثة مساءً إلا أن نسيماً عليلاً هب علينا ولطف الجو كثيراً.

استأنفنا سيرنا وعبرنا حاجزاً منخفضاً تكسوه الحجارة في سهل رملي ممتد تعلوه مجموعة من نتوءات متشابهة تمتد حتى أطراف المدينة القديمة. ويجوز أن تكون بقايا سد قديم أقيم عبر هذا الفرع من وادي دهر لأغراض الري، عبرنا الآن سلسلة من الكثبان الرملية المتموجة المغطاة ببعض العشب حتى وصلنا سهلاً تكسوه طبقة من الحصى. ويوجد على الجانب البعيد من هذا السهل كثيب رملي يمتد من خشم مجوعة حتى الحزام الرملي مكوناً عائقاً على طريق سيرنا. كانت الرمال التي نسير عليها صلبة وواصلنا سيرنا مع ذلك على طريق متعرج فوق كثبان رملية تقع بينها منخفضات صغيرة. وكلها تمتد في اتجاه الجنوب الشرقي إلى الشمال الغربي. بعد ذلك واجهتنا كثبان رملية يصعب السير عليها بالسيارات، ولهذا غيرنا خط سيرنا حتى تخطينا هذه الكثبات تماماً ووصلنا سهلاً ممتداً ومتموجاً تتناثر فوقه بعض أشجار السنط وتغير الكساء الرملي تدريجياً إلى أرض حصباء وانتهت مع نهايات مجرى فريحة (دهر) برماله الناعمة الكثيرة وشجيرات منخفضة اكتست خضرة ونضارة بعد الأمطار التي هطلت أخيراً. بعد ذلك عبرنا سهلاً واسعاً تكسوه طبقة من الحصى وكانت بعض أجزائه وعرة بعض الشيء. وواصلنا سيرنا عبر هذا السهل وتخطينا رابية سحلال وكانت الشمس، من خلفها تقترب من الأفق مؤذنة بمغيب الشمس وقررت إقامة

معسكرنا في هذا المكان لقضاء الليلة هنا حتى أتمكن في صبيحة اليوم التالي من استكشافه من قمة الجبل.

كان السهل أجردَ وقاحلاً وكان لابد أن نستغني عن الطبخ ذلك المساء لعدم وجود حطب الوقود ومع ذلك لاحظت أن نباتات الفا الخضراء تغطي سطح المرتفع الذي نصبنا فيه معسكرنا. هذا النبات يوفر بيئة صالحة لتوالد الفئران ولهذا نصبت شراكي واتخذت من البسكويت الذي أحمله معي طعماً لهذه الفئران. وأعتقد أن هذه الفئران تعتمد في غذائها على بذور نبات الفا التي تسقط على الأرض. تقع هضبة قرن البنا التي استرحنا فيها في طريقنا إلى حضرموت على بعد عدة أميال في اتجاه الشرق، ويبعد عنا طرف الحزام الرملي بحوالي المسافة نفسها في اتجاه الغرب والشمال. استأذن عبد الله خويران لزيارة أهله وفارقنا عند بئر حمد للسير عبر الرمال إلى حيث تقيم عشيرته. لقد قطعنا حتى الآن حوالي عشرين ميلاً منذ مغادرتنا البئر. وفي صباح اليوم التالي (٢١ سبتمبر) صعدت بمفردي إلى قمة هضبة سحلال التي بلغ ارتفاعها حوالي مئتي قدم فوق سطح السهل. تتكون قمة الهضبة من حجر رملي مع غطاء رفيع وصلب جداً من الحجر الجيري، وبسبب الأحوال الجوية وعوامل التعرية الأخرى التي تعرضت لها الهضبة عبر العصور الغابرة فقد تناثرت قطع من هذا الغطاء الحجري وغطت أجزاء من المنحدر. وقد عثرت أثناء البحث وسط هذا الركام المتناثر على بعض الأشكال المتحجرة التي يرجع تاريخها لعصر الأيوسين. كذلك فإن المنظر الخلاب الذي استمتعت به من قمة الهضبة كان كافياً في حد ذاته عن ما سواه من الغنائم التي عثرت عليها.

جلست على الأرض للاستمتاع بهذه المناظر الجميلة وكان معي ما يشجعني على الجلوس والتأمل: ترمس الشاي وعلبة من شرائح الأناناس من جزر الهند الشرقية. وجهت بصري في اتجاه الشمال الغربي لأشاهد، على مسافة بعيدة، قمم مصاير الأربع، وجبل المخاري والبعرورة. وهذه المعالم أظهرت موقع آبار العبر ومنها يمتد

الجرف الشمالي الطويل الذي يمكن رؤيته حتى منطقة خشم مهباد وهضبة القليعة. أما في الاتجاه الآخر فيمكنني رؤية كل الأراضي المرتفعة حتى قعوضة بالناحية الشرقية وخشم رميدة بالناحية الغربية. وتقع بئر عساكر على مسافة قريبة فوق قمة الهضبة إضافة إلى مجرى وادي دهر الواسع المنحدر من بين هذه المرتفعات المصطفة في تناسق وانسجام بديع. وكان باستطاعتي رؤية وادي عساكر (وادي مطار) وهو يلقي عصا ترحاله الطويل أمام كثبان الرمل وبالتالي لم يصبح رافداً مهماً لوادي حضرموت.

وفي حوالي العاشرة صباحاً نزلت من قمة الهضبة إلى المعسكر لمواصلة الرحلة عبر السهل الممتد أمامنا ولم يقطع رتابة سيرنا إلا مجرى وادي مطار. أسرعنا في السير فوق طريق مستقيم لحوالي خمسة عشر ميلاً قبل الوصول إلى نقطة توقفنا التالية عند سلسلة صخرية منخفضة مكونة من الحجر الجيري الصلب، وكنا نرى -حتى من هذه النقطة- قمم جبل مصاير التي تقع حالياً في اتجاه الشمال بالتقريب وعلى مسافة بعيدة خلف الكثبان العالية في الرملة. وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة وصلنا إلى حيث توجد شجرة سنط وحيدة وناشفة بالقرب من طرف الرمال، وقد تمكنا من رؤية بعض الملامح المعروفة لإقليم شبوة.

وصلنا الآن نهاية وادي النقعة وتخطيناه بدون صعاب تذكر وطاردنا غزالة عفرية، كانت تسير بمفردها لمسافة حوالي خمسة أميال وأرديناها قتيلة. بعد ذلك تحول السهل الرملي المغطى بالحصى إلى منحدرات رملية منخفضة تكسوها بعض الأعشاب الجافة. وتكسو أطراف مجرى وادي واديان نباتات غزيرة من نوع المرخ والحرمل ولم نندهش كثيراً عندما ظهر أمامنا -وعلى مسافة ليست قصيرة- مجموعة من البشر وسط هذه الصحراء القاحلة والموحشة على ظهور جمالهم. توقفنا ونزل ابن هضبان وابن قنيبر واتجها نحوهم للاستطلاع. تتكون المجموعة من رجل من قبيلة الصيعر ومعه شاب من الكرب. عرفنا أن الرجل الكبير سبق أن غادر العبر بمفرده في محاولة للوصول إلى منطقة العوامر البعيدة في اتجاه الشرق والتي يستغرق الوصول إليها مسيرة

أربعة أيام بالجمـال. وهناك استولى على جمل وقـفل راجعاً إلى آبار العبـر بأسرع ما يكون وأخذ معه هذا الشاب ليدله على الطريق عـبر الصحراء وبهذه الوسيلة تمكن من الهرب والإفلات بالغنيـمة ويأمل التخلص منها في مخيـمات كرب وآل بريك بوادي مقاة حيث جذبت المراعي الجيدة أعداداً كبيرة من البدو. إن لعبة الغارة والغارة المضادة التي تزاولها بعض القبـائل ما زالت موجودة في هذه المناطق الحدودية البـعيدة، وهذا من آثار ونتائج عدم الأمن والاستقـرار الذي ساد هذه المناطق. وإن هذه القبائل تتطلع إلى نهاية سريعة لهذه المناوشات القبلية كما هو الحال في نجد.

شاهد أصـدقاؤنا الجدد صيدنـا الثمين على ظهر البئـر وسألوا عن المكان الذي ننوي إقامـة معسكرنا فـيه وأشرنا إلى منطقـة واسعة غنيـة بالأعشاب والأشـجار في مؤخـرة مجـرى الوادي على مسـافة من مكاننا. ولا يـبدو كبـير أمل في أن يتـمكن الرجلان من الوصـول إلى مكان معـسكرنا المرتقب في وقت يتوافق مع تناولنا وجـبة الغداء المنتظرة، غيـر أننا واجهنا عوائق عديدة في الطريق مما أعـاق تقدمنا. بعد ذلك أقمنا المعسكر تحت ظلال الأشجار وتمكن الرجلان من الوصول إلى حيث نعسكر قبل أن نتناول طعامنا وقضوا معنا فترة ما بعد الظهيرة وبعدها افترقنا كل في طريقه. عبرنا دلتا وادي واديان ووصـلنا سهلاً مـسطحاً وواسـعاً وكانت تـهب علينا رياح شمـالية متوسطة، تجرف أمامنا الرمال في هيئة صفائح بيضاء عريضة. وكان طريقنا ممتداً على خط مستقيم فوق قمة جبل النسر الشرقـي السوداء وبعد أن قطعنا مسافة خمسة أميال كانت التلال ومناجم ملح مـقاة على مسافة قـصيرة على يسارنا، فيمـا حاصرتنا من الجهة اليمنى تلال ظل الفجا وفـجي. وتحولت التربة الرملية إلى سطح يكسوه الحصى وتتخلله مجاري ضحلة لتصريف ميـاه جرف حراد وحويرد وبينما كنا نقترب من نصر الشرقي دخلنا منطقة كـثبان رملية منخفـضة تخترقها قنـوات تصريف ضحلة. قطعنا مسافة حوالي نصف ميل ضـمن تخوم الجبل المحاط بحجر رملي بلوري داكن اللون. بعد ذلك توغلنـا بعيداً في اتجـاه الجنوب الشرقي لمشاهدة هضـبة الكمـشة التي تقف

بمفردها في السهل المنبسط. أما الضريح الأبيض الخاص بمحمد بن بريك فقد كان واضحاً من النقطة التي كنا نقف فيها واتجهنا نحو الضريح على سهل صحراوي منبسط عبر هضبة مدعار.

ما تبقى من الطريق كان سهلاً وقبل غروب الشمس بدقائق بسيطة وصلنا إلى معسكرنا في شبوة وقد سعد الزملاء الذين كانوا بالمعسكر لوصولنا خاصة وأن أغلبهم كان في انتظارنا لأكثر من شهر. وقد شاركهم القرويون بهجة عودتنا. وعند نزولنا من السيارتين صافحونا بمد أيديهم وتقبيل جباهنا وكان من ضمن المستقبلين وفد رسمي من عائلة آل عبد القوي وهي من بطون ميوان وقام ابن مدعار بمهمة تقديمهم وتعريفهم وأهدونا أغناماً لذبحها لوجبة العشاء وهذه كانت إشارة اعتذار وتصحيح خطأ عدم إكرامهم لنا وحسن وفادتنا أثناء زيارتنا السابقة لديارهم. وفي صباح اليوم التالي سجلت لهم زيارة خاصة وأهديتهم بدوري (هدية مناسبة). هذا وقد وصل لزيارتنا - في وقت متأخر من الليل- علي بن عفيشة وابنه وكان بصحبتهم نفر قليل من العشيرة وجلسوا حولي وعبروا عن سعادتهم البالغة بلقائي وأطنبوا في ذكر ما يمكن أن يقدموه لي من مساعدات لا تعد ولا تحصى. كما أكدوا استعدادهم بتزويدي بكل ما تقع عليه أيديهم من منقوشات وتماثيل وما شابه ذلك من قطع أثرية إضافة إلى الأغنام، وبذكر الأخيرة مرر يده فوق عنقه كناية عن الذبح. أجبته بعلامات مناسبة كانت مثار ضحك وتندر الجميع وليس هناك أدنى شك من أنهم أشعروني بأن وجودي معهم لقي قبولاً وترحاباً من الجميع وأخبرني هؤلاء الرجال بأن سكان شبوة نزحوا مع مواشيهم إلى المراعي الخضراء الناتجة عن الأمطار والسيول الأخيرة. وأبقيت زواري حتى تناولوا معنا طعام العشاء المكوّن من لحم الغنم وهريس الدخن. وبعد مغادرة الضيوف استغرقت في نوم عميق بعد يوم طويل وشاق قطعنا خلاله حوالي خمسين ميلاً.

الفصل الحادي عشر

أرض أُز

في ساعة مبكرة من الصباح التـالي، وكنت قد رجعت لفراشي بعد أداء صلاة الفجـر، استيقظـت من نوم خفيف إثر صـوت إطلاق نار مصدره الأحيـاء المجاورة. وكان ذلك مدعاة للدهشة والانزعاج. وكنت على وشك شتم أولئك الذين تسببوا في مصدر هذا الإزعاج عندما علمت على التو أن ذلك الصوت لخمس بنادق أطلقت عدة أعيـرة بغرض التحـية على شرف مـقدمي. وكان بيني وبين مـكان إطلاق النار جمل صغير (حاشي) ملقى على الأرض ويتدفق منه الدم حيث تم نحره احتفاءً بي.

وعند وصولي مسـاء الليلة البارحة لاحظت بمزيد من الحـزن والانزعاج أن صالح ابن حزيق لم يكن ضمن المجـموعة التي تجمعت للترحيـب بي مرة أخرى. وتوقعت أن يكون قد ذهب إلى المزارع. ولكن في المسـاء وصلتني رسالة منه مفادها أنه سـيتصل بي في الصـباح. ويعـزو عدم حضـوره مبكراً للـترحيب بـي إلى وجود ضيـوف معـه ليلة وصولي. وقد راودني إحساس بأنه كان يقـصد به التجاهل ولكن تيقنت الآن أن ذلك لم يكن صحيحاً البتة. وربما كان قد عرف أن مراسيم الترحيب بي لم تكتمل؛ لذا فقد اختار صالح أول فرصة في صبيحة اليوم التالي ليزجي لي تحية خاصة وذلك بذبح عجل سمين على أنغام عزف موسيقى. ولكني كنت مـرهقاً للغاية بسبب سفري طوال الليل وأخلدت إلى الراحة. ولم أتمكن -لسوء الحظ- من مشاهدة المراسيم التي أقيمت للترحيب بي.

وعندما صـحوت وجدت صالح بن حـزيق بجانبي. وهو رجل ضخم الجـثة، تبدو عليـه أمارات الأبهة والاعتـداد بالنفس وعدم الاكتراث للآخـرين. وكان يجلس بجانبه رجل صغير السن يرتدي ملابس غريبـة وسرعان ما حيّاني الرجلان، ونهضت من فراشي لتحية الرجلين. وقدم لي صـالح المدعو حمد بن ناصر القردعي. وهو أي حمد، من الهاربين من العـدالة وكان يرتدي معطفاً قصيراً وسـترة أهل اليمن. ويبدو

من نوعية ومستوى حياكة ملابسه أنه من عِلْية القوم. وكان الأخير وأخوه المدعو عليّا حكاماً على كل من إقليمي الجوبة وحَريب اليمن. وقبل ثلاث سنوات خلت غضب عليهم الإمام (حاكم اليمن) بسبب تمردهم على سلطته. وقام السيد عبدالله بن الوزير بإخماد تمردهم. وربما يُعَّرف عبدالله بن الوزير أكثر بأنه كان مندوب اليمن في المفاوضات التي أفضت إلى اتفاقية الطائف عام ١٩٣٤م. واعتقل علي وتمّ سجنه لكنه هرب لاحقاً، أما حمد فقد هرب فور إخماد التمرد. وأعلنت السلطات اليمنية أن كليهما هارب من العدالة وأنه يجب القبض عليهما أو قتلهما عند رؤيتهما. وكان حمد يعيش في سلام وهدوء مع مجموعة من القبائل البدوية في وادي مرخة عندما علم بوصولي إلى شبوة؛ لذا فقد كان يريد مقابلتي للتوسط لمنحه الحماية من ابن سعود. فكل ما أستطيع عمله وقتئذٍ هو إعطاؤه الحماية والأمان إلى نجران ومن هناك أخبر الملك عبر جهاز لاسلكي بموضوعه للبت فيه. ورفض الملك إعطاءه الحماية تنفيذاً لبنود اتفاقية الطائف التي تحظر إعطاء حق اللجوء للهاربين من وجه العدالة.

ورجوعاً إلى مناسبة لقائنا الأول، فقد ذهبت مع صالح وحمد إلى التل لمناقشة بعض الموضوعات الخاصة بخططنا المستقبلية. وخلال اللقاء -وبينما نحن نتشاور في بعض الأمور الهامة- كنت أسترق النظر إلى معبد عشتارت لإمتاع ناظري بمختلف زواياه. وتقول الروايات الشفهية: إن تدمير شبوة يعزى إلى عقوبة إلهية لقتل النبي صالح الذي دفن في وادي سر، بواسطة سكانه. وثمة إشارة هنا وهي أنه يوجد نبيان يحملان هذا الاسم «صالح» في الجزيرة العربية قديماً [1]. والأكثر أهمية هو صالح ابن عبيد الذي أدى اغتياله إلى تدمير مدينة النبطيين (ثمود) في مدائن صالح في الشمال. ويعزى سبب سقوط شبوة إلى صالح بن حيسة حمير.

(١) مما هو معروف لدى المسلمين أنه ليس هناك نبيان يحملان اسماً واحداً، وإنما المعروف أن هناك نبياً واحداً اسمه صالح -عليه السلام-، وليس إلى ما ذهب إليه المؤلف من وجه. (المراجعون).

والروايات العربية بحقل آب الابن وليس حفيد أرفحشذ[1]. وهذا الدليل في حد ذاته ليس كافياً لترجيح الاحتمال بأن صالحاً هو جد هود كذلك من المستبعد أن يكون بنو هود في أسبانيا تربطهم صلة قرابية مع الأخير. ولكن إذا كان صالح قد تسبب في تدمير شبوة، فيبدو لي استناداً على الأدلة الظاهرة لأطلال شبوة أن الله القادر قد سخّر زلزالاً أو حملة حربية لتدمير ذلك المكان انتقامًا لرسوله، ويمكن الاستنتاج من المعلومات التي يضمها أحد النقوش التي جمعتها من موقع القلعة والذي يشير إلى إصلاحات كثيرة لسقف معبد شبوة بعد انهياره نتيجة لزلزال. وفي كل الأحوال فقد هُجرت المنطقة وعمّ الخراب بسبب السيول لاسيما بعد أن أهملت وسائل الري.

وبينما كنا جلوساً نستمتع بمنظر المدينة تجاذبنا أطراف الحديث في المواضيع أعلاه فضلاً عن أمور أخرى عديدة. وكان حمد القردعي في بيحان عندما زارها الرحالة ماكسويل دارلنج. وفي طريقه إلى وادي مرخة انضم إليه عبدالله بن صالح من عشيرة همام أحد فروع قبيلة العوالق الذي أحضر معه رسائل من قبيلته ومن عشيرة النسبين تدعوني لزيارتهم حيث إن كليهما كانا مندهشين بتفاصيل مغامرات ماكسويل دارلنج، وعلى الرغم من أنني لا أستطيع التيقن من مصداقية تفاصيل قصة هذه المغامرات، إلا أنني سأوردها هنا كما سمعتها من ألسنة هؤلاء الرجال. ويزعم هؤلاء أن سلطات عدن كانت لديها أسبابها في إظهار غضبها تجاه الشيوخ في إقليم أحور في سلطنة العوالق السفلى؛ ولهذا فقد توقفت عن تقديم المساعدات والإعانات المالية التي كانت تقدم لهم باعتبارهم تحت حماية الحكومة البريطانية. وفي فترة لاحقة (في نهاية يونيو ١٩٣٦م) وصل ماكسويل دارلنج بحراً إلى ساحل أحور بغية القيام برحلة إلى بيحان في

---

(١) هنا عاد المؤلف مرة أخرى إلى الخوض في تاريخ الأنبياء اعتماداً على مصادر ضعيفة مثل الروايات الشفهية أو الإسرائيليات وغيرها والتي لا يخفى على القارئ التحريف والخلط الظاهر فيها. وفي مصادرنا الأصلية القرآن الكريم والسنة النبوية ما يغني عن هذه الأقاويل التي لا تستند إلى أساس. (المراجعون).

منطقة العوالق. ويقول ماكسويل استناداً إلى خطاب وصلني منه: «كانت الرحلة متعبة خاصة وأن أهالي العوالق كانت لديهم أفكار مسبقة عن المال... وعليه كانوا يتوقعون نفحهم إتاوات للسماح لي بالمرور عبر أرضهم، فضلاً عن السيارة (ما يدفع نظير خدمات الأدلاء). ولم أكن مستعداً لتلبية هذا الطلب مما سبب لي بعض الإزعاج».

وأظهر شيوخ أحور استياءهم من تصرف الحكومة البريطانية بإيقافها للإعانات التي كانت تقدمها لهم حين قاموا باعتقال الرحالة ماكسويل دارلنج وحراسه في وادي المنقعة حيث كان لهم فيه قريتان فضلاً عن بعض الأراضي الزراعية. وقد طلبوا المال ورفض طلبهم. وصلت الأخبار إلى يشبم، حيث طُلب من السلطان أن يرسل فرقة قوامها ٤٠٠ جندي قامت بفك ماكسويل وأدلائه من الأسر مما مكّنه من الوصول إلى بيحان في سلام.

وأرسلت حكومة عدن طائرات عندما سمعت بأخبار هذه الأحداث من يشبم وبيحان، وذلك لضرب قرى أحور. ولكن حدث أن أخطأت الطائرات الهدف وأصابت قذائفها الجربة (مناطق زراعية) وهي تابعة لأقوام لا علاقة لهم البتة بأحداث الأهوار ونجم عن ذلك تدمير الحقول الزراعية ومقتل امرأتين. ونتيجة لذلك الحادث استشاط أهالي القتلى غضباً واحتجوا لسلطات عدن عن هذا العمل الاستفزازي. وفي نهاية الأمر اعترفت الحكومة بالخطأ واعتذرت للأهالي كما دفعت لهم تعويضات سخية. ويواصل صالح بن حزيق تفاصيل هذه القصة زاعماً أن الطائرات عاودت الهجوم مرة أخرى ودمرت القريتين بالقنابل ،لكن لم يصب أحد من الأهالي بسوء؛ لأن القرى كانت قد أخليت قبل وقوع هذا الحادث. يدعي الحزيق -دون إشارة إلى مرجعية لمصدره- أن الطائرات الحكومية قد أمطرت المنقعة بلدة قبيلة أحور بالغازات السامة والتي لم تدمر المحاصيل الزراعية فحسب، بل جعلت هذا المكان غير صالح للزراعة لما يربو عن ثماني سنوات، ولا أجد نفسي مصدقاً لموضوع استخدام الغاز السام لتخريب منطقة قبيلة أحور بيد أن القصة -في تقديري- حقيقية في جوهرها.

وهي تعليق نبيه على رسائل بريطانيا في (الحماية) التي يطلب منا جدياً تصديقها. جاء في تقرير لمحاضرة ألقيت مؤخراً في القاعدة الجوية لمحمية عدن، إنه بعد شهرين من الإرهاب الجوي المستمر في منطقة أحور، أظهرت قبيلة صعبة المراس في هذه المنطقة رغبة في التخلي عن معاداتها للفاتحين. وفي تقديري إنه لا يمكن تصديق مثل هذه المقولة فضلاً عن قناعتي بأن هذه القبيلة نفسها لا تريد أن تعامل بهذا النهج. ولا يوجد إنجليزي واحد يشعر بالبهجة والسرور وهو يرى نوعية المعاملة التي عامل بها الطليان الأثيوبيين. وثمة إشارة هنا، وهي أن مقالاً افتتاحياً لجريدة التايمز (١٥ مارس ١٩٣٨م) أعلن «إن استمرار وسائل العنف تحت أي ظرف من الظروف لأجل المحافظة على الأمن ولو كان عملاً مشروعاً فإنه يدعو الأهالي إلى الاستياء وإدانة الحكومة البريطانية». فهل هذا هو الحال؟ وماذا عن فلسطين وحضرموت؟

وفيما يخص قصة الغاز السام، وكما ذكرت آنفاً، لا أصدق هذا الموضوع، لكن ماذا يتوقع المرء عندما تكون الحكومة البريطانية غبية ليس فقط في استخدامها للغاز السام المسيل للدموع ضد العرب في فلسطين لكن في إذاعتها ذلك الخبر للملأ ومن خلال أجهزة الراديو؟! ولا يستطيع المرء أن يتصور الفارق بين السم والغاز المسيل للدموع فكليهما يبدو عملاً مفزعا.

ورجع ماكسويل بغتة من بيحان إلى عدن بالطائرة. وفي فترة لاحقة، وبينما حمد كان لا يزال موجوداً في بيحان وقبل أسبوعين من مقابلتي له وصلت طائرة بتعليمات من الأمير للبحث عن نورمان بيرن، الذي يتوقع وصوله إلى هنا في أية لحظة. وتبعاً للمعلومات التي أفادني بها حمد، فإن أخبار تجوالي قد وصلت بيحان من مصادر عربية في نجران وشبوة. ومن الواضح أن الكابتن هاملتون البوليس السياسي المسؤول عن تلك الأصقاع قد أحاطهم -كما رأينا سابقاً- بتحذير سلطات عدن لي بمغادرة المنطقة. ولكن هذا لا يمنعني من تلبية دعوة كريمة لزيارة بيحان

أرسلت إليَّ بواسطة عبدالله بن صالح الهمامي من حاكم بيحان وتوابعها القاضي أحمد بن عتيق البكري الأنصاري. والرسالة الخاصة بهذه الدعوة كتبت وأرسلت إليَّ من وادي مرخة كما تذكر الرسالة نفسها، حيث ينتظرني حاكم بيحان هناك برفقة مجموعة من قومه. ولسوء الحظ لم أتمكن من الوصول إلى وادي مرخة إلا بعد أسبوعين من تاريخ الرسالة بسبب تأخير طويل في حضرموت.

وكانت الرسالة مكتوبة بهذه العبارات: «أمير الأمراء وعظيم العظماء المبجل الحاج عبدالله فيلبي... إلخ. أود أن أحيط مقامكم الكريم عندما أعلمنا الضابط السياسي بمقدمك ومعيتك من مرافقين إلى محميتنا الشرقية، فقد ابتهجنا بذلك متمنين من الله أن يجعل مقدمك فأل خير وسلام لهذه المنطقة التي فقدت العدالة والطهارة. وقد قمت بالتحدث إلى أهالي هذه المنطقة وأسديت لهم النصح في شؤونهم الدنيوية والروحية ونبهتهم بضرورة الطاعة والولاء لسيدنا وملكنا إمام العصر وخليفة الزمان وخادم كلمة الله. فالإله يقدر العدل والرحمة، عبدالعزيز آل سعود، فليهبه الله النصر لأجل حقوق أهل المحمية التابعة لصاحب الجلالة ملك الحكومة البريطانية الرحيم المهيب والحامي لبلدنا من اعتداءات الأعداء، وخادمكم -يعني نفسه أي كاتب الرسالة- في شوق لمقدمك أنت وأتباعك في "أسفل مرخة" بكل الحب والتقدير، وأستميحك بالتعجل في القدوم لأن إبلنا في حالة يرثى لها ولا تجد علفاً تقتات به... لذلك فنحن في انتظارك... وهذه الرسالة كتبت على عجل، وآمل أن تقبل ذلك، وقد أصدرت تعليماتي إلى شيخين هما مبخت بن سالم بن شملان الهمامي وأحمد (عبدالله) بن صالح الهمامي لمرافقتك إلى أن تصل مرخة، لاسيما أن قبيلة همام لديها حق الحراسة وذات نفوذ فاعل...».

هذه هي الرسالة التي وصلتني من حاكم بيحان. وذهب مبخت ليعلن للملأ أنني لم أصل بعد أما عبدالله فقد بقي لمرافقتي إلى مرخة. وأخطرت سلطات الحكومة في

عدن بالاستناد إلى سلوكيات السلطات معي، بأني لا أنوي السفر إلى بيحان أو أرض سلطان العوالق. وعرفت من تحرياتي مع عبدالله أن عشائر همام والنسبين لا تعترف بحماية حكم سلطان العوالق أو السلطات البريطانية في عدن. وأكد ذلك لي لاحقا كل من صالح الحزيق وحمد القردعي. ورغم قبولي الدعوة إلا أنني قررت ألا أدخل أي منطقة تحت نفوذ حكومة عدن أو سلطان العوالق المحمي من السلطات البريطانية. واستفسرت من صالح عن صحة المعلومة التي وصلتني تلغرافياً من السلطات البريطانية في عدن ومفادها أن شبوة والكرب يقعان تحت نفوذ سلطان العوالق. وكان رده بالحرف: «هراء![1] كذّابون، هذه هي بلادنا ولايوجد حاكم لها سوانا». ومن جهة أخرى، فإن سلطان شبام كان على رأي مؤداه أن شبوة تقع ضمن مناطق نفوذه وليس تحت حكمه مباشرة. ولذا لم يجرؤ أي من السلطانين على زيارتها دون إذن من أهلها.

ولم تكن دعوة مرخة هي الأولى التي تلقيتها. وفي صبيحة يوم مغادرتنا شبوة في الطريق إلى حضرموت، جاءني صالح وبرفقته رجل غريب المظهر، وعلى بدنه سترة من جلد الأسد ويتمنطق حزام حفظ الرصاص. وكان حديثه غريباً مع حركات تبدو كأنها نتاج إعاقة طبيعية. وكان هذا الشخص هو حمد بن عبد الله زعيم أهل الضباب من عشيرة وادي جردان وكان في طريقه لزيارة زوجته، من الفقراء، وأولاده الذين كانوا يقطنون في منزلهم بقرية حجر. وكان الرجل يتحدث بحماس عن الأطلال الكافرية التي تقع في منطقته، وادي البنا في أعلى عياذ بالقرب من النقطة التي ينتهي فيها وادي جردان ويتحول إلى سهل فسيح. وقدم حمد بمودة شديدة -دعوته لزيارة قبيلته-. ووعدني كحافز لذلك إهدائي علبة صفيح مملوءة بعسل جردان الشهير والغالي الثمن. ورغم أنني لم أكن قد عزمت رأيي بعد فيما يخص تحركاتي في المنطقة، إلا أنني أعطيته موافقتي المبدئية على هذه الرسالة ووعدته بأن أرسل له

(١) يخسون - كذابة. (المؤلف).

صالحاً -إذا سمحت الظروف بالزيارة- لتحديد ميعاد الحضور إلى ديار عشيرته. وفي فترة لاحقة اتفقت مع صالح بأن أزور مخيم حمد في وادي أنصاب والذي سيمكث فيه بعض الوقت قبل أن يعود أدراجه إلى بلدته. وأرسلت إليه خطاباً بهذا المعنى لمقابلتنا في المستقبل المنظور بمعية أعيان عشيرته.

وفي غيابنا جاء وفد من قرى وادي عرما الواقع أعلى وادي شبوة والكثيف السكان، مقدماً لنا دعوة لزيارة تلك المنطقة. وبالإضافة إلى طريق عقيبات الذي عبره جواً هلفريتز قادماً من شبوة، فإن هناك طريقين آخرين للقوافل من حضرموت إلى مستوطنات عرما. فالطريق الأول يتفرع من طريق شبوة عند بئر مجوعة ماراً بوادي دُهر حيث يتناثر العديد من القرى الصغيرة. ويواصل الطريق مسيرته إلى وادي عرما. أما الطريق الثاني فيبدأ من وادي المطر من نقطة بئر عساكر ويدخل وادي عرما من أسفله. ومن المحتمل أن هلفريتز رجع عن طريق هذا الوادي بعد أن مكث قليلاً في قرية الضلع ولكن من الملاحظ أنه لم يعط تفاصيل لرحلته سوى ذكره لأسماء سبع قرى -إحداها لا أستطيع تحديدها في قائمة القرى التي أعطيت لي بواسطة عدة رواة من شبوة-. لكن المدهش أنه ذكر في كتابه المعنون «أرض بلا ظل» أنه لمح قرية عرما ولم يزرها. ولكن من المؤكد أن القرية التي يقصدها هي عياد وليس عرما. وفضلاً عن ذلك فإن زعمه بأن عرما كانت منطقة غير مأهولة بالسكان لا أساس له البتة. ومما يؤكد ذلك ما ذكره الملازم طيار أ. ر. م. ريكاردز عام ١٩٣٣م الذي زار منطقة وادي دُهر ووادي عرما وقام بمشاهدة وتسجيل أعداد كبيرة من القرى على امتداد هذه المنطقة. ويبدو أنه لم يحاول زيارة شبوة.

لم أكن أعرف شيئاً عن رحلة ريكاردز في ذلك الوقت، ولم أكن متحمساً لأحد أسفاري في ذلك الاتجاه. أدى التأخير الطويل في حضرموت إلى تعديل في برنامجي لأنه إذا أزمعت زيارة كل من جردان ومرخة فلن أجد متسعاً من الوقت لزيارة عرما؛ لذا فقد أقنعت نفسي بأن أجمع أكبر معلومات ممكنة عن تلك القرى.

وجدير بالملاحظة أن الجرف الذي يقع موازياً لوادي شبوة يشكل الحدود الشرقية لقبيلة الكرب والتي تتبع لنفس مجموعة قبائل عرما. وأسفل وادي عرما تقطن عشائر المشايعة التي توجد قراها في الحمة والجيف والسمحاء ومسلب. وأكثر أهمية من هذه العشيرة هي مجموعة «آل عمرو»، التي تقطن وادي عرما وتتجمع قراها في العقيبات وهي حبيظ، وحصن سنديان، والكويرة ومستوطنة كربية منعزلة وتسمى المافود. أما الوادي الذي يقع أمام هذه المنطقة فتسكنه عشيرة «آل بادخن»، التي تتوزع في قرى الجُشم وباكيلة والحرة والأكواخ الصغيرة المتناثرة في وادي الحنكة وهو أحد ثلاثة أودية يكون التقاؤها في وادي عرما والاثنان الآخران هما ينجل وهو خال من السكان وسمرة والذي تقطنه عشيرة عبد الصمد من مجموعة الفقراء. ويفترض أن القنوات الثلاث المذكورة تنحدر من منطقة تقسيم المياه.

إضافة إلى المستوطنات التي ذكرت أعلاه، فإن منطقة الفقراء (المشايخ) تتناثر فيها العديد من القرى هي: الجيزة، والخليف، والضلع العليا والسفلى، والصفاة، والحصا، والكورة، والمنقلة، والحرة ومعلا، ويجدر التنويه إلى أن أكبر قريتين وأهمهما في المنطقة هما المافود والضلع اللتان زارهما وصورهما الرحالة هلفريتز. وأما تحالف قبائل بلعبيد فهو ينحصر باستثناء قبيلة الكرب التي تحتل منطقة السهل في الأودية داخل هضبة حوق وتمتد مناطق هذا التحالف من أراضي جردان إلى أعلى وادي رخية.

وبعد الظهر ذهبت ومعي صالح وابنه الصغير حمد الذي أعطيته حلوى كنت قد أحضرتها من حضرموت. أخذت السيارة في زيارة تفقدية للأطلال التي أسماها صالح بئر حمد بن قطيان. سميت باسم الأخير لأنه قام بمحاولتين لحفر بئر قديمة في هذا المكان على مسافة ميلين أسفل قناة معشار الذي يصبح في هذه المكان وادياً رملياً واسعاً محاطاً بغطاء نباتي والعديد من أشجار العلب الخضراء. وفي الجانب الأيسر من ضفة الوادي يوجد جرف تعلوه الأطلال التي نود زيارتها. ويبدو أن هذه الأطلال

عبارة عن حصن يشغل مساحة تتراوح بين ١٧-١٨ قدمًا وتتناثر حولها أكوام حجرية توحي بوجود كوخ صغير أو مجموعة من الأبنية الخارجية ذات العلاقة بالحصن. وهناك سبعة مداميك لا تزال شاخصة للعيان تشير إلى أن الحصن من الطراز السيكلوبين ويشبه ما يناظره في روابي كمشة ومدعر، ويبدو أن هناك رابية صغيرة تم الحفر فيها إلى مستوى الصخر البكر لوضع الأساس الحجري للبناء الذي يبدو في مظهره في غاية الجمال مقارنة بما يحيط به من مناظر، ويلاحظ أيضاً أن أرضية الحصن تتناثر حولها كسر الفخار الأحمر في حين تقع البئر بين الجرف الصخري والحصن وهي مربعة الفوهة بقطر يصل إلى خمسة أقدام وذات قصبة مضفورة بكتل الأحجار الصغيرة كما توجد آثار لقناة ماء قديمة.

وغربت الشمس قبل رجوعنا للمعسكر. ولاحظت أن الجو هنا أكثر برودة مقارنة بحضرموت. وعند العشاء وصلت مجموعة الجمالين الذين رافقونا إلى شبوة بقيادة جعمل الذي قال لي بالحرف: «التزمنا أن نأخذك من نجران إلى شبوة وبالعكس، وإن جمالنا في حالة سيئة ومن الأفضل أن نرجع إلى نجران قبل أن تنفق. والآن تريدنا أن نذهب إلى مرخة وما شابهها. فلقد انتظرناك هنا لما يربو على شهر ونريد أن نرجع أدراجنا إلى عوائلنا، ولا نستطيع أن نصل إلى مرخة. وسوف لن نذهب معك».

وكان هذا التمرد بواسطة الأدلاء كريهاً وبغيضاً كما أنه غير متوقع. ويجدر التنويه إلى أن الجمال كانت ترعى وكانوا لمدة شهر يرفلون في حياة هانئة وكانت كل مصروفاتهم على حسابي الخاص. وفي ظل هذا الوضع دعوت إلى اجتماع عاجل ضم كلاً من سعد بن معيلم، وصالحًا وآخرين، وفيه واجهني صالح قائلاً: «أنت الذي أفسدت جعمل بمعاملته كشيخ وهو لا يعدو أن يكون مجرد جمّال. وهو ليس أفضل من الآخرين». ولكن لم ينفرط عقد المودة تماماً بين النجديين ويام وإن كانت الأخيرة كثيراً ما تتذمر من تعاملي الحذر والذي كنت أراعي فيه مشاعر البدو. إن

المشكلة تكمن دائماً في المحافظة على تماسك العناصر المختلفة في المجموعة. فسعد ومجموعته من النجديين يتحكمون في توزيع المؤن كالقهوة والشاي والسكر. وفي الوجبات فإننا نأكل مع بعضنا ولا سبيل للتفرقة بالرغم من أن سعداً وأصحابه كانوا يرغبون في طريقة أخرى. ومهما يكن من أمر فإن الذئاب التي آويناها بعناية كانت مستعدة للانقضاض علينا.

وهذا التمرد يجب أن يخمد أو يخفف من غلوائه بأي ثمن. ولكن لن أتنازل بسببه عن عزمي زيارة عياذ ومرخة. وللوهلة الأولى كنت على رأي وهو أن أتجاهل المتمردين وأتركهم وشأنهم ليذهبوا إلى ديارهم كما أعلنوا ذلك. وإذا ما تم ذلك فلسوف يخسرون ما تبقى لهم من أجر. ولكن صالحاً أكد لي أننا لن نستطيع أن نجد جمالاً تأخذنا إلى نجران أو حتى إلى الآبار على مقربة منها في ذلك الموسم. وكان البديل المتاح لنا هو أن نترك معظم المجموعة في شبوة أو يتحرك فوج صغير إلى مرخة بغية تجنب رحلة العودة. ولكن الأدلاء أكدوا لي عدم وجود طريق للعربات غربي طريق شبوة - عارين للقوافل. ولهذا فقد قبلنا على مضض خيار الرجوع إلى شبوة.

وسألت صالحاً عن الآبار في الجانب الآخر من الصحراء. وكان المتمردون من الأدلاء قد رغبوا في الرجوع عبر أقصر طريق، وهو الذي أتينا عبره، ولكني رفضت هذه الفكرة. وقال لي صالح: «الطريق إلى بئر بوع مباشراً وهي تقع على مسافة قريبة للجنوب من الشضيف». وسألت: «هل هناك أي بئر في هذه المنطقة يمكن أن نصلها جنوب بوع؟». فأجاب صالح: «فقط مأرب» وقلت له: «حسناً، لا أريد الذهاب إلى مأرب لأن الحكومة اليمنية لديها موظفوها هناك. ولكن مسعودة هي المكان الأمثل لنا. ومن هنا نستطيع أن نذهب إلى مرخة ونرجع إليها مرة أخرى ومن ثم نتوجه إلى مسعودة». لذلك فقد بدأنا نتفاوض مع المتمردين الذين أظهروا في البداية مشاكسة. وكانوا يودون الرجوع إلى الشضيف، ولم يكونوا على دراية ببوع أو مسعودة.

واعتقدوا أننا سنستدرجهم إلى مسيرة طويلة. وتحدث كل من صالح وسعد وابن مدعار إلى المتمردين في الوقت الذي ذهبت فيه للاسترخاء مع توقعي بأن كل شيء سيسير على ما يرام. وسوف تنتظرنا مجموعة الجمالة في شبوة ليأخذونا إلى مسعودة حيث توجد أنقاض أثرية كما يقول صالح.

قررت أن أترك كل مرافقي من النجديين خلفي وأنا في طريقي لزيارة منطقة قبيلة الكرب وذلك لعدة أسباب هي أولاً: أن جمالهم كانت تتبع لعشيرة يام المتمردة، وثانياً: لعدم حاجتي إليهم أثناء تجوالي في ديار الكرب وفي ضيافة كل من عشيرتي همام والنسيين. علاوة على ذلك وبالنظر إلى رفض السلطات في عدن مرافقة نجديين مسلحين معي، انتابني شعور بأن أبرهن لهم بأنني يمكن أن أسافر في محمية عدن بسلام بهم ومن دونهم في الوقت نفسه؛ ولذا احتفظت بأكثر هؤلاء المرافقين أهمية وهم سائق وميكانيكي السيارة وفراج القحطاني لصيد الطيور، وسعد ابن عثمان لسلخها ومحمد بن هضيل للطبخ وإعداد المائدة. أما بقية الفريق المرافق فقد كان من الأهالي المحليين وهم صالح بن حزيق، وعبدالله بن مدعار ومعيض وجميعهم من قبيلة الكرب، وهناك ناصر بن شماخ من عشيرة المرادعة (نهد)، وحمد القردعي اليمني الهارب من وجه العدالة وعبدالله بن صالح الهمامي الذي وصل ضيوفه إلى مرخة. ويبلغ عدد المكورين حتى الآن اثني عشر فرداً ثمانية منهم يركبون في السيارتين والأربعة الآخرين على الجمال. وفي وادي أنصاب وعياذ انضم إلينا أحد أفراد قبيلة الكرب وآخر من عشيرة النسين كأدلاء للقافلة فأصبحت مجموعة القوة أربعة عشر رجلاً يتم تقسيمهم إلى مجموعتين ثمانية وستة أثناء المسير على أن تلتقيا فقط أثناء الليل في المعسكر. وفي رحلة العودة من وادي مرخة تستمر مجموعة الإبل إلى معسكر صالح في أنصاب وتأخذ السيارتان طريقاً مستقلاً.

وصحوت في صبيحة اليوم التالي بشعور مفعم بالراحة بأن مشاكلنا قد انتهت. وكان قد بدا على زعماء التمرد بعض الخجل لكنني تجاهلتهم. ومنذ الفجر وحتى

التاسعة صباحاً كنت مشغولاً ببعض الأمور الثانوية. فقد جاء علي بن عفيشة وهو يعلن صداقته الدائمة لنا وبادلناه عبارات التحية والتقدير. وفي أثناء ذلك جاء بعض المتسولين من القرية وهم يتلهفون لمساعدة. وأخطرت سعد بن عثمان بأنني لن أقفل راجعاً إلى شبوة وعندما تصله رسالة مني تفيد برجوعي إلى أنصاب فيجب أن يستعد لاستقبالنا في عارين وهي المرحلة الأولى في رحلتنا عبر الصحراء. جاء سعيد الذي كان مع ماشيته لوداعنا وبما أنني قد أعطيته بما فيه الكفاية من قبل فلا أظنه يتوقع هدية إضافية. وعلي بن عفيشة كان هو أيضاً سعيداً وراضياً. وقد كنت أنا كذلك. وعند الساعة التاسعة والنصف بدأنا رحلتنا.

وتنتهي "جزيرة "شبوة شمالاً على شكل شاطئ شبه دائري يبلغ ٣٠٠ ياردة تقبع خلفه قناة محباض التي تتصل بقناة معشار كما يلتقي الأحباب ليصبا معاً في رمال قوصة والنسر الشرقي. وعند عبورنا لقناة معشار مررنا بشاطئ تحيط به جروف رسوبية ويقع غربه سهل رملي مغطى جزئياً بالحصى يسمى أم حامد. والأدلة على الزراعة القديمة في هذه المنطقة كثيرة وكافية وهي تمثل ألواحًا حجرية لقنوات عتيقة. وخلف هذه المناظر يمكننا رؤية هضبة العرين التي تعد مقصدنا في الأيام التالية.

وكنا في روح معنوية عالية في مستهل يوم عطلة ملؤه النشاط. ومناظر الغزلان الثلاثة التي ترعى في المكان مغرية لا تقاوم. طاردنا الوعل (ذكر الغزلان) في اتجاه طرق الرمال حتى دخلناها وبقينا بين الكثبان المتعارضة أو المنخفضات بينها. وأنقذ حياته وحل السيارة في نقطة ضعيفة من الرمال. وبعد جهد تمكنا من إخراج السيارة ورجعنا للسهل متجهين نحو عُقْلة[1]. وتبدو كل هذه المنطقة الواسعة تحت الزراعة عندما كانت شبوة عامرة. وتحركنا إلى أعلى لصعود أحد الجبال حتى أتمكن من رؤية

---

(١) عُقلة: جبل بحضرموت بالقرب من شبوة، وهو غني بالنقوش الحميرية، كان يحتفل فيه الملوك الحميريون عند تتويجهم وإعلانهم اللقب الذي يتلقبون به بعد توليهم العرش. المقحفي، معجم المدن والقبائل اليمنية، دار الكلمة، صنعاء، ط١٩٨٥، ص٢٩١. (المراجعون).

المنطقة. صاح صالح يناديني بأنه قد وجد كتابات في بعض الصخور التي يعلو قمتها مبنى صغير. وفي أثناء ذلك كانت بقية المجموعة تبحث عن أماكن ظليلة بين الصخور لتجهيز بعض المرطبات أو للنوم.

ويبلغ ارتفاع قمة هضبة عقلة حوالي سبع مئة إلى ثمان مئة قدم فوق مستوى السهل. ولم أتجرأ بتسلق قمتها ولكنني التفت باتجاه الصخر لرؤية ما يحمله الحزيق والذي كان يشير إليه بصورة متقطعة. وقد ألجمت لساني الدهشة لما رأيت. فقد كان سطح الصخر الذي يواجهني مغطى بالنقوش. وعندما تفحصت النقوش ملياً تبين لي أن كل جوانب الصخر مزدانة بهذه الكتابات الصخرية. ويبدو أنها أهم المعثورات الكتابية في إقليم شبوة. وبدأنا نضحك بأصوات خافتة وساورنا شعور بأننا قد عثرنا على الكتابات التي رفض محمد أن يدلنا عليها. إلا إذا نفحته مبلغًا من المال ولم أر محمداً بعد ذلك إلا بعد رجوعنا من وادي مرخة إلى مخيم صالح حيث علم ببلوغنا منطقة النقوش. ففي الصحراء تصلهم كل الأسرار. وفي نهاية الأمر أعطيته ما كان يبتغيه من المال. وكنت أقصد أن أعطيه المبلغ قبل أن يسألني وهذه عادة عندهم تزعجني. فعندما قررت شراء اللحم للغداء فاجأتني هدية من زوجين من الغنم. ومثل هذه الهدايا تكلف الضعف!

وكانت صخرة عقلة التي وجدت عليها النقوش من الصخر الرملي، خشنة الملمس مربعة الشكل طول ضلعها يبلغ ٢٢ قدماً. وفي الجهة الشمالية الغربية تكون قاعدة مربعة ارتفاعها ثلاثة أقدام وعلى قمتها توجد أطلال أثرية. وهي عبارة عن حصن مربع الشكل يتكوّن من ألواح من الحجر الجيري الجيد التشذيب -يبدو أنها جلبت من مكان قصي عن موضعها الحالي-. أما الجانب الأوسط لكل جدار فيتشكل من ألواح غير مشذبة «دبش» من الحجر الرملي والأحجار الناعمة. وهناك سبعة مداميك من الألواح الحجرية ملتصقة مع بعضها بطريقة غير متقنة، لا تزال شاخصة للعيان حتى الآن. ويكون البناء الجزء الأكبر من أعلى قاعدة الصخرة ويشغل حيزاً

يبلغ عشرة أقدام مربعة. ولا يمكن الوصول إليه من الأرض إلا بواسطة مجموعة مدرجات مهدمة، تبقى منها نصفها مما استدعى أن نساعد بعضنا بعضاً بغية الوصول إلى البناء. ومن المؤكد أن البناء ذو طبيعة عسكرية أو مخفر شرطة خصص لحماية الأراضي المزروعة والتي يبدو أنها تمتد من شبوة إلى هنا بحوالي عشرة أميال. ولوحظ وجود صهريج ماء مبني عند أسفل الصخرة في الجزء الجنوبي الشرقي منها، ويبلغ ضلعه عشرة أقدام وارتفاعه خمسة أقدام. ويبدو أنه استغل لسقيا الجمال التابعة للحصن. فإذا كان ذلك هو الحال، فمن المرجح أن المياه كانت تجلب من مكان آخر حيث إننا لا نرى أي أثر لبئر هنا، وقد أخطرني صالح مؤخراً بأن عشيرته التي تقطن في منطقة عقلة المجاورة عثرت على بقايا منازل وآبار عند أسفل الجبل في الجهة الشمالية. لذلك فإن عقلة التي عرفت في النقوش باسم «أنواد»، كانت بالتأكيد مستوطنة زراعية.

وفي الجهة الشرقية من صخرة عقلة، يوجد ١٤ نقشاً تتضمن٩٠٨ حروف، يبلغ المتوسط ٦٥ حرفاً للقطعة الواحدة، وأطول هذه النقوش يضم ١٩٣ حرفاً وأربعة أخرى تحتوي على ما يزيد على ١٠٠ حرف. وتوجد نقوش تشمل ٨٧٨ حرفاً بمتوسط ٥١ حرفاً بينما أطولها يبلغ ٢٨٢ حرفاً، بينما نجد أن اثنين منها تضم فقط أربعة أحرف. وفي الجانب الجنوبي للصخرة يوجد ١٩ نقشاً أطولها يحتوي على ٩٩ حرفاً وثلاثة منها ذات أحرف تبلغ في المتوسط ٣٤. أما الجانب الغربي فقد وُجد فيه نقشان إحداهما يحوي ٤٦ حرفاً والآخر خمسة أحرف. وهناك صخرة منفصلة بالقرب من صخرة عقلة تقع إلى الغرب من قاعدة الحصن نفذت فيها ثلاثة نقوش تضم ٤ و ٢٢ و ٢٥ حرفاً. وتبلغ جملة النقوش في هذا المكان ٥٥ نقشاً تشمل ٢٥٣١ حرفاً بمتوسط ٤٦ حرفاً للنقش الواحد. وتجدر الإشارة هنا إلى أنني بذلت جهداً كبيراً في تسجيل كل هذه المادة وكنت أعمل حتى مغيب الشمس ولقد هدني الإرهاق من عناء العمل المتواصل رغم الكميات الكبيرة من الشاي التي كنت

أحتسيها. ورغم ذلك كله، فقد كنت أشعر بالرضى عن النفس لهذا الإنجاز. وأهمية هذه النقوش تم التنويه بها بواسطة عالم الكتابات أ. ف. ل. بيستون من جامعة أكسفورد والذي نجد تقريره عنها منشوراً في ملحق لهذا المجلد.

ومن موقعنا في الحصن عند أعلى الهضبة يمكننا رؤية مناظر كثيرة. وبإمكاننا رؤية قبة (ضريح) ابن يوسف وجبال شبوة إلى الشرق، بينما تقع إلى الجنوب رابية عياذ بملاحاتها. وباتجاه الجنوب الغربي المعتم رأينا جبال عطفان الممتدة من وادي مرخة إلى بيحان. وكانت الساعة قد بلغت الرابعة والنصف عندما استأنفنا الرحلة وقطعنا حوالي أربعة أميال، توقفنا بعدها للتعرف على مناجم استخراج الملح في خروة التي أخذت اسمها من واد يهبط من مرتفعات الغبر وفي هذه المنطقة شقت العديد من الحفر التي تحتوي على صخور ملحية. ولوحظ أن هذه الحفر صغيرة وضحلة وغير منتظمة الشكل مثل مناجم شبوة. وهي مثل ملح المقعة يعمل فيها بدو الكرب أثناء رعيهم لقطعانهم في الأودية المجاورة. تقع المرتفعات في اتجاه شمال جنوب وعلى بعد ثلاثة أرباع الميل من بعضهما ويقع المنخفض بينهما على نحو ثلاثين قدماً فوق مستوى السهل.

ومن هذه المنطقة تحركنا بجهة الجنوب عبر السهل. ولكن سرعان ما وجدنا أنفسنا في مطاردة قطيع يتراوح بين سبعة إلى ثمانية غزلان، ظفرنا باثنين منها. وبعد ذلك توجهنا قاصدين قرن الضبيا عبر واد متسع تكسوه الشجيرات الصغيرة يسمى مذنب آل جعفر، ويرتفع الجبل نفسه ١٠٠ قدم تقريباً فوق الوادي. ويبدو أنه مستودع كنز دفين حسب ما ترويه الإشاعة السائدة. لا يعلم أحد كيف انتشرت هذه الإشاعة ولكن صالحاً تلقى نقداً من عشيرته لرغبته في أخذي لذلك المكان. وقد سألني بعض أعضاء بعثتنا في المعسكر إذا ما وجدت الكنز وكنت أخبرتهم بأنه لا يوجد شيء مثل ذلك.

يمثل هذا الجبل آخر نقطة من المرتفع الحصوي الذي يمثل الضفة اليسرى لوادي أنصاب. وهناك كتلة أخرى من الحصى في اتجاه الغبر المرتفعة مع منخفضات تملأ

المسافة بين أنصاب وجعفر حيث يكونان دلتا واسعة تخرج في مقابلة حزام السبعتين الرملي.

كان وصول سيارتنا علامة لتجمع الأهالي المندهشين لرؤيتنا وقد أقمنا كالعادة في مكان فسيح على طرف معسكر صالح وأسرته. وقد غادر صالح المكان لقضاء بعض الأمور الخاصة بشؤون قبيلته. وبقينا لوحدنا إلى أن حان موعد تناول طعام العشاء المكون من لحم الماعز وعصيدة القمح (البر). وبعد أن فرغنا من الطعام لم يكن هناك شيء يستوجب مناقشته مما دفعني للعودة لمواصلة عملي. وكان يقطع خلوتي فقط الزيارات المتقطعة من بعض الأهالي الذين كانوا يرمقوننا بنظرات محدّقة وهم في حالة اندهاش لكنني لم أعرهم اهتماماً وواصلت عملي بدأب ونشاط، وكان ضمن هؤلاء الأهالي الابن الأكبر لصالح. ويبدو لي أنه فظ السلوك يبلغ السادسة عشرة أو السابعة عشرة من العمر. وقد جاءني في منتصف الليل وبصحبته زوجته المدعوة رحمة، والتي أحضرت لي طاسة من الحليب. وكانت هي التي جهزت لنا طعام الغداء عندما زرنا مخيمهم في هضبة الكوير وكان منظراً لطيفاً، إذ توجد خيام البدو وسط الشجيرات وتتلألأ نيران المعسكر لتضيء وجوه الذين يجلسون بالقرب منها. تقف الأغنام هادئة والجمال تتأمل في أحداث اليوم!.

عندما استيقظت على أثر صوت المؤذن للصلاة وجدت أن الرمل كان بارداً تحت أقدامي العارية وكشف فجر اليوم منظراً جذابا لخضرة النبات، لاسيما الثمام وغيره من نباتات الصحراء، التي دبت فيها الحياة بعد هطول الأمطار مؤخراً. وكان أول من جاءني صباح ذلك اليوم سيدة تدعى محسنة هي والدة المرأة الشابة. وقد أحضرت لي حليباً مع تضرعها لله تعالى بأن يسبغ عليّ بركته. ومن الحضور أيضاً الشيخ ناصر ابن قطيان. وتواصلت الزيارات فقدم إلي حمد بن ناصر وهو في العقد الخامس من عمره، نصف أعمى وشبه أطرش وأعرج وقال لي: «ذبحنا لك خروفاً الليلة الماضية». وذكرت له أننا أحضرنا معنا غزالين ورغم ذلك أعطيته ريالين. وكان هناك

مجموعة من الشبان (البدو) يسألون في بعض الأحيان أسئلة تلزمها اللباقة، وكنت أرد عليهم بجدية. وبعضهم كان يسأل عن الهدف من وراء صيدنا لبعض الطيور وقلت لهم مجيباً بأنا نأخذها معنا إلى المتحف، فرد أحدهم مستغرباً: «ماذا قلت؟». فأجبته: «إنه -أي المتحف- بيت كبير في مدينتنا الكبيرة مليء بالحيوانات والطيور جلبت من أصقاع كثيرة من العالم». وغادرني وهو في ريبة من أمري، هل أنا كذاب أم مجنون؟

وكان صباح اليوم التالي جميلاً، وتعطل سيرنا بسبب تأخر صالح لمدة أسبوع لقضاء بعض شؤونه. واستفدت من فترة التأخير لأقوم بدراسة المنطقة المجاورة. واتضح لي أن الجزء الرئيس من سلسلة جبال غالب منفصلة عن الجزء المركزي من هضبة الحوق ووادي العطف يفصل بينهما. وخلف وادي أنصاب يوجد خليج واسع تشكله هضبة حصوية ويقبع وراءه منظر منطقة زراعية تعرف باسم جربت الكافر حيث ذكر صالح بأنها مكان زراعة مشهور في السابق. ومما يعزز ذلك الرأي وجود كسر لألواح حجرية متناثرة في المنطقة مساحتها حوالي نصف × ربع ميل وربما كانت بقايا لقنوات عتيقة. وفي أقصى يمين هذه المنطقة توجد بقايا ألواح حجرية لسد مائي ذي فتحات ضيقة يبدو أنها تسمح بتدفق المياه إلى الخزان من مكان عال خلفه. والغريب في الأمر أن هذا الخزان يستمر إلى أعلى قمم المرتفعات وعلى امتدادها لمسافة معتبرة. ومن الصعب التكهن بمغزى هذه الجدران المرتفعة. وإذا كانت فعلاً جزءاً من الخزان فإنه لا شك كان ضخماً ويحفظ كمية كبيرة من المياه. والخزان «حقل الشيطان» كان منشأة ذات أهمية قد لا تكون واضحة اليوم. وسألت الهمامي عن مذبح بعل وسلاسل الحديد المحيطة به والتي ذكرها ويمان بيري في كتابه «أرض أُز». وقد أكدّ على كلام بيري وقال إنها ما زالت موجودة في منطقة النسبين في باعلوان.

وخلف الهضبة الجنوبية لجربت الكافر، يظهر واد تكسوه شجيرات صغيرة يسمى وادي الفليق ويبدو أنه كان يمتد من منطقة جرف صخري بين الغبر والمكلا

ويتجه نحو الشمال الغربي باتجاه أراض رملية. وبعد مسيرة ميلين وصلنا إلى نقطة تقع على الجانب الأيسر لوادي أنصاب وتطل على منظر غابة في غاية الجاذبية والجمال. وعند أسفل الجرف الصخري تقع مجاري مياه أجفر الرخم الضحلة. وفي المنطقة السفلى والعليا للنهير الجاري نلحظ أن الوادي تغطيه كميات كبيرة من الأشجار المظللة وشجيرات الأكاسيا الشوكية ترعى فيها قطعان من الضأن والجمال. وهناك مجموعات القبائل البدوية رجال ونساء تجوب المنطقة وترى حينا وهي تمتح المياه من الآبار لسقيا الحيوان. ومكان السقيا يسمى الغدير، على وجه التعميم. وعادة تسحب المياه من حفر ضحلة لا يزيد عمقها على قدمين وتسمى فضايا ومفردها فَضِية.

ونزلنا إلى منحدر وعر يبلغ عمقه ٢٢ قدماً ونحن حفاة وانضممنا إلى مجموعة الأهالي الموجودة قرب الآبار. ويلاحظ قرب كل بئر امرأة تقف وأرجلها ثابتة وهي تملأ الدلو بالماء الذي سرعان ما يغطس ثانية داخل البئر حالما يسحب إلى أعلى حيث تقوم امرأة أو اثنتان بتفريغه في الأحواض المعدة لذلك. وعلى أي حال هذا العمل سهل ويقضي القائمون به الوقت في الأحاديث والمزاح. ولوحظ أن النساء يلبسن ملابس بأكمام طويلة ذات لون أزرق غامق من جراء صبغة النيلة. ومعظم النساء يرتدين عقوداً، وربما ترتدي إحداهن ثلاثة أو أربعة عقود في جيدها، أما الأحزمة حول الخاصرة فهي مزدانة بالخرز والفضة والكهرمان وبعضها مزخرف بسلك على هيئة ثعبان من المعدن. ومعظم هؤلاء النسوة جميلات. والملاحظ أن أيديهن وأرجلهن مغطاة بالنيلة التي تحل في الإقليم الجنوبي محل الحناء. بيد أن أجمل هؤلاء النسوة امرأة من عشيرة آل بريك التي ترعى مواشيها عادة مع مواشي قبيلة آل عويرة وبقية القبائل وهي جذابة ترتدي عباءة جميلة بلون داكن للغاية من جراء صبغة النيلة ولكنها جديدة ومن المؤكد أنها جزء من جهاز عروس. وهناك حزام على هيئة ثعبان وسلسلة من الفضة مزدانة بقطع زجاجية موضوعة حول الخصر. ومن المؤكد أنها بنت الشيخ ودون شك أنها، سيدة خيمة الشيخ. ويجدر التنويه هنا إلى أن مهر الزواج لدى

الكرب والقبائل المجاورة لها يتـراوح بين ٥٠-٢٠٠ ريال وفي أحايين أخرى ينخفض إلى أقل من ٥٠ ريالاً.

وبينما كان المرافقون لي منهمكين في ملء أوعية المياه الجلدية للرحلة (القرب)، أخذت بندقيتي وخرجت للصيد. وكان أول الصيد حصولي على نوع جديد من طائر القطا. وحصلت على آخر في المساء نفسـه في عياذ. ولم أكن أدري أنني عثرت على نوع جـديد ويظهر أنه مـختلف عن أنواع القـطا الأخرى بلونه الفـاتح مقـارنة بالنوع المعروف للعرب باسم القطاط، والذي يأتي عادة لشرب المياه بعد حلول الظلام. وثمة إشارة هنا وهي أن الكولونيل بوسكاوين جمع عدداً من هذه الطيور قبل سنة أو سنتين خلت. ولكن لم يعر المتـحف البريطاني أي اهتمـام خاص لما جمعـته أنا وبوسكاوين من هذا النوع من الطيور. وبعد أشهر قليلة تحصلنا على مجموعة من هذه الطيور من و. هـ. إنجرام الـضابط السـياسي في عـدن الذي جلبهـا من حضـرموت. وتم الآن التعرف على هذه الطيور ووصفها وسميت انجرامز وتحصلت أيضاً على طائر الوقواق. ولاحظت أن الوادي مليء بالأنواع العـادية من الطيـور مثل: البـلابل، الحمـام، وما يعـرف بـاسـم طيـور الشـمس، وصـائد الذبـاب والأبيـض الحنجـرة والـنجـوم السوداء... إلخ.

يمتد وادي أنصاب إلى هذه المنطـقة من جرف الغبر في جـهة الجنوب الشرقي. ومن هنا يتجـه نحو الشـمال. ويتكون بطن هذا الوادي من الحجـر الرملي ذي اللون الأحمـر وتبرز عند جـوانبه الطبـقات الرملية والحـصوية. يتكون الفلـيق في الأجزاء المرتفعة على طول الضفة اليسرى للوادي. عبرنا بعد ذلك قنوات أسفل الغرغر وأسفل لظحـة الهابطة أرض المكلا الرأسـية. ومـررنا في طريقنا إلى وادي غثن بالعـديد من القنوات المائيـة تشـمل الجفـان وأم القـفل. هنا أقمنـا معـسكرنا للقـيلولة تحت ظل الشجيرات المحدود، وكانت درجات الحرارة عند الظل تتراوح بين ٩٨-٩٩° فهرنهايت مع مرور نسيم طيب. وينحدر هذا الوادي (غـثن) من خليج صخري شديد الانحدار

بين مرتفعات المكلا والـديس. وبعد الساعة الرابعة بعد الظهـر اشتد هبوب الرياح من جهة الشمال وفي غضون ذلك كانت هناك بقع صغيرة من السحب تسبح في الفضاء.

وفي السـاعة الرابعـة والنصف استـأنفنا المسيـر مرة أخـرى تاركين غثن بـاتجاه الجنوب الغربي وقاصدين عـياذًا ومررنا بسهل حصوي يقطعـه في بعض الأحيان عدد من القنوات والسدود لاسيـما في منطقة جردان حيث تمتد الأراضي الزراعـية البدائية حوالي نصف ميل على جانبي قناة جردان -مذنب جردان كما تسمى في هذه المنطقة- ولمسافـة عدد من الأمـيال أعلى المجرى من خـط طريقنا الذي يتبع الحـد الأسفل من الحقول تفـادياً للمشاكل. بعد مـسيرة خمسـة أميال من غثن واثني عـشر من أنصاب وصلنا قناة جردان ذات الأشجار الكثيرة. تقع قـرية عياذ نحو ميل من هذه النقطة في اتجاه أعلى المجرى وبهـا مبنى وحيد يشبه الـقلعة - حيدان وجوبية ربما لحـماية حدود منطقة الزراعة .

وصلنا قرية عياذ الساعة الخامسة والنصف. وعند مدخل القرية كان كل الرجال من أهلها -أربعون أو خمسون- قد تجمعوا لاستقبالنا. وأطلق عياران ناريان تحية لنا. وبعـد ذلك نظم أهل القرية أنفـسهم فـي صف طويل قبـالتنا. ومن ثم تقدم حـرس الشرف لتـحيتنا وتبـعهم الرجال لمصـافحتنا. وكـان بعض الرجال يحـملون أطفالهم الصغـار ربما لأهمية الزيارة التاريخـية. أو قد يكون لخـروج النساء من المنازل في يوم عطلة. وكان أحد الرجال مجذوماً، أبيض ومـصفر البشرة. ورغم ذلك لم يظهر أهل القرية أي نفور منه بل قام بمصافحتنا واحتـسى معنا القهوة. وأحضر أهل القرية بعض الحصائر التي فـرشت على الأرض وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث ونحتـسي القهوة إلى مغيب الـشمس حيث تفرقنا للوضـوء وأداء صلاة المغرب. وبعد انقـضاء الصلاة أحضر أحد الرجال قـطعة من الحجر الرملي عليها نقش باللغة الحمـيرية كلمة واحدة (عثتـقان) "Athtobqan" وقال: إنه مجلوب من أطلال حـجر عند أعلى الوادي. علاوة على ذلك، فقد عرضت قطع أخرى ضئيلة الأحجام تشمل حلية نحاس صغيرة

وبعض العلامات التي يستعصي فهمها فضلاً عن حبة مثقوبة لنظم قلادة. وللوهلة الأولى رفضت زيارة هذا المكان الأثري الذي جلبت منه هذه المعثورات وذلك حتى لا أشجع الأهالي على الجشع والمطالبة بهبات مالية؛ لذا فقد جلست لكتابة مذكرات بعض الأمور الأخرى. ولم يعكر هدوء خلوتي سوى بعض خطوات المارة -جيئة وذهاباً- من على البعد. وفي وقت متأخر قليلاً من الليل قدم وفد كبير من أهل القرية برئاسة الشيخ وفي حوزته اثنان من الأغنام للعشاء. لقد طال الليل في انتظار العشاء كما زادت جمهرة الزوار. وتبعاً لهذا الوضع الطارئ أجلت فكرة المسوحات الفلكية التي كنت أنوي القيام بها إلى وقت متأخر. ومما عضد هذا الرأي بالتأجيل أن السماء كانت ملبدة بالغيوم في تلك الليلة. ونسبة لعدم ذهاب الغيوم فقد تركت الفكرة وأخذت حبة الدواء وخلدت للنوم عند الساعة الحادية عشرة والنصف ولم أكمل ملاحظاتي إلا في فجر اليوم التالي.

وبينما كنت أقوم بإرجاع جهاز المزواة -أداة لقياس الزوايا في المسوحات- إلى مكانه لحفظه وصل وفد متوقع من آل ضباب من ناحية وادي جردان يبلغ عدده ١٢ رجلاً. وكنت أرتجف عند رؤيتي لأشكال هؤلاء القادمين في الهزيع الأخير من الليل وهم عراة إلى الخاصرة كان عبدالله الهمامي من جهة أخرى يرتدي معطفاً من جلد الغنم، الأول من نوعه الذي رأيته في هذه المناطق. وكان المرء يتوقع أن تكون هذه عادة منتشرة في بلد مليء بالأغنام. وبعد استقبال الوفد تركت صالح بن حزيق يتسامر مع الزوار ودلفت إلى مضجعي لآخذ قسطاً من الراحة ولكن لم أذق طعم النوم قط.

ويشكل خط وادي أنصاب الحد الغربي لحدود قبيلة الكرب. وخلف هذه المنطقة تعيش عشيرة همام وهي أحد فروع قبيلة العوالق والتي لا تعترف بنفوذ سلطان العوالق في أنصاب. وتجدر الإشارة هنا أن هذا الاسم الأخير يظهر خطأ في خرائطنا باسم نُصاب (Nisab) بينما نجد أن ميداك (Midak) مركز سلطنة العوالق العليا يجب أن تنطق أم عتق. وتشمل مناطق نفوذ عشيرة همام المستقلة المناطق السفلى من

وادي همام ووادي مرخة. وبين منطقتي الكرب و همـام يعيش أهالي قرية عياذ وقرية صعـدة التي تبعد عنهـا بأميال قليلة عند أعلى الـنهر حياة شـبه رعوية، حـيث كانوا يجوبون جانبي واديهم مع أغنامـهم وضأنهم. ومثلما عليه الحال بالنسـبة إلى المشايخ في شبوة، فإنهم ينتسبون إلى عشيرة القراميش من بني جبر. وهم مهاجرون إلى هذه المنطقة من اليمن، من منطقة مأرب ولكن لا توجد لديهم فكرة عن كيف ولماذا ومتى كانت هجرة قبيلتهم؟. ويقولون: إن عياذًا نفسـها غير قديمة كما هوحال حيد ولكنهم عاشوا في المنطقة لوقت طويل نسبياً خاصة وهم يملكون مناجم الملح في مرتفع حيد عيـاذ القريب. ورئيس المجـموعة شـخص وجيـه يدعى محسنًا له وجـه ماكـر مثل الثعلب.

وفي صبيحة اليوم التالي عاود زيارتنا شيخ القبيلة محسن مع ابن عمه ووجه لنا دعوة لزيارة القـرية. وتتكون مباني هذه القـرية من الطين المتماسـك، وتقع في منطقة مرتفعة فوق الجرف الصخري المنخفض على الجانب الأيسر للوادي باتجاه الشمال. وفي منطقة منفصلة عن القـرية باتجاه الغرب، يوجد برج جيـد البناء مربع الشكل. وللقرية ثلاث آبار عمق كل منها ٢٠ قامة (١٢٠ قدم لكل واحدة). وإحدى هذه الآبار خارج القرية ذات إمداد مياه موسمي والأخريان تنضبان عند حلول فصل الجفاف.

زرنا في البداية البئر الرئيسة حيث وجدنا الفتيات يعملن في أخذ المياه ثم مررنا على القرية عـبر شوارع متعـرجة. وقد طلبت زيارة البرج الرئيس المجـاور لمنزل متين البنيان مكون من طابقين. وعلمت أنه يتبع لزعيم القـرية الثالثة المشاكس والذي ما إن طرق محسن باب منزله حـتى جاء للتو لاستقـبالي ويبدو من قسمات وجـهه أنه كان غير راض أن يسـمح لنا بزيارة البرج. وفي تقديري أنه كان يطـمع في الحصول على مردود مادي نظيـر ذلك. وقلت لمحسن: إن المنزل المشرف على البئر كـافٍ ليسمح لنا برؤية البـرج عن قرب. ولم تؤرقني زيارة هذا المنزل لرؤية البـرج لاسيـما وأن هناك رجالاً مـدججين بالسلاح ينتـشرون على سطح المنزل وعلى اسـتعداد تام لمقـاومة أي

شخص يدخل المنزل؛ لذا فقد صرفنا النظر عن زيارة هذا المنزل. وحالما وصلنا باب المنزل المجاور حتى استقبلنا صاحبه بالترحاب. ودخلنا المنزل وصعدنا بواسطة البرج المبني من الآجر الطيني الذي يقود إلى الطابق الثاني. ومن هناك تسلقنا درجات سلم خشبي آخر يقود إلى السطح. وسرعان ما امتلأ المكان بالزوار القرويين وكانوا طيبين ومستعدين لتقديم أية معلومات أطلبها.

وفي السطح تمتعت بمنظر رائع. وأمضيت الوقت في التعرف على كل مظاهر هذا الريف الواسع. وبإلقاء نظرة خلفية على المكان الذي أتينا منه، أستطيع رؤية مرتفعات غالب وجبل علقة والغبر في مقدمة وادي أنصاب. وباتجاه الجنوب هناك هضاب فخذ المنعزلة تبدو ماثلة للعيان من القمرة بينما تظهر مرتفعات نوخان التي تمثل بداية حدود منطقة قبيلة الحاضنة. وبين موضعنا الحالي والمرتفعات الأخيرة يتناثر العديد من التلال البركانية وهي غير مرتفعة كثيراً وتسمى القرون السود، وتعد حدود قبيلة القراميش[1] في ذلك الجانب. وفي جهة الغرب وإلى الجنوب قليلاً تقع روابي كُبر والظهير. وهذه المرتفعات تفصل بين وادي همام عن منطقة سلطان العوالق وتطل على العاصمة أنصاب على بعد ميل منها. وعلى الجنوب الغربي يقف صخر حجر حيث ينحدر وادي مرخة من الجبال ويختفي في الرمال في الشمال الغربي من عياذ بالقرب من مرتفع يستار والأخير متنازع عليه بين الكرب وهمام. وفي أقصى الغرب نلحظ الجرف الصخري لعطفان الذي يقود إلى بيحان والذي تسكنه عشيرة أهل شلاميش، فرع قبيلة النسبين الصعبة المراس، وباتجاه الشمال الغربي تقع مناجم عياذ الملحية (حيد الملح) على مسافة أميال قلائل. وعلاوة على الحصنين اللذين ذكرا آنفا وقع ناظري على حصنين آخرين، أحدهما حصن ظبي، الذي يقع عند قمة تلال منخفضة في وادي الشولة على بعد نصف ميل من مكاننا الحالي. أما حصن عصيفير

---

(١) القراميش: من قبائل بني جبر في خولان العالية. الحجري، مجموع بلدان اليمن وقبائلها، ج٢، ص٦٤٨. (المراجعون).

فيقع إلى الجنوب الشرقي على بعد ميل واحد. وهناك أيضاً حصن المناقل (لابن حيدان) ويقع إلى جهة الغرب الشمال الغربي من هضبة (إرنام). وتشكل هذه الحصون دروعاً واقية للقرية ومزارعها من أي اعتداء عليها. وإذا ما جلنا ببصرنا باتجاه الشرق والجنوب الشرقي فيكتمل المنظر برؤية قرية صعدة على الجانب الأيسر من (وادي جردان). وهناك حصن البويردة الحديث ويقع في منتصف أطلال قديمة إلى الأمام. وترى صخور حيد - الضواحي المنعزلة والتي تقع عند منتصف القناة عند خروجنا من الجرف الصخري مباشرة. وعند أسفلها مباشرة توجد المستنقعات المعروفة باسم الكراف، والتي نجمت عن ركود مياه السيول. وأمام هذه المنطقة -كما قيل لي- موقعا حجر وبنا الأثريان ولكن تتعذر رؤيتهما من هذا المكان.

وبعد أن فرغت من هذا المسح، قررت أن أزور مناجم الملح بمفردي وأن أترك بقية المرافقين وسيارة النقل والجمال في المعسكر. وتفادياً لأية متاعب قد تقابلني اخترت أن يصطحبني كل من سائق السيارة وعبدالله الهمامي ومحسن وصالح بن حزيق، ولكن هذا الاختيار أفضى إلى هياج وسط المجموعة حيث أعلن كل من ابن عم محسن وزعيم الفرع الثالث لقبيلته أن لهم الحق في مرافقتي إلى مناجم الملح لاسيما وأنهم أيضاً -على حد زعمه- شركاء في ملكيتها. وباءت كل محاولاتي بإقناعهم بعدم وجود مكان يتسع لهم في السيارة بالفشل. وفي نهاية الأمر رضخت لمطلبهم وانضم الاثنان إلى المجموعة رغم ضيق الحيز في السيارة وانطلقنا لا نلوي على شيء سوى مناجم الملح.

وتحركنا عبر مناطق تتخللها سدود مائية، ودخلنا سهلاً قاحلاً توجد عند نهايته روابي وحيد الملح التي تبعد حوالي خمسة أميال من القرية. ومن هناك واصلنا السير عبر واد ضيق متعرج مؤد إلى قلب الجبال. وعند نهاية هذا الممر تركنا السيارة ومشينا بأرجلنا نحو خمس دقائق عبر أراض صخرية إلى موقع المنجم. واعتلى محسن صخرة على ارتفاع مئة قدم ليرى ما إذا كان الشاطئ ظاهراً . وذكر أنهم دائماً يحتلون

هذه النقطة المهمـة كحماية لهم من البدو الـذين يهاجمونهم أحيـاناً. وعند إشارته لنا تبعناه لنأخذ نظرة شاملة من أعلى حيث رأينا قمتي النسر خلف شبوة في جهة وهضبة عطفان من الجـهة الثانية. وبعـيداً عنا في الرمال رأينا يستـار والقرنين للشمـال وقمة ثلوّت من وراء عقلة. وكان عند مـوطئ أقدامنا حفرة يستخرج منهـا الملح كما وجدنا بعض الأكيـاس المملوءة بالملح مبعـثرة عند طرف هذه الحفـرة. وتعد هذه النقطة التي اعتليناها الجـزء الأعلى من الهضبة ولها ثلاث أو أربع قـمم. وتظهر طبقات الهـضبة أرضية متموجة لكنها أقل وعورة مقارنة بنظائرها في شبوة المقعة.

والمنجم الذي وصلنا إليه يقع في طبقات صخـرية صلبة وعميقة ذات لون يميل إلى الرمادي. وتحتهـا مباشرة بعمق ٥٠ قدماً إلى شمـال المدخل، وبحوالي ٣٠ متراً إلى اليمين، ما يزال العـمل مستمراً. بينـما يلاحظ أن الواجهة المقابلة للحـفرة قد تم حفرها إلى أعمـاق بعيدة. وتجدر الإشارة إلى أن هناك عدداً من العـبيد يعملون هنا. وعندما أدرك أحد هؤلاء أننا غرباء هَمَّ بتناول بندقيته لمهـاجمتنا ولكنه سرعان ما عدل عن هذه الفكرة عندما تيـقن أننا لسنا أعداء ومن ثم استمر في مـواصلة عمله. وعند وصولنا إلى الحفـرة التي كان يعمل فيها هذا الزنجي طلبت منه أن يحـفر لي كتلة من الملح وأعطيته ريالاً. والشيء نفـسه فعلته مع رفقائه الأربعـة. ثمة إشارة هنا وهي أن "المجبة" أو الرسـوم التي يأخذها أهالي حصن الجويبـة من تجار الملح تصل إلى ريال واحد نظير حمولة ثلاثة جمال بالإضافـة إلى دفع ما يسمونه "مرسة" وهي دفع مبلغ ربع ريال على كل جمل مـحمّل بالملح. عدنا للسيـارة وسرنا عبر التـلال في الجانب الآخر. حيث دخلنا سهلاً رملياً كبيراً حتى وصلنا حقول عياذ.

وقبل الذهاب إلى المناجم كنت قـد تفاوضت مع وفد جردان وكـان من ضمنه حمد بن عبدالله الذي قـابلته في شبوة. وكان الأخير قد أوفـد كل فروع عشيرة أهل جردان وآل الفشر. وكان موضـوع الرحلة إلى الأطلال في الوادي جذاباً كما أن ممثلي عشائر وادي جـردان كانوا قد قدموا لي دعوة لقـضاء ليلة في ديارهم. ووافقت على

الزيارة وأخطرتهم بأنني سأزور في البدء القرية ومن ثم مناجم الملح وبعد ذلك سأكون في إمرتهم. وعندما رجعت من القرية جاءني الأهالي ورفقاء حمد قائلين: «مرحباً بك في وادينا حيث توجد الآثار المدهشة لقدامى الكفار، ونحن نخاف من أنك ربما تفضل حمد على حسابنا وتلحق الضرر بنا؛ لذلك يجب أن تدفع لنا من المال كما تدفع له تماماً. وإذا فعلت ذلك فبالتأكيد ستجد عندنا كل ترحاب». وكان الرد عندي «سوف لن أدخل معكم في أي شروط وتعهدات. وفيما يخص الهبة التي سأعطيكم إياها فهي مسألة أقررها بنفسي ولا شأن لكم بنوعيتها، ولقد حضرت هنا عابر سبيل، ووقتي غال لأجل الإيفاء بوعدي لحمد بزيارة شبوة. ولقد أخطرته بأنني لن أزور الوادي إلا إذا كانت هناك موافقة جماعية على ذلك بين كافة فروع القبيلة؛ لذا فقد قدم إلى عياذ لمرافقتي. وأنا لم أعتد أن أساوم بالكرم مع العرب. ولن أساومكم أو أتبع السلوك في التعامل نفسه مع غيركم. ووقتي قيّم للغاية. ويجب أن أرجع إلى منطقة استخراج الملح بعد ساعة واحدة. وإذا أردتم أن أرافقكم فلن أفعل ذلك، فليذهب اثنان منكم مع الجمال في المقدمة ويتأخر أحدكم ليرافق السيارة». وعند رجوعي إلى المخيم لم أر شيئاً يوحي بأن رفقاء قبيلة جردان قد حزموا أمرهم. وقلت لهم بالحرف: «حسناً، طالما أنكم لا تزالون في هذا اللجاج، فلن أتدخل وأكون سبباً في هذا الانشقاق، ويمكن أن نفترق بسلام، وأنا حر في أن أعد حمد بأي هبة. كما أنني حر في أن أستمر في سيري قاصداً مرخة. والآن بدأتم في حزم الأمتعة، فإذا كانت وجهتكم وادي جردان أو حتى وادي مرخة، فالأمر عندي سيان، إنما الأهم هو أن الزمن أثمن من إهداره هكذا. وقد أخطرت مجموعتنا في شبوة بأننا سنحضر بعد أسبوع والآن نحن في اليوم الثالث!». وقد قمت بدفع المستحقات للمرافقين.

وكان رجال جردان ما يزالون في خلافهم المستعر. فطلبت من صالح أن يركب السيارة. وأدرت على الفور الماكينة وودعت محسنًا قائلاً: «في رعاية الله» ورد علي بعبارة: «فليحفظك الله آمناً». وبدأت السيارة التي تقلنا تتحرك، لكن حدث أن تعطلت

سيارة النقل (البيك أب) التي تقلنا فجأة. وقدت سيارتي إلى مسافة ميل وبعدها تحركت خلفنا سيارة البيك أب. ولقد كنت سعيداً لمفارقتي هؤلاء من عشيرة القراميش.

الشيء الوحيد الذي ندمت عليه هو عدم زيارتي أطلال وادي جردان، وعلى الرغم من كل سلوكهم السيئ وجشعهم، فإن آل الفشر استرعوا انتباهي كأحد أهم العناصر الجذابة في جنوب الجزيرة العربية. وهم في حقيقة الأمر إحدى المجموعات الثلاث الباقية من قبيلة بني هلال القديمة والأخريان هما أهل خليفة في الحاضنة والنسبين وعشيرة آل الفشر في منطقة جردان والتي تتكون من خمسة بطون هي آل ضباب ولهم الزعامة، فشيخهم هو صالح العقيل عم حمد بن عبدالله، وأهل حسن، وأهل عطيف، وأهل ساري، وأهل الخضراء. وفي أعلى الوادي يوجد بطن آخر هو أهل المقبّر، ولكنه لا ينتمي إلى بني هلال -وهم من السادة الذين -دون شك- قد قطنوا هذا الموضع وباتوا الزعماء الدينيين للقبيلة-.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن لبني هلال سمعة أسطورية وهي أنهم أجمل الناس في الجزيرة العربية وكل المباني القديمة التي لا تعرف أصولها تنسب إلى هؤلاء الأقوام. وفي الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية فإن الأساطير التي تنسج حولهم هي الموضة الشائعة بالرغم من مزاعم التفوق للعدنيين والسبئيين والحميريين وغيرهم. وأبو زيد الهلالي بطلهم الشعبي هو الاسم الشائع الذي ترده كل الألسنة في تلك الأجزاء من الجزيرة العربية في حين أن أسماء مثل ملكة سبأ والشخصيات التاريخية العظيمة الأخرى ليست إلا مجرد ذكريات عفا عليها الزمن. ومن هم بنو هلال؟. لا نستطيع أن نجيب عن هذا السؤال. ولكن إذا كان أحفادهم هم الموجودون الآن في هذه المناطق من الجزيرة العربية، فليس بوسعي أن أجد في أي منهم أي علامات فيزيقية أو لغوية أكثر من كونها سامية.

وحتى الآن فإنني الأوروبي الوحيد الذي زار عياذًا فكل من هلفريتز وريكاردز لم يزوراها وإنما مرا بها من منطقة قريبة فقط. أما الباحث وايمان بري فقد ذكر بصورة

عابرة في كتابه «أرض أز- Land of Uz» إنه زار عياذاً مرة واحدة. وأوضح أنه قام باستطلاع سريع وأرسل أحد الأعراب ليحضر له -خلسة- بعض النقوش ولكنه -أي وايمان- نسي أن يقول لنا ما هو مصير هذا الرسول. والمعلومات التي يضمنها هذا الكتاب والخارطة المرافقة لا تؤيدان هذا الزعم. ومثال لذلك: أن شبوة -كما ذكر في الكتاب- لا يمكن أن تُرى من أي نقطة جنوب العُقلة. ولو كان بري وصل إلى ذلك المكان لكان قد وجد النقوش التي عثرت عليها. فضلاً عن ذلك فإنه من غير المقبول أن لا تحتوي خارطته على موضع الحاضنة إذا كان فعلاً قد مر بها في طريقه إلى عياذ. وقد أكد لي أهالي عياذ أنهم لا يعرفون شخص (بري) بهذا الاسم قد زار بلدتهم. هذا على الرغم من أن «عبدالله منصور» الاسم الإسلامي لبيري معروف في هذه الأصقاع في السنوات الأولى من هذا القرن وما زال يذكر بعد ثلاثين سنة من ذلك التاريخ. وعلى أية حال وإلى أن تظهر أدلة أخرى أكثر إقناعاً فإن ادعاء بري زيارة عياذ لا يمكن الوثوق به.

تحركنا تاركين الجانب الأيسر من أماكن استخراج الملح إلى أن وصلنا سهلاً فسيحاً. وأثناء سيرنا رأينا أحد طيور الحبارى وما إن اقتربنا منه حتى أسلم جناحيه للريح هاربا ولم نفلح في اصطياده إلا بعد مطاردة قصيرة. وبعد مسير ثمانية أميال باتجاه الجنوب الشرقي في مرتفعات العلم، توقفنا لنتناول وجبة الغداء تحت ظل بعض الصخور. ويلاحظ أن هناك هضبتين تقعان على محور جنوب شرق - شمال غرب بوضع متواز تقريباً، والمحور الأكثر ميلاً باتجاه الجنوب والذي توقفنا عند طرفه يتكون من صخور رملية متحولة ذات لون أرجواني في حين أن الآخر تتشكل طبقاته السفلية من الصخور نفسها وتعلوها طبقات جيرية ترجع إلى عصر الأيوسين. وهنا واد رملي ضحل وواسع يفصلنا عن مجموعة كتل صغيرة من الحجر الرملي تسمى إِرنام. ويظهر في الأفق البعيد عند أقصى الوادي ما يشبه طابور النمل، إنه قافلة تتكون من ٣٠-٤٠ جملاً وهي تسير بتمهل في اتجاه قرية عياذ. وفي ذات الوقت، فإن قافلتنا تزحف ببطء في الاتجاه المعاكس.

وعند التقاء القافلتين، جاءنا وفد من ثلاثة رجال وذهب عبدالله الهمامي لاستقبالهم. أما أنا فقد أخذت أمتعتي الشخصية لإصلاحها عند ظل مأوى صخري. وفي أثناء ذلك دعست على أحد أقيم غليوناتي فكسرته. واتضح بعد ذلك أن الرجال الذين ذهب عبدالله لاستقبالهم من عشيرته. وكانوا قادمين من وادي مرخة وفي طريقهم إلى وادي جردان. وعند مقابلتهم قالوا لي: «اتجهنا لنرى الدولة عندما رأينا العربات واقفة في المعسكر وقلنا لأنفسنا: الدولة ربما تعطينا «فاش». وهذ الكلمة تعني إذن أو جواز مرور عابر سبيل. وبالتالي يقصدون هبة مالية ولكن إمكانياتي محدودة وهي من أجل الصرف على مرافقيّ والآخرين ممن أنتفع بخدمتهم طوال الرحلة.

وبعد قضاء وقت القيلولة تحركنا الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والأربعين بعد الظهر وسرنا حوالي ثلاثة أرباع الساعة في سهل رملي واسع يكسوه الحصى يسمى سهل الحراج. وهو في الواقع دلتا وادي همام وفي طريقنا أخذنا معنا خدم حمد القردعي وكانوا قافلين إلى وادي مرخة وهم في حبور وسرور لقضاء الليلة معنا في المعسكر. واخترنا شجرة ضخمة ظليلة من نوع السرح، تسمى محلياً باسم المكادرمة لأخذ قسط من الراحة بجانبها. وكان معنا في المعسكر ثلاثة من النسبين انضموا إلى مجموعة الإبل بعد أن وفروا دوابهم وتركوا لي تقدير الأجر فيما بعد، وهكذا فقد كانت المجموعة كبيرة عند العشاء حيث قمت بتسليتهم باستعمالي للمذياع الذي أثار انتباههم. وقد أخبروني بمناجم الملح في عياذ في مؤخرة وادي بيحان ومنجم صغير في وادي أبراد الذي يتبع لعبيدة مأرب وهم عشيرة من قحطان. وهو بالتالي المنجم الوحيد في سبأ الذي لم أزره. وفي البعيد -جنوباً- ترتفع سلسلة جبال كور وخلفها أنصاب بالإضافة إلى أور "urr" والقمم الأخرى التي تطل على البحر. وفي الوراء بعيداً توجد بيحان حيث مرتفع السليمة الذي يكون الضفة اليمنى لواديها.

وكانت درجة الحرارة في صبيحة اليوم التالي (٢٦ سبتمبر) منخفضة تصل إلى ٥٨° في بداية اليوم . وغادر جابر بن مدعر ومعه مجموعة بالجمال بعد تناول الإفطار

مباشرة إلى مقصدنا وهو مخيم النسبين همام في قرن الفقية في وادي مرخة. وكانت صخرة الجرانيت البارزة لـ حجر يحرر، هي التي توضح الموضع الرئيس للمخيم. وراودني شعور بأن من المؤسف أن نمر بالقرب من الحاضنة دون أن نعرف شيئاً عن المستوطنة؛ لذلك فقد قررت الذهاب إليها. فتحركنا حوالي الساعة التاسعة قبل الظهر باتجاه جنوب - شرق عبر أرض سهلية. وتوقفنا بعد بضعة أميال لقضاء بعض الوقت مع أعرابي كان راكباً ناقته ويسير وحيداً في هذه الصحراء. وبعد مسيرة تسعة أميال من نقطة انطلاقنا تغيرت طبيعة الأرض من حصوية إلى رملية. وفي الطريق قام رجال القافلة بمطاردة بعض الغزلان من إدمي. أما أنا فقد ركزت جهدي باتجاه صيد أحد الوعول. ولم أتمكن من الظفر به إلا بعد مطاردة مسافة أربعة أميال. وبعد فترة قصيرة وجدنا أنفسنا نسير في مفترق طرق عبارة عن خط تقسيم لنوعين من التضاريس: أحدهما عبارة عن سهل رملي على الجانب الأيسر والآخر هو الأكثر اتساعاً يتكون من رسوبيات وغبار بركاني. وبعد مسيرة ميل آخر وصلنا أسفل جبل الكرش الذي يبعد بما يزيد على عشرين ميلاً من المخيم الذي تحركنا منه في بداية الرحلة.

ومن الخارج يبدو جبل الكرش منخفضاً حيث يتراوح ارتفاعه بين ٢٠٠-٢٥٠ قدماً. وفي الجانب الشمالي الذي صعدنا عن طريقه إلى القمة نجد شقاً متسعاً تملؤه اللابة (الحمم) وتكثر فيه الكتل والطفوح البركانية. أما القمة فهي ذات شكل بيضوي ومحاطة بجدران شديدة الانحدار يصل ارتفاعها إلى ٢٠٠ قدم في المتوسط مع وجود أقسام أكثر ارتفاعاً عند الأركان. وحفرة البركان تظهر وكأنها بحيرة ذات لون رملي مصفر مخلوط بغبار البركان. وثمة ملاحظة هنا وهي أن المنظر العام للابة (الحمم) وشكل الجدران السليمة للفوهة يوحيان بأن عمر النشاط البركاني حديث نسبياً. وأخذت بعض عينات من ذلك البركان لفحصه بواسطة خبراء المتحف البريطاني. وعلى مقربة من هذا المكان وباتجاه الشمال الشرقي توجد هضبة ثماد البركانية. وفي

اتجاه الجنوب الشرقي تقع السوداء وهي فوهة بركـانية على هيئة رابية. وباتجاه الجنوب الغربي تقع فوهة جنداب في حين تقع كل من خـرشفة ومورا وهما رابيتـان بركانيتان في اتجاه الغرب والشمال الغربي. وهذه السلسلة من الفوهات البركانية والتي تتوسطها فوهة كرش تقع في دلتا الحـاضنة المحاطة بجروف جيرية من جهة الشـرق ومرتفعات الباخدم وفخض من جهة الشمال.

وفي الجهة المقابلة لهذه المجموعة البركـانية توجد سلسلة من المرتفعات البازلتية تبدأ من جبل القليـعة الهرمي الشكل عند بداية الوادي وتتجه ناحـية الجنوب الشرقي حيث تشمل ضنيحة، وكبار الفهير وتستمر باتجاه حجر - يحرر ومرتفعات مرخة التي تقع باتجاه الشمـال الغربي. وخلف وادي مرخة تبدأ الجروف الجـيرية مرة أخرى بدءاً من مرتفـعات عفطان. ويبـدو أن التحركـات الأرضية القديمة قـد قسمت المرتفـعات الجيرية إلى قسـمين وتركت عند الفجوة الفاصلة بينهما رابيـتين كونتا مع الجرفين على الجانبين ثلاثة أودية هي: الحاضنة وهمام ومرخـة. وفي أقصى جهة الجنوب بعيداً عن هذه المرتفعـات البركانيـة تمتد سلسـلة جبـال كور التي تبلغ أعلى قمـة لها عند أور، وعند أسفل هذه الجبال تقع مستوطنات حبان ويشبم وأنصاب.

وبعد أن سجلنا بعض الملاحظات عن المظاهر الطبيعية والتضاريس التي سجلتها الطبيعة في أحـسن صورها أعدد الآن ما فعله الإنسان. والخط من كرش إلى القـعيمة يمثل الحدود بين همـام وأهل خليفة. فـمن القعمـية باتجاه الغـرب يمتد وادي وطاح ويشكل مع مرتفـعات كُبـار - الفهيـر التي تمثل الحدود بين همام وسـلطنة العلاقي العليا. ويعد مجرى وادي وطاح الذي يصل خلف السودة والجنداب فرع وادي همام. والوادي الأخير يبـدأ خروجه من المنطقة الجبليـة بين كُبار والظهيـر. وهناك قبيلة أهل خليفة، أو أهل الحاضنة كما تسمي نفسها أحياناً، وهي كما ذكرنا فرع من بني هلال. وهذه القبيلة مستـقلة النفوذ ولا تعترف بأي سلطة عليها سواء من قبـيلة يشبم أو قبيلة أنصاب. وفي فترة لاحـقة أقامت أحد عشائر هذه القبـيلة (بني هلال) والمعروفة باسم

آل مهدي عـلاقات سياسـية مع السلطات البريطانية في عـدن وأسبغت عليهـا الأخيرة الحماية وكانت تتلقى منها الهبات.

وتقع قـرى هذه العشيـرة أسفل وادي الحـاضنة. وترتيب هذه القرى ابـتداء من أسفل الوادي إلى أعلاه يشمل: الشـبيكة التي تغطيها أعداد كبـيرة من أشجار العلب، وهناك ثماد ونوخان. والأخـيرة تقع قبالة الجـرف الصخري. أما عدة القـفل فتقع في وسط الوادي على بعد مـيلين شرق كرش، وخلفـها تقع قرى لخـرم والصحفـة باتجاه الجرف الصخري. وقرية باكـبيرة تقع إلى الجنوب الشرقي من كرش يوجد بها العديد من الأكواخ والحصـون. ويوجد حصنان في كل من الشبـيكة -إلى الجنوب الشرقي- أسفل الجرف فضلاً عن أربعة حصون أخرى تشكل قرية الكريبية التي تقع إلى الجنوب قليلاً لكنها تتوسط الوادي وتوجد فيها قلعة جشم في الجهة اليمنى منها. أما السوق أو قرية الجـابية فتقع على مـسافة خمـسة أميـال من كرش على الجانب الأقرب من قـمة مرتفعـات القليعة. وتقع عـتق على بعد نصف ميل إلى أسفلهـا، ولكنها لا ترى من كرش، القرى الصغيرة الخمـسة وهي من خمر والقارة -على جانبي المرتفع- والعطف وباسودان وهات.

ويجـدر التنويه إلى أن القـرى السـتة عـشـرة المذكـورة أعلاه تشكـل مجـمل المستوطنات في وادي الحاضنة، ومن ناحية أخرى فـإن القرى الواقعة إلى أقصى جهتي الشمال والجنوب من هذه المسـتوطنات هي الشبيكة وهي تحت مشـيخة طالب بن علي والقارة تحت إدارة ابن عـمه أحمـد بن علي وهما ينحدران من عـشيرة أهل مـهدي. وهذه القرى تقع تحت النفوذ والحماية البريطانية في حين أن بقـية القرى مستقلة. وتتبع قرية الجـابية إلى أهل سوا، الذين يدعون تميـزاً خاصاً عن بقيـة العشائر لاسـيما وأن السوق المحلي في المنطقـة يقع تحت نفوذهم. ومن جهـة أخرى، فإن أهل قـفيش لهم السـيادة على حـصون باكـبيرة الكريبـية وجـشم وأهل عـبود تـتبع لهم قرى لخـرم والصحيفة، بيـنما تتبع قرية الشبيكة إلى أهل حميـر وخمر إلى أهل الكاظمي، وقرى

هات وبا سودان لأهل منصور. وتجدر الإشارة هنا إلى أن مجموع الرجال البالغين لا يزيد على ٣٠٠ رجل في حين أن مجموع السكان في كل هذه القرى يصل إلى حوالي ١٠٠٠ شخص بمن فيهم النساء والأطفال.

شيدنا مخيماً عند أسفل الجبل على مقربة من شجيرات الأكاسيا الشوكية. ومما يدعو للحبور الحصول على ظل بغية الاستجمام والراحة بعد عناء ساعتين من السير المتواصل في نهار قائظ. وأمضينا القيلولة إلى أن انخفضت درجة الحرارة قليلاً قبل أن نواصل المسيرة. ولاحظت وجود معسكر لبدو يتكون من عشر خيام على مسافة نصف ميل. ولم يعر مرورنا على مقربة منهم أي اهتمام. ويبدو أن هذه المستوطنة خالية من السكان. ومما يدل على ذلك أن العربي عادة يجلس في بيته وقت القيلولة ما لم يكن هناك سببٌ ملحٌ يدعوه للخروج منه.

ومن كرش واصلنا المسير الساعة الثانية بعد الظهر باتجاه الشمال الغربي ومررنا في الطريق بمجموعة من الطفوح البركانية المنعزلة تسمى أخاسيف. ويبدو وراء هذا المنظر مساحات واسعة من السدود المائية تتخللها أشجار العلب المسمى جريبة وهذه المناطق الزراعية تدخل في حوزة عشيرة همام التي تملك أيضاً مزارع دخن في واديها. وعلى أية حال لا تملك هذه القبيلة أي قرى أو مبان ثابتة في منطقتهم لأن الغالبية العظمى من أفرادها تمتهن حرفة الرعي. ويعد أهل قربان أكبر عشيرة في بلدة كرش التي تتكون من عدة أفرع هي شملان وهي تحت رئاسة صالح بن عبدالله والد مرشد قافلتنا. وهناك أيضاً آل حسين وآل طالب وآل ذياب أما بقية العشائر المكونة للقبيلة فهم آل مسفر وآل حوال وآل مفجور وآل طهيف وآل عنين وأهل هجاري.

وفي المنطقة المجاورة لجريبة توقفنا للحديث مع رجلين من عشيرة النسبين في طريقهم من الحاضنة إلى حجر - يحرر. وأناخ الرجلان جمالهم على مسافة قريبة ووصلا إلينا سيراً على الأقدام. وعلى مقربة منا أطلق الرجل الأول من بندقيته طلقة في الهواء. وعلمت أن إطلاق هذه الطلقة في عرف هذه القبيلة يعني أن الشخص

القادم الذي يحمل بندقية قد أفرغ شحنتها وأن خزانة الرصاص خاوية. وسألني الرجلان: «هل يمكن أن يخترق الرصاص سيارتنا؟». فقلت لهم: «نعم يمكن ذلك إذا كانت السيارة قريبة، أما إذا كانت بعيدة فالله وحده يعلم ماذا سيحدث». وأخطرنا الرجلان أن قبيلتهم (النسين) منقسمة على نفسها إزاء زيارتنا. فالغالبية العظمى ترحب بنا، في حين أن القلة ترى أن زيارتنا لا جدوى منها وأن من الخير أن تبقى قبيلتهم في منأى عن أي علاقات ذات تداعيات سياسية.

وفي مسيرنا عبرنا بعض السدود المائية لوادي همام حيث تنتشر شجيرات الصمغ. وعلى يسارنا تنتشر الروابي البركانية ومن أبرزها مرتفع خرشيفة. وأكد لي عبد الله أن بمقدورنا عبور هذا المرتفع عن طريق نفق منخفض. ولكن وجدنا أن الرمال التي تؤدي إلى ذلك النفق ناعمة للغاية وشكلت عائقاً لسيارتنا. وأضعنا وقتاً طويلاً ونحن نحاول اجتياز الرمال دون جدوى. وقررنا في نهاية المطاف أن ندور حول المرتفع فقابلتنا امرأة قادمة من وادي مرخة أصيبت بالذعر عند رؤيتنا وولت هاربة رغم محاولات عبدالله طمأنتها. ومن ثم مررنا بمنطقة تعد الحد الفاصل بين قبيلتي همام والنسبين. وعلى الجانب الأيسر -وعلى مسافة ليست كبيرة- نلمح قناة مرخة وهي تنتهي إلى سهل منخفض حيث تلوح في الأفق البعيد حجر - يحرر على بعد ٣ أميال. وعند الساعة الرابعة والنصف وصلنا إلى مخيمات همام - النسبين في الوادي خلف رابية قرن الفقيه المنخفضة الارتفاع. حيث نصب مضيفنا خيمة لوفد المقدمة الذين وصلوا قبل الظهر.

وأثناء تقدمنا للأمام اصطف بعض البدو وأطلق ثلاثة منهم عدة طلقات نارية في الهواء وقاموا بتحيتنا ورددنا لهم التحية بالمثل ومن ثم دخلنا خيمة الضيافة التي رفعت أورقتها للتهوية. وكان العدد الذي يقبع بداخل الخيمة كبيراً ومثيراً للدهشة. وكان مضيفنا هو عبدالله والد صالح بن عبدالله وهو رجل كبير السن بيد أنه بصحة جيّدة. ولم يمض سوى وقت قصير على جلوسنا حتى استدعيت إلى خارج الخيمة لاستقبال

وفد عشيرة شملان وهي فرع قبيلة النسبين التي تقطن وادي همام. وهم من الذين اصطفوا لاستقبالنا. وفي البدء لم تكن هناك مواضيع مشتركة لتجاذب أطراف الحديث مع أفراد هذه العشائر أكثر من ترداد التحايا خاصة من نجران إلى الأجزاء الجنوبية. وجرت العادة عندما يلتقي أي فرد بمجموعة من الناس أن يحيي كل واحد منهم باسمه ويقول له على سبيل المثال: «كيف حالك يا صالح؟ الله يعطيك النجاة، فليحفظك الله، كيف حالك يا علي؟ الله يعطيك من فضله، الله يعطيك العافية، الله يقويك. . . إلخ هذه العبارات». وأثناء ذلك كانت تقدم القهوة العربية للحضور. وتبدأ جلسات الأنس في شكل همس خافت ومن ثم تعلو الأصوات رويداً رويداً. وجلست بجوار العجوز صالح. وكان أفراد قبيلة النسبين يجلسون عند الركن المقابل في المجلس على جانبي شيخهم صالح بن هادي من عشيرة الشلاميش. والأخير رجل قوي البنية عدائي وصعب المراس، ذو لحية رمادية اللون ويبدو كما لو أنه أكثر ميلاً للخصام منه إلى الأحاديث الودية.

وفي إجابة عن سؤال للشيخ صالح عن سبب تأخرنا في الوصول، أوضحت له أن ذلك كان بسبب مطاردتنا لبعض الغزلان، حيث تمكنا من اصطياد ثلاثة منها. وسألني صالح باندفاع: «هل هذه غزلان همامي أم غزلان النسبين؟». فأجبته قائلاً: «أعتقد أنها غزلان قبيلة همام». فسألني ثانية: «كيف عرفت ذلك؟ هل رأيت عليها وسم همام؟». فأجبته: «لا، ولكن أطلقت عليها النار في منطقة همام بين الجريبة والحاضنة». فرد علي ويبدو عليه شيء من القناعة قائلاً: «حسناً، ربما كانوا تابعين لمنطقة همام وإلا فقد تكون ارتكبت خطيئة بإراقة دماء النسبين». وواصل حديثه قائلاً: «لماذا حضرت أنت هنا؟ هل لمصلحة تبتغيها لنفسك أم لمصلحة لنا؟». فقلت له: «جئت إلى هنا تلبية لدعوة تلقيتها من قبيلة همام وعشيرة الجردان (فرع عشيرة النسبين). ولقد كان الهدف من المجيء هو إشاعة الحبور والسرور في نفوس هؤلاء الذين قدموا لي الدعوة. ولكن ليس لدي زمن أضيعه هدراً ولا رغبة لي في زيارة

أحد بدون دعوة. وأريد أن أرجع إلى نجران إلى ابن سعود». وقال لي صالح: «عند مجيئك هنا هل تمثل وتتحدث باسم ابن سعود؟». وأجبته قائلاً: «لكن بدون نفوذ ابن سعود لن أستطيع أن أتنقل في هذه البقعة كما فعلت الآن، فاسم ابن سعود جواز سفر آمن لأي شخص في الجزيرة العربية، انظر إلى نجران، كانت قبائلها في الماضي مجرد قطاع طرق لكنها الآن أكثر الناس طاعة في رعية ابن سعود. وقال ابن سعود لأهل نجران إنه لا يرغب في شيء منهم. وهو -أي ابن سعود- مسؤول عن بسط الأمن والطمأنينة والسلام ومنع ارتكاب الجرائم. إذا ترك هؤلاء أساليبهم القديمة، لكن الويل لمن ينتهك الحرمات ويرتكب الخطايا التي تلحق الضرر بالآخرين، ففي هذه الحالة فإن ابن سعود لن يتهاون في تطبيق الشريعة الإسلامية». وقاطعني الرجل قائلاً: «تعلم نحن أناس أحرار ولا نعترف بسيد علينا إلا الله سبحانه وتعالى. وإن أهالي بيحان والعوالق وبعض عشائر الخليفة لهم علاقات مع حكومة عدن، لكن نحن لا تربطنا بها أي صلة. نحن أحرار ولسنا تحت حماية أحد». وقلت له: «لكن أنا أعرف أن حكومة عدن تزعم أنكم تحت الحماية البريطانية ورعايا لسلطان العوالق» فصرخ في وجهي قائلاً: «كذابون!».

ورغبت في أن أغير موضوع الحديث مع صالح، وقلت له: «إن النسبين ينحدرون من قبيلة بني هلال مثل الخليفة وآل الفشر». فرد قائلاً: «هم كذلك ونحن بالتأكيد من بني هلال. لكن يجب أن تعرف أن عشائر جردان والحاضنة أيضاً من بني هلال. ولتعلم أنهم (عشائر الحاضنة) كانوا في الماضي يعملون في خدمتنا كجنود». وسألت عن مصدر المياه، لأن المعسكر فيه عشرات الخيم، فرد عليَّ أحد الأفراد: «نحن نمتح المياه من «أسماع» وهي بئر قديمة تقع تحت رابية برقة إلى الشمال من حجر - يحرر. وكانت تسمى في الماضي جوفا كما أن هناك العديد من الآبار القديمة التي انطمرت تحت الرمال». وقاطع حديثه رجل عجوز طالباً منه عدم إخطار الأجانب بأسماء هذه الأماكن والمعالم. وبعد هذا التعليق لزم الصمت وبقي في الخيمة حتى ذهابي.

وفي أثناء ذلك تعرفت ولأول مرة على عادة مسيحية قديمة ما زالت تنتشر بشكل واسع في جنوب الجزيرة العربية في المنطقة الممتدة من اليمن إلى حضرموت وهي غمس أرجل الضيوف في زيت الجلجلان أو السمسم. وتقدم نحوي عبد أو خادم وهو يحمل زيتاً في إناء صغير من الجلد. وقام يدهن رجلي وأرجل كل من صالح الحزيق وحمد القردعي. وكان يقوم بمسح الأصابع كلاً على حده وذلك بتمرير يده المدهونة بالزيت عليها للأمام والخلف. وفي النهاية يقوم بمسح كل من قصبة (مقدمة) وربطة الساق بالطريقة نفسها. ويقولون: إن هذه العملية تريح تعب المسافرين. ونسبة لقرب غروب الشمس وجدت عذراً للانسحاب من أجل أداء الصلاة والنظر في المنطقة من حولي.

أحضر إليَّ رجل مريض بأمل أن أقدم له مساعدة علاجية. وقام الرجل بكشف صدره حيث ظهر انتفاخ بحجم بالون الأطفال مع حلمة عند نهايته. وبدا هذا المرض في شكل انتفاخ بسيط في الصدر حيث كان الرجل في سن العشرين. وتدريجياً بدأ يزداد الانتفاخ إلى حجم الدوم ومن ثم تواصل الانتفاخ إلى أن وصل الصدر إلى ما هو عليه الآن من ضخامة؛ لذا فقد استمر يعاني من هذا الداء ما يزيد عن نصف عمره.

وفي المساء دعينا إلى عشاء يتكوّن من وجبة لحم ضأن وعصيدة وضعت في صحون دائرية الشكل لهذه المجموعة الكبيرة من الناس -بما في ذلك عشيرة النسبين-. ولاحظت أن الصحون تحتوي على خمسة رؤوس خراف. وبإلقاء نظرة سريعة على الصحون لوحظ أن مضيفينا بعد أن ذبحوا ثلاثة خراف وهي كافية للعشاء، قاموا بإحضار رأسين من خيمة أخرى ليدللوا على مدى كرمهم. وأثناء العشاء كان الأنس يدور حول الرحالة الأوربيين الذين زاروا هذه المنطقة. وكان صالح يتذكر وايمان بري بصورة جيدة ولكن معلوماته عن موضوع مخفر - بالمتو قد أصابها بعض الاهتراء بسبب تقادم السنين. ومنظر آثار الهجوم الذي شنه أهل الكرب على الرحالة بري ومرافقيه يمكن مشاهدته بسهولة من داخل الخيمة التي نجلس فيها، ولكنني لم أزر هذا

المكان. وتجدر الإشارة إلى أن عشيرة صالح بن حزيق (العويرة) هم الذين شنوا الهجوم على وايمان بري والمجموعة المرافقة له. ولكن مرافقنا صالحاً لا يعرف تلك التفاصيل لأنه كان طفلاً يافعا آنئذٍ.

وثمة موضوع آخر تم التحدث فيه خلال هذه الجلسة داخل الخيمة وهو حادث الرحالة ماكسويل - دارلنج. وكانت المجموعة التي تسببت في هذا الحادث وأوقفت ماكسويل ورفاقه بغية السلب والنهب -كما ذكر القوم- هم الفقراء أحد عشائر (المشايخ) أهل أخجام، التي تسكن منطقة المنقعة. ودخلت هذه العشيرة في صدام مسلح مع جماعة ماكسويل نتج عنه تدمير قريتهم. وبعد ذلك أوقف الاشتباك وتم تعويضهم بحوالي ٥٠٠ ريال و ٢٥ بندقية. وقتل في هذا الصدام الدموي اثنان من عشيرة الفقراء. ومما يجدر ذكره أن الراوي للحادث كان لا يعرف شيئاً عن هوية كل من الرجل والمرأة اللذين فقدا في هذا الصدام ولا عن الصدام ولا عن التعويضات التي دفعت. وكان الرحالة ماكسويل قد قدم إلى هذه المنطقة عن طريق أنصاب، يرافقه ثلاثون رجلاً من عشيرة همام بالإضافة إلى ثلاثة جنود تابعين للسلطات البريطانية في عدن. وكانت هذه المجموعة قد خيمت على مسافة من هذا المكان كما فعل الكولونيل ليك في زيارته إلى بيحان قبل عدة سنوات. وكان يرافق الأخير عدد من جنود السلطات البريطانية في عدن بالإضافة إلى ٤٠٠ رجل من عشيرة همام. ولكن يبدو لي أن الرقم الأخير مبالغ فيه كثيراً.

والواضح بالنسبة لنا كان كما يلي: فعلاوة على أفراد عشيرة همام فإن مجموعة من قبيلة النسبين قد رحبت بنا كضيوف أيضاً. ولتنظيم رحلة حول وادي بيحان -كما اقترحوا- فإن من الضروري أخذ موافقة الفرعين الآخرين مع ممثلين لهم لاصطحابنا في هذه الرحلة. وأعلن صالح أنهم سوف يأتون معنا في هذه الرحلة وأن المدعو مبخت -وهو الذي أحضر لنا خطاب الدعوة من قاضي وادي بيحان- ذهب لإخطارنا بوصولهم المتوقع. وواصل صالح كلامه قائلاً: «عليكم بالصبر، فكلهم سوف

يحضرون، وهم يريدون ابن سعود، ومن المؤكد سوف ترى كتابات كفار حجر - ناب في رأس وادي مرخة». وأخطرني صالح بأن تلك الكتابات تبعد بمسافة نصف يوم بالجمال. ويتوجب علينا أن نتوقف في كل قرية لتناول وجباتنا مما يزيد زمن الوصول إلى يومين وليلة. ويمكنني أن أوفر مثل هذا الوقت شريطة أن لا نتأخر في الرحيل من هنا. وقلت لهم: «حسناً سأقوم بالزيارة صباحاً لو جاء المرافقون في الصباح وخلافاً لذلك فسوف أبدأ رحلتي راجعاً إلى شبوة». وقد تركت المشكلة لحلها في صباح الغد.

وهناك موضوع فيه كثير من الأهمية عند عشائر النسبين وهمام وبقية العشائر التي تسكن في هذه المناطق وهو الحج. ففي الظروف الراهنة فإن الحج للحضارمة سواء أكان عن طريق البحر أم البر ولليمنيين سواء أكانوا عصبة أم قوافل حج، يتوجب على هؤلاء الأقوام أن يدفعوا رسوم الحج. وكانت رعية ابن سعود معفاة من هذه الرسوم. وناقشني عبدالله في هذا الموضوع وتعهدت لهم بأنني لن آلو جهداً في إيجاد موافقة تسمح لأفراد عشيرة همام في الحج القادم (فبراير ١٩٣٧م) فور وصولها نجران بالمرور دونما مساءلة عن الجوازات والرسوم وهم في طريقهم إلى مكة لتأدية فريضة الحج.

أما بالنسبة للمستقبل، فإن بوسع ممثلي هذه القبيلة مقابلة الملك في مكة لعمل الترتيبات الضرورية للحج[1]. وهذا التصرف تمت الموافقة عليه وتأييده من قبل ابن نشمي[2] حاكم نجران الذي أبلغته به. وقد علمت أنه لم يحضر أحد من أفراد عشيرة

(١) كانت رسوم الحج من الأمور التي تؤخذ على الحجاج نظير ما يقدم لهم من خدمات ورغم ما كانت تدره من دخل جيد للدولة إلا أن الملك عبدالعزيز أصدر أوامره الكريمة بإلغاء رسوم الحج وذلك اعتباراً من عام ١٣٧١هـ. (المراجعون).

(٢) تولى إبراهيم بن عبدالرحمن النشمي إمارة نجران فترتين: الأولى امتدت من عام ١٣٥٤هـ حتى عام ١٣٥٦هـ، والفترة الثانية من عام ١٣٧٥هـ حتى عام ١٣٨٥هـ. أوراق النشمي، دارة الملك عبدالعزيز. (المراجعون).

همام إلى مكة لحج عـام ١٩٣٧م. وفي تقديري أن السبب في ذلك مـعروف وهو أن السلطات البريطانية في عدن والحكومة البريطانية في لندن أصبحتا أكثر اهتماماً بشؤون حضرموت. وعلى أية حال ففي العام ١٩٣٨م قام وفد صغير من عشيرة همام برئاسة صالح بن خـميس بزيارة الأراضي المقـدسة. وحدث أن أصـيب ابن خمـيس بحمى خطيرة أثناء أداء مناسك الحج وتوفي ودفن في مكة.

وطلب مني أفراد عشيرة النسبين أن تشملهم المنحة المؤقتة نفسها التي أعطيت إلى عشـيرة همام بالسمـاح لهم بالسفر إلى الأراضي المقـدسة دونما إجراءات سفـر ورسوم طريق. فقلت لهم: إنني لا أستطيع أن أتعامل مع كل فرع من فروع القبيلة على حده. وإنه إذا شعرت أثناء سفـري خلال الوادي -وادي بيحان- أن فروع قبـيلتهم قد أظهرت مشاعر ود كـتلك التي أبدتها عشيرة همام فـسوف تشملهم هذه المكرمة المؤقتـة لتسهيل السفـر إلى الحج. وهناك متسع من الوقت للمـجموعات المخـتلفة للقبـيلة لتشكل رأياً متحداً. وتجدر الإشارة إلى أن النسبين تتكون من ثلاث مـجموعات بالإضافة إلى أقسام أخرى غير مـتحدة. وهناك مجموعـة أهل حسن وتشمل الخميس وزعيـمهم شماع بن خميس بالإضافة إلى أهل جردان وأهل المسك. والمجموعة الثانية وهي أهل آل راجي، وتنقسم إلى خمـسة أقسام وهي: أهل عسار، أهـل عبدالله بن راجي، أهل طالب بن راجي، أهل ناصر بن علي وأهل عقيل. أما المجموعـة الثالثة فتضم الشوية وتتفرع إلى قسمين وهما: شلامش تحت زعامة صالح بن هادي وعوير تحت زعامة علي بن غازي. وبالإضـافة إلى الأقـسام الآنفـة الذكر توجـد خمـسة فـروع أخرى لا تصنف ضـمن المجمـوعات الثـلاث الرئيسـة وهي: أهل آل قحـيل، أهل سمي، أهل عليـمي، أهل فريش وأهل حسن بن جول. ويبدو أن مـوضوع تجوالي أو عدمه في الوادي في انتظار قرار عشـيرة أهل راجي، التي يعتقد أنهـا تميل إلى أن تكون في منأى عن أي ارتباطات أو تحالفات مع المجموعات القبلية الأخرى.

وتفادياً لأي انطباع سيء فقد عدلت عن أخذ الملاحظات عن طبيعة الوادي بجهاز الثيودلايت إلى منتصف الليل وفي الصباح. واتضح لي أن وادي مرخة يخرج من بين خُشاش والعجز. ويبدو أن الوادي يضيق في هذه النقطة حيث يتراوح عرضه هنا بين ٢٠٠-٣٠٠ ياردة ومن ثم ينحدر باتجاه المنطقة السهلية. وتتفرع من هذا المكان العديد من الحيطان على هيئة شكل مروحي حول الدلتا. ويعتقد بعض الأهالي أن هذه الأبنية عبارة عن بقايا حصون وقصور قديمة. ما عدا عدا برج مراقبة حديثًا نسبياً يعتلي رابية منخفضة الارتفاع على بعد أميال قليلة باتجاه الجنوب الشرقي من معسكرنا، ليس في مقدوري التعرف على علامة تدل على أنه بناء. وهذه الحيطان جيدة البناء مشيدة من قوالب الحجر المحلي وهو في الغالب حجر رملي أو بازلتي بأحجام متباينة. وهذه الحيطان مهدمة حيث تنتشر الكتل الحجرية بصورة غير منتظمة مختلطة بالرمال. والملاحظ أن هذه الحيطان طويلة وتختلف الأبعاد بين كل حائطين بدرجة كبيرة. ونلحظ أن هذه الحيطان بعيدة نسبياً عن مخيمنا بحوالي ٣ أميال في حين أنها لا تبعد سوى ميل أو ميل ونصف عن المنطقة الزراعية؛ لذا فإنني على رأي مفاده أن الهدف من بناء هذه الحيطان تقسيم المنطقة المزروعة إلى مساحات معقولة تسمح بمرور المياه في طريقها إلى الخزان. والفائض من المياه يجري إلى الوادي خلف منطقة الصخور الرملية وهي مثل رابية قرن الفقيه تمثل الضفة اليمنى للقناة الطبيعية. أما الضفة الغربية فتكون الجناح الشرقي لجرف عطفان. وفي منتصف القناة توجد برقة وياحر اللتان أدتا دوراً بارزاً في ربط أنظمة الري القديمة. ومن المحتمل أن هناك خزانًا آخر يربط الممر الضيق بين هاتين الرابيتين. وفي حين أن ياحر تقع في الضفة اليمنى نجد أن برقة تقع في الضفة اليسرى.

وفي الواقع لم تكن لدي أي خبرة شخصية عن نظام الري المشار إليه أعلاه. ولكن منذ أن رجعت من هذه الرحلة وجدت كتاباً يدعم ما وصلت إليه من ملاحظات، صاحبه مكتشف عربي نشيط يسمى نزيه مؤيد العظم. وسوف أناقش

تفاصيل أعماله في الفصل القادم. ولكن يلاحظ أنه توصل إلى نتيجة مفادها أن عدد الفواصل المنظمة للري في مأرب يصل إلى ٢٢ فاصلة. ويبدو أن نظام الري في هذه المنطقة لا يمكن اعتباره نظام قنوات أو نظام أحواض إنما هو نوع من السيطرة والتوجيه الأمثل لمياه السيول بغية الاستفادة منها.

وبينما كنت منهمكاً في بحث موضوع أنظمة الري في المنطقة كما تظهر من منظر الحوائط الحجرية وصل وفد من قبيلة النسبين التي تقطن أعلى الوادي الساعة التاسعة والنصف وأطلق أفراده طلقتين للتحية. وقد أوفدهم زعيمهم صالح بن هادي، وهو الآن لأسباب لا أدري ما كنهها قلق للغاية من عدم زيارتي للمستوطنات المختلفة في الوادي (حجر - واسطة، حجر- الصعدة، ديمة وحجر - ناب). وفي أثناء ذلك طلب مني صالح بن عبدالله أن أمكث حتى منتصف اليوم لتناول وجبة الغداء. وكنت قلقاً من أي تأخير ينجم عن دعوة لوليمة أخرى في ضيافة صالح بن هادي، ،لكن سمح لي في نهاية الأمر بالمغادرة قائلاً: «مرحباً بك وأنت حر طليق في أن تنتقل في بلادنا كما تشاء».

وتأخر مسيرنا لسبب آخر وهو احتياجنا للمياه سواء لإعداد الطعام أو للسيارات. وقررت أن لا أزور عياذًا مرة أخرى وأن أمضي ليلة واحدة عند أطراف الصحراء في وادي مرخة أو وادي جردان قبل الرجوع إلى مخيم صالح بن حزيق في أنصاب. ويجب أن تذهب جمالنا لموارد الماء للسقيا استعداداً للرحلة في فجر اليوم المقبل. وفي أثناء ذلك كان رفاقي منشغلين في تجهيزات الرحلة وهم يتحدثون ويتسامرون. وبعد شروق الشمس انفض سامرهم ولم يجتمع شملهم إلا عند الساعة الحادية عشرة ظهراً. وعند الساعة الحادية عشرة والنصف وصلت قافلتنا إلى وادي بيحان عند ديار قبيلة النسبين تلبية لدعوة صالح بن هادي. وعند الظهيرة استودعنا أفراد هذه العشيرة وكافأنا صالحاً على كرمه واتجهنا ناحية الشرق فالشمال الشرقي عبر منطقة رملية تتناثر فيها أبنية الري القديمة ومن ثم دخلنا سهل همام الواسع. وبعد

مسيرة اثني عشر ميلاً وصلنا نقطة يضعف فيها مجرى الوادي وتصعب رؤيته. رأينا غزالاً عفريًا وتمكنت من صيده بعد مطاردة لمسافة ثلاثة أو أربعة أميال. وبعد قليل وقرب نهاية وادي مرخة ظهرت لنا مجموعة من ثلاثة غزلان (ادمي) تمكنا من صيد إحداها. وصلنا نهاية الوادي وعلامته رقعة من شجيرات الأكاسيا. ويمكننا من هنا رؤية حجر-يامر على بعد ثلاثين ميلاً. أصبح لدينا الآن خمسة من غزلان الصيد ويمكننا أن نحتفظ بواحدة للعشاء ونأكل أخرى الآن. وسوف نبقي الأخريات كهدايا للناس - بمن فيهم -بالطبع- صديقتي في معسكر صالح.

وتوجهت قافلتنا شمالاً باتجاه طرف الرملة، وعند اقترابنا منها مررنا بقطيع كبير من الجمال ترعى أعشابًا حديثة النمو عند أطراف الكثبات الرملية. وقد ابتعدنا عن هذا المنظر لاسيما أننا لم نتمكن من التعرف على هوية الرعاة. وفي نهاية المطاف وصلنا إلى حزام رملي يتكون من عدة كثبان يسمى أبو جنب. وتعبر القوافل عادة هذا الحزام الرملي من شبوة إلى حريب عن طريق واد يسمى شعيب جميل في مسيرة يوم ونصف. وبعد حوالي الميل وصلنا إلى رملة، وتعرف هنا باسم رملة الحدب، بعد أن عبرنا أرضاً مرتفعة نسبياً على مقربة من الكثيب الرملي المسمى أبو جنب. ويلاحظ أن الكثبان الرملية المنخفضة شبه خالية إلا من نزر يسير من الأعشاب يسمى النصي.

وبعد أن توجهنا إلى الجنوب الشرقي قليلاً عبر منطقة خشم غبر السهلية المغطاة بالرمل والحصى الناعم. وكل هذا السهل الممتد من عُقلة إلى عطفان باسم جو الخديف. وتنتشر في السهل قطعان صغيرة تتراوح بين ثمانية إلى عشرة غزلان. ولم نجرؤ على مطاردتها لاسيما وأن الوقت قد تأخر وأوشك الليل أن يرخي سدوله. وبعد مسيرة خمسة أميال ونحن نقترب من وادي جردان تحولت طبيعة السهل الرملية إلى أرض خشنة نسبياً يغطيها سطح رملي متموج موشى بأعشاب النصي. ويلاحظ أن مجرى الوادي يميزه شريط عريض من شجيرات الأكاسيا الشوكية التي تبرز بشكل لافت للنظر من كثبان الرمل. وقد قطعنا الآن مسيرة ٧٥ ميلاً منذ أن غادرنا مخيم

النسبين وكنا سعداء في أن نقف للمبيت. وإنه لشيء رائع أن ننعم بالسلام بعد أن انقشعت أيام المعاناة القاسية في كل من عياذ وحجر يحرر. ومنذ فترة الاعتدال الربيعي بدأت أجواء الخريف تزحف علينا فأصبح الليل بارداً كما أن الرؤية في الصباح الباكر كانت جيدة بصورة مدهشة. وبلغت درجة الحرارة في الساعة الحادية عشرة صباحا ٦٦ْ وهبطت في المساء إلى ٥٧ْم. ورغم ذلك كان المكان مقفراً موحشاً إلى درجة أنه لم تمر أي حشرة باتجاه الضوء الذي كنت قد أشعلته خلال الليل. وأسراب الطيور الوحيدة التي عبرت فوق رؤوسنا هي القنبرة والصرد (الدعناش). والنوع الأخير قادم من منطقة عفار. والقرار الذي أصدرته بخصوص حظر أكل اللحوم استمر سارياً ولذلك تناولنا فقط العصيدة في العشاء. وبسبب تقلص المؤن الغذائية التي بحوزتنا منذ أن كنا في عياذ، فقد نفحت أحد الرجال بعض المال بغية الذهاب إلى بلدة الجابية في منطقة الحاضنة ليحضر لنا إمدادات غذائية. وطلبت من ابن مدعار أن يشتري له بعض الملابس النسائية ليأخذها معه كهدية لأسرته.

وعلى بعد ميلين من روابي القرنين اختفى تماماً أي أثر للوادي الذي كان مستمراً إلى الأطراف الرملية لمنطقة الرملة. ولم نبتعد كثيراً عن هذا المكان حينما لمحنا قطيعاً صغيراً من غزال العفري يغري بالمطاردة. وانطلقت ومعي فراج خلف هذا القطيع. وأطلق الأخير أعيرة نارية تجاهه ولكن دون جدوى. وتمكن أخيراً من إصابة أحد أذني الغزال الذي انطلق مضاعفاً سرعته للهرب. وعندما شعر بالإرهاق اختفى داخل مجرى منخفض خشن التضاريس كيما يستجمع أنفاسه وكانت تفصلنا منه بعض الشجيرات. وأفرغ فراج عشر طلقات دون أن يصيب الغزال في مقتل. وتمكنت في الطلقة السابعة أن أضع نهاية لهذه المطاردة المثيرة التي أبعدتنا حوالي عشرة أميال من مخيمنا.

وتوقفنا عند أول رابية يبلغ ارتفاعها ثلاثين قدماً وتغطي مساحة عدد من الأفدنة، وتتشكل من الصخور الرملية المتوحلة وتتخللها الأكاسيا والشجيرات الشوكية

الأخرى. وأمدتني قمة الجبل بمنظر رائع للمنطقة المجاورة والممتدة من مرتفع عطفان في جهة الجنوب الغربي إلى خشم الرميد في جهة الشمال الشرقي. ومن هذا الموقع تختفي شبوة تماماً من المنظر العام بسبب تداخل أجزاء اللسان الصخري والممتد نحو البحر لجبل قليب الكبير. ونلاحظ أن روابي القرنين تبدو وكأنها جزر صغيرة في محيط من الرمال. ويبدو أنها كانت تمثل منطقة جذب مدهشة للطيور المهاجرة التي من أبرزها طائر الوقواق وطائر الدج المغرد وطائر الأبلق (أبو بلق) واثنان من الطيور المعروفة باسم «أبيض الحنجرة».

وانطلقنا عبر السهل باتجاه الجرف الصخري بغية الوصول إلى الجزء الأعلى من وادي أنصاب قبل أن نصل إلى مخيم صالح. وحالما وصلنا إلى الأراضي الصلبة عند طرف منخفض فاليق استرعى انتباهنا أن اثنتين من النسوة كانتا ترعيان قطيعاً من الضأن في بقايا أعشاب وشجيرات حاولتا الهرب فور رؤيتنا. وذهب صالح لطمأنتهن وليعرف أخبار المخيم خلال فترة غيابه. وتابعنا المسير حيث اجتزنا منطقة يغطيها الحصى الخشن الذي يزداد خشونة كلما تقدمنا إلى الإمام إلى أن وصلنا إلى طرف مجرى وادي أنصاب الذي يوجد به العديد من الثقوب التي يتخذها طائر جنح أعشاشاً له. وتجدر الإشارة هنا إلى أن طريق القوافل من حضرموت إلى إقليم العوالق، ويشبم، وأنصاب يمر بهذا الوادي الذي تغطيه أشجار المشعط الكبيرة والعلب إضافة إلى أعداد وفيرة من أشجار الأكاسيا الشوكية. وعلى جانبي هذا الوادي توجد الصخور المكسرة الخشنة الملمس تعلو صخوراً رملية حمراء تبرز هنا وهناك أحياناً على هيئة منكشفات صخرية.

وعند طرف الوادي وتحت شجرة ظليلة كبيرة الحجم، كان هناك طفل يصرخ بصورة مفعمة بالحيوية في حين أن النساء كن منشغلات بسقيا أغنامهن. لذلك فقد أخذت معي بندقيتي وكانت وجهتي تجاه الوادي إلى منطقة العريجا التي تبعد نحو ميل بغية تزجية الوقت في اصطياد الطيور التي تتجمع هناك. وعلى النقيض من وادي

القرنين، فإن الطيور هنا كلها محلية[١] وليست مهاجرة. وأهم أنواعها طائر الشمس وآكل النحل والبلبل وطائر البداية السوداء وقليل من طيور الغداف والهدهد. وعند رجوعي إلى أسفل الوادي حيث كان رفاقي يقومون بملء الأوعية الجلدية (القرب) والبراميل بالماء استعداداً لرحلة طويلة عبر الصحراء. وفدت إليّ ثلة من النساء جميلات وصغيرات السن وهن يحملن زبدية كبيرة مملوءة بالحليب، فأعطيتهن هبة سخية نظير هذا الصنيع. وقد أخطرنني بوجود مورد ماء آخر مشاش، على مسافة نصف ميل في اتجاه مجرى وادي جنح. والوادي في هذا القطاع بين العريجا وأجفر الرخم يغطي مجرى مياه تحت الأرض ويمكن الحصول على مياهه من حفر غير عميقة.

وفي صبيحة اليوم التالي واصلنا الرحلة مبتعدين عن الأراضي غير المستوية والحصوية وذلك بالالتفاف حول منخفض جربة الكافر ولم يمض زمن طويل بعد الساعة الثالثة بعد الظهر حتى وجدنا أنفسنا أمام مخيم صالح. وانطلق محمد برفقة سالم بن عايض من عشيرة العويرة إلى شبوة لإحاطة «الجيش» علماً بملتقانا مساء اليوم التالي في عارين، حيث تواعدنا أن نمضي الليلة الأولى من مراحل عبورنا للصحراء. وسرعان ما رجعت السيارة وأخطرنا بالموافقة على هذا الملتقى. وتأخر ابن مدعار ومجموعته عن قافلة الجمال في مرخة بعد مغادرتنا لها وواصل مسيره متأخراً بعد الظهيرة مما جعله يصل إلى منطقة أجفر الرخم في ظهر اليوم التالي وانضم إلى بقية المجموعة عند مغيب الشمس. وأمضينا الليلة في ضيافة صالح ولم نذبح أي غزال واعتمدنا على الوجبات العادية رغم التذمر الذي أبدته المجموعة المرافقة.

---

(١) رأيت في زيارتي السابقة قبل أيام فقط عدداً من أنواع الطيور المهاجرة ولكنها على ما يبدو طردت من هذا المكان. (المؤلف).

الفصل الثاني عشر

أرض سبأ

وبعد أن قلت وداعاً لم يكن هناك ما يبرر أي تلكؤ في الرحيل. وجاءني محمد ابن قطيان في ذلك اليوم استناداً إلى إشاعة مفادها أنني عدلت عن قراري بالسفر. وكان يبتغي -في محاولة أخيرة له- أن يحصل على هبة إضافية. أما صالح فقد طلبت منه ألا يفشي موضوع زيارتنا لنقوش عقلة. ولكن صالحاً كالعادة نشر هذا الخبر على نطاق واسع. وقال لي بلغة غير ودية مشوبة باعتذار ظاهر: «ها قد رأيت صخوري المنقوشة، ألم تكن كما أخبرتك؟» فأجبته: «بالتأكيد هي كذلك» ثم قلت له: «إنني الآن قد رأيت النقوش فلن أعطيك شيئاً». فاستشاط غضباً وذهب خاليَ الوفاض وهو يندب حظه. فاستدعيته وقلت له: «انتبه! المعرفة لاثمن لها. وأنت تود بيعها لكن الله زودني بها دون مقابل. الآن خذ هذه التسعة ريالات ولن أدفع لك شيئاً بخصوص النقوش». فأخذ الفلوس وذهب أدراجه في حيرة ظاهرة لكنه سعيد.

وفي الصباح الباكر خرجت محسنة وهي ملتفة بعباءتها الصوفية تهش أغنامها إلى المرعى. وهناك صالح الذي كان مشغولاً منذ الفجر وهو يجهز الاحتياجات الضرورية لأسرته قبل أن يفارقها في رحلة طويلة، ويبدو أنه لم يكمل تجهيزاته للسفر معنا حينئذ. وإذا ما انتظرناه ليكمل كل تجهيزات العائلية، فإننا لن نتمكن من بدء الرحلة؛ لذلك فقد تركت السيارة (البيك أب) في المخيم لتحضره إلينا في وقت لاحق. وغادرت المكان بصحبة سالم بن حمد من عشيرة آل مسفر الذي جاء ليقول وداعاً وحمد القردعي الذي سيسافر معنا إلى نجران. وبعد برهة وصل صالح الذي أوضح أنه استطاع بصعوبة بالغة أن يشق طريقه إلينا وأن يخلص نفسه من أهله الذين كادوا أن يمنعوه بالقوة من الرحيل. وكان لأمه العجوز قصب السبق في معارضة سفره حيث كانت تتعلق وتبكي بحرقة ومرارة. وكان صالح يلهث من العراك ولكنه كان سعيداً بانتصاره والتحاقه بالمجموعة.

وتحرك ركبنا حيث مررنا بسهل فسيح لا تعترضه أية عوائق وتتخلله بعض الأشجار الصغيرة باتجاه وادي خروة حيث يقبع أنمار، الصخر الهائل وكأنه الحارس للضفة اليمنى لهذا الوادي الذي يبتعد قليلاً إلى الأمام من مرتفع غالب. ويجري الوادي باتجاه الشمال ثم يغير اتجاهه تدريجياً نحو عقلة عابراً أرضاً حجرية صلبة تتخللها هنا وهناك بعض الشجيرات وأنواع متباينة من النباتات الأخرى. وخلف الضفة الغربية الأخرى للوادي سلكنا سهلاً رملياً يحده من الجهة الغربية العديد من الكثبان الرملية. وتلوح على البعد باتجاه اليمين عفار حيث تظهر بعض أهم معالمها (شبوة). وأثناء توقفنا هنيهة لنستمتع بالمناظر الطبيعية انفجر أحد إطارات السيارة محدثاً صوتاً مزعجاً. أما سالم الذي كان من المفترض أن يودعنا ويذهب إلى القرية، جلس القرفصاء في الرمال ليناقش بعض المواضيع السياسية ذات الطابع المحلي مع صالح وحمد. وكنت حينها أتجول في السهل وألتقط كسراً فخارية وبعض العاديات القديمة التي تعود إلى حضارة عتيقة والتي ربما وصلت في أوجها إلى عقلة وربما أبعد من ذلك. ومن على البعد كنا نشاهد قافلة الجمال التي كانت تتهادى بخطى متثاقلة وتتعرج مسيرتها خلال روابي شبوة وكأنها قطار بطيء في طريقه نحونا.

وبعد أن أصلح محمد إطار السيارة واصلنا المسيرة دون أن يرافقنا حمد الذي قرر أن يصطحبنا إلى مكة لكن بعض الشواغل حالت دون تحقيق هذا الهدف. وقد أسفت لعدم تمكنه من السفر معنا. وتابعنا المسيرة باتجاه الشرق متتبعين الألسنة المنثنية لـ «الرملة» إلى أن وصلنا دلتا المعشار، أو البقعة المسماة قوصة، بالقرب من النقطة التي نزلنا فيها بغية الراحة في بداية الرحلة، وبعد أن قطعنا بضعة أميال أصبحنا في الطريق القديم الذي يمر عبر ممر الشقيقات، بين منطقة الرمال الرئيسة إلى اليمين وامتداداتها الجنوبية باتجاه عقلة. وبعد فترة قصيرة من تغييرنا لاتجاه سيرنا القديم حدث أن انفجر إطار آخر للسيارة فتأخرنا لبعض الوقت لإصلاحه قبل أن نتوجه إلى العرين التي تقع على مقربة منا باتجاه الشمال الغربي. وترتفع كثبان الرمال إلى قمم

تشبه حد السكين وهي بركان وزاهر وعقلة. وكنا نرى أحياناً بطن الوادي القديم يتكشف في وسط الرمال. وفي مثل هذه البقع كنا نجد المحار القديمة وشظايا حجر الصوان كما رأينا من قبل.

وبعد أن سرنا حوالي عشرين ميلاً من قوصة وصلنا إلى عارين وهي عبارة عن هضبة مرتفعة من الحجر الرملي والصخور المتحولة ترتفع بحوالي ١٥٠-٢٠٠ قدم من المستوى العام للرمال. ومن المؤكد أنها تمثل بقايا مرتفع قديم والذي يبدو أن امتداداته على الجانبين تتصل بمرتفعات أريام وطرباق. ومن هذه البقعة الأخيرة تمتد هذه السلسلة الجبلية في الأزمنة القديمة إلى مجموعة جبال مصيعر التي تشرف على آبار العبر. والنقطة التي اتخذناها مكاناً لمخيمنا عبارة عن خليج رملي عميق يخترق الهضبة المدفونة أجنحتها جزئياً في الرمال والتي تظهر أطرافها الحادة المهدّمة حيث يوجد العديد من الكتابات الثمودية للبدو الذين يسجلون ما يدور بخواطرهم أثناء عبورهم هذه المنطقة. وقمت بنسخ الكتابات قبل أن أصعد الهضبة مع فراج بحثاً عن الطيور. في الوقت الذي ذهب فيه صالح لاحقاً عند قمة الجبل التي من خلالها استطعنا أن نحصل على منظر عظيم لمحيطات من الرمال تبدو فيها أجزاء الصخرة التي نعتليها عبارة عن جزر صغيرة. ويلاحظ أن محاور الكثبان الرملية حولنا منتظمة الشكل إلى حد بعيد باتجاه غرب شمال، غرب شرق، جنوب شرق. وارتفاعات هذه الكثبان ضئيلة مقارنة بالارتفاع الهائل للبقعة التي نقف عليها لمشاهدة المنظر العام للمنطقة. وتقع عفار باتجاه الشمال الغربي حيث نرى من البعد هضبة الثنية حيث قررنا أن نمضي الليلة هناك. وتقع خلفنا غالب وعقلة والنسر كما يمكننا رؤية مرتفعات الرميد البعيدة. وبمقدورنا أيضاً مشاهدة منظر أريام وطرباق. وهناك على سطوح الكتل الصخرية يوجد العديد من النقوش القديمة التي أصابها بعض الاهتراء بفعل الرياح والأمطار. وعلى مسافة ليست بعيدة يوجد منخفض ضحل مسور بكتل

حجرية. وهذا المنخفض جاف حالياً لكنه في فصول الأمطار يستخدم كخزان للمياه التي تُسْقى منها الجمال العابرة لهذه الفيافي.

حضر صالح وبمعيته اثنان من الرعاة يحملون كمية كبيرة من الحليب لتعويض النقص الذي نعانيه في إمدادات المياه. وفي الصباح الباكر أحضر لنا الرعاة كميات إضافية من الحليب حيث نفحتهم بعض المال. والرعاة في هذه البقعة من أهل شبوة يعدون أتباعاً لبني سليم بن عفيشة حيث يقيمون مؤقتاً في أراضيهم. واثنان من هؤلاء القوم وصلا حديثاً في قافلة تتكون من سبعة جمال قادمين من منطقة الجوف وهم يحملون غلالاً وفي طريقهم إلى شبوة. وأخطرونا بأن أهل الجوف يأملون في أن يزورهم ممثلو ابن سعود لاسيما وأنهم غير راضين بسياسة حكم "السيد" المفروض عليهم من قبل "الإمام".

مكثنا في قمة الهضبة إلى ما بعد مغيب الشمس. وتشكل المنكشفات الصخرية والشجيرات التي تتخللها مأوى لأعداد هائلة من الطيور وكلها مهاجرة ما عدا طائر القنبرة الصحراوي. وطائر الحلق الأبيض الذي يعد زائراً معروفاً في هذه البقعة إضافة إلى طيور الدج (السمنة) والأبلق (أبو بليق) والصرد (الدعناش) ذي الذيل الأحمر. وثمة نسر يبدو منشغلاً في مطاردة طيور الخطاف. ويلاحظ أن هناك آثار صخور جيرية عند قمة الهضبة. ولكن عملياً فإن كل صخور الإيوسين القديمة قد تآكلت بمرور الزمن وتحولت كما يبدو إلى ما نرى الآن من رمال ذات لون مائل للبياض يغطي كل هذه المنطقة. وتأخر وصول ركب المجموعة التي أوفدناها إلى شبوة لإحضار بعض التموينات إلى منتصف الليل مما استدعى أن نؤخر مسيرنا إلى صبيحة اليوم التالي. ووصل الركب الساعة الثامنة صبيحة اليوم التالي حيث واصلنا المسيرة مرة أخرى. وكان منظر جمال القافلة بديعاً وهي تتهادى نحونا بأذناب حمراء متدلية من سروجها في رشاقة واضحة.

ثمة إشارة هنا وهي إننـا اكتسبنا خبـرة وإن كانت ضئيلة في السيـر عبر الطرق الرملية التي تتناثر فيها الكثبان. وخلف منطقـة عارين فإن كل المنظر عبارة عن محيط من الرمال سـواء على هيئة سطوح ملسـاء أو متموجـة أو على شكل تجمعـات رملية مختلطة أو آكام ترابية. وهنا تظهر مقاطع لقيعان أنهار قديمة. وقد أشار إليّ صالح - بتأكيد محيّر- صوب مضـيق منخفض يقسم العائق الرملي في عرق الأبتر والذي يمتد لمسافات كبيرة بجهتي الشرق والغرب.

وعند ذلك المضيق، توقفت لأخذ قراءات لاتجـاهات بعض المعالم من قمة أحد الكثبان. ورغم أنني كنت حريصاً على الـتوقف في أسفل المنحدر إلا أنني نسيت لجم كابح السيارة فـتهادت إلى أسفل. وكادت أن تحدث كارثـة لولا أن رأى محمد المنظر فركض تجـاه السيارة وقـفز إلى القدمـية (عتـبة السيـارة) في الوقت المناسب وأوقف السيارة قبل أن تحدث كارثة.

تتكون كثبان البـئر الرملية من العديد من الروابي وتشكل فيما بينهـا عائقاً ممتداً عدا هذه النقطة حيث يوجد مخرج عرضه حوالي الميل. ولهـذه الكثبان محاور متسقة تمتد بصورة خفيفة تجاه الشـمال الغربي، والجنوب الشرقي. ويبلغ سمك العائق الذي يعترض طريـقنا حوالي الميلين. وخلف هذا المنظر بقعة مـستوية تغطيهـا بعض نباتات الحاذ والركاضة الصحراوية وهي تظهر في طور السبات.

ويلاحظ أن أسفل الروابي تـتناثر الحصبـاء وكسر حـجر الصوان والأوبسـيديان (الزجاج البركـاني) وبقايات الصناعات القديمة التي تجـرفها إلى أسفل ميـاه السيول. ونزلت عند أسفل هذه المنحدرات أتجول بحثاً عن الصوان بين الحصى. وفي أثناء ذلك كان محـمد قد أوقف السيارة (البـيك أب) محدثاً صوتاً لا تسـيغه الأذن. وحلت بنا كارثة حـيث انكسر المحور الخلفي للسـيارة مرة أخرى. وتدريـجياً أخطرت بتفـاصيل الخراب الذي لحق بالسيارة. وبصـعوبة بالغة تمكن محمد أن يحـرك السيارة إلى أسفل المنحدر ومن ثم إلى الأرض المستوية. وكانت السيارة تتحرك ببطء وكأنها طائر مكسور

الجناح. وأشحت بوجهي عن هذا المنظر المؤلم وطلبت أن تفرغ السيارة من شحنتها. وقام المرافقون بعمل وسم ابن سعود وجمعوا حجارة على هيئة نصب (ركام) على شرفها. ومن المؤكد أن السيارة والنصب الركامي سوف يتقاسمان ذات يوم قبراً من الرمال طالما أن ذرات الرمل الصحراوي تلتف حولهما على مر الأيام مكوّنة في نهاية الأمر كثيباً. وفي أثناء ذلك كان الحدادون في الصحراء يرغبون في أن تكون العربة ركاماً من المعدن. وفي حج عام ١٩٣٨م قمت بنقل ملكيتي للسيارة إلى صالح بن حزيق. وقد كانت شيئاً مريحاً له.

وبينما لا نزال في حالة إحباط وكآبة شديدتين جراء كارثة السيارة، تحركت قافلتنا عبر أرض رملية موحشة مسافة ستة أو سبعة أميال حيث وصلنا إلى أسفل واد واسع تكسوه قطع الحصى الصغيرة والحجارة البازلتية ذات اللون البني المحمر والتي ترتفع إلى ما يزيد على ٥٠ قدماً فوق مستوى سطح الأرض وتعرف محلياً باسم «أفاليل». وتكسو هذه الصخور رمال كثيفة تغطي طريقنا فيما يشبه العائق؛ لذا فقد توقفت برهة لاستطلاع الوضع من قمة أحد الروابي القريبة. واتضح لي أن السهل مغطى بكميات وافرة من محار المياه العذبة وشظايا الصوان والأوبسيديان وكسر بيض النعام. ويبدو أن بمقدورنا اكتشاف آثار المزارع القديمة حيث تحدها السدود المنخفضة الارتفاع. ولا يستبعد أن تكون هذه البقاع على جانبي منطقة الثنية الصخرية تشكل منظراً لمنطقة زراعية قديمة. وعند أقصى المنطقة الصخرية استرعى انتباهي منظر غريب لجلاميد ضخمة من البازلت توحي بوجود معبدٍ للشمس قديماً. وتشكل الصخور دائرة يتوسطها صحن محاط بالجلاميد يؤدي إلى مذبح حجري عند الطرف الغربي. فهذا المنظر، فضلاً عن اتجاه الصحن والمحيط الدائري يوحيان بأنه من صنع الإنسان. ولكن في ذات الوقت لا نستطيع استبعاد احتمال كونها فلتة وأعجوبة من الأعاجيب. وتجدر الإشارة إلى أنه لا توجد أي علامات أو كتابات، والموجودات التي عثر عليها عبارة عن رقائق من الصوان

يبدو أنها ناتجة عن قطع حجارة بواسطة الإنسان في رابية الثنية. وإذا لم يكن للإنسان يد في صنع هذا الشكل المعماري «المعبد» فالأرجح أنه استخدم لغرض طقوس دينية.

باءت جهودنا من أجل إيجاد مخرج من هذا العائق الطبيعي بالفشل. وكان صالح على رأي مفاده أن بإمكاننا اجتياز منطقة الرمال عند أقصى الجانب الجنوبي من منكشف «أفاليل» الصخري. ولكن بعد مسيرة ميلين بالسيارة في ذلك الاتجاه واجهنا عائقاً آخر وهو مضيق «شقت الجهيلي» الذي تتوسطه كثبان رملية مرتفعة. وبصعوبة تمكنا أن نتجه ناحية اليمين في ذلك الممر الضيق ورجعنا إلى نقطة البداية عند السهل الحصوي. ونجحنا عند الجهة الشمالية في إيجاد ممر ينتهي بنا إلى حجار «أفاليل» التي تشبه معبد. ووجدت ملتقطات سطحية عبارة عن حواف قرون حيوانات كما رمقنا ثلاثة غزلان من نوع الإدمي وهي ترعى في المنطقة المجاورة. وقد ثبت لنا أنها نوع فريد من الإدمي وهناك شك ضئيل أن تكون هذه الأنواع غزلان عربية توجد في صحراء سبأ.

وبعد مسيرة ستة أميال خلف حجارة الأفاليل، التففنا حول مجموعة من الروابي سوداء منخفضة الارتفاع تسمى شحم البقر، والتي تبرز من الخط العام لسلسلة مرتفعات الثنية. وبين هذين الخطين من السلاسل الجبلية يبرز العديد من شجيرات الهد الصحراوية والتي يقبع خلفها حاجز رملي يشكل آخر عقبة قبل بلوغنا مقصدنا. وصلت الآن قافلتنا المحملة بالعفش والتي بدأت المسير من عارين الساعة السابعة صباحاً عابرة ثلاثين ميلاً في خلال عشر ساعات. وقبيل الساعة الخامسة مساء تحركنا عبر مضيق الثنية أو حيرة الثنية كما يسمونها، حيث خيّمنا هناك وسط بقعة تكسوها أشجار السرح الكبيرة وشجيرات الأكاسيا الشوكية. وبعد أن أفرغنا شحنة السيارة طلبت من محمد وصالح أن يرجعا إلى مكان سيارتنا (البيك أب) المهجورة والذي يبعد بحوالي ٢٠ ميلاً من معسكرنا. ورافقهم كل من معيض ومسفر. وقفل الوفد راجعاً الساعة التاسعة ومعه بعض أجزاء من السيارة تشمل معشق التروس

والعجلات الخمسة بإطاراتها. ولم يكن في مقدورنا حمل هذه الشحنة معنا فاضطررنا أن نتركها مخبأة بين الجلاميد على أن نستعيدها في وقت لاحق. ولم أر هذه الأجزاء من السيارة مرة أخرى. ولكنها وصلت لاحقاً إلى نجران عندما غادرت المكان في طريقي إلى مكة. وحدث أن عثرت مجموعة من بدو عبيدة من إقليم مأرب على أجزاء السيارة المخبأة بين الجلاميد وأحضرتها إلى نجران حيث سلمتها لحاكمها. وترامى إلى مسامعي أن السيارة (البيك أب) قد تم تفكيكها ونقلت إلى مأرب بواسطة جمال. وثبت لاحقا أن هذا الخبر عار من الصحة. وبرجوعنا إلى نجران أوفدت إلى إبراهيم النشمي ناصر بن شماخ للتفاوض معه بغية استرجاع العجلات. ونجحت البعثة في مهمتها بعد مراسلات مطولة بين مأرب وصنعاء.

يعد العرب ثغرة الثنية -والتي يبلغ كل من طولها وعرضها حوالي ميل- مجرى وادي سبأ العظيم ووادي عبيدة أو وادي أبراد، كما كانوا يسمونه. ويجدر التنويه إلى أن وفرة محار المياه العذبة وغيره من الرخويات يؤيد دون شك النقطة السابقة. لكن ثمة ملاحظة تدعو للدهشة وهي أن الأودية القديمة كانت تحفر مجاريها خلال الحاجز الجبلي (ثغرة الثنية) بدلاً من الالتفاف حول طرفه الجنوبي الذي يبعد بضعة أميال والمحمي بكميات وافرة من الرمال. ونشير هنا إلى أن مرتفعات الثنية تمتد شمالاً وجنوباً فوق الرمال بارتفاع يصل إلى ٣٠٠ قدم عن مستوى سطح السهل الرملي. وقاعدة هذه المرتفعات ذات لون داكن وتتشكل من حجر الشيست الأردوازي. وتعتلي هذه القاعدة طبقات من صخر البازلت على هيئة أقواس تعمل على تثبيت وتدعيم بعض كتل الصخور فوقها والتي تبدو وكأنها رخام يتراوح لونه بين الأبيض الناصع إلى الأرجواني والأحمر والذي ينكسر ضوؤه عند الدرجة ٤٠. والملاحظ أن سلسلة مرتفعات الثنية تنحني بشكل دائري مكونة قوساً منخفضاً باتجاه الغرب يضم في طياته الشمالية خلجاناً كبيرة من الرمال تصل في بعض الأحيان منحدراته السفلى. والجزء الشمالي لهذه السلسلة الجبلية يمتد باتجاه الشمال الغربي حيث يتفرع إلى عدة جبال

وروابٍ منعزلة يمكن رؤيتها من على البعد. وباتجاه الغرب وعبر سهل رملي واسع تقع سلسلة جبال الرويك المشابهة للثنية. وهناك قمم مرتفعات الريان والتي كنا قد خيمنا فيها في رحلتنا السابقة وهي تقع خلف الجناح الشمالي لمرتفعات الرويك باتجاه الشمال الغربي. نحن الآن في غرة شهر أكتوبر وأشعر أنني قد استفدت من عطلتي في كشف أسرار أراض شاسعة تفصل الطرف الجنوبي من الربع الخالي من الجبال العالية المشرفة على المحيط الهندي. ودون ريب استطعت الآن أن أجد العلاقة بين وادي حضرموت ومنابعه في جبال اليمن. وحالي يشبه حال ابن الملك في شعر فريمان حيث استطعت أن «أسكب أحلامي وناظري فوق السهل»، وأتخيل الجدائل التي ضفرت في الماضي لبناء حضارة لم يستطع الإنسان إلا بشق الأنفس أن يجري عليها بعض التحسينات بعد مرور ثلاثة آلاف عام من المجاهدة غير المجدية. وأكبر تلك الجدائل هي سبأ العظيم والذي ينحدر من صرواح إلى مأرب. وروافد هذا الوادي هي الجوف ورغوان من جهة الشمال والجوبة وحريب وبيحان من جهة الجنوب. وفي الأيام الخوالي كانت تلك الروافد تجري مغذية هذا الوادي بغية تأمين حياة الإنسان ولتدعم مملكة عظيمة كان صيت تجارتها موضع حسد العالم وسبباً للكثير من الحروب. واليوم تنشر رمال الصحراء عطاءها فوق تلك الأرض التي كانت ذات مرة بقعة جميلة فتدفن أسرار عظمتها التي نسعى لإدراك كنهها.

وأثناء جلوسي برفقة صالح على قمة الهضبة الرخامية، كنت أجول بناظري لمشاهدة المنظر الشامل الممتد من عقبة طرباق - عارين - أريام في الشرق إلى مرتفعات العلم في الغرب والتي ستكون مقصدنا في ذلك المساء. وإلى الجنوب تقع بحار من الرمال تغطي مجرى وادي بيحان وروافده. وباتجاه الجنوب الغربي فإن تلال صافر الصخرية والتي تآكلت بفعل التعرية تظهر خلفها منجم الملح الذي كان يشكل دخلاً متواضعاً لعشيرة عبيدة شبه الرعوية التي تستوطن مأرب. وبين هذه النقطة التي نقف عندها ومرتفعات الرويك، فإن رمال الوادي تتلاشى ليحل محلها سهل

حصوي. وأصبحنا نسير في أرض قاحلة موحشة خالية من الماء تماماً. وتحركت قافلة الجمال التي تحمل أمتعتنا مبكراً مع تعليمات مني بأن يكون الملتقى في وادي مهياش في وسط جبل العلم في ليلة ذات اليوم. ومع هذه القافلة ذهبت كل البراميل التي كانت تحمل إمداداتنا المائية. أما قافلة الجمال النجدية فإنها تأخرت لتتحرك على مسافة ليست بعيدة منا لاسيما بعد أن فقدنا سيارتنا (البيك أب) وأصبح بحوزتنا سيارة وحيدة؛ لذا فقد أصدرت تعليماتي بأن تسلك هذه القافلة طريق السيارة نفسه عند أطراف الرمال بقدر الإمكان تحسباً لأي طارئ.

كانت الساعة التاسعة صباحاً عندما تحركت بالسيارة وبرفقتي كل من صالح ومحمد وابن هضبان. أما بقية أفراد المجموعة وعفش السيارة (البيك أب) التي تعطلت فقد تم تحويلهم إلى مسيرة قافلة الجمال. وخلف مضيق الثنية اجتزنا أرضاً صلبة وصخرية تعلو المنحدرات الخارجية المنبسطة للثنية والتي يمتد وراءها سهل تغطيه طبقة خفيفة من الحصى. وفي الجهة اليسرى من مسيرنا كانت قافلة الجمال تخب بتثاقل فوق الأرض الرملية حيث كان أفرادها يلوحون لنا عندما زدنا سرعة سيارتنا لأكثر من عشرة أضعاف سرعة القافلة. وواصلنا سيرنا بسرعة خمسين ميلاً في الساعة من أجل أن نصيد بعض بقر الوحش والغزلان والتي نحتاجها لطعام العشاء. وبعد مسيرة خمسة أميال من طرف وادي مرخة تعطلت السيارة بصورة مفاجئة حيث تدحرجت في حفرة قطرها يتراوح بين أربعين وخمسين ياردة مكوّنة غباراً شديد النعومة ذا لون رمادي ويعتقد ابن هضبان أن هذه الحفرة لبعض البدو حيث يطلقون عليها اسم «نار صرصر» وهي «جهنم متقدة».

ويعتقد هؤلاء أن مصدرها باطن الأرض وتوجد هذه الحفر فقط في وادي الجوف وتعرف عندنا باسم «دبل فرعون» أو مجرى فرعون. ودار بخلدي في ذلك الحين أن هذه الحفر ما هي إلا فوهات براكين لم تفلح في اختراق القشرة الأرضية بعد. وهذه الحفرة ربما تكون مصدراً للخيال الشعبي في القرون الوسطى حيث يتداول

قصص «البحر الصافي» عندما تبتلع الرمال المتحركة أي شيء يجرؤ على المرور فوقها. ولم نتمكن نحن الأربعة من إخراج السيارة من هذا المنخفض. وبعد أن دعمنا قوتنا بأعداد إضافية من الرجال تمكنا أن نخلص أنفسنا من هذا المأزق بعد جهد كبير. وقمت بأخذ عينات من هذا الغبار الرمادي للفحص المخبري لاحقاً. وفي تقديري أن هذا الغبار ربما يكون بقايا غبار مثل ذلك الذي وجدته في قباب الملح في شبوة والمناطق المجاورة لها. والاختبارات التي أُجريت بواسطة خبراء المتحف البريطاني عن علاقة هذا الغبار بالفحم الحجري لم تصل إلى نتيجة موثوق بها وما تزال الاختبارات جارية. واتضح أن بالغبار بعض المواد العضوية والرمال العالقة من ذلك النوع الذي يتوقع جرفه بواسطة الأمطار من مرتفعات الرويك والثنية. والمادة العضوية ربما تمثل نباتات بحيرة قديمة أو مستنقع تحللت بفعل الزمن. وربما كانت هذه الحفرة ومثيلاتها بحيرات جافة تكونت في الأزمنة القديمة بفعل السيول التي تتخذ لها مجاري في وادي شيبان. ويبدو أن هذا الوادي كان مأهولاً بالسكان في تلك الأزمنة الغابرة.

وواصلنا السير مبتعدين عن الأرض الحصوية الداكنة والتي تبدو على السطح وكأنها متماسكة بشكل كاف لمرور السيارات لكنها في حقيقة الأمر تخفي تحتها تربة ليّنة؛ لذا فقد فضلت السير في البقعة الرملية التي توجد فيها طبقة تحت السطح أكثر صلابة لمرور السيارات. ولكن هذه التربة الرملية سرعان ما تتلاشى لتحل محلها تربة أكثر صلابة تكسوها الحصويات وتمتد إلى مرتفعات الرويك. والغطاء النباتي في أغلب الأحوال جاف وفقير لكن يلاحظ وجود بعض البقع التي تتخللها شجيرات حديثة النمو ونبات اللبان الأخضر. ويبدو أن هذه النباتات نتاج أمطار حديثة. وتبدو في الأرض آثار وعول. وبعد فترة وجيزة من المسير ظهر وعل ذكر يسير وحيداً باتجاه الشمال في أرض جيرية.

ونسير الآن باتجاه الغرب حيث كانت مرتفعات الرويك موازية لنا في الجهة اليمنى. ويلاحظ أن المنظر العام للأرض بعد مسيرة ١٥ ميلاً يظهر شجيرات شوكية

وقطعان من الأيائل تعدو فرادى أو على شكل قطعان. وفجأة ظهرت أمامنا أربعة غزلان فقمنا بمطاردتها في بقعة حصوية ثابتة تتخللها بين الفينة والأخرى مجارٍ مائية ضحلة منحدرة من الجبال المجاورة وبعض الشجيرات غير المشذبة. وعند اقترابنا منها، أطلق ابن هضبان على إحداها (أنثى) طلقة أردتها أرضاً فوضعناها في السيارة راجعين إلى المخيم. وبعد ذبحها تقاسم كل من ابن هضبان وصالح الكرش حيث التهماها غير ناضجة. واتضح أن الغزالة (العفري) كانت في مرحلة متقدمة من الحمل لذا فقد احتفظت بالجنين لعمل المخلل. ولكن اضطررت لاحقاً التخلص منه لعدم وجود مكان لحفظه لا سيما وأن أمتعتنا كلها كانت ضمن حمولة قافلة الجمال.

واكتشف صالح فجأة اختفاء شنطته التي تحوي بعض مستلزماته الشخصية الخفيفة من الصندوق الخلفي للسيارة. فاضطررنا الرجوع لتتبع آثار مسيرنا بغية العثور عليها. ونجحنا في نهاية الأمر في الحصول على المستلزمات التي كانت مبعثرة على امتداد خط سيرنا. ووجدنا جيوب الشنطة خالية من محتوياتها. وبالقرب من الموضع الذي ذبحنا فيه غزالة العفري، استطعت أن أحصل على منظر شامل للمنطقة المحيطة. ووصلت إلى نتيجة يبدو أنها ستعمق سر رابية الثنية حيث اتضح لي من هذا الموقع أن هذه الرابية ذات شكل عادي ويتراوح ارتفاعها بين ٦٠-٧٠ قدماً من مستوى سطح الأرض. وعلى مقربة من الثنية توجد رابية الرويك التي تشابهها في تكوينها الجيولوجي حيث تتكون من صخر الشيست والرخام.

ثمة ملاحظة هنا وهي أن قمة رابية الرويك دائرية ذات شكل مستو. وفي الجانب الغربي من الرابية يوجد-دون شك- ممر عرضه ثلاث خطوات محاط على جانبيه بألواح من الحجر الصخري الأحمر. ويبدو أن طول هضبة الرويك حوالي ميل أو يزيد تتخللها أشكال برجية دائرية صغيرة غريبة تذكرنا بشكل الجدري في الحرب العظمى. فبينما يشير ناظري إلى أن هذه الأشكال من إبداع الإنسان فإن ما يعذبني حقاً هو أن هذه الأشكال البرجية تأخذ مسارها أسفل المنحدر الصخري على هيئة

خطوط طولية متقاطعة مع خطوط تحوي الأشكال نفسها لكنها تتخذ مساراً أفقياً؛ لذا لا أجد تفسيراً مقنعاً لهذه الظاهرة. واحتمال أن تكون هذه الأشكال ذات علاقة بأنظمة الري يضعفه شكلها الغريب ذو الهيئة الأفقية - الرأسية. وفي الوقت ذاته فإنه يبدو من غير المرجح أنها ذات غرض حربي لاسيما وأن أحجامها صغيرة حيث لا تتسع حتى لجندي واحد؛ لذا لا أتخيل غرضاً مقنعاً لهذه الأشكال الغريبة سوى أنها مكان عبادة شعائري للديانة السبئية. ولقد كنت متشوقاً للاقتراب من هذه الأشكال الغريبة. لكن وجودنا في قلب الصحراء مع نزر يسير من المياه فضلاً عن وعدنا لرفاقنا قافلة الجمال، الذين كانوا في انتظارنا عند نقطة التلاقي دفعاني لصرف النظر عن فكرة المبيت وتفحص هذه الأشكال الغريبة عن كثب بغية كشف لغزها المحيّر. وبقلب تملؤه الحسرة تركت ذلك المكان، يراودني حلم العثور على إجابة شافية لأشكاله الغريبة.

وسرنا باتجاه الغرب في سهل حصوي، وكما هو الحال في بداية المسير، فإن السطح الخارجي للأرض الذي يبدو متماسكاً يخفي تحته أرضاً زلقة تتخللها بعض مجاري المياه الضحلة. ثم ندخل أرضاً ذات تضاريس متباينة بين سهل ورابية، وعلى أطرافها توجد المنكشفات الصخرية لكل من المنقضة والضِبة والأشقر والتي ينحدر منها مجرى موسمي يسمى السديحات يحمل المياه من المناطق المرتفعة والسهول إلى القناة الرئيسة في وادي شيبان. وكانت أول علامة على هذا الوادي خط أسود من شجيرات الحمض التي تُرى على بعد نحوعشرة أميال في صحراء التيه. ومررنا في طريقنا بقطيع صغير من الغزلان (الإدمي)، حيث استطاع ابن هضبان أن يظفر بواحدة منها بطلقة واحدة بعد مطاردة قصيرة. وبعد أميال قليلة نزلنا في مكان تظلله شجيرات سمر عند منخفض السديحات لتناول وجبة الغداء المكونة من لحم غزال العفري والأناناس والحليب مع الشاي والقهوة. وكانت درجة الحرارة ونحن في المكان الظليل ٩٥ْ فهرنهايت ورغم ذلك لم نشعر بحرارة مفرطة. ويلاحظ هنا أن طبيعة الأرض

تتراوح بين البقاع الصلبة والرخوة تتخللها بعض شجيرات الأكاسيا الشوكية والأشجار الخفيفة الظل. وتتناثر هنا وهناك المنكشفات الصخرية المكونة من حجارة البازلت. وبعد فترة وجدنا أنفسنا بالقرب من أحد غزلان العفري. وبعد مطاردة في أرض لينة استطاع ابن هضبان أن يظفر بالطريد مستخدماً مديته. والآن أصبح لدينا كمية وافرة من اللحم تكفي لكل القافلة. وبعدها واصلنا المسيرة مسافة سبعة أميال نحو البقعة التي نمضي فيها ليلتنا..

وعند اقترابنا من الزاوية التي تكونها مرتفعات العلم والمعروفة باسم الأسود والأبيض، رأيت منظراً يدعو للدهشة والانبهار. وكان ذلك المنظر عبارة عن أرض منحدرة مزينة بأشكال على هيئة أبراج تماثل تلك التي وجدت في مرتفعات الرويك. وعندما اقتربنا من المكان، لاحظت وجود منشآت أمامنا عبارة عن مقابر. وبدأت أفكر في الأمر ملياً، فالمنحدرات الصخرية والروابي المجاورة كلها تزخر بآلاف الأشكال البرجية والتي نفذت بوضع رأسي وآخر أفقي. والآن بدأ ينتابني إحساس بأنني في منطقة جبانة كبيرة وربما كانت الرويك جبانة أخرى. وكانت هناك خمس وعشرون مقبرة عند الطرف الخارجي لرابية العلم. وهذه المقابر دائرية الشكل بنيت بشكل متقن من ألواح حجرية مختلفة الأحجام غير مشذبة (دبش) من الحجر الجيري المحلي ويتراوح سمكها بين ١-٤ بوصات. وأكبر هذه المقابر يقع عند الركن الأيسر للمنحدر الصخري ويبلغ ارتفاعه عشرة أقدام وقطره ٢٥ قدماً ومحيطه حوالي ٨٥ قدماً. ومن الجلي أن يد العبث قد امتدت إليها بواسطة بعض لصوص المقابر. ويقع المدخل في الجانب الشمالي. وفحص العديد من هذه المقابر جعلني متيقناً إنه لا يوجد نظام معين للمداخل المطلة على ممر ضيق يتراوح ارتفاعه بين ٤-٥ أقدام فوق مستوى سطح الأرض. ويؤدي هذا الممر بدوره إلى غرفة وسطى بالارتفاع نفسه وبطول يتراوح بين ٦-٧ أقدام سقفت بواسطة ألواح حجرية كبيرة موضوعة بشكل متراكب ومغطاة بحصى غير متماسك ورمال. ورغم أن جزءاً من سقف الغرفة الداخلية قد أزيل

بواسطة العابثين، إلا أن الأطلال الشاخصة تبدو غير كافية لإعطاء صورة متكاملة عن طبيعة المنشأة. والملاحظ أنه لا يوجد أي أثر يشير إلى باب الغرفة الداخلية أو المدخل الرئيس، كما إنه لايوجد أي أثر يدلنا على صاحب أو أصحاب هذا القبر. فلم نعثر على أي عظام أو نقوش.

والقبر الثاني المجاور للقبر المشار إليه أعلاه يقع في قمة المنحدر إلى جهة اليمين، يبلغ محيطة ٢٠ قدماً لكنه تعرض للتلف والنهب بدرجة كبيرة بواسطة لصوص المقابر. وهناك مجموعة من أربع مقابر منتشرة على أبعاد كبيرة عند قوس المنحدر الصخري في حين أن هناك ثلاث مقابر كبيرة نسبياً تقع عند أسفل المنحدر الصخري ويتراوح قطرها بين ١٥-٢٠ قدماً. ولكن كل الجبانات الأخيرة لاتوجد بها أي قبور للإنسان. وكل المقابر يبدو أنها منهوبة المحتويات. ولكن الشيء الوحيد الذي يرجح أن هذه المقابر من صنع الإنسان وجود حجر ضخم يشكل فيما يبدو جزءاً من هذه المقابر على هيئة كبد، مجصص ومدهون بلون أحمر. ويصعب التيقن عما إذا كان ذلك دهاناً أو بقعة أو علامة طبيعية للحجر.

في الوقت الحاضر كنت مرتاحاً ومقتنعاً بما ظفرت به من بحث في ركن من الجبانة الكبيرة. وبينما كنت أقود السيارة لاحظت أن هناك أعداداً هائلة لا تحصى من المقابر من النمط السابق نفسه تنتشر في المنحدرات الصخرية لمسافة تزيد عن الميل. وفي طريقنا مررنا بمضيق يقسم هضبة العلم إلى قسمين. ودخلنا بعده وادي مهياش على الجانب الأيسر عند أسفل جرف العلم الأبيض حيث قضينا الليلة هناك. ويبدو أننا سنستبق قافلة الجمال قبل غروب الشمس. وأثناء ذلك كادت إمدادات مياهنا تنفد. وكنت أصر أن نترك شيئاً من الماء للسيارة والباقي لاستعمالنا. وتبقت لنا قطعة أناناس واحدة ولكنها جفت، لذا فتحت إحدى علب اللبن التي بحوزتي. ووافقت على اقتراح سعد بأن تواصل قافلة الجمال المسير في منتصف الليل حتى تستطيع أن تبلغ مسعودة قبل أن ترتفع درجات الحرارة في النهار. ولم أعرف ما هو السبب الذي

جعل قافلة الجمال تتأخر في الوصول إلى نقطة الملتقى؟ هل يعزى ذلك إلى الصدفة المحضة أو كان ذلك عملاً متعمداً لاسيما وأن المجموعة النجدية للمرافقين لم تكن على وفاق مع مجموعة الأهالي المحليين.

وبقيت مجموعتنا الصغيرة مع سيارتنا الوحيدة في انتظار قافلة الجمال وهي تتفيأ الفضاء الموحش الممتد من مرتفعات العلم إلى ساحل جبال اليمن البعيدة. وشعيب مهياش مجرى مائي موسمي (واد) ينحدر على امتداد أطرافه الجنوبية ومحاذياً للجرف الصخري ليتصل بمجرى مائي ضحل يسمى عضات الرِكع والذي يتصل بدوره بوادي أبراد الواقع أسفل وادي سُيمرة والأخير ربما يكون المجرى المائي القديم لوادي الجوف. وعلى مسافة تبعد ٥-٦ أميال من موقعنا الحالي فإن المجاري المائية لكل من وادي مأرب ووادي الجوف تتحد لتكوّن وادياً واحداً. وثمة إشارة هنا وهي أن جبال الجوف التوأم البعيدة تحدد موضع مأرب نفسها والتي تقع مباشرة باتجاه الجنوب الغربي من موضعنا الحالي. وفي أقصى الشمال وفي خط سيرنا فإن لسان حيلان الصخري يحدد مخرج وادي رغوان من بين المرتفعات المجاورة. وباتجاه الغرب والشمال الغربي ترى مرتفعات اللوذ وقمتها المسماة زويرة والتي كنا قد رأيناها عن بعد في رحلة الذهاب للمرة الأولى استطعت رؤية قلب سبأ التي كانت مركز الحضارات المعينية والسبئية التي نعرف معلومات ضئيلة عنها. واندهش الآن، كم من هذه الأراضي والسهول الواسعة كانت في غابر الزمان مخضرة ومستزرعة بالحبوب وأشجار النخيل؟. واليوم نلحظ أن الأطراف الشمالية والجنوبية لسبأ القديمة ترقد غير مستصلحة وخالية من الزرع تحت صفحات الرمال.

والجرف الصخري وراءنا يبلغ ارتفاعه ١٥٠ قدماً ويتشكل من الحجر الجيري وينحدر تدريجياً نحو الشرق بزاوية قدرها عشر درجات، وأطرافه السفلى باتجاه وادي مهياش تتناثر فيها بعض أشجار الأكاسيا. وتسلقت ومعي ابن هضبان الجرف الصخري لنواصل بحثنا عن المقابر القديمة التي رأيناها تغطي الأفق ونحن في

المعسكر. وإلى اليـمين والشمال من موقـعنا فإن الجبـانة تبدو وكأنها تمتـد على مدى البصر وبالتالي لم أستطع أن أتفحص سوى جـزء ضئيل منها. ويمدنا المنحدر الشرقي من قمة الجـرف الصخري على ارتفاع ٣٠٠ قدم بجـانب من منظر الجبانة. وفي هذا الجزء الضئيل من المسـاحة استطعت أن أحصي ١٨٠ مقبرة مخـتلفة الأحجام في حين أن كل قـسم من الجانب الشـرقي المشرف علـى منحدرات العلم الأبيض توجـد فيـه مجمـوعات هائلة من المقابر. ويزعم صـالح بن حزيق أن هناك مجمـوعة أخرى من المقابر عند أسفل مرتفعات الجدران في جـهة الجنوب. أما الجبانة الأخرى الوحيدة في هذه المنطقة فهي الرويك. وتـزعم الروايات الشعبية أن المقـابر المعروفة باسم الرُدم أو النصب الركامـية والتي تقع على امتداد الطريق من نجـران إلى صعدة مسـاكن للكفار القدماء بنيت لتحميـهم من العقاب الإلهي الذي ظهر في الرجم الجوي بواسطة طيور الخطاف (السنونو). ومن الواضح أن القصة القرآنية بخصوص هلاك جيش أبرهة ذات تأثير واضح على هذه الرواية. ولم تحفظ الذاكـرة شيئاً عن الماضي البعيـد عندما كان موتى سبأ يكرمون بدفنهم في مثل هذه المقابر.

وجدير بالتنويه أن الإنســان العربي الحديث وهو يلحظ هذه القفـار الموحشة لم يفكر ملياً ليـتصور أن إنسان تلك الأحـقاب القديمة الذي كـان يقطن بالقرب من هذه الجبانات الكبيرة كان يعيش حياة مختلفة للغاية في ظروفها عن الوقت الحاضر. وتجدر الإشارة أيضاً إلى أن بـقايا البحيرات المندرسـة وآثار الأنهار القديمة والأماكـن المرتفعة ذات الوضع الشعـائري المقدس بالقرب من الرويك كلهـا آثار تعيننا على سبـر أغوار الماضي وحل ألغـازه. وهناك ظاهرة شبـيهـة بتلك المذكورة أعـلاه نجدها في منطـقة الخرج، وفي كل من الأفلاج ونجـران، نجد أزمنة كانت فيـها الأوضاع العربيـة تتباين تماماً والوضع الحالي، وهذا الوضع نفسه يمكن أن يماثل أوضاعاً في صحارى أخرى.

تقع رابية العلم الأبـيض باتجاه غرب الشـمال الغربي وشـرق الجنوب الشرقي. ويلاحظ أن الجرف الغربي لهذه الرابية يتميـز بالانحدار الشديد ناحية الغرب وبانحدار

معتدل ناحية الشرق حيث يقسم إلى عدة أقسام بواسطة الثنيات الضحلة الأودية الصغيرة. وتصطف المقابر على امتداد قشرة الجرف الصخري على شكل عناقيد لتكون ما يشبه المتراس. وبصورة عامة فإن هناك ١٢٠ منشأة حجرية صغيرة الأحجام مشيّدة بواسطة ألواح حجرية. وبعض هذه المنشآت دائرية الشكل والبعض الآخر وضع على هيئة أكوام يتراوح ارتفاعها بين اثنين وثلاثة أقدام. والثمانون الأولى من هذه المنشآت والتي تبدأ من نهاية الجانب الغربي من الجرف الصخري تشكل خطاً متصلاً مع الثمانية والخمسين منشأة المهدمة والكبيرة الأحجام نسبياً. أما المنشأتان الحادية والثمانون والثانية والثمانون فهما منفصلتان عن بقية المنشآت بحوالي ثلاثين ياردة. وخلف المنشأة رقم ٨٢ يوجد صفان من المقابر الصغيرة التي تقع عند أقصى الخط الجنوبي المجاور لطرف الجرف الصخري.

ومن جهة أخرى فإن الخط الداخلي لهذه المنشآت يحتوي على ٢٠ مقبرة في اتجاه الشرق و١٢٠ مقبرة باتجاه الغرب. ومن المقبرة رقم ٨٢ وباتجاه الشمال الشرقي توجد خطوط متوازية لكنها غير منتظمة من المقابر بأحجام مختلفة وتتجه ناحية وادٍ صغير إلى أسفل الجبل. وستة من هذه المقابر تقع في خط واحد يبدأ من المقبرة رقم ٨٢. أما المقابر بأرقام (١٢٧-١٢٨) فكلها بحجم واحد ويبلغ قطر كل منها ١٢ قدماً. وتتلو هذه المقابر المقبرة ١٣٤ في حين أن المقبرة رقم ١٢٨ هي أكبر هذه المقابر جميعاً ويبلغ قطرها حوالي ٣٠ بوصة ومدخلها في اتجاه الغرب. أما محيطها فهو مغطى بكتل الأحجار غير المشذبة (١٨ بوصة مربعة) وارتفاعها أعلى من سقف القبر. ويبلغ ارتفاع المدخل ٣ أقدام فوق مستوى سطح الأرض، ويصل اتساع ممر المدخل إلى ٣٠ بوصة وطوله ٦ أقدام. ويبلغ ارتفاع المنشأة الكلي سبعة أقدام ويتكون من ثلاث عشرة طبقة من صفائح الحجر المستوية. وبوسعي الآن ترجيح الاحتمال بأن الغرفة الداخلية سليمة لم يعبث بها ولكنها مملوءة بالرمال لارتفاع يبلغ قدماً. ويبدو لي أن هذا البناء هو أهم هذه المقابر جميعاً؛ لذا فقد قصدت أن أصفه بشيء من التفصيل

لإعطاء فكرة عن هندسة هذه المنشآت الحجرية. وهناك مقبرة أخرى تختلف في تصميمها الداخلي عن بقية المنشآت؛ لذا فقد استحقت انتباهاً خاصاً. وهذه المقبرة ذات شكل خماسي ولها خمسة ألواح ضخمة تشكل جدرانها وتسند السقف، ويبلغ كل من ارتفاعها وطولها أربعة أقدام واتساعها ثلاثة أقدام. وثمة ملاحظة جديرة بالانتباه وهي أن الفتحة المؤدية إلى الدهليز في تلك المقابر تتجه ناحية الغرب. وربما يعزى ذلك إلى الاتجاه الطبيعي للهضبة نفسها. ومما يدعو للدهشة كما هو الحال في المجموعة السابقة، فإن هذه المنشآت تخلو تماماً من أي أثر لنشاط إنساني من عظام أو خرزة أو غيره. والشيء الوحيد الذي عثرنا عليه عظام ثعلب نفق فيما يبدو منذ زمان بعيد. وفضلاً عن ذلك توجد متحجرات من العصر الجيوراسي تربط جيولوجياً مرتفعات العلم بما يشابهها من الترسبات الجيوراسية بالقرب من عمران في اليمن وجبال طويق في أواسط الجزيرة العربية.

يقول بليني إن السبئيين كانوا لا يهتمون بدفن موتاهم حيث كانوا يلقون الجثث في نفايات مدنهم. ولكن هذه الأدلة المذكورة أعلاه تنفي هذه المقولة وتؤكد أن هناك نظاماً محكماً لشعائر الدفن. وربما كانت المجموعتان السابقتان للمقابر في الصحراء عبارة عن نصب جوفاء Cenotaphs أقيمت لموتى دفنوا في مكان آخر. ولكن من جهة أخرى فإن وجود كميات كبيرة من المياه في هذه الأصقاع في تلك الأزمنة يوحي بوجود أراض زراعية كبيرة ومجتمع رعوي على أطراف هذه الجبانات. والمثال الذي أوردناه سابقاً من منطقة الخرج يؤيد هذه الحجة. وبالرغم من عدم وجود نقوش في كل هذه المقابر حتى الآن، فإن بعض النقوش الحميرية قد عثر عليها في منشآت حجرية مشابهة بالقرب من نجران. ويبدو أن تلك المنشآت ذات علاقة بالفينيقيين الذين ركبوا البحار واشتهروا بالتجارة والأسفار. وكما هو معلوم فإن الطلب المتزايد على التوابل والعطور في مصر القديمة كان سبباً في نشأة تجارة برية واسعة النطاق مع جنوب الجزيرة العربية. وكما هو معروف، فإن أقدم الأسر الحاكمة في هذا الجزء من

العالم هي أسرة المعينيين وعاصمتهم معين في الجوف الجنوبية. وهذا الاسم (معين) يوحي بصلة مع المينويين Minoan في جزيرة كريت -والتي كانت لها صلات قديمة مع مصر-. لقد كان ملك مصر (شقيق) ملك الفينيقيين كما تقول الأسطورة. وهل يمكن القول إن هؤلاء المعينيين بعد أن دانت لهم السيطرة على التجارة البرية للقوافل في الجزيرة العربية أقاموا علاقات تجارية بحرية في حوض البحر الأبيض المتوسط وذلك للاستفادة من مصادر ثروتهم في الجزيرة العربية؟. وتدريجياً استوطنوا في البحر المتوسط لتأمين نشاطهم التجاري. ورغم عدم وجود دليل قوي يؤيد هذه الفرضية إلا أن الصلات بين مصر وكريت وساحل بلاد الشام في الأزمنة القديمة لا يمكن إنكارها. كذلك كان للفينيقيين في سوريا -دون ريب- صلة بالبحرين وتمتد صلات الأخيرة حتى الخرج والأفلاج. وسبأ نفسها ليست بعيدة عن هذه المناطق خاصة إذا تذكرنا أحوال المناخ المواتية في ذلك الزمن. وهكذا فإنه ربما كان إقليم سبأ هو الموطن الأصلي للفينيقيين. ويمكن أن تكون الصورة عكسية، بمعنى أن الحضارة المعينية استمدت وهجها الحضاري من حوض البحر الأبيض المتوسط ومصر وجزيرة كريت. وهذا يعني أن الحضارة الأولى استمدت عناصرها من عنصر خارجي وافد من الشمال إلى هذه المنطقة بغية الحصول على الذهب والتوابل. ومع هؤلاء الفينيقيين جاءت ديانة القمر لتبقى حتى يومنا هذا في التقويم العربي بعد أن تبناها الإسلام من الموروث القديم؛ لذلك فإن الجبانات الكبيرة التي عثر عليها في الصحراء هي أهم الاكتشافات في رحلتي هذه. وحتى إن لم نهتد إلى معرفة لغز هذه المقابر فإنها على الأقل قد مهدت الطريق إلى أبحاث مستقبلية في هذا الموضوع. وإذا ما تمكنا من تحديد تاريخها ومنشئيها فإن أحد أهم الأسئلة عن الحضارة الإنسانية قد وجدت طريقها للإجابة. وبالنسبة لي: . . .«فيمكنني أن أنظر في البعيد وعبر أزيز الهواء فوق الجبال والأرض الشاحبة ومن وراء أقواس الرمال التي جرفتها الرياح إلى شارات مدينة في ضباب الفضاء والضياء».

وأقرب الأطلال السبئية لمسيرنا يعرف باسم خربة أبي السعود ويسمى في النقوش يلت YLT ويبعد موقعه بما يزيد عن الأربعين ميلاً بقليل خلف وادي الجوف. وبعد مسيرة ميل أو ميلين من موقعنا في غربي هضبة العلم بدأنا نتحرك ببطء في منطقة وعرة يكسوها الحصى. وبعد ذلك وجدنا أنفسنا نسير في أرض سهلة مغطاة بأحجار صغيرة ناعمة وتتخللها في بعض الأحيان خطوط مصارف مائية متحدرة من جهة الشمال تقودنا إلى منطقة كثبان رملية ذات شكل أحمر ذهبي (هبل فريدة) حيث توقفنا هنيهة لاستطلاع الموقف وعمل مسح للمنطقة. ومن ثم واصلنا المسير حيث اجتزنا طريق القوافل المؤدي إلى مناجم الملح في صفرة بالقرب من مستوطنات الجوف المعروفة محلياً باسم (بلاد دهم). ورابية هيلان الطويلة الواقعة بين فتحة وادي رغوان ومأرب بالمثل تسمى (بلاد نهم). وأثناء ذلك، هبت بعض العواصف الترابية حولنا أثناء جلوسنا عند قمة إحدى الكثبان الرملية مما سبب وضعاً بغيضاً.

وتعد زويرة أعلى قمة في رابية اللوذ الجرانيتية التي تبرز فوق سهل الجوف، بينما نجد في الجهة الجنوبية الغربية مجموعة من ست رواب صغيرة مستديرة تتوسط كثباناً رملية على الجانب الأيمن من وادي الجوف. وتعرف هذه الروابي باسم الكنائس.

وواصلنا سيرنا باتجاه الغرب - الشمال الغربي في سهول رملية. وبعد أن اجتزنا ٤٠ ميلاً بدأنا نقترب من خط الكثبان الرملية المسماة (عريق). ومن هذا المكان واصلنا المسير حوالي ١٦ ميلاً حيث عبرنا مضيقاً غير وعر وجدنا بعده أنفسنا عند مجرى مائي واسع هو وادي الجوف، وتتناثر حوله أشجار الأكاسيا الشوكية. وفي الجانب الأعلى من الوادي باتجاه الشمال الغربي توجد بعض الروابي الصغيرة، وأسفله باتجاه الجنوب الشرقي في الصحراء يميل الوادي إلى اتخاذ مجرى مستقيم وأواسط الوادي خالٍ من الغطاء النباتي. أما آخر وأوسع مجرى للوادي فهو ينقسم إلى عدة أقسام

جداول بواسطة أحزمة حصوية. وعند الطرف الأقصى للوادي يوجد سهل صلب التربة، تغطيه الأشجار والنباتات المختلفة ويكوّن ما يشبه الدلتا لوادي الجوف وفروعه. وثمة إشارة هنا وهي أن قافلة الجمال التابعة لنا كانت قد توقفت في منطقة الأشجار إلى اليمين من معسكرنا لقضاء وقت القيلولة وذهب ابن هضبان لتسقط الأخبار منهم. وتابعنا السير لنلحق برفقائنا الذين تحركوا أمامنا ولكن لغز (آل هندي) لا يزال دون حل. ولكنهم لم يمروا عبر هذا الطريق، لذا فقد انتابتنا الدهشة حول وجهة هؤلاء.

وبدأت سيارتنا الأولى تعاني من بعض الأعطال حيث انكسر المكبس (البستون) محدثا صوتاً يشبه الخشخشة أو القعقعة؛ لذلك فقد اضطررت لقيادة السيارة ببطء حتى نصل إلى مسعودة بسلام. وبعد مسيرة سبعة أميال خلف وادي الجوف وصلنا إلى الجزء الأوسع والطرف الأكثر وعورة من وادي المُسيجد وهو أحد فروع مجرى مياه وادي رغوان. وتوالت المصاعب حيث أدى الطريق الوعر مع المكبس المكسور إلى صعوبات جمة في حركة السيارة. وعندما اقتربنا من رابية عدوان توقف المحرك تماماً. واضطررنا إلى قضاء الليلة في هذا الموقع حتى وصلت قافلة الجمال. وأرسلنا بعض رجالنا للقيام باتصالات مع البدو في المنطقة ولجلب الماء لتأمين احتياجاتنا لبقية الرحلة.

وأجهض حادث تعطل سيارتنا بعض المخططات التي كنت أنوي تنفيذها والتي ناقشتها مع كل من صالح وابن هضبان خلال الرحلة. ويبدو أن يومين كافيين لإكمال الاستعداد لما تبقى من الرحلة وذلك بإصلاح السيارة والحصول على مياه كافية. واستمر محمد في إصلاح السيارة بمساعدة كل من صالح وابن هضبان بينما كنت أقوم ببعض المسوحات لتقصي أحوال المنطقة. وكنت أتوق للوصول إلى سبأ لقضاء الليل هناك. وبعد أن وصلت الأمتعة التي تقلها القافلة استطعت أن أحصل على الأجهزة التي كنت استغلها ليلاً مثل: مصباح الضغط الذي كان مرشداً لقافلة الجمال وهي

تسيـر بعيـدة عنا في بعض الأحيـان. وحصلت على بعض عـلب الفاكهـة والحليب المجفف التي كـانت بحوزة مجمـوعة قافلة الجـمال. وكانت هذه المواد الغذائيـة تجد ترحيبـاً خاصاً وسط المرافقين الذين كانوا مـعي في السيارة. وكانت كمـية التبغ التي بحوزتي قد نفدت ولكن تمت مـعالجة هذه المسألة. وكان عليّ القيـام ببعض الأعمال المساحية بمعاونة مـحمد الذي كان يحمل المصباح أثناء انهمـاكي في العمل. أما سعد فقـد ذهب إلى البئر مـع الجمال ليـحضر لي صناديقي ولمّا لم يـجدها فقـد تأخر في العودة.

وكمـا لاحظت في العديد من الأماكن في هذه الصـحراء الخالية من الميـاه فإن أوعية الماء الجلـدية (القرب) التي ترشح بعض القطرات على سطحهـا الخارجي تجذب أعداداً هائلة من الفراشات التي تمتص الماء بنهم شديد ولم يكن باستطاعتنا اصطيادها. وذهبت للنوم وتركت كلاً من محمد وصالح يواصـلان إصلاح السيارة وقد تخضبت أيديهما بالدهن، ولا أدري متى ذهبا للنوم؟.

وكانت درجـة الحرارة قد بلغت ٥٢° ونحن على ارتفاع يبلـغ ٤٥٠٠ قدم فوق مسـتوى سطح البحـر. وتشرق الشمس السـاعة السـادسة لتزيل البـرد وترتفع درجة الحرارة عند الساعة التاسعة صبـاحاً إلى ٩٠° فهرنهايت. وفي الأفق البعيد تلوح أعلى قمم جـبلية في اليمن (٩٠٠٠-١٠٠٠٠ قدم) والمسـماة عشيـر، والواسط والخانق. وفي شمال ضيقة التي تمثل فـوهة وادي رغوان حيث تمتد المرتفعات على شكل نصف دائري إلى جبـال صفرة وحراب ومضـرة والشهلا على الجانب الأيـسر لوادي الجوف المنحدر من جبال حـجاز بن جدعان. وإلى الجنوب من ضيقة فإن رابيـة هيلان تستمر مطلة على الصحراء إلى أن نصل مأرب. وتقع زويرة أعلى قمة في الجانب الأيسر من وادي الجوف ومن ورائها حليف وقـدم وتحدد قمم خرج موقع مأرب إذ تقع مـباشرة جهة الجنوب المائل للشرق قليلاً. وأعطاني وقـوفنا الاضطراري في عدوان فرصة طيبة لمعرفة جيدة بجغرافية سبأ.

ولم يستطع محمد أن يكمل عمله طوال الليل. وبعد أن احتسيت كوباً من الشاي استأنفت عملي في دراسة المنطقة التي حولنا. وساور كل من صالح وابن هضبان الخوف من المعلومات التي تحصلا عليها من امرأة ترعى الأغنام والتي تفيد بأن الصحراء الواقعة بين مسعودة ومأرب خالية من أي أثر للحياة. وكنا في ورطة حقيقية لاسيما وأن رفقاءنا من مجموعة الجمال لا يزالون عند البئر لا يعرفون ما هي وجهتنا التالية. وعلاوة على ذلك فإن محمداً لم يكن قادراً على الاعتراف بأن محاولاته لإصلاح السيارة قد باءت بالفشل. ورغم كل هذه الصعاب قررنا استئناف السير الساعة التاسعة صباحاً.

تحرك ركبنا بسم الله واجتزنا خمسة أميال على أرض صلبة تكسوها الكثبان الرملية وتتخللها بعض المسيلات المائية وتتناثر بجوارها بعض الشجيرات. وكنت أقود السيارة بحذر شديد باحثاً عن أي خط سير يكون أقل خطورة لسيارتنا. وكانت هناك بعض الغزلان تنسل من بين الشجيرات هنا وهناك ولكن كنا لا نعيرها اهتماماً. وكان وضعي مثل طالب المدرسة الذي يريد أن يخطف فاكهة من البستان خلسة. وكان كل من صالح وابن هضبان أكثر عصبية وقلقاً مني في هذه الظروف العصيبة التي نجتاز فيها الصحراء. وكان يخيل إلينا أن كل صخرة كبيرة في الصحراء عبارة عن رجل يتجسس علينا. ولكن الحظ كان معنا. وفيما عدا الغزلان والطيور فلا يوجد مخلوق واحد في هذه الصحراء القاحلة.

وخلف منطقة المُسيجد اجتزنا سهلاً حصوياً متموج الشكل، ومررنا ببعض آكام الكسعين إلى الجانب الأيمن من خط سيرنا. وتوقفنا هنيهة وصعدنا رابية تسمى صمدة للاطلاع على المنظر العام للمنطقة التي حولنا. ونحن الآن على بعد ثلاثة عشر ميلاً من المعسكر. ولاحظنا أن قمة رابية خرج الأيسر تقع مباشرة جهة الجنوب على بعد عدة أميال من موقعنا الحالي. ويعلم الجانب الأيسر من وادي أبراد ثلاثة هضاب صغيرة تسمى تدوين وهو إلى الجنوب الشرقي من مكاننا، ويقع كناس في جهة

الشرق على جانبي وادي الجوف. وبعيداً في جهة الغرب يوجد تل مرتفع في اتجاه صرواح التي كانت يوماً ما عاصمة لإمبراطورية سبأ. وما زالت مرتفعات زويرة والهضبة تقف ظاهرة في الشمال.

وعند منتصف الطريق تقريباً إلى قمم جبال خرج تتغير طبيعة الأرض حيث تظهر بعض البقاع التي تتناثر فيها حمم اللابة البركانية، بينما تفصلنا عن هذه الجبال طبقات سميكة من الرمال. وتجاوزنا هذه العقبة بعد عثورنا على فتحة يتراوح اتساعها بين ٢٠٠-٣٠٠ قدم تؤدي إلى سهل دائري يسمى قعاد محاط بكثبان عالية من الرمال، وعند الجانب الأقصى لهذه الرمال الواقع أقصى جبل خرج يوجد ممر جبلي منخفض بين الاثنين. وقمت بتحريك السيارة باتجاه المنحدر الرملي الذي يخفيها تماماً عن الأنظار. ووضعتها مواجهة لأسفل الجبل باتجاه ديارنا وذلك حتى تكون جاهزة للتحرك السريع في حالة الطوارئ. وبقي محمد مع السيارة بينما بدأ ثلاثتنا تسلق الجبل مباشرة.

وأول ما يسترعي الانتباه أن جبال خرج بركانية التكوين وترتفع حوالي ٤٠٠ قدم فوق مستوى سطح الأرض. ويشابه التكوين الجيولوجي لجبال خرج جبال كرش عند وادي الحاضنة حيث توجد كتل الأولفين واللابا عند جوانب الجبال. وعندما تسلقنا الجبل وجدت نفسي أمام فوهة بركان ذات جدران سليمة ترتفع حوالي مئة قدم فوق مستوى سطح الكثبان الرملية المحيطة بالمكان. وهذه الجدران على هيئة جوهرة تقع داخلها الفوهة ويصل قطرها إلى ٢٥٠ ياردة. والحمم البركانية في قمة الجبل ذات لون بني يشبه الصدأ ومختلطة ببعض كتل الأولفين. ويرجح أن يكون هذا البركان حديثاً.

وصلنا إلى فوهة البركان عند طرفه الجنوبي الغربي. والآن تحركنا باتجاه الطرف الشرقي له الذي يمدنا بمنظر جميل للوادي. وأسفلنا مباشرة يوجد منظر لأكوام من الأطلال التي التقطت لها بعض الصور كما قمت ببعض الأعمال المساحية لمعرفة

الاتجاهات. وفـي هذه الأثناء تحرك صالـح ناحية الجـانب الجنوبي من الفوهـة لجمع معلومـات عن الموقع. وبعد برهة اتجهت ناحـية صالح جهـة الجنوب الذي أشار إليَّ نحو موقع مأرب، وهي الآن تختفي خلف رابية منخـفضة، تشبه الحصن ذا الشرفات المفرجة القـابع فوق قاعدة مربعـة الشكل التي تشبه مدينة أربيـل في العراق. والمباني الحديثة لمـأرب بنيت من الأحجار القديمة. وعند أسـفل الجبل إلى جهة اليـمين يوجد مبنى على شكل حصن. ومن ناحـية الحجم فإن القرية لا تبدو أكثر اتسـاعاً من شبوة ولكن يبدو أننا لم نر سـوى قلعة بارزة وسط حقل من الأطلال التي لم نعـرف كنهها بعد والتي تبـعد حوالي ثلاثة أميال مـن موقعنا الحالي. وأصبت بـشيء من الإحباط لعدم تمكن أدلائي من إرشادي لأقرب نقطة لمنظر أطلال القلعة. والآن يستحيل إيجاد بدائل؛ لذا فـقـد جلست أسجل أقـصى مـا يمكن تسـجيـله عن هذه الأطلال الماثلة للعيان.

وإلى الجانب الأيسر من مـوقعنا الحالي، كما أجلنا النظر جنوباً ناحـية مأرب، توجد تلال تـدوين الثلاثة باتجـاه الشمال الشـرقي قليلاً. وباتجـاه الجنوب - الجنوب الشرقي يقع مخروط بركاني صغير على مسافة تبلغ حوالي الميلين والنصف من موقعنا الحالي. وعلى مـقربة منا تقع قـمة رابيـة دش وهي تقع جهة الجنوب مـباشـرة وتمتد أطرافـها على الجـانبين بحـوالي نصف مـيل. وإلى الجنوب الغـربي يوجد عـدد من الفوهات البركانية التي تظهرجزئياً جهة اليـسار وتغطيها جبال خرج الأيمن جهة اليمين وتغطي مساحة قدرها ٥٠٠ ياردة على بعد ميلين ونصف من موقعنا. وقد كنت فعلاً أعتقد في البداية أن الركام الصخري هو أطلال المدينة القديمة.

وتقع مأرب على بعـد نصف ميل خلف مخروط بركـاني صغير الحـجم شرق مرتفع الدش باتجاه ١٦٤° من نقطة نظرنا. وعند الجانب الأقرب من هذه الرابية تجري قناة وادي أبراد الرملي وعلى مـسافـة أبعد من ذلك قليـلاً وخلف هذه الرابيـة يوجد وادي السد، وسـمي كذلك نسـبة للخزان الذي يـخفيـه عنا التقاء مـرتفعي حـيلان

والأويسط وعند أسفل هذه المدينة ينفصل هذان الواديان بواسطة شريط من الكثبان الرملية. وباستطاعتنا تتبع خطوط مجاري هذين الواديين اللذين تتخللهما بعض الشجيرات الداكنة اللون. وعلى الجانب الآخر من وادي أبراد توجد عدد من المباني الحديثة تسمى حصن جلال تقع على المسافة نفسها من مجرى الوادي (أبراد) ومن المرتفع ذي القمة الحادة. وبالإضافة إلى تلك المستوطنات توجد أيضاً بعض الأحياء، معظمها لمجموعات مزارعين تتوزع في أعلى وأسفل وادي أبراد وأعلى مأرب توجد حصن الضيق، وذنة بالقرب من الخزان وعلى بعد خمسة أميال إلى اليمين من قمة دش وصرواح في أعلى وادي وذنة. وأسفل مأرب يرتبط توزيع المستوطنات بالمناطق التي يتوافر فيها السهل الفيضي العادي حيث تصبح أكثر انتشاراً في تلك الأماكن. وهذه المستوطنات تشمل شريف بن سعود، وحصن الأشراف (أهل عمير)، وحضن، وأهل طليب، وحصن الجلال، والحزمة، ورمزة (أهل سعد)، والجثوة (أهل جردان)، وسالم بن فهيد، وبجاش، وسريحي، وآل حتيك وأخيراً طهيل وهي آخر بقعة عند أسفل الوادي.

وخلف قناتي مياه مأرب تمتد أحزمة من الرمال الصفراء إلى الجملة والرضى المشرفة على وادي حريب وبلق وأويسط وسهل ونلحظ أن معظم آثار النشاط البركاني تتركز عند الجانب الشمالي لوادي أبراد. وساورني إحساس بأن تلك الحمم البركانية قد أدت دوراً في مأساة مأرب. وكما هو معروف فإن الأسطورة العربية تعزو انهيار سد مأرب إلى ما أحدثته الفئران في سدها العظيم حيث أصبح غير قادر على تحمل اندفاع مياه السيول الموسمية. وهناك بالتأكيد أدلة نقشية (كتابة) تشير إلى فترات تاريخية أجريت فيها إصلاحات في سد مأرب بواسطة العديد من ملوك سبأ وبصورة واضحة في فترة العهد المسيحي. ويبدو أن انهيار هذا السد الكبير نجم عن جائحة عظيمة. ومن المؤكد أن مأرب لم تغمر بطوفان اللابة البركانية مثلما كان عليه في

مدينة بومبي (إيطاليا)، ولكن كل من زار هذا المكان، استناداً على ملاحظات كل من أرنو وهالفي وجلاسر[1] الذين زاروا المدينة وسجلوا الكثير من نقوشها يميل إلى رأي مفاده أن انهيار المدينة (مأرب) والسد يعزى إلى زلزال. وثمة وجود براكين توحي بدورها بحدوث انهيارات في البنية التحتية لمنطقة السد في فترة زمنية غير معروفة على وجه اليقين. وفي المدينة لدينا دليل يقيني لحدوث انفجار بركاني مصحوب بانتشار واسع لحمم اللابة، ويعرف حتى الآن للعرب باسم لابات النار أو نهر النار، ويؤرخ إلى باكورة القرن الثالث عشر[2]. وأخبرني أحد المسافرين في العصر الحديث بأنه قد جمع العديد من الصخور البركانية التي -من المؤكد- أنها ترجع إلى فترات تاريخية حديثة. ويعتقد الخبراء أن عينات الحمم البركانية التي أحضرتها من هذه المنطقة ومن وادي الحاضنة حديثة نسبياً لكن لم يحدد لها تاريخ معين. وكانت هناك قطعة صغيرة من الحجر الجيري، عثر عليها في هذا المكان، لا يوجد نوعها في المنطقة المجاورة لمأرب. ومصدر هذا النوع من الصخور الجبال البازلتية الواقعة بعيداً عن سد مأرب في هضبة خرخ الأيسر وهي دليل على أحدث تاريخ لهذه الحمم البركانية. وربما كانت هذه القطعة الحممية قد ارتفعت إلى قمة جبل خرج بواسطة الانفجار الذي أدى إلى اندفاع اللابة إلى أعلى. وفي تقديري أن نظرية خراب سد مأرب بواسطة زلازل

---

(١) أرنو صيدلي فرنسي زار مأرب سنة ١٨٤٣م، وحصل على ٥٦ نقشاً، أما يوسف هالفي فهو يهودي زار اليمن سنة ١٨٧٠م وتزيا بزي يهود اليمن وتمكن من جمع ونسخ عدد من النقوش القديمة بلغت أكثر من ٦٨٦ نقشاً، أما أدورد جلاسر فهو مستشرق نمساوي أستاذ اللغة العربية بفينا قام بين عامي ١٨٨٢-١٨٨٥م بثلاث رحلات إلى اليمن كما قام بثلاث رحلات أخرى بين عامي ١٨٨٧-١٨٩٢م وجمع العدد من النقوش ونسخ الكثير منها.

وللتوسع حول الدراسات اليمنية القديمة انظر: بافقيه، تاريخ اليمن القديم، بيروت، ١٩٨٥م، ص.ص١١-٢٠. (المراجعون).

(٢) يعني المؤلف بذلك، البركان الذي حدث بالمدينة المنورة سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، انظر عن هذا الحدث، الرحيلي «نار الحرة دراسة تاريخية» ضمن أبحاث الكتاب السنوي لقسم التاريخ والحضارة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، السنة الأولى، العدد الأول، ١٤٠٨هـ، ص.ص٢٣١-٢٤٧. (المراجعون).

وبراكين تبدو معقولة لاسيما وأنها تستند إلى سند تاريخي قوي وهو أن البركان قد دمر الجزء القديم من المدينة في حين أن الزلازل قد وضعت نهاية للجانب الأحدث منها.

وفي كتاب "دليل البحر الأريتري" - نسخة و. هـ. سكوف، لكاتب مجهول الهوية من القرن الأول الميلادي، ص ١٥٩ - معلومات مثيرة عن الفينيقيين ذكرها المؤرخ جستن وأن سكان صور ينحدرون من الفينيقيين الذين هجروا موطنهم الأصلي بسبب حدوث بعض الزلازل وقطنوا في بعض الفترات في أرض مستنقعات في بابل (العراق)، ومن ثم هاجروا إلى شواطئ البحر الأبيض المتوسط حيث أسسوا مدينة اسمها صيدا -كلمة صيدا تعني السمكة في لغة الفينيقيين-. وبما أنه لا يوجد حتى الآن أي أثر لمركز حضاري فينيقي في البلاد التي يعتقد أنها الموطن الأصلي للفينيقيين ومنها هاجروا لسوريا عبر بابل بسبب الزلزال، لذلك تبدو نظرية أصل السبئيين أكثر ملاءمة لتفسير تنقلاتهم.

والاسم المعروف بالفينيقيين ما لم نربطه ببلاد بنت -كما يقترح سكوف يبدو كما لو أنه لقب للأقوام الذين عاشوا على سواحل الشام منذ أزمنة قديمة. وثمة إشارة هنا وهي أن العنقاء وهي اسم طائر الفينيقيين الخرافي الذي يبدو أنه قدم من الجزيرة العربية وكذلك شجرة النخيل والصبغ الأرجواني الذي كان شائعاً في التجارة الفينيقية؛ لذا يبدو من الجلي أن الفينيقيين عرفوا بهذا الاسم بسبب ارتباطهم بأحد هذه السلع. والاسم الأصلي لهؤلاء الفينيقيين يبدو أنه قد تلاشى بمرور الزمن ليعرفوا باسم الصوريين والصيداويين نسبة لأسماء دولهم الساحلية.

وهكذا نجد أن الفينيقيين قد ارتبطوا بشجرة النخيل وبالطائر العربي الخرافي وبفكرة حدوث هجرة من أوطانهم ناجمة عن حدوث الزلزال. ويقول جوزيفوس: تبعاً لرأي سكوف أن أصل الفينيقيين يعود إلى ديدان أو دادان سنسلس بن رماح بن كوش. ويعد ديدان في تسلسل شجرة النسب في سفر التكوين أخ سبأ.

ومن المؤكد أن هذه مصادفات لافتة للنظر. وكما هومعلوم فإن معرفة الفينيقيين بالتجارة معروفة للقاصي والداني ولا تحتاج إلى حجج لإثباتها. وإذا كانت مصر هي أم الحضارة الإنسانية كما يزعم و.جي.بري في مؤلفه «نمو الحضارة» فإنه لن يمضي زمن طويل قبل أن تقيم علائق تعاون مع جيرانها. ويجب أن تكون أهم احتياجاتها الذهب والتوابل وكلاهما سلعة عربية. فضلاً عن ذلك فإن تجارة العطور عن طريق القوافل البرية استمرت احتكاراً عربياً لفترة زمنية طويلة. وهذا بدوره أكبر حافز لتطوير وتنمية العلاقات التجارية مع الهند والأمصار الأخرى في الشرق بواسطة العرب. والباحث سكوف على رأي مفاده أن التجارة عبر المحيط الهندي بدأت بواسطة العرب وانتقلت إلى الهنود لاحقاً حيث أقاموا علاقات تجارية وطيدة مع الجزيرة العربية. ولعدة قرون اقتسم العرب والهنود احتكار هذه التجارة منافسين لكل من مصر ودول حوض البحر الأبيض المتوسط. ولو كان رأي سكوف عن الأصل الفينيقي للأبجدية البرافيدية مقبولاً فإن الحجة القائلة بالصلة القرابية بين التجار العرب القدماء بالفينيقيين تجد حظاً كبيراً من المصداقية.

وفيما يخص هوية كل من المعينيين والفينيقيين، فإن من المعلوم أن الهكسوس الذين حكموا مصر في عهد الأسرة الثانية عشرة إلى الأسرة الثامنة عشرة -القرن الثامن عشر إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد- ينحدرون من أصل عربي. ويميل الباحث سكوف إلى رأي مؤداه أنهم معينيون ويرجح رأياً للمؤرخ بليني بأن أرض المعينيين هي الطريق الوحيد لتجارة البخور عبر درب طويل ضيق، والمعينيون هم أول من طور تجارة البخور. والمعروف أن بليني يرى أن هناك إمكانية وجود علاقة بين المينوانيين في جزيرة كريت والفينيقيين الذين قطنوا في نهاية المطاف ساحل بلاد الشام مما يقوي الرأي القائل بأن المعينيين هم أسلاف الفينيقيين.

والبراكين التي وجدت في وادي سبأ قادتني إلى اختبار العديد من الفرضيات قبل الوصول إلى حكم نهائي لقصة سد مأرب. وحتى الآن كما أعلم فإن الرحالة

الأوروبيين الثلاثة الذين ذكروا آنفاً وهم أرنو وهاليفي وجلاسر لم ينبهوا إلى وجود وأهمية براكين مأرب. وثمة إشارة هنا وهي أن النشاط البركاني مستمر حتى يومنا هذا في اليمن لاسيما في المنطقة الممتدة بين صرواح ومأرب كما يدلنا على ذلك الباحث العربي نزيه مؤيد العظم الذي زار مأرب عام ١٩٣٦م في عهد الإمام. وبالرغم من أنه لم يجمع قطعاً من الحمم (اللابا) البركانية ولم ينوّه بأن هذه البراكين حديثة نسبياً، فإن مجرد ذكره للبراكين في هذه المنطقة مثير للاهتمام وجدير بالتقريظ. ويلزم التنويه إلى أنه أورد معظم تفاصيل أبنية مأرب بما في ذلك الأعمدة المستطيلة المصنوعة من الصخور البركانية البيضاء كما وصف أجزاء السد نفسه وذكر بأنها شيدت من نوع واحد من الصخر والذي دون شك هو الحجر الجيري كما بينا أعلاه.

وتجد أعمال هذا الباحث العربي نزيه مؤيد العظم الترحيب باعتبار أنها أول رحلة لمراقب كفء ومقتدر علمياً لمنطقة مأرب. ويلاحظ أن انتقاداته لتقرير الرحالة النمساوي جلاسر لها مسوغات منطقية. ومما يدعو للدهشة أن العظم لم يكن مطلعاً على تقارير الرحالتين هالفي وأرنو وكلاهما أمدنا بمعلومات قيّمة للغاية عن مأرب. وفي ذات الوقت تضمن تقريره قائمة مطولة لأسماء بعض المغمورين من الرحالة الأوروبيين الذين باءت محاولاتهم لبلوغ مأرب بالفشل بسبب اغتيالهم. ومن ضمن هؤلاء الأوروبيين الرحالة هرمان - بوركهارت. ويبدو أنه (العظم) كان ساذجاً لتصديقه لكل الروايات الشفاهية التي سمعها. وفضلاً عن ذلك، فإن قائمته ضمت كل أسماء الضحايا الذين قاموا برحلات لليمن.

ولسوء الحظ فإن رواية العظم عن رحلاته نشرت بالقاهرة باللغة العربية وبالتالي ليست في متناول الأوروبيين من المهتمين بشؤون الجزيرة العربية. وفيما يخص أطلال مأرب يقول العظم بأنها تشمل أكوامًا حجرية كثيرة مما يصعب دراستها وتحليلها بالتفصيل. ويذكر أن المنطقة المسورة ذات شكل مستطيل حيث يبلغ طولها ١٧٤٠ متراً من الشرق إلى الغرب و ٧١٥ متر من الجنوب إلى الشمال. ونلحظ أن قلعة مأرب

تتكون بشكل أساسي من أبنية حديثة نسبياً واستخدم في إنشائها مواد بناء قديمة في الطبقات السفلية وطفل (طين) في الطوابق العلوية. ويزعم العظم أن الأطراف الشرقية للمدينة برمتها تقع فيما يبدو داخل أسوارها. ولكن ملاحظتي الشخصية هي أن القلعة عند جانبها الغربي تقع أيضاً داخل أسوار المدينة. والجانب الجنوبي من القلعة تأثر بشكل واضح بالسيل في حين أن الجدران الشمالية والشرقية فضلاً عن بوابتين كانت سليمة كلها تقريباً.

وأورد العظم في تقريره معلومات عن أطلال معبد بلقيس والمدينة القديمة المعروفة باسم مدينة النحاس، وأطلال أخرى تسمى مروث. وكل هذه الأبنية تقع جنوب غرب مأرب وبينها وبين السد الذي يوجد على بعد عشرة كيلومترات من مأرب. ولم يجد العظم سوى آثار قليلة شاخصة للعيان في السد تشمل أحجاراً لبوابات التحكم في المياه التي تتدفق لتروي البقعتين المعروفتين باسم الجنة الشمالية ونظيرتها الجنوبية. وتتضمن روايته مقولة أسطورية مفادها بأن وادي سبأ في الأزمنة القديمة كان مستزرعاً على امتداد المنطقة من مأرب إلى حضرموت. وكان أيضاً محمياً على امتداد هذه البقعة بأبراج مراقبة كانت تستخدم كخطوط تلغراف في ذات الوقت. ويذكر الكاتب (العظم) أن هناك سداً آخر إلى الشمال قليلاً من سد مأرب حيث يخدم وادياً ينحدر من هضبة هيلان. وهذا الوادي الذي لم يسمه العظم يبدو أنه وادي أبراد – وادي ذنة، أو وادي السد أو الوادي الأكثر قدماً وهو وادي سبأ. كان تعليق العظم على الرحلة الجوية التي قام بها الروائي الفرنسي أندريه مالرو بحثاً عن سبأ، مقتضباً لكنه قاسياً. وتقريره عنها نشره في عشر مقالات في مايو ١٩٣٤م في جريدة العنيد ولم تعجبني الصور التي نشرها عندما رأيتها لأول مرة. وتيقنت عندما رأيتها ثانية وصورة سبأ حية في ذهني، أن دعوى مالرو بأنه زار المكان وهو في طائرته، أمر لا يمكن أخذه بجدية. ومحاولته إعادة منظر المباني القديمة بمساعدة مهندس مختص أمر قريب من السخف. ليس هناك صورة واحدة من صوره يمكن

ربطها بمأرب. ولم ينشر مالرو خريطة توضح الطريق الذي سلكه. ونزيه العظم، الذي يمكن له أن يتحدث عن الأمر بموثوقية أكثر مني، لم يدع الشك في أذهان قرائه - بأن وصف مالرو لا علاقة له بالواقع الجغرافي والآثاري في مأرب.

وكتاب العظم نفسه[1]، ينقصه خريطة الطريق ولم يكن دقيقاً في إعطاء ساعات السير. لكنه ذكر لنا أن مأرب تقع على مسافة ١٦٥ كيلومتر شمال- غرب صنعاء ومنه أخذ طريقه في اتجاه أعلى وادي السر حتى تقسيم المياه في ممر نقيل شجاع نحو ٨٫٢٠٠ قدم فوق مستوى البحر. كذلك لم يوضح بالتفصيل كيف سلك طريقه للوصول إلى صرواح العاصمة القديمة للحميريين على رأس أحد الأودية التي تجري هابطة نحو السد لتكوّن قناة سبأ. ولم يحدد بالتأكيد مكان وادي الجوبة ومعلوماتي تؤكد بأن هذا الوادي يقع جنوب مأرب وينبع واديه من الجبال مستقلاً، ويجري حتى السهل ليلتقي وادي سبأ بالقرب من مرتفع العلم الأسود. لا أستطيع أن أتحدث عن الجوبة بوضوح لأنني لم أزره. وهو واحة ذات أهمية ورفيقي حمد القردعي كان حاكماً هناك حتى قبل سنوات قليلة. وعاصمة الجوبة تسمى جديد، ومن الواضح أنها مستوطنة حديثة تحوي السوق المركزي ومكاتب الحكومة. وأسفل المجرى منها توجد السوداء (ابن نمران) وديرة أهل مسعد، وفي أعلى المجرى يوجد نجاء وفيها دفاعات أبشيل، ناصر بن زيد ومبارك بن زيد، وتأتي بعد ذلك البحري وضيقم وأخيراً حَسَم.

وإلى وقت قريب فإن حكومة اليمن مثل السلطات التركية في زمانها، لا تمسك بزمام الأمور في الأودية الشرقية ، حريب والجوبة ومأرب ورغوان والجوف، وخب والتي تعد عملياً ذات استقلال ذاتي مع علاقة واهية مع السلطة اليمنية. وفي السنوات الأخيرة قام الإمام يحيى بمحاولات جادة لبسط نفوذه على تلك المناطق. وسيطرت

(١) خصص نزية العظم الجزء الثاني من رحلته عن مأرب وأورد النقوش التي استطاع نسخها وعدداً من الصور للآثار التي قام بتصويرها. وقد طبعت هذه الرحلة. (المراجعون).

قوات الحكومة اليمنية على مأرب بقيادة السيد عبدالله بن الوزير[1] الذي كانت تحتل أسرته مكانة مرموقة في اليمن سنة ١٩٣٢ أو ١٩٣٣م. وطلب من ابن الوزير أن يذهب إلى الطائف في ربيع ١٩٣٤م للتفاوض بشأن معاهدة سلام بين اليمن والمملكة العربية السعودية لوضع حد نهائي لحرب الأسابيع الستة بين البلدين. وبعد ذلك أصبح حاكماً في اليمن محتفظاً بمكاتب رئاسته في مدينة الحديدة. وخلفه في مأرب التي يحكمها حالياً السيد محمد، الهجوة الكبسي. وكان أحد أعمامه قد حضر التتويج الملكي في لندن سنة ١٩٣٧م ضمن الوفد الذي قاده سيف الإسلام حسين أحد أبناء الإمام يحيى. وتأسفت لأن الظروف لم تسعدني بزيارة السيد محمد. ولكن الملاحظ أن الفوضى السياسية والأمنية والتي كانت مستشرية قديماً في رغوان قد انتهت وحل محلها النظام والقانون. ولم تكن طبقة الأشراف القديمة في مأرب -بالتأكيد- راغبة في أن تصادر منها سلطتها التقليدية والتي لم تظهر أي مقدرة في ممارستها بصورة ناجعة لبسط القانون والنظام. وأحد هؤلاء الأشراف زار مكة لأداء فريضة الحج عام ١٩٣٧م وبدون شك ليبحث أيضاً عن دعم سعودي لسلطته. وجاء هذا الشريف ليعاتبني لأنني لم أهيئ له فرصة للالتقاء بمجموعتي بغية أن يقدم لنا واجبات الضيافة في مأرب. وأخطرني أيضاً أن أحد أسلافه وهو الشريف خالد كان قد عين

(١) هو عبدالله بن أحمد بن محمد الوزير (١٣٠٧-١٣٦٧هـ) بدأت خدماته في دولة الإمام يحيى بن محمد حميد الدين سنة ١٣٣٤هـ قاضياً في ذمار ثم تتابع توليه المناصب السياسية والعسكرية المختلفة وحاز على ثقة الإمام، ثم انضم إلى تنظيم الأحرار المعارض للإمام الذي دبر عملية قتل الإمام يحيى سنة ١٣٦٧هـ، أعلن بعدها عبدالله بن أحمد الوزير توليه مقاليد السلطة في اليمن وتسمى بالإمام الهادي، ولكنه لم ينعم بها كثيراً حيث استطاع ولي عهد الإمام المقتول (حمد بن يحيى) استعادة السلطة ونفذ حكم الإعدام في أعضاء تنظيم الأحرار وبدأ بعبدالله بن الوزير في ٢٩ جمادى الأولى سنة ١٣٦٧هـ. وللتوسع في تلك الأحداث انظر: الأكوع، هجر العلم ومعاقله في اليمن، جـ١، ص١٩٦-٢٠٧، جـ٢، ص٨١٧-٨٥٤، جـ٣، ص١٦٩٦-١٧٣٧. (المراجعون).

أميـراً بواسطة الوهابي الكبير سـعود[1] في القرن التـاسع عشر. وأعتقـد أنه شريف النسب من الفرع الحسيني، واسمه بالكامل ولقبـه هو الشريف محمد بن عبدالرحمن ابن محسن بن أحمد بن علوي بن خالد -وهو أول أمـير في عشيرته- ابن حسين بن محمد. وختمه الذي يتعامل به هو «الشريـف حسين بن محمد بن عبدالرحمن، أمير مأرب». ومـا حدث لهـذا الشريف تكرر بالنسـبة لأمـراء عائلة القردعـي في الجوبة وحريب وأبناء حمـد وعلي الذين فقدوا سلطاتهم بسبب التطهـير الذي طال الفوضى في تلك البقاع. والآن أصبح للإمام عـدد من المسؤولين المحليين من أمراء وقضاة في تلك الأماكن بما في ذلك الجوف.

أمضـينا ساعتين فـي قمة جـبل خرَجَ لمعرفـة الظواهر العامة للـمناطق قبل أن نستأنف المسـير. وبعد أخذ بعض العينات للحـمم البركانية واصلنا المسير مـسافة ١٥ ميلاً إلى طرف الـمُسـيجد قبل أن نتوقف لأداء صلاة العصر. ومن ثم اجـتزنا مسافة ستة أميال حـتى وصلنا عدوان، دخلنا بعدها أرضاً حصوية وبعد فتـرة قصيرة وجدنا أنفسنا في بقعة رملية لكنها لم تشكل عائقاً في طريقنا. وبعد أن توقفنا لبعض الوقت لأخذ بعض القراءات المسـاحية ومعرفة الاتجاهات توجـهنا نحو الجنوب حيث وصلنا إلى خربة أبي السعود، ومن ثم عـدلنا اتجاهنا ناحية الشمال وبعد مـسيرة ٧-٨ أميال من عدوان. والآن الساعـة الرابعة مساء وقد قـررت أن نقضي ساعتين قـبيل الغروب لتفحص الأطلال قبل أن نلتقي برفاقنا من قافلة الجـمال عند بئر مسعودة الواقعة على بعد نصف ميل من موقعنا الحالـي وغرب وادي الماس، وفي المساء كنت سعيداً لأخلد للنوم بعد نهار عمـل مليء بالنشاط ولكنهم نادوا عليّ لمباشرة أحد مشـاكلنا اليومية. وتبين لي أن كل المخزون من التمـوينات قد نفد فجأة. وتساءلت كـيف يقوم سعد بن معـيلم بتـبديد تموينات تكفي لـمدة ثلاثة أسابيع في خـلال أسبـوع واحد مما جـعلني

[1] المقصود: الإمام سعود بن عبدالعزيز بن محمد بن سعود. (المراجعون).

أتشكك في نزاهته وفي كفاءته، ولكن علينا إيجاد الغذاء لبقية الرحلة؛ ولهذا قررنا أنه بعد العشاء أو في الصباح الباكر أن يذهب ابن مدعار إلى أسداس -إحدى القرى في وادي رغوان- ليأتي بما يمكن أن يحصل عليه. وفي الواقع لم يجد شيئاً هناك فذهب إلى خربة آل جدعان حيث أحضر منها التمر وحبوب القمح، وكذلك تحذيرات الأهالي هناك بأنهم لا يريدون رؤية وجوهنا. ولم يتبق لنا سوى قليل من الأرز في السيارة ونفد كل ما عندنا من اللحوم لذلك ليس هناك ما يدعو للتذمر من الجوع طالما بدنا كل مخزوننا الغذائي.

وفي الصباح الباكر أخذت حماماً ساخناً واستبدلت ملابسي داخل تعريشة شكلت بواسطة شجيرات الأثل المتشابكة. وبعدها قمت بعمل مسح طبوغرافي ودراسة لوضع رحلتنا وطبيعة المناطق التي حولنا وعلى بعد ١٠٠ ياردة من المكان الذي أقف فيه عند قاع وادي مسعودة تقع بئر مسعودة الوحيدة وهي ذات فوهة واسعة خالية من أي دعامات حجرية وتصل إلى عمق أربع قامات. والحصول على المياه هنا يعتمد بصورة كلية على مياه السيول الموسمية أو ما يعرف بالكارة. ويجري الوادي باتجاه شمال شرق - جنوب غرب في هذه البقعة ويُحد على الجانبين بضفاف رملية تكسوها بصورة مكثفة نباتات الأثل والراك والحرمل ونباتات أخرى. وينبع ذلك الوادي من مرتفعات حجاز أهل جدعان، وهي أرض تدخل في حوزة قبيلة نهم التي تعد جدعان أحد فروعها، وفي الطريق في اتجاه جنوب غرب تتصل أرض نهم بوادي حلحلان وهو اسم ورد في النقوش الحميرية التي جمعتها من هذه المنطقة بالقرب من مرتفعات عقشة حيث تعبر إلى وادي الجوف، ووادي رغوان نفسه -يسمى أيضاً وادي مخينيق- يأتي عبر ممر بين مرتفعات هيلان وجدعان حيث يمر بالجانب الأيمن من خربة آل جدعان.

وأسفل هذه المنطقة ينقسم وادي رغوان إلى فرعين رئيسيين (أو جنوباً) بواسطة قرية أسداس على جانبها الأيسر، ثم يدور بين الدريب وخربة أبي السعود حيث

يتصل بفرعه الشمالي الذي يمر عبر أطلال الفضية -عند جانبه الأيسر- والسحيل إلى الدريب على جانبه الأيمن. وكل هذه المنطقة تغطيها الأودية التي تكون دلتا عظيمة كانت في الأزمنة الماضية -اعتماداً على التحكم في مياه السيول بواسطة السدود- تشكل أرضًا زراعية واسعة تتخللها العديد من القرى. وتحولت الآن إلى أرض جرداء مقفرة تغطيها الكثبان الرملية التي تتخللها بعض البقاع الحصوية وإن كان وسطها لا يزال يمارس فيه بعض الزراعات البدائية. وثمة إشارة هنا وهي أن مستوى المياه الجوفية ضحل على مقربة من سطح الأرض ويمكن حفر الآبار دونما عناء. ويلاحظ أن السكان الحاليين للمنطقة قد فقدوا مقدرة أسلافهم في السيطرة على مياه السيول الموسمية والعنيفة أحياناً وباتوا يعتمدون في معيشتهم على الحبوب وحليب الأغنام والضأن. والشيء الوحيد الذي توارثوه عن أسلافهم هو الكرامة وعزة النفس.

وعلى مسافة قريبة إلى الشمال الغربي تقع سلسلة من الروابي المنخفضة تسمى النادر تشكل الحدود بين منطقة رغوان ومستوطنات وادي الجوف. وقد طلبت من ابن هضبان أن يرشدني إلى هذه الروابي لإلقاء نظرة على الجوف كما فعلنا من قبل في مأرب. وهذه المنطقة تستوطنها مجموعات بدوية. وأخطر ابن هضبان أن هناك جزءاً من قبيلته يجوب الآن هذه المنطقة. وكان لا يستطيع نسيان أن أحد أبنائه محتجز بواسطة الإمام في صنعاء مثل أبناء بقية زعماء العشائر في منطقة الأودية الشرقية وذلك كضمان لاستمرارية ولائهم للسلطة المركزية. ولكن ابن هضبان لم يكن خائفاً من أن يقول الحقيقة في أنه يمد يد العون إلى رجل (فيلبي) يتجول في هذه المنطقة. لذلك كان عليّ الاقتناع أن ما أشار إليه ابن هضبان هو حوض معين حيث توجد بعض قراه التي كانت يوماً ما مدناً عظيمة مثل الحزم وغيل ومتمة وغيرها.

ورافقني ابن هضبان في جولة تفقدية لأطلال مواقع رغوان حيث قضينا يوماً ممتعاً هناك. وبدءاً من مخيمنا وباتجاه المرتفعات الواقعة إلى أقصى الشمال من هيلان، عبرنا أرضاً زراعية صغيرة تقع في منخفض يبدو موقع مياه خلفي منعزل لوادي

رغوان. وعند المنحدر الصخري عند أقصى هذا الوادي وجدنا مبنى ضخماً منعزلاً مبنياً بأحجار خشنة غير مشذبة (دبش). ويتكون من قسم كبير وأجزاء أخرى صغيرة الحجم. ولوحظ أن ثلاثة مداميك فقط من البناء الحجري ما تزال شاخصة للعيان. ويشغل البناء برمته مساحة قدرها اثنان وعشرون قدماً وربما كان مخفر شرطة لحماية أمن الأرض الزراعية أسفل الوادي. ولم نعثر على أي نقوش في المبنى الذي يعرف باسم «الديرة» أو «ردم الدرية».

وبعد مسيرة ميل إلى الأمام من موقعنا وعند أعلى رابية بين هذا البناء والجانب الأيسر للوادي، دخلنا قرية كبيرة الحجم مهجورة وهي عبارة عن أطلال. وتبدو هذه القرية كما لو أنها كانت مأهولة بالسكان إلى عهد قريب. هذه القرية -كما أخبرت- تسمى الفاضية هجرت مثل قرية الدريب التي تقع عند أقصى أسفل الوادي. وعلى مقربة من هذه المستوطنة وجدنا بعض الرجال والنساء يسقون خرافهم وقد أبدوا امتعاضاً من وجودنا. ومباني هذه القرية مستطيلة الشكل بنيت من كتل حجرية غير مشذبة (دبش). وفي أحد الأركان الحجرية للمبنى الضخم يوجد حوض ضحل بيضوي الشكل يبدو أنه نحت في وقت قريب ليكون خزاناً لحفظ المياه. ويجدر التنويه إلى أن المستوطنات الزراعية في رغوان باستثناء خربة آل جدعان تتبع إلى أقسام مختلفة، دهم وآل مروان وآل شداد وهمدان من عشيرة ابن هضبان.

ومن هذا المكان (رغوان) يمكننا بسهولة رؤية أسداس المدينة الرئيسة لعشيرة دهم وهي تقع على بعد ميلين إلى جهة الجنوب الشرقي. وتحتوي هذه المدينة على منازل عادية ليست قديمة. لذلك قصدت أن لا أقف عندها واتجه فوراً نحو السحيل التي تقع على بعد ميل من موقعنا ويتوجب علينا عبور بعض المجاري المائية قبل بلوغها. وبصورة عامة فإنها تشبه خربة أبي السعود. وهي ذات شكل بيضوي وجدرانها الدائرية ما تزال سليمة وشيدت من كتل حجرية مشذبة من الحجر البازلتي الأسود. وتقع أطول محاورها موازية للوادي تقريباً باتجاه شمال شرق - جنوب غرب. وهناك

أثر لخندق كان يحيط بهذا الحصن؛ لذا يمكننا القول إنها قرية محصنة على جوانبها الثلاثة. وفي الركن الجنوبي وعلى امتداد الجدران المكونة للحصن فإن الرمال تغطي هذا البناء بشكل منحدر بحيث يتعذر رؤية المداميك السفلى. والملاحظ أن المخطط العام للجدران بجوانبها الأربعة بسيط ومسطح مع وجود زوائد مستطيلة موضوعة بشكل فواصل تبرز للأمام بحوالي ثلاثة أقدام من المخطط العام للبناء. ونجد أن الجدار الشمالي الشرقي متآكل بسبب الأمطار. ويبدو أن البوابة الرئيسة للحصن تقع في هذا الجانب. وعلى أية حال، فإن المبنى متهدم ومتآكل إلى حدٍ بعيد بحيث يصعب إعطاء فكرة عن التركيب البنائي. ولكن نلحظ أن أبرز مظاهر هذا البناء أربع لوحات تذكارية منقوشة بنقش واحد متكرر وموضوعة في وسط كل جدار من جدرانه، والنقش يسجل اسم صاحب البناء واسم المبني (أحد مكارب سبأ) واسم المكان، حرب (الاسم الحديث حريب جنوب مأرب). والجزء الداخلي لهذا الحصن يتكون من كتل من الأطلال دفنت في أكوام من الرمال. والعديد من هذه الأبنية تم تسقيفها وإصلاحها حيث استخدمها الرعاة والمزراعون في الأزمنة الحديثة، لكن من المستحيل -دون حفريات- إعطاء صورة صحيحة عن مخطط البناء القديم. وفي الجانب الشمالي الغربي لهذه الأبنية تتشتت الكسر الفخارية وكتل خبث الحديد مما يوحي بوجود ورش في هذا المكان لإمداد سكان الحصن باحتياجاتهم من الأواني. ومما لا ريب فيه أن السحيل وخربة أبي السعود مستوطنات عسكرية بنيت بهدف الدفاع عن هذه المنطقة التي تعد الخط الأمامي لمملكة معين. ويوحي وجود هذه الحصون بحالة من عدم الاستقرار في الفترة التي كانت فيها سبأ القوة الصاعدة في الجنوب تهدد دولة معين، وبعد قرن أو نحوه دان لها الأمر. وربما يرجع تاريخ الحصنين إلى حوالي ١٠٠٠ ق.م. وبما أن حصن السحيل قد بني بواسطة مكرب سبأ، فربما يوحي ذلك بأنه كان عبارة عن قاعدة عسكرية حدودية أكثر من كونها جهازاً دفاعيًا في دولة معين.

وفيـما يخص المنطقة حـول السحيل وخاصـة الجزيرة التي تكوّنت بفعل التـقاء مجـرى الوادي؛ تمتد بقعـة واسعة من الرمـال والترسيـبات النهـرية مما يوحي بوجود أراض زراعية واسعة قـديماً، استمر السكان الحاليون في استزراعـها ولكن بصورة غير متقنة ويعوزها التنظيم. ودون ريب فإن التلال الحجرية في هذه المنطقة عبارة عن بقايا مساكن فلاحين أو أبراج مراقبة لحماية المحاصيل الزراعية من النهب.
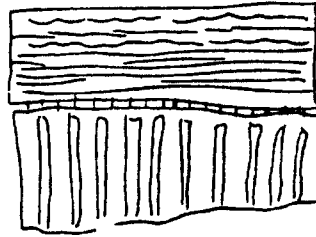
وعلى مسـافة تصل إلى حوالي الميل من مـوقعنا، تقع قرية الدريب التي نتـجه الآن نحوها عـبر طريق رملي في الوادي. ومن الجلي أن قرية الدريب كـانت مأهولة بالسكان في الأزمنة الحديثـة. وأخليت هذه القرية نتيجـة لانحسار السيـول كما نوهنا لذلك آنفاً. وعلى أية حال، كان هذا المكان هاماً جداً في الأزمنة الماضية ومعظم أبنية هذه القرية مـدفونة بكامل هيئـتها تحت الطوابق العليا للـمباني الطينية الحـديثة. وفي معظم الحـالات فإن الألواح والكتل الحجـرية للمباني القـديمة أعيد اسـتعمـالها لبناء أساسـات المباني الحديثة التي تتكون مـن عدة طوابق على هيئة حـصون. ويرجح أن يكون هناك معبد ذو أهمية عظيمة هنا، لاسيما وأننا عثرنا على إطار من حجر الرخام عليه نقش عند أعلى أحـد مداميك الجدران القـديمة الجيدة البناء والتي شيـدت لتدعم الغرفة العليا التي بنيت من الطين. ويلاحظ أن هناك عـدداً كبيراً من الألواح الحجرية الكبيرة التي تحوي نقوشاً استخـدمت دون استثناء في بناء المساكن الحديثة. ولا يوجد

أي دليل على وجود جدار محيط بالمبنى وربما كان غير موجود ألبتة في نظام البناء في هذا المكان. وتقع القرية عند تل مرتفع على الضفة اليمنى للوادي (السحيل) بعيداً بعض الشيء عن النقطة التي يلتقي فيها فرعا الوادي. ويبدو أن الطبيعة المقدسة للمبنى كمعبد قد قللت الحاجة إلى تحصينه. وتشير النقوش التي بحوزتي إلى أن الاسم القديم لهذا المكان هو «كتل»، ويعني هذا الاسم حديثاً البيت (الصغير). وعلى الجانب الشمالي من المبنى توجد جبانة عربية تضم قبوراً ضحلة، وأعلى هذه القبور متآكل بفعل الزمن مما أدى إلى ظهور بعض الهياكل التي تغير لونها في بعض الأحيان. والموقع مغطى بالكسر الفخارية على هيئة أكوام نفايات كبيرة في المنطقة التي تقع بين القرية والجبانة.

والوصول إلى خربة أبي السعود من هذه المنطقة يتطلب اجتياز عقبة الكثبان الرملية المغطاة بالشجيرات الشوكية. وتبلغ المسافة إلى هذا الحصن الكبير خربة أبي السعود حوالي الميلين باتجاه الشمال الغربي. أما حصن السحيل الذي تعد مبانيه سليمة نسبياً مقارنة بخربة أبي السعود فيبدو أنه مكتف ذاتياً ومسور حيث تحيط به أربعة جدران. وبالنسبة لخربة أبي السعود فيمكن القول إنها عبارة عن قلعة لمدينة واسعة ويصعب تحديد أبعادها بسبب الكثبان الرملية الكثيفة التي تغطي أطلالها. ومن المحتمل أن المدينة كانت غير مسورة وتمتد حوالي نصف الميل من القلعة إلى رابية منخفضة باتجاه الغرب والتي دون شك تشكل درعاً واقياً للمدينة من السيول. والجوانب الشمالية والجنوبية -كما يبدو- غير محمية وتظهر للعيان كلياً أو جزئياً بعض أجزاء من المباني وكسر لألواح حجرية مخلعة. وفي الجانب الشمالي توجد جبانة عربية حديثة مغطاة بالرمال. وبينما كنت أتفحص أجزاء المدينة لفت انتباهي أحد المرافقين نحو شاهد قبر دفن ثلاثة أرباع أجزائه داخل الرمال ويبدو مربع الشكل، قصيراً وعليه نقش حميري. ولم أكن أود نبش القبر لأن هذه المسألة -بالنسبة للعرب مثل بقية الشعوب الأخرى- حساسة. لذلك ألمحت إلى الرجل بأنه إذا استطاع أن

يحضر لي شاهد القبر في الخيمة سوف أعطيه ريالاً. وفعلاً أحضر لي شاهد القبر ليلاً والآن يقبع داخل المتحف البريطاني. ويعد نقش هذا الشاهد هو الوحيد الذي وجد خارج القلعة. ولكن قمت بنسخ العديد من النقوش سواء تلك التي وجدت على الأبواب الخارجية أو في العديد من الأطلال داخل المبنى والتي سوف أقدم وصفاً لها في الوقت المناسب.

وتبعاً للنقوش التي بحوزتي، فإن اسم هذا المكان هو يلت (YLT) -قارن إيلات، بالقرب من أزيون جبر في خليج العقبة-. واسمها الحديث هو أطلال سعود نسبة إلى الروايات المحلية التي ترجعها إلى أيام سعود الكبير الذي اجتاحت جيوشه الوهابية كل هذا القطر في العقد الأول من القرن التاسع عشر. وتجدر الإشارة هنا إلى عائلة من الأشراف في مأرب يبدأ اسمها بـ "ابن سعود". ويبدو أن هذا الاسم المسبوق ببادئة (ابن) تدل على النسب قد أعطي على شرف ذلك العاهل (سعود الكبير) في الزمان الماضي. وأنوه هنا إلى أن الفرد العربي سريع في تبني الأسماء الشائعة في زمنه لأطفاله. ومثال لذلك الاسم (فيصل) حيث إنه اشتق أصلا من اسم أحد رجال العائلة السعودية الحاكمة ومن ثم أصبح شائعاً في الوقت الحاضر كتقدير وإجلال إلى ملك العراق الأول. والاسم (لورنس) كان يعد موضة لدى عرب ما وراء نهر الأردن[١]. وهناك أيضاً اسم فيلبي -أو كان لأنه لم يعش طويلاً-، في نجد وحتى أسماء مثل كاماندر (القائد)، متر (سيارة) مألوفة[٢].

---

(١) لورنس هو المعروف بـ «لورنس العرب» وهو أحد رجال المخابرات البريطانية الذين عملوا في البلاد العربية وكان وراء تأجيج الثورة العربية ضد الدولة العثمانية وللمزيد عن حياته وأعماله انظر:

لورانس في البلاد العربية، من تأليف ريتشارد الدغتون، ترجمة محمود عزت موسى مراجعة محمد أنيس، الدار المعربة للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٦م. (المراجعون).

(٢) لم يشتهر في نجد ولا في غيرها من البلاد العربية أن تسمى أناس باسم فيلبي، وإنما اشتهرت أسماء مثل لورنس في شرق الأردن، وذلك راجع إلى أن هذا الاسم ومن تسمى به تجمعهم عقيدة واحدة وهي النصرانية، وإن تسمى به بعض المسلمين، فعن جهل منهم. (المراجعون).

تركت وصف قلعة خربة أبي السعود إلى نهاية هذا الفصل لأنها أهم مبنى أثري في منطقة رغوان وإلى حد ما لأنها الموقع الذي استطعت أن أقوم بفحصه بدقة في ليلة وصولي وعند نهاية اليوم الثاني لزيارتي لهذه المنطقة. وكما ذكرت سابقاً فإن هذا المبنى يقع وسط بحر من الرمال حيث تصل موجات هذه الرمال إلى جوانب جدران المبنى. وفيما عدا أماكن قليلة، فإنها تغطي المداميك السفلى للبناء المشيّدة بحجارة البازلت السوداء. وكل حدود المبنى الخارجية كانت ظاهرة للعيان بالرغم من أن هناك العديد من الأقسام كانت تالفة ومتآكلة بصورة كبيرة سواء بواسطة الزلزال الذي يبدو أنه صدع الجانب الداخلي للمبنى أو بواسطة الإنسان أو بواسطة السيول، كما ينعكس ذلك في معظم الجزء الشرقي من الجدران. والحصن ذو شكل غير منتظم، يبلغ ارتفاع جداره الشمالي الغربي ٤٠٠ قدم رابطاً الركنين الشمالي والغربي للبناء. وعند الركن الشمالي للبناء يوجد جدار يبلغ ارتفاعه ٤١٠ أقدام يمتد باتجاه الجنوب الشرقي مع ميل قليل باتجاه الشمال. وبحوالي ١٠٠ قدم من هذا الركن نفسه، توجد البوابة الرئيسة للحصن والتي يبلغ عرضها أربعين قدماً، وهي الآن مجرد فجوة في الجدار دونما أي إيماءة تشير إلى أنها كانت بوابة أو ملاحق لها. والجدار الشرقي يمتد باتجاه جنوب - الجنوب الشرقي لمسافة ٢٨٠ قدماً ثم باتجاه جنوب - الجنوب الغربي لمسافة ٣٢٠ قدماً ناحية الركن الجنوبي للبوابة.

والبوابة الثانية عرضها عشرة أقدام وتقطع الجدار عند ارتفاع ٩٠ قدماً من الركن الغربي وتشرف على البوابة الرئيسة التي ترتبط بها عن طريق شارع فسيح. وكما هو الحال في السحيل، فإن أقسام الجدار تقف خارج الخط العام لمحيط المبنى على هيئة فواصل موزعة على مسافات قصيرة وبعمق ثلاثة أقدام بحيث تسمح للجنود برمي منتظم للنار من أي نقطة. ويمكن القول استناداً على المؤشرات البادية للعيان إن الجدار الدائري حول المبنى يصل ارتفاعه ٢٠ قدما ويتكون في معظم أجزائه من ١٦ مدماكاً من الأحجار الجيدة القطع الموضوعة بشكل متقن بالرغم من أن بعض أجزاء البناء

مشيّدة من حجارة رملية غير مشذبة (دبش). ومعظم المباني العامة داخل الحصن مبنية من هذه المادة نفسها. وهذا المبنى لا يحوي أي شيء يمكن أن يقال: إنه يشكل أجزاء ناتئة أو أبراج تزيينية في محيطه الدائري. لكن يلاحظ بالجدار الغربي للمبنى قرب الركن الشمالي ممر يحيط به سور متهدم. ويبلغ عرض الممر ثمانية أقدام ويقود للداخل بمسافة ٥٠ قدماً. ويصعب التكهن بمعرفة الهدف من هذا الممر ولكن ربما كان مرتبطاً بحجرة حراسة، ويستخدم لدخول وخروج فرق الحراسة في الأوقات التي تكون فيها البوابات مغلقة. ولا نستطيع الجزم عما إذا كانت هناك بوابة ثالثة عند زاوية الجدار الشرقي بسبب الوضع الحالي لأطلال المبنى. ويبلغ السمك العام للجدار الدائري حوالي أربعة أقدام. وعثرت على ثلاثة نقوش على الجانب الخارجي لهذا الجدار في نقاط مختلفة، ويبدو أنها ليست في وضعها الأصلي.

لقد ذكرت سابقاً الطريق الرئيس الذي يربط بين البوابتين في خربة أبي السعود. ويلاحظ أن البوابة في الجانب الشمالي ذات فتحتين وبحالة سليمة. وهناك طريق ثان يبدو أنه يمتد من هذه البوابة بميلان عبر الحصن يحتله تل كبير الحجم يوحي بأنه موقع للحراسة. وعلى جانبي هذا التل توجد آثار طريق ربما كان حلقة الوصل بين هذا المكان والبوابة الشرقية من جهة والبوابة الغربية من الجهة الأخرى رغم أن الطريق الأوسط في الحصن يبدو مغلقاً بواسطة رديم أطلال المباني. ولا يستبعد أن يكون هناك طريق ثالث يبدأ من الركن الجنوبي للبوابة الرئيسة ليكمل حلقة المواصلات داخل الحصن. ويوجد كوم من الرديم يحتل المساحة في الركن الجنوبي للحصن وربما كان بيتاً للحارس. وعلى جانبيه علامات شارع ربما يوصل هذه-النقطة بالمدخل الشرقي من جهة والمدخل الغربي من جهة أخرى. هذا بالرغم من نظام الطرق الداخلية في وسط الحصن قد طمرته رديم المباني المهدمة.

باتجاه شمال الركن الجنوبي توجد كتلة من الرديم تنحدر من الجدار الغربي باتجاه الطريق المتجه شمالاً. وعند منعطف الجدار الشرقي توجد كتل ضخمة من الرديم

وأخرى كبيـرة من الحجر الصابوني تدعم الفرضية القـائلة بوجود بوابة في هذه الجهة في حين أن هناك مجموعـة من المباني الهامة المشيّدة بالحـجر الرملي توجد في الركن الذي يكوّنه التقاء كل من الجـدار الشرقي ونظيره الغربي. وأكـبر هذه الأبنية يبلغ ٤٠ قدماً طولاً و ٢٥ قـدماً عرضاً مع وجود نتوء ضـيق باتجاه الغرب، في حين أن المبنى الأصـغر ينتـصب في الزاوية التي تشكّـلت مع هذا البروز. ويصـعب الإجـابة على السؤال عما إذا كانت هذه الأبنية الناتئـة عن الجدار الدائري ذات أغراض دفاعية أو أن لها أهدافـاً أخرى، وما عدا بعـض هذه المباني الموجودة والكمـيات الكبيرة من كـسر الأواني الفخارية والمعثورات الأخرى التي تشـمل الهاونات والأحواض الحجرية، فإن الجزء الجنوبي من الحصن يخلو بتاتاً من أي مظاهر حضارية ذات أهمية.

والقطاع الشمالي الغربي من الساحة التي تحيط بها الجدران يعد أهم أجزاء المبنى حيث يقع بين البوابتين الرئيسـتين. وفي الجانب الغربي من الطريق -والذي يقع باتجاه جنوب غرب - شمـال شرق- هناك من يفترض وجـود مخفر حـراسة. وفي الجانب الآخر بين الركن الغـربي والبوابة الغربية ينتـصب بناء حجري ضخم طـوله ٢٠ قدماً وعرضه ١٠ أقدام. وما عدا هاتين المجـموعتين لا توجد منشآت غرب الطريق. لكن نلحظ أن الفضاء بين هذا الطريق والجـدار تغطيه كميات ضخـمة من الألواح الحجرية والهاونات والكسر الفخارية وغيرها. وعند البـوابة الغربية نفسها وداخل الجدار يوجد بناء من الحجر الجيري يوحي بوجود مبنى ذي حجم متوسط مع ألواح حجرية طويلة. وفيما يبـدو أن هذا البناء يمثل بقايا بوابة كانت ذات أبعاد كبيرة. وفـيما يخص البوابة الرئيسة لا توجد آثار شاخـصة تدل عليها سوى فتحة ما تزال فـجوتها موجودة. ومن هذه النقطة تمتد مجـموعة من التلال وأطلال حجرية على امتـداد الجانب الشرقي من الشـارع الرئيس بدءاً من كومـة ردم صغـيرة عند ملتـقى الشارعين تؤدي إلى البـوابة الشرقية والركن الجنـوبي على التوالي. وعند هذه البوابة (الشرقية) يوجـد هاون كبير من الحجر الرملي مهشم. وتوجد مباشرة خلف هذا الركام -وفي الزاوية التي تقع بين

الجانب الجنوبي والشوارع الرئيسة- كومة صغيرة من الرديم يقبع خلفها تل تتناثر فوقه كسر فخارية حول حوض ضخم أو صهريج مياه من الحجر الرملي منشطر إلى قسمين. وبعيداً عن ذلك وباتجاه البوابة الغربية توجد العديد من التلال التي سأرجع لوصفها لاحقاً. وعند البوابة الغربية نفسها وعلى جانبها الجنوبي بالقرب من الجدار، توجد أطلال منشأة حجرية ذات واجهة يبلغ طولها ٢٠ قدماً على امتداد الطريق وعرضها ١٠ أقدام.

عند مغادرتي خربة أبي السعود عند نهاية المسح الذي أقوم به لمنطقة رغوان، سوف أترك وصف مبانيها العظيمة ليتضمنها تقريري النهائي عن الأطلال. ومن بين العديد من التلال التي ذكرتها عرضاً، هناك معبد يلت الضخم (YLT Temple). وهذا البناء في الوقت الحاضر عبارة عن أطلال حجرية متناثرة ويبدو أنه قد تهدم بواسطة زلزال. ولا يزال هذا المبنى يحتفظ ببعض جماله وجاذبيته القديمة رغم أن أعمدته ومذابحه قد تناثرت على هيئة كسر وشظايا. وأعمدة هذا المبنى مربعة الشكل قطعت بنفس طريقة بناء سد مأرب وما جاوره من الأبنية. ومعظم بقايا هذا البناء من الحجر الجيري الأبيض اللامع الذي يشبه الرخام. وهذه الأعمدة الشاخصة للعيان يتراوح طولها بين ٨-٩ أقدام وأطولها يصل إلى ١٠ أقدام. والعديد من هذه الأعمدة تحمل نقوشاً معظمها مشظاه بسبب انشطارها. وهناك قطعتان من الحجر الجيري إحداهما عليها نقش، وكلاهما قد يكون الطبقة العلوية التي كانت ذات يوم تحملها الأعمدة التي يبدو أنها ضعيفة ولا تحتمل وزن تلك الكتل الحجرية التي يتراوح سمكها بين ١٥-١٨ بوصة. وكنت في ذلك الحين على رأي مفاده أن تلك الكتل الحجرية الضخمة عبارة عن مذابح حجرية رغم أنه لا يوجد أي دليل من مظهرها العام يؤيد هذه الفرضية. وبقية مباني المعبد مشيّدة من الأحجار الجيرية لكنها صغيرة الأحجام. والتل برمته مغطى بكسر فخارية وخلاخيل وقطع زجاجية وخرز وما شابه

ذلك. ويبدو أن المعبد لم يكن ضخماً ولكنه كان عبارة عن جوهرة من البهاء والجمال وسط الأبنية المدنية للحصن.

ورجعت إلى المخيم بعد مغيب الشمس منهكاً من جراء المجهود الذي بذلته في فحص الحصن (القلعة) والأطلال المكسوة بالرمـال التي تحيط بها. ولقد كنت حزيناً؛ لأن مرحلة من مراحل بعثتي (مهمـتي) قد انتهت. وفي الغد سنرجع إلى موطننا عبر نجران بعد انقضاء شهرين مليئين بالإثارة وسنقول وداعاً، وداعاً إلى الأبد لسبأ.

ارتفعت أصوات الحزن من فضاءات الرمال البعيدة

شـــــاحب وأخرس . . . ثم مرة أخرى وداعـًا

ملقـــــى في القبر مثل ضباب ساكن - وداعـًا

وبينمـا كنت أقوم بتـخزين الموجـودات التي عثـرت عليهـا في يلت (YLT) والمناطق المجـاورة لها، بدأت أتأمل في ذكـريات وأحداث الشـهرين الماضـين المليئة بالإنجازات وذلك منذ مغادرتي نجـران إلى عالم غير معروف يتـوق للشهرة من خلال النزاع والشغب. وقد جئت إلى هذا العالم بالكثير من الأصدقاء لنقر بكلمة شكر، لا لنبدي ملاحظة خصام عن عدن الصاخبة.

لقد حققت هذه الرحلة نجاحاً عظيـماً، وهنا سوف أقضي آخر ليلة لي في هذه البقعة التي لم يرها أوروبي سوى مـرة واحدة. وكنت قد أخذت معي في هذ الرحلة تقرير هالـفي عن رحلته في بلاد سبـأ ونسخـاً من نقوش هذه المنطقـة. وضمن هذه النقوش توجد العديد من الكتابات التي توجد بها عبارة خربة أبي السعود. ولكن بعد اطلاعي على تقريره الخـاص عن الطريق الذي سلكه عبر منطقة رغـوان، شعرت في الحال أن ما كتبه هالفي يجانب الصـواب. ومما لا شك فيه أنه قد عبر هذه المنطقة من الجوف إلى مأرب وشـاهد العديد من المواقع والأطلال الأثرية وجمع منهـا الكثير من النقوش. وأحد هذه النقـوش يذكر اسم فاثيا Fathia -والذي افترض أنه يطابق اسم الفاضية Fadhiya المذكور أعلاه- وخربة آل السعود. ولا أستطيع أن أجد علاقة بين

وصف الطريق الذي سلكه وما أعرفه عن هذا الطريق استناداً إلى خبرتي. وقد تبادر إلى ذهني أن ذلك الاختلاف يعزى إلى أن الدليل الذي اصطحبه من مدينة الجوف قد أمده بأسماء عشوائية لمواقع لم يزرها قط. ويجدر التنويه إلى أنه لم يذكر أنه زار السحيل أو الدريب التي لا يمكن أن يكون قد أخفق في التعرف عليها وهو في طريقه من الفاضية إلى خربة أبي السعود. ورجعت إلى نقوشه ووجدت أن لا علاقة لها بالنقوش التي جمعتها من هذه المنطقة. ولم أتعرف في رحلتي على موقعي فضية وخربة أبي السعود اللتين ذكرهما في تقريره. ولكن ذكر لي ابن هضبان أن فضيا عبارة عن بئر في وادي أبراد. وبالنسبة لخربة أبي السعود فإنها -كما يرى هالفي- محطة يرتادها آل عبيدة في طريقهم لاستخراج الملح في صافر ويتزودون منها بالمياه.

ولم أزر خربة آل جدعان أو أسداس فكلاهما ومواقع أخرى غير مدوّنة ربما تكون قد أمدت خربة أبي السعود بهذه النقوش. من المؤكد أن لا علاقة ألبتة بين نقوشه والنقوش التي جمعتها. وذهبت للنوم مع اقتناعي الشديد بأنني -من المؤكد- أول من كشف أسرار يلت (YLT) وحرب (Harb) وكتل (Katl) مدن المعينيين القديمة.

الفصل الثالث عشر

العــــودة

جاءتنا مجموعة صغيرة من رعاة عبيدة من عشيرة جردان خلال النهار للحصول على بعض الماء وأمضت الليل معنا وشاركتنا طعام العشاء. ورجع ابن مدعار قبيل غروب الشمس ومعه تموينات غذائية من خربة آل جدعان كما أحضر معه أيضاً خروفاً. وتأخر العشاء كثيراً بسبب احتياج اللحم إلى وقت الطهي. لذلك تأخرت خطتنا في أن نبعث بقافلة الجمال خلال الليل حتى تصل إلى بوع في اليوم التالي. لا أعلم إن كان بسبب العشاء الجيّد أو الكسل المجرد فلم يبدأ "آل هندي" إلا عند السادسة صباحاً. ولهذا لم يجد الآخرون الاستعجال مناسباً. وعند الصباح تناولت طعام الإفطار بارتياح وكان يتكون من الخبز والبازلاء التي قام بطبخها ابن هضيل كما احتسينا بعض الشاي. وفي الليلة البارحة زارنا أحد الصبية من قرية عبيدة مع والدته وأعطاني زبدية من الحليب. وبعد أن تناولت طعام الإفطار عادني الصبي نفسه وهو يحمل طاسة من الحليب فنفحته هذه المرة جائزة مناسبة.

وبعد فترة وجيزة جاءتني شقيقة الصبي وهي جميلة الوجه. وبعد أن وقفت لفترة وهي تتأمل السيارة ويجول ناظرها داخل المخيم تفحصاً لمحتوياته. ومن المؤكد أنها جميلة الوجه، جيدة البنية ويحتمل أنها تحت الثلاثين من العمر. وكانت تتحدث بأسلوب طيب وبصوت عميق أجّش. وكان الجزء الأسفل من وجهها فقط هو الذي يغطيه النقاب مع وجود حلي فضية ونحاسية كانت تزين أذنيها. وفوق خمارها الأسود كانت تضع عقالاً يتدلى منه سلاسل. وكانت عباءتها تماثل نظائرها التي ترتديها نساء نجد، خشنة ومصبوغة بالنيلة الزرقاء. وخاطبتني قائلة: «هل سترحل اليوم؟» فأجبتها قائلاً: «نعم، سنرحل اليوم قاصدين مكة». وبشيء من الرغبة قالت: «أتمنى أن أذهب معكم إلى مكة» فأجبتها: «لماذا إذن لا تذهبين معنا، سوف آخذك في سيارتي إذا وافق زوجك»، وقالت لي: «كنت متزوجة ولكن الآن طالق» فرددت

عليها: «إذن لماذا لا تتزوجين مرة أخـرى؟»، فقالت: «لأنه لا أحد يرغب في الزواج مني»: «ولكن لماذا؟» فقالت لي بالحرف: «بيـقولون إني ماني زينة». وعلى أية حال، كانت جميلة المنظر وامتنعت عن مواصلة الحديث في هذا الموضوع واقترحت عليها أن تأخذ موافـقة أمها لزيارتها المقتـرحة إلى مكة. وقد تأكدت إنها كـانت واحدة ضمن خمسة عـشر طفلاً، عشر بنات وخمسـة أولاد، ينحدرون من أم وأب واحد. وأثناء وجودها مـعي جاءت والدتها لتـرى عما إذا كـان قد أصابهـا مكروه. وأعطيت هذه الشابة بعض قطع الفضة والملابس كما حصلت والدتها على ريال ومن ثم اختفيتا عن الأنظار.

وعند الساعة التـاسعة والنصف (في الخامس من أكتـوبر ١٩٣٦م) تحركنا باتجاه الشـرق على الجـانب الأيمن من وادي الماس الذي ينحـدر تدريجـيـاً على يسـار خط سيرنا. وتتمـيز التضاريس في هذه البقعة بـأنها عبارة عن سهول غيـر مستوية تعلوها طبقات خفيفة من الحصى. وبعد مسيرة أربعـة أميال تتغير التضاريس إلى كثبان رملية إلى أن نصل المنطقة التي يلتقي فـيها وادي الماس بمجرى مياه وادي حلـحلان. وعبرنا المجرى الأخير الذي يقع على بعـد سبعة أميال من معسكـرنا وميلين من نقطة التقائه بوادي الماس. ويتجـه هذا المجرى المائي حلحـلان ناحية الغـرب فالشمـال الغربي ثم ينحرف إلى جـهة الشمـال الشرقي قليلاً عـبر روابي عقـشة ليتـصل بوادي الجوف. وواصلنا المسير باتجاه الشرق فالشمال الشرقـي عبر سهل حصوي تتخلله بعض أشجار السرح والأكاسيا حيث لمحنا سرباً من طيور الطيهوج. وأطلقت النار على إحدى هذه الطيور وعند إمساكها اندهشت لكمية المياه المتدفقة من فمها.

وصلنا إلى طرف مجـرى وادي الجوف بعد مسيـرة ١٢ ميلاً من بئر مـسعودة. ومررنا بالعديد من فروع هذا الوادي إلى أن دخـلنا غابة كثيفة من شجيـرات الأكاسيا التي يتـراوح ارتفاعهـا بين ١٠ إلى ١٥ قدمـاً. ولدهشتنـا وجدنا جمـالاً ترعى هذه

الشجيـرات مع وجود دعامات الأمـتعة على ظهورها واكتـشفنا لاحقاً أنهـا جمالنا. وكانت الساعة الحادية عشر والنصف في وقـت قائظ الحر عندما سمح الجمالون -من عشـيرة آل هندي- للإبل بأن ترعى وتقتـات بعض العلف. واخترنا بعض الأشـجار الظليلة لقضاء وقت القيلولة . ووصلت درجة الحرارة عندة الظهيرة إلى ٩٥° لكن كان الجو طيـباً تحت ظلال الأشـجار. وتناولت طعـام الغداء الذي كان يتكـون من المانجو واللبن المعلب والبسكويت والشاي وأخلدت بعدها للنوم. وفي حوالي الساعة الواحدة بعد الظهر تحركـت قافلة الجمال التي يقودها أفراد من عشـيرة آل هندي. وبعد ثلاث ساعات لاحقة تحركنا في اتجاه مسارهم.

ولم أمض وقتـاً طويلاً لأخذ القـراءات المساحـية للوادي الذي كان يـقع باتجاه الشمال الغربي - الجنوب الشـرقي عبر مسارنا. وتتميـز تضاريس الوادي بوجود رمال ناعمة يتخللها نزر يسير من شـجيرات الأكاسيا. ونلحظ أن منظر الأطراف الناتئة من رابية اللوذ يبرز للعيان على يسارنا ويستـمر إلى مرتفعات زويرة. ويجدر التنويه أيضاً إلى أن كلا من هنّـا والجمرة تظهـران للعيـان بوضوح ضمن المناطق التـي تقع أسفل الأودية في ذلك الاتجـاه. وبإلقاء نظرة إلى الأمـام باتجاه وادي الجـوف والجبـال على جانبيه باستطاعتي أن أرى المنطقـة الجبلية التي نود بلوغها، وتشمل اللوذ، وقُدام وأم عربي وهي إما أن تكون منفصلـة عن مرتفعات اليمن الرئيسة أو منطقـة شبه منعزلة. والملاحظ أن المنحدرات الغربيـة لجبال هذا القسم تنحدر مياهـها باتجاه الجوف. ولكن الجزء الأعظم من هذه الميـاه يتجه شـرقاً ليتصل بالقـنوات المائية التي تصب في وادي خب الذي يصب في رمال الربع الخالي شمال جبال الريان.

تغيرت التضاريس من سهل حـصوي إلى أرض رملية حيث مررنا بمضيق يؤدي إلى منطقة جـبلية. وفي طريقنا كنا نلمح بين الفينة والأخـرى بعض الغزلان لكن لم نعرها اهتـماماً. وعند الساعـة الرابعة والنصف وصلت قافلة الجمـال التي كانت تقل أمتعـتنا بعد مسيرة ١١ مـيلاً من مخيمنا. وهناك هضـبة العراقيب الطويلة المنخـفضة

الارتفاع وهي تقع إلى يسار مسار قافلتنا وخلفها يقع جبل اتكاما الذي ينحدر منه واد باتجاه الجنوب الشرقي ليتصل بوادي الجوف. وبعد فترة قصيرة لعبورنا هذا الوادي وجدنا أنفسنا عند أسفل وادي وسط أحد فروع وادي الجوف حيث بقينا لبعض الوقت. ووصلت إلى هذا الموقع الطلائع الأولى لقافلة الجمال بعد الساعة السابعة مساء مباشرة حيث اجتازت حوالي ٢١ ميلاً في خلال ست ساعات. ويبدو أن وعثاء السفر عبر الصحراء قد جعلت أعضاء الفريق المرافق لي وكأنهم في الستين أو السبعين حيث باتوا يسيرون دونما نظام أو انضباط. أما سعد بن معيلم فيبْدو أنه قد فقد السيطرة على نفسه. وكانت معظم الأمتعة الثقيلة على ظهور الجمال. وكان سعد لا يهتم كثيراً بأدلاء قافلة الجمال من عشيرة آل هندي الذين كانوا كثيراً ما يتذمرون من نقص القهوة والسكر بعكس مجموعة النجديين الذين كانوا لا يواجهون أية صعوبة في الحصول على هذه الأشياء التي كانت تعد من الكماليات. وربما كان الضغط النفسي الناجم عن الرحلة الطويلة سبباً لهذا التذمر. وربما كان ذلك يرجع إلى طبيعة العرب فعند اقتراب نهاية عملهم يكونون أكثر انفعالاً.

ووادي وسط في هذه النقطة يبلغ اتساعه نصف ميل في المنطقة الواقعة بين هضبة حجيلة على الضفة اليمنى وأسفل جبال الهضبة العليا. وتنتشر في الوادي الكثير من أشجار الراك والبال والأكاسيا الشوكية. وتكثر في هذا المكان فراشات الصحراء التي كانت تحوم حولنا محدثة أزيزاً وتحاول أن تمتص قطرات المياه المتدفقة من أوعية المياه الجلدية (القِرَبْ) التي بحوزتنا. وفي الصباح الباكر رأيت أسراباً من طائر الشمس القادمة من وادي النيل وهي تحوم حول أغصان وشجيرات الأكاسيا. فضلاً عن ذلك، قمت باصطياد طائر من فصيلة الأبلق (أبو بليق) والذي رأيت مثيله في شبوة وفي مرتفعات العلم عند أقصى شمال نجران.

وقبل أن نستأنف رحلتنا صعدت إلى قمة هضبة حجيلة لعمل مسح للمناطق حولنا ومعظمها أراض جديدة لم نرها من قبل. وفي غضون ذلك تقدمت قافلة الجمال

أمامنا نحو بوع مع تعليمات لإعطاء راحة لجمالنا التي أرهقتها الرحلة الطويلة. وذهب أيضاً ابن مدعار إلى عشيرته التي تخيم بين بوع والشضيف لهذا الأمر أيضاً. وثمة إشارة هي أننا الآن على ارتفاع حوالي أربعة آلاف قدم من مستوى سطح البحر وتبلغ درجة الحرارة ليلاً ٨٥° وفي منطقة آبار بوع التي ترتفع حوالي ٦٠٠ قدم تصل الحرارة إلى ما يزيد عن ٩١°. ومما لا شك فيه أن هناك فارقاً كبيراً في درجات الحرارة بين الليل والنهار في هذه الصحراء. وهنا وادي وسط الذي ينحدر من هضبة بوع الجرانيتية. وعلى مسافة ميلين ونصف الميل من مخيمنا، يتصل هذا الوادي بشعيب مسياب من الهضبة العليا. ومن نفس المسافة السابقة أمام موقعنا يوجد وادي حضرة الذي يتشكّل من التقاء كل من مجاري مياه شعيب عتبات من جهة الشمال - الشمال الشرقي ووادي بوع من جهة الشمال الغربي. والوادي الأخير يحد بجبال ضخمة ومجراه مليء بالغابات. وهنا وادي أم سلام الذي ينحدر من مرتفعات نصيف العالية. وخلف هذه الهضاب يقع وادي غمير الذي يندمج مع وادي الملاحة ثم وادي أمواه إلى أن ينتهي في الصحراء.

وقبالتنا مباشرة من مكان جلوسنا في قمة هضبة حجيلة، فإن الضفة اليسرى لوادي وسط تتميز بوجود مناظر لروابي منخفضة وجبال برقاء الضاحي، الدحلات ومبادي الشريف، وبين هاتين المجموعتين من الجبال يوجد ممر رملي يقود إلى سهل جو المليس الصحراوي، ويلاحظ أن هضبة خسفة تفصل كلاً من مجرى وسط ووادي إتكاما الذي يصل إلى وادي الجوف بمفرده. وهناك مجموعة وادي بحر الشديدة الانحدار والتي تعد من أكثر المرتفعات البارزة في هذه المجموعة الجبلية. وخلف هذه المجموعة (بحر) توجد جبال شعب الأسود وروابي لبانات الواقعة قرب وادي الجوف وهي تقع مباشرة جنوب موقعنا الحالي في هضبة حجيلة. ومن هذه المنطقة أيضاً يمكننا رؤية أراضي سبأ وقمم خَرَج التوأم ولسان حيلان الصخري الممتدة نحو البحر فضلاً عن خربة أبي السعود ووادي عدوان. وأسفل روابي الدحلات على الضفة

الغربية من وادي وسط الذي تحده جبال الهضبة السفلى العالية ورابية الصعرة. وعلى مقربة من جانبيها توجد مرتفعات نصلة حنيش. ولم نستطع أن نرى جبال العلم لكن إلى جهة الشرق مباشرة توجد مرتفعات الضلع، ورقمة، والنسرين والشهلا. وأشار إليّ ابن هضبان نحو -تقريباً ناحية الشمال الغربي- واحة خب التي تشمل قرى دحل أسفل الوادي. وأقرب قرية بالنسبة لموقعنا هي غيل سبتان أعلى الوادي. ومن جهة أخرى، فإن قرى محجل والمعقر تقع عند أقصى أعلى الوادي بالنسبة لقرى خب. وهناك الحزم في واحة الجوف التي تعد العاصمة الحديثة ومقر الحاكم وتقع باتجاه الغرب - الشمال الغربي بالنسبة لموقعنا الحالي.

كان مسيرنا غير منقطع عدا نصف ساعة قضيناها لإصلاح إطار السيارة. ووادي بوع وعر المسالك حيث تتخلله العديد من كتل الرمال التي تصلب شجيرات الثمام، علاوة على المجاري المائية الموسمية التي يجب أن نعبرها في طريقنا. وهناك العديد من شجيرات المرخ والأكاسيا. وعند اقترابنا من بئر للمياه في هذا المكان وجدنا العديد من الرعاة، رجالاً ونساء، كانوا يعرفون ابن هضبان حيث قدموا لتحيته. ومن جهة أخرى كانوا يحدقون في وجوهنا. ونصبنا خيمنا عند ظل أحد الصخور حيث قام رفاقي بذبح خروفين وسلخهما لوجبة الغداء،واختاروا مكاناً جيداً بعيداً من البئر لنومي. وبعد الظهر وقبل الفراغ من إعداد وجبة اللحم احتسيت كوباً من الشاي لينعشني، ومن ثم ذهبت لإلقاء نظرة على البئر.

ووجدت بعض النسوة قرب البئر وهن يسقين قطيعاً صغيراً من الخراف، فجلست للتحدث معهن. وكانت منهن امرأتان من عشيرة دهم، إحداهما ترضع صغيرها بينما تمد دلواً جلدياً للأخرى التي كانت تمتح الماء من بئر عمقها أربع قامات. ويلاحظ أن تجويف البئر الأسطواني الشكل مضفور بألواح جرانيتية. وضمن هؤلاء النساء كانت طفلتان إحداهما في الخامسة عشرة والأخرى في السادسة عشرة وهما من قريبات ابن مدعار. وسئلت عن سبب عدم حضور ابن مدعار معنا. وأجبت بأنه

حضر معنا هذا الصباح لكنه ذهب إلى أسرته للاطمئنان عليهم. وأعطتني المرأة التي كانت تحمل الطفل حليباً مما دفعني لمنحها وبقية النسوة هبات سخية.

وأثناء تجاذبنا أطراف الحديث جاءني اثنان من مرافقي الجمال من المجموعة النجدية وطلبا مني أن أشتري خروفين. وبرغم اعتراضي في بادئ الأمر على هذا الطلب بحجة أن الوجبة الغذائية قد تم إعدادها الآن وأن الوقت متأخر من الظهيرة، وبرغم عدم اقتناعي بأن المرافقين كانوا يعانون الجوع، إلا أنني رضخت في نهاية الأمر لمطلبهم لاسيما وأنهم عانوا كثيراً في الأيام الماضية. وتم شراء الخروفين بمبلغ ثلاثة ريالات للكل. وعند رجوعي للسيارة أحضر لي لحم مشوي بالصلصة كمقبلات أو وجبة خفيفة ريثما يتم إعداد وليمة لحم الخروف. وفي ذات الوقت قام بقية المرافقين بإعداد وجبة خفيفة لأنفسهم تشمل الكبد والقلب والكرش وأجزاء أخرى من الخروف. ولم أستطع انتظار الوجبة الرئيسة (لحم الخروف) وذهبت يرافقني ابن هضبان إلى الرابية الجرانيتية التي تقع بالقرب من مكاننا لأخذ بعض المعلومات الجغرافية عن المنطقة حولنا. وعند عودتي أحضرت لي وجبة تتكون من رأس خروف وقطعة صغيرة من اللحم وضعت في صحن. لكن رفضت أن آكل بمفردي وانضممت إلى مجموعة المرافقين في الوليمة الجماعية. وبعد برهة بدأ الجميع الأكل. وكان رأس الخروف وقطعة اللحم التي أحضرت لي سابقاً تعتلي كوماً غير شهي من الدخن المطبوخ بصورة غير جيدة. وأثناء الأكل كانت أصابع المرافقين داخل الطبق تدفع يدي يمنة ويسره، وكان الجميع يلتهم الأكل بنهم وشراهة مصطنعة. وعندما فرغ أحد الرجال من الأكل حمد الله وكذلك فعلت أنا. ونظراً لكل المقاييس سيما العربية فإن تصرف بعض جماعتي ينم عن أخلاق سيئة. ومن غير الكياسة تجاهل ذلك. وقد أخطرت سعداً بما أراه عن سلوكه. وكنت آمل أن يكون سوء التفاهم الذي نشأ بيننا جراء هذه المسألة ربما يفضي إلى إصلاح ذات البين ولكن ذهبت آمالي أدراج الرياح.

وربما أكون قد سمحت لهذا السلوك النزق أن ينتشر بين أفراد القافلة. وكيما يكون الحال فإن تراجعنا وتهاوننا أدى إلى تدهور الوضع بسرعة إلى شغب.

وكنت قد قمت بالتعرف على أحوال المنطقة التي حولنا حيث تبين لي أن الجبال عند الجهة الغربية لموقعنا لا تسمح لنا بأخذ صورة بعيدة من هذا الاتجاه. أما ناحية الجنوب، فإن إقليم سبأ لم يكن ظاهراً للعيان. وفي الجهتين الشرقية والشمالية، أمكننا رؤية مرتفعات وعير العالية والتي تقع خلف وادي خب فضلاً عن رؤية الربع الخالي الذي يمثل المد النهائي لإبصارنا من هذا الموقع. وفي هذا الاتجاه يبرز مرتفع الحيض بشكل جلي. وبالنسبة للمظاهر الطبيعية التي تقع على مقربة منا، فأمامنا مباشرة يقع وادي غمير يليه وادي أوبن. وعند الجهة الشرقية للطريق الذي يربطنا بهذه الأودية يوجد سهل السواد الذي تتخلله بعض المنكشفات الصخرية وحولنا توجد دائرة واسعة من الروابي تشمل مورة، خيل، أقطنة، مجراب قمم جبال سنبلة، والشضيف. وداخل هذه الدائرة الجبلية تبرز أعداد هائلة من المرتفعات الجرانيتية تشمل طويّل وبرادة وصابرين والصعرة والأحمر وصباح وغيرها. ويلاحظ أن مجرى وادي الخلفين يبدأ من فتحة جبلية من مرتفعات نصيف وخرشة ويعبر هذا السهل عرضياً ماراً بمحراب وصابرين إلى منطقة الجو. ونجد خلف أوبن أن سلسلة جبال برم وقمم جبال ساندر (سندر) التوأم وفارح تحدد مجرى وادي سرحان الذي يتصل بمجرى وادي خب عند طرف الصحراء. ولاحظت بعض الكتابات على هيئة مخربشات في وادي بوع الذي يبعد حوالي الميل من البئر. وتشكل هذه المعثورات الأثر الوحيد للوجود الإنساني في هذه المنطقة القاسية والمضيافة في ذات الوقت.

وكان الليل بارداً بصورة تدعو للدهشة حيث وصلت درجة الحرارة إلى ٤٠° فهرنهايت. أما في الصباح الباكر فقد كان الجو منعشاً مع شمس غير مرئية تماماً تنعكس بعض أشعتها على قمم جبال الأحمر في هيئة وردة حمراء ناضرة. ولم يرجع ابن مدعار من مخيم عائلته حتى الساعة التاسعة صباحاً حينما تحركت قافلة الجمال

التي تضم الجمال الجديدة والتي تم تأجيرها لإكمال ما تبقى من الرحلة إلى نجران. ولم يحدد ابن مدعار قيمة إيجار الجمال لكن أصدقاءه رفعوا سعر الإيجار مستغلين احتياجنا الشديد إليها. واقترح سعد مبلغ خمسة ريالات كإيجار معقول لكل من الجمال الثمانية التي نحتاج إليها حتى الوصول إلى نجران. واقترح بقية أصدقائه أن يكون سعر إيجار كل جمل سبعة ريالات ورغم ذلك لم يتخذ ابن مدعار رأياً نهائياً في الموضوع. وتركتهم يقررون ذلك بأنفسهم دون التدخل في هذا الأمر. وقرر المرافقون أن تكون وجبة العشاء لحوم الخروفين التي تم طبخها في الليلة الماضية. وفي نهاية الأمر قمت بنفسي بتسوية موضوع قيمة إيجار الجمال مع أصحابها دون الدخول في جدال مع المرافقين. وعند الساعة الحادية عشرة صباحاً استأنفنا المسير وتسلقنا منطقة جبلية متحدرة تؤدي في نهايتها إلى سهل الأسود وتتخللها الكثير من النصب الركامية. وبعد مسيرة أربعة أميال وصلنا إلى وادي غمير الواقع بالقرب من شمال خرشة ثم قطعناه وتوقفنا لقضاء وقت القيلولة. الذي كان طويلاً على غير العادة، خاصة وأن الجمال ما زالت وراءنا. وبالقرب من معسكرنا وفي وسط الوادي يوجد نبع مائي صخري وقر يسمى مريم. ومن هذه النقطة الصخرية التي نقف عندها أمكنني الحصول على منظر مختلف للجانب الجنوبي الغربي خلف الجبال التي لم يكن من المستطاع الرؤية عبرها من موقعنا السابق.

وينحدر مجرى وادي غمير من المنحدرات الصخرية لشعب الأسود ويجري خلال ممر يفصل بين مرتفعات خرشة نصيف وحبل المركبة والذي يوجد في السهل الواقع أمام نبع مائي يحمل الاسم نفسه. وإلى اليمين من جبل المركبة في الجهة الجنوبية الغربية لموقعنا الحالي يوجد جبل محوة الأسود ومنحدر صخري جرانيتي يسمى شاري، وعلى مقربة منه توجد هضبة ريدان. وعلى يمينها نلحظ جبل سويقة الذي يوجد أمامه نبع مائي يسمى دحيضة وهناك جبال قُدم التي شاهدناها من قبل من جهة الجنوب وهي تفصل هذه السلسلة من الهضاب عن مجموعة أخرى تكوِّن

الضفة اليسرى لوادي الجوف، شرجاب مع العديد من المنكشفات الصخرية الجرانيتية تشمل الشهلا والمضرة ومرهينة. وخلف هذه المرتفعات تظهر جبال اليمن التي تتراءى من على البعد دون أن أستطيع تبين معالم واضحة من هذا المكان. وإلى الغرب والشمال الغربي من موقعنا توجد مجموعة هضاب وقمم جبلية تكون خط تقسيم مياه بين الجوف وشعيب أوبن- مفلح مع ثلاث قمم تشمل عارين مع سلسلة الرس، وخالص. ويظهر شعيب أوبن ووادي السرحان في الرس وخالص وهما يستقبلان روافد مائية من المنحدرات الأخرى المشار إليها أعلاه.

وبعد أن قمت بعمل مسح للمنطقة التي حولنا، نزلت إلى الوادي للحاق ببقية رفاقي في مخيمهم الذي أقيم عند شعيب ضحل تغطيه الشجيرات. ووجدت أحد الرجال وقد قام بالقبض على أرنب بري صغير كان ينام تحت ظل أحد الشجيرات. وتعج منطقة المعسكر بالطيور من مختلف الأصناف ومعظمها آكل النحل وطائر الصحراء المغني رغم أنني قد وجدت طائر الدغناش في اليوم التالي في وادي أوبن. والهضبة التي اعتليتها لأخذ هذه المعلومات تتشكل من الجرانيت ويغطي سطحها العلوي طبقة بازلتية. وكان أمامنا شعيب حرمان وهو رافد من وادي غمير الذي ينحدر من هضبة ريدان الصخرية الشديدة الانحدار. وواصلنا مسيرنا إلى أن وصلنا سهلاً مستوياً لوادي أوبن. وهذا الوادي يتميز بالشجر الكثيف فضلاً عن أشجار الأكاسيا. وخلف هذا الوادي يوجد مجرى وادي الرس. وتركنا بقية رجالنا في المخيم وانطلقت وبمعيتي ابن هضبان واثنان أو ثلاثة من المرافقين لتسلق كتلة صخرية ناتئة من الجرانيت تقع بالقرب من مكاننا وذلك بهدف الحصول على منظر عام للمنطقة من على ارتفاع يبلغ ٢٠٠ قدم فوق مستوى سطح الأرض. وكان مدى رؤيتنا يمتد من وراء وادي وعير في الشمال إلى اللوذ والهضبة العليا في الجنوب. وكنا نرى ضوء الشمس الأخّاذ خلال المساء وهي تسلط أشعتها على سحابة عظيمة تظهر أطرافها كما لو أنها بركان يصب ناره في الفضاء. وقفلنا راجعين إلى مخيمنا في المساء. ومن المؤكد أن سمعتنا

كأناس نتسم بالشراهة في الأكل قد انتشرت على نطاق واسع. وأبرز دليل على ذلك أنني قبل أن أنزل من سيارتي متجهاً نحو المخيم اتجهت نحوي ثلاثة وفود من عشائر محلية وهذه الوفود من بدو دهم وعبيدة وقد طلبوا مني أن أقبل منهم بعض الخراف كهدايا منهم إلينا. وأحد هذه الوفود أحضر بالفعل ستة خراف وبقية الوفود أحضر كل منها خروفين. وقد قمت باحتجاج على هذا الإسراف والتبذير، لكن أصر هؤلاء على قبول الهدايا، بل هدد بعضهم بذبح الخراف أمامي بدلاً من إرجاعها معهم. وبعد جدال طويل اخترت خروفين للعشاء الذي تأخر كثيراً عن موعده، وأعطيت الموفدين هدايا سخية. وفي صبيحة اليوم التالي جاءني صبيان من مخيمات هذه القبائل وهم يحملون حليباً وفي المقابل منحتهم هبة سخية نظير خدمتهم.

وبينما يجري وادي غمير إلى جهة الجنوب من مرتفعات السنبلة التي تحدد مجموعة مناهل الشضيف - العريجا المائية. وفي نهاية المطاف يصبح اسم هذه المجموعة الملاحة -اسم بئر في مجرى الوادي- وتنضم إلى وادي أمواه خلف البقعة التي أمضينا فيها ليلتنا الأولى خارج الشضيف ووادي أوبن اللذين ينضمان لوادي الرِّس المار بين السنبلة ومرتفعات حمرة بحرة في اتجاه الشمال حيث يتغير اسمه إلى وادي الطرفاء. وخلف مجرى مياه وادي الرس، دخلنا في بقعة تتشكل من مرتفعات ومنكشفات صخرية من الجرانيت تتخللها بعض النصب الركامية الدائرية التي توحي بأنها آثار لحركة قوافل قديمة . وكما نوهت سابقاً، توجد مثل هذه النصب الركامية في المنطقة الممتدة بين بوع وأوبن. وفي تقديري أن النصب شيدت لتكون معالم بارزة تحدد الطريق بين درب الجوف وواحة خب. ولاحظت وجود نقش مهترئ بالخط العربي الحديث في إحدى هذه المنكشفات الصخرية ويبدو أنه الوحيد من نوعه في هذا الطريق.

وخلف وادٍ واسع ضحل دحل واجهنا عقبة في طريقنا، تتمثل في رابية منخفضة حيث اجتزناها بصعوبة بالغة إلى أسفل وادٍ صغير متعرج يسمى أم الذياب. وتعترض مجرى هذا الوادي الشديد الوعورة أعشاب خشنة وكميات كثيرة من

الشجيرات الصغيرة التي تؤدي إلى أسفله حيث يتصل بوادٍ متسع هو وادي سرحان. والآن نتابع مسيرنا عبر الطبقات الرملية لمجرى الوادي الأخير (سرحان) خلال مجموعات متفرقة من أشجار الأكاسيا والمرخ. وتتصل بعض المجاري الصغيرة (المسيلات) بالوادي من الجانبين وهي تؤدي إلى اتساع الوادي بين رابية مشنة والأطراف الخارجية لهضبة البرم، وتسلقنا الهضبة الأخيرة -على ارتفاع ٤٠٠ قدم- لمسح منظر المنطقة التي حولنا حيث تمكنا من رؤية لمحات عدة لوادي خب على امتداد المنطقة الممتدة من القمم المشرفة على الواحة إلى موقع مخيمنا القديم. وفي جهة الشرق يمكننا رؤية مرتفعات المعو. وفي الجهة الشمالية نشاهد علامات حدود كل من أم الشداد والطويلة.

ونحن الآن في طريقنا إلى الخط الذي يقودنا إلى الطريق الخارجي المؤدي -في الوقت المناسب- إلى معسكرنا القديم في وادي خب. وهنا وهناك يلاحظ آثار السيارات التي عبرت هذا الطريق قبل شهرين إلا أن معظمها قد تلاشى. ومرتفعات أبو داعر التي تقع على اليمين من خط سيرنا ذات لون قرنفلي تحت أشعة شمس الظهيرة في حين أن كثبان قنيفد المموجة الساحرة على يسار الوادي تعكس لوناً برتقالياً ساطعاً. وبينما كنا جالسين في مخيمنا وسط الشجيرات يعترينا شعور الحنين بالعودة للأوطان إذ جاءنا مبعوث من نجران يحمل برقيات من الملك. ويدعى هذا المبعوث الصيعري من عشيرة تسكن في صحراء نجران وكانت لديه تعليمات لا تقتصر فقط على معرفة مكان وجودنا بل أيضاً الرد على البرقيات. ولم تكن تلك البرقيات تتضمن أشياء مثيرة حيث إنها تتعلق ببعض أعمالي التجارية في مؤسستي في جدة. وانتهزت هذه الفرصة وأرسلت مع إجاباتي للبرقية رسالة إلى عائلتي تتضمن مسار رحلتي ونشاطاتي. وكان من المفترض أن تصل رسالتي للعائلة بواسطة أول بريد خارجي لكنها أعطيت إلى عامل اللاسلكي مع البرقيات. ورغم أنه يستطيع قراءة الحروف الإنجليزية الكبيرة، فإن كتابتي بالخط الصغير لم تساعده على قراءة خطابي؛

لذلك أرجعه إليَّ فور عودتي إلى نجران معتذراً عن عدم تمكنه من إرساله إلى لندن. وبما أنه من غير المحتمل أن يكون هناك بريد خلال أسابيع عدة قادمة، فإن ذلك لا يهم بتاتاً.

وبالرغم من زيارتنا إلى بوع فإن امداداتنا من المياه قد تقلصت إلى حد كبير بالرغم من تشككي في أن هذا الوضع ربما يكون ناجماً من عدم رغبة مجموعة أعضاء الرحلة في استعماله لغلي الدخن. وفيما يخص نصيب المجموعة التي ترافقني في سيارتي، فلدي عنز هزيلة كنت قد اشتريتها قبل مغادرتي أوبن وذلك للاحتفاظ بها كاحتياط في الوقت الذي كان فيه بقية أعضاء الرحلة يرون أنها يجب أن تكون مشاعة للجميع في حالة عدم توفر طعام. وأصدرت تعليمات بأن تكون العنز من نصيب أعضاء الفريق المتنقل بالسيارة وبقية المجموعة (قافلة الجمال) يقتصر طعامها على الدخن. ثم تحركت قافلة الجمال التي تحمل الأمتعة في الصباح الباكر للوصول إلى النقطة التي سنلتقي فيها عدا سعد بن معيلم وصاحبه النجدي اللذين بقيا معنا في المعسكر. بيد أنني أمرتهم باللحاق ببقية القافلة تفادياً من أي تأخير في وصولهم إلى مكان اللقاء في منطقة الينابيع في الصيح.

وفي غضون ذلك توفرت كمية من اللحم كافية لعشائي. أما بقية لحم العنز فقد خصص لأعضاء القافلة في المخيم وهم الطباخ ومحنط الحيوانات والسائق وضيوفي وهم: فرج بن قرقاح وصالح بن حزيق وحمد القردعي، وحسن بن هضبان. ويجدر التنويه إلى أن الأخير قد طلب مني مراراً -خاصة في بوع مسعودة- أن أسمح له بترك العمل والعودة إلى أسرته. وعلى أية حال، كان هذا الرجل مهماً للغاية ومصدر قوة للرحلة بصورة لا تسمح لي بالتخلي عنه بسهولة. ورغم ذلك فقد وعدته بأن أسمح له بالمغادرة عند وصولنا إلى خب. والآن جاءت اللحظة التي نقول فيها وداعاً لأحد زملائنا الذي قضى معنا سبعين يوماً في هذه الصحاري الموحشة. وقد كنت آسفاً لأقول له وداعاً. وقمت بمساعدة ابن معيلم بتجهيز حسابات ابن هضبان فيما يخص

عمله كمرشد للقافلة وإيجار الجمــال. وقد وصلت هذه المستحقات ٤٥ ريالاً وأعطيته فضـلاً عن ذلك جنيهين ذهبـيين مضـاعفـاً الهبة. وكـان قد حـصل أثناء الرحلة في حضرموت على عــدة هدايا. وفرح ابن هضبان بهذه الهبات الـسخية وأمطرني بوابل من الشكر والمديح على هذا الكرم. ومن المؤكد أن ابن هـضبان كان أبرز شخـصية من المرافقين لي . وفي المرة الأولى التي تعرفنا فيها عليه في الشضيف كان ابنه -مثل بقية أبناء زعماء البدو في اليمن- رهينـة في صنعاء لضمان حسن سير وسلوك والده. وعند وصولنا إلى مسعودة أخطرني ابن هضبـان أن الإمام يحيى قد سجن ابنه كإيماءة إلى عدم رضائه عليه (أي على ابن هضبــان) لمرافقتنا في هذه الرحلة. ولم أصدق في ذلك الحين هذه المقولة ولكن منذ ذلك الوقت تـرامى إلى مسامعي أن سلوكـه يجد ما يبرره في زعـمه أنه لا يستطيع أن يرفض طلبـاً للمساعدة وإكـرام الناس الذين يفدون إلى هذه المنطقة من طرف ابن سعود.

وكان ملك اليـمن غاضباً من زيارتنا إلى حـضرموت حيث كان ينحـو باللائمة على كل من السلطات البـريطانية وابن سعود. ونفث الإمــام حنقه وغيظه على قـبيلة دهم وطلب منها إعطاء تفسير لسلوكهـا وتعاملها الكريم معنا. وتجدر الإشارة إلى أن الذين تلقوا رسالة الإمــام من أفراد هذه القبيلة ولإظهـار ولائهم له، قرروا ذبحنا فور وصولنا إلى منطقـتهم بعد أن يسـتلموا موافـقة خطية منه. ولكن حـدث أن تجاهلت حكومة الإمــام هذا العرض بقتلنا وعلى العكس من ذلك تمامـاً استقبلنا بكـرم فياض عند رجوعنا مثلما كان عليه الحال في زيارتنا الأولى. والآن أتمنى أن يكون جلالته قد اقتنع أن زيارتنا لإقليمــه لم تكن بهدف شائن. وكان من نتـائج هذه الزيارة الاعتراف بأن هناك حدوداً قـبلية في الصحراء تسـاعد الحكومتين (السـعودية واليمنية) لتـحديد الحدود بينهما.

وفي هذا الوقت تبعاً للمـعلومات الواردة من الصحراء فإن قبـيلة يام السعودية تعد القبيلة الرئيـسة وسط المجموعات العربية الأخرى التي ترعى مـواشيها في المنطقة

الواقعـة إلى الشمـال من وادي خب. وحلّ جعـمل من عشيـرة آل هندي مكان ابن هضبان في السيارة في حين أن ابن مدعار أرسل إلى وادي أوبن لشراء تمور بمبلغ ستة ريالات من سوق وادي خب الأسبوعي وسنلتقيه في مـنطقة الصيح. ولكن ثمة كمية وافرة من اللحوم كانت بحـوزتنا بحيث إننا لن نحتاج إلى تلك التمور الجافـة كثيراً. واكتـشفت لاحـقاً أن هذه التمـور وما يماثلهـا يمكن أكلها لو حمـصت في النار لأن الحرارة تسيل السكر فيها وتجعلها طرية وبالتالي مستساغة.

وبينما نحن نقترب من خب تجنبنا طريق القوافل بمحاذاة الغور الواقع بين المنطقة الجبلية والكثبان الرملية عن طريق ثغـرة دائرية في الأخيرة. وبعد عبورنا للوادي اتجهنا نحو فضاء من الرمال بين كثبان قنيفـد وهضبة المضباح الأسود على شمالنا يقع وادي علّوب ووادي العيـينة وسلسلة جبال وعيـر. وهنا وهناك كنا في بعض الأحيان نجـتاز العديد من التلال الرملية التي تتناثر فوقها شجيرات العَبَل والأكاسيا وبعض الأعشاب التي يصل ارتفاعها إلى ١٥ قـدماً. وفي الطريق التقينا مجموعة من الـرعاة من عبيدة قادمين من الشمال للرعي في منطقة خب. وواصلنا مسيرنا عبر وادٍ عريض رملي هو وادي قضقـاض المنحدر من هضبة العيينة والـتي توجد عند طرفها الأقصى مجـموعة كثبان عـرق الطريف الرملية. وبعد اجتيـازنا لهذه البقعة بدأنا نسيـر في أرض سهلية صلبة تتخللهـا تلال العبل وبعدها دخلنا في غابة من أشـجار الأكاسيا الشـوكية التي تمثل الضفة اليمنى للجانب الشرقي لوادي (عتمة). وهذه المنطقة ذات طبيعة معروفة. وأصبح بإمكاننا الآن الحصول على منظر واضح للصحـراء الشرقية ذات الرمال الممتدة في فواصل منتظمـة كما يوجد بها قلـيل من الروابي الصخرية البارزة مـثل: الفهود، والقفل ومـخرودان. وهنا وهناك توجد بعض الـكثبان الرمليـة أبرزها عُرق الذياب. وإلى الغرب يمكننا رؤية هضبـة الظهرة التي أقمنا مخيمنا عند أسفـلها على مقربة من عيون ماء مضيق الصيح.

وبترك مجرى وادي اليتمة إلى جهـة اليمين، اتجهنا أسفل الوادي لمتابعة السير في طريقنا القـديم الذي تلاشت كل آثاره. ومن المرجح أن هـذا المكان شهـد هروب أدلاء الرحالة هـالفي وهو في طريقه إلى نجـران عام ١٨٦٩م إلى أن أنقـذته قافلة قـادمة من حضرمـوت. وهذه المنطقة تتجمع حولها أعـداد كبيرة من القبـائل البدوية بغرض رعي الأغنام. وتكثر هنا الآبار وسط جبـال قراء، وشخيبر، والواضح والصـحفة، والجوبة، والصيح، ومرتفعات أخرى. وبسبب عدم معرفة مواقـعها الحقيقية فمن المتعذر الوصول إليها.

وبعد مرورنا بهضبة قدم وعبـورنا لمجاري مياه شعيب -مدرك وأوبن التي تلتقي بوادي اليتمة، فـإننا نبتعد تدريجياً عن الأخيـرة لندخل بقعة من الروابي التي تقع على يمين وادي اليتمة. وهناك ممر واسع قادنا إلى تلك الروابي وعبر مجرى شعيب- الوجه -أحد فروع وادي اليتمة- المؤدي إلى بئر الصحفة عند رأس هذا الوادي في قلب جبل شخيبر مدرك. ووجدنا في هذه البقعة مجموعة صغيرة من الرعاة من قبيلتي يام ودهم تتناثر خيامـها على امتداد الوادي. وهناك نرى رجلا وامـرأة يسقيان قطيعاً صـغيراً من الضأن من بئر ذات فـوهة ضيقة وتجويف أسطواني مـضفور بالحجر ويبلغ عمـقها ٤٠ قامة وتسحب منهـا كميات قليلة من المياه. وتوقف ركبنا لقـضاء وقت القيلولة ونحن نتفـيأ ظل شجر السـمر. وأحضر لنا آنذاك أحـد صبية قـبيلة يام حليباً وعنزاً، فـقبلنا الهدية الأولى وصرفنا النظر عن الثانية.

وجاءني بعـد الظهر رئيس عـشيرة دهم وهو مـحمد النوفـي وذكر لي إنه ومنذ حرب اليمن فـإنه قد انضم إلى السيادة والنظـام السعودي مناصراً قبـيلة يام. وتقع بئر الصحفة في منطقة الصيح. وتتمتع القبائل في هذه البقعة بحرية حركة كبيرة خلال أيام السلم. وقد وجدنا مـجموعات من عشـائر بوع وعبيدة ويام ودهم شمـال بوع فضلاً عن عشائر الصيعر. ولم تكن في جعبة النوفي أخـبار هامة سوى أن وفد عشيرة جشم قد تحرك من نجران برئاسة أكبـر أبناء سلطان بن منيف للرياض بغية زيارة الملك. وبعد

قضاء وقت القيلولة وجدت أحد الجمال وقد قام بوضع رأسه في فخذي. وبصعوبة بالغة تمكنت من تخليصها منه بعد أن أشعلت عود ثقاب على فكه المنتفخ مما دفعه إلى فك قبضته وسحب رأسه.

يتسم وادي الصحفة بالاتساع وتكسوه الحصوات الخشنة، وفي أعلاه توجد هضاب من الجرانيت الأسود مثل: النسر ومعطل وهضاب أخرى - والتي تنحدر منها مجارٍ مائية غزيرة المياه وتصب في اليتمة، بين رابيتين متباعدتين. وخلف هذا الوادي باتجاه الغرب، فإن أودية سلبة وقعيف ونبيع تكون الأجزاء العليا لشريان مصرف المياه الرئيس لليتمة في المنطقة. ولمواصلة رحلتنا يجب علينا أن نختار -مع شيء من الحذر- أرضاً حصوية صلبة تتغير إلى بقعة رملية خلف روابي بردة السوداء أسفل الوادي. وبعد أن عبرنا قناة مائية غير مستوية المجرى وصلنا إلى وادي سلبة. ونلحظ أن بعض أجزاء السطح الرسوبي لقاع الوادي ناعمة وزلقة في حين أن ضفتي الوادي تكسوها كميات كبيرة من الأعشاب الشوكية وبعض الأشجار الكثيفة التي يصل ارتفاعها في بعض الأحيان ١٥ قدما. وفي هذه المنطقة قابلنا ثانية مجموعة من رعاة عبيدة الذين لم يندهشوا هذه المرة لسيارتنا رغم أنهم كانوا أكثر رغبة في التعرف عليها. ومررنا في طريقنا بمجاري وأودية قعيف ونبيع . والأخير تتميز إحدى ضفتيه بوجود شجيرات كثيفة والضفة الأخرى تغطيها كثبان رملية. وأخيراً وصلنا إلى أسفل وادي الصيح الرملي حيث خيّمنا لبعض الوقت. وتحت رابية منخفضة بالقرب من الوادي عثرت على مقبرة صغيرة لم يعرف أهل المنطقة القاطنين حولها تاريخها. وفي تقديري أنها مدفن لضحايا المنازعات القبلية حول موارد المياه في المنطقة. ولا يوجد في هذه المقابر ما يثير الاهتمام سوى إنها كبيرة الأحجام ومبنية من كتل حجرية ضخمة ولبعضها شواهد ولكن تخلو تماماً من النقوش.

وعند الصخور التي تقع على مقربة من ينابيع المياه، عثرت على كميات غير قليلة من المخربشات ونقوش ترجع إلى فجر الكتابة العربية وبعضها يبدو عليه أثر الاهتراء بسبب الظروف المناخية. وعند رأس وادي الصيح يظهر قوس مرتفعات الظهر الشديد الانحدار والذي تتشكل قمته من الجرانيت اللامع. وتحت هذه السلسلة الجبلية توجد حفرة من الرسوبيات والحصويات تكون منخفضاً (خزان) ضخماً لتجميع مياه الأمطار لكنها جافة الآن. وتبلغ هذه الحفرة ٣٠ قدماً في العمق وأكثر من ذلك في العرض والطول وتشبه جوانبها التي على هيئة طبقات مدرجات المسرح. ووراء هذا الخزان ينقسم الجبل بواسطة مجرى مائي موسمي. ويرتفع المجرى إلى الداخل على شكل مدرجات صخرية لامعة، ناعمة الملمس بسبب السيول، وتتخلله بعض التشققات والصدوع، بعضها ضحل لكن البعض الآخر عميق بدرجة كبيرة بحيث تتجمع فيه المياه. ومما لا شك فيه أن التنقيب في هذه البقعة سيسلط الضوء على مزيد من المعلومات عن تاريخ هذه المنطقة. وهناك ما لا يقل عن خمسين من طبقات التربة على هيئة دائرة يتراوح قطرها بين ٣٠٠ و ٤٠٠ قدم. وتعج هذه المنطقة بأسراب من حمام الصخر البري (Blue-Rock Pigeons) وأرانب الكوني (Coney-Rabbits) والفار ذي الشعر الذي يشبه السلك (Wire-haired mouse) والذي

يطلق عليه العرب اسم زبابة (Zababa) فضلاً عن طائر الحجل (Partridge) وطائر أبو قلنسوة (Back cap).

وفور وصولنا بقليل زارنا، جعمل، شيخ آل وبران[1] أحد فروع عشيرة آل هندي والذي أحضر معه ثلاثة خراف تكفينا لبقية رحلتنا. ولكن حدث أن أحضر اثنان من الأدلاء النجديين المرافقين لي خروفين آخرين فرفضت أن أدفع لهما الثمن لأن تصرفهما هذا قد تم دون موافقتي. ولإظهار امتعاضي من هذا التصرف رفضت أن أشارك أعضاء الرحلة العشاء، وتناولت طعام العشاء بمشاركة كل من صالح بن حزيق وحمد القردعي فقط. ونسبة لأن الجبال في تلك المنطقة عالية كالأبراج وتنحدر بصورة تغطي على مخيمنا لا نستطيع معها رؤية النجوم، فقد أخذت جهاز الثيودولايت (لقياس الارتفاعات والمسافات) ونزلت إلى أسفل الوادي لأخذ ملاحظاتي المساحية. وبعد رجوعي للمخيم لم أخلد للنوم إلا في وقت متأخر حيث قضيت وقتاً ليس بالقصير في ترقيم وحفظ الطيور والحشرات التي جمعتها خلال اليوم. وقد هبطت درجة الحرارة في الليل إلى ٥٧ فهرنهايت.

وفي صبيحة اليوم التالي تسلقت قمة الجبل المجاور مباشرة للمخيم، ويبلغ ارتفاعه ٥٠٠ قدم حيث استمتعت بمنظر جميل لسلاسل الجبال التي تشكل مستجمع الأمطار لوادي اليتمة والتي تمتد في الصحراء إلى جبال الفهود والقفل. وبدءاً من منطقة شخيبر والصحفة وحول المنطقة التي أقف عليها الآن، فإن المرتفعات تمتد على هيئة قوس مع وجود نتوءات لروابي تمتد على هيئة فواصل متتابعة كل اثنتين منها تحيط بفرع من الوادي الرئيس. وشمال الوادي الرئيس تقع سلسلة جبال الهضبة المكونة من متاهة من الصخور الشديدة الانحدار والكتل الناتئة. وباتجاه الشمال توجد سلسلة من الجبال تمتد من مجموعة الظهرة الصخرية (ارتفاعها ٣٠٠ قدم) إلى قمم

(١) آل وبران فرع من قبيلة العجمان من يام، وعن أقسام هذه القبيلة راجع، البلادي: بين مكة وحضرموت رحلات ومشاهدات، دار مكة، ط١، ١٤٠٢هـ، ١٢٥-١٢٩. (المراجعون).

جبال طيبة الاسم التي تحجب الرؤية عن قمة جبل ميهر ذي الصخر الرملي. وفي كل مكان في الفجوات بين الجبال بحار من الرمال تهب ذراتها باتجاه الصحراء العظمى. ويلاحظ أن الارتفاع العام للجبال حولنا لا يربو كثيراً عن ارتفاع قمة الهضبة التي نعتليها. ولكننا نجد أن أحد قمم الظهرة يبلغ ارتفاعه ٣٠٠ قدم على الأقل. وهناك نظائر لهذه القمة في مناطق ذات ارتفاع مشابه. ونزلنا من الهضبة سالكين درباً مختلفاً شديد الانحدار لنتمكن من مشاهدة منظر جميل للأخدود. ولكن في أغلب الوقت اتخذنا مسار الأغنام التي أوصلتنا إلى أسفل دون عناء كبير.

وبينما كنا نستعد لمواصلة الرحلة، قدمت امرأة ترعى أغناما لها، فهرع إليها جعمل من عشيرة آل وبران وأحضر منها زبدية من الحليب ونفحته ريالاً نظير تعبه. وبعد برهة وجدنا أنفسنا نسير أسفل مجاري أودية الصيح ونبيع والتي دخلنا بعدها أرضاً ذات كثبان رملية ثابتة ومنها انسللنا عبر مضيق غربي الهضبة نحو الرابية التي أخذت منها ملاحظاتي في رحلتي الأولى. وإن كنا نسير في أرض معروفة لدينا إلا أن طبيعتها صعبة الاجتياز حتى وصلنا إلى ممر شقة القورا في الحريرة دون مشقة. وتوقفنا هنا لبعض الوقت قبل أن أتسلق أحد القمم الجبلية لإلقاء نظرة على سمات الطريق الجنوبي المؤدي إلى مدينة نجران. وصعدت الجبل يرافقني جعمل. ولاحظت آثار أحد الغزلان على درب رملي مؤد إلى القمة التي يبلغ ارتفاعها ٣٠٠ قدم. وتتشكل قمة الجبل من هضبتين من الحجر الرملي يفصلهما غور طويل. وتتخلل جوانب الجبل وقمته شجيرات العبل ونبات اللبان والأعشاب الجافة. ومحاور هذا الجبل باتجاه غرب جنوب، غرب وشرق، شمال شرق.

وتبعاً لمعلومات جعمل، فإن رواق (ممر) القورا والذي يبدأ من أسفل جبال طيبة الاسم على جانبها الشرقي يمتد دونما انقطاع إلى بقعة المندفن عند جنوب جبل طويق على مسافة يومين بالجمال أو حوالي خمسين ميلاً. ويصل هذا الرواق جبل طويق جنوب الفاو عند نقطة تسمى خشيبة في منطقة المندفن. ويقال: إن هناك العديد من

الآبار والأطلال المهجورة كما وأن المنطقة غنية بالنقوش. ودون ريب فإن هذا الموقع يمثل مستوطنة لجماعة من الناس ولكنه لا يمثل ألبتة مدينة كبيرة كما يتبادر إلى الذهن. ويجدر بالذكر أن آبار العويفرة يمكن وصفها بأنها وبر أو أوفر عفر كما أن القرية ليست بعيدة من المندفن في ثنية طويق. ومما لا شك فيه أن الموقع يستحق البحث والتنقيب وهو سهل الوصول على كل حال. وقررت أن أذهب في رحلة من نجران إلى هذه المنطقة رغم أن سيارتي ليست بحالة جيدة، وعدلت -بأسف بالغ- في نهاية الأمر عن هذه الفكرة، ومن ناحية أخرى، فإن حاكم نجران قد شاطرني هذه الهم لاسيما وأن روايات البدو عن هذه الأطلال قد أثارت توقعاته بأنها تحمل في طياتها اكتشافات مثيرة وعظيمة[١].

وتعد شقة القورا مجرى قديمًا لوادي العطفين الذي يجري نحو الصحراء باتجاه الشمال بين جبال خليقا وممر قورا الجبلي حيث تفصله كثبان قورا الرملية والهضاب المعروفة باسم عروق الأجاشر عن درزنة من الروابي الصغيرة السوداء البارزة على هيئة قوس يمتد من الجنوب الغربي إلى جهة الشمال الشرقي من النقطة التي أخذنا عندها ملاحظاتنا. وهذه الأراضي الرملية تنفصل عن هضبة قورا بواسطة ممر مائي قديم (لوادي العطفين) وهو يجري لأميال قلائل إلى الشرق قليلاً قبل أن يتلاشى في رمال الصحراء. وروابي أجاشر بالرغم من أنها غير متصلة، فهي دونما هذه القمم الجبلية تقذف بحبات من الرمال على هيئة ريش عندما تهب الرياح الشرقية المعتدلة في هذه المنطقة. وفيما عدا قمة جبل ميهر البارزة والتي لا تبعد كثيراً عن هذا المكان، فإن

---

(١) لعل مقصد فيلبي قرية الفاو الأثرية، وقد أشار إليها فيلبي في رحلته إلى غرب وجنوب الجزيرة العربية في عام ١٣٧١هـ بصحبة ليبنز وريكمانز والتي نشرت الدارة ترجمة لها إلى العربية في عام ١٤١٩هـ، وقد تم كشف الكثير من أسرار هذه القرية وأهميتها السياسية والتجارية، على طريق التجارة القادم من اليمن إلى شمال وشرق الجزيرة، وذلك بسواعد عدد من منسوبي قسم الآثار والمتاحف بجامعة الملك سعود. وقد نشر عدد من البحوث عن هذه القرية ضمن مطبوعات الجامعة. (المراجعون).

السمات العامة لتضاريس هذه المنطقة يخفيها سديم من الرمال. ورغم ذلك نجحت في رؤية قمة جبل العــر المشرفة على بئر الخضراء والتي سنصلها في اليــوم التالي. وبعيداً إلى جهة اليسار، تقع قمة جبل مدرك.

ودخلت الحكومتان (السعودية واليمــن) في مفاوضات بشأن الحدود بين البلدين منذ بداية مناقشة ملكيــة مورد مياه المايين. وأرسل إبراهيم النشمي -حــاكم نجران عام ١٩٣٦م- جامــعي الضرائب (الزكــاة) لتقدير عــدد الجمال والأغنام الــتي ترد إلى بئر المايين. وبهــذه المناسبــة، قام رســله بالتوغل في هذه المنــطقة إلى أن وصلوا إلى بئــر الحشــوة في وادي العطفين حيث وجــدوا الرعاة من قبــيلة يام. ونجم عن هذه البعــثة الموفدة من حاكم نجران قرار وهو أن المايين تابعة لقبيلة يام وكذلك قمة جبل ميهر.

وبعيداً داخل الصحراء وباتجاه الشمال تقريــباً، تقع جبال برقة متشكرة وحولها إلى الشرق قليلاً توجــد روابي غراميل ومن ثم هضاب ضــبع التي تقبع خلف سلسلة الهضبة. وهناك جبال برقة أثمــد التي تقع بيننا وبين سلسلة الجبال الأخيرة. ورجعت ومعي جعمل للمخيم للانضمام لبقية أعضاء الرحلة ومن ثم ركبنا السيارة نحو الجبال التي تحيط بوادي طيبــة الاسم. وبعد مسيرة ١٢ ميلاً توقــفنا في منتصف النهار لتناول طعام الغداء وللاســتراحة تحت ظل شجرة ظــليلة في منطقة تبعد قليــلاً عن معسكرنا السابق عند مرورنا بهــذه المنطقة في بداية الرحلة. وتحركنا الساعة الخامــسة بعد الظهر عبر منطقة غير مستوية تكسوها الرمال صوب ممر في هضبة شعير على الضفة اليسرى لوادي العطفين. وبعد برهة دخلنا منطقــة رملية تعطلت بها سيــارتنا عن الحركة لكن تمكنا من الخروج من هذه الورطــة دون عناء كبير. وبعــدها واصلنا المسير عــبر وادي مدرك فرع طيبة الاسم الذي يجري نحو وادي العطفين إلى أسفل، وأدى الجهد الذي بذلناه وسط الكثبان الرملية إلى إتلاف سيارتــنا. وقبل أن نصل إلى معسكرنا في طيبة الاسم بعد الظهر لاحظت أن هناك مــشكلة خاصة بزيت السيارة حــيث انبعث دخان أسود من العــادم (أسطوانة المحرك) في الهــواء بواسطة الرياح الشرقــية وغطى المكان

برائحة كـريهة. وأثناء توقفنا قام مـحمد بإخـراج الزيت المتسخ وملأ الماكينة بآخـر ما تبقى لنا من زيت يـكفي لإيصالنا إلى مدينة نجـران. وعلى أية حال لم يكن محـمد دقيـقاً في قفل الفتـحة عند أسفل صهـريج الزيت مما أدى إلى انخلاعهـا إما بواسطة الأعشاب في الطريق أو بواسطة الرمل عندما تتعطل السيارة. وقام محمد بقفل الثقب بواسطة نوى التـمر لكن لـم تكن هذه الوسيلة مـجدية ممـا جعلنا نتـوقف بين الحين والآخر لملء صـهريج الزيت بماء للمحـافظة على منسوب الزيت بقـدر الإمكان فوق نقطة التسرب. وقـد كانت هذه الوسيلة الذكيـة من محمد هي أفضـل ما يمكن عمله للمحافظة على الزيت مما أدى إلى وصولنا إلى نجران بسـلام بعد مسيرة ١٦ ميلاً دون أن تحترق مـاكينة السيـارة. والجزء الأخير من هذه الرحلة تم بمحـاورة طرق وعرة في منطقة يجري فيـها مجرى المايين الذي ينحدر من أعالي الجبـال ليتصل بوادي العطفين الرئيس.

غمرتني فرحـة لا حد لها حينما قدت سيارتي نحـو المخيم في منطقة تكسوها الشجيرات، وعـبر وادي محاط بالصخور عند أسفل جبل مـيهر في آخر ليلة من أيام مغـامراتي في جنـوب الجزيرة والتي بدأت منذ الليلة الأولى ليـوم ٢٦ يوليو، عـندما خيّمنا لأول مـرة على مقربة من هضبـة خرطام الصعرة قبل شـهرين ونصف خلت. واليوم كان ١١ أكـتوبر. وأثناء ذلك سمعت إذاعة القـدس تعلن لعرب فلسطين على وقف أعمال المقاومة حتى يتسنى للورد بيـل وزملائه من أعضاء الوكالة الملكية لدراسة الوضع الذي سينتهي بتقديم تقرير عن الأحداث. والهدنة التي أعلنت كانت مؤقتة إلا أنه كان لتـدخل الحكام العرب في هذه المناسـبة حجـر الزاوية في تاريخ شبـه الجزيرة العربية. وأثناء كتـابتي هذه الأسطر فإن الحكومة البريطانية مـا زالت ومنذ عدة شهور تسعى بدأب من أجل إيجـاد حل لمشكلة المواجهة للقـوى المتنازعة في فلسطين ولكن دون طائل.

بعد تناول طعام عـشاء، دعوت زملائي إلى الاستماع (عـبر الإذاعة) إلى برنامج للرقص في فندق الملك داود في القدس وكان اليوم السبت، حـيث كان الجميع في حالة نشوة واسترخاء مع الإحساس بأنهم سيغادرون صباح الغد إلى الوطن. وعليه فقد قررت أن أكمل ما تبقى من الـرحلة بالإبل خاصة وأن سيارتنا سوف تنعطف بشكل كـبير نحو أخبـاش لتتخذ الطريق الـطويل الذي سلكته سابقـاً. فضلاً عن ذلك فإن رحلة الجـمال ستمكنني مـن رؤية بقاع لم أرها من قبل كما أنه من غـير المحتمل أن تصل السـيارة بئر الخضراء اليوم التالي. وتأخرت السيارة بالفعل إذ كنا في حاجة للزيت أو بديل له يسمح بالتحـرك. وكان السائق مـحمد له رأي مفـاده أن الزيت الناتج من الدهن (الزبد) الذي يستـخدم في الطبخ يمكن استخـدامه للسيـارة. فذهب جعمل واشـترى بعض الزبد من الرعاة من قبـيلة يام بمبلغ ريالين. وأخيراً وصلت السيـارة إلى الخضراء. ومن هنا أرسل جعمل رسالة إلى حاكم نجران يطلب منه أن يرسل لنا زيت سيارة على جناح السرعة.

وفي غضون ذلك تحرك البـقية منا بالجمال من المخيم السـاعة السابعة والنصف باتجاه وادي المـايين نحو النقطة التي تتـجه جنوب العطفـين. ومن هنا انحرف مـسار القافلة باتجـاه الشمال الشـرقي عبر رواق مكون من عدة روابـي منخفضة على جـهة اليسار وجبال المايين على جهة اليمين. ويسمى هذا الممر: الضياق تتخلله بعض التلال الحجرية التي يعدها الناس هنا مقابر الكفار أي مـقابر حقبة ما قبل الإسلام. وبالرغم من أن هذه المقابر كانت بدائية في تركـيبها إلا أنها لم تكن مختلفة عن مـقابر الجبانة الكبيرة في العلم الأبيض. ويمكنـني القول: إن هذه المقابر تمثل مجهودات للمـجتمع البدوي البدائـي، ومن المؤكد أن الفنانين هم الذي نفذوا الرسومـات التي توجد على قمة جـبل ميهر، لتـقليد الأساليب المتقنة للمـقابر وطقوس الدفن الجنائزية للمـجتمع السبئي.

يلاحظ أن مجرى وادي الضياق الذي يتصل بوادي العطفين عبر جبال المايين - كمـا ذكرنا آنفا- يضـيق ويصل اتساعه حـوالي ١٠٠ ياردة بين الضفاف الصـخرية.

ويزداد المجرى ضيقاً إلى الأمام قليلاً، فابتعدنا عنه باتجاه مضيق جبلي على الجانب الأيمن من المجرى حيث عثرت على عدة مقابر ذات أحجام كبيرة. وتوقفنا برهة عندما انزلق سرجي الذي يعود لأحد رفاقي النجديين، فلاحظت أن هناك مجموعة أخرى تمتد أسفل منحدر رابية منخفضة. وعند حافة هذه الرابية يوجد ممر رملي عبر الجبال على الجانبين. وفي فترة لاحقة عبرنا مجرى وادي شعيب منحة الذي يحتوي على فرع من وادي إمارة. وثمة إشارة هنا وهي أن الأودية في هذه المنطقة أشبه بمتاهة ولغز محير لاسيما وأن البدو لهم أسماء محلية لمراعيهم. لكن بصورة عامة يمكن القول: إن الفرعين الرئيسين اللذين يكونان وادي العطفين -الاسم يوحي بوجود قناتين- هما حشوة وإمارة، والأخير أطول وأكثر أهمية بينما نجد أن هناك العديد من المسيلات المائية تنحدر من المرتفعات لتصب في هذين الواديين. وهناك وادي منحة الذي تحيط به أشجار الأكاسيا ونباتات أخرى. ويجري هذا الوادي باتجاه جنوب غرب - شمال شرق من جبل إمارة إلى خرطام الصعرة. ويتصل بهذا الوادي مجرى مائي آخر يسمى «شحا» والذي عبرناه للوصول إلى مرتفعات علّوب المرتفعة نسبياً عن الهضاب المحيطة بها والمكون للضفة اليمنى لواد بنفس الاسم، والآخر عبارة عن متراس في مواجهة بحار الرمال العظيمة للربع الخالي.

وهناك طريق قصير شديد الانحدار يبدأ من هذه الهضبة إلى عقبة علوب ومن ثم إلى طرف الصحراء الموحشة. وتوقفنا في هذه المنطقة لبعض الوقت لتفحص المقابر التي تنتشر على طرف الهضبة. وهناك منشأة حجرية بارزة وسط هذه المقابر. والجزء الأعلى من هذه المنشأة مهدم في حين أن قاعدتها مربعة ومشيدة من أحجار موضوعة بشكل متقن ويبلغ طول كل من أضلاعها سبعة أقدام. ونحن على هذه القاعدة عثرنا على نقش مهشم وهو الوحيد الذي عثرنا عليه في المنطقة الممتدة من هذه البقعة وإلى المايين. وعند منتصف المسافة أمامنا يوجد وادي نجران المخضر الذي يجري باتجاه الشمال الشرقي نحو الصحراء حيث يتلاشى هناك. وبين هذا الوادي (نجران) والمنطقة

التي نحن فيـها الآن، يوجد خليج واسع من الرمال شـبه محاط بالأطراف الخـارجية للجبال المجاورة -تنصاب، زفين وجبـال أخرى- والتي تعلو دلتا صلة. ويتجه صوب الأخير وادي الـفرع المنحدر من مرتفـعات وائلة، وباتجاه الشمـال يمكننا رؤية الجروف الصخرية المنخفضة لوادي حبـونا خلف هضبة تصلال وروابي بني أكلب. وفي غياب جعمل مع السيـارة طلب كل من محمد بن قنيبر وأحد الجمـالين من عشيرة آل هندي من سالم بن حـيران أن يقود الركب نحـو منطقة الخضـراء. ورغم أن كليهمـا يعرف الطريق إلا أنهمـا لم يستطيعـا تحديد أي علامة واضـحة على امتـداد الطريق أمامنا. وخلال مـعظم اليوم، فإن أفـراد عشيرة آل الهندي كـانوا يمشون راجلين أمام الجـمال لإعطائها راحـة من عناء الأحمـال والسفر. ورغم وعـثاء السفـر، فإنهم قد أمـضوا شهرين كاملين وهم يتمتعون بوجبات طعام منتظمة ودسمة لم يعهدوا مثلها من قبل.

وبخروجنا من الطريق الواقع طرف الدلتـا، وجدنا أنفسنا نجتاز طـريقاً رملياً يقع بين عقبـات صخرية على يسارنا وهضـبة عالية ذات لون برتقالي عـلى يمين خط سيرنا وتقع خلفها هضبة عقط وفي غضـون ذلك كانت هناك مجموعة من بدو آل هندي من عشيرة أهل منصـور من التابعين إلى رِجْلاَ في وادي نجران تعبر المنطـقة في طريقها إلى المايين. وتتكون هذه القافلة من عشرين جملاً. وأحد هذه الجـمال عليها محفة -تعرف هنا باسم مظلة لكن تعرف أيضـاً باسم قين في الشمال-. وكان رجَال القـافلة يسيرون على الأقدام ويتبادلون معنا التحايا مثل «الله يجازيك، والله يعطيك العافية». وتدريجياً خرجنا من طريق الرواق الجـبلي إلى منطقة رمليـة واسعة وواصلنا المسـير إلى أن بلغنا رابية الرزيزة الصـخرية غرب هضبـة زفين حيث توقفنا لتناول الغداء ولأخـذ قسط من الراحة. وانتهزت هذه السانحة لعمل مـسح للمنطقة التي حولنا. ويلاحظ أن قمة جبل العر يقع باتجـاه الشمـال الغربي في حين أن هضبـة تصلال تقع خلفـها باتجاه الشـمال مبـاشرة. وعند الجهة الغـربية، خلف جبل صلة الشـار تقع سلسلة جبال نجـران المثلمة والكبيـرة في أم خرق عـبلة والمرحا وتوقفنا لقـضاء وقت القـيلولة عند كهـوف منطقة

الرزيزة الجبليـة الجرانيتيـة حيث كانت جـمالنا ترعى أعشاب النصـي والعلقي بينما كنا نأخذ قسطاً من الراحة. وتبلغ درجة الحـرارة في الكهوف ٨٦ْ درجة فهرنهايت في حين أن الجو يبدو بارداً طيباً تحت ظل الكهوف.

واستأنفنا مسـيرنا الساعة الثانية بعد الظهر نحـو النقطة الأولى التي تحركنا منها في بداية الرحلة عند بئر الخضراء. وهناك وادي صلة الذي توجد على مقربة منه رابية صغـيرة لكنها أصـغر من رابية الرزيزة وهو يقع مـباشرة أمـامنا. وتتميـز منطقة هذا الوادي بوجود بحار هائلة من الرمال، تمتد من زفين وتتطور في شكل وسائد متحركة بارتفاع خـمسة عـشر إلى عشـرين قدماً. وهناك تظهـر خطوط مرتفعـة من الرمال أجبرتنا على تغيـير مسارنا ونحن نتحرك باتجاه تنصاب. فـضلاً عن ذلك فقد تخطينا عدة عقبات في وادي صلة تمثلها شجيرات العبل فوق كثبان الرمال العالية والشجيرات الخفيـفة الأخرى. وإلى اليســار من موقعنا يُرى وادي الفُرع وهو ينـحدر من الجروف الصخـرية الجرانيتـية. وخلف الوادي مبـاشرة يقودنا سـهل ذو رمل خشن إلى وادي الفرع الذي تكســوه أشجار الأكاسيـا. وتحت ظلال أحد هذه الأشجـار، وجدنا أحد الرعاة ومعه زوجته. وكان لدى الزوج صـقر وكلب سلوقي لمساعدته في الصيد بينما كانت زوجته ترعى خرافها.

وإلى اليـسار من موقـعنا يوجـد جدول يختـرق جبـال العر والهـضب وبعض المرتفعات الأخـرى الجرانيتيـة الداكنة. ويكون هذا الجدول ما يشبـه الرواق في المنطقة الممتـدة من روابي يعلين وإلى وادي نجران أسـفل المناجم. وعند وصولنا جـبل العر اتجهنا نحو صـخرة حدودية ذات فتحة عنـد طرف الجبال الشمالية، ولكن سـرعان ما وجدنا أن الطريق مقفل بواسطة الجلاميد المتناثرة والتي تكون حاجزاً أمام وادي نجران. وفي أحد هذه الجلاميد عثرت على مجموعة من النقوش الثمودية والعربية الحديثة لكن معظمها متآكل بحيث يصعب نسخهـا. واتجهنا ناحية الشمال الشرقي حيث عثرنا على مخرج على هيئـة ممر عبر كسر بعض الجلاميد الصـخرية. وتوجب علينا أن نسير على

الأقدام وأن ندع جمالنا تعبر هذه العقبة على حركة التفافه حول الممر. وبعد رحلة طويلة وصلنا إلى بئر مهجورة الساعة الخامسة بعد الظهر حيث توقفنا لقضاء المساء عند مأوى صخري من حجر الجرانيت. وهو المكان نفسه الذي بحثنا فيه عن النقوش قبل أحد عشر أسبوعاً. وكنا قد أرسلنا رسالة إلى نجران لإحضار زيت لسيارتنا التي قطعت حوالي ٤٦ ميلاً من المايين عبر طريق أكثر مباشرة من ذلك الذي سلكناه في بداية الرحلة. وكان الجو طيبا للغاية في الليل حيث بلغت درجة الحرارة ٥٧° فهرنهايت مقارنة بشهر يوليو الذي وصلت فيه درجة الحرارة إلى ٧٠° فهرنهايت. وثمة إشارة هنا وهي أن زملاءنا من أفراد القافلة الذين أمامهم رحلة طويلة للوصول إلى نجران سوف يرتاحون غداً من وعثاء السفر ويذهبون إلى أسرهم أو إلى زوجاتهم وأطفالهم بعد أن يغتسلوا من أوساخ السفر ويلبسوا ملابسهم النظيفة. وتحركت قافلة الجمال الساعة التاسعة صباحاً نحو نجران، وتخلفت وبمعيتي صالح بن حزيق وحمد القردعي ومحمد عن هذا الركب لنلحق بهم عندما نتمكن من ذلك.

وجاءت مجموعة من الرعاة -امرأة واحدة ومجموعة من الرجال- لتسقي أغنامها وخرافها في البئر التي تقع على مقربة من مخيمنا. وبعد برهة قليلة وصل زوجان. وكانت المرأة فتاة ممتلئة الجسم، مفعمة بالصحة وترتدي ثوباً خارجياً رث الهيئة، فضفاضاً بحيث يكشف عن تفاصيل جسمها أثناء عملها. وبعد فترة وجيزة امتلأ المكان بالناس وهم يمتحون الماء من البئر للسقيا وكانت البنات في حالة مرح وحبور كثير. وفي غضون ذلك وصل زيت السيارة الساعة العاشرة والنصف صباحاً حيث تحركنا باتجاه نجران وصوت راعي الأغنام يشنف آذاننا بأهازيجه: ياهب، ياهيبا- هيبا- هيبا- ياهيبا - إوب- أوب هيا- هيا- إوب، هيا، هيا. والآن انتهى فصل من رحلتنا العظيمة. وبالنسبة للأيام القادمة سوف ننعم بضيافة نجران لنجهز بعدها أنفسنا لأعمال قادمة.

ملحق
عن النقوش التي اكتشفها السيد فيلبي

بقلم: أ. ف. بيستون *

من النقوش، التي نقلها فيلبي في رحلته، عدد كبير منها، نتف قصيرة (مخربشات) كما هو متوقع، أو مجرد أشياء لا معاني لها. وما أمكن ترجمته منها كان أسماء أعلام عادة أو في بعض الحالات كلمات متفرقة[1] وعلى أي حال، فإن كثيراً من هذه الكلمات في رأي البروفيسير ريكمانز لا يمكن قراءته قراءة مرضية. إن خط معظمها من النوع الثمودي- اللحياني[**] -يصعب على المرء أن يكون أكثر دقة من ذلك-، ولكن بعضها بالخط السبئي[***]؛ أحدها من الخضراء يشابه الكوفي؛ ومجموعة صغيرة من قرب ظهران بالعبري.

وتقابل هذه مجموعتان من النقوش الرسمية. أولاها، مجموعة باللهجة الحضرمية القديمة، من الصخرة الصغيرة التي تعلوها أطلال برج في العقلة (انظر ص ص ٣١٤-٣١٥ أعلاه) ومن أطلال شبوة[٢]. ثانيتها بعض النقوش المتنوعة بالسبئية من الأساحل، وخربة أبي السعود، والدريب، وشبوة[٢].

---

* ملحوظة: ترجم الملحق الخاص بالنقوش التي اكتشفها فيلبي أ.د عبدالقادر محمود عبدالله، وسوف يشار إلى تعليقاته باسم (المترجم)، وراجعه د. سعيد السعيد، وسوف يشار إلى تعليقاته باسم. (المراجع).

(١) على سبيل المثال، في شعيب عرجان، وفوق رسم لجمل وردت: [نقش] قارن «وسم» العربية. (المؤلف).

(**) إن كافة النقوش التي اكتشفها فيلبي في جنوب الجزيرة العربية كتبت إما بخط المسند أو بقلم الخط الثمودي، أما قول المؤلف هنا بأنها مكتوبة بالقلم اللحياني فقد جانبه الصواب، إذ لم يثبت حتى الآن أن الخط اللحياني، الذي انتشر استخدامه في شمال الجزيرة العربية، وخاصة في منطقة العلا وما جاورها، قد امتد استخدامه إلى تلك المناطق البعيدة. (المراجع).

(***) إن تسمية هذا الخط «بالخط السبئي» غير دقيقة، فمن المعلوم والثابت أن القلم الذي كتبت به اللغة السبئية يسمى خط المسند، وقد يطلق عليه تجاوزاً مسمى خط جنوب الجزيرة العربية القديم. (المراجع).

(٢) تلك النقوش من شبوة كان قد نشرها ريكمانز في *Le Museon*, 50, pp. 245-251..

النقوش السبئية. وهي نقوش بناء أو هبة من النوع المعروف، من بينها نقش يبدو أنه عقد. وحين يذكر الحكام فإنهم يحملون لقب مكرب (جمعه مكاربة)(*)؛ الشيء الذي يعيد هذه النقوش إلى الفترة السبئية المبكرة أي نحو ٧٠٠ ق.م.

إن جميع نقوش الأساحل لها صيغة واحدة. انظر أدناه في بعض نقوش مختارة رقم ٧٧. وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك نقشاً يخلو من اسم المكان في آخره، وأربعةً حل محل اسم المكان فيها أسماءٌ أخرى نحو **د ذ م** ، **مرحبم ذ هـ** . . (أو ذي . .)، و ي. **ي ث** (**يـ[ـل]يلث؟**). ويبدو أن فلقة من الدريب تحتوي على الصيغة نفسها، إلا أن صاحب النقش هو كرب إل وتر(**)، واسم المكان هو ريمن.

إن كل نقوش **خربة أبي السعود** نتف ناقصة قليلة الأهمية ثلاثة منها نسخ من أجزاء من النقش المرسوم CIH 496 . ومثلها واحد من الدريب أيضاً.

بين نقوش الدريب ثلاثة ذات أهميـة خاصة؛ انظر أدناه **٧٨، ٧٩، ٨٠**. وهناك آخر تشابه صيغته CIH 366 مشابهة شديدة؛ لكن صاحبه هو المكرب كرب إل وتر بن ذمر علي.

نقوش **العُقلة**. لا شك أن هذه أهم نقوش المجموعة كلها. لكن بهـا معضلات كبيرة في الترجمة. فـالكلمات نفسها تتكرر وفي كافة الـسياق نفسه وفي كافة النقـوش تقريباً، مما يجعل حالنا في ترجـمتها ليس بأفـضل مما لو كانت العبـارات هي *ἅπαξ λεγόμενα*. (المعنى الواحد نفسه).

وعلى الرغـم من ذلك فـإنه لمن الواضـح أن بأيدينا فـئــة من النقـوش لأسـرة ملوك حضرموت حيث زار كل واحد منهم هذه البقعة (التي يبدو أنها كانت تسمى **أنود** آنذاك)، للقيام ببعض الأعمـال التي تخلدها هذه النقوش. ففي حـالتين اقترن أحد أعضـاء هذه الأسرة بالملك آنذاك وإن لم يكن نفسـه ملكاً. وبالإضافة إلى هذه النقـوش، فهناك عدد من النقـوش الأخرى ذات الصيـغة «فلان بـن فلان (واحد أو أكـثر) رافق سيـده (سيدهمـا/ سيـدهم) فلان، ملك حضرموت عندما (قام بهذه الأعمال)». والفـعل المستخدم لوصف أعمال هؤلاء الأشخاص هو **𐩪𐩥𐩲𐩵** أو **𐩪𐩺𐩲𐩵** (صيغتان يبـدو أنهما غير مختلفتين)، وفي حالة واحدة **[illegible]** "ساعد".

(*) مكرب: لقب كان يحمله الحكام في جنوب الجزيرة العربية، وقد تلقب به الحكام السبئيون في فترات حكمهم المبكره، ثم ما لبثوا أن استعاضو عنه إبان القرن السادس ق.م بلقب ملك. (المراجع).

(**) أحد حكام مملكة سبأ. (المراجع).

ولقد أعطي مثالان لذلك، ٨١، ٨٢. وبعض النقوش تأتي صيغته: "فلان رافق سيده" فقط وبعضها الآخر مجرد أسماء.

إن الكلمات الأساسية التي تصف أعمال هؤلاء الملوك هي ꟾΠϕ1ΦꟾꟾꟾX𐩴 أو في بعض الحالات (٨٥، ٨٧) .ꟾꟾꟾ𐩸ΦꟾꟾꟾX𐩴 ومن هذه الكلمات الثلاث واحدة فقط، هي ꟾꟾꟾ𐩸، معروفة من قبل في العربية القديمة الجنوبية؛ وبما أن هذه الكلمة تتعلق بالمباني ("سقف" CIH 40[3] "بناء" CIH660[2]؛ "مسكن" بالنقش نفسه[٣])، وكان رودو كاناكس (Studien, ii, 35) قد ترجمها بما يوافق **صلال** "قطع من الحجارة" الحضرمية الحديثة، فإني ملت في أول الأمر إلى عد الكلمات الثلاث أفعالاً خاصة بتقنيات البناء، وأنها ربما كانت تصف إصلاحات عملت في الحصن.

ولكن ريكمانز نبهني إلى بضع اعتراضات على هذا التفسير هي أن الملك موصوف بأنه سائر (ꟾ)𐩪𐩵) إلى العُقلة للقيام بهذه الأعمال؛ وأنه "رافقه" بعض الشخصيات، كان من بينها في إحدى الحالات مبعوثا الملك السبئي **(٨٢)**؛ وأن الأفعال ليس لها مفعول به مباشر يحدد بالتحديد المبنى أو الجزء من المبنى الذي تم إصلاحه[٤]، وهو تحديد مألوف في نقوش البناء المعروفة لنا. ولهذه الحجج أضيف حقيقة ملفتة للنظر هي أن كل ملك يُذكر مرة واحدة بأنه قام بهذه الأعمال؛ وستكون صدفة فريدة أن يحتاج البرج لصيانة واحدة فقط في كل عهد.

لذا فإني في بحثي عن معاني أخرى لهذه الكلمات ملت لأن أتخذ الفعل ꟾΠϕ1 منطلقاً لي. إن الجذر لقب معروف في اللغة العربية، وله معنى واحد هو "اسم، **لقب**". فإن اتبع المرء هذا المفتاح فإنه سيروق له تأصيل الكلمتين الأخريين في ملل "تكلم" السريانية و صلّ "أصدر صوتاً" العربية، وترجمة العبارة بشيء نحو "نادى بنفسه ملكاً وتلقب بهذا اللقب". لذا فإن المرء يستنتج أن العُقلة ربما كانت المكان الذي تقام فيه مراسم ارتقاء هذه الأسرة العرش.

---

(٤) باستثناء حالة واحدة؛ حيث جعلت طمسة في الوسط التركيب النحوي مشكوكاً فيه.

وأخيراً، هناك نقشان من نوع مخالف للبقية. إن ترجمة أحدهما، **٨٩** أدناه، غير مؤكدة، ولكني أحسبه نقش بناء من النوع المعروف؛ والآخر، **٨٤** نقش بناء، لكنه يذكر بعض القرابين المثيرة.

الأسرة الملكية الحضرمية. باستثناء إل عذ يلط "L.D.YLT" بن عم ذخر، فإن الأسماء الملكية الواردة في نقوش العُقلة يمكن ترتيبها ترتيباً أسرياً. والأسماء هي[١]:

(١) يدع إل بين بن رب شمس، في **٨٤**.

(٢) إل ريم يدم بن يدع إل بين، في **٨٥**.

(٣) يدع أب غيلن بن يدع إل بين، في **٨٧**.

(٤) (ربما يدع إل بين بن يدع أب غيلن، الذي في نقش ركمانز ١٦٩ كذلك؟).

بالإضافة إلى شخص ما اسمه رب شمس بن يدع إل بين، الذي يرد مرة واحدة أخاً للثاني (٢) في النقش **٨٦**، ومرة واحدة أخاً للثالث (٣) في **٨٨**، ولم يرد باللقب الملكي أبداً.

ويجوز ترتيب هذه الأسماء ترتيبا ظنياً في الهيكل الآتي:

رب شمس

يدع إل بين (١)

إل ريم يدم — يدع أب غيلن — (رب شمس خير أسدن)

؟

يدع إل بين (٢)

---
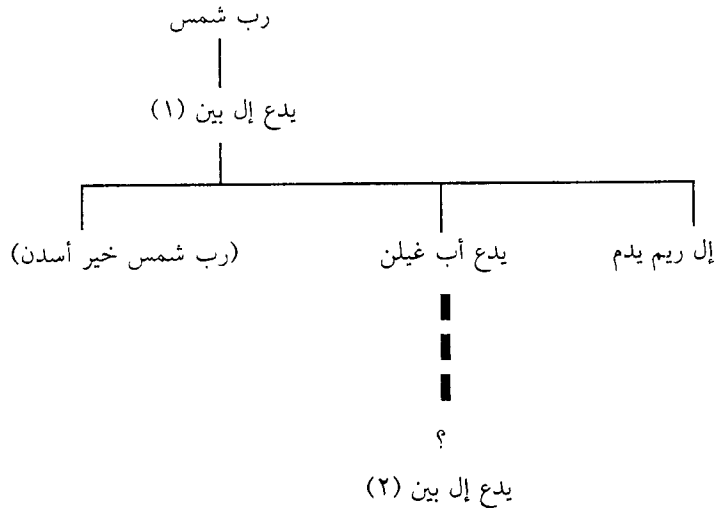
(١) نشر د. جواد علي قوائم حكام حضرموت لعدد من الرحالة الأوربيين ومن ضمنهم فيلبي. انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ج٢، ص١٦٧. (المراجعون).

يبدو أن العبارة **خير أسدن** لقب من نوع ما. ومن الواضح أن الأسرة الملكية كانت لها صلات ما بقبيلة أسد، وذلك لأن **ختن** الملك موصوف بأنه "أسدي" في أحد النقوش. وإنه لشيء ذو دلالة ألا يكون رب شمس موصوفاً بذلك خلال حكم إل ريم يدم. ولعل التفسير الذي يطرح نفسه لهذا هو أن هذا اللقب كان يحمله أقرب إخوة الملك إليه - بافتراض أن إل ريم يدم، ويدع أب غيلن، ورب شمس كانوا الأول والثاني والثالث، بهذا الترتيب، في تولي الملك.

تأريخ نقوش العُقلة. إن النقطة التي تلفت نظر المرء لأول وهلة هي أن إل عذ[٥] يلط يظهر في النقش ٨٢ كمعاصر لملك سبأ وذي ريدان؛ لذا فلابد من جعله في زمن ما بين ١١٥ ق.م، حين اتخذ ملوك سبأ هذا اللقب، وبين ٣٠٠م، حين فقدت حضرموت استقلالها في آخر الأمر وذابت في الامبراطورية السبئية. وإنه لمؤسف ألا يمكن تحديد علاقته بالآخرين. وبالرغم من ذلك، فإني أرى أنه بالإمكان افتراض عدم بعده عنهم في زمنه.

ومن الناحية الأخرى، فإنه يجوز جعل بداية هذه النقوش بعد الفترة النصرانية، إن صحت ترجمتي المقترحة للنقش **٨٤**. فإن جاز ذلك فإن لدينا ذكراً لتأسيس شبوة على يد أول ملوك هذه الفئة. ثم إن *Σάβατα* التي ذكرها استرابون على أنها حاضرة حضرموت (Lib. xvi, cap. 4, § 2, ed. Meineke). وصحيح أن أسماء البلدات هذه عرضة لتصحيفات كثيرة في النصوص الكلاسيكية. ولكن بما أن استرابون تؤيده في هذه الحالة "Sabota" (سَبُتَة) عند بليني (vi, 155)، وأهم من ذلك *Σάββαθα* في دليل البحر الإريتري (27)، فإنه يحق لنا أن نفترض صحة الاسم.

وعلاوة على ذلك فإننا لا نستطيع أن نجعل بداية الفئة قبل الميلاد مباشرة، بحيث يشمل معظمها النصف الأول من القرن الأول الميلادي، وذلك لأنه في سنة ٢٩م كان يحكم شخص ما اسمه إل عذ يلط بن سلفن، أو علهن.

(انظر: *Handbuch der altarabischen Altertumskunde* herausg. V. D. Nielsen, i, 103). لذا فلا بد أن تنتهي فئتنا قبل سنة ٢٩م.

---

(٥) طبع L'D YLT خطأً، بالدال (D) بدل الذال (D)، في البحث. (المترجم).

وكذلك، فإننا في الفترة السابقة بقليل لسنة ١١٥ ق.م. لدينا شخص اسمه يدع أب غيلن تلاه آخر اسمه عج (**المرجع نفسه**، ١٠٢). لذا، فإن كنا سنعد يدع أب غيلن هذا هو ذلك المذكور في نقوشنا يتطابق مع ذلك المذكور في نقش ريكمانز ١٦٩، والذي هو الد يدع إل بين، فإنه سينبغي علينا عد الأخير أخاً لإل عذ.

وبذلك تصبح لدينا ثلاثة احتمالات. فمن جهة يمكننا الأخذ بالاقتراح المقدم لتوه، فتنتهي نقوشنا بنحو ١١٥ ق.م. ومن ناحية ثانية يجوز لنا أن نعد يدع أب غيلن الذي في نقوشنا شخصاً مختلفاً عن ذلك الذي سبق إل عذ، وفي هذه الحالة يستحيل على فئتنا أن تشمل الفترة التي تساوي جيلاً قبل ١١٥ ق.م وجيلاً بعدها. ولكنها قد تنتهي جيلين أو أكثر قبل ١١٥ ق.م (ولكن ليس بأكثر من ذلك لئلا تبتعد بأكثر مما يجب عن إل عذ يلط بن عم ذخر)، أو تقع في الفترة البادئة قليلاً قبل ١١٥ ق.م إلى قليل بعد الميلاد.

مجموعة مختارة من النصوص(٦)

٧٧ «السحيل»

١ 𐩺𐩻𐩲𐩱𐩣𐩧𐩿𐩨𐩺𐩬𐩿𐩨𐩬𐩿𐩪𐩣𐩠𐩿𐩲𐩡𐩺𐩿

٢ 𐩣𐩫𐩧𐩨𐩿𐩪𐩨𐩱𐩿𐩪𐩥𐩧𐩿𐩢𐩧𐩨𐩿𐩨𐩲𐩧𐩧𐩩

يثع أمر بين بن سمه علي مكرب سبأ سوَّر **حرب** باستحكامات(*).

𐩲𐩧𐩧𐩩 : هذه الصيغة جديدة. والمفرده 𐩲𐩧 يعني «حصن جبلي» (تماماً كما تعني **عُرر** في اليمن اليوم، حسبما جاء في Rossini, Glossary) في CIH 74[4]، إلخ. والجمع 𐩱𐩲𐩧𐩧 مستخدم في RES 3945[8]، مقابل 𐩱𐩱𐩧𐩧 «وديان زراعية». ولكي أعطي هذه

(٦) إن النقوش التي نشرها ريكمانز في Le Museon, Vol. 50، قد وسمها Philby 1-14. وثمة مجموعة أخرى تالية لها، أعطاها الأرقام Philby 15-76، ستنشر قريباً في المجلة نفسها. لذلك فإني أعطيت هذه المجموعة أرقاماً تلي الأخيرة هذه. (المؤلف).

(*) من خلال النص السبئي فإن الترجمة تكون: حصن حرب. (المراجع).

الكلمة معنى أكثر تجريداً، هو «عمل تحصيني». ومن الناحية النحوية فإنه سيكون مفعولاً به ثانياً للفعل(٧).

- هذا الاسم خاص بالجزء من الاستحكامات الذي كان عليه النقش. وهو اسم علم سبئي (CIH 287[12]، وغيره) لم يعرف في غير هذا النقش اسماً لمكان.

٧٨ (الدريب)

١ [نص مسند]

٢ [نص مسند]

٣ [نص مسند]

هلك أمر. د. ب بني لرب **شبعن هذا** [المعبد].

[نص مسند] : لا يشابه هذا أي اسم معروف؛ وربما كان هدعب أو أدعب (قارن **دعب** "مرح" العربية).

[نص مسند] : إن صح افتراضي، فإن أمامنا هنا حرف الجر [نص مسند] مؤكداً بحرف التنبيه [نص مسند] (انظر Rhodokanakis KTB i, 140). وتقارن معها الكيفية التي زيد بها حرف العطف [نص مسند] ليكون [نص مسند] الموظف حرفاً للعطف في آخر الكلمة في CIH 601[15]. ولكن يبدو أن [نص مسند]، في السبئية كانت وسيلة للتوكيد - وهي كذلك بصفة خاصة بعد الأداة [نص مسند] (CIH 396[6], 397[10], 581[14]) واسمي الإشارة [نص مسند] (CIH 86[3])، [نص مسند] (RES 3951[5])= "هكذا".

[نص مسند] : هو إلمقه(*)، كما يثبت ذلك CIH 406[5]، وغيره.

[نص مسند] : وإن كانت هذه الكلمة قد لحقت بها كثير من الطمس والأذى، فإن شكلها العام يوحي بهذا الإكمال. لكن المشكلة هي أن هذه الصيغة (CIH 660[4]) قد أخذت على أنها جمع للمفرد [نص مسند] : (CIH 5483 وغيرها)، الأمر الذي تستبعده [نص مسند] هنا. لذا فإن على المرء أن يحسبها جمعاً موازياً للصيغة [نص مسند] الأكثر منها شيوعاً.

---

(٧) يعني مفعولاً مطلقاً مؤكداً لعامله، الفعل. (المترجم).

(*) كبير آلهة مملكة سبأ. (المراجع).

٧٩ (المكان نفسه)

١ [خط المسند]

٢ [خط المسند]

٣ [خط المسند]

. . . . . مكرب سبأ بني مذبح آلـ[مقه]. . . وقـدم قرباناً محـروقاً (؟) له (علناً؟) وقدم. . [وطهَّر؟] تمثال. . .

[خط المسند] : تقارن بهذه العبارة التعبير في RES 3945، المشابه لها جداً، وإن كان قد لحق به للأسف أذى وطمس شديد. إن كتابة رودوكاناكس للفـقرة تسير على النحو الآتي: [خط المسند] مع الملاحظات الآتيـة "إن [خط المسند] جائزة أيضاً؛ وفي الـكلمة التالية [خط المسند] بدلاً عن [خط المسند] أيضاً؛ وكحرف أخير [خط المسند] أو [خط المسند] أو [خط المسند] ".

وبالنسبة للنسخة الحالية فالأرجح أن القراءات الصحيحة هي [خط المسند] وبما أن [خط المسند] (٨) استغنى عنه في RES 3945، فإنه يبدو أنه لا يمثل مفعولاً به مباشراً، وإنما غير مباشر(٩) ا، لذا فإني أقترح أن يؤخـذ بأنه عائد على المعبود، المفعول به غـير المباشر، الموازي للتعبـير [خط المسند] "ذبح لعثتر"؛ وأن [خط المسند] تعني "قدم قـرباناً محروقاً" – إن كل سياق RES 3945 يتـحدث عن أعـمال تعـبد، وإني لا أرى أي مـعنى للإيماءات في "حتى أضاءَ" لرودو كاناكس.

[خط المسند] : على افتراض أن هذه هي القراءة الحقيقية للكلمة، فإن المعنى لا يزال غامضاً. وتخميناً له، فإني أقترح أنه قد يقارن بالكلمة **براح** العربية كما في "جاء بالشائع براحاً"، أي فعلَ، أو قال، شيئاً صراحةً أو علناً".

---

(٨) ضمير الغائب المفرد. (المترجم).

(٩) يعني أنه مجرور بحرف. (المترجم).

𐩨𐩺𐩵𐩱𐩡| : لم تعـرف من قـبل؛ ولعل النـصف الأول منهـا يقـارن بالعـربيـة "بادت الشمس".

𐩢𐩧𐩧𐩩𐩬| : قارن RES 3945[17]، حيث يرى رودوكاناكس أنها الجمع من 𐩢𐩧𐩩|.

𐩰𐩩𐩢| : لعدم وجـود سيـاق مناسب، لعله من الأفـضل الاكتفـاء بالمعنى الوحـيد المعـروف حـتى الآن لهـذه الكلمـة، "مـرسـوم، أمـر (ملكي)" (RES 3305[6],3306[7]، الخ)؛ وإن كان المرء يميل هنا إلى أخذها بأنها شيئ فني تقني متعلق بالزراعة (قارن استخدام 𐩰𐩤𐩢|، التي لها جذر بمعنى "فتح" أيضاً، في RES 3945[15]).

𐩮𐩥𐩵| : الجذر صود غير معروف في العربيـة، بينما هو في العبرية، وغيرها، يقابل 𐩮𐩺𐩵|، العربية القديمة الجـنوبية. لذا فإني، وبمجرد التخمين، أقرن هذه الكـلمة بالعربية صدّ "ناحية الوادي أو الجبل حيث يكون به وادٍ سحيق".

𐩲𐩧𐩧𐩣| : ربما يقارن بالعربية **عرعر** "السرو" أو "العرعر".

𐩵𐩧𐩧𐩣| : قارن العربية **درّ** "يقال عن العشب، اختلط وتشعب لكثرته".

٨١ (العقلة، ومثله التاليات).

١ 𐩦𐩠𐩧𐩣|𐩨𐩬|𐩥𐩱𐩡𐩣

٢ 𐩤𐩧𐩺𐩩|𐩨𐩬|𐩹𐩣𐩧𐩣|𐩱𐩨𐩰𐩱𐩡

٣ 𐩨𐩬|𐩱𐩡|𐩤𐩻𐩣|𐩥𐩠𐩨𐩱𐩡|𐩨𐩬|𐩠𐩫𐩢

٤ 𐩵|𐩦𐩥𐩲𐩥|𐩣𐩧𐩱𐩪𐩣|𐩱𐩡𐩲𐩹|𐩺𐩡𐩷

٥ 𐩣𐩡𐩫|𐩢𐩳𐩧𐩣𐩩|𐩨𐩬|𐩲𐩣𐩹𐩭𐩧|𐩣𐩩

٦ 𐩪𐩺𐩧|𐩱𐩵|𐩴𐩬𐩳𐩡𐩠𐩬|𐩱𐩬𐩥𐩵𐩣

شهرم بن وألم، قريت بن ذمرم، أب فـأل بن إل قثم، وهب إل بن هكحد، رافقوا سيدهم إل عذ يلط ملك حضرموت بن عم ذخر عندما سار إلى حصن أنودم.

(77)

(78)

(79)

(80)

(81)

(82)

(83)

(84)

(85)

(86)

(87)

(88)

(89)

٣- [illegible] 2. :[١٠] وكما يرى المرء من السطر الخامس، فإنهما لم يزالا تابعين لملك سبأ. واللقب هنا، وكما هو واضح، لمجرد اللياقة والتأدب.

٤- [illegible] : الهاء في أوله حرف أو أداة وصل تتميز به الحضرمية، موجود في RES 2687[2], 2693[4]؛ وفي الحالة الأولى منهمـا بمعناه الذي في آخر الكلمة نفسـه. ولا أشك في أنه مطابق للمهـري هـَ "نحو، إلى"، الذي يعـده لسلاو (Mem. de la Soc. de ling. de Paris 23, 408) تخفيفاً للأمهرية (والمعينية) كَ. وعن هذا والفعل التالي انظر ص ص ٤٤٢-٤٤٣ من النص الإنجليزي.
[illegible] قارن الاسم [illegible].
سلاح" في CIH 548[1]. وكما هو المعنى هنا فإن الغـاية لا تبدو أنها عمليات عسكرية، وإنما المراد معنى عام، نحو "سلَّح، جهَّز".

٥- [illegible] : إني آخذ هذا الملك على أنه رقم ١٧ في قائمة هومّل (Handbuch der altsudarabischen Altertumskunde, i, 95). وعلى المرء ملاحظة أنه في هذين النقشين، وحـيث يرد فيهمـا [illegible] فإن CIH 569[3] فيه فراغ لطمس بعـد [illegible] مباشـرة، وأن ذلك الطمس في SE 103[1] بعد [illegible]. مـباشرة. لذلك، فإنه لمن الجائز أن تكون الصفة **يهنعم** قد وردت بعده. وربما كان سبب حذفها من المسكوكات هو ضيق المكان.

٦- [illegible] : وبتردد شـديد، اقتـرحت الترجمـة "سِفارة"، ظنـاً مني أن لهذه الصيغة صبغة التبادل على نحو ما في **تَقَابَل**[١١].

٨٣

١ [illegible]

٢ [illegible]

٣ [illegible]

٤ [illegible]

(٧) الأرقـام في أول السطر، هنا كـمـا في ٨٣ تشيـر إلى سطور النقش الأصـلية، وليس تـرتيب التعـليقـات. (المترجم).

إل عذ يلط ملك حضرموت، بن عم ذخر سار إلى حصن أنودم ليتلقب (بلقبه؟).

[illegible] : لقد وصف هومّل (في Handbuch, 102, note 4) هذه الكتابة بأنها، في خطها، أقدم من [illegible] زمناً. ولكن الاختلاف لهجي فقط لا زمنياً، وذلك لأن هذا النقش، الذي كان صاحبه معاصراً "لملك سبأ وذي ريدان"، بالضرورة متأخر في زمنه عن CIH 308، الذي لا يزال فيه علهن نهفن "ملك سبأ"؛ والنقش الثاني فيه [illegible]. فالتفسير إذن هو أن ذلك النقش سبئي، الذي ترجع التهجئة بالحرف Φ فيه إلى عصور المكاربة (RES 3945[12]).

لا يبدو أن الاسم في آخر النقش جزء منه. إن نسخة اليد تقرأ **ثمر بن سل**. ولعلها تصحح لتقرأ كما هو أعلاه؛ قارن **ثمرن** RES 2743[1].

٨٤

84 ١ [illegible]

٢ [illegible]

٣ [illegible]

يدع إل بين ملك حضرموت، ابن رب شمس، من أحرار يهبأر – الذي أسس مدينة شبوة واستعمرها وبنى المعبد من الحجر – وعرشَ بالحجر ...؟... عندما خربا بالانهيار(*)؟ وذبح ٣٥ ثوراً، و ٨٢ خروفاً و ٢٥ ظبياً و ٨ أفهد بحصن أنودم.

١- [illegible] : اسم قبلي جديد؛ لعله من الجذر بئر.

[illegible] : هذا الجذر معروف في غير هذا النقش كجزء من الاسم [illegible] RES 3114 الذي يعين جزءاً من معبد، ترجمة رودو كاناكس بلفظه "الداخلي" (Kahlan 34). وعلى افتراض أن الجذر هو "داخل، وسط"، فإني أرى أن هذا الفعل المزيد يعبر عن تأسيس مدينة كبيرة في منطقة ما كانت تعمرها من قبل قبائل وقرى متفرقة، ضمن أهلها بعضهم إلى البعض إلى مركز.

---

(٧) وزن تَفَاعَلَ. (المترجم).

(*) يترجم المؤلف جملة: م ت ا ث ب ر و ا ب ن ا ص ى د م ن ا بقوله: عندما حرب بالإنهيار، ولكن الصواب هو: عندما عادو من (رحلة) الصيد. (المراجع).

[illegible] : قارن **خرة** العربيـة، زقاق"، "خَرَّوا، جاءوا من مـدينة أو بلاد ما إلى أخرى". لعله فعل مزيد هناَ.

٢- [illegible]: قارن **ضرسَ** العـربية، "بطَّن بئـراً بالحجـارة". وإني أرى أن هذه هي القراءة الحقيقية في GI. 120912، حيث كان رودو كاناكس (AST ii) قد قرأ [illegible]، مع إقراره بأن لا يملك أصلاً مـرضياً للجذر[illegible]. ولمجيئها بعد[illegible]، فإن الكلمة الثانية تؤخذ في معناها الخاص بالبناء (انظر ص ٤٤٢ أعلاه). وقد تكون الاثنتان فعلين، مقـترنين نحوياً ولكني أميل إلى جعل الثانية اسماً يعين المادة المستخـدمة في البناء. والكلمةِ التالية مشكوك في أمرها. فلعلها تعين أجـزاء البناء التي سقفت مـرة أخرى؛ ويبين الفعل التالي لهـا أنها جمع. ولعل المرء يقـرؤه [illegible] ويترجمها "المتـولي"، "السقف المغطى"، وقارن العربية **هدال**= "ما تهدل من الأغصان أيَ تدلّى".

[illegible]: أخذ معنى هذه على أنه ruina اللاتينية؛ قارن صدمة في العربية.

[illegible] : ربما كـانـت [illegible] الثـانيـة مـجـرد تكرار خـاطـئ. والجـمع [illegible] انظر[illegible] RES 39432.

٣- [illegible]: قارن **حور** "قطيع من الأغنام" في العربية.

[illegible] : جاء في غير هذا النقش في RES 41424 فقط([illegible])حيث ترد "بدلاً"[illegible]. وهنا يستنتج مور تمان وميتـفوخ أنها تعني نوعاً خاصاً من الإبل. ولكني أرى أنها ينبغي أن تؤخذ على أنها **ظبي** العربية.

[illegible] قارن: **فهد** العربية(١٢). هذا أول ذكر لهذا الحيوان في العربية الجنوبية القديمة(*). وليس له فيـما أعلم أي تصوير. ويبـدو أن ذلك يعني أنه لم يكن مقـترناً بأي عـبادة طوطميـة، أو ليس بصورة واسـعة على أي حـال. لذا فإن استخدامه في القربان في هذه الحالة لمدهش.

٨٥

١- [illegible]

(١٢) "أفهد". (المترجم).

(*) يرد ذكر الفهد في النقوش الحضرمية علاوة على ذلك في نقش الملك الحضرمي بدع إل بين، انظر: Ingrams, W.H, A Dance of the Ibexhunters in the Hadramut, Man 37, ١/ مـــر = (1937). P.12-13. (المراجع).

٢- 𐩨𐩬𐩽𐩺𐩵𐩲𐩱𐩡𐩽𐩨𐩺𐩬𐩽𐩣𐩡𐩫𐩽𐩢𐩳

٣- 𐩧𐩣𐩩𐩽𐩣𐩩𐩡𐩡𐩽𐩥𐩮𐩡𐩡𐩽𐩨𐩣𐩢𐩰𐩵

٤- 𐩠𐩬𐩽𐩱𐩬𐩥𐩵𐩣𐩽𐩠𐩪𐩡𐩤𐩨

إل ريم يدم ملك حضـرموت، بن يدع إل بين ملك حـضرموت (نادى بنفـسه ملكاً وأعلنه؛) ببرح أنودم (ليتلقب بلقبه).

: 𐩪𐩡𐩤𐩨𐩽 لا أستطيع أن أقطع إن كان لهذه الكلمة معنى مختلف قليلاً عن 𐩡𐩤𐩨𐩽.

٨٦

١- 𐩧𐩨𐩦𐩣𐩪𐩽𐩨𐩬𐩽𐩺𐩵𐩲𐩱𐩡𐩽𐩨𐩺𐩬

٢- 𐩣𐩡𐩫𐩽𐩢𐩳𐩧𐩣𐩩𐩽𐩣𐩩𐩡𐩡𐩽𐩲𐩣𐩽𐩱

٣- 𐩭𐩪𐩽𐩱𐩡𐩧𐩺𐩣𐩽𐩺𐩵𐩣𐩽𐩣𐩡𐩫𐩽𐩢𐩳𐩧

٤- 𐩣𐩩𐩽𐩨𐩬𐩽𐩺𐩵𐩲𐩱𐩡𐩽𐩨𐩺𐩬𐩽𐩣𐩡𐩫𐩽𐩢

٥- 𐩳𐩧𐩣𐩩𐩽𐩠𐩪𐩡𐩤𐩨

رب شمس بن يدع إل بين ملك حضرموت (أعلن نفسه ملكاً؟) مع أخيه إل ريم يدم ملك حضرموت، بن يدع إل بين ملك حضرموت (ليتلقب بلقبه؟).

٨٧

١- 𐩺𐩵𐩲𐩱𐩨𐩽𐩶𐩺𐩡𐩬𐩽𐩣𐩡𐩫𐩽𐩢𐩳𐩧𐩣𐩩

٢- 𐩨𐩬𐩽𐩺𐩵𐩲𐩱𐩡𐩽𐩨𐩺𐩬𐩽𐩣𐩡𐩫𐩽𐩢𐩳𐩧𐩣𐩩𐩽𐩣

٣- 𐩩𐩽𐩣𐩩𐩡𐩡𐩽𐩥𐩮𐩡𐩡𐩽𐩨𐩣𐩢𐩰𐩵𐩠𐩬𐩽[𐩱𐩬]𐩥

٤- 𐩵𐩣

يدع بن غيلن ملك حضـرموت، بن يدع إل بين ملك حضرمـوت حين (نادى بنفسه ملكاً وأعلنه؟) بحصن أنودم.

٨٨

١- 𐩧𐩨𐩦𐩣𐩪𐩽𐩭𐩺𐩧𐩽𐩱𐩪𐩵𐩬𐩽𐩨𐩬

٢- 𐩺𐩵𐩲𐩱𐩡𐩽𐩨𐩺𐩬𐩽𐩣𐩡𐩫𐩽𐩢𐩳𐩧

٣- 𐩣𐩩𐩽𐩣𐩩𐩡𐩡𐩽𐩲𐩣𐩽𐩱𐩭𐩪𐩽𐩺

٤- 𐩵𐩲𐩱𐩨𐩽𐩶𐩺𐩡𐩬𐩽𐩣𐩡𐩫𐩽𐩢𐩳

٥- 𐩧𐩣𐩩𐩽𐩠𐩪𐩡𐩤𐩨

رب شمس أمير أسد بن يدع إل بين ملك حضـرموت (نادى بنفسه ملكاً؟) مع أخيه يدع أب غيلن ملك حضرموت (ليتلقب بلقبه؟).

[illegible] بوضوح = **خير** العربية. ويبدو أنها لقب من نوع ما.

٨٩

١- [illegible] أذ نم بن أضيرم بني

٢- [illegible] طريقا محيطاً بفناء

٣- [illegible] (؟) في أنود NWD.

[illegible] اسم موجود في الثمودية؛ عرف المؤنث أذنت فقط من قبل في السبئية.

[illegible] : إن صحت قراءتي، يقـرن بالعربية **ضارَ يضـيرُ**، وباللفظة المألوفة [illegible] "حرب، عدد".

بالنسخة ، ولأن الجذر **هول** لا يعرف في غير هذه الحالة من العربية القديمة الجنوبية، ولا يوحي بأي ترجمة مرضية له، فـقد صححـت الحرف إلى [illegible] لأترجمها "بني [illegible]"؛ والأخير وصفه رودوكاناكس (*Studien*, ii, 32) بأنه "كان قد بني على السور الداخلي، أو كان يسير فوق الجزء العلوي من السور كممر يصل بين الأبراج".

[illegible] : أشعر بشك كبير نحو هذه الكلمة؛ ولكن إن صدق حدسي بأنها لفظ عربي ينبـغي أن تكون لفظة تشير إلى بنـاء، فإن المرء ربما يصححـها إلى [illegible] ويقارن بها العربية **حرا** - انظر تاج العروس: "يقول المرء نزل بحراه، يعني نزل بساحته".

ABREVIATIONS (المختصرات)

CIH= Corpus inscriptionum Semiticarum, pars quarta, inscriptiones himyariticas continens. Paris, 1889.

Conti-Rossini Clossary = C. Conti-Rossini, Chrestomathia arabica meridionalis epigraphica, pp. 99-261. Rome, 1931.

JRAS = Journal of the Royal Asiatic Society.

RES = Repertoire d'epigraphie semitique.

Rhodokanakis AST 11=N. Rhodokanakis, Altsabaische Texte 11, Wiener Zeitschrift fur die Kunde des Morgenlandes, 39, pp. 173-226.

____ Kohlan = Die Inschriften an der Mauer von Kohlan-Timna, Sitzungsberichte der Wiener Akademie, 200 (2).

——— KTB 1 = Katabanische Texte zur Bodenwirtschaft 1, Sitzungsber. d. Wiener Akad. 194 (2).

——— Studien 11= Studien zur Lexikographie un Grammatik des Altsudarabischen 11, Sitzungsber. d. Wiener Akad. 183 (3).

كشاف مفردات النقوش •

(أ) الأسـماء:

(*) في ترتيب أبجدي، بتصرف معروف في المؤلفات الأفرنجية، هو مجيء المفردات البادئة بالذال بعد الدال، والخاء بعد الحاء، والظاء بعد الطاء، والضاد بعد الصاد، والثاء بعد التاء، رغم كون الذال، والخاء، والظاء، والضاد والثاء في آخر الأبجدية. (المترجم).

(ب) الجذور، وغيرها

ملاحق الصور

بالعام وسليمان وملكة سبأ

تمثال في كاتدرائية تشارترس (تصوير بي آرثود جرينوبل)(*)

(*) لا يجوز تحديد صورة النبي سليمان -عليه السلام- بهذا الشكل التخيلي. (المراجعون).

المؤلف مع فهد ابن الأمير سعود وبندر الدويش على اليمين

٢
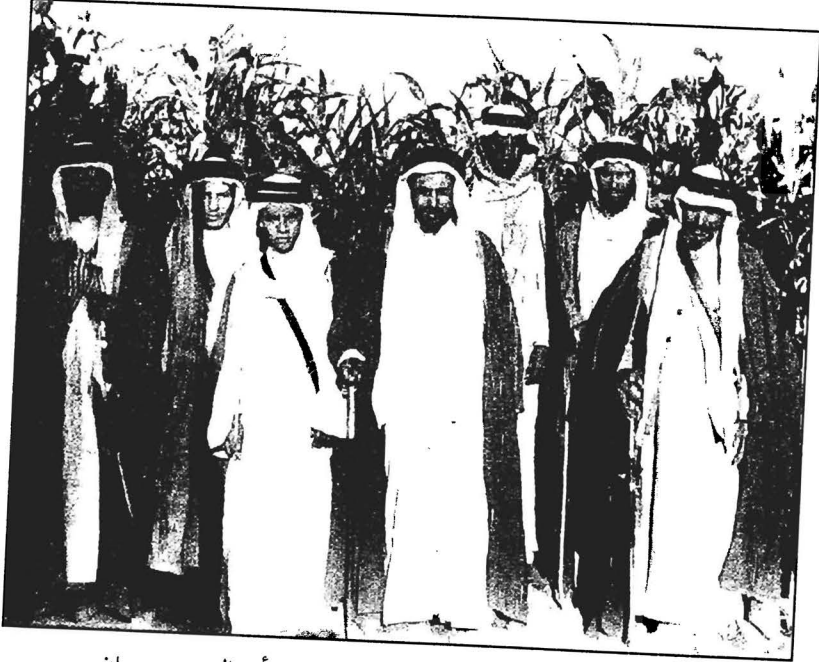
إبراهيم النشمي وجماعة أمام حقل ذرة في قصر أبي السعود بنجران
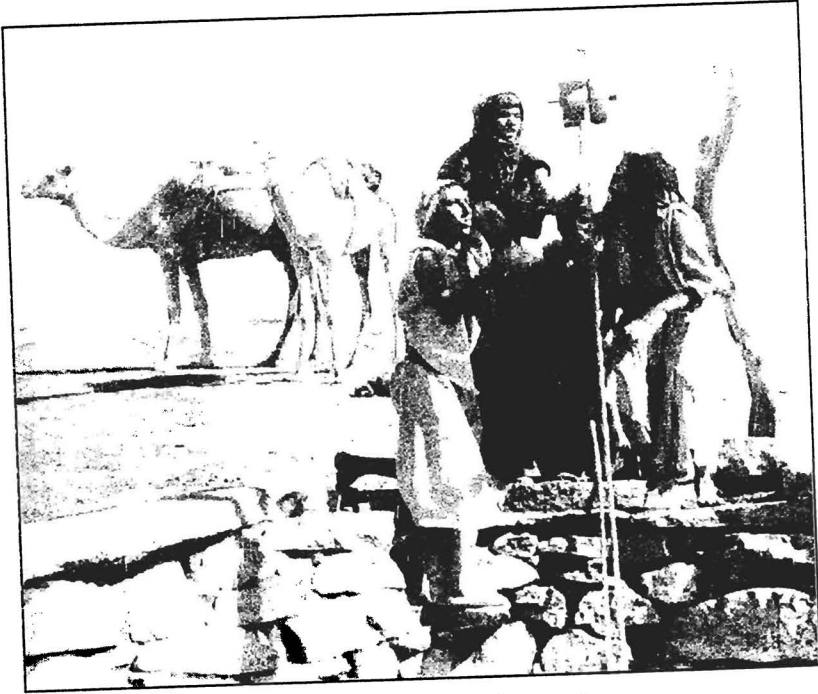
بئر الخضراء - أول مجموعة تسقي عند الفجر

خيمة ابن حدبان وعائلته في وادي الطرفاء
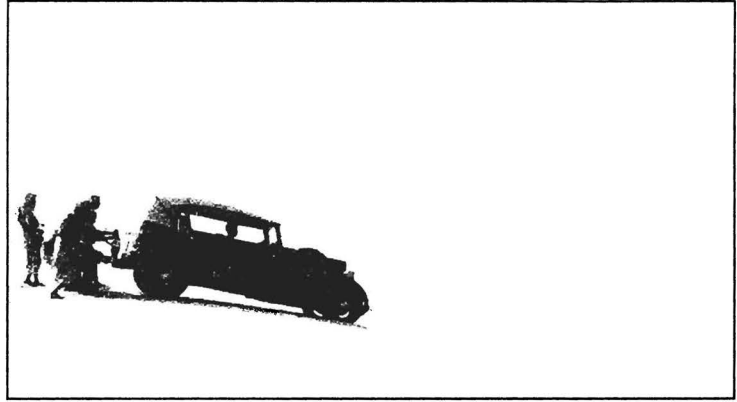
دفع السيار لتهبط من منحدر رملي في تلال السبعتين

شبوة – قرية هجر ، باتجاه الجنوب
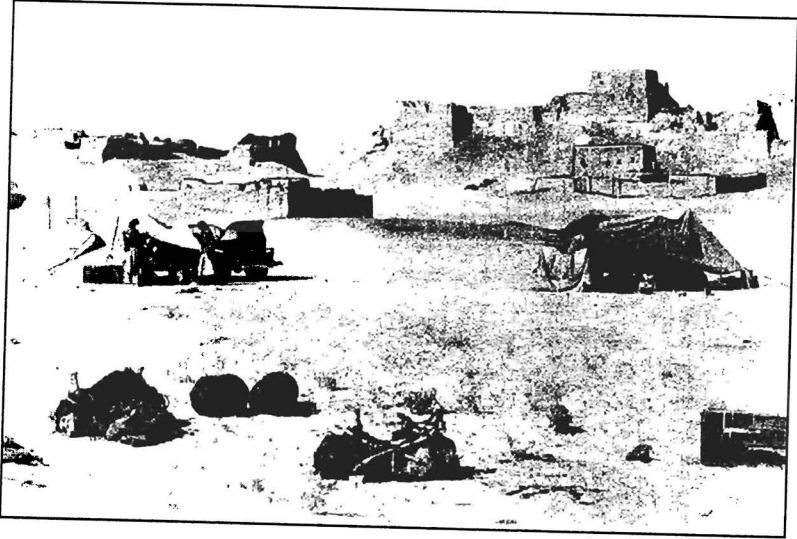
المخيم أمام قرية هجر ، شبوة

معبد عشتار في شبوة – قواعد أعمدة

مسجد مثنة في شبوة

سور قصر قديم في هجر - شبوة
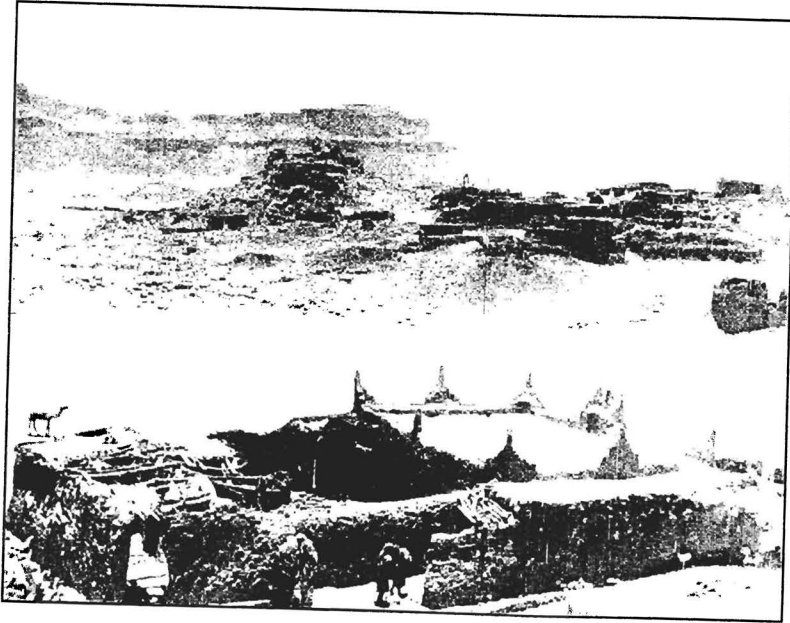
مسجد هجر والقلعة خلفه في شبوة
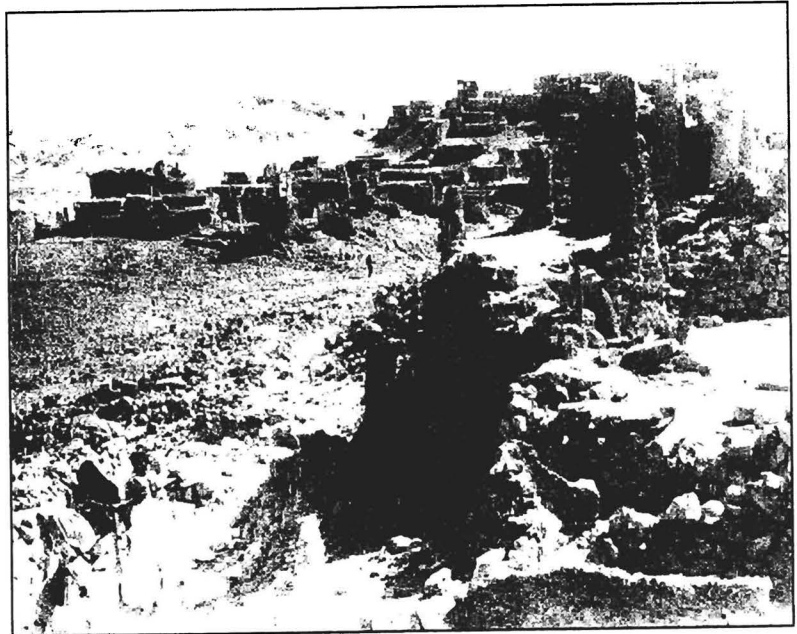
هجر من منظر من قلعة شبوة

بقايا مبنى قرب السور الغربي لشبوة

بئر ديبان في وادي معشر ، شبوة
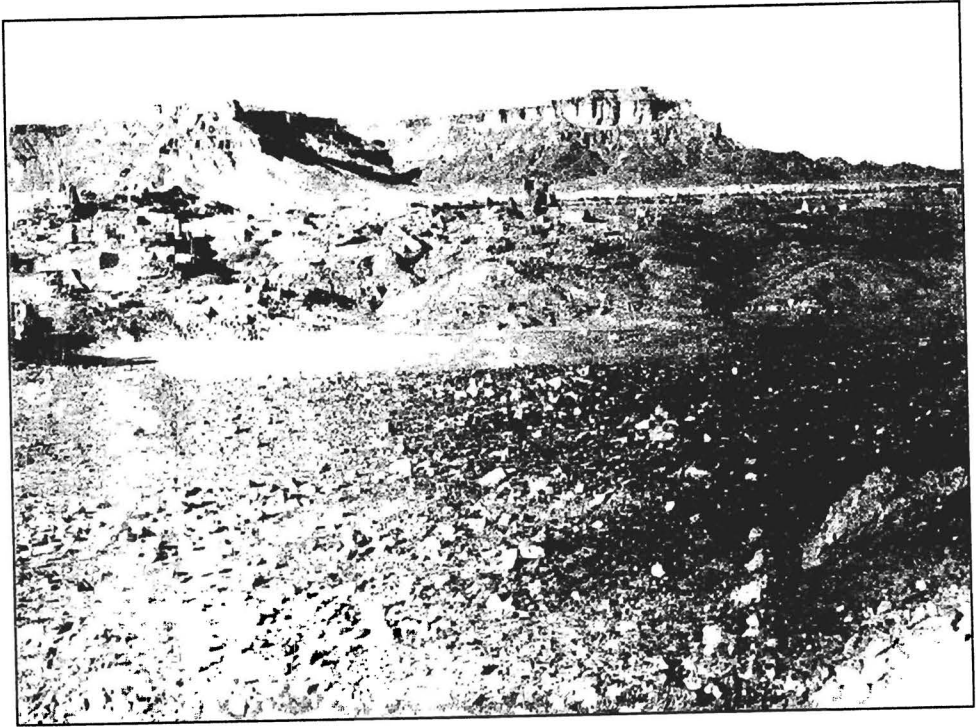
منظر عـام للآثـار في شـبوة
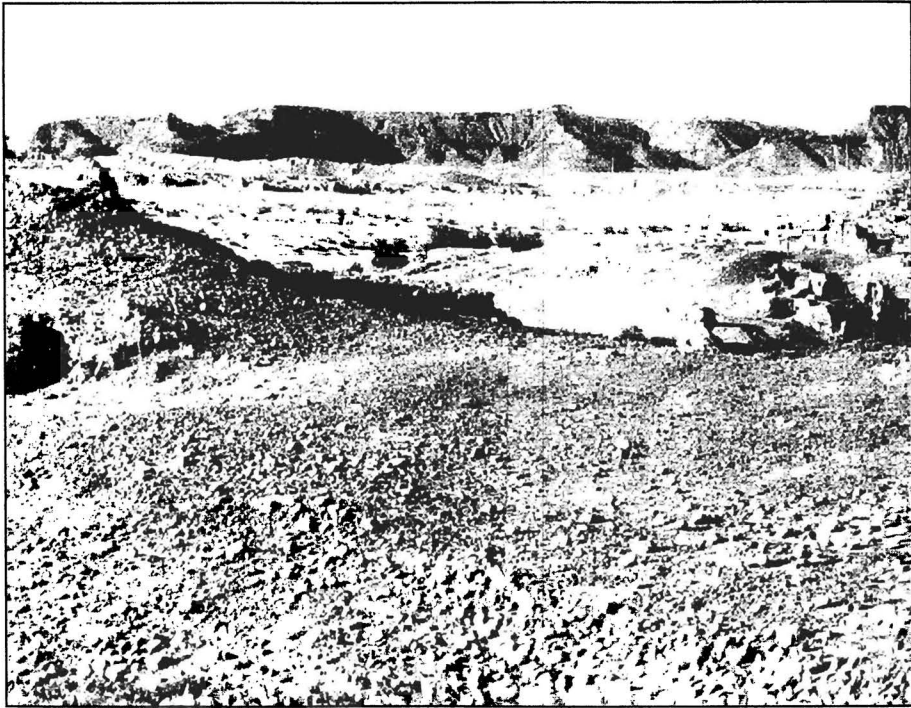
من الجنوب للغرب من سنقار
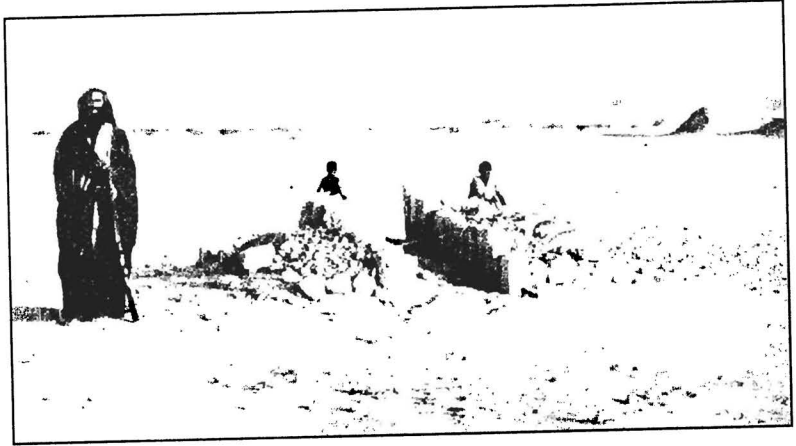
آثار عقم بالقرب من شبوة قنوات ري

داخل منجم مغيرة للملح - شبوة
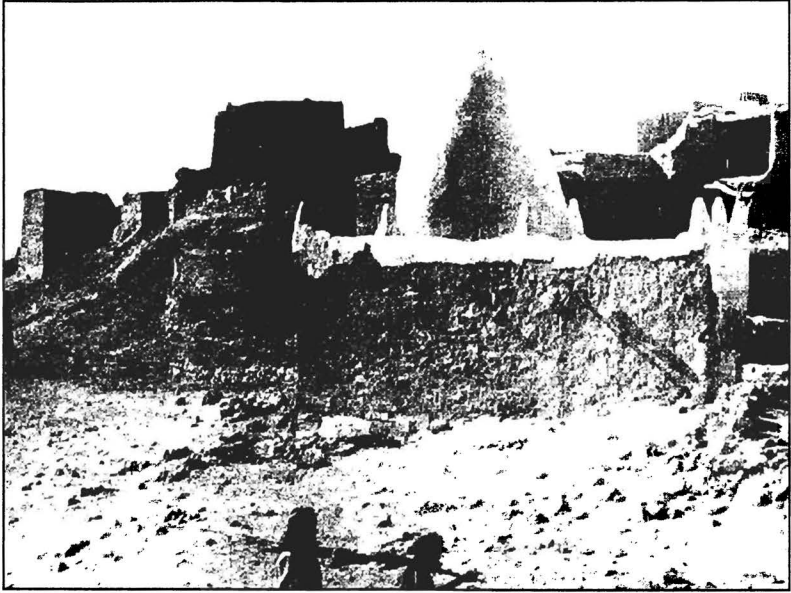
ضريح محمد بن بريك - شبوة
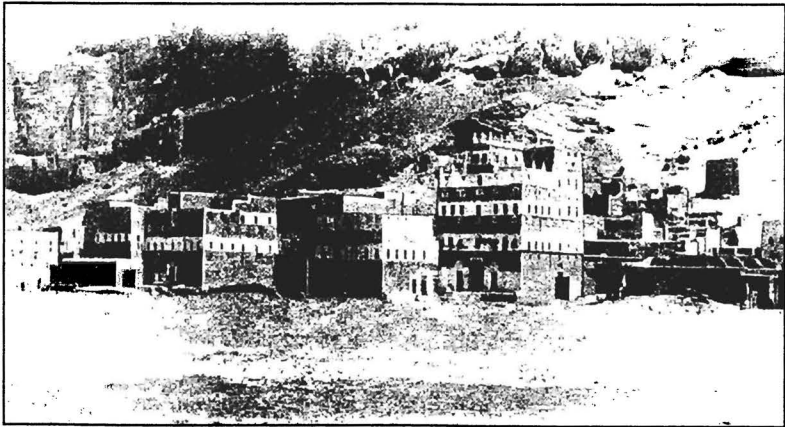
قرية هينن عند مدخل وادي حضرموت
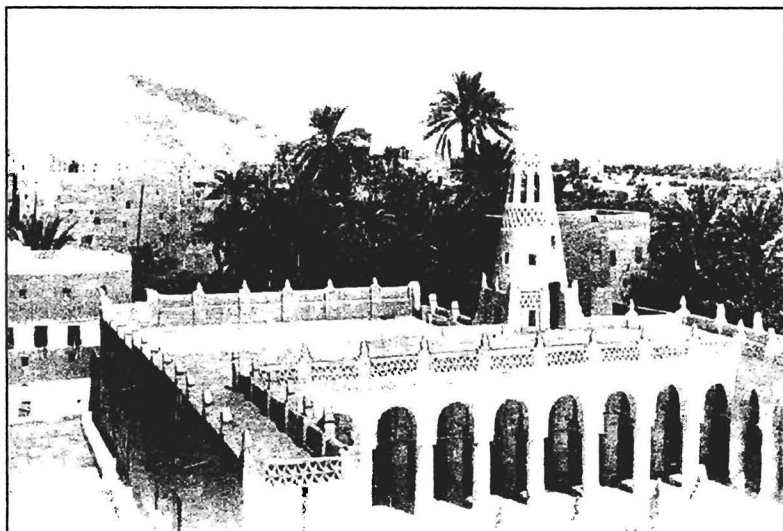
مسجد القطن، وادي حضرموت

بنات السلطان علي بن صالح في القطن
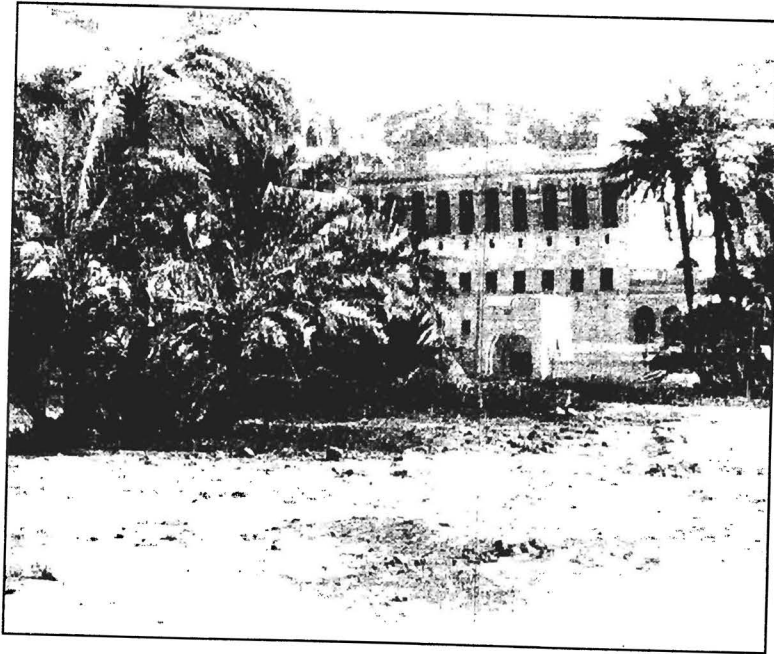
أحد بيوت آل الكاف في تريم
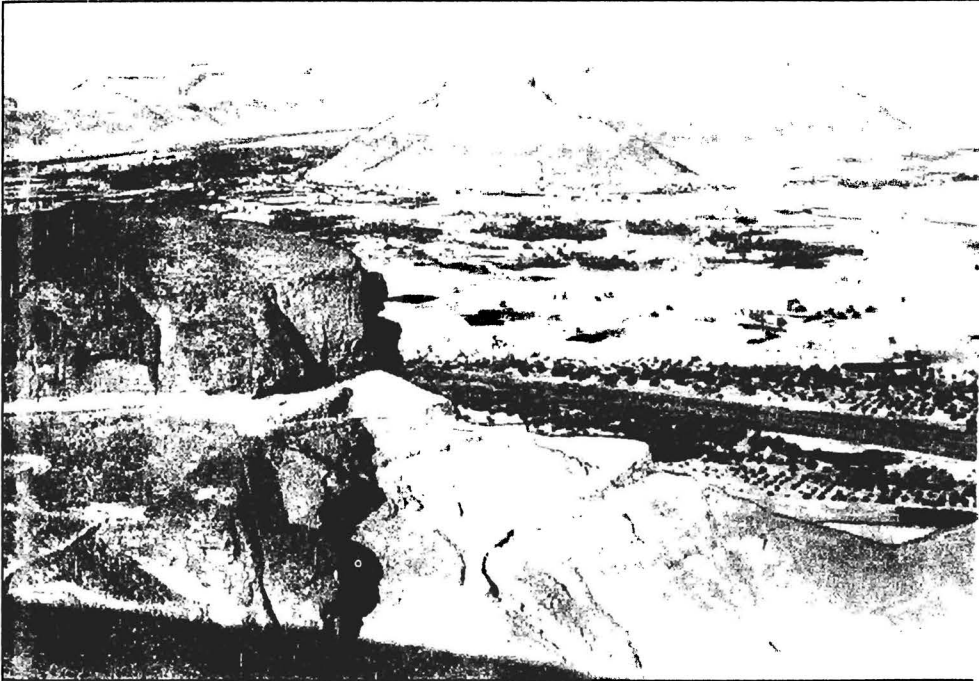
الطريق إلى العقبة قرب تريم

واحة المعدي - بالقرب من المحيط الهندي

الصندل (نوع من المراكب في طريقه إلى الباخرة (كاوسجي) في الشحر

البوابة الغربية وسور المدينة من الشحر
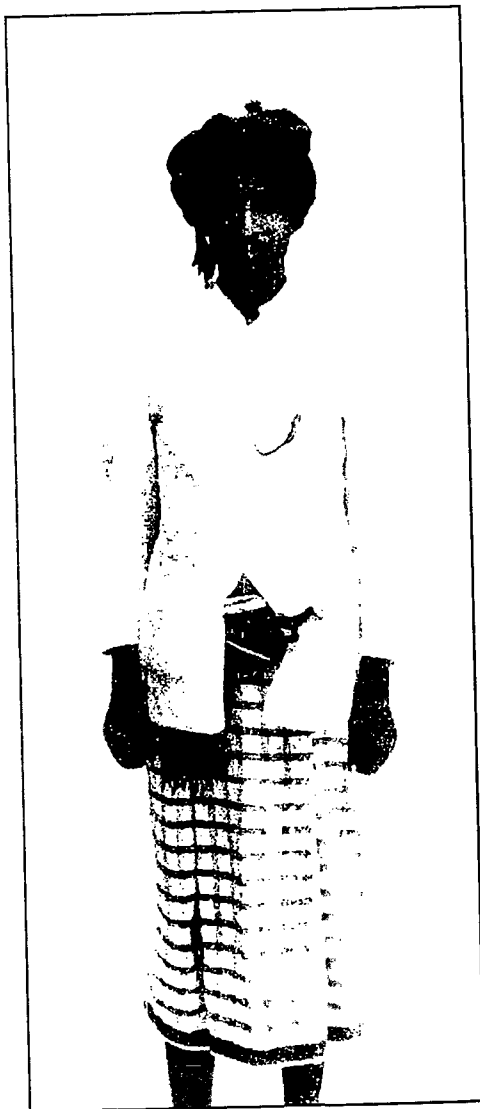
أحمد ناصر البطاطي - حاكم المكلا

وادي عشرة أثناء السيول

الصويري والريضّة - تطل على صدع قرب تريم

تريم - سيد عبدالرحمن آل كاف مع أعضاء البعثة العلمية المصرية

قرية ربيعة وتل عُرف الديك

بئر الجديرة

سحلال والمخيم من الشرق

رجل وولده مع ثلاث إبل قابلونا في الصحراء قرب الواديان
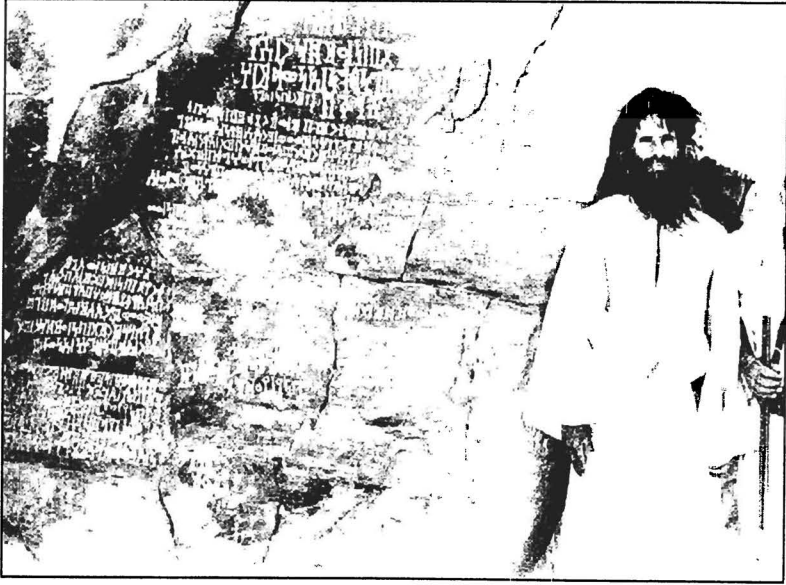
نقوش على صخرة قلعة قديمة في عقلة الناصية الجنوبية ويظهر الشيخ صالح الحذيق من شبوة

قلعة عقلة الصخرية من الغرب

آبار أجفر الرخم في وادي أنصاص

الاستقبال في عياذ
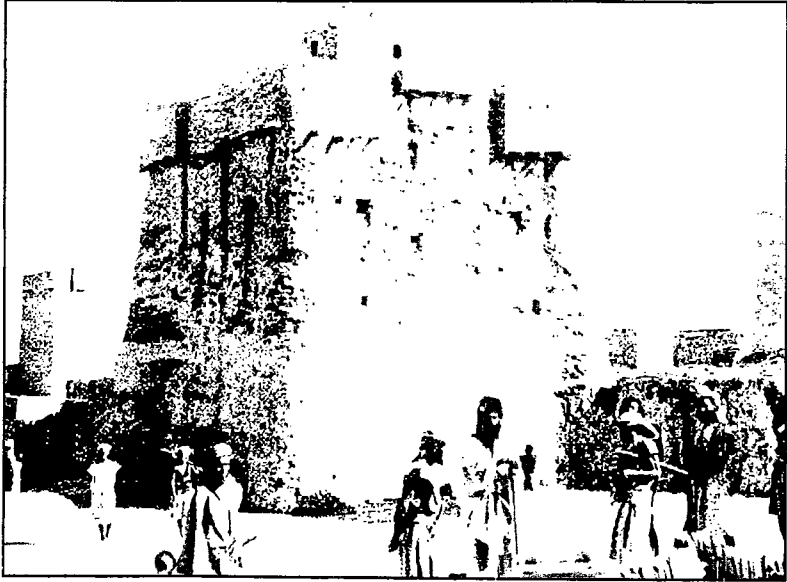
البئر والحصن الرئيس في عياذ
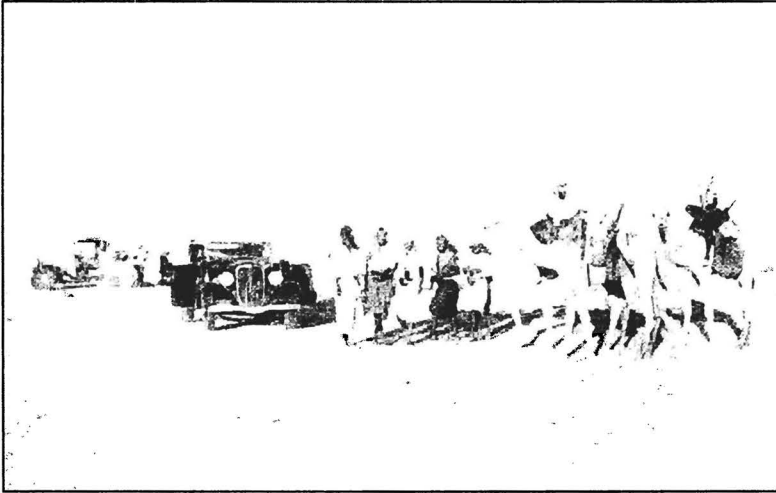
السيارات والإبل تتقابل في صحراء خرَجَ

داخل فوهة البركان - تل الكرش

وادي مرخة - بقايا سدود ري قديمة
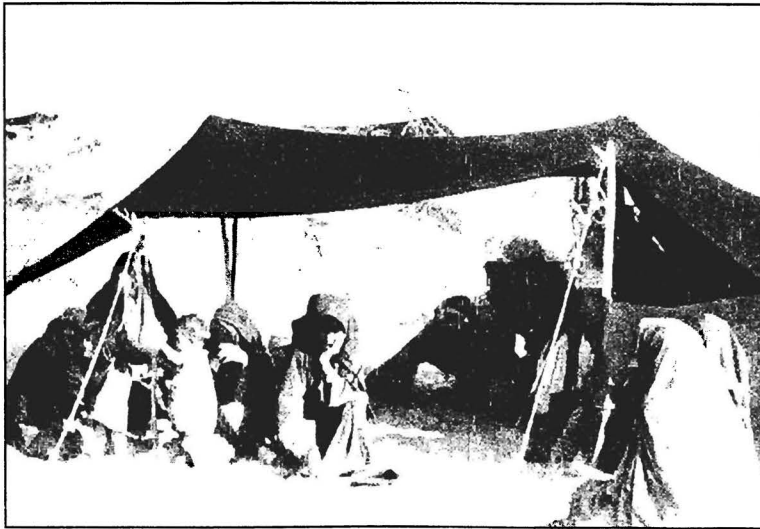
استقبال مُحسنة - في المخيم في وادي أنصاص

أضرحة أفاليل – الصحن والمحراب من الشرق
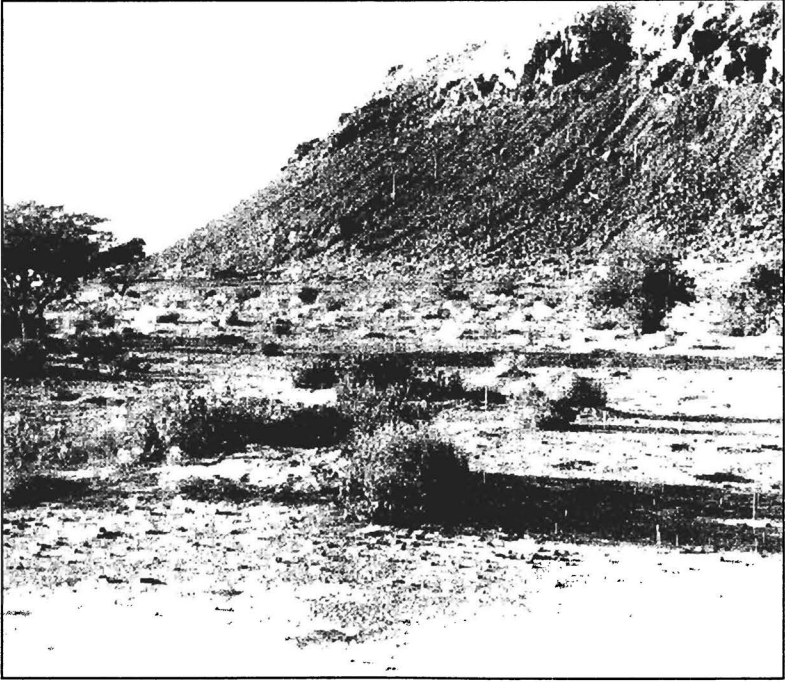
المخيم في حرة الثنية – النظر عبر فجوة الثنية من الجنوب

صالح الحذيق فوق قمة الثنية في اتجاه شمال غرب
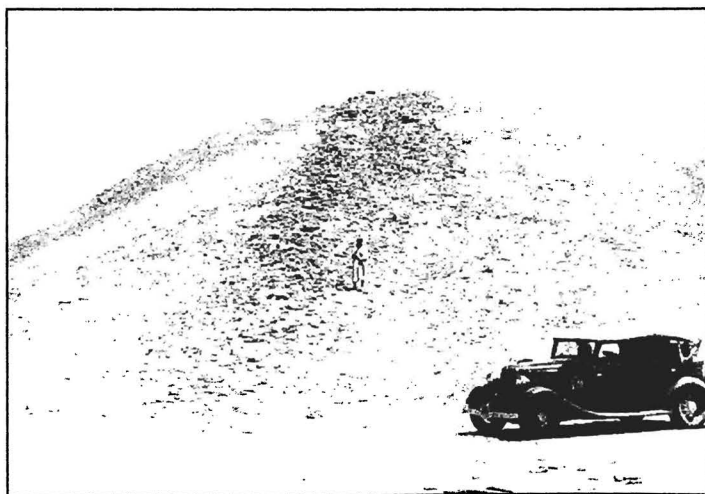
رابية فوقها طريق مسوّر عند طرف الرويك
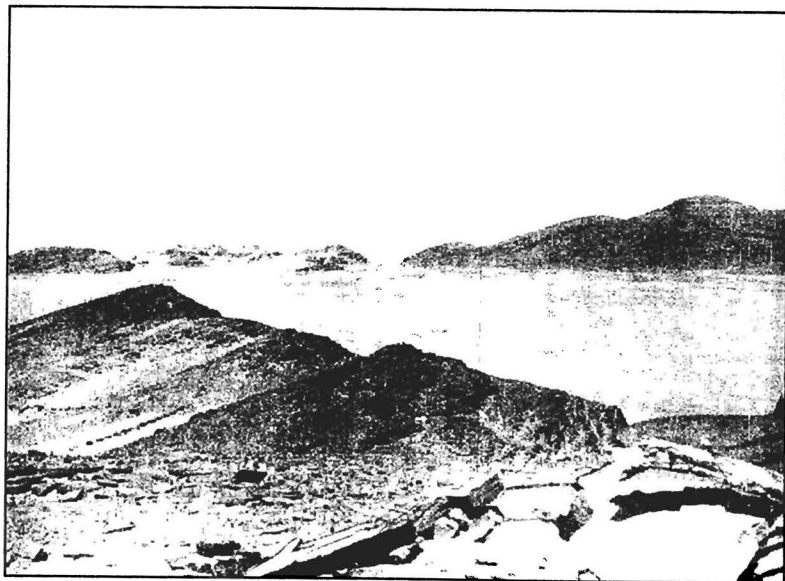
سلاسل تلال الرويك
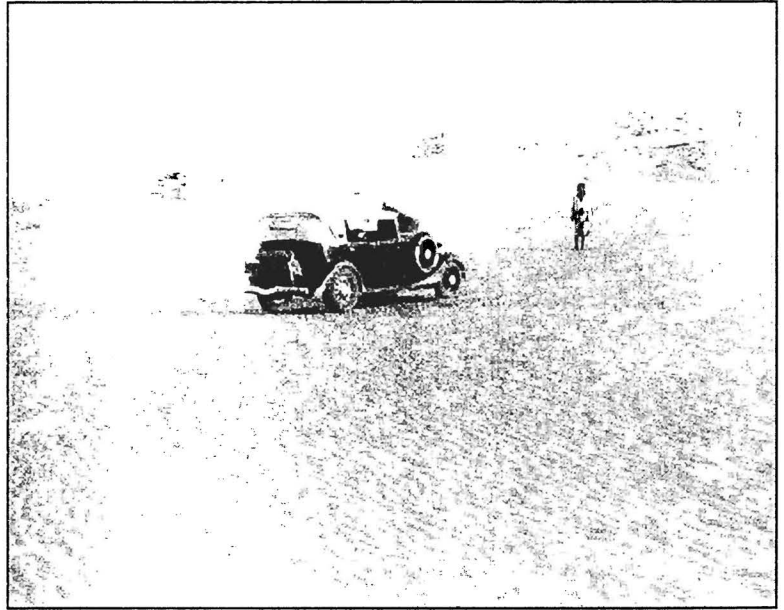
قبور على سلسلة تلال العلم الأبيض

أحد قبور العلم الأبيض

«جيشي» عند آبار مسعودة
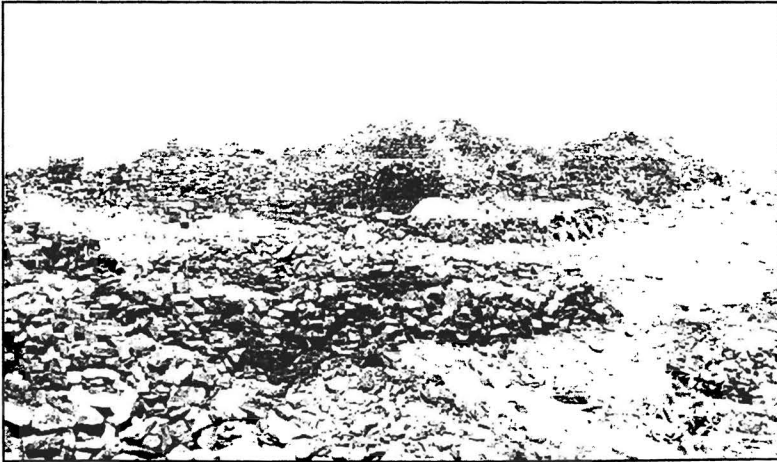
آثار فضية – النظر شمال– غرب من الركن الجنوبي الشرقي

قلعة السحيل من الداخل من الجنوب

آثار خربة أبي السعود - النظر جنوب- شرق على طول السور الشرقي من الداخل
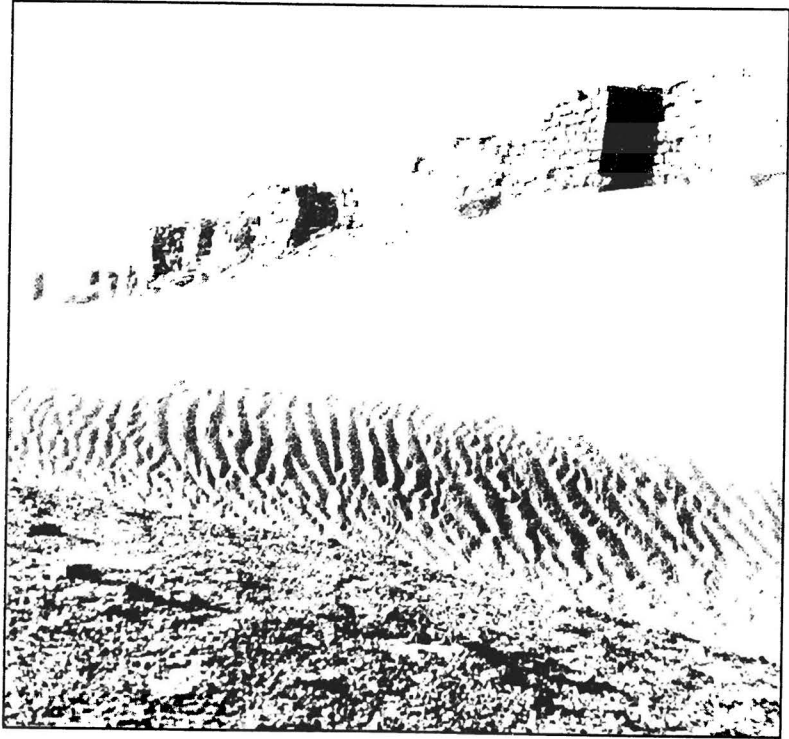
السور الغربي لخربة أبي السعود – النظر شمال – غرب

خربة أبي السعود: ابن حدبان بجوار مذبح حجري في المعبد
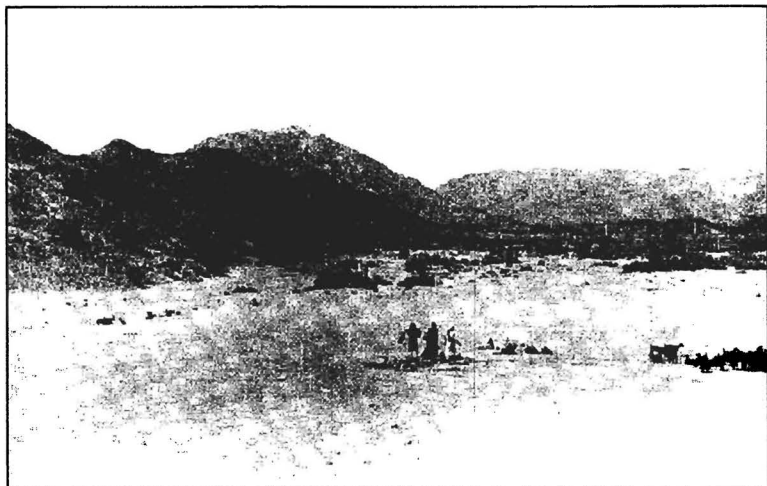
بئر بوع وجبال الأحمر في الخلف

تلال أوبن
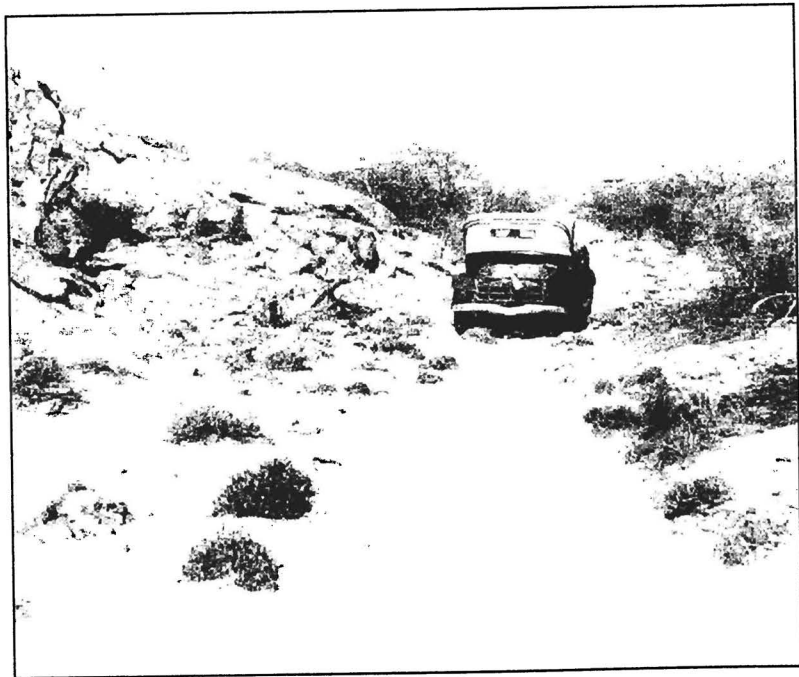
شعيب أم الذياب

سلسلة تلال هريرة وكثبان عرق القورة

بئر الخضراء في منتصف النهار

الكشـاف

كشاف الأعلام

(أ)

(ب)

(ت-ث)

(ج)

(ح)

(خ-د-ذ-ر-ز)

(س)

(ش)

(ص، ض، ط)

(ع - غ)

(ف)

(ق)

(*) لم يتم تكشيف اسم فيلبي إلا إذا ورد صريحاً، أما روايته لرحلته في الكتاب فهي تضم الكتاب كله.

(ك ـ ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(و - ي)

كشاف الأماكن

(أ)

(ب)

(ت ـ ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د-ذ)

(ر-ز)

(س)

(ش)

(ص-ض)

(ط-ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك-ل)

(م)

(هـ)

(و)

(ي)

الطرق في جنوب غرب الجزيرة العربية
مأخوذة من مخططات وضعها سانت جون فيلبي عام ١٩٣٦
تم تعديل الحدود والفواصل لتلائم خطوط العرض التي وضعها المؤلف
وحددت خطوط الطول بالنجوم والإشارات وبالأوضاع المقبولة لشهر وتاريم وشيبام
49
H A D H R A M A U T
Q U ' A I T I
A L J A B I R
Shibam
Mukalla
G U L F O F
A D E N
Jidfar
Al Aqm
Abal Salam
Marwan
Mathnai
Hajar
Qarat al Milh
أطلال مدينة شبوة
مقياس الرسم ١ : ٢٠,٠٠٠
Metres